



تاريخ جودت

تأليف العلامة المؤرخ

أحمد جودت باشا

تحقيق

د. عبد اللطيف بن محمد الحميد

تعريب

عبد القادر أفندي الدنا

تنفيذ وإخراج

سيد مرسي

الرياض

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين؛ وبعد:

فلا تزال المكتبة العربية بحاجة إلى المزيد من الدراسات المتخصصة في التاريخ العثماني؛ نظراً لأهمية هذه الحقبة التي استمرت أكثر من خمسة قرون، في كشف مضامين تاريخنا الحديث والمعاصر في الجزيرة العربية والعالم العربي والإسلامي. ويقف في مقدمة الدراسات المتخصصة المصادر الأصلية التي لا تتوافر لدى المؤرخين وباحثي التاريخ؛ إما لندرتها، أو كتابتها بلغة أخرى غير العربية، أو فقدها.

من هذا المنطلق تبرز أهمية كتاب تاريخ جودت بأجزائه الاثني عشر، وخاصة الجزء الأول الذي تم نقله من التركية إلى العربية قبل أكثر من مائة عام وبالتحديد سنة ١٣٠٨هـ - ١٨٩٠م. وظلّت النسخة متوارة عن الأنظار طيلة هذه المدة في بعض المكتبات الخاصة.

والعالم المؤرخ الوزير أحمد جودت باشا، صاحب مواهب متعددة ومؤهلات متنوعة جمع بين العلم والإدارة والسياسة، فألف في شتى العلوم نحواً من ثلاثين مؤلفاً، وتولى أكثر من خمسة عشر منصباً علمياً في القضاء والمجامع العلمية، وعشرين منصباً إدارياً، ووزيراً وصدراً أعظماً ووالياً.

ومن أبرز آثاره التاريخية مؤلفاته المتعددة في التاريخ العثماني وتاريخ الدول الإسلامية. ومنها: تاريخ جودت، ومعرضات، وتذاكر، وقصص الأنبياء وتواريخ الخلفاء، وتاريخ القرم والقوقاز، وترجمة بعض فصول مقدمة ابن خلدون والتعليق عليها.

وأما آثاره العلمية الأخرى، فيأتي في مقدمتها مجلة الأحكام الشرعية وخلاصة البيان في جمع القرآن، والتعليقات على الشافية، وترجمة الترهيب والترغيب للإمام المنذري، ومدخل القواعد العثمانية، وآداب السداد في علم الآداب، وغيرها.

ولم تبرز ظاهرة الاهتمام بهذه الشخصية في تركيا أو البلاد العربية إلا بعد سنوات طويلة من وفاته سنة ١٣١٣هـ-١٨٩٥م. فقد قدّمت الباحثة التركية أميد مريج يازان، رسالتها للدكتوراه سنة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، في إستانبول في موضوع آراء جودت باشا في الدولة والمجتمع.

وفي سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، أقام مركز الأبحاث التاريخية بكلية الآداب بجامعة إستانبول ندوة تاريخية بعنوان «ندوة أحمد جودت باشا». تناول فيها ثلاثة عشر باحثاً ومتخصصاً الجوانب العلمية والتاريخية والفكرية لشخصية جودت باشا.

وفي البلاد العربية، تقدمت الباحثة المصرية ماجدة صلاح مخلوف، برسالتها للدكتوراه في كلية الآداب بجامعة عين شمس بعنوان «معرضات أحمد جودت باشا دراسة وتحقيق وترجمة إلى العربية» سنة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. ثم تقدمت الباحثة المصرية وفاء أحمد قطب، برسالة ماجستير بعنوان «فكرة الإصلاح في تذاكر أحمد جودت باشا» في الجامعة نفسها سنة ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

ونشر الجزء الأول من تاريخ جودت الذي يعدّ أهم أجزاء هذا التاريخ، محاولة جديدة من الباحث لتزويد المكتبة العربية وقراء العربية برافد مصدري مهم في الدراسات التاريخية العثمانية والعربية.

وقد سلك الباحث في دراسة الموضوع منهج التحقيق في إلقاء الضوء على مؤلف الكتاب، وموضوع كتابه، ومنهجه فيه، ومنهج التحقيق. وعلى هذا الأساس تم تقسيم الجزء المحقق إلى قسمين: القسم الأول بعنوان أحمد جودت باشا: حياته وآثاره وفكره ودراسة لكتابه تاريخ جودت. والقسم الثاني ويشمل النص المعرب للجزء الأول مع التعليقات والهوامش.

ويعرض القسم الأول الموضوع في أربعة مباحث: المبحث الأول عن حياة جودت باشا وآثاره التاريخية والعلمية، والمبحث الثاني عن الأوضاع السياسية والفكرية في عصر المؤلف، والمبحث الثالث عن منهجه وفكره الإصلاحي. والمبحث الرابع في منهج المؤلف في كتابة التاريخ ودراسة لكتابه وتحليل مادته وبيان مصادره.

وفي ضوء ذلك تمت مقابلة النص المعرب مع النص الأصلي للكتاب باللغة التركية ذات الحروف العربية، مع شرح الألفاظ العامية في النسخة المعربة، والتعريف ببعض المصطلحات والمواضع والبلدان، وترجمة الأعلام الذين ورد ذكرهم في النص، وتخريج الأحاديث النبوية وعزو الآيات القرآنية إلى مواضعها في المصحف الشريف. كما لزم الأمر أحياناً الربط بين أجزاء الموضوعات بوضع عناوين جانبية أشير إليها في الهامش أنها من وضع المحقق. وفي نهاية الكتاب تم وضع فهرس تفصيلية للأعلام والمواضع والبلدان.

وقد أثبت الباحث من خلال الدراسة والتحقيق صحة نسبة تعريب الجزء الأول إلى المترجم عبد القادر أفندي الدنا لا إلى غيره كما زعم بعض الباحثين. وقدّم الباحث دلائل جديدة تشير إلى الدور الرائد لأحمد جودت باشا في سياسة

الجامعة الإسلامية التي تبناها السلطان عبد الحميد الثاني . هذه الدلائل تسدل الستار على المزايم المتكررة بريادة جمال الدين الأفغاني لهذه السياسة .

كما أبرزت الدراسة بعض الآراء الجديدة لجودت باشا والتي لم يسبقه إليها أحد، وفي مقدمتها تصنيفه لحقب التاريخ وأدواره . إضافة إلى عرض وتحليل ونقد لمجمل المعلومات والمضامين الواردة في الكتاب .

والله الموفق؛

د . عبد اللطيف بن محمد الحميد

الرياض ١٥-٥-١٤١٧هـ

مقدمة الطبعة الأولى (١٣٠٨هـ - ١٨٩٠م)

بقلم المترجم عبد القادر أفندي الدنا

رئيس محكمة تجارة بيروت

سبحان من أتقن العوالم بحكمته . وأبرزها بقدرته على وفق مشيئته . وجعل في طوارق الحدثان أعظم تذكره . وأودع في الآثار والأخبار أبلغ عبرة وتبصرة . والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الأعظم سيدنا محمد الذي تتعطر بأخباره مشام الأرواح . ويحيا بذكر سيرته النبوية رميم الأشباح . وعلى آله وأصحابه الذين هم خير الناس بعده . وأقرب المقربين عنده . وبعد فيقول فقير رحمة ربه . عبد القادر بن مصطفى الدنا البيروتي لما حظيت سورية بحضرة المرحوم الحاج ناشد باشا وجاءها والياً عليها أيام كونها مع بيروت إيالة واحدة . وولاية أحكامها متحدة . كنت ممن اجتذبهم بعواطفه . وقادهم بأزمة عوارفه . وعندما يأتي إلى بيروت كنت أتردد بأمره المطاع إلى مجلسه الشريف فجتلى في حضرته أنوار المذاكرة . ونجنتي نوار المحاضرة وفي بعض الليالي جرى ذكر تاريخ حضرة الوزير الشهير العلامة دولتو جودت باشا وما نظم في سلوكه من الفرائد . وأودع صفحاته من الفوائد . وفي أثناء ذلك أشار - رحمه الله - إلى شدة رغبته في ترجمته باللغة العربية لتكون منافعه عامة . وإفاداته تشترك فيها الخاصة والعامة . فتجاسرت بين يديه . ووعدت بامثال أمره فيما أشار إليه . والقيام بما كان يتمناه ويرغب فيه . فارتاح لذلك - طاب ثراه - . وانشرح صدره لهذا العمل الموعود به على حسب مبتغاه . وهذا التاريخ كما لا يخفى على من طالعه قد اشتمل على الكثير من وقائع الزمان . والجم الوافر من الحوادث التي دار بها الدوران . فهو جدير بأن تجتني أثماره . وتقتبس في مجامع الأدباء أنواره .

ومن أجل ما اشتمل عليه أخبار الدولة العلية العثمانية . وما لها من المآثر

السنية الخسروانية. والسير الحميدة. والمبرات العديدة. وما تجشمته من الحروب الهائلة الجسيمة. وما نالته بقوتها من الفتوحات الباهرة العظيمة. والانتصار الخارق للعادات والتأييد الإلهي الذي سار ذكره في سائر الأقطار والجهات إلى غير ذلك مما تطرب بسماحه النفوس، وتزدهي بكتابه الطروس.

ولا شك أن حوادث القرون الأخيرة. حرية بالمطالعة جديرة. وذلك لتشوف الأفكار عادة وطبعاً إلى استكشاف الأمور. واستفسار ما كان حديث عهد في الأقاليم والأقطار.

وفي سنة ١٣٠٥ هجرية، شرعت فيما به وعدت. وندبت لذلك بعض المترجمين. ممن لهم معرفة باللسانين. وبعد أن طالعت ما ترجموه. وأمنت النظر فيما كتبوه. وجدت كلاً منهم حاد عن المراد. وكتب كما أراد. وبناء عليه أوقفت العمل. وأخرته إلى أجل. وفي أثناء ذلك دُعيت إلى دار السعادة بإرادة سلطانية. للقيام بخدمة سياسية. وفي مدة إقامتي هناك قابلت ما كان ترجم بالأصل. فأصلحت منه ما اختل. وصححت من عباراته ما اعتل. وبعد أن ابت إلى الوطن. بعد برهة من الزمن؛ تجدد الباعث، فشرعت في تميم ما عليه عزمت. وتوليت أمر الترجمة بنفسني مع علمي بقصر باعي في هذه الصناعة. واستمحت في ذلك معونة جماعة من الفضلاء العالمين بأساليب الترجمة، ثم طراً ما عاقني عن الإتمام. ومنعني من الوصول إلى نهاية المرام. فبقي ما ترجمناه زماناً وهو متوار. وزنده غير وار. ولما زال ذلك المانع. رجعت إلى ما كنت بصده في أيمن وقت وأسعد طالع. وصرفت الوسع في مناظرة الأصل على رتبة المقابلة. ووازنته بمقيار الموازنة والمماثلة. واستعملت العبارات الاصطلاحية. والألفاظ المألوفة العادية. لتعم فائدته. وتشمل عموم الناس عائدته.

ولما انتهيت في الترجمة إلى آخر الجزء الأول طبعته. بعد أن هذبته وصححته. فظهر بفضله تعالى للعيان على مثال أصله في أسلوب بهي وترتيب بالقبول حريّ.

فأرجو ممن وقف عليه من أهل هذا الشأن. وفرسان هذا الميدان. أن يسيطروا إليّ في ذلك عذراً. ويسبلوا على ما فيه من القصور سترًا. وليعلموا أنني لم أتجشم هذا الأمر الخطير إلا رغبة في خدمة هذا التاريخ، المطرزة بروده بأخبار السلاطين العظام. والخواقين الفخام. ساداتنا وموالينا آل عثمان. أسكنهم الله فراديس الجنان. وإظهاراً لصدق عبوديتي وإخلاصي لولي نعمتي ونعمة جميع العثمانيين، العائشين في ظل حمايته وبحبوحه أمنه ورعايته، حضرة خلفهم السعيد ووارثهم الوحيد سيدنا ومولانا أمير المؤمنين صاحب الخلافة العظمى والسلطنة الكبرى، السلطان بن السلطان الغازي عبد الحميد خان، ابن السلطان الغازي عبد المجيد خان بن السلطان الغازي محمود خان الذي هو واسطة عقدهم، ورافع راية مجدهم، ووارث عظيم سؤددهم. نسأله تعالى أن يمدّه بالتمكين والنصر. ويجعل ذاته الشريفة فوق كل ذات، وعصره فوق كل عصر. وأن يمتع المسلمين وسائر العثمانيين بطول بقائه. ودوام اعتلائه. ما طلع نهار. وسار في مناكب الأرض سار. آمين.

ترجمة حال حضرة صاحب الدولة جودت باشا

مصنف هذا التاريخ النفيس

بقلم المترجم: عبد القادر أفندي الدنا

هو حضرة الوزير الخطير، سائر الذكر، وافر الفخر، العلامة دولتو أحمد جودت باشا بن إسماعيل بن علي بن أحمد بن إسماعيل، ولد - أبقاه الله - في قسبة لوفجه^(١) من ولاية الطونة^(٢). وكان والده من وجوه بلدته ومن أعضاء المجلس فيها وكان جده الأعلى إسماعيل مفتياً في وقته بها.

أخذ - دام عزه - العلوم في عنفوان عمره عن علماء بلده، وفي أيام سلطنة حضرة السلطان محمود خان، جاء إلى دار السعادة وتلقى عن علمائها علوماً جمة منها الفقه وأصوله والحديث والتفسير وعلم الكلام والمنطق وعلوم الحكمة واللسان الفارسي، وألف تأليف كثيرة، وقال الشعر بالأسنة الثلاثة العربية والتركية والفارسية، ومن تأليفه هذا التاريخ الجليل الذي لا محالة أنه يتأيد به فخره، ويتخلد بما اشتمل عليه من الفوائد ذكره.

وكتب في عنفوان شبابه تعليقات مفيدة على شافية ابن الحاجب، يستخرج من خاتمتها تاريخ ولادته.

ودخل في سلك القضاء بالامتحان، وفي سنة ١٢٦٠هـ، تولى منصبه وفي ١٢٦١هـ توجهت عليه رتبة رؤس تدريس^(٣).

١- قسبة فولجة: مدينة عثمانية تبعد عن صوفيا - عاصمة بلغاريا حالياً - بمقدار ١٣٠ كيلاً. وقد اضطرت معظم أهلها آنذاك إلى الهجرة خوفاً من الهجوم الروسي. انظر: شمس الدين سامي، قاموس الأعلام تاريخ وجغرافيا لغاتني وتعبير أصله كاه أسماء خاصة بي جامعدر، إستانبول، ١٣٠٦هـ، ج٦، ص ٤٠١٧.

٢- ولاية الطونة: الطونة نسبة إلى نهر الدانوب. وهي إحدى الولايات العثمانية الأوربية. المرجع السابق ٣٠٢٨/٤.

٣- أي نال براءة رتبة التدريس. انظر: محمد علي الآسي، الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، إستانبول، ١٣٢٠هـ، ص ٢٧٦.

وفي سنة ١٢٦٦هـ، عين عضواً في مجلس المعارف العمومية، وأحسن إليه بالنشان العالي المرصع من الرتبة الثالثة ثم أضيفت إلى منصبه رئاسة دار المعلمين فنظم أحوالها وقام بما يشترط على الطلبة فيها ورتب جداول دروسها.

وفي سنة ١٢٦٧هـ انتخب وعين عضواً في مجلس المعارف الداخلي الجديد. وفي سنة ١٢٧١ ولى القضاء بغلطه^(١) وفي أوائل سنة ١٢٧٣ توجهت عليه باية^(٢) مكة المكرمة وفي أواسطها عين عضواً في مجلس التنظيمات العالي. ثم صار رئيساً لقوميسيون الأراضي الذي انعقد لأجل تنظيم قوانين الأراضي ونظاماتها. وكان وقتئذ شرواني زاده رشدي باشاً أحد المدرسين من أعضاء هذا القوميسيون المذكور المنعقد لأجل تنظيم قانون الأراضي، وكان أكثر ما فيها من المسائل مع النظامات السائرة المندرجة في الدستور بقلم صاحب الترجمة.

وعندما توجه الصدر الأعظم محمد باشا القبرسلي للروم إيلي^(٣) لأجل مناظرة تلك الجهات كان في معيته وبعد رجوعه توجهت عليه باية استانبول وذلك في سنة ١٢٧٧ وفي أثر ذلك أحسن إليه بالنشان المجيدي^(٤) من الرتبة الثانية وفي محرم سنة ١٢٧٨ تقرر الغاء مجلس التنظيمات وأحيلت وظائفه لمجلس الأحكام العدلية العالي وعين صاحب الترجمة عضواً في هذا المجلس وفي تلك الأيام ظهر اختلال وتشويش في اشقودره^(٥) فأمر بالتوجه إليها بمأمورية فوق العادة وبعد أن أصلح في مدة قليلة خللها وأزاح عللها رجع.

-
- ١- غلطة: أحد أحياء العاصمة إستانبول، يقع في الجانب الأوربي على ضفاف خليج القرن الذهبي، وتتركز فيه التجارة الأوربية. قاموس الأعلام ٣٢٨٣/٥.
 - ٢- باية: كلمة فارسية بمعنى رتبة ومنزلة، وتعني هنا أنه منح منصباً شرفياً تحت مسمى باية مكة المكرمة، الدراري اللامعات، ص ١٤٥.
 - ٣- روم إيلي: (وتكتب: الروملي) أول وأكبر إقليم للعثمانيين في أوربا ومركزه مدينة صوفيا. وواليها يطلق عليه بيلربي برتبة وزير. انظر: حسين مجيب المصري، معجم الدولة العثمانية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٧، ص ٧٩.
 - ٤- نشان: كلمة فارسية بمعنى العلامة والأثر، وأطلقت على الوسام في عهد السلطان محمود الثاني. وهذا النشان على عدة أنواع، منها مجيدية نشاني، وعثماني نشاني، ولكل واحد منها رتب ودرجات مختلفة. المرجع السابق، ص ٢٢٠.
 - ٥- أشقودره: ولاية عثمانية في الروملي (الجانب الأوربي) علي بحر الأدرياتيك، نصف سكانها من المسلمين والباقي من النصارى، ويوجد بها ستة أقضية يتبعها مجموعة من النواحي والقرى. قاموس الأعلام ٩٩٨/٢.

وفي أواخر سنة ١٢٧٩هـ عين مفتشاً في بوسنة وهرسك وفي أوائل سنة ١٢٨٠هـ قبل سفره توجهت عليه باية قاضي عسكر الأناطولي^(١) وأحسن إليه بالنشان المجيدي من التربة الأولى.

ثم سافر وأقام هناك نحو السنة ونصف أجرى فيها ما أمر به على أحسن وجه وأكماله ووفق لتنظيم العسكرية في تلك القطعتين ومهد أمورهما بعد أن كانتا خاليتين من العسكرية مدة أربعين سنة ولإجرائاته الحسنة أحسن إليه بالنشان العثماني من الرتبة الثانية وهو أول نيشان عثماني أعطى لأصحاب السلك العلمي؛ فلم يكن وقتئذ أحد من العلماء حائزاً عليه وبعد ما عاد لدار السعادة أحسن إليه ببارودة من بواريد الشسخنة التي أعطيت للعسكر الذي نظم في بوسنة وهرسك وكانت هذه البارودة المنعم بها عليه منقوشاً عليها هذه الكلمات وهي (تقدير وتذكار من طرف العسكرية للهمة التي بذلها حضرة جودت أفندي من الصدور العظام بحق نيل أهالي بوسنة الشجعان للخدمة العسكرية).

وفي أواخر سنة ١٢٨١هـ توجه لإسكندرونة^(٢) مع الفرقة الإصلاحية مأموراً لإصلاح ما وقع من الخلل في قوزان^(٣) وكان رئيس الفرقة المذكورة درويش باشا مشير العسكر الهمايوني الرابع، فتوجهها معاً وبعد أن أصلح الخلل الواقع وضبطا أمور جبال القوزان وجبل بركت^(٤) عادا إلى دار السعادة.

١- قاضي عسكر الأناضول يقابله منصب آخر هو قاضي عسكر الروملي وهما أهم منصبتين بعد منصب شيخ الإسلام. ويتولى كل واحد منهما مهمة تعيين وعزل جميع القضاة، وكانا عضوين في الديوان الهمايوني. والمقصود هنا أن جودت باشا منح هذا المنصب شرفياً. معجم الدولة العثمانية، ص ٩٨.

٢- إسكندرون: قضاء تابع لسنجقية حلب في ولاية حلب، انظر حاجي بك زاده أحمد مختار، عثمانلي مملكتلري، استانبول، ١٣١٤هـ، ص ٢٦.

٣- قوزان: منطقة تابعة لولاية أطنه. المرجع السابق، ص ٢٦٢.

٤- جبل بركت: سنجقية تابعة لولاية أطنه. المرجع السابق، ص ١٠٨.

وفي الخامس عشر من شهر جمادي الثانية سنة ١٢٨٢هـ عين مأموراً لعضوية خزانة المجلس العالي وفي الخامس والعشرين من شهر شعبان من تلك السنة جرى تبديل سلكه من العلمية إلى الملكية^(١) وتحولت رتبة قاضي عسكر إلى الوزارة وجرى ضم أيا لتي حلب وأطنة مع ألوية القوزان ومرعش وأورفة والزور وصارت كلها ولاية واحدة جسيمة وأحيلت إلى عهده فحضر إلى حلب حاضرة الولاية وأقام بها نحو سنتين.

وفي شهر ذي القعدة سنة ١٢٨٤هـ لما انقسم مجلس أحكام العدلية العالي إلى قسمتين وادعنا إلى هيتين بعنوان شوراي دولت وديوان أحكام العدلية ولي رئاسة ديوان أحكام العدلية ثم بعده أحيلت هذه الرئاسة إلى اسم نظارة الديوان ثم إلى نظارة العدلية.

وبينما كان مشغولاً بتنظيم أمور العدلية صدر الأمر بانعقاد جمعية علمية تحت رئاسته لأجل تأليف كتاب في الفتاوى على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه فألفت هذه الجمعية مجلة الأحكام المعمول بها الآن في المحاكم الشرعية والنظامية.

وفي المحرم سنة ١٢٨٧هـ انفصل وأقبل على المطالعة والتأليف.

وفي سنة ١٢٨٩هـ عين والياً على ولاية مرعش^(٢) وكانت تشكلت وقتئذ وبعد أن وصل إليها وأقام فيها ١٨ يوماً دعى إلى دار السعادة وفي آخر السنة المذكورة ولي نظارة الأوقاف الهمايونية وفي أوائل سنة ١٢٩٠هـ ولي نظارة المعارف العمومية فرتب جداول دروس المكاتب العمومية وانشئت في أيامه عدة مكاتب بعنوان المكاتب الابتدائية.

١- أي جرى تحويله من سلك الوظائف العلمية إلى سلك الوظائف المدنية.

٢- ولاية مرعش: ولاية مركزها مدينة مرعش، تبعد عن حلب ١٤٥ كيلومتراً إلى الشمال الغربي منها. تشتهر بالزراعة ويقطنها أتراك وأكراد وعرب وأرمن، قاموس الإعلام ٦/٤٢٦٣.

وفي أوائل سنة ١٢٩١هـ نظراً لانحراف صحة دولتلو كامل باشا رئيس شورى الدولة تعين للقيام بوظيفة الرئيس المشار إليه بعنوان معاون وفي شهر رمضان من هذه السنة توجهت عليه ولاية يانية.

وفي أواسط سنة ١٢٩٢ دعى إلى دار السعادة وولى نظارة المعارف العمومية وفي أواخر السنة المذكورة توجهت عليه نظارة العدلية الجلية.

وفي أوائل سنة ١٢٩٣ تعين مفتشاً للروم إيلي وتوجه إليها على طريق أدرنة وقلبه إلى صوفيا ثم رجع وتعين والياً على سوريا وقبل أن يخرج إليها عدل به عنها وولى نظارة المعارف العمومية.

وفي شهر رمضان من سنة ١٢٩٣هـ ولى نظارة العدلية وفي أوائل سنة ١٢٩٤هـ ولى نظارة الداخلية. وفي أيامه نظم سجل الأخلاق في دائرة هذه النظارة وبوشر بقيد ترجمة أحوال مأموري الملكية وفي أواخر هذه السنة نقل إلى نظارة الأوقاف الهمايونية وفي أوائل سنة ١٢٩٥ توجهت عليه ولاية سورية الجلية.

وبعد حضوره إليها وإقامته فيها مدة قليلة ظهر اختلال في أحوال قوزان فتعين لإصلاحه وتوجه إلى هناك من سورية وأعاد الراحة في تلك الجهات وفي أثناء عودته انفصل عن سورية وعقيب ذلك توجهت عليه نظارة التجارة والزراعة وباشرها بعد أن عاد إلى دار السعادة.

وعندما استعفى خير الدين باشا ^(١) من مسند الصدارة في سنة ١٢٩٦هـ أقيم في موضعه بالوكالة وقام بشؤونها نحو عشرة أيام ثم توجهت لعهدته نظارة العدلية في أواخر السنة المذكورة.

وفي سنة ١٣٠٠هـ انفصل عنها وذلك عند تغيير الوكلاء وأقام بمنزله عاكفاً على المطالعة والتأليف.

١- وهو خير الدين باشا التونسي الذي عين صدراً أعظم للدولة العثمانية في سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م.

وفي أوائل سنة ١٣٠٣ هـ تعين مأموراً لقوميسيرية الروم ايلي الشرقي وقبل سفره أظلم جو السياسة بين الدول فيما يتعلق بالبلغار وبناء على ذلك تأخر سفره وفي شهر رمضان من تلك السنة ولى نظارة العدلية الجليلة .

وفي شهر صفر من سنة ١٣٠٤ هـ أنعم عليه حضرة مولانا السلطان الأعظم تلطيفاً له بنشان الامتياز .

وفي شهر صفر من سنة ١٣٠٥ هـ انفصل عن نظارة العدلية وبقي من أعضاء مجلس الوكلاء الخاص إلى الآن ملحوظاً بعين رعاية مولانا أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين السلطان الغازي عبد الحميد خان خلد الله سريره سلطنته مدى الدوران آمين .

القسم الأول

أحمد جودت باشا

١٢٣٨-١٣١٣هـ / ١٨٢٣-١٨٩٥م

حياته وآثاره وفكره ودراسة لكتابه

«تاريخ جودت»

المبحث الأول: حياته وآثاره التاريخية والعلمية.

المبحث الثاني: الأوضاع السياسية والفكرية في عصره.

المبحث الثالث: منهجه وفكره الإصلاحي.

المبحث الرابع: منهجه في كتابة التاريخ ودراسة لكتابه وتحليل

مادته وبيان مصادره.

المبحث الأول

(حياته و آثاره التاريخية والعلمية)

١ - مولده ونشأته:

هو العالم المؤرخ الوزير أحمد جودت باشا بن إسماعيل بن علي بن أحمد بن إسماعيل، ولد في مدينة لوفجة (الواقعة في بلغاريا على نهر الطونة) في ١٤ رجب ١٢٣٨هـ - ١٨٢٣م. هاجرت أسرته التركية إلى هذه المدينة قبل قرن ونيف من مولده، فكان والده من أعيانها وعضواً من أعضاء مجلسها، وجده الثالث مفتياً مشهوراً.

نشأ جودت باشا في بيئة علمية وعائلة عريقة، وبدأ يدرس اللغة العربية وعلوم القرآن والحديث في سن مبكرة على يد مفتي لوفجة الحافظ عمر أفندي. وفي سن السابعة عشرة انتقل إلى استانبول حاضرة العلم والمعرفة آنذاك، لمواصلة تحصيله العلمي في جامع السلطان محمد الفاتح، فتنفوق على جمع أقرانه في علوم الفقه وأصوله والحديث والتفسير وعلوم اللغة العربية واللغة الفارسية والرياضيات^(١).

ولم تكن الحياة العلمية في البلاد العثمانية في عصر جودت باشا في أوج قوتها، وإنما على العكس من ذلك كانت بدايات رياح التغيير الثقافي الوافد من الغرب تتجاذب الساحة الثقافية في صراعها مع التيارات السائدة التي دب فيها الخلل والانحطاط^(٢).

١ - انظر: بروسه لي محمد طاهر، عثمانلي مؤلفلري، ج٢، مطبعة عامرة، استانبول، ١٣٣٣هـ، ص ١٢٩؛ جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج٢، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت) ص ٢٢٦-٢٢٧.

-Yusuf Halaçoğlu, M. Akif Aydın, İslam Ansiklopedisi, C 7, Türkiye Diyanet Vakfı, İstanbul, 1993, sh 443.

٢ - حول الخلل الذي طرأ على الحياة العلمية في الدولة العثمانية، انظر ما كتبه أحمد جودت باشا في كتابه هنا (الفصل الخامس).

وقد تنبه جودت باشا إلى هذا الخلل وصعوبة الاختيار بين السائد الضعيف والوافد الدخيل، فطفق يبحث بجهوده الذاتية الخاصة في العلوم قديمها وحديثها، وما لدى المسلمين وما عند غيرهم، مما ساعد في إثراء معلوماته وتكوينه العلمي والفكري المتميز. فتأثر بكتابات المسلمين الأوائل كابن خلدون وابن تيمية والذهبي، واستفاد من معطيات الحضارة الغربية من خلال ما كتبه روادها في عصر النهضة الأوروبية. وقد ساعده في ذلك إتقانه للغة العربية والفارسية قراءة وكتابة، وإتقانه للفرنسية والبلغارية منها^(١). مما جعله أول شخصية في سلك العلماء تحاول معرفة اللغات الأجنبية الغربية.

وقد فتحت هذه المواهب المبكرة والمؤهلات المتعددة الأبواب أمام جودت باشا؛ ليصبح وحيد عصره في الجمع بين العلم والإدارة والسياسة، فترك أكثر من ثلاثين مؤلفاً، وتولى خمسة عشر منصباً علمياً، وعشرين منصباً إدارياً.

١ - مناصبه العلمية:

يمكن لنا إيجاز مناصبه العلمية^(٢) على النحو الآتي:

- منصب القضاء سنة ١٢٦٠هـ.
- عضو مجلس المعارف العمومية (١٢٦٦هـ).
- رئيس دار المعلمين (؟).
- عضو المجمع العلمي العثماني (١٢٦٧هـ).
- المؤرخ الرسمي للدولة (وقعه نويس: كاتب الوقائع) (١٢٧١هـ).
- قاضي في استانبول (١٢٧٢هـ).

١- Yusuf Halaçoğlu - M. Akif Aydın, islam Amsiklopedisi, c 7, sh 445-446.

٢- انظر ترجمة أحمد جودت باشا بقلم معرب هذا الكتاب في المقدمة؛ وجرجي زيدان، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٧-٢٢٨، وخير الدين الزركلي، الأعلام، ج ١ دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٠٨.

- باية مكة المكرمة (شرفية) (١٢٧٣هـ)
- عضو مجلس التنظيمات العالي (١٢٧٣هـ).
- رئيس لجنة تنظيم قوانين الأراضي.
- باية ولاية استانبول (شرفية) (١٢٧٧هـ).
- عضو مجلس الأحكام العدلية العالي بعد إلغاء مجلس التنظيمات (١٢٧٨هـ)
- باية قاضي عسكر الأناضول (شرفية) (١٢٨٠هـ).
- رئيس ديوان الأحكام العدلية (١٢٨٤هـ).
- رئيس الجمعية العلمية لتأليف مجلة الأحكام العدلية.

٣- مناصبه الإدارية والسياسية:

الظاهرة الملفتة للنظر في الجوانب الإدارية والسياسية من حياة جودت باشا هي كثرة المناصب التي شغلها وقصر الفترة التي أمضاها في المنصب، مما يشير إلى تذبذب الحياة السياسية والإدارية في الدولة العثمانية واضطرابها في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، ويدل من جهة أخرى على كفاءة أحمد جودت وحاجة الدولة إليه. وأهم تلك المناصب الإدارية والسياسية التي شغلها^(١) ما يلي:

- مفتش عام البوسنة والهرسك (١٢٧٩هـ).
- عضو خزانة المجلس العالي (١٢٨٢هـ).
- والي ولاية حلب بعد ضم ولاية أطنه وألوية قوزان ومرعش واورفة والزور إليها (١٢٨٢هـ)

١- انظر ما قبله.

- والي ولاية مرعش (١٢٨٩هـ).
- وزير الأوقاف (١٢٨٩هـ)
- وزير المعارف العمومية (١٢٩٠هـ)
- رئيس مجلس شورى الدولة بالإنابة (١٢٩٠هـ).
- والي ولاية يانية (١٢٩١هـ)
- وزير المعارف العمومية (للمرة الثانية) (١٢٩٢هـ).
- وزير العدلية (العدل) (١٢٩٢هـ).
- مفتش عام الروملي (الأجزاء الأوربية من الدولة) (١٢٩٣هـ).
- والي ولاية سوريا (الشام) (١٢٩٣هـ).
- وزير المعارف العمومية (للمرة الثالثة) (١٢٩٣هـ).
- وزير العدلية (العدل) للمرة الثانية، (١٢٩٣هـ).
- وزير الداخلية (١٢٩٤هـ).
- وزير الأوقاف (للمرة الثانية) (١٢٩٤هـ).
- والي ولاية سوريا (الشام) للمرة الثانية (١٢٩٥هـ).
- وزير التجارة والزراعة (١٢٩٥هـ).
- الصدر الأعظم بالإنابة (١٢٩٦هـ).
- وزير العدلية (العدل) (للمرة الثالثة) (١٢٩٦هـ).
- وزير العدلية (العدل) (للمرة الرابعة) (١٣٠٣هـ).
- عضو مجلس الوكلاء الخاص (١٣٠٥هـ).

وتتبلور فلسفة جودت باشا الإدارية ومأخذه على أسلوب الإدارة في الدولة العثمانية في كتاباته التاريخية حول محورين، أولهما، الفساد الإداري الذي تفشى في الدولة والمجتمع في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، والثاني، بإخفاق التنظيمات العثمانية الجديدة في عصره في تحقيق إصلاح إداري مستمد من ماضي الدولة العريق في تنظيماته الإسلامية^(١).

وكانت هذه النظرة الإدارية الثاقبة سبباً في نجاح جودت باشا في المهام الإدارية والسياسية الموكلة إليه. فقد قام على سبيل المثال بإصلاحات إدارية ناجحة في ولاية البوسنة، وأدخل الروح العصرية في المدارس الحكومية^(٢)، وأسس العديد من الصحف الأسبوعية الرسمية في الولايات التي تولى إدارتها^(٣)، فنال بذلك الكثير من الأوسمة التقديرية على نجاحه في المهام العلمية والإدارية والسياسية. وكان لنجاحه الباهر في مختلف الأعمال الموكلة إليه أثر كبير في انزعاج بعض الأوساط منه والحسد له، وقد ذكر تظلمه هذا في كتابه «سجل الأخلاق»^(٤).

٤ - آثاره التاريخية:

من أبرز الآثار العلمية التي خلفها جودت باشا مؤلفاته التاريخية المتعددة في التاريخ العثماني وتاريخ الدول الإسلامية، ويأتي في مقدمتها الكتب والمؤلفات الآتية:

- ١ - أحمد جودت باشا، تاريخ جودت، ج١، ص ٤٨-٥٣ (النسخة المعربة) وانظر: Yusuf Halaçoglu, M. Akif Aydin, Islam Ansiklopedisi, C 7, Sh 446.
- ٢ - ك. سوسيهيم، مادة «أحمد جودت باشا»، دائرة المعارف الإسلامية، ج١، ص ٤٧٥.
- ٣ - منها مثلاً صحيفة «فراة» وقد أسسها سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م أثناء ولايته على ولاية حلب، وكانت تطبع باللغتين العربية والتركية. انظر: الفيكونت فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ج١، بيروت، ١٩١٣م، ص ٦٩-٧٠.
- ٤ - Yusuf Halaçoglu, M. Akif Aydin, Islam Ansiklopedisi, C7, Sh 444.

أ- تاريخ جودت:

ويقع في اثني عشر مجلداً، ويتناول تاريخ الدولة العثمانية والأحداث التي وقعت فيما بين سنة ١١٨٨هـ-١٧٧٤م وسنة ١٢٤١هـ-١٨٥٢م على طريقة الحوليات السنوية .

وكان السلطان عبد المجيد الأول (١٢٣٧هـ-١٨٥٢هـ) قد كلف جودت باشا بكتابة تاريخ عام للدولة العثمانية، فاستطاع خلال مدة وجيزة أن يقدم للسلطان المجلدات الثلاثة الأولى من تاريخه، فكافأه على ذلك بتعيينه مؤرخاً رسمياً للدولة (وقعه نويس) بمعنى كاتب الوقائع . وقد أمضى جودت باشا ثلاثين عاماً في إتمام تاريخه، واكتملت الطبعة الأولى للمجلدات سنة ١٣٠١هـ-١٨٨٤م . وتكرر طبعه بعد تنقيحه في ترتيب جديد سنة ١٣٠٩هـ-١٨٩١م .

أما ما يخص تاريخ الدولة العثمانية بعد عام ١٢٤١هـ، فقد دونه كاتب الوقائع لطفي أفندي في ثمانية أجزاء، فأصبح ذليلاً لتاريخ جودت ^(١) .

ويتميز المجلد الأول من تاريخ جودت من بين مجلداته الاثني عشر بأهمية خاصة، فقد جعله المؤلف مقدمة لتاريخه متأثراً بابن خلدون - كما سيأتي تفصيله- فأوضح فيه فائدة علم التاريخ وفلسفته وأطوار الحكومات وأقسامها على مدار التاريخ، وأحوال الدول الإسلامية السابقة قبل ظهور الدولة العثمانية .

ثم تناول بالتفصيل أحداث التاريخ العثماني ومراحلته، والخلل الذي طرأ على أنظمة الدولة إدارياً وعسكرياً وفكرياً، وقارن ذلك بأحوال دول أوروبا السابقة واللاحقة، مع بيان الأوضاع السياسية والاجتماعية في ولايات الدولة العثمانية في القرم والقوقاز، والبلقان والبلاد العربية وإيران .

١- بروسه لي محمد طاهر، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٩؛ ك. سوسيهم، مادة «أحمد جودت باشا»، دائرة المعارف الإسلامية، ج١، ص ٤٧٥-٤٧٦، وانظر:

-Yusuf Halaçoğlu - M. Akif Aydın, İslam Ansiklopedisi, C7, Sh 448

وقد اعتمد المستشرقان «هاملتون جب» و«هارولد بوون» في كتابهما (المجتمع الإسلامي والغرب) على تاريخ جودت، وخاصة المجلد الأول منه فيما يتعلق بأحداث القرن الثامن عشر الميلادي، واعتبرا هذا المجلد الأساس الذي يقوم عليه شرح حوادث الفترة التي خصّص لها الأجزاء الباقية من كتابه^(١).

ونظراً لأهمية هذا الجزء من تاريخ جودت، فقد قام رئيس محكمة تجارة بيروت عبد القادر أفندي الدنا البيروتي؛ بتعريبه ونشره في سنة ١٣٠٨هـ- ١٨٩٠م. وقد أشار إلى أن والي سوريا العثماني راشد ناشد باشا، أبلاغه رغبته في ترجمة تاريخ جودت إلى اللغة العربية. فقام المعرب بمهمة ترجمة ونشر الجزء الأول من هذا التاريخ^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن أحد الباحثين وهو «فيليب دي طرازي»، قد ذكر في كتابه (تاريخ الصحافة العربية) أن أحمد عزت باشا العابد الدمشقي، الكاتب الثاني للسلطان عبد الحميد، هو الذي ترجم المجلد الأول من تاريخ جودت من اللغة التركية العثمانية إلى العربية^(٣).

والواقع أنه لا صحة لما أورده هذا الباحث في نسبة التعريب إلى أحمد عزت باشا العابد. إذ تجمع المصادر العثمانية والعربية على نسبته^(٤) إلى عبد القادر أفندي الدنا، كما هو مثبت في عنوان النسخة المترجمة إلى العربية. ويبدو أن سبب الخلط هو شهرة أحمد عزت باشا العابد مستشار السلطان عبد الحميد في الشؤون العربية، ولما له من نشاط سياسي وفكري وله مجال ترجمة بعض الكتب من اللغة التركية إلى العربية.

١- هاملتون جب وهارولد بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة الدكتور، أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٢٦-٢٧.

٢- انظر مقدمة الطبعة الأولى بقلم المعرب في أول الكتاب.

٣- الفيكونت فيليب دي طرازي، مرجع سبق ذكره، ج٢، ص ٢١٨.

٤- انظر على سبيل المثال، بروسه لي محمد طاهر، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٩؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، ج١، ص ١٠٨.

وأما عدد النسخ المتداولة من الترجمة العربية فمحدودة جداً في المكتبات العربية، ولم نعثر في المكتبات السعودية على سبيل المثال إلا على نسختين، الأولى في المكتبة الخاصة لخير الدين الزركلي - رحمه الله - الموجودة في المكتبة المركزية لجامعة الملك سعود في الرياض. والنسخة الثانية في المكتبة الخاصة للمقاضي حمود بن حسين الشغولي - رحمه الله - في حائل.

وسوف نفصل الحديث عن الكتاب ومنهج مؤلفه في المبحث الرابع من هذه الدراسة.

ب- معروضات أحمد جودت باشا:

وهو مخطوط تاريخي يتضمن التقرير الذي طلبه السلطان عبد الحميد الثاني في بداية عهده من أحمد جودت باشا، لمعرفة الأحداث التي مرت بالدولة العثمانية في فترة التنظيمات منذ سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م، حتى سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م. وهو العام الذي تولى فيه الحكم.

وقد قامت الباحثة ماجدة صلاح مخلوف في رسالتها للدكتوراة بدراسة وتحقيق وترجمة معروضات أحمد جودت باشا^(١). ويقع التقرير المخطوط في خمس حافظات، ويوجد منه ثلاث نسخ تتضمن مسودات معروضات. ويتعلق محتوى الحافظة الأولى بمرحلة التنظيمات حتى نهاية عهد السلطان عبد المجيد، وتبدأ الحافظة الثانية من سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م، حتى بداية عهد السلطان عبد العزيز، والثالثة تبدأ بزيارة السلطان عبد العزيز إلى مصر عام ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م، وتشمل الحافظة الرابعة على الأحداث التي وقعت بين عامي ١٢٨١هـ/١٨٦٤م، و١٢٨٣هـ/١٨٦٦م، أما الخامسة فتبدأ منذ تنظيمات الدولة

١- ماجدة صلاح مخلوف، معروضات أحمد جودت باشا - دراسة وتحقيق وترجمة إلى العربية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٣م/١٤٠٣هـ.

في سوريا إلى أن تولى السلطان عبد الحميد الحكم في عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م. وكان السلطان عبد الحميد قد رغب في الوقوف على الأوضاع المالية والعسكرية، وقرارات رجال الدولة قبل عهده^(١).

تقع الحافظة الثانية من المخطوط في مائة وثلاث صفحات مكتوبة بخط رقعة منسق. والحافظة الثالثة مدونة بخط جودت باشا، وهي من النسخة المقدمة إلى السلطان عبد الحميد، ومودعة حالياً في المجمع التاريخي التركي بأنقرة، وتقع في مائة وسبع وثلاثين صفحة. والحافظتان الرابعة والخامسة عبارة عن المسودة التي كتبها جودت باشا بخط يده، وتقع في مائة واثنين وعشرين صفحة، محفوظة ضمن أوراق جودت باشا في مكتبة بلدية إستانبول^(٢).

وتبرز أهمية مخطوط معروضات في التأريخ للعلاقات مع الدول الأوروبية، وفي إلقاء الضوء على اتجاهات رجال الإدارة والسياسة والفكر في الدولة العثمانية، والتيارات المعاصرة لمرحلة التنظيمات العثمانية، والعلاقات بين رجال الدولة وبين السفارات الأجنبية. كما تؤرخ معروضات لحادثة خلع السلطان عبد العزيز، وللوضع المالي المتدهور للدولة العثمانية في مرحلة التنظيمات. وتفيد معروضات جودت في معرفة تاريخ مصر في عهد محمد علي باشا ومن بعده، وفي تاريخ بلاد الشام، وفي معرفة جوانب الحياة الاجتماعية في إستانبول والولايات العثمانية وما صاحبها من ثغرات في مرحلة التنظيمات ذات الطابع الغربي^(٣).

١- حسين مجيب المصري، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠١؛ وانظر:

٢- Yusuf Halaçoğlu - M. Akif Aydin Islam Ansiklopedisi, C7, sh448-449

٣- ماجده صلاح مخلوف، مرجع سبق ذكره، ص ٩٥-٩٧.

٣- المرجع السابق، ص ١٠٥-١٢٨.

ج- تذاكر أحمد جودت باشا:

ومن الأعمال التاريخية الفريدة لجودت باشا؛ تذاكره التي دونها حول عهد التنظيمات. وتقع هذه التذاكر في أربعين تذكرة، تتناول التسعة والثلاثون الأولى منها الأحداث التي مرت بالدولة العثمانية خلال مرحلة التنظيمات إلى أوائل عهد السلطان عبد الحميد. أما التذكرة^(١) الأخيرة، فهي عبارة عن سيرة ذاتية لصاحبها جودت باشا وخبراته وأعماله^(٢).

وقد قامت الباحثة وفاء أحمد قطب في رسالتها للماجستير بدراسة موضوع فكرة الإصلاح في تذاكر أحمد جودت باشا، فأعطت تفصيلات هامة حول هذه التذاكر، وأضافت إلى المكتبة العربية جوانب من محتوياتها التاريخية القيمة^(٣).

تقع تذاكر جودت باشا في ألف صفحة ونيف، وقد كتبها بخط يده، وأرسلها إلى خلفه مؤرخ الدولة الرسمي، لطفي أفندي، صاحب تاريخ لطفي، ولكن فقدت هذه النسخة فيما بعد. وكانت فترة تولي جودت وظيفة المؤرخ الرسمي قد انتهت بعد كتابته التذكرة الثلاثين، ومع ذلك داوم على تدوين الوقائع إلى سنة ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م. والتذاكر المنشورة حالياً أخذت من مسودات التذاكر التي تحتوي على واحد وعشرين دفترًا مودعة في مكتبة البلدية في استانبول ضمن أوراق جودت باشا. وقد قام أحد الباحثين الأتراك بنشر التذاكر بالحروف التركية اللاتينية في أربعة مجلدات تضم التذاكر من الأولى حتى الأربعين^(٤). وقد ذكر أحد المترجمين لحياة أحمد جودت أن تذاكره تشمل ثلاثة أقسام: فالقسم الأول،

١- تطلق لفظة تذكرة اصطلاحاً على الأوراق الرسمية المتداولة بين الدوائر الرسمية في الدولة العثمانية - انظر: حسين مجيب المصري مرجع سبق ذكره، ص ٥٣.

٢- Yusuf Halaçoglu, M. Akif Aydin Islam Ansiklopedis, C7, sh 448.

٣- وفاء أحمد قطب، فكرة الإصلاح في تذاكر أحمد جودت باشا، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ١٤١٥هـ.

٤- ماجدة صلاح مخلوف، مرجع سبق ذكره، ص ٨٣-٨٤، وفاء أحمد قطب، مرجع سبق ذكره، ص ١٤؛ وانظر:

- Yusuf Halaçoglu, M. Akif Aydin Islam Ansiklopedis, C7, sh448.

قدمها للمؤرخ الرسمي لطفي أفندي، والقسم الثاني، كُتب بطلب السلطان عبد الحميد، والثالث، يتكون من الدروس التي ألقاها على ابنته عليّة^(١).

وقد رتبّ جودت باشا الأحداث في تذاكره ترتيباً زمنياً. مع توضيح أسبابها ونتائجها، وتحليل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمرحلة التنظيمات. وزود التذاكر بالنصوص والأوامر السلطانية والمكاتبات المتبادلة بينه وبين رجال الدولة والتقارير الحكومية والوثائق السرية. ومن خلال هذه التذاكر تتضح رؤية جودت باشا لعهد التنظيمات بكل جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وفي إطارها يصوغ الخطوط العريضة لفكره الإسلامي^(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن المعروضات والتذاكر، تؤرخان لمرحلة واحدة، إلا أن الأخيرة تمتاز بنصوصها الوثائقية^(٣).

د- قصص الأنبياء وتواريخ الخلفاء:

ويتناول قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منذ آدم حتى محمد صلى الله عليه وسلم، وتواريخ الخلفاء الراشدين والدولة الأموية والعباسية وأوائل عهد الدولة العثمانية. ويتميز هذا الكتاب الذي ألفه جودت باشا بالتركيز في إثني عشر مجلداً صغيراً، بأسلوبه السلس وعباراته الشيقة من منظور النثر التركي^(٤).

وقد وصفه المستشرق سوسيهيم بأنه «ألمع درة في عالم المصنفات الشرقية»^(٥). وقد طبع الكتاب عدة طبعات، الأولى منها باللغة التركية العثمانية، والأخرى بالحروف اللاتينية المعاصرة^(٦).

١- بروسه لي محمد طاهر، مصدر سبق ذكره، ص ١٣١.

٢- وفاء أحمد قطب، مرجع سبق ذكره، ص ١٣-١٦.

٣- ماجده صلاح مخلوف، مرجع سبق ذكره، ص ٨٦-٨٧.

٤- بروسه لي محمد طاهر، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٠.

٥- ك. سوسيهيم، مادة «أحمد جودت باشا»، دائرة المعارف الإسلامية، ج١، ص ٤٧٦.

٦- Yusuf Halaçoğlu, M. Akif Aydın Islam Ansiklopedis, C 7, sh 449

هـ- تاريخ القرم والقوقاز (قریم وقفقاس تاریخجه سی): وهو كتاب صغير الحجم، ألفه حول تاريخ وجغرافية بلاد القرم في شمال البحر الأسود، وبلاد القوقاز بين بحري قزوین والأسود، وهي من البلاد التي امتد إليها النفوذ العثماني. وقد طلبت الحكومة العثمانية من جودت باشا إعداد هذا الكتاب بمناسبة انعقاد مؤتمر باريس ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م، بعد حرب القرم بين الروس والعثمانيين. وقد طبع الكتاب سنة ١٣٠٧هـ، ثم توالى طباعته بالحروف التركية اللاتينية فيما بعد^(١).

و- ترجمة الفصل السادس من مقدمة ابن خلدون:

بعد قيام شيخ الإسلام في عهد السلطان محمود، المعروف بـ «بيري زاده محمد صاحب افندي» بترجمة الفصول الخمسة الأولى من مقدمة ابن خلدون الشهيرة (وطبعت في بولاق ١٢٧٤هـ وإستانبول ١٢٧٥هـ)، أكمل أحمد جودت ترجمة الفصل السادس من المقدمة (طبع في استانبول ١٢٧٧هـ). وقد علق أحمد جودت على ما ترجمه من المقدمة، وعبر عن تأثره بأسلوب ومنهج ابن خلدون^(٢)، مثلما ظهر واضحاً في المجلد الأول من تاريخه.

٥- آثاره العلمية الأخرى:

للمؤلف آثار أخرى لا تقل أهمية عن مؤلفاته التاريخية في مجالات الفقه واللغة والأدب والتربية والتعليم.

١- المرجع السابق ٤٤٩/٧٠.

٢- بروسه لي محمد طاهر، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٠. وانظر:

- Yusuf Halacoglu, M. Akif Aydin Islam Ansiklopedis, C7, sh 449

و من أشهر هذه الأعمال:

أ- مجلة الأحكام العدلية:

رأس جودت باشا هيئة التأليف التي شكلتها الدولة العثمانية لوضع قانون مدني مستمد من الفقه الإسلامي على هيئة مواد وفق المذهب الحنفي. وقد صدرت المجلة في سنة ١٢٨٣هـ-١٨٦٦م، في ستة عشر جزءاً، تضم ثلاثة وسبعين باباً، وألفاً وثمانمائة وإحدى وخمسين مادة^(١).

يمثل إصدار هذه المجلة ذروة الصراع بين التيارات التغريبية والتيارات الإسلامية، حين اختلفت الآراء حول مصادر القانون المدني المزمع وضعه. فرجال التنظيمات يرون أن الدولة سارت في تغريب مؤسساتها شوطاً كبيراً منذ إعلان التنظيمات، ويجب أن تطبق بقية القوانين السائرة في أوروبا، وخاصة القانون المدني الفرنسي؛ بينما كان جودت باشا ومؤيدوه يرون أن الدولة العثمانية مؤسسة على الشرع الشريف، ويجب أن تكون الشريعة أساساً لنظم وقوانين الدولة، ولا قبول لآراء أتباع الفكر الغربي الذين يريدون ترجمة مواد قانون بونابرت الفرنسي للعمل بها في محاكم الدولة العثمانية^(٢).

ورغم نجاح رجال التنظيمات في السير خطوات أكبر نحو تغريب مؤسسات الدولة الإدارية والاقتصادية والفكرية والاجتماعية، إلا أن جودت باشا وذوي الاتجاهات الإسلامية حققوا انتصاراً فكرياً بإنجاز هذه المجلة المستمدة من الفقه الإسلامي تبعاً لظروف العصر^(٣).

وفي الجملة فإن مسألة تقنين الشريعة الإسلامية لازالت قيد البحث

١- ماجدة صلاح مخلوف، مرجع سبق ذكره، ص ١٥-٥٤.

٢- المرجع السابق، ص ٥٢-٥٤.

٣- انظر نص التقرير الذي رفعه أحمد جودت وأعضاء اللجنة إلى المصدر الأعظم في كتاب، درر الحكام شرح مجلة الأحكام، تأليف علي حيدر، تعريب فهمي الحسيني، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت). ج١/ ص ٨-١٢.

والاجتهاد في البلاد الإسلامية إلى وقتنا الحاضر، في ظل اختلاف الظروف السياسية والفكرية في كل قطر. فمن الفقهاء المعاصرين من يرون أن للتقنين عيوباً أبرزها الجمود على النصوص المقتنة، وإيقاف حركة الاجتهاد، والإلزام برأي واحد، ومنهم من يرون أن مزايا التقنين تفوق عيوبه، فمن فوائده في نظرهم؛ سهولة الرجوع إلى أحكام التقنين، وضبط الأحكام الشرعية وبيان الراجح فيها، ووحدة أحكام القضاء^(١).

وليس من شأن دراستنا هذه الدخول في تفاصيل تلك المسألة الاجتهادية، ولكن من الواضح أن مجلة الأحكام العدلية خرجت في ظروف خاصة اقتضتها مزاحمة أنصار التغريب للتشريعات الإسلامية، ورغبتهم في إزاحتها عن الميدان، ولذا ينبغي ربط مسألة وضع المجلة في إطار صراع أنصار الفكر الإسلامي مع التيارات الوافدة والدخيلة. في حين يرى المطلع على أحداث ذلك العصر؛ أن هناك أقطاراً إسلامية أخرى قليلة سلمت من المواجهة التغريبية والسيطرة الأجنبية، فظلت السيادة فيها لأحكام الشريعة الغراء.

ب- بقية آثاره:

سبقت الإشارة إلى آثار جودت باشا التاريخية والعلمية، هي، تاريخ جودت، ومعروضات، وتذاكر، وقصص الأنبياء وتواريخ الخلفاء، وتاريخ القرم والقوقاز، وترجمة جزء من مقدمة ابن خلدون، وأخيراً مجلة الأحكام العدلية.

ونوجز هنا بقية آثاره العلمية:^(٢)

١- وهبة الزحيلي، جهود تقنين الفقه الإسلامي، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ، ص ٢٦-٢٨.

٢- انظر: بروسه لي محمد طاهر، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٠ - ١٣٢،

- Yusuf Halaçoğlu, M. Akif Aydın İslam Ansiklopedisi, C7, sh 4496.

خير الدين الزركلي، الأعلام، ج١، ص ١٠٨.

من كتبه المطبوعة المؤلفه بالعربية:

- خلاصة البيان في جمع القرآن (إستانبول، ١٣٠٣هـ)
- تعليقات على أوائل المطول (في البلاغة).
- تعليقات على الشافية. (في النحو).

ومن كتبه المؤلفه بالتركية:

- مدخل قواعد (إستانبول، ١٢٦٨هـ).
- قواعد عثمانية (إستانبول، ١٢٨١هـ).
- قواعد تركية (إستانبول، ١٢٩٢هـ).
- ترتيب جديد قواعد عثمانية (إستانبول، ١٣٠٣هـ).
- بلاغت عثمانية (إستانبول، ١٢٩٨هـ).
- تتمه شرح ديوان صائب.
- معيار سداد (إستانبول، ١٢٩٣هـ).
- آداب سداد في علم آداب (إستانبول، ١٢٩٤هـ).
- بيان عنوان (إستانبول، ١٢٧٣هـ. ١٢٨٩هـ، ١٢٩٩هـ).
- تقويم أدوار (إستانبول، ١٢٨٧هـ، ١٣٠٠هـ).
- متن متين (إستانبول، ١٢٧٢هـ).
- معلومات نافعة (إستانبول، ١٢٧٩هـ).
- أثر عهد حميدي (إستانبول، ١٣٠٩هـ).
- حلية السعادة (إستانبول، ١٣٠٤هـ، ١٣٠٥هـ).

- مجموعة أحمد جودت (في المسائل الشرعية).
- ترجمة الترهيب والترغيب للإمام المنذري .
- مجموعة أشعار .
- رسالة الوفاء .
- مجموعة عليه .
- شرح الأسماء الشريفة .

المبحث الثاني

الأوضاع السياسية والفكرية في عصره

١ - الدولة العثمانية من الازدهار إلى التوقف:

بعد كارثة سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ على يد المغول، وانتقال مركز الخلافة العباسية إلى القاهرة تحت رعاية المماليك، ظهر على مسرح التاريخ عنصر مسلم تركي جديد في الأناضول على أنقاض دولة سلاحقة الروم. هذا العنصر هو نواة الإمارة العثمانية التي أسسها عثمان بن أرطغرل في سنة ٦٩٩هـ، وقد ورثت هذه الإمارة مهمة الجهاد والفتوح ضد البيزنطيين، وأخذت تقوي وتتسع في الأناضول، ساعدها في ذلك قوة روح الجهاد، وعدم الانشغال في معارك ضد الإمارات التركية الصغيرة، وضعف الإمبراطورية البيزنطية^(١).

كانت الخطة الطموحة للعثمانيين؛ هي عبور البحر وفتح القسطنطينية عاصمة البيزنطيين لأنها بوابة أوروبا من الشرق، وبعد ثلاث محاولات عثمانية نجح السلطان محمد في فتح القسطنطينية وإسقاط الإمبراطورية البيزنطية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. ولم ينته القرن التاسع الهجري حتى اكتملت السيطرة العثمانية الإسلامية على بلغاريا واليونان ورومانيا ويوغسلافيا والمجر، ووقفت بعد ذلك الجيوش العثمانية على مشارفينا عاصمة النمسا^(٢). ثم سنحت الفرصة للعثمانيين لتصدر زعامة العالم الإسلامي إثر تهديد البرتغاليين للمقدسات الإسلامية بعد دورانهم حول رأس الرجاء الصالح وغزو البلاد الإسلامية من

١ - انظر تفاصيل هذه المرحلة في المصادر التركية الآتية:

١ - Ismail Hakki Uzunçarsili, Osmanli Tarihi, I. Cilt, Ankara, 1988; Ismail Hami Dâ-nismend, İzahli Osmanli Tarihi Kronolojisi, Cilt: 1, İstanbul, 1971.

٢ - محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٨هـ، ص ١٩٨-٢٥١.

جهاته الجنوبية، إضافة إلى ظهور الخطر الصفوي الشيعي في بلاد فارس واحتلاله العراق، وعجز دولة المماليك حامية الخلافة عن التصدي لهذه المخاطر، ثم احتلال الإسبان لمدن شمال أفريقيا بعد طرد المسلمين من الأندلس أواخر القرن التاسع الهجري .

أمام هذا الاختبار العسير للعالم الإسلامي، نجح العثمانيون في التصدي للخطر الصفوي في معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ، ثم انتصارهم على المماليك ودخول القاهرة سنة ٩٢٣هـ، وتولي مسؤولية مواجهة البرتغاليين، وتطهير سواحل الجزيرة العربية، والدفاع عن الأماكن المقدسة، وأخيراً ضم دويلات الشمال الإفريقي في طرابلس وتونس والجزائر إلى الدولة العثمانية وإنقاذها من الخطر الأسباني^(١) .

وقد بلغت الدولة العثمانية ذروة ازدهارها في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري وأوائل الحادي عشر، ثم دخلت مرحلة التوقف عن المكتسبات إلى نهاية القرن الثاني عشر^(٢) .

٢- الدولة العثمانية في مرحلة الضعف والتقهقر:

تفوقت الدولة العثمانية في الميادين الداخلية والخارجية في القرون الهجرية الثلاثة التاسع والعاشر وأوائل الحادي عشر. وعندما حلّ القرن الثاني عشر الهجري؛ تجلت أولى مظاهر الضعف^(٣) في تعطيل الجهاد، وتدهور النظام الحربي، وعجز السلاطين، وفساد الحاشية، وسوء الإدارة، والانحراف الفكري، والغلو في نزعة التصوف بعيداً عن حقائق الإسلام النقية .

١- عبد اللطيف بن محمد الحميد ، موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس، الرياض ، ١٤١٤هـ، ص ٦٦-٨٢.

٢- يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة الدكتور محمود الأنصاري، المجلد الأول، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، ١٩٨٨، ص ٥٤١-٥٧٨ .

٣- انظر تفاصيل مظاهر الضعف في كتاب، سقوط الدولة العثمانية، للمحقق، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٦هـ.

وكان لتعدد عناصر الدولة وقومياتها، وتنوع أديانها ومذاهبها في ولايات الدولة الموزعة في قارات ثلاث، أثر في زيادة أعباء الدولة وإضعافها، وخصوصاً بعد إذكاء الدول الأوروبية ومؤازرتها للحركات القومية والطائفية في الأراضي العثمانية. ومع تقدم دول أوروبا ونهضتها علمياً وتقنياً في القرن الثالث عشر الهجري، تخلف العثمانيون عن مواكبة هذا التطور، وانشغلت الدولة بالدفاع عن أراضيها ضد زحف الاستعمار؛ مواجهة مشكلاتها الداخلية المتلاحقة^(١).

وأخطر عوامل الضعف السائدة آنذاك، ما يتعلق بالنواحي الفكرية والعقدية، بتوقف الاجتهاد وسد باب التجديد، وانتشار الجمود الفقهي، وشيوع البدع والخرافات غالبية طبقات الشعب العثماني^(٢).

وقد وصف أحمد جودت في تاريخه هذه المرحلة بقوله «... فطراً على جسم الدولة الكسل، وعلى أخلاق الأمة الخلل»^(٣).

٣- الدولة العثمانية في مفترق الطرق:

على أعتاب القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، بدأت ملامح تغييرات جديدة في الدولة العثمانية، تهدف إلى إعادة إصلاح وتنظيم شؤون الدولة، ووقف تدهورها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وفكرياً واجتماعياً. وقد تعددت طرق وسبل التغيير والإصلاح بحسب توجهات المصلحين والمنظرين. وكانت إرهاصات دعوات الإصلاح إسلامية المبدأ، تعتمد على تراث الأمة منذ منتصف القرن الحادي عشر الهجري، عندما وضع كل من «حسن كافي الأقيصاري» (ت ١٠٢٤هـ)، وقوجي بك (ت ١٠٦٠هـ)، وحاجي خليفة (ت

١- المرجع السابق، ص ٧٧-٧٨.

٢- سهيل صابان، الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري، رسالة دكتوراه، قسم الثقافة الإسلامية في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٥هـ، ص ٤٨-٥٩.

٣- انظر ص (٢٢٢) من هذا الكتاب.

١٠٦٧هـ) وغيرهم، برامج إصلاحية ذات أسس إسلامية ومنطلقات سليمة^(١).

وقد اتسمت محاولات الإصلاح تلك؛ بأنها كانت بعيدة عن تأثير الحضارة الغربية المجاورة. ولكن مع بداية القرن الثالث عشر الهجري، ظهرت أفكار إصلاحية متأثرة بالحضارة الغربية، ونشطت حركة السفارات إلى الدول الأوروبية، وبدأ الاقتباس بنقل شكيلات ومظاهر المدنية الغربية، دون جوهر التقدم العلمي والتقني، ابتداءً من عهد محمود الأول (ت ١١٦٨هـ) ومصطفى الثالث (ت ١١٨٧هـ)، وعبد الحميد الأول (ت ١٢٠٣هـ)^(٢).

وبازدياد الضغط الأوربي الروسي والبريطاني والفرنسي دخلت الإصلاحات العثمانية طوراً جديداً يتمثل في فرض التغريب على العثمانيين، حين سعى قياصرة الروس إلى حماية الأرثوذكس والسلاف في البلقان، وسعى الإنجليز إلى حماية طريق المواصلات البريطانية إلى الهند، وأراد الفرنسيون الدفاع عن مواقعهم التجارية والثقافية لدى نصارى الشرق^(٣).

ولا ريب أن الدولة العثمانية كانت بحاجة إلى كثير من الإصلاحات في نظمها وأسلوب إدارتها، ولكن الدول الغربية التي كانت تنادي بذلك تريدها لغاية واحدة فقط، وهي منح الأقليات من غير المسلمين حريات سياسية وحقوقاً تتحول إلى امتيازات خاصة^(٤)، وتجلت معالم التنظيمات الجديدة إثر ذلك في عهد السلطان سليم الثالث (ت ١٢٢٣هـ)، والسلطان محمود الثاني (ت ١٢٥٥هـ)، والسلطان عبد المجيد الأول (ت ١٢٧٧هـ)، من خلال المركزية

١- انظر: حسن كافي الأقحاصري، أصول الحكم في نظام العالم، دراسة وتحقيق: إحسان صدقي العمدة، ذات السلاسل، الكويت، ١٤٠٧هـ، ص ٢٣٧-٢٥٤.

٢- وفاء أحمد قطب، مرجع سبق ذكره، ص ٣١-٣٥.

٣- روبير مانتران، بدايات المسألة الشرقية، تاريخ الدولة العثمانية، ج٢، إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٥.

٤- محمد ضياء الدين الرئيس، في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٠٦.

الإدارية، وتحديث جهاز الدولة، وتغريب المجتمع، وعلمنة القانون والتعليم^(١).

وقد أفرزت مرحلة التنظيمات العثمانية في القرن الثالث عشر الهجري ثقافتين متعارضتين:

الأولى: اتجاهات الثقافة الإسلامية السائدة، وتنقسم بدورها إلى الاتجاهات المحافظة، والاتجاهات الصوفية، والاتجاهات التجديدية.

والثانية: اتجاهات وتيارات الثقافة الوافدة، وتتوزع بين تيار العلمانية، وتيار الاستشراق، وتيار التنصير، وتيار الماسونية، وتيار القومية التركية^(٢).

ويرى بعض المؤرخين الأتراك أن مرحلة التنظيمات، أبرزت تيارات متعددة تبلور في ثلاث جماعات أساسية: الأولى المثاليون المحافظون، والثانية البعيدون عن الواقعية، الثالثة القائلون بتبديل النظام، والجماعة الأخيرة تبدو في ظاهر الأمر متفقة ولكنها في الحقيقة تمثل ثلاث مجموعات: جماعة القائلين بأفضلية كل ما هو أوربي مع التنكر للتاريخ العثماني والإسلامي، وجماعة المتنفعين الحريصين على الثروة والنفوذ والسلطة تحت شعار الإصلاح والتظاهر بالنظام الجديد، وجماعة المخلصين الذين يريدون نهضة شاملة سريعة^(٣).

واتسمت مرحلة التنظيمات العثمانية بعد مرور سبعين عاماً على انطلاقها باحتكار جيل التنظيمات الجديد ذي الاتجاه التغريبي الوافد، لمجالات السياسة والإدارة والفكر والثقافة. ففي مجال السياسة والإدارة برزت شخصيات

١- پول دومون، فترة التنظيمات، تاريخ الدولة العثمانية، ج٢، إشراف روبير مانتران، ص ٦٣-٩١.

٢- سهيل صابان، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠.

٣- يلماز أوزتونا، مرجع سبق ذكره، ص ٦٤٤-٦٤٦، ويرى الباحث الدكتور أحمد فهد الشوابكة أن حركة التنظيمات قد انبثقت عنها ثلاث اتجاهات، اتجاه الانغماس في الغرب، والاتجاه التوفيقية، واتجاه الأصالة الإسلامية، انظر: حركة الجامعة الإسلامية، مكتبة المنار، الزرقاء (الأردن)، ١٩٨٤، ص ٢٧.

مصطفى رشيد باشا (ت ١٢٧٥هـ)، ومحمد أمين عالي باشا (ت ١٢٨٨هـ)،
ومحمد فؤاد باشا (ت ١٢٨٦هـ)، ومدحت باشا (ت ١٣٠٢هـ) ^(١). وفي مجال
الفكر والثقافة برزت شخصيات مثل: بشير فؤاد (ت ١٣٠٥هـ)، وبهاء توفيق
(ت ١٣٣٥هـ)، وضياء كوك ألب (١٣٤٣هـ)، وعبد الله جودت (ت
١٣٥١هـ)، وتوفيق فكرت (ت ١٣٣٤هـ)، وجلال نوري (ت ١٣٥٨هـ) ^(٢).

وفي المقابل، وقف العلماء والمفكرون المسلمون في وجه الأفكار التغريبية
الوافدة، ولكنها مواقف متباينة وغير منسقة، بسبب توزع الاتجاهات الإسلامية
وتنوعها، فهناك أصحاب الاتجاهات التجديدية، ومنهم على سبيل المثال سعيد
حليم باشا، ومحمد عاكف، وبديع الزمان النورسي، وأصحاب الاتجاهات
المحافظة، ومنهم الشيخ مصطفى صبري، ونحيب فاضل، وأصحاب الاتجاهات
الصوفية، ومنهم فريد كام، وإسماعيل أرطغرل، ومحمد علي عيني ^(٣).

وهكذا أصبحت الساحة الفكرية ميداناً مضطرباً في مرحلة التنظيمات
والإصلاحات العثمانية. وامتد هذا الاضطراب إلى الساحة السياسية والإدارية
والاقتصادية في مسيرة التاريخ العثماني.

١- ج. هـ. كرامدز، مادة «تنظيمات»، دائرة المعارف الإسلامية، ج٥، ص٤٩٩، وانظر من المراجع
التركية:

- Ord. Prof. Enver Ziya Karal, Osmanli Tarihi, VI. Cilt, Sh 98-133.

٢- سهيل صابان، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٩-٢٣٢.

٣- المرجع السابق، ص ٢٤٤.

المبحث الثالث

منهجه وفكره الإصلاحي

من خلال العرض السابق تتضح أبعاد واقع الدولة العثمانية فكرياً وسياسياً، والعصر الذي عاش فيه المؤرخ والمفكر جودت باشا. إذ عاصر أربعة من السلاطين العثمانيين: عبد المجيد وعبد العزيز ومراد الخامس وعبد الحميد الثاني. وقد سيطر في عهود السلاطين الثلاثة الأوائل رجال التنظيمات وأنصار التغريب على الساحة الفكرية والسياسية، في حين بدأ السلطان عبد الحميد الثاني الذي تولى الحكم سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م، بالخطوات الأولى لسياسات مغايرة لأسلافه، من بينها وقف سيطرة أنصار التغريب، واستلهام الروح الإسلامية في شؤون الإدارة والحكم والفكر والثقافة^(١).

وقد وجد السلطان عبد الحميد الثاني ضالته في فكر وشخصية جودت باشا، في نقد تجربة التنظيمات ووضع بدائل جديدة لعلاج ما أفسدته، وإبقاء ما يمكن الاستفادة منه فيما لا يتعارض مع مبادئ وقيم الدولة.

* يتبين منهج جودت باشا وفكره الإصلاحي من خلال أعماله الفكرية ومؤلفاته التاريخية، وأسلوبه السياسي والإداري أثناء عمله الرسمي. فقد طلب منه السلطان عبد الحميد الثاني، إعداد تقرير يعرض فيه أهم الأحداث التي مرت بالدولة العثمانية في فترة التنظيمات. ومن خلال هذا التقرير الذي عنونه جودت باشا بـ «معروضات» الإصلاحية. فقد أرّخ في «معروضات» لمرحلة من أهم مراحل التاريخ العثماني، التي حمل فيها رجال التنظيمات لواء الإصلاح وفق

١- أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني، دار الأنبار، الرمادي، ١٤٠٧هـ، ص ٢٢٨-٢٣٩.

المنهج الغربي، في محاولة لتغيير الوجه الحضاري الإسلامي للدولة، وصبغها بالصبغة الأوروبية التغريبية، زاعمين أن الهدف من هذه التغييرات هو إصلاح مؤسسات الدولة، وأن ذلك لا يتحقق إلا بتطبيق مبادئ الحرية والإخاء والمساواة بين جميع رعايا الدولة دون النظر إلى أديانهم، وذلك من أجل أن تكف الدول الأوروبية عن التدخل في شؤون الدولة^(١).

ويؤكد جودت باشا في «معروضات» أن التنظيمات على هذا النسق لم تحقق شيئاً من هذا الإصلاح، لأنها زادت من نفوذ وتدخل الدول الأوروبية في شؤون الدولة، ورفعت من شأن رجال التنظيمات وأنصار التغريب، أمثال: رشيد باشا، وفؤاد باشا، وعالي باشا، ومحمود نديم باشا، وحسين عوني باشا، ورشدي باشا، ومدحت باشا، وأدى ذلك إلى سيطرة السفارات الأوروبية على هؤلاء المسؤولين كل حسب ميوله واتجاهاته نحو إحدى دول أوروبا، مما دفعهم للنيل من مقام السلطنة. كما أشار جودت باشا إلى أن رجال التنظيمات قد أسهموا في مضاعفة الأزمة المالية والتدهور الاقتصادي، نتيجة لاندفاعهم خلف برامج التغريب الزائفة^(٢).

وتبيّن «معروضات» أثر التنظيمات على النواحي الإدارية للدولة، ومنها فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية، وإنشاء محاكم الاستئناف والمحاكم التجارية، وتكوين مجلس الشورى وديوان الأحكام العدلية، وجعل ثلثي أعضائهما من المسلمين، والباقي من غير المسلمين.

وفي النواحي الاجتماعية، أوضح جودت باشا مظاهر التغيير التي طرأت على المجتمع العثماني في مرحلة التنظيمات، بعد تسرب العادات الأوروبية على مستوى المجتمع والدولة^(٣).

١- ماجدة صلاح مخلوف، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٥.

٢- المرجع السابق، ص ١٠٦-١١١.

٣- المرجع السابق، ص ١٢٠-١٣١.

ويرى جودت باشا، أن إصلاح الدولة العثمانية يجب أن يتم في إطار الشرعية الإسلامية والتكوين الإسلامي للدولة. فالإصلاح مطلب ملح لكل مرافق الدولة، ولكن دونما مساس بالجواهر الإسلامي الذي قامت عليه. ويرى أن نظام الإدارة في الدولة يعتمد على محاور ثلاثة: الهيئة العلمية ويرأسها شيخ الإسلام، والهيئة العسكرية، والهيئة الإدارية ويرأسهما الصدر الأعظم. ولا تتحقق نهضة الدولة إلا بالانتظام والاتساق الكامل بين هذه الهيئات. وأما ترابط المجتمع العثماني بشكل خاص والإسلامي بشكل عام، فلا يكتمل إلا بإحياء فكرة الوحدة الإسلامية تحت مظلة الخلافة^(١).

* وفي عمل علمي آخر فريد، وضع جودت باشا في «تذاكر» وهي عنوان مؤلف يحتوي على أربعين تذكره، تتناول الأحداث التي مرت بالدولة العثمانية خلال مرحلة التنظيمات، وضع الخطوط العريضة للإصلاح المرتجى من وجهة نظره. وقد لخصت الباحثة المصرية وفاء أحمد قطب في رسالتها للماجستير، فكرة الإصلاح من واقع تذاكر جودت باشا وأعماله الأخرى...^(٢) في العناصر الآتية:

- النهوض من الداخل ببذل الجهود في كسب الثقافة والعلوم.
- الاستفادة من التقدم العلمي في الغرب مع الحفاظ على الأصول.
- التطوير وليس التغيير لمواكبة احتياجات العصر.
- الاقتباس وليس التقليد.
- العصبية الدينية وليس القومية.
- الإصلاح بالعودة إلى الإسلام.
- التكامل في إجراء الإصلاحات.

١- المرجع السابق، ص ١٣٩-١٤٢.

٢- وفاء أحمد قطب، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٧-١١٨.

وعلى هذا الأساس، وضع جودت باشا رؤية متكاملة للمشكلات الإدارية والمالية والعسكرية والعدلية والاجتماعية.

ورأى فيما يختص بالمشكلات الإدارية والمالية، أن فساد النظم والقوانين المستحدثة في فترة التنظيمات، وافتقار رجال التنظيمات إلى الخبرة الإدارية، وعدم استقرار النظم المالية، وتفشي الروتين. . وكل هذه العوامل أدت إلى إخفاق النظم الإدارية والمالية الجديدة. وقد وضع جودت باشا حلولاً مقترحة منها: تهيئة الاستقرار الأمني وسد الثغرات أمام التدخل الأجنبي، والعودة إلى تطبيق الإدارة غير المركزية، واستلهم النظم الإسلامية، وربط ولايات الدولة ببعضها ربطاً دقيقاً، وإجراء تشكيلات إدارية في الولايات، والارتقاء بمستوى العاملين في مجال الإدارة، والمتابعة المستمرة للموظفين، وعمل إحصائيات متكاملة لكل ولاية، وإصلاح الفساد في النظام الضريبي، والنهوض بالزراعة والصناعة ودعم النشاط التجاري، والاهتمام بإقامة المنشآت العمرانية والمرافق^(١).

وفي مجال الإصلاح العسكري، رفض جودت باشا فكرة تجنيد غير المسلمين، وفكرة تخفيض عدد الجنود المسلمين، وأكد أن الإصلاح العسكري مرهون بالإصلاح الإداري، وعلى ضرورة رفع الكفاءات عن طريق التدريب المستمر، واختيار قيادات الجيش من ذوي الخبرة، والاهتمام بالعلوم الحديثة في المجال العسكري^(٢).

وأما سبل إصلاح المؤسسات العدلية في الدولة من وجهة نظر جودت باشا فتنحصر في نشر المعارف والعلوم الدينية ورفع مستوى العلماء، ودراسة وتعديل القوانين التي صدرت في مرحلة التنظيمات، والربط بين الإصلاحات العدلية والإدارية، وتحقيق العدالة في محاكم الدولة، وسرعة الفصل في الأحكام،

١- المرجع السابق، ص ١١٩-١٤٦.

٢- المرجع السابق، ص ١٥٦-١٦٣.

وإعداد مجلة الأحكام العدلية، والاعتماد على الشريعة مصدراً أساسياً للقوانين^(١).

وتتجلى فكرة الإصلاح الاجتماعي لدى جودت باشا، في ضرورة إصلاح المدارس وفتح مؤسسات تعليمية في كافة أرجاء الدولة، والتمسك بالتقاليد الإسلامية حفاظاً على هوية المجتمع، والاهتمام بالجيل الجديد باعتباره الركيزة الأساسية في البنية الاجتماعية^(٢).

* وقد تبعت الباحثة التركية أميد مريج يازان، في رسالتها للدكتوراه آراء جودت باشا في الدولة والمجتمع، من خلال مؤلفاته التي تتجاوز آلاف الصفحات. وقدمت هذه الآراء في وحدة موضوعية متناسقة، وانتهت إلى الحقائق الآتية^(٣):

- يعتبر جودت باشا المجتمعات في حالة مسيرة وتغير دائمين، فهي لا تبقى على حالتها الأولية، والدول كذلك على هذا النسق، تتقدم وتتأخر، وليست هناك دولة أبدية. والشعوب التي لا توائم الواقع المعاصر لا بد لها وأن تضمحل وتزول. ويعتبر أن صلة العقيدة أقوى صلة في الوجود.
- الحضارة هي مرحلة اجتماعية لا بد لكل مجتمع أن يستدركها.
- أن أوروبا منقسمة حسب طبقاتها الاجتماعية منذ العهد الروماني، وهذا مصدر القلاقل والنزاعات الاجتماعية؛ أما في بلاد الإسلام فلا توجد فروق بين الطبقات. والمجتمع العثماني وحدة متكاملة لا تنفصل. والمذاهب الاجتماعية التي ظهرت في أوروبا مثل الاشتراكية، لم تظهر إلا بسبب الهوة السحيقة بين الأغنياء والفقراء. والدولة العثمانية بعيدة عن مثل هذه النزاعات.

١- المرجع السابق، ص ١٨٤ - ١٨٩ .

٢- المرجع السابق، ص ٢٠٧-٢١٩ .

٣- Ümid Meric Yazan, Cevdet Pasa' nin Toplum ve Devlet Görüşü., İstanbul, 1992, s 167-171

- تعد أوروبا موطناً للانقلابات والقلقل السياسية، الأمر الذي لا يفيد بنية المجتمع بشيء... وقد انتشرت فكرة القومية في أوروبا بعد الثورة الفرنسية. أما الدولة العثمانية فهي مجتمع الأمم، أقوى الروابط في الوجود وهي رابطة الدين لا القومية.

- العالم الإسلامي والعالم النصراني نظامان متقابلان، يفترقان عن بعضهما بانتساب كل واحد منهما إلى حضارة مختلفة عن الأخرى، ولهذا السبب فإن قيام الدولة العثمانية بتقليد الغرب خطأ فاحش لا يمكن أن يغتفر، إلا في حالة اقتباس العلوم والصنائع.

* جودت باشا وسياسة الجامعة الإسلامية:

يتفق مؤرخو التاريخ العثماني أن السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ / ١٨٧٦-١٩٠٩م)، هو أول من تبنى سياسة الوحدة الإسلامية في التاريخ الحديث، وهي الدعوة التي عرفت بسياسة الجامعة الإسلامية^(١) Pan-Islam، واستخدمها السلطان سلاحاً فعالاً ضد التغريب ودعائه، والنزعات القومية وأنصارها، والتدخل الأجنبي والاستعمار، بالإضافة إلى استثمار تعطش العالم الإسلامي إلى الرابطة الروحية داخل وخارج إطار الدولة العثمانية. وقد تجلت مظاهر هذه السياسة في إرسال البعث والعلماء إلى بقاع العالم الإسلامي، للدعوة إلى الالتفاف حول السلطان باعتباره خليفة للمسلمين، وطبع الكتب الإسلامية والمصاحف والعناية بالمساجد والجوامع، والاهتمام بالمواصلات لربط أجزاء الدولة العثمانية، كمشروع سكة حديد الحجاز من دمشق

١- انظر : من المصادر التركية-

-Ismail Hami Danismend, Izahli Osmanli Tarihi KronoloJ isi, Istanbul Cit 4, sy 351-354.

ومن المصادر البريطانية الوثائقية :

- Foreign Office, The Rise of Islam and Caliphate - The Pan-Islamic Movement, London, 1919, P.55.

إلى المدينة المنورة، وتحديث مرافق الدولة، واستمالة زعماء القبائل العربية، وتمويل الصحافة المؤيدة لتيار الجامعة الإسلامية^(١).

والأمر الملفت لنظر الباحث، أن معظم أدبيات تلك المرحلة لا تشير إلا إلى الدور الفاعل للسيد جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤هـ-١٣١٤هـ/١٨٣٩م-١٨٩٧م)، في إحياء فكر الوحدة الإسلامية والجامعة الإسلامية^(٢). وقد أنصف الدكتور أحمد الشوابكة جودت باشا حين اعتبره على رأس أصحاب اتجاه الأصولية الإسلامية والمنادين بالجامعة الإسلامية في إستانبول إلى جانب الشيخ عاطف الاسكليبي، وأحمد نعيم بابان زاده ومحمد عاكف، وبديع الزمان سعيد النورسي. وقد أضاف الشوابكة إلى هذه الرموز، المؤيدين لتيار الجامعة الإسلامية في بلاد الشام ومصر، وخص منهم في بلاد الشام، الشيخ أبو الهدى الصيادي، ومحمد رشيد رضا، وشكيب أرسلان، ومنهم في مصر جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومصطفى كامل، ومحمد فريد^(٣).

ومن خلال تقصي مجمل الإنتاج الفكري لجودت باشا وتجاربه وخبراته الذاتية التي عرضناها في المباحث السابقة، يتضح أن شخصية جودت باشا هي التي كانت وراء تطبيق السلطان عبد الحميد الثاني لسياسة الجامعة الإسلامية، وإن لم يشر أي باحث إلى ذلك صراحة، أو ذكره ضمن أسماء وشخصيات أخرى. ويؤيد وجهة نظرنا الحقائق الآتية:

- صلة جودت باشا القرية بالسلطان عبد الحميد، ووجود تشابه كبير بين أطروحاته الفكرية والتطبيقات العملية لسياسة الجامعة الإسلامية.

١- محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، دمشق، ١٤١٠هـ، ص ١٧١.

٢- انظر على سبيل المثال: محمد ضياء الدين الرئيس، في التاريخ الإسلامي الحديث، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ١٣٨-١٥١؛ أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ١٠٦-١١٣؛ محسن عبد الحميد، جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ص ١٣٦-١٤١؛ عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، دمشق، ١٩٧٤، ص ٥١٦-٥٢١.

٣- أحمد فهد بركات الشوابكة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧-١١٩.

- تولية جودت باشا على مناصب هامة في الدولة، كالصدارة العظمى (مؤقتاً) ووزارات العدل والمعارف والأوقاف وبعض الولايات .

- لقد طلب السلطان (كما أوضحنا سلفاً) من جودت باشا تقديم تقارير متكاملة عن مرحلة التنظيمات ونتائجها والحلول المقترحة. وقد ضمّن جودت باشا دراساته لهذه المرحلة في «معروضات» و«تذاكر» وبقية مؤلفاته ومنها تاريخه وخاصة الجزء الأول منه .

- أن بقية من شارك في سياسة الجامعة الإسلامية كانوا منفذين لا منظرّين، بينما كان جودت باشا منظرّاً ومنفذاً، ولكنه توفي قبل أن تكتمل حلقات تطبيق سياسة الجامعة الإسلامية .

وهكذا نرى أحمد جودت باشا رائداً من رواد الإصلاح في تاريخنا الحديث، لم يحظ بالشهرة الكافية، أو ينل حقه من الدراسات والأبحاث، وخاصة في عالمنا العربي .

وتجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من النجاح الكبير الذي حققته سياسة الجامعة الإسلامية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، إلا أن هناك حقائق ظلت غائبة عن أعين المصلحين من منظرّين ومنفّذين هذه السياسة، مما أفقدها فاعليتها وقوتها أمام خصومها من أعداء الإسلام، ومن جملة هذه الحقائق غياب محاولات نقد الاتجاهات الإسلامية السائدة وأوجه الخلل فيها، وخاصة ما يتعلق بالعتيدة وإخلاص التوحيد مثل انتشار البدع والخرافات بدرجات متفاوتة في أرجاء الدولة .

المبحث الرابع

منهجه في كتابة التاريخ ودراسة لكتابه

ونحليل مادته وبيان مصادره

* في دراسته لنمط وأسلوب الكتابة التاريخية في مرحلة التنظيمات، أوضح المؤرخ التركي المعاصر أرجمند كوران، أن تدوين التاريخ في هذه المرحلة قد خضع لنمطين، الأول: الكتابة بالطرق والوسائل التقليدية القديمة، والثاني: الكتابة بالطرق والوسائل المتأثرة بالمنهجية الأوروبية. وفي نظر هذا المؤرخ أن نمط الكتابة التاريخية التقليدية في الدولة العثمانية ذو تاريخ مشرق في الماضي وربما وقع تحت تأثير الأساليب العربية والفارسية، ولكن كان له خصوصيته الذاتية، يشهد بذلك الإنتاج المتميز للمؤرخين العثمانيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ورغم أن ضعف الدولة العثمانية بعد ذلك قد امتد إلى مستوى التدوين التاريخي؛ فقد نجح النمط التقليدي في البقاء لمدة طويلة^(١).

اعتبر أرجمند كوران أن أهم مؤلف تاريخي في عصر التنظيمات العثمانية هو كتاب تاريخ جودت، مشيراً إلى أن مدة ثلاثين سنة في كتابته، ووفرة مصادره، والحس النقدي، والمنطق الصائب للمؤلف؛ كلها تدل على المكانة الرفيعة للمؤلف وكتابه. ومع أن أسلوب جودت في كتابه قد ظل ملتزماً بالمنهج التقليدي الحولي في تدوين الأحداث؛ فقد ضمّن بعض دراساته وآرائه الخاصة. وفي رأي أرجمند كوران أن جودت باشا لم يكن متعصباً ضد علوم الغرب، فقد استخدم بعض المصادر الأوروبية في تاريخه، وفي الوقت نفسه ظل محافظاً ينشد العلاج الناجح لضعف الدولة من خلال إصلاح وتحسين المؤسسات القديمة دون الاعتماد على الحضارة الغربية^(٢).

١ - Ercüment Kuran, Ottoman Historiography of the Tanzimat Period, Historians of The Middle East, Edited By: Bernard Lewis and P.M.Holt, London, 1964, PP 422-423.

Ibid, P.423.

وقد سبقت الإشارة في المبحث الخاص بالآثار التاريخية لجودت باشا إلى تأثره بالمؤرخ العربي ابن خلدون، إذ كان من أكثر العلماء إعجاباً به وتقديراً لفضله وعلمه. وقد قام جودت باشا بمراجعة ترجمة «بيري زاده» لمقدمة ابن خلدون فظهر له أن ترجمة الفصول العشرة الأولى من الباب السادس تشتمل على أخطاء كثيرة، بل ظهر له كذلك أنها لم تكن بيد بييري زاده نفسه، فأعاد ترجمتها، ثم أكمل ترجمة فصول الباب السادس، وأضاف إلى المقدمة تعليقات كثيرة لتوضيح مقاصد المؤلف تارة، ولإتمام الفائدة تارة أخرى، فأصبحت الترجمة التركية بفضل جودت باشا شاملة لجميع أجزاء المقدمة، مما أتاح إذاعة آراء ابن خلدون لدى الشعوب الناطقة باللغة التركية، وبشكل خاص لدى الباحثين والمؤرخين^(١).

وعلى هذا النحو جعل جودت باشا الجزء الأول من تاريخه دون الأجزاء الأحد عشر المتبقية؛ على غرار مقدمة ابن خلدون في بعض المواضع. فوجد ابن خلدون قد تطرق في مقدمته وتاريخه إلى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه، ثم ذكر أحوال العمران وما يعرض فيه من الملك والسلطان والكسب والصنائع والعلوم، ثم أفاض في ذكر أخبار العرب وأجيالهم ودولهم ومن عاصرهم من بدء الخليقة إلى عصره، وأخبار البربر ومن إليهم وما كان لهم بديار المغرب من الملك والدول. وفي المقابل تطرق جودت باشا في مقدمته إلى بيان لزوم علم التاريخ وفائدته، وأطوار الحكومات وأقسامها، وأحوال الدول الإسلامية، ومسيرة التاريخ العثماني، والخلل الذي طرأ على نظم وقوانين الدولة العثمانية، وقارن ذلك بأحوال دول أوروبا، مع تفصيل الأوضاع السياسية والاجتماعية في ولايات الدولة، وما جاورها في القرم والقوقاز والبلقان والبلاد العربية وفارس.

* ويمكن أن نبرز أهم ملامح منهج جودت باشا في كتابة تاريخه على النحو الآتي:

١- علي عبد الواحد وافي: محقق مقدمة ابن خلدون، للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ج١، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت)، ص ٢٦٢-٢٦٣.

أ- الغرض الأصلي من علم التاريخ هو الوقوف على صدق الوقائع من عدمها والاطلاع على أسبابها الحقيقية بما يوجب العبرة والفائدة، وفي ذلك يقول: «لما كان الغرض الأصلي من علم التاريخ هو الوقوف على صدق الوقائع وكذبها، والاطلاع على أسبابها الحقيقية واكتساب المعلومات التي توجب التيقظ والانتباه تعين على المؤرخ أن يتحرى أسباب الحوادث الصحيحة بما يوجب العبرة والفائدة»^(١).

ب- عدم التكلف بالإنشاء وإظهار البراعة الأدبية في تدوين التاريخ أو سرد الوقائع على نسق صحف الأخبار اليومية، وفي ذلك يقول: «والذي أراه أنه ليس الغرض من التاريخ التكلف بالإنشاء وإظهار الفضل والبراعة، حتى ولا سرد الوقائع على نسق صحائف الأخبار اليومية»^(٢).

ج- التاريخ الماضي هو الذي يشرق الحاضر، ووظيفة المؤرخ ربط الأحداث والأسباب بنتائجها ووضعها في إطار زمني معين ثم شرحها^(٣). وفي ذلك يقول: «ومعلوم أن وقائع كل عصر هي نتائج العلل والأسباب المتسلسلة التي هيأتها وأعدتها الأعصار السابقة فاقتضى لذلك أن يعلم آثار- أي أسباب - تلك الوقائع التاريخية التي سيصير تدوينها»^(٤).

د- علم التاريخ فن كثير المنافع، جليل الفوائد للعامة والخاصة. وفي ذلك يقول «اعلم أن علم التاريخ هو فن كثير المنافع يعود إلى كافة العالم، وهو مقبول ومرغوب عند جميع الناس عامتهم وخاصتهم. فالعامة وأفراد الناس

١- انظر ص (٩٣) من هذا الكتاب.

٢- انظر ص (٩٣) من هذا الكتاب.

٣- Ümid Meric Yazan, Cevdet Pasa'nın Toplum ve Devlet Görüşü, S, 168.

٤- انظر ص (٩٤) من هذا الكتاب.

مجبولون على مطالعته ومنه يعلمون ما سلف من الوقائع والمآثر الماضية والخاصة والوكلاء منهم يطلعون منه على الخفايا والأسرار المقتضية»^(١). وهذا المنهج من المواضع التي تأثر فيها جودت باشا بابن خلدون.

هـ- الإنسان مدني بالطبع، فلا يمكنه أن يعيش في عزلة عن غيره، والحضارة مرحلة اجتماعية لا بد لكل مجتمع أن يستدركها. وفي ذلك يقول: «الإنسان مدني بالطبع فلا يمكنه أن يعيش منفرداً بنفسه كالبهائم بل يحتاج للاجتماع والتعاون مع أبناء جنسه.. وللجمعية البشرية درجات متفاوتة أدناها درجة القبائل.. وأعلى درجة في الاجتماع الإنساني درجة المدنية أي مرتبة الدولة والسلطنة»^(٢). وهذه الآراء أيضاً من المواضع التي تأثر فيها جودت باشا بابن خلدون.

و- انفرد المؤرخ جودت باشا عن مؤرخي التنظيمات بتقسيم الحضارة إلى مفهوميين: مفهوم تاريخي وآخر اجتماعي، يبحث في العلاقات بين السلالات البشرية، وكان مؤرخو عهد التنظيمات قد رأوا أن الحضارة أمل سياسي لا بد من تحقيقه. أما عند جودت باشا، فالحضارة تعني حادثة اجتماعية، وهي تتحقق في أحسن الأمكنة والأزمنة وتتطور، غير أنها جميعاً آيلة إلى الاضمحلال والزوال^(٣).

ز- تبنى جودت باشا آراء ابن خلدون في أطوار الدول وأقسامها وحالة صعودها وهبوطها. فيقول في تاريخه «فكما أن للإنسان حالتين حالة صعود وحالة هبوط في حاله ووجوده؛ كذلك لكل دولة حالتان حالة ضعف وحالة

١- انظر ص(٩٥) من هذا الكتاب.

٢- انظر ص(٩٥) من هذا الكتاب.

3- Ümid Meric Yazan, Cevdet Pasa'nın Toplum ve Devlet Görüşü, Sy, 168 - 169.

قوة.. فإن جسم الدولة يشبه جسم الإنسان في حالة النمو والوقوف
والانحطاط»^(١).

ح- اتبع جودت باشا مبدأ الموضوعية وعدم التحيز، ويشير إلى ذلك في تاريخه
بقوله «واتبعنا رعاية الإنصاف وخلو الغرض، مجتنبين التزام شخص ما
أوجهة ما وبذلنا الجهد والاهتمام على قدر الاستطاعة بتصحيح الوقوعات
وتحري أسبابها الصحيحة»^(٢).

ط- توفر الحس النقدي في عدم التسليم بكل ما دوّنه المؤرخون وخاصة ما يكتبه
المعاصرون للأحداث. وفي ذلك يقول: «ولا يخفي أنه يعسر على المؤرخ أن
يكتب تاريخ عصره موافقاً للحقيقة وخالياً عن الأغراض. وكان كُتّاب
الوقائع أفرطوا في الخلوص وتغالوا في تواريخهم بألفاظ التملق فلذلك كان
وضع ما ضبطوه في صورة صحيحة يحتاج إلى تنقيحات وتعديلات
كلية»^(٣).

* عرض للكتاب وتحليل لمادته:

عرض جودت باشا مادته العلمية وبوّبها ونسّقها في كتابه^(٤) على النحو
الآتي:

١- انظر ص(٩٩) من هذا الكتاب.

٢- انظر ص(٩٤) من هذا الكتاب.

٣- انظر ص(٧٦) من هذا الكتاب.

٤- صدرت طبعتان للكتاب باللغة التركية العثمانية بأجزائه الاثني عشر، الأولى سنة ١٣٠٣هـ
والثانية سنة ١٣٠٩هـ.

* المجلد الأول:

وابتدأه بخطبة الكتاب، أوضح فيها أهمية علم التاريخ وضرورته، ومنهج الدولة العثمانية في ضبط الوقائع وتدوينها، وعوائق تنقيحها ونشرها. وأثر السلطان عبد المجيد (١٢٣٧هـ-١٢٧٧هـ) في العناية بتدوين التاريخ ونشره، وتكليف جودت باشا بالقيام بهذه المهمة، واختيار مجلس المعارف العثمانية أن يكون ضبط الوقائع وجمعها وتنقيحها متصلاً من سنة ١١٨٨هـ إلى سنة ١٢٤١هـ. وقد ذكر جودت باشا أن بداية شروعه في كتابة مؤلفه كان في أوائل سنة ١٢٧٠هـ.

وفي موضع آخر غير خطبة الكتاب، أشار جودت باشا أن سبب اختيار سنة ١١٨٨هـ بداية لتاريخه، هو أن هذه السنة «كانت عنواناً لتحول أحوال الدولة إذ بعدها تغير منهاج وقائعها»^(١). ولم يشر إلى ماهية هذا التحول أو يفصل الحديث حول أحداثه، سوى ما ذكره في الفصل التاسع من أحداث الحرب الروسية العثمانية واستيلاء روسيا على القرم.

على أن المؤرخين الأتراك المعاصرين قد وصفوا المرحلة الممتدة من سنة ١١٨٨هـ إلى سنة ١٢٤١هـ، بدور الانحطاط في التاريخ العثماني، وجعلوا بدايته من معاهدة قينارجه ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م، المنعقدة بين روسيا والعثمانيين، وهي من المعاهدات التي كانت لها نتائج خطيرة على العثمانيين، حيث تراجع دور العثمانيين في أوروبا بسببها من المرتبة الأولى إلى الرابعة بعد انجلترا وفرنسا وروسيا، وانتهت سيطرة العثمانيين على البحر الأسود، وازداد الخطر الروسي على الدولة. وأما نهاية مرحلة الانحطاط فقد أروخوها بسنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م،

١ - انظر ص (٩٤) من هذا الكتاب.

وهي حادثة إلغاء الجيش الإنكشاري والقضاء عليه من قبل السلطان محمود الثاني، والتي أطلق عليها العثمانيون الواقعة الخيرية^(١).

من هذا المنطلق يكون تكليف جودت باشا من قبل مجلس المعارف العثمانية لكتابة تاريخ هذه المرحلة، له مبرراته وأسبابه في إسناد مهمة تتبّع وتشخيص أحداث مرحلة التدهور؛ إلى مؤرخ في مواهب وقدرات وخبرة جودت باشا.

ولم يكتف جودت باشا بالدخول مباشرة في صلب الموضوع وإنما مهد له بالمجلد الأول. وبرّر ذلك بقوله: «فأرأينا من المناسب أن نذكر قبل الشروع بالمقصود وقائع الدول السالفة وأحوالها . . مع إيراد كل ما ينبغي لقراء هذا التاريخ الاطلاع عليه فصلاً بعد آخر إجمالاً»^(٢).

وبعد خطبة الكتاب، تناول المؤلف أهم المصادر التي اعتمد عليها في كتابه، وأوضح تطور أساليب تدوين التاريخ الرسمي للدولة من خلال تكليف (شهنامة جي) بمعنى محرر الوقائع، ثم (وقعةء نويس) بعد ذلك، بمعنى كاتب الوقائع، وكانت مهمة هؤلاء تدوين الوقائع يومياً وتقديمها . . وسوف نتناول مصادر الكتاب بالتفصيل في موضع آخر من هذه الدراسة.

* أفرد المؤلف الفصل الأول، لبيان لزوم علم التاريخ وفائدته للخاصة والعامة، ودرجات الاجتماع الإنساني، وتراكمية التجربة الإنسانية، وأهمية تدوين التاريخ وتداوله في نقل تجارب الأمم من السلف إلى الخلف. وقد سبقت الإشارة إلى استفادة وتأثر المؤلف، بآراء ابن خلدون من خلال ترجمته وتعليقه على المقدمة. وهو وإن لم يشر في تاريخه صراحة أو تلميحاً إلى ابن خلدون، فقد طرح آراء مشابهة لفكرة ابن خلدون في هذا الكتاب.

١- يلماز أوزتونا، مصدر سبق ذكره، ج١، ص ٦٢٣-٦٣٢.

٢- انظر ص (٩٤) من هذا الكتاب.

* وفي الفصل الثاني، عرض المؤلف أطوار الحكومات وأقسامها، وأسباب ضعف الدول وقوتها، ومراحل شبابها وهرمها ومقارنة ذلك بحياة الإنسان، وأوضح أن حسن التدبير والحكمة قد ينفع في علاج تدهور الدول ويؤجل اضمحلالها. وأشار إلى هذه القاعدة بقوله: «ثم إن طور الانحطاط يخفى حتى يصعب في بعض الأحيان إدراكه، ويظهر في بعض الأحيان للعيان فيعسر دواؤه. ولكن بحسن التدبير والحكمة قد يمكن أن تعود القوى فيحيى جسم الدولة ثانياً»^(١).

وفي بيان أنواع الحكومات وأقسامها، عقد جودت باشا مقارنة بين نظم الحكم في الدول الأوربية ونظام الحكم في الدولة العثمانية، فدول النصارى تنقسم فيهم الحكومة قسمين : قسم روحاني ديني، وقسم مادي دنيوي. فالروحاني هو حكومة البابا لدى الكاثوليك، وكان لها نفوذ عظيم في أوروبا قديما قبل فسادها، وأتباع مذهب الأرثوذكس التابعين للبطاركة، وأتباع المذهب البروتستانتي.. وأما الحكومة المادية: فإنها تنقسم إلى مطلقة ومقيدة وجمهورية.

وقد مثل المؤلف للحكومة المطلقة بروسيا، وللمقيدة بألمانيا وإيطاليا وإنجلترا. وللجمهورية بفرنسا. وتعتمد كل هذه الدول في أحكامها على القوانين التي توضع باجتماع آراء الأعيان منهم.

وأما الحكومة الإسلامية في رأي المؤلف، فإنها جامعة بين الخلافة والسلطنة، فالسلطان حامي الشريعة والقائم بأعباء الحكم. ولذلك لم يحدث الانقسام لدى المسلمين كما هو الحال في أوروبا^(٢).

واستكمالا لحديثه عن التاريخ الأوربي، عقد المؤلف فصلاً مستقلاً يتعلق بأصول أوروبا وأحوالها السابقة واللاحقة، وجعل موضعه الفصل الثامن، بعد أن

١- انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.

١- انظر الفصل الثاني من هذا الكتاب.

جعل الفصول من الثالث إلى السابع تفاصيل متعلقة بالتاريخ الإسلامي عامة والعثماني خاصة، تتويجاً لمنهجه التكاملي في النظر إلى الأحداث. ولذلك سنتناول فيما يلي عرض وتحليل الفصل الثامن، ثم نعود للحديث عن الفصول السابقة :

* استهل المؤلف حديثه عن أصول التاريخ الأوربي بذكر تاريخ قارة آسيا وأنها كانت منبع التمدن والحضارة، مستدلاً بالدول والحضارات التي قامت في بلاد الرافدين والشام ومصر، ثم عرض الهجرات المتتابعة من آسيا إلى أوروبا، وبدايات ازدهار العلوم والمعارف لدى اليونان واللاتين، وظهور الإسكندر المقدوني، ثم قيام الإمبراطورية الرومانية وانقسامها بعد ذلك إلى شرقية بيزنطية وغربية في روما، ثم صراع الروم البيزنطيين والفرس قبل ظهور الإسلام.

وبانتشار الإسلام في الآفاق اضمحلت مملكتا الروم والفرس، وأصبحت الدولة الإسلامية مهيبة الجانب قوية البنیان، زاهية الحضارة من الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً، في حين تعرضت الكنيسة المسيحية إلى الانشقاق والانقسام بين الكنيسة الغربية الكاثوليكية في روما، والكنيسة الشرقية الأرثوذكسية في القسطنطينية، وعاشت أوروبا عصورها الوسطى المظلمة تحت سيطرة الكنيسة التي دبَّ فيها الفساد.

ثم تناول المؤلف موضوع الحروب الصليبية وآثارها الإيجابية على أوروبا رغم إخفاقها عسكرياً، من خلال نقل علوم المسلمين وحضاراتهم في بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا، بالإضافة إلى ما اكتسبته أوروبا من الحضارة الإسلامية في الأندلس.

وبحلول القرن الخامس عشر الميلادي - التاسع الهجري- بدأت أوروبا تفتيق من سباتها بعد أن تقدم العثمانيون صوب أوروبا من الشرق وأزاحوا الإمبراطورية البيزنطية إثر فتح القسطنطينية، وقد تجلّت صحوة أوروبا في تبني نظام الفرق العسكرية النظامية المتبع لدى العثمانيين، والخروج نحو الاكتشافات الجغرافية في أمريكا والشرق، والسعي لاكتساب الثروة خارج الحدود.

* رأي جديد :

طرح جودت باشا رأياً جديداً في تقسم أدوار التاريخ، فقال: «رأينا من المناسب أن نجعل التاريخ على قسمين، يسمى أحدهما بالتاريخ القديم، وهو من زمن آدم إلى عصر السعادة المحمدية. والثاني بالتاريخ الجديد وهو من عصر السعادة المحمدية إلى الزمن الذي بعده»^(١) وذلك في مقابل تصنيف المؤرخين الأوروبيين لأدوار التاريخ وهي: التاريخ القديم من زمن آدم إلى انقراض دولة الرومان سنة ٤٧٦ بعد الميلاد، وتاريخ العصور الوسطى إلى فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، والتاريخ الحديث أو الجديد إلى يومنا هذا^(٢).

وعلى هذا الأساس اعتبر جودت باشا أن التحولات التي شهدتها أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي - التاسع الهجري- هي ظاهرة جديدة ضمن التاريخ الحديث وليست عنواناً وبدايةً للتاريخ الحديث، فالتاريخ الحديث عنده يبدأ من عصر الرسالة المحمدية الخالدة. وهذا الرأي جديد في موضوعه لم يسبق إليه أحد.

* وفي عصر التحول الأوروبي في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، يشير المؤلف إلى بروز دولة إسبانيا وألمانيا في عهد شارلكان، وبرز دولة فرنسا في عهد ملكها فرانسوي، وعلو مكانة الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني، ووقوفه إلى جانب فرنسا في صراعها ضد الأسبان مخافة قيام تحالف أوروبي صليبي ضد العثمانيين في البحر المتوسط.

ثم عرض المؤلف بعد ذلك تطور الأحداث في فرنسا وأسبانيا، والصراع المذهبي بين الكاثوليكية والبروتستانتية في غرب أوروبا، ونهوض دولة روسيا في الشرق منذ عهد قيصرها بطرس الأكبر الذي رفع شعار التوسع في الأراضي العثمانية والاتجاه صوب القسطنطينية.

١- انظر ص(٣٧٠) من هذا الكتاب.

٢- انظر ص(٣٧٠) من هذا الكتاب.

وقد نوه كثير من الباحثين المعاصرين باهتمام جودت باشا بالتاريخ الأوربي في كتاباته التاريخية والفكرية. فالتحليلات التي يعرضها عن تاريخ أوروبا وأوضاعها الاجتماعية، ضرورية من وجهة نظره لمن يريد دراسة التاريخ العثماني. كما أنها ضرورية في إجراء مقارنات بين الحضارتين الإسلامية والأوربية، والدولة العثمانية ودول أوروبا. وقد خلص جودت باشا إلى ذكر فروق كبيرة بين الحضارتين،^(١) ومنها (كما أسلفنا) أن السلطات في أوروبا قد انقسمت إلى قسمين روحية ومادية، وكل قسم منفصل عن الآخر، و مما يؤدي إلى نشوب نزاعات فيها، وأما في الدولة العثمانية فالسلطة متكاملة تحت يد واحدة هي الخليفة. وأن أوروبا منقسمة حسب الطبقات الاجتماعية منذ العهد الروماني، وهذا مصدر القلاقل والنزاعات الاجتماعية، أما في الإسلام فلا توجد فروق بين الطبقات، والمجتمع العثماني شريحة واحدة متكاملة. والمذاهب الاجتماعية التي ظهرت في أوروبا مثل الاشتراكية لم تظهر إلا بسبب الهوة السحيقة بين الغني والفقير. وأن أوروبا تعد موطناً للانقلابات والقلاقل السياسية، وقد انتشرت فكرة القومية فيها بعد الثورة الفرنسية، أما الدولة العثمانية فهي مجتمع الأمم. وأقوى الروابط في الوجود هي رابطة الدين لا القومية.

* وفي الفصل الثالث من المجلد الأول عرض جودت باشا ملخصاً لأحداث التاريخ الإسلامي منذ عهد الرسالة إلى بداية ظهور الدولة العثمانية. مشيراً إلى أن أهم عنصرين في الشعوب الإسلامية قدما خدمات كبيرة لتاريخ المسلمين هما العرب والأتراك.

* وأما الفصل الرابع، فقد أفرد المؤلف في بيان أحوال الدولة العثمانية منذ بداياتها الأولى في نهاية القرن السابع الهجري، ثم نجاح العثمانيين في تقويض

Ümid Meriç Yazana, Cevdet Pasan'ın Toplum ve Devlet Görüşü, Sy, 169; Yusuf - ١ Halacoglu, M.Akif Aydin, Islam Ansiklopedisi, C 7, Sy 446.

الإمبراطورية البيزنطية، وبناء دولة كبرى جمعت بين الخلافة والسلطنة، ودفاع العثمانيين عن المذهب السني ضد محاولات الصفويين الشيعة في بلاد فارس. وقد أفاض المؤلف في ذكر تفاصيل العصر الذهبي العثماني أيام السلطان سليمان القانوني، وما تبع ذلك من توقف في المد العثماني بعد عصره.

ومن السمات الإيجابية في تدوين جودت باشا التاريخي، تدرجه في ذكر الأحداث، والبحث عن الأسباب والعلل، ورصد أطوار نمو الدولة العثمانية، إذ يقول: «إن الخوف على الدولة والأمة من الوقوع في الخطر والتهلكة إنما يكون في زمن انتقالها من طور إلى آخر»^(١).

* وقد تناول جودت باشا بالتفصيل في الفصل الخامس، أسباب الخلل الذي طرأ على نظم وقوانين الدولة العثمانية في المجالات العسكرية والعلمية، مقارنةً حال العثمانيين في القرون الثلاثة الهجرية التاسع والعاشر والحادي عشر، وما آلت إليه في القرن الثاني عشر الهجري.

* ونظراً لأهمية الجوانب العسكرية في التاريخ العثماني، فقد تناول جودت باشا في الفصلين السادس والسابع فنون الحرب وأساليب القتال وتطور صناعة الأسلحة، وتاريخ البحرية الإسلامية، وإنشاء الأسطول العثماني بسبب الحاجة إلى مواجهة إسبانيا في البحر المتوسط بعد سقوط الأندلس. وسير أبرز مجاهدي البحر في العهد العثماني، واختتم الفصل السابع بذكر أسباب ضعف الأساطيل البحرية والآلة العسكرية العثمانية.

* وفي الفصل التاسع من المجلد الأول، عرض جودت باشا جوانب مهمة في تاريخ بلاد القرم وبلاد القوقاز، مشيراً إلى أن بلاد القرم قد دخلت في النفوذ العثماني منذ عهد السلطان محمد الفاتح، وأصبح خاناتها التتار يدينون بالتبعية

١ - انظر ص (١٩٦) من هذا الكتاب.

للعثمانيين. ولذلك ترجم حياة أبرز خانات التتار ومجمل الأحداث في عهودهم، وخاصة ما يتعلق بالأطماع الروسية في القرم، التي انتهت باستيلاء روسيا على القرم في أواخر القرن الثاني عشر الهجري.

ثم تناول المؤلف أقسام ممالك القوقاز الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين وأبرزها بلاد الجركس والقبارطاي وداغستان والكرج. وأشار إلى أن القوقاز وقعت تحت تهديدتين أحدهما من الروس في الشمال والآخر من الفرس في الجنوب، ولذا أثر القوقازيون الانحياز للجانب العثماني بحكم الارتباط المذهبي والثقافي بين الطرفين.

ولاشك أن مذكره جودت باشا عن تاريخ القرم والقوقاز، يحظى بأهمية خاصة نظراً لشح المصادر وخاصة العربية فيما يتعلق بتاريخ هذه المناطق.

* وقد خصص جودت باشا الفصل العاشر لتاريخ البلاد العربية وما حولها كبلاد فارس. وبدأ بذكر أحوال مصر وأبرز الوقائع فيها منذ الفتح الإسلامي إلى عصر المؤلف. ثم عرض جوانب مهمة من تاريخ جبل لبنان وبلاد الشام، وتقسيماتها الإدارية، وعادات وتقاليد ومذاهب الطوائف المتعددة فيها. مثل الدروز والنصيرية. وانتهى المؤلف إلى ذكر أحوال العراق وبلاد فارس، وسياسة العثمانيين في ولايتي بغداد والبصرة.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف قد أقحم بين الفصول موضوعات مختلفة لا ترتبط بالفصل الذي قبله أو الذي بعده، وعنون لبعضها بعبارة استطراد وأحياناً بعبارة فذلكه. فنجد في المجلد الأول على سبيل المثال، بين الفصلين الثالث والرابع (استطراد في إحداث التوغ والسنجق واللواء) وبين الفصلين الرابع والخامس (استطراد في ترتيب الدواوين) (استطراد في أمر التبغ) (استطراد في صناعة الطباعة) وبين الفصلين الثامن والتاسع (استطراد في تلقيح الجدري) (استطراد في حق المسكوكات). ويبدو أن السبب في ذلك رغبة المؤلف في أفراد ما ليس له علاقة بالأحداث التاريخية في موضوعات خاصة لا تتداخل معها.

وفي ختام المجلد الأول نشر المؤلف مجموعة من التقارير والمراسلات الوثائقية ألحقها بالكتاب. وقد أحال إليها في ثنايا الفصول. وهذه الوثائق جديرة بكشف مضامينها ودراستها من قبل المتخصصين في التاريخ العثماني، والعلاقات بين المسلمين وأوروبا.

وفيما يلي عرض تحليلي أكثر إيجازاً لمحتوى المجلدات من الثاني إلى الثاني عشر من تاريخ جودت، المدون باللغة التركية العثمانية:

*** المجلد الثاني:**

يبدأ بذكر وقائع سنة ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م، إلى وقائع سنة ١١٩٧هـ/ ١٧٨٣م. وخلال هذه السنوات العشر جرت أحداث كثيرة، رتبها المؤلف بطريقة حولية. وأبرز الأحداث التي يمكن الإشارة إليها هنا ما ذكره المؤلف في أحداث سنة ١١٩١هـ- ١٧٧٧م، حول ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وقد عنوانها المؤلف بعبارة (ظهور الوهابيين). . . وتتضمن معلومات مشوشة عن الدعوة لا تعدو أن تكون استمراراً للمفاهيم الخاطئة التي وصلت إلى العاصمة العثمانية. وقد انبنى على سوء الفهم هذا، مشكلات كبيرة بين الجانبين، انتهى في النهاية بسيادة الفكر الإصلاحى لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله-.

ومجمل الأحداث المذكورة في هذا المجلد تتعلق بالأحداث الداخلية من تعيينات وعزل ووفيات، وأحداث القرم وروسيا ومصر والشام والعراق وفارس، وقدوم سفراء إلى الباب العالي من روسيا وفرنسا وإنجلترا وأسبانيا وبعض البلاد الإسلامية مثل بخارى.

*** المجلد الثالث:**

يتناول تاريخ الوقائع والأحداث من سنة ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م، إلى سنة

١٢٠١هـ / ١٧٨٧م. وقد حشد فيه المؤلف أحداثاً كثيرة داخلية وخارجية، ففي الميدان الداخلي: ذكر حرب صوفيا، وأحوال بر الشام والعراق ومصر، وكرجستان وداغستان، وقضايا العزل والتعيين والوفيات لكبار رجال الدولة، وبعض الإصلاحات والنظم العسكرية المستحدثة. وفي الميدان الخارجي: تناول المؤلف العلاقات مع روسيا بشأن القرم، وعلاقات الدولة بالبحر المتوسط وإسبانيا وفرنسا وبروسيا، والسفارات المتبادلة بين الطرفين.

*** المجلد الرابع:**

يتناول أحداث أربع سنوات من التاريخ العثماني من سنة ١٢٠١هـ / ١٧٨٧م إلى سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٩٠م، وفيها تفاصيل الحرب بين روسيا والنمسا وخروج الأسطول السلطاني، وعودة سفيري فارس وإسبانيا، وبعض الوقائع في العراق ومصر، وترجمة حال السلطان عبد الحميد الأول، وجلسات السلطان سليم الثالث، وبعض النظم الجديدة المستحدثة.

*** المجلد الخامس:**

يبدأ ببقية وقائع سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٩٠م، إلى وقائع سنة ١٢٠٦هـ / ١٧٩٢م. وأبرز الوقائع المدونة حرب الأسطول العثماني في البحر المتوسط ضد اليونان، وحرب الأسطول العثماني في البحر الأسود ضد الروس، وسير الأحداث في الجزيرة العربية ومصر، وصدور نظام دار صناعة السفن (الترسانة)، وتجديد قانون التيمار والزعامة.

❖ المجلد السادس:

في هذا المجلد عرض لوقائع الدولة العثمانية منذ سنة ١٢٠٧هـ/١٧٩٣م، إلى سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٩م، وقد أرّخ المؤلف لعدد من الأنظمة التي صدرت في عهد السلطان سليم الثالث، الذي يعتبر عهده الانطلاقة الفعلية للتنظيمات العثمانية المستوحاة من النظم الغربية. ومن هذه الأنظمة نظام تقديم اللوائح، ونظام العملة، ونظام الفرق العسكرية الجديدة، وقانون ضباط البحرية، وقانون الوزارة، ونظام تدوين الوقائع، وقد تزامنت هذه التنظيمات الجديدة مع أحداث الثورة الفرنسية وظهور نابليون بونابرت، وغزو مصر. كما عرض المؤلف أحداثاً داخلية أخرى كالوضع في الحجاز، وفي جبل لبنان، وأنحاء متفرقة من الدولة.

❖ المجلد السابع:

يبدأ ببقية وقائع سنة ١٢١٣هـ-١٧٩٩م، إلى وقائع وأحداث سنة ١٢١٩هـ/١٨٠٥م، وهذه المدة الزمنية جزء من عهد السلطان سليم الثالث. وقد ذكر المؤلف جملة من الأحداث الداخلية في هذه المرحلة تخص الجزيرة العربية، وذلك بسبب ظهور قوة الدولة السعودية الأولى في ساحة الجزيرة العربية في عهد الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود وإبنه الإمام سعود - رحمهما الله - فقد ذكر المؤلف تفاصيل دخول السعوديين إلى مكة المكرمة بقيادة سعود بن عبد العزيز، وتحركات القوات السعودية في الأحساء وبر الشام وأطراف العراق، وهو في سرده للأحداث يمثل وجهة النظر العثمانية الرسمية المعادية.

كما تطرق المؤلف إلى تفاصيل غزو نابليون بونابرت الفرنسي لمصر والشام، ومسير القوات العثمانية إلى مصر، وتحرك الأسطول البريطاني إلى المياه المصرية للتصدي للغزو الفرنسي.

*** المجلد الثامن:**

يتناول بقية الأحداث في سنة ١٢١٩هـ-١٨٠٥م، إلى وقائع سنة ١٢٢٣هـ-١٨٠٩م. واستهلها بذكر أحداث الحرب الروسية الإيرانية، واتفاق الدول الأوروبية ضد نابليون الفرنسي، وتغلب محمد علي باشا في مصر، ودخول جيوش الدعوة إلى المدينة المنورة، وخلع السلطان سليم الثالث وإعدامه في استانبول، وتعيين السلطان مصطفى الرابع لمدة قصيرة، ثم جلوس السلطان محمود الثاني.

*** المجلد التاسع:**

يبدأ ببقية وقائع سنة ١٢٢٣هـ-١٨٠٩م، حتى وقائع سنة ١٢٢٦هـ-١٨١٢م، وأبرز هذه الوقائع ما يتعلق بتدخل الإنكشارية في الاضطراب السياسي في العاصمة العثمانية، وموقف السلطان محمود الثاني من هذا التدخل، وأحداث حروب نابليون في أوروبا، والهجمات الروسية على الحدود العثمانية، وبعض الحوادث في مصر والشام والعراق.

*** المجلد العاشر:**

يتناول أحداث المرحلة الزمنية الممتدة من سنة ١٢٢٦هـ-١٨١٢م، إلى سنة ١٢٣١هـ-١٨١٧م، من عهد السلطان محمود الثاني. وقد أشار المؤلف إلى تفاصيل حروب نابليون في أوروبا وغزو روسيا، وبدايات غزو قوات محمد علي باشا للجزيرة العربية، ودخول المدينة المنورة وجدة، ووفاة الشريف غالب.

*** المجلد الحادي عشر:**

ويبدأ بوقائع سنة ١٢٣٢هـ-١٨١٨م، إلى وقائع سنة ١٢٣٦هـ-١٨٢٢م، وأبرز الأحداث المذكورة ما يتعلق بوقائع مصر والحجاز والعراق. وسير معارك

إبراهيم باشا بن محمد علي، في نجد. والوضع في الممتلكات العثمانية في البلقان.

✳ المجلد الثاني عشر:

يتناول بقية أحداث ووقائع سنة ١٢٣٦هـ-١٨٢٢م، إلى نهاية وقائع سنة ١٢٤١هـ-١٨٢٧م، وأبرز الأحداث الواردة في المجلد؛ ما يتعلق بتوتر الوضع على الحدود العثمانية الإيرانية، وبعض الوقائع في مصر والسودان وبر الشام. وبعض التنظيمات الجديدة التي طبقها السلطان محمود الثاني، مثل إلغاء الطريقة البكتاشية وحل فرق الإنكشارية.

وفي الجملة، نجد أن تاريخ جودت في أجزائه من الثاني إلى الثاني عشر موسوعة تاريخية لأحداث خمسين عاماً من التاريخ العثماني في مرحلة من أدق مراحل الدولة العثمانية. وأما المجلد الأول فقد أرخ للتاريخ الإسلامي عامة والعثماني خاصة. مع تناول قيم لتاريخ الأمم والشعوب الأخرى.

✳ مصادر الكتاب:

اعتمد جودت باشا في كتابة تاريخه على العناصر الرئيسية للمصادر، وأبرزها ما يأتي:

- الوثائق :

فقد أفاد جودت باشا من وثائق الأرشيف العثماني، واستخدمها في تاريخه كثيراً. وهناك تصنيف في أرشيف مجلس الوزراء العثماني يُعرف بتصنيف جودت، تم إعداده من لدن «معلم جودت» أحد خبراء الأرشيف (غير جودت باشا)، وهي الوثائق التي اطلع عليها جودت باشا واستفاد منها كثيراً. وهذا التصنيف يشمل أقسام العدلية، العسكرية، البحرية، البلدية، الداخلية،

الأوقاف، الخارجية، المالية، النافعة (الأشغال العامة)، الصحية، الأيالات المتأثرة... ويظهر أن أكثر ما استخدمه جودت باشا في تاريخه؛ هو ما يتعلق بالداخلية والعدلية والعسكرية والبحرية^(١).

وقد أشار جودت باشا في مقدمته إلى ذلك بقوله «... فقد طالعنا ما أمكن الوصول إليه من مضابط مجالس الشورى والصحف الرسمية السائرة وقيود دفاتر الدوائر فانتقينا منها كل ما ينبغي أخذه ضبطاً للوقائع وتحريراً لها، وذلك لتتوصل إلى الحقيقة على قدر الإمكان»^(٢).

ويُعد جودت باشا في تحليله لوثائق الأرشيف وتقييمه لها؛ الأول في التاريخ المعاصر، فالذين سبقوه لم يحرزوا النجاح الذي أحرزه. صحيح أنه قد نشرت وثائق من لدن مؤرخي الدولة الرسميين قبل جودت باشا، غير أنها كانت تفتقد للتحليل والتقييم. وكما أنه حلل مضمون تلك الوثائق، فإنه قد نشر متون بعضها في نهاية تاريخه أيضاً. ولذا قلما خلا جزء من أجزاء تاريخ جودت من وثائق ملحقه في آخر الجزء^(٣).

بيد أنه يلاحظ أن المؤلف لم يشر إلى أرقام الوثائق التي استخدمها، والسبب كما يبدو أن مفهوم الأرشيف في عصر تدوين جودت باشا لم يكن قد تطور بعد لدى العثمانيين. كما أن الوثائق لم تكن مصنفة بالتصنيف الذي نراه اليوم^(٤).

1- Yücel Özkaya, Ahmed Cevdet Pasanin Tarih' inde Arsiv Belgelerini Kullanıs ve Degerlendirisi, Ahmed Cevdet Pasa Semineri, Istanbul üniversitesi, 1986, Sy, 145.

٢- انظر ص(٩٢) من هذا الكتاب.

٣- تضم أجزاء تاريخ جودت (الاثنى عشر) عشرات الوثائق المنشورة كملاحق في آخر كل جزء وتختص بنصوص الاتفاقيات والفرمانات السلطانية، والتعيينات الرسمية، والمراسلات الأجنبية وغيرها، وهي جديرة بالاستخلاص من قبل أحد الباحثين وأفرادها وفهرستها في مجلد مستقل.

4- Yücel Özkaya, Ahmed Cevdet Pas' anin Tarih' inde Arsiv Belgelerini Kullanıs ve Degerlendirisi, S 146.

- المصادر التركية العثمانية:

اعتمد جودت باشا على أكثر من خمسين مصدراً تاريخياً مطبوعاً ومخطوطاً. ويأتي في مقدمتها المصادر الأصلية للتاريخ العثماني، مثل مؤلفات كاتب جلبي المعروف بالحاج خليفة (ت ١٠٦٧هـ)، ومنها كتاب «تحفة الكبار في أسفار البحار»، وكتاب «كشف الظنون». ومؤلفات القاضي المؤرخ شمعداني زاده (ت ١١٩٣هـ)، وبشكل خاص «تاريخ شمعداني»، ومؤلفات كاتب الوقائع خليل نوري بك (ت ١٢١٣هـ)، وبشكل خاص «تاريخ نوري». ومؤلفات واصف أفندي (ت ١٢٢١هـ)، وبشكل خاص «تاريخ واصف». ومؤلفات عاصم أفندي، ومنها «تاريخ عاصم».

وفي إطار عرض تاريخ الولايات، اعتمد المؤلف على مصادر متعددة مثل «مجموعة هاشم أفندي» عن تاريخ الجراكسة، «وتاريخ مير يوسف» حول تاريخ داغستان، «وتاريخ ملك» حول بلاد اليونان، وتاريخ «عبر تنماي دولت» حول بلاد القرم.

وفي التراجم لرجال الدولة وعلمائها؛ اعتمد المؤلف على جملة من المصادر العثمانية المطبوعة والمخطوطة ومنها كتاب «حديث الوزراء» لعثمان زاده، و«دوحة المشايخ» لسعد الدين أفندي، «وسفينة الرؤساء» لسليمان فائق.

- المصادر العربية:

لم يعتمد جودت باشا كثيراً على المصادر العربية وإنما اكتفى بستة مصادر، في مقدمتها مؤلفات عبد الرحمن الجبرتي، ومنها «تاريخ الجبرتي» وكتاب «مظهر التقديس بخروج طائفة الفرنسيين». ومؤلفات عبد الشكور أفندي أحد علماء الحجاز، ومنها «تاريخ عبد الشكور» في التاريخ والتراجم، ومؤلفات المعلم نيقولا الترك، ومنها «تاريخ نيقولا».

ورغم تأثر جودت باشا بآبن خلدون ووجود تشابه معه في طروحاته الفكرية، إلا أنه لم يشر إليه صراحة ضمن قائمة مصادره التي اعتمد عليها والتي ذكرها في مقدمة الجزء الأول.

المصادر الأوروبية:

يُذكر أن جودت باشا استند أكثر ما استند على المصادر الشرقية، وأنه مما ينتقد عليه عدم اعتماده على المصادر الغربية كما ينبغي. والسبب الذي يذكر في تعصيد هذا الرأي هو عدم إمامه بلغة غربية على أقل تقدير. وهذا الرأي غير صحيح كما يرى ذلك أحد الباحثين الأتراك المعاصرين،^(١) فهو لم يكن غريباً عن اللغات الأوروبية، كما أنه لم يكن بعيداً عن المصادر الغربية. ففي المعلومات التي يذكرها في بعض كتبه، يشير إلى أنه كان يتعلم الفرنسية، غير أنه لم يستطع إتقان اللغة إتقاناً كافياً، ونجح فقط في المستوى الذي يعينه على فهم محتوى كتب التاريخ والقوانين الفرنسية. كما استفاد جودت باشا من المصادر الأوروبية المترجمة إلى التركية.

وقد أشار جودت باشا في قائمة مصادره الأوروبية المترجمة التي اعتمد عليها في تاريخه إلى كتاب «فن الحرب» ألفه مونته قو قوللي قائد العساكر النمساوية ووزيرها الشهير الذي توفي سنة ١٦٨١م. وكتاب «تاريخ كاترينة» حول تفاصيل عهد كاترينة إمبراطورة روسيا، وكتاب «مذكرات نابليون بونابرت» التي كتبها في منفاه في جزيرة سانت هيلانة، وغيرها من الكتب.^(٢)

وفي أحيان أخرى يستفيد المؤلف من المصادر الأجنبية، غير أنه لم يكن يشير إليها إشارة خاصة؛ فقد كان يذكر عبارات عامة مثل (يذكر المؤرخون الأوروبيون)

١ - Zeki Arian, Cevdet Pasanin Tarihinde Kullandigi Yabancı Kaynaklar ve Terimler, Ahmed Cevdet Pasa Seminesi, Istanbul üniversitesi,, 1986, Sy 179-180.

٢ - انظر مصادر المؤلف في مقدمة الجزء الأول.

و(كان ذلك صريحاً في التواريخ الغربية) ، كما أنه أشار إلى نشأة أمريكا بقوله :
إن كتب التاريخ لدينا لا تشير إلى ذلك غير أننا استخرجنا من كتب التاريخ الغربية
تفصيلات ذلك . إلا أنه لا يشير إلى الكتب التي استخرج منها تلك المعلومات .

أما المصطلحات الغربية التي استخدمها جودت باشا في تاريخه فهي كثيرة ،
منها على سبيل المثال : "بالاس" للإشارة إلى القصور والحياة الباذخة ، وكذلك
مصطلح "بولوتيكاً" للإشارة إلى السياسة ، ومصطلح «الأكليرك» الرهبان
ومصطلح "البرلامنتو" المجلس النيابي ^(١) .

وبالإضافة إلى مصادر جودت باشا الوثائقية والمصادر العثمانية والعربية
والأوربية ، فقد أشار جودت باشا إلى اطلاعه على بعض كتب التاريخ الفارسية
المتضمنة أخبار العراق والفرس إلا أنه لم يذكر أسماء هذه المصادر .

وهكذا نرى أن مصادر جودت باشا في تاريخه ، واسعة وشاملة ، اعتمدت
على عناصر متعددة أبرزها الوثائق والكتب العثمانية المطبوعة والمخطوطة ، إضافة
إلى المصادر الأخرى غير التركية ، مما يجعل لكتابه قيمة خاصة ، انفرد بها جودت
باشا عن بقية مؤرخي عصره أو الذين سبقوه .

1- Zeki Arian, Cevdet Pasanin Tarihinde Kullandigi Yabancı Kaynaklar ve Terimler,
Sy. 191-192.

القسم الثاني

نص الكتاب

مقدمة المؤلف

الحمد لله خالق المكان والزمان. الذي تنزه وتعالى شأنه عن المشابهة والمماثلة والنقصان. خلق العالم الأكبر ثم أظهر منه نسخة الإنسان. فأوجده على هيئة رسة. ثم وسمه بوسمه. وطوى الأكبر في الأصغر. فاندمج فيه اندماجاً بهر العقول وحير. وجعله جامعاً لحמיד الخصائل. ممتازاً بكمال الفواضل والفضائل. أحمدته حمداً لا يأتي عليه العد والإحصاء. وأشكره شكراً لا غاية لاستيعابه ولا انتهاء. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب أودع في العالم الإنساني أسرار ربوبيته. وأظهر فيه ومنه بعظيم قدرته خبايا مشيئته. وقبل أن يعرفه بفضله. ويطلع على ما خلقه لاجله. نادى منادي التنويه والتشريف. في مقام التنبيه والتعريف. إني جاعل في الأرض خليفة في الحكم والتصرف. فأظهر الملاء الأعلى الإنكار. وقالو أين ترى عالم الظلمة من ثريا عالم الأنوار. فلاح له حينئذ نور العناية من تلقاء مكتب التعليم وعلم آدم الأسماء كلها. مجملها ومفصلها. ثم ازداد في الترقى حتى أحرز قصب السبق في ميدان الامتحان. وألبس من لدن الملك الديان خلعة الاصطفاء بيد الفضل والامتنان. وعلم أخبار المتقدمين، وحوادث المتأخرين.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده المحض، ورسوله إلى أهل السماء والأرض. وأهدى تحائف الصلوات. وطرائف التسليمات. إلى روضته الزاهرة. وترتبه الطيبة الطاهرة. فهو فخر الأولين والآخرين. المحكوم له بالتقدم بتوقيع (كنت نبياً وآدم بين الماء والطين)^(١) النبي الأمين. الذي جاء بالصدق وحق اليقين.

١- (كنت نبياً وآدم بين الماء والطين) هذا الحديث ذكره الألباني بنصه بأنه موضوع، ومثله (كنت نبياً ولا آدم ولا ماء ولا طين) موضوع. والصحيح في هذا لفظ (كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد) صحيح الإسناد. محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة مجلد ١، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٥هـ، رقم ٣٠٢-٣٠٣، ص ٣١٦-٣١٧.

وأرشد الخلق بشرعه القويم المبين. إلى ما فيه سعادتهم في الدارين. وذكرهم بأمر الله فيهم. إذ أخرجهم كالنذر من ظهر أبيهم آدم وخاطبهم بخطابه المستطاب. على ما سبق في أم الكتاب. (ألست بربكم)^(١) فلم يسعهم إلا الإقرار والإيجاب. ولقد أوصل صلى الله عليه وسلم خواص المؤمنين. إلى مقام المعرفة الكاملة وكشف اليقين. وأتحفهم بما أرضاهم وقرّ أعينهم فكانوا لربهم وله من الشاكرين.

ثم الرضى عن آله وأصحابه وعترته. وأنصاره وسائر أهل محبته. الذين كانت أطوارهم الحسنة وسيرهم المستحسنة أنموذجاً لتابعيهم، وتابعي تابعيهم. وهكذا إلى يوم الدين. وكانت أخبارهم وأحاديثهم منتجع الطالبين. وبغية الراغبين. تشرح عند سماعها الصدور، وتبتهج بتدوينها السطور.

أما بعد فيقول الفقير إلى عفو مولاه القدير (أحمد جودت) المعترف بالعجز والتقصير. إن من أحسن ما يرويه الخلف عن السلف. وأفضل ما يهتم اللبيب في تحصيله من أسباب الرفعة والشرف. فن التاريخ فإنه من الفنون العلمية. التي لازالت ولا تزال الحاجة إليها ضرورية. وذلك لأنه أعظم وسيلة إلى الذكرى. وأكبر دليل إلى العبرة سراً وجهراً. وبه تعرف حوادث الأيام الحالية. وأخبار الأمم السالفة الماضية. وبه تتميز المراتب والمقامات. ويعلم تفاوت الناس في المزايا ومحاسن الصفات. ولهذا كان أهل الفضل في كل عصر يعتنون بتدوين السير والأخبار. وضبط ما يطرق من حوادث الليل والنهار. بل كل أمة تسعى جهدها. وتبذل من همتها ما عندها في الحصول على ما يخلد في الصحف ذكراً جميلاً. وماتستحق به وعليه في العالم شكراً جزيلاً. وهكذا كان رجال الدولة العلية. يضبطون وقائعها وأحكامها وسائر إجراءاتها المرعية. ويقيّدونها على التوالي منذ

١ - الآية بتمامها (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين). الأعراف ١٧٢.

ابتداء ظهورها. وانبعث أشعة نورها. إلى سنة ١١٨٨ ثم حالت دون تنقيحها ونشرها موانع كثيرة. وعوائق أثيرة. فوضع الدهر عليها يد الإهمال. وما حدث بعدها من الوقائع ونقلته الجرائد فإنه طرح من غير تلخيص في زوايا الإهمال.

ثم لما ظهر مَجَلِّي الكمال والعدل. والرحمة والفضل. حسنة الزمان. واسكندر الأوان. ومحبي سنة أسلافه من آل عثمان. صاحب الخلافة العظمي والملك الباهر الأسمى. السلطان بن السلطان. السلطان الغازي عبد المجيد خان^(٢) أيده الله، اطلع على ما ذكرناه من الإهمال والتقاعس عن الاعتناء بما هو زينة للملك وكمال. وأنفس ما اعتنى به أفاضل الرجال. فصرف نظره العالي إلى إحياء ذلك الفن النفيس الدارس. وغيره من العلوم التي هي جمال المدارس والدارس. وبذل عنايته السلطانية من يوم جلوسه السعيد. الذي هو عندنا أكبر موسم وأعظم عيد. في تأسيس أركانها. وتشيد بنيانها. فظهر في أيامه ما كان منها مستتراً تحت غيوم النسيان. وبرز من أنواعها ما كان مخفياً عن العيان. فأصبح عصره الميمون يفاخر الأعصار. بما تتباهى به الممالك المحروسة على سواها من الممالك في الآفاق والأقطار وبناء على أوامره المطاعة. وتكليفه الهينة المستطاعة جرت المذاكرة مرات في مجلس المعارف في ضبط الوقائع متصلاً ذلك من تاريخ سنة ١١٨٨ إلى سنة ١٢٤١ وهي السنة التي وقعت فيها الواقعة الخيرية (أي إزالة سطوة الإنكشارية) وجددت الدولة فيها قواعدها الأصلية والفرعية. فوقع الاتفاق على إثبات هذه القضية. وصدرت بامضائها وإجرائها الإرادة

١- في النسخة المترجمة ورد اسم السلطان عبد الحميد خان، وهو خطأ لأن الأصل العثماني يذكر اسم عبد المجيد خان وهو الصحيح. انظر النسخة العثمانية الأصلية لكتاب تاريخ جودت، إستانبول، طبعة ١٣٠٢هـ، ج١، ص٣.

٢- السلطان عبد المجيد الأول (١٢٣٧هـ-١٢٧٧هـ)، هو السلطان العثماني الحادي والثلاثون. سارت الدولة في عهده خطوات أكبر نحو التنظيمات الجديدة المتأثرة بالغرب الأوربي. ومدة سلطنته اثنتان وعشرون سنة. توفي شاباً وعمره أربعون سنة. انظر، إبراهيم بك حليم، التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٨هـ، ص٢١٣-٢١٦.

السنية، مع ملاحظة أن يكون هذا الأمر مرتباً على وجه حسن يحيا به ما اندرس من مناقب السلف. وبدائعهم الباهرة لعقول الخلف، الداعية لحسن الإصغاء وإلى ما يليق لمقامه العالي من صالح الدعاء. ثم أنيط هذا الأمر بي مع أنني لست أهلاً لذلك، ولا ممن تحدّثه نفسه بسلوك هذه المسالك. وحيث إنني كنت من أعضاء ذلك المجلس الموقر رأيت من الواجب عليّ إظهار خالص الدعاء، وأداء الشكر وجميل الثناء على هذه النعمة السلطانية التي لا أقدر أن أقوم بشكرها، ولا أزال في طيب ذكرها. فبادرت إلى بذل الوسع في هذا الشأن واستعمال المهمة فيه على حسب الإمكان، امتثالاً لإشارة من أفتخر بانتسابي إلى بابه، وتعلقي بأسبابه. وإناخة مطايا آمالي ببابه. الذي ساحته محط رجال المعارف. ومأوى خزينة التليد منها والطارف، ومركز الوزارة العظمى. معدل مدار الأمن والعدل في المقام السلطاني الأحمى. حلال مشكلات الأنام، كشف معضلات الأحكام والمهام، الوزير الأكبر الآصفى الأشهر أرسطاطاليس الحكم وتدير الأمم الصدر الأسبق المتصف بصفات السعادة الأبدية. ومولى العز والابتهاج الآن لمقام النظارة الخارجية. رشيد باشا^(١). يسر الله له ما شاء. ولشدة ميله وحرصه على نشر المعارف وبثها شوقني وألح علي في المبادرة إلى ما ندبني أهل المجلس إليه. وعولوا علي فيه. فعند ذلك أجبت. وإلى الشروع فيه عجلت. متوكلاً على الله تعالى في تيسير ما إليه قصدت. وإنجاز ما به وعدت. وابتدأت كتابة الأخبار وجمعها مع الضبط والتنقيح م سنة ١١٨٨هـ إلى سنة ١٢٣١هـ وقد وافق شروعي في العمل أوائل سنة ١٢٧٠هـ وإنني أسأل الله عز شأنه أن يطيل عمر صاحب الخلافة أمير المؤمنين مؤيداً بالسطوة والشوكة والإجلال. وقهر الأعداء

١- مصطفى رشيد باشا (١٢١٤هـ-١٢٧٤هـ) : من أشهر الصدور العظام في أواخر عهد الدولة العثمانية، تولى الصدارة في عهد السلطان عبد المجيد ست مرات، ثم وزارة الخارجية. وكان سفيراً للدولة في باريس ثم لندن. وعين خلال تلك الفترة رئيساً لمجلس التنظيمات، ويعتبر المنظر الحقيقي للتنظيمات العثمانية ذات الصبغة الأوروبية الغربية. قاموس الأعلام ٢٢٨٣/٣.

في كل آن وحال . فيفتخر بآثاره الجديدة الجليلة أهل الفضل والكمال .
ويتخذونها طيب مجامعهم بالغدو والآصال . آمين .

وهذا دعاء لا يرد لآئه دعاء إلى^(١) كل البرية شامل

ذكر مآخذ^(٢) هذا التاريخ

كان في كل عصرٍ يعينُ مأمور من ذوي المعارف لضبط الوقائع ولحد سنة ألف
كان يدعى هذا المأمور (شهنامه جي) ثم بعد ذلك صار يدعى (وقعة نويس) أي:
كاتب الوقائع، فلذلك كانت وقائع الدولة تضبط متواصلة بالتسلسل إلى تلك
العصور في صحائف الأيام وتحفظ في أذهان الأنام .

وكان من الآداب القديمة في الدولة العلية أن كُتِّب الوقائع يضبطون الوقائع
يوميةً ويقيدونها في جرائدهم وأحياناً ينقلونها من المسودة إلى المبيضة ويقدمونها
إلى المقام الأسمى؛ أما جرائد الضبط التي لم يقدرها على تبييضها فكانت تسلم
إلى الخلف وهم يبيضونها .

ولا يخفى أنه يعسر على المؤرخ أن يكتب تاريخ عصره موافقاً للحقيقة وخالياً
عن الأغراض . وكان كتاب الوقائع أفرطوا في الخلوص وتغالوا في تواريخهم
بالفاظ التملق؛ فلذلك كان وضع ما ضبطوه في صورة صحيحة، يحتاج إلى
تنقيحات وتعديلات كلية .

١- (على) في النسخة التركية .

٢- أي المصادر التي اعتمد عليها المؤلف .

(١) تحفة الكبار) هي من آثار الكاتب چلبی المشهورة التي تستغني عن التعريف .

(رسالة قوجي بك) وهو كوريجه لي بك أحد أصحاب المعارف تحتوي على عدة تقارير قدمها إلى السلطان مراد الرابع (٢) .

قال شاني زاده عندما ذكره أسباب هزيمة الجنود أن قوجي بك الكوريجوي أوضح هذا الأمر لحضرة السلطان مراد الرابع أسكنه الله الجنة وأطلععه على حقيقته من غير تلبيس ولا مدهانة بوجه ينطبق على أدب العقلاء كما هي ثم قال والحق يقال إن هذه الرسالة تفضل رسالة أبي النجيب وتفوق عليها .

(حديقة الوزراء) (٣) و(دوحة المشايخ) (٤) و(سفينة الرؤساء) (٥) وما يتبعها من الذیول لا تحتاج إلى التعريف لشهرتها .

(مقدمة قوانين التشریفات) وهي رسالة لنائلي عبد الله باشا جعلها شرحاً على مجموعته التي جمع فيها قوانين تشریفات الدولة العلية بالإرادة السنية حينما

١- مصطفى بن عبد الله كاتب چلبی (١٠١٧-١٠٦٧هـ)، المعروف بالحاج خليفة، مؤرخ بحائه، مولده ووفاته في استانبول. انقطع في أواخر حياته للتدريس والتأليف ومن أشهر كتبه «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - مطبوع» و«تحفة الكبار في أسفار البحار». انظر، خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٧، ص٢٣٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦.

٢- السلطان مراد الرابع (١٠٢٠-١٠٤٩هـ)، وهو السلطان الرابع عشر في سلسلة سلاطين الدولة العثمانية. تولى الحكم والدولة في حالة فوضى، فاجتهد في تأديب العصاة، وأعاد الأمن إلى الأناضول، وسار على رأس جيشه لاسترداد بغداد من سطو الصفويين. مات في شبابه وخلف دولة قوية. انظر، إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٦-١٣٤.

٣- حديقة الوزراء في إجمال أحوال وزراء الدولة العلية. تأليف أحمد أفندي نائب المعروف بعثمان زاده. مخطوط. انظر علي حلمي الداغستاني، فهرس الكتب التركية الموجودة في المكتبة الخديوية، المطبعة العثمانية بمصر، ١٣٠٦هـ. ص٢٢٩.

٤- دوحة المشايخ الكبار في مناقب علماء الدولة العلية العثمانية من ابتداء سنة ٧٣٤ إلى سنة ١١٥٨هـ. تأليف سعد الدين سليمان أفندي أمين الله عبد الرحمن بن محمد، المعروف بمستقيم زاده، مخطوطة. فهرس الكتب التركية، ص٢٢٤.

٥- سفينة الرؤساء في مناقب رجال أهل الرئاسة في حكومة الدولة العلية العثمانية من ابتداء سنة ١١٧٨هـ، إلى سنة ١٢٥٣هـ. تأليف سليمان فائق أفندي. جعلها ذيلًا لكتاب حديقة الرؤساء لأحمد أفندي رسمي الكريدي. فهرس الكتب التركية، ص ٢٠٨.

كان تشريفاتياً^(١) وبين فيها أسباب هذه القوانين وسماها مقدمة قوانين التشريفات .

(مجموعة فائق أفندي) جمعها مؤلف ذيل سفينة الرؤساء سليمان فائق أفندي تحتوي على نوادر الأخبار وغرائب الوقائع ظفرت منها بالنسخة التي هي بقلم المؤلف .

كتاب (فن الحرب) وهو تأليف بديع في بابيه ألفه مونت قوقولي قائد العساكر النمساوية ووزيرها الأول الشهير الذي توفي سنة ١٦٨١ للميلاد . يشتمل هذا الكتاب على ثلاثة أبحاث : الأول في بيان أنواع الحرب وأصولها وفروعها والثاني في تفصيل الحروب التي وقعت في بلاد الأنكروس^(٢) مدة مديدة بين الدولة العلية والنمسا وقد جعل المؤلف البحث الأول بمثابة صغرى لنوال؛ المراد والثاني بمنزلة كبرى؛ والبحث الثالث أظهر فيه قوة الدولة العلية القاهرة وكيفية أخذ الدول الجانحة إلى الحرب والنزال بأسباب الحزم والحيلة والتبصر، ثم ذكر الأسباب والوسائل التي تحصل بها الغلبة والظفر، وأبان منزلة المهالك والأخطار المستترة تحت رماد هذه الحروب العظيمة فأحسن في النتيجة وأجاد ووفى بالمراد وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة التركية ولم يطبع .

(تاريخ) كاترينة وهو تاريخ صغير مشهور ألفه رجل اسمه قسترا، ذكر فيه تفصيل أحوال كاترينة امبراطورة الروس وترجم عن الفرنسية إلى التركية^(٣) وطبع .

رسالة (آيينه ظرفا)^(٤) فيها تراجم أحوال كتاب الوقائع .

١- تشريفاتي Tesrifatailik وظيفة مهمة استحدثت في عهد السلطان سليمان القانوني وكان يطلق على القوائم بهذه الوظيفة تشريفاتي أفندي، أو تشريفاتجي أفندي، ويقوم بمتابعة تنفيذ البروتوكولات في المراسم الحكومية والمناسبات، حسب ما هو مدون في دفتر الموجود بين يديه . وكان إلى جانب ذلك يمسك دفاتر الرسوم الخاصة بأركان الدولة من وزراء وغيرهم .

انظر : Osmanlı Tarih lûgat, Midhat Sertostu. Istanbul: Enderun kitabevi 2. baski. sy. 336.

٢- بلاد الأنكروس : هي بلاد المجر في شرق أوروبا ويطلق عليها حالياً هنغاريا .

٣- توجد نسختان منه في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض وقد طبع الكتاب في مطبعة بولاق، بمصر عام ١٢٤٦

٤- آيينه ظرفا: عنوان رسالة مطبوعة ألفها جمال الدين محمد أفندي المعروف قارصلي زاده، فيها موجز للتاريخ العثماني وتراجم المؤرخين وكتاب الوقائع . وآيينه كلمة فارسيه بمعنى مرآة . توفي المذكور في إستانبول سنة ١٢٦٢هـ . انظر : بروسه لي محمد طاهر، عثمانلي مؤلفري، ج ٣ ، إستانبول، مطبعة عامرة، ١٣٣٣هـ، ص ٢٤ .

كتاب (كلبن خانان)^(١) فيه تراجم أحوال امراء القريم ألفه حلیم كراي
(عبر تنماي دولت)^(٢) رسالة صغيرة ألفها كسيي أفندي أحد كتبة الأقلام سنة
١٢١٣هـ تشتمل على مجمل أحوال إمارة القريم وتفصيل جميع ما وقع في حرب
سنة ١١٨٢ مع سائر الوقائع الحربية.

(مرآة الدولة)^(٣) هي رسالة كالتقرير ألفها نهالي أفندي وأبان فيها سبب
ظهور الحرب الواقعة سنة ١١٨٢هـ ثم ذكر إفراط الناس في أمر الملبوسات
وتجاوزهم الحدود فيها وكثرة الخدم والحشم في الدولة وكيفية ضعف الرعايا
وتلاشيهم وبيان الأسباب والتدابير الواجب أخذها بهذا الخصوص.

(خلاصة الاعتبار)^(٤) رسالة مشهورة لرسمي أحمد أفندي ذكر فيها النقص
والغلط اللذين وقعا في حرب الروس المار ذكرها.

(درج الوقائع) كتاب صغير يشتمل على بعض الوقائع التي جرت سنة
١١٩٩ إلى سنة ١٢٠٢هـ.

١- كلبن خانان: عنوان كتاب مطبوع فيه تراجم أحوال أمراء القرم التتار في شبه جزيرة القرم شمال
البحر الأسود. ألفه حلیم كراي، ذكره صاحب كتاب عثمانلي مؤلف لري ضمن فصل الشعراء،
وله ديوان مطبوع، توفي سنة ١٢٣٩هـ، في استانبول، عثمانلي مؤلف لري، ج٢، ص١٤٣.

٢- عبر تنماي دولت: عنوان رسالة صغيرة غير مطبوعه معناها «مبين أو مظهر الاعتبار للدولة» ألفها
كسيي مصطفى أفندي، وهو أحد كتاب الدولة العثمانية في مطلع القرن الثالث عشر الهجري.
وتشتمل الرسالة على تفصيلات بعض الوقائع الحربية مع روسيا وأحوال إمارة القرم التابعة
للعثمانيين. عثمانلي مؤلف لري، ج٣، ص١٣١.

٣- مرآة الدولة: رسالة قيمة في إصلاح أمور الدولة ألفها نهالي إبراهيم بن سليمان خليفة، أحد
كتاب الديوان الهمايوني. وله كتاب آخر في علم الأخلاق هو «مرآة العقلاء» توفي سنة
١١٨٦هـ. عثمانلي مؤلف لري، ج٣، ص١٥٥.

٤- خلاصة الاعتبار: رسالة مشهورة كتبها رسمي أحمد أفندي أحد السياسيين والمؤرخين العثمانيين
وتشتمل على تفصيلات حرب العثمانيين مع الروس سنة ١١٨٢هـ، وخلاصة مشاهداته في بلاد
روسيا مبعوثاً من قبل الدولة. وقد طبعت هذه الرسالة. كما ترجمها المؤرخ هامد إلى الألمانية.
توفي سنة ١١٩٣هـ، في استانبول. عثمانلي مؤلف لري، ج٣، ص٥٨.

تاريخ (شهري أفندي^(١)) ألفه شهري إسماعيل أفندي في أخبار الوقائع التي جرت في أواخر عهد السلطان عبد الحميد خان [الأول] وأوائل عصر السلطان سليم خان [الثالث].

تاريخ (شمعداني زاده^(٢)) في أخبار الدولة العلية ولما كان هذا المؤرخ غير موظف في كتابة وقائع الدولة ذكر الأخبار كما جرت بحرية مطلقة وقد نقلنا من أواخره بعض ما في المجلدين الأول والثاني من كتابنا هذا.

تاريخ (أنوري^(٣)) وهو في ثلاثة مجلدات يشتمل أولها على الوقائع التي جرت من سنة ١١٨٢هـ إلى خروج المعسكر الهمايوني من شمني ووصوله إلى الأستانة بعد عقد عهد صلح قينارجه سنة ١١٨٨هـ وقد تصرف واصف أفندي في هذا المجلد فبدله وغيره وجعله مجلداً ثانياً لتاريخه، وأما المجلد الأول من تاريخ أنوري فإنه يشتمل على بقية الوقائع المذكورة في المجلد الأول من سنة ١١٨٨هـ إلى أواخر سنة ١١٩٧هـ وقد جعلنا جل اعتمادنا في تاريخنا عليه والمجلد الثالث ذكر فيه وقائع المعسكر السلطاني من سنة ١٢٠٢هـ إلى سنة ١٢٠٦هـ.

تاريخ (أديب^(٤)) في حوادث دار السعادة. ضبط وقائعه في الأستانة سنة ١٢٠٢هـ إلى سنة ١٢٠٦هـ أديب أفندي تشريفاتي الركاب الهمايوني المعين يومئذ وكيلاً عن أنوري أفندي الذي سمى كاتباً لوقائع سنة ١٢٠٢ وسافر مع المعسكر السلطاني.

١- تاريخ شهري أفندي: تأليف العالم المؤرخ شهري إسماعيل أفندي، كان يطلق عليه لقب لالا أي المربي، عثمانلي مؤلفري، ج٣، ص٧٦.

٢- تاريخ شمعداني زاده: كتاب مخطوط ألفه القاضي المؤرخ شمعداني زاده سليمان بك، وفيه تفصيل وقائع الدولة العثمانية من سنة ١١٦٥هـ إلى سنة ١١٩١هـ. توفي سنة ١١٩٣هـ. عثمانلي مؤلفري، ج٣، ص٧٦.

٣- تاريخ أنوري: تأليف الحاج سعد الله أفندي أنوري، أوضح فيه الحروب الواقعة بين الدولة العثمانية وروسيا في عهد السلطان مصطفى خان، مخطوط. فهرس الكتب التركية، ص ١٦٧.

٤- تاريخ أديب: تأليف أديب محمد أمين أفندي. توفي سنة ١٢١٦هـ. انظر محمد ثريا، سجل عثماني ياخود تذكره مشاهير عثمانية، مجلد ١، استانبول. ١٣٠٨هـ. ص٣١٧.

(١) (اردو زور نالي) ابتداؤه خروج المعسكر السلطاني من صحراء داود باشا سنة ١٢٠٢ وفيه حروب مهادية وشيش وقد اعتمدنا عليه أيضاً في تاريخنا هذا.

(٢) (روابط العقود) لغالب أفندي كاتب الوقائع وهو مجموع ضابط للمخابرة الشفاهية الواقعة في (زشتوي وياش).

(٣) وهو تأليف خليل نوري بك كاتب الوقائع ألفه في وقائع الدولة العلية من أوائل سنة ١٢٠٩ إلى أواخر سنة ١٢١٣ واستطر فيه ذكر جميع القوانين والنظامات الموضوعة من قبل والتي وضعت في عصر حضرة السلطان سليم خان الثالث.

(٤) (تاريخ واصف) يشتمل على وقائع الدولة العلية من سنة ١١٦٦ إلى رجوع عساكرها إلى دار السعادة سنة ١١٨٨ وقد طبع في مجلدين، ثم إن واصف أفندي المذكور ذيل تاريخه هذا بتأليف، ذكر فيه الوقائع التي جرت منذ أواخر سنة ١١٩٦ وجعله نسختين أيضاً، رفع إحدهما وهي الأولى إلى المابين الهمايوني (٥) تشتمل على الحوادث التي جرت إلى أواسط سنة ١٢٠١؛ وأما

١- اردو زورنالي: جملة مكونة من مقطعين، اردو بمعنى الجيش. زورنالي كلمة أفريجية سجل، ودفتر اليومية بالمفهوم الحديث، والجملة تعني هنا سجل وقائع الجيش. انظر: الدراري اللامعات ص ٢٨٦.

٢- روابط العقود: مضابط سجلها كاتب الوقائع غالب سعيد محمد باشا، مطبوعة في استانبول، وتتعلق بالمحادثات مع الروس في منطقة زشتوي وياش والواقعة في بلاد الأخلاق واولغدان (رومانيا). وقد تقلد المؤلف مناصب إدارية وسياسية وله آثار أبيية منشورة. عثمانلي مؤلفري، ج٣، ص ١١٤.

٣- تاريخ نوري بك: تأليف كاتب الوقائع خليل نوري بك، حول وقائع الدولة العثمانية خلال خمس سنوات تبدأ من أوائل سنة ١٢٠٩هـ. وللمؤلف آثاراً أخرى غير مطبوعة منها ديوان شعر. تووفى في استانبول سنة ١٢١٣هـ. عثمانلي مؤلفري، ج٣، ص ١٥٦.

٤- تاريخ واصف: تأليف كاتب الوقائع واصف أحمد أفندي، وعنوانه تاريخ عثمانلي، طبع في استانبول، وقد ذيله عدة مرات. وله كتاب خر مشهور يدعى محاسن الآثار وحقايق الأخبار. بالعربية. توفي سنة ١٢٢١هـ، عثمانلي مؤلفري، ج٣، ص ١٥٩.

٥- أي ما بين القصر السلطاني والباب العالي، وهي الغرفة التي كانت توفر الاتصال بالقصر.

الثانية فمنتهاها عند مبادلة التواقيع على معاهدة القريم في أواسط سنة ٨٨ وقد جعل ديباجة هذه النسخة الثانية باسم خليل حميد باشا، وبين كل من النسختين المذكورتين فرق من جهة التفصيل والإجمال والراجح والمرجوح، وستعرض للانتقاد عليهما عند ميسر الحاجة . . ولواصف أفندي المذكور ذيل آخر ابتدأ فيه من الوقائع التي حدثت منذ جلوس السلطان سليم خان سنة ١٢٠٣هـ إلى أواخر سنة ١٢٠٨هـ على أن واصف أفندي وإن كان قد قال في آخر تاريخه المذكور آنفاً المطبوع إنه كتب وقائع الدولة العلية من سنة ١١٦٦هـ إلى سنة ١٢١٧هـ على أسلوب واحد؛ فإنه ما أبرز من ذلك شيئاً سوى الذيلين المذكورين. قال مؤلف (آيينهء ظرفا) انه لم يظفر من هذين الذيلين إلا بالذيل الثاني المكتوب بقلم المؤلف، مشتملاً على الوقائع التي جرت من سنة ١٢٠٣هـ إلى سنة ١٢٠٩هـ أي وقائع ست سنين وأنه لم يقف على أثر للذيل الأول مع أنه جرى البحث عن الذيل السالف ذكره في منتخبات جاويد بك، وقد تحقق عندنا أن واصف أفندي في أوائل سنة ١٢٠٨ قدم للاعتاب الهمايونية نسخة من تاريخه الذي ألفه مبتدئاً فيه من جلوس السلطان سليم خان إلى سنة ١٢٠٥ وقد أعيد التاريخ المذكور إليه لأجل إتمامه على ما سنذكره في وقائع سنة ١٢٠٨.

وأنا العبد الفقير كنت بذلت الجهد أولاً في السؤال عنه وما ظفرت إلا بالذيلين المذكورين، ثم بعد ذلك بمدة عثرت على نسخة منه مصححة، بخطه، ذكر فيها وقائع ثلاث سنين من ابتداء سنة ١٢١٧ إلى غاية سنة ١٢١٩هـ. وعثرت أيضاً على أكثر مسوداته بخط يده مشتملة على وقائع سنة ١٢٠٩ وعلى وقائع من سنة ١٢١٢ إلى سنة ١٢٢٧ وقد رتب واصف أفندي وقائع هذه السنين جزءاً جزءاً وقدمها وكتب عند تقديم كل جزء تقريراً فوجدت مسودات التقارير الثلاثة في تلك المسودات وأثبتناها بحروفها وأشرنا إليها برقم (١) كما سيأتي.

(جريدة حسن أفندي)^(١) تشتمل على الوقائع التي جرت منذ أن سافر واصف أفندي إلى أسبانيا سنة إحدى ومائتين بعد الألف إلى أن خرج المعسكر الهمايوني سنة ١٢٠٢ هـ .

ولما عين واصف أفندي الموماً إليه سفيراً للدولة العلية في إسبانيا وكان كاتباً للوقائع، أبقيت المأمورية المذكورة بعهدته وعين لكتابتها بالوكالة عنه إلى حين رجوع حسن أفندي التشريفاتي، فباشر كتابة تلك الجريدة بعد سفره وذلك في أواسط سنة ١٢٠١ هـ .

ثم لما انتشبت الحرب بين الدولة العلية وروسيا وكان تعيين كاتب للوقائع في المعسكر السلطاني من الأمور المرعية في الدولة العلية عين أنوري أفندي أصيلاً في تلك الوظيفة فذهب مع المعسكر وكتب الوقائع . وأما وقائع دار السعادة فقد حررها أديب أفندي تشريفاتي الركاب الهمايونية وكاتب وقائعها .

(منتخبات جاويد بك)^(٢) تاريخ مختصر انتخبه من التواريخ المشهورة الباحثة في أحوال الحرب والصلح بين الدولة العلية وروسيا، وهو مجلدان: أولهما يشتمل على الوقائع التي جرت من سنة ١٠٣٦ إلى ذي القعدة سنة ١١٨٧؛ والثاني ذكر فيه الوقائع التي جرت من التاريخ المذكور إلى سنة ١١٩٦ أخذها من تاريخ أنوري أفندي والوقائع التي جرت من ذلك التاريخ إلى سنة ١٢٠١ نقلها من ذيل تاريخ وصف أفندي المذكور والوقائع التي جرت من هذا التاريخ إلى حين خروج المعسكر الهمايوني لخصها من جريدة حسن أفندي المذكور التي صارت ذيلاً لتاريخ واصف أفندي . وذكر أيضاً قسماً من الوقائع المدرجة في أوائل تاريخ

١- جريدة : بمعنى سجل للوقائع . ونسب إلى حسن أفندي لأنه هو الذي قيد فيها وقائع الدولة بين ١٢٠١ هـ، ١٢٠٢ هـ . عثمانلي مؤلفري، ج٣، ص ١٧٢ .

٢- منتخبات جاويد بك : تاريخ مختصر ألفه جاويد أحمد بك، يبحث فيه تاريخ الدولة من سنة ١٢٠٦ هـ إلى سنة ١٢٠٦ هـ . وللمؤلف آثار أخرى . توفي في استانبول سنة ١٢١٨ هـ . عثمانلي مؤلفري، ج٣، ص ٤٢ .

أديب أفندي مع ملخص الوقائع المذكورة في تاريخ أنوري أفندي ثم الوقائع التي شاهدها إلى سنة ١٢٠٦ وقسماً آخر لخصه من تاريخ واصف أفندي .

(مجموعة هاشم أفندي)^(١) ألفها هاشم أفندي كاتب فرح علي باشا الذي بنى قلعة أنابه^(٢) فإنه ذهب مع الباشا المشار إليه إلى بلاد الجراكسة ومكث فيها مدة طويلة، فضبط بعض أحوالها المهمة وكتب أشياء كثيرة غريبة ووقائع عديدة فجاءت من التأليف الموثوق بها فيما يتعلق بأخبار البلاد المذكورة كما سنورده في محله .

(دوحة الوزراء)^(٣) وهو تاريخ مشهور يشتمل على أهم وقائع العراق وتراجم ولاية بغداد جعله مؤلفه ذيلًا للتاريخ المسمى (كلشن خلفا) .

(تاريخ عبد الشكور)^(٤) ألفه عبد الشكور أفندي أحد العلماء في مكة المكرمة باللغة العربية وضمنه تراجم أحوال أمراء مكة المشرفة .

(تاريخ الجزائر) كتاب صغير باللغة العربية يعزى إلى الأمير حيدر شملان الشهابي أحد المؤلفين في جبل لبنان فيه ترجمة حال أحمد باشا الجزائر^(٥) .

١- مجموعة هاشم أفندي: كتبها هاشم أفندي، وتعد مصدراً مهماً لما كتبه جودت باشا في هذا الجزء حول تاريخ الجراكسة وأصولهم وعاداتهم . عثمانلي مؤلفه، ج٣، ص١٦٢ .
٢- أنابة: مدينة تقع على الجهة الشرقية من قناة بني قلعة على السواحل الشركسية (بالبحر الأسود) . وقد تم إنشاء المدينة بمعرفة محافظ صغوجق «فرح علي باشا» عام ١١٩٩هـ، حيث اتخذها مركزاً للولاية بدلاً من صغوجق . انظر لغات تاريخية وجغرافية ، أحمد رفعت أفندي . إستانبول: محمود بك مطبعة سي، ١٢٩٩ : ٢٦٦/١-٢٦٧ .

٣- دوحة الوزراء: كتاب ألفه المؤرخ العثماني نظمي زاده حسين مرتضى أفندي، الذي عمل في بغداد من قبل الدولة . وهذا الكتاب جعله المؤلف ذيلًا لكتابه المشهور كلشن خلفاء (بمعنى حديقة الخلفاء) . وللمؤلف آثار أخرى كثيرة بالإضافة إلى ما ترجمه من العربية إلى التركية . توفي سنة ١١٤٣هـ . عثمانلي مؤلفه، ج٣، ص١٥٢ .

٤- أحمد عبد الشكور (١٢٥٥-١٣٢٣هـ) الحنفي المكي العالم الأديب الشاعر . ولد ونشأ بمكة المكرمة . من تأليفه كتاب «النخبة السنية» يؤرخ فيه للحوادث والتراجم المكية .
انظر: عبد الله مرداد أبو الخير، المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة، اختصار محمد سعيد العامودي وأحمد علي، ج١، نادي الطائف الأدبي، ١٣٩٨هـ . ص٦٨-٦٩ .

٥- جزار أحمد باشا: الوالي العثماني على سورية، وسترده ترجمته في آخر هذا الكتاب .

(١) (تاريخ الجبرتي) يحتوي على أربعة مجلدات عربية. ألفه عبد الرحمن الجبرتي أحد علماء الديار المصرية ذكر فيه أخبار البلاد المذكورة قديماً وحديثاً إلى هذا العهد وقد نقلنا من أواخره.

(مظهر التقديس بخروج طائفة الفرنسيين) تأليف صغير للمرحوم الشيخ الجبرتي المذكور، ذكر فيه جميع الوقائع يوماً فيوماً منذ دخول الفرنسيين مصر إلى أن خرجوا منها وقد نقله من العربية إلى التركية عاصم أفندي كاتب الوقائع.

(٢) (تاريخ نيقولا) هو مؤلف صغير جمعه المعلم نقولا الترك باللغة العربية وكان الأمير بشير حاكم جبل الدروز أرسل المعلم نقولا المومى إليه إلى مصر أيام استيلاء الفرنسيين عليها، فأقام هناك ثم عاد إلى جبل لبنان فجمع مؤلفه المذكور وطبع بعد ذلك في باريز باللغتين العربية والفرنسوية سنة ١٨٣٩ ميلادية وقد رأيت تاريخاً آخر صغيراً، ينسب إلى يوسف العورا وهو عين تاريخ نقولا المذكور؛ إلا أنه يخالفه مخالفة جزئية في بعض العبارات ولكونهما مسيحين قد أطنبا في مدح بونابرت كثيراً ولهما في مدحه قصائد عربية.

(٣) (تذكرة بونابرت) هذه رسالة كتبها بونابرت فيها ترجمة حاله، وكان إذ ذاك في جزيرة (سنت هيلانة) منفيّاً وقد نقلت إلى اللغة التركية وطبعت.

١- عبد الرحمن بن حسن الجبرتي، مؤرخ مصر، وكاتب وقائعها وسير رجالها، عاصر حملة نابليون على مصر. ألف العديد من الكتب أشهرها «عجائب الآثار في التراجم والآثار» - مطبوع، ٤ أجزاء. ويعرف بتاريخ الجبرتي. الأعلام ٣/ ٢٠٤.

٢- نقولا يوسف الترك (١١٧٦-١٢٤٤هـ)، من أسرة يونانية. شاعر، له عناية بالتاريخ. سفر إلى مصر وعمل كاتباً في حملة نابليون، وعاد إلى لبنان، في خدمة الأمير بشير الشهابي. الأعلام، ٨/ ٤٧.

٣- مذكرات نابليون بونابرت إمبراطور فرنسا، كتبها حينما كان منفيّاً في جزيرة سانت هيلانة، ترجمت إلى اللغة التركية، طبع بولاق، ١٢٤٧هـ، وطبعة أخرى سنة ١٢٦٠هـ، فهرس الكتب التركية ص ١٨٥.

٤- سانت هيلينا: جزيرة تابعة لبريطانيا في جنوب المحيط الأطلسي غربي أنغولا. المنجد في اللغة الأعلام، ص ٢٩٠.

(ضبطنامه لر) أعنى صحف ضبط الوقائع . هذه الصحف تحتوي على بيان الوقائع من سنة ١٢١٨ إلى غاية سنة ١٢٢٣ كتبت في (أندرون همايون)^(١) وقد اطلعنا عليها ونقلنا منها في تاريخنا هذا .

(رائف أفندي ضبطنامه سى) مجموعة ألفها علي رائف أفندي أحد خلفاء مكتوبي الصدر العالي، وكاتب البلوكات الأربعة^(٢) وهي تشتمل على وقائع المعسكر الهمايوني . ولما عين واصف أفندي كاتب الوقائع رئيساً للكتاب في خلال سنة ١٢٢٠ خلفه لكتابة الوقائع برتو أفندي أحد خلفاء آمدي^(٣) الديوان الهمايوني وفي أثناء سنة ١٢٢٢ فاجأته المنية فعين بدلاً منه عامر بك الذي قدم استعفاه بعد ذلك ببضعة شهور، ثم عين لكتابة الوقائع عاصم أفندي العيتابي، أحد المدرسين، إلا أنه لم يسافر مع المعسكر الهمايوني فبقي في الأستانة لأجل تحرير الوقائع كما سنبين، ذلك أثناء وقائع سنة ١٢٢٢، فبقى المعسكر الهمايوني خلواً من كاتب لوقائعه فكتب علي رائف أفندي المومى إليه ضبط الوقائع من تلقاء نفسه وأعطى ذلك إلى نجيب أفندي حين رجوعه إلى دار السعادة فألحقه بتاريخه الصغير .

وقد أرسلت مسودات ما كتبه برتو أفندي وعامر بك في المعسكر الهمايوني إلى دار السعادة فاستلمها عاصم أفندي .

(تاريخ نجيب أفندي)^(٤) تاريخ صغير جمعه نجيب أفندي من رجال الباب العالي ذكر فيه الواقعة السليمية وهو شامل أيضاً لوقائع المعسكر التي حررها رائف أفندي كما مر ذكره أعلاه .

١- أندرون همايون: بمعنى الدائرة السنوية السلطانية انظر: الدراري اللامعات ص ٥٠ وهي المدرسة التي كانت تنشئ موظفين يعملون لدى الباب العالي، على غرار كليات العلوم الإدارية اليوم .

٢- بلوكات أربعة Bülûkat-1 Erbaa يطلق على الأفواج الأربعة الأخيرة من خيالة جيش قايي قولي . وكلمة بلوك تعنى الفوج . انظر: - Osmanli Tarih Lugati, Midhat Ser-toglu istanbul: Enderun yay-z-Bosk1.sy. 57.

٣- آمدي الديوان الهمايوني: هو رئيس قلم المخابرة مع الديوان الهمايوني ورئيس كتاب مجلس الوكلاء الخاص . الدراري اللامعات، ص ٤٦ .

٤- تاريخ نجيب أفندي: ألفه نجيب أفندي حول الأحداث التي جرت في عهد السلطان سليم الثالث، ووقائع المعسكر الهمايوني خلال الفترة بين سنة ١٢١٨هـ إلى سنة ١٢٢٣هـ . توفي المؤلف في إستانبول سنة ١٢٤٧هـ . عثمانلي مؤلفلري، ج ٣، ص ١٥٧ .

(١) (تاريخ سعيد أفندي) هو تاريخ صغير ألفه ذو المعارف المشهور
بـ«كتخدا»^(٢) سعيد أفندي في واقعة السليمية وجعل له مقدمة مفصلة ابتداءً فيها
من أيام بطرس الأكبر قيصر الروس.

(٣) (تاريخ عاصم) هو التاريخ الذي جمعه عاصم أفندي العيتابي كاتب
الوقائع، يتضمن ذكر الوقائع مبتدئاً بها من حين تعيين محب أفندي للسفارة
السنية في باريز في أواخر سنة ١٢٢٠ إلى حين جلوس حضرة السلطان محمود
خان الثاني، فجاءت نسخها متباينة جداً وذلك لأن عاصم أفندي كان حاقداً على
بعض الكبراء الذين ماتوا بعد أن أنجز تاريخه ورفع له للدولة العلية، فزاد حينئذ
على النسخة التي بقيت عنده عبارات كثيرة في الطعن عليهم، فأخذها أخيراً
بعض الأعيان وحذفوا كثيراً من زياداتها وجمعوا ما بقي منها نسخة واحدة فضم
إليها بعد ذلك تاريخ كتخدا سعيد أفندي وجعلت نسخة واحدة في مجلدين
يشتمل الأول منهما على مقدمة تاريخ سعيد أفندي بتمامها، وزيد عليه بعض
الحوادث، وجعلت مقدمة الكتاب مع ذكر الوقائع التي جرت إلى انتهاء سلطنة
السلطان سليم. والثاني ابتدأه من نازلة خلع السلطان سليم إلى أوائل أيام سلطنة
السلطان محمود خان [الثاني]. وبعد ذلك حرر عاصم أفندي وقائع اثنتي عشرة
سنة، وحيث لم يقدر على تبويضها فقد ترك مسودتها إلى خلفه شاني زاده .

(٤) (تاريخ تفنكجي باشي) هو عارف أفندي ويعرف بلقب تفنكجي باشي،
كتب تاريخاً صغيراً ذكر فيه النازلة السليمية فقط .

١- تاريخ سعيد أفندي: تاريخ غير مطبوع للقاضي المؤرخ كتخدا سعيد أفندي، وله مسمى آخر
يعرف به هو ولي أفندي زاده كتخداسي. عثمانلي مؤلفلري، ج٣، ص ١٣٢.

٢- كلمة فارسية معناها رب الدار واستخدمت في التركية بمعنى القسيم على الشؤون المالية بصفة
خاصة وهو نائب أو قائم بالأعمال.

٣- تاريخ عاصم: تأليف عاصم أفندي العيتابي، طبع في الاستانة. فهرس الكتب التركية،
ص ١٧٢.

٤- تاريخ تفنكجي باشي: تاريخ غير مطبوع عارف أفندي المعروف بلقب تفنكجي باشي، ذكر فيه
الوقائع التي حدثت في عهد السلطان سليم الثالث. توفي المؤلف سنة ١٢٤٨ هـ. عثمانلي
مؤلفلري، ج٣، ص ١٠٥.

(١) (فذلكة القوشماني) وهو رجل يدعى القوشماني ابن دهقاني ألف رسالتين بهذا العنوان احدهما تتضمن الوقائع منذ مجيء الأسطول الإنكليزي إلى الاستانة حت خلع السلطان سليم. والأخرى فيها بيان كيفية وفاته شهيداً.

رسالة (يايلا إمامي رساله سي) (٢) هذه رسالة جمعها رجل معروف باسم (يايلا إمامي) تتضمن أخبار العاصمة ووقائعها من أواخر سنة ١٢٠١ إلى سنة ١٢٢٥.

(٣) (تاريخه عطا) تاريخ صغير جمعه أحمد عطا بك من رجال الدولة العلية في عصرنا هذا وهو ابن المرحوم طيار أفندي باش لا لا. ذكر فيها كيفية خلع السلطان سليم ووفاته شهيداً نقلاً عن والده وعن غيره من ذوي الخبرة والاطلاع وهي رسالة نفيسة.

(لائحة ترجمان ديوان) هي رسالة مفصلة ألفها ترجمان الديوان الهمايوني في أيام صدارة ضياء باشا (٤) الثانية تشتمل على أحوال دول أوروبا السياسية وعلى

١- فذلكة القوشماني: عنوان رسالتين غير مطبوعتين ألفهما قوشماني عبيد الله أفندي ابن دهقاني حول الأحداث التي جرت في أواخر عهد السلطان سليم الثالث التي انتهت بخلعه وقتله. وللمؤلف كتب أخرى منها كتاب «هدية الإخوان في هداية الإنسان». عثمانلي مؤلفري، ج٣، ص ١٢٣.

٢- يايلا إمامي رساله سي: رسالة في أخبار استانبول ووقائعها خلال الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري ألفها إمام جامع يايلا في إستانبول. وتوجد نسخة منها في مكتب ولي الدين أفندي في إستانبول ضمن مكتبة السليمانية. عثمانلي مؤلفري، ج٣، ص ١٦٥.

٣- تاريخه عطا: تاريخ صغير ألفه عطا بك المعروف بـ طيار زاده عطاء الله أحمد بك. وهو أحد موظفي الديوان الهمايوني، وعمل لمدة خمس سنوات في مديرية الحرم النبوي في المدينة المنورة ابتداءً من سنة ١٢٩٣هـ. له مؤلفات أخرى مطبوعة منها: كتاب عطا تاريخي (خمس مجلدات)، وترجمة كتاب (تحفة الفارسين في أحوال خيول المجاهدين) من العربية إلى التركية. عثمانلي مؤلفري، ج٣، ص ١٠٨.

٤- يوسف ضياء باشا (ت ١٢٣٤هـ) تولى الصدارة مرتين في عهدي والسلطان سليم الثالث والسلطان محمود الثاني. قاموس الأعلام ٤٨١٧/٦.

وقائع الدولة العلية المهمة، التي حدثت منذ صدارة ضياء باشا المشار إليه الأولى إلى صدارته الثانية.

(سفارتنامهء محب أفندي)^(١) هي رحلتان ألفتها محب أفندي الذي عين سفيراً للدولة العلية في باريز سنة ١٢٢٠ فجمع في الأولى سائر المضابط والمكاتب والتذاكر والتقارير المتعلقة بمأموريته في باريز مدة ست سنين، مع أخبار رحلته إلى باريز ورجوعه منها بالتفصيل؛ وأما الثانية فقد ذكر فيها كيفية سفره إلى فرنسا، ورجوعه منه مع بيان أحوال باريز ورسومها وما فيها من الآثار.

(سفارتنامهء وحيد أفندي) رحلة نفيسة جمعها وحيد أفندي الذي أرسل مندوبا مخصوصاً من جانب الدولة العلية إلى نابليون في سنة ١٢٢١.

(زورناللر)^(٢) هي صحائف اطلعنا عليها، تحتوي على ما جرى من الحروب بين نابليون بونابرت وبين الدول المتفقة.

(لائحة سياستيانى) اسم تقرير حرره سياستيانى الشهير سفير فرنسا في الأستانة وقدمه إلى نابليون عند رجوعه إلى باريز يشتمل على بعض مسائل تاريخية متعلقة بأحوال ذلك الزمان.

(تاريخ بلاد السودان) ألفه باللغة العربية رجل من أهالى السودان ومن أعضاء الديوان الذي ألفه (باشبوغ مصر) أي قائد العسكر المصري في السودان سنة ١٢٤٠ جمع فيه جملاً من حوادث السودان التي ظهرت بعد سنة ٩٠٠ هجرية أوضح فيها كيفية استيلاء المرحوم محمد علي باشا والي مصر على البلاد السودانية.

١- سفارتنامهء محمد أفندي: تأليف سفير الدولة العثمانية في فرنسا محب عبد الرحيم طبع في إستانبول. توفي سنة ١٢٣٦هـ. في العاصمة إستانبول. عثمانلى مؤلفلى ج٣، ص١٤٥.

٢- زورناللر، كلمة بمعنى صحائف مكونة من مقطعين، زورنال بمعنى صحيفة، وقد تقدم شرحها و-لر- لاحقة الجمع في اللغة التركية.

(١) تاريخ شاني زاده) هو ثلاث مجلدات: الأول يتضمن الوقائع التي جرت منذ جلوس السلطان محمود خان في سنة ١٢٢٣ إلى ختام سنة ١٢٢٥؛ والثاني يحتوي على أخبار أوائل سنة ١٢٢٦ إلى غاية سنة ١٢٣٣؛ والثالث يشتمل على بيان الوقائع من ابتداء سنة ١٢٣٤ إلى ختام سنة ١٢٣٦، على أن شاني زاده وإن جدَّ في تحرير الوقائع من ابتداء سنة ١٢٣٧ إلى شهر صفر من سنة ١٢٤١؛ فإنه اقتصر على ترتيب المضابط والأوراق التي كتبت بمدة ١٢ سنة بمعرفة سلفه، وأما الحوادث التي جرت في أيامه فلم يتمكن من جمعها وترتيبها، فأخذ أوراقها خلفه أسعد أفندي.

(٢) تاريخ الأمير يوسف) تأليف صغير جمعه يوسف بك ابن أحمد باشا أحد الحرس الملوكي الخاص وهو من بلدة يقال لها أنابولي، وقد كتب هذا التاريخ عند وصوله إلى دار السعادة بعد استيلاء الأروام على بلدته المذكورة، وذلك أن الأروام لما ثاروا وحاصروا البلدة كان هو فيها، فبقي محصوراً في قلعتها ٢٢ شهراً ثم استولوا على القلعة فركب في سفينة من سفن الانكليز وأتى إلى أزمير ومنها إلى العاصمة.

(٣) تاريخ ملك) تاريخ صغير ألفه ملك بك من أهل المورده في فتنة اليونان التي انتشرت سنة ١٢٣٦ وهو تأليف نفيس ترجم فيه مؤلفه أهم التواريخ اليونانية ورسالة (أقسانت) الذي أثار نار الفتنة وضم إليه ما تحققه وشاهده.

١- تاريخ شاني زاده: في بيان أحوال الدولة العلية العثمانية، تأليف محمد أفندي عطاء الله بن محمد صادق الشهير بشاني زاده، ويعتبر من علماء أوائل القرن الثالث عشر الهجري، طبع بالأستانة سنة ١٢٩٠هـ. فهرس الكتب التركية، ص ١٧١.

٢- تاريخ مير يوسف: عنوان كتاب غير مطبوع ألفه يوسف بن أحمد باشا بعد أن هاجر من بلدته أنابولي شرق جزيرة المورة. ويحتوي الكتاب على معلومات وافية حول تاريخ داغستان. عثمانلي مؤلفلري، ج ٣، ص ١٦٤.

٣- تاريخ ملك: عنوان كتاب غير مطبوع ألفه ملك أحمد بك مورالي، حول حوادث بلاد اليونان التي ثارت على الدولة وانفصلت عنها. يحتوي الكتاب أيضاً على ذكر قدماء اليونان ومقدونيا. توفي المؤلف في سلانيك سنة ١٢٨٨هـ. عثمانلي مؤلفلري، ج ٣، ص ١٤٥.

(١) «تاريخ فترت» هو تاريخ صغير ألفه محمد أفندي أحد مؤلفي عصرنا، ذكر فيه الثورة اليونانية. وقد طبع الجزء الأول منه وأما الباقي فلم نطلع عليه حتى الآن. ثم إن البارون بروكش المشهور الذي كان سفيراً في الأستانة مدة طويلة لدولة أوستريا^(٢) قد ألف تاريخاً في هذا الموضوع إلا أنه لم يترجم إلى اللغة التركية حتى الآن.

(تاريخ وقعهء جزيرة ساقز) «الحروف المعجمة من هذا العنوان» «تاريخ لتلك الواقعة» وهو مؤلف صغير وضع في جزيرة ساقز، مشتملاً على أخبار قيام الغوغاء أيام شغب أهل المورة وفي بعض جزائر بحر الروم والاختلال الذي حدث فيها وخروجهم عن الطاعة سنة ١٢٣٧ هجرية أيام كان وحيد باشا^(٣) محافظاً عليها.

(تاريخ أسعد)^(٤) ألفه أسعد أفندي كاتب الوقائع وهو يشتمل على الحوادث التي جرت منذ ابتداء سنة ١٢٣٧ إلى سنة ١٢٤١ هـ وقد اعتبره أول جزء؛ لأن حوادثه اتصلت إليه من سلفه ثم ألف تاريخاً آخر مستقلاً سماه (أس ظفر) وذكر فيه الوقعة الخيرية في سنة ١٢٤١ ثم أخذ في ترتيب الجزء الثاني مبتدئاً فيه بالحوادث الطارئة من غرة سنة ١٢٤١ هـ إلى آخرها؛ ولكنه لم يوفق لذكر الحوادث التي جرت بعد ذلك. ثم إن المرحوم باهر أفندي كاتب الداخلية الأسبق توجه أثناء الفتنة إلى المورة كاتباً في معية السيد علي باشا السرعسكر^(٥) والصدر الأسبق فمكث هناك مدة في المعسكر فكتب ما سمعه وما شاهده وجعله ذيلًا

١- تاريخ فترت: (روم فترتنة دائر تاريخ) عنوان كتاب مطبوع، ألفه محمد منصور أفندي، حول أحداث الثورة اليونانية في ١٢٣٦ هـ. وللمؤلف آثار أخرى قيمة. توفي سنة ١٣١٤ هـ. عثمانلي مؤلفلري، ج٣، ص ١٤٧.

٢- أوستريا: أي دولة النمسا وعاصمتها هي فيينا.

٣- وحيد باشا: هو صاحب سفارتنامهء وحيد أفندي المذكور سلفاً.

٤- تاريخ أسعد: تأليف أسعد محمد أفندي، تولى مجموعة من المناصب المهمة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري ومنها وزارة المعارف، توفي سنة ١٢٧١ هـ. سجل عثمانلي ٣٤٠ / ١.

٥- السرعسكر أي قائد الجيش، وهو بمثابة وزير الدفاع في الوقت الراهن.

للمباحث المدرجة في المجلد الأول من تاريخ أسعد أفندي المذكور وعلق على المجلد الثاني الذي لم ينجزه بعض حواش وأضاف إليه ما جعله ذيلاً له .

(تواريخ فارسية) اطلعنا على بعض التواريخ الفارسية المتضمنة أخبار العراق والفرس، فنقلنا منها ، ولأجل الوقوف على حقيقة الوقائع المتعلقة بأوروبا رأينا أنه لا بد من مطالعة أخبارهم، ثم لما تمكنت الصلات وكثرت المعاملات بين دولها والدولة العلية وذلك بعد ظهور نابليون بونابرت، اشتدت الحاجة إلى الوقوف على تواريخها ورسائلها، فاطلعنا فيها على كثير من وقائع الدولة العلية، وعلاوة على ما نقلناه عن التواريخ المذكورة فقد طالعنا ما أمكن الوصول إليه من مضابط مجالس الشورى والصحف الرسمية السائرة وقيود دفاتر الدوائر، فانتقينا منها كل ما ينبغي أخذه ضبطاً للوقائع وتحريراً له وذلك لتتوصل إلى الحقيقة على قدر الإمكان من كل حقير وخطير .

(تنبيه)

لما كان الغرض الأصلي من علم التاريخ هو الوقوف على صدق الوقائع وكذبها، والاطلاع على أسبابها الحقيقية واكتساب المعلومات التي توجب التيقظ والانتباه، تعييناً على المؤرخ أن يتحرى أسباب الحوادث الصحيحة بما يوجب العبرة والفائدة وأن يسرد الأخبار بعبارة سلسلة صريحة.

والذي أراه أنه ليس الغرض من التاريخ التكلف بالإنشاء وإظهار الفضل والبراعة، حتى ولا سرد الوقائع على نسق صحائف الأخبار اليومية فعلة ما حرره بعض الأسلاف في الآثار المرغوبة بنسق بليغ على طرز الإنشاء لم تكن فائدة لهذا العلم؛ بل لخدمة فن الإنشاء وتكلفت الإنشاء ليست بمطلوبة ومرغوبة في علم التاريخ، ومن حرر التاريخ على طرز الإنشاء لا يلتزم تحرير الوقائع على حقيقتها وبناء على ذلك لدى تدوين وتلاوة كتب الوقائع الماضية يلزم أن يفهم أولاً الغرض المقصود منها.

والمؤرخون من علماء العرب قد امتازوا على من سواهم فأوردوا كل شيء في بابه بخلاف بعض المتأخرين الذين لم يميزوا المقصد ولم يعينوه غير عالين أي فن يخدمون فأكثرُوا السواد فجاءت تواريخهم عارية عن الفائدة المقصودة.

ولما كان القصد من جمع هذا الكتاب الذي بادرنا بتحريره وتأليفه الفائدة التاريخية صرفنا النظر عن تكلفت الإنشاء وبذلنا الجهد بتصحيح وتنقيح ما يعطي فائدة الخبر واجتنبنا تكثير السواد إذ اكتفينا بتحرير الوقائع العادية كما هو ذلك من عوائد الدولة العلية.

وأضربنا صفحاً عن ذكر بعض وقوعات كانتقال الخليفة من قصر إلى غيره بحسب فصول السنة صيفاً وشتاءً، وخروج الأسطول من الخليج إلى بحر الروم في الربيع ورجوعه في الخريف إلى دار الصناعة العامرة. وتسليم المرتب للعساكر

في كل ثلاثة أشهر على حسب العادة في تلك الأوقات، وما يقع في السنة من توجيه المناصب وتعيين المرتبات وبيان سلسلة المراتب العلمية، وذكر اجتماع بعض العلماء في أوائل شهر رمضان من كل سنة بالحضرة السلطانية لتقرير الدروس العلمية، وزيارة البردة الشريفة النبوية في منتصفه، والدعاء عند نزول السفن الجديدة في البحر، وغير ذلك، إلا إذا مست الحاجة إلى ذكرها وكانت لها فائدة تاريخية فإننا نشبتها.

ولذلك بادرنّا بتحرير هذا التاريخ على المنوال المذكور واتبعنا رعاية الإنصاف وخلق الغرض مجتنبين التزام شخص ما، أو جهة ما، وبذلنا الجهد والاهتمام على قدر الاستطاعة بتصحيح الوقوعات وتحري أسبابها الصحيحة.

إن سنة ١١٨٨ هجرية التي هي ابتداء تاريخنا^(١)، كانت عنواناً لتحول أحوال الدولة؛ إذ بعدها تغير منهاج وقائعها، ومعلوم أن وقائع كل عصر هي نتائج العلل والأسباب المتسلسلة التي هيأتها وأعدتها الأعصار السابقة، فافتضى لذلك أن يعلم آثار أي أسباب تلك الوقائع التاريخية التي سيصير تدوينها.

فرائنا من المناسب أن نذكر قبل الشروع بالمقصود وقائع الدول السالفة وأحوالها العمومية لاسيما الدولة العلية والوقائع المشهورة المتعلقة بالبلاد المهمة كمصر والقرم، مع إيراد كل ما ينبغي لقراء هذا التاريخ الاطلاع عليه فصلاً بعد آخر إجمالاً.

١ - راجع حول هذا الموضوع مقدمة الدراسة عن الكتاب.

الفصل الأول

في بيان لزوم علم التاريخ وفائدته

اعلم أن علم التاريخ هو فن كثير المنافع يعود نفعه إلى كافة العالم وهو مقبول ومرغوب عند جميع الناس عامتهم وخاصتهم^(١) فالعامة وأفراد الناس مجبولون على مطالعته ومنه يعلمون ما سلف من الوقائع والمآثر الماضية والخاصة، والوكلاء^(٢) منهم يطلعون منه على الخفايا والأسرار المقتضية. وذلك لأن الإنسان مدني بالطبع فلا يمكنه أن يعيش منفرداً بنفسه كالبهائم بل يحتاج للاجتماع والتعاون مع أبناء جنسه في محلات مختلفة، وللجمعية البشرية درجات متفاوتة أدناها درجة القبائل الذين ضربوا أطناب خيامهم في الفيافي والقفار، فهم بعيدون عن العلوم والمعارف والصنائع وسائر الخصائص الإنسانية الكمالية التي هي نتيجة الهيئة المدنية. فغاية أمر هؤلاء القوم اكتساب الحوائج الضرورية البشرية واجتناء ثمرة شجرة الحياة وهي التناسل. وكما أنهم بعيدون عن آثار ونتائج المدنية الصحيحة بالنسبة إلى أهل القرى، كذلك لاحظ لأهل القرى في محاسن التمدن الحقيقي بالنسبة إلى أهل المدن العظيمة.

وأعلى درجة في الاجتماع الإنساني درجة المدنية أي مرتبة الدولة والسلطنة فإن من يكون في حمى الدولة من شأنه أن يرفل في ثوب الأمان ويضحى في وقاية من كيد الأعداء وسلطة الاعتداء مطمئن الجنان، فيسعى حنيئذ في حصول

١- ذكرنا في دراستنا لهذا الكتاب أن جودت باشا قد تأثر بابن خلدون. واكتسب كثيراً من أفكاره، وذلك لأن جودت قد أكمل مابده المؤرخون العثمانيون من قبله في ترجمة مقدمة ابن خلدون إلى اللغة التركية. وفي هذا الفصل يذكر جودت فائدة علم التاريخ، وفكرة أن الإنسان مدني بطبعه، ودرجات التمدن. انظر ما يقابلها في مقدمة ابن خلدون، تأليف العلامة عبد الرحمن ابن محمد بن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ج١، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الثالثة، ص ٢٠١ و ص ٣٣٧.

٢- الوكلاء هنا بمعنى وزراء الدولة وأصحاب المناصب العليا.

حاجاته البشرية وتكميل الفضائل الإنسانية وذلك لأن الإنسان مجبول على دفع الضرر وجلب النفع. هذا وقد تطمح أنظار الأفراد إلى أمر واحد فإذا تركوا وشأنهم حاول بعضهم ظلم البعض الآخر وهكذا الحال في الجماعات فإنهم يتنازعون في مصلحة من المصالح العمومية ويختلفون حتى تقع بينهم الشحنة وينفر بعضهم من بعض؛ فبناء عليه فالناس في حاجة كلية إلى وازع يرفعون إليه أمورهم عمومية كانت أو خصوصية وبذلك يتوصلون إلى قضاء مآربهم وينتهزون الفرص في تحصيل لوازم الكمالات الإنسانية، فيتفرقون أصنافاً فمنهم من يتجر ومنهم من يزدرع ومنهم من ينتظم في سلك خدمة الدولة في الأمور الملكية والعسكرية، ثم إنهم بقوة العلم والصناعة يحصلون الكمالات البشرية فيستعملون عشرة أشخاص مثلاً فيما ينبغي له مئة نفس فالأشغال التي تستغرق زمناً طويلاً تنجز في مدة يسيرة فاغتنتم أهل التمدن الفرص الزائدة فأقبلوا على تحصيل حاجاتهم الضرورية وصرفوها في اجتناء خصائص الكمالات الإنسانية فأخذوا على هذا النمط يترقون في أنواع الحضارة والمدنية ولوازمها يوماً فيوماً، حتى زالت سذاجتهم، ثم حدث لهم احتياج آخر إلى ما يتجملون به ويؤدون ما عليهم من التكاليف وعلى قدر احتياجهم هذا ازدادت منافعهم الذاتية وتنوعت أغراضهم الشخصية؛ فطرات الصعوبة على ضبط الإدارة العمومية شيئاً فشيئاً وصار حسن الإدارة وترقي الدولة وحصول سعة العيش في احتياج إلى دقة أصحاب الاطلاع والمهارة؛ أما المهارة في أمور كهذه فلا تحصل إلا بالتجارب وعمر الإنسان ولو بلغ قرناً كاملاً لا يكفي لجميع التجارب، فلذلك لم يجرب العارفون كل شيء بأنفسهم بل أخذوه عن غيرهم كما أنهم اعتبروا وانتصحو (١) واتعظوا بسواهم. وقد ورد في الحديث الشريف (السعيد من اعظ بغيره)

١- روى الإمام مسلم في صحيحه من كلام ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه لا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ما نصه (ألا إنما الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره). صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٢٠٣٧/٤ رقم ٤٥ ٢٦).

وكما ينتفع الوزراء والخواص بعلم التاريخ نفعا خصوصياً كسائر العوام كذلك يستفيدون منه فوائد كلية يستعينون بها على قضاء الأحكام السياسية.

فمحبو الوطن من الأسلاف المتصفون بالمعارف والراغبون في بقاء ذكر الأمة والدولة التي هم منها، قد حرروا جميع وقائع عصورهم وأخبارها وتركوها تذكرة وعبرة لمن بعدهم، فاكتسبوا بذلك الأدعية الخيرية منهم، وزيادة على ذلك فإن الإنسان ميال بالطبع إلى الوقوف على الأحوال الماضية والمستقبلية، بل إلى معرفة أسرار الأزل والأبد فأصبح النوع الإنساني كله محتاجاً إلى هذا الفن فقد قيل (لا تشبع العين من نظر ولا السمع من خبر. ولا الأرض من مطر).

ثم إن حفظ نظمات الدول لا يقوم إلا بعلم التاريخ ومن المحقق أن في تطبيق الأحوال السالفة على الحاضرة فوائد كثيرة فلذلك قال بعض العلماء إن تعليم التاريخ وتعلمه من الأمور الواجبة.

وقد نقل أنه في زمن القائم بأمر الله ^(١) أحد خلفاء العباسيين جاء نفر من أعيان يهود خيبر إلى بغداد دار الخلافة، وقدموا له صحيفة تشعر بالعمى عنهم من دفع الجزية، وادعوا أنهم أخذوها من قبل حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم بخط سيدنا علي رضي الله عنه وفيها شهادة بعض الصحابة الكرام رضي الله عنهم. فقبل الخليفة منهم هذه الصحيفة وأجاب طلبهم وأمر أن يكتب لهم منشور في ذلك. ثم لما وصل الأمر إلى رئيس العلماء أبي القاسم بن مسلمة تردد في القضية، وشك في صحة تلك الصحيفة، وأشار على الخليفة بسؤال الخطيب البغدادي عن ذلك، وكان من مؤرخي ذلك العصر، فبعد وقوفه عليها علم بقوة اطلاعه على التاريخ أنها مزورة، فأجاب بما نصه إن من الشهود حضرة معاوية وسعد بن معاذ؛ أما معاوية فإنه دخل في الإسلام في السنة التاسعة من الهجرة

١- القائم بأمر الله: أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله أحمد، الخليفة العباسي السادس والعشرون. توفي في بغداد سنة ٤٦٧هـ. قاموس الأعلام ٣٥٩١/٥.

98

الفصل الثاني

في أطوار الحكومات وأقسامها

إذا نظر المرء في هذه الدنيا علم أنها كلها عبر تتجدد مظاهرها يوماً بعد آخر في جميع الجواهر والأعراض. فكما أن للإنسان حالتين حالة صعود وحالة هبوط في حاله ووجوده؛ كذلك لكل دولة حالتان حالة ضعف وحالة قوة^(١) فهي في ابتداء نشأتها كالإنسان في حالة السذاجة فإنه قليل الحاجة خفيف المؤنة فإذا بلغ أشده قويت حاجته واشتد عوزه وكثر تفننه في المآكل والمشارب والمساكن والملابس وهكذا الدولة فإنها إذا قويت أمرها وطال عمرها زالت سذاجتها وازدادت حاجاتها وأشغالها ونفقاتها فإذا حدث من الأمور ما هو مهم واختل نظام إدارتها اتسع عليها مجال النفقات فتقع في الضيق ويزداد الضعف والفتور. سنة الله في عباده.

والحاصل أن أية دولة كانت تأخذ من أول أمرها تنتقل من طور إلى آخر ومن حال إلى غيره في كل عصر وأوان، فيلجئها ذلك إلى التشبث بأذيال الحكمة وحسن التدبير باعتبار الزمان والمكان فإن جسم الدولة يشبه جسم الإنسان في حالة النمو والوقوف والانحطاط. فكما يجب على الإنسان أن يتأمل فيما يفعله لحفظ صحته في هذه الحالات الثلاث، كذلك يجب على رجال كل دولة أن يحافظوا عليها بالدقة فيما يناسبها في كل طور وحال.

ثم إن طور الانحطاط يخفى حتى يصعب في بعض الأحيان إدراكه. ويظهر في بعض الأحيان للعيان فيعسر دواؤه. ولكن بحسن التدبير والحكمة قد يمكن أن تعود القوى فيحيى جسم الدولة ثانياً وإن كانت لا تسلم في هذه الحالة من الخطر

١- هذا هو الموضع الثاني الذي يشير فيه جودت باشا إلى أفكار مماثلة لما ذكره ابن خلدون - انظر مقدمة ابن خلدون، ج٢، ص ٥٤٥. وانظر الدراسة حول تاريخ جودت في أول هذا الكتاب.

لا سيما إذا طرأت عليها أثناء ذلك علل خارجية فحينئذ تكون على شفا حفرة من الزوال. نعم إن بعض الدول ممن وصل إلى هذه الدرجة في الوهن نجا وعادت له قوته، إلا أن ذلك كان بعد انقلاب عظيم وكم من دولة انقرضت وهي في حالة الوقوف وذلك إما بسوء التدبير وإما بظهور أمر سماوي.

وليعلم أن دول النصارى يعتمدون في أحكامهم السياسية على القوانين التي توضع باجتماع آراء الأعيان منهم وتنقسم فيهم الحكومة إلى قسمين قسم روحاني أي ديني وقسم جسماني أي مادي.

فالروحاني عندهم هو حكومة البابا عند الكاثوليك فإن جميع رهبان هذا المذهب تحت أمره وجميع الكنائس تحت رئاسته. ويعتقدون فيه أنه وكيل حضرة عيسى عليه السلام. وتجري أوامر الحكومة الروحانية في جميع ممالك الدول على أهل مذهب الكاثوليك. وكان لهذه الحكومة قديماً في أوروبا نفوذ عظيم وتأثير قوى. ولما جار الباباوات في حكمهم على الملوك من أهل مذهبهم وجفواهم كسروا شوكة نفوذهم شيئاً فشيئاً وأضعفوا أمرهم. وأما الروم من النصارى وهم أهل مذهب الأرثوذكس، فإنهم لا يعترفون بالبابا بل يتبعون في أحكامهم الروحية بطارقتهم، ورئيسهم البطريرك الاستامبولي. وأما طائفة الأرمن من النصارى فإن لهم رؤساء ثلاثة يقال لكل منهم (قاتوغيكس) فأحدهم هو رئيس كنيسة اجميازين الواقعة في بلاد الكورج^(١) و ثانيهم رئيس كنيسة سيس الواقعة في قوزان^(٢) وثالثهم رئيس كنائس (اخطمار) الواقعة في جهة وان^(٣) وأما أهل مذهب البروتستان فلا رئيس عمومي لهم كأولئك.

١- بلاد الكرج أو كرجستان: هي ما يطلق عليها حالياً جورجيا جنوب بلاد القوقاز. قاموس الأعلام ١٨٣٦/٥ - ٣.

٢- قوزان: منطقة تابعة لولاية أطنة في الجنوب الشرقي للأناضول وقاعدتها سيس. قاموس الإعلام ٢٧٣٢٠/٥.

٣- وان: ولاية عثمانية تقع في الجهة الشرقية للأناضول على الحدود مع بلاد فارس، قاموس الأعلام ٤٦٧٣/٦.

وأما الحكومة المادية فإنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: مطلقة، ومقيدة، وجمهورية. فالمطلقة هي التي يكون زمام إدارتها في يد الملك فقط مثل دولة الروسية.

والمقيدة هي الحكومة التي ينقاد فيها الملك لرأي مجلس الأمة وهذه أيضاً على قسمين:

القسم الأول يقال له المقيدة العمومية كبعض دول مثل ألمانيا وإيطاليا فإن عامة الأهالي يستوون فيها ويكون فيهم مجلس يقال له مجلس الأمة تنتخب الأمة أعضائه وهم غير وكلاء الدولة ووزرائها.

والقسم الثاني يقال له المقيدة الحسبية (بفتح السين) كدولة الانكليز فإن أهل الحسب والنسب؛ منهم مترفعون عن غيرهم من وجوه كثيرة، تمييزاً لهم فلا تنال العامة شيئاً مما يناله هؤلاء المترفعون من الرتب والامتيازات، وعندهم مجلس أمة ينتخبه أهل النواحي فيأتون للعاصمة ويجتمعون ويتشاورون في مصالح المملكة ثم ترفع القضايا إلى مجلس الخاصة^(١) من أهل الحسب ويمضي الأمر على ما يقر عليه رأيهم. ثم إن مجلس الأمة كلها في الدول المذكورة ليست مستمرة بل تنعقد مرة في السنة وتدوم مدة ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر ويسمونها (بارلامنت) وأما وكلاء الدولة^(٢) فإن الملك هو الذي يوليهم المناصب فلا يمضون أمراً إلا بعد رفعه إليه وصدر الإذن منه فيه خطأ ومع ذلك فالعهدة عليهم في كافة أمور المملكة أمام مجلس الأمة.

وأما الحكومة الجمهورية فهي عبارة عن هيئة اجتماعية من الأعيان ليس لها ملك بل يرأسها بمقام الملك واحد منها بأكثرية الآراء رئاسة وقتية كجمهورية أمريكا.

١- ويقصد بذلك مجلس اللوردات.

٢- أي وزراء الدولة وأصحاب المناصب العليا.

وأما دولة الفرنسيين فإنها كانت في القديم حكومة مطلقة ثم وقع فيها الخلاف واختل نظامها فتحولت إلى جمهورية، غير أنه لما ظهر نابليون بونابرت قابضاً على زمام العالم أحرز رتبة الامبراطورية فانقلبت حكومته من الجمهورية إلى المطلقة وأسسها في ظاهر الأمر على نمط الحكومة المقيدة ولكن لما كانت له السطوة الكاملة والكلمة النافذة كان الأمر له وحده في كل شيء فيفعل ما يريد فكانت حكومته مقيدة في الظاهر مطلقة في نفس الأمر ولما انقضت أيامه رجعت مقيدة عمومية وذلك في أيام الملك لويس فليب ثم ثارت نار الثورة سنة ١٢٦٥ فتألفت الحكومة الجمهورية برئاسة لويس نابليون لمدة أربع سنوات فقط إلا أن البعض من الناس كان يريد أن تكون فرنسا ملكية والبعض يؤيد رأي الجمهورية الاعتيادية والبعض لم يرضوا بها أيضاً فخرجوا عن حد الاعتدال إلى جانب البغي والضلال. فرفضوا حقوق الناس فيما يملكونه من الأموال والأزواج وقالوا ينبغي التساوي والاشتراك في كل شيء حتى في الزوجة والمال. وقد وافقهم على ذلك كثير من الغوغاء والأوغاد ليجعلوا هذه الصبغة صبغة للجمهورية ثم لما رأى الأعيان والعقلاء من أهل فرنسا أن عاقبة هذه الفتنة بلاء عظيم، صرفوا النظر عن التمتع بلذة الحرية في الحكومة المقيدة فضلاً عن الحكومة الجمهورية ففوضوا الأمر تفويضاً تاماً إلى لويس نابليون ولقبوه بلقب (إمبراطور) قبل انتهاء مدة رئاسته في السنين الأربع المذكورة وخضعوا إلى حكومته المطلقة. وفي أثناء هذه الثورة الواقعة في فرنسا مال أهل أوستريا^(١) إلى الحرية فأهرقوا دماء كثيرة. وطلبوا قلب حكومتهم إلى حكومة مقيدة فلم يتيسر لهم ذلك بل غلب عليهم حزب الامبراطور. وبقي الأمر كما كان أعني الحكومة المطلقة لهذا العهد كل هذه الأقسام المذكورة لا تخلو من مضار بديهة الإدراك لا سيما الفرقة الجمهورية التي تجاوزت الحد فإن تدابيرها كانت بعيدة عن العقول وعن النوااميس كلها.

١ - أي النمسا.

۱۰۳

الفصل الثالث

في بيان أحوال الدول الإسلامية السابقة و مبدأ ظهور

الدولة العلية^(١)

اعلم أن الأمتين العظيمنتين أعنى العرب والترك كانوا بمقتضي مواقعهم في بعض الأحيان ومرة بعد أخرى تثور فيهم الحمية فيندفعون اندفاع السيل على الأقطار طلباً للاستيلاء^(٢) وبذلك استولوا مراراً على كثير من ممالك العالم. وآخر هجوم العرب وأقواه خروجهم بالسطوة الإسلامية إعلاء لكلمة الله فكانت قبائل العرب في زمن الرسول عليه الصلاة والسلام على قلب واحد ولسان واحد في كلمة الإيمان ولما ارتد بعض القبائل عن الدين بعد وفاته صلى الله عليه وسلم أرسل سيدنا أبو بكر الصديق الذي ازدان به مقام الإمامة الكبرى رضي الله تعالى عنه العساكر فأدبهم وجمعهم على كلمة واحدة، فعاد الأمر كما كان ثم تولى بعده حضرة سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه الذي تزين به منبر الخلافة فاقتفى آثاره في حض الأصحاب الكرام رضي الله عنهم على الجهاد وفتح البلاد، ورتب الجيوش وأعد الذخائر فقام الصحابة رضي الله عنهم بأمره في سائر الأحوال وأجلبوا بخيلهم ورجلهم على أهل الآفاق وأكثرهم لم يرجع إلى وطنه بل استمر على الحرب إلى أن قضى نحبه. ومن مآثره رضي الله عنه أنه كان يخدم بيوت الأصحاب بنفسه ويستقي لهم فيحمل القرية على كتفه، هذا إذا لم يكن عندهم من يقوم بذلك وهو إذ ذاك أمير المؤمنين وال خليفة الأعظم للمسلمين.

١- الدولة العلية: أطلق هذا المسمى على الدولة العثمانية منذ بداية عهد الدولة حيث ورد في وثائق الأرشيف العثماني على سبيل المثال عبارات مثل العلية، والسنية، الباهرة. واستخدم المؤرخون العثمانيون هذه العبارات أوصافاً للدولة. أنظر أرشيف رئاسة الوزراء العثماني، إستانبول، وثائق مهمة دفترية.

٢- يقصد بذلك قبل ظهور الإسلام.

إن هجمات العرب وحركاتهم التي ما خرجت عن حد العدل في جميع الأمور كانت خالصة لوجه الله تعالى فإنهم كانوا لا يمسون من ينقاد إليهم بسوء بل كانوا يؤمنونه من كل خطر. وأما من جاهر بالمخالفة والقتال فقد قابله بالمثل وصار مخذولاً مداساً بحوافر الخيل. فلذلك يسر الله لهم في زمن قليل فتح ما لا يدخل تحت حد التخمين من الممالك والبلاد. وبعد ذلك استمر الحال في زمن خلافة الإمامين الجليلين سيدنا عثمان وسيدنا علي رضي الله عنهما على هذا المتوال حتى اتسعت الممالك الإسلامية فكانت أيام الخلفاء الأربعة الراشدين وعمدة الدين القويم كأيام الرسالة مزدهية بالحق والعدالة. حتى إنه في زمن خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء رجل من بيت النبوة يشتكي الفاقة فأمر له بألف دينار من بيت المال. ثم جاء ولده عبد الله رضي الله عنه واشتكى مثله فأعطاه درهماً واحداً من ماله. فاستقله سيدنا عبد الله فقال له سيدنا عمر إن لأهل بيت النبوة حقاً في بيت المال وإنه الآن لفي سعة والحمد لله أما أنت فحقك أن تطلب مني على حسب حالي وما يملك أبوك من الأموال حتى تطلب منه الزيادة. ويروى أيضاً أن سيدنا علياً رضي الله عنه ترفع مع ذمي في حضرة الشرع. لكن وقع بين المسلمين بعض اختلاف في زمن سيدنا عثمان وسيدنا علي رضي الله عنهما ثم بعد خلافة سيدنا علي رضي الله عنه تحولت الخلافة للملك والسلطنة وظهرت دولة الأمويين فما فرغت في أيامها أيضاً جعبة أهل الإسلام من سهام الغزو والجهاد بل تمسكوا به وافتتحوا بلاداً أخرى كثيرة حتى أن موسى بن نصير قائد جيوش أفريقيا لما فتح البلاد ووصل إلى ساحل البحر المحيط في أقصى الغرب ساق فرسه إلى البحر فلما عجز عن اقتحامه شك رمحه فيه وقال يا رب أني لا أستطيع أكثر من ذلك ولو قدرت لوصلت اسمك الكريم إلى أبعد من هذا. فهو رحمه الله قد أبقى بذلك ذكراً جميلاً.

وكان مولاه طارق بن زياد أحد أمراء الجيوش الذين كانوا معه قد دخل الأندلس (هي مملكة إسبانيا) بألف وسبع مئة مقاتل أتوها بالسفن من عدوة

المغرب الأقصى وذلك في سنة ٩٢ من الهجرة، فتحصن في جبل سمى باسمه إلى يومنا هذا (هو جبل طارق) ثم أحرق السفن التي حملته إليه وقال لمن معه من العسكر هذا البحر وراءكم فلا مفر إلا إلى الغرق فإن تصبروا وتخوضوا عباب القتال فزتم وظفرتم في هذه الممالك وإلا هلكتم لا محالة. فاشتد عزم المسلمين بهذا القول المبين واقترحوا صفوف الأعداء وهم أكثر عدداً منهم بأضعاف مضاعفة وقاتلوا إلى أن هبَّ عليهم نسيم الظفر من كل جانب ففتحوا البلاد وملكوها. ثم لما بلغ الخبر موسى بن نصير دبَّ فيه نسيس الغيرة من مولاه طارق^(١) فأخذ ستة عشر ألف مقاتل. ودخل بهم الأندلس واقتحم المهالك وفتح بلاداً أخرى وطد فيها المسالك وتقدم إلى أواسط أوروبا.

ثم إن بعض الخلفاء من الأمويين بتقادم الأيام والسنين صاروا يتهاونون بأحكام الدين ويهتكون حرمة الشرع في كثير من الأحوال ويجهرون بالمعاصي وأنواع المظالم حتى إن الوليد الثاني بن يزيد بن عبد الملك منهم كان على غاية السفاهة يستخف بشعائر الشرع الشريف فنفر عنه المسلمون فسقط عليهم الغيرة الربانية فشئت شمل انتظامهم في قليل من الأيام وسلبتهم تلك النعمة فوقعوا في أشد النقمة. وصارت الخلافة الإسلامية للخلفاء العباسيين في السنة الثانية والثلاثين بعد المئة من الهجرة النبوية.

وذلك أنه قام داعيتهم أبو مسلم الخراساني فخرج على الأمويين وتغلب على امرائهم في بلاد العجم (إيران) وغيرها وبايع الإمام السفاح وهو من أحفاد حضرة سيدنا العباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام. فغرب بعد ذلك في

١- يشير مؤرخ التاريخ الأندلسي المعاصر الدكتور عبد الرحمن علي الحجي إلى عدم صحة الزعم بأن عبور موسى بن نصير كان حسداً لطارق بن زياد. بل كان بناءً على استغاثة طارق له، ومشاركة له في الجهاد والفتح بدليل أن موسى سلك سبيلاً آخر في الأندلس لاستكمال الفتوح في مناطق أخرى مهمة إلى أن التقيا بعد ذلك لوضع خطط أخرى لفتوح تالية. انظر: عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، دار القلم، دمشق/ بيروت، ١٤٠٧هـ، ص ٨٥-٨٧.

برهة قليلة نجم إقبال الأمويين وظهر كوكب سعد العباسيين . ثم إنه وإن يكن تسلطن جماعة من الأمويين في جهات الأندلس فإن زمام الخلافة الشرعية وسائر الممالك الإسلامية كانت بأيدي العباسيين .

ثم إن خلفاء العباسيين أخذوا أخيراً في الانهماك في الشهوات والتنعيم فوصلوا إلى درجة الإسراف في الإنفاق وأهملوا أمر المملكة ومصالح العباد فضعفت سطوتهم وتزلزلت أركان سلطتهم فتحول نفوذ الحكومة وإدارة أمورها إلى بعض المتغلبين عليهم من الأتراك فأصبحت الخلافة جسماً بلا روح حتى إن البعض من أولئك المتغلبين أمر بذكر اسمه في الخطبة مع الخليفة على المنبر فكانت الخلافة عبارة عن أمر لا وجود له .

وتفصيل ذلك أن المسلمين انهمكوا في الترف وغرقوا في بحور اللذات وحصروا الفكر في أمر إدارة الملك وترويج العلوم والصنائع والتجارة فقط وأهملوا أمر الجهاد وفتح البلاد فضعفت شوكة الجند وزالت الصولة العسكرية . وأعظم الوقائع التي جرت في أيامهم هي عبارة عن بعض مناوشات على التخوم مع قيصر القسطنطينية .

نعم إن مساعي الخليفة المأمون بن هارون الرشيد المعروفة في تسهيل أسباب التمدن وترويج العلوم والمعارف مما لا ينكره أحد بل يحمد به كل عاقل عليها إلا أنه قد أخطأ خطأً بيناً في أمر يتعلق بتسيير المملكة وهو أنه أعطى ولاية خراسان لرجل يسمى طاهراً مكافأة له على قتل أخيه الأمين فاتخذ نيسابور عاصمة لها وجعلها موروثه له ولاعقابه من بعده فكان ذلك باعثاً على إزالة رهبة الخلافة من صدور العمال وداعياً لأهل الدولة لإهمال أوامره وأخذ العمال يستقلون بالأحكام في البلدان .

ثم جاء بعده الخليفة المعتصم فجمع بعض الأحداث من الترك وجعلهم عسكرياً خاصاً به ثم لما اشتد ساعدتهم خرجوا عن طاعته وتسببوا في ثورات هائلة كما وقع قديماً في عساكر امبراطوري رومية .

فمن أجل تلك الأحوال زالت قوة الخلفاء وذهبت ريحهم فصار ملكهم عرضة للطوائف المتغلبة بل صار أشبه ما يكون بأحوال بعض أنحاء أوربا التي يعبر عنها (فؤدالتيه)^(١) وأصبحت الخلافة اسماً لا مسمى .

ومن جملة المتغلبين آل صفار فإنهم ظهوروا في سنة ٨٧٠ ميلادية و٢٥٧ هجرية وملكوا ولايتي خراسان وطبرستان اللتان كان يحكمهما آل طاهر المذكور وأيالات أخرى جعلوها دولة عظيمة من عواصمها نيسابور ومرو فانقطعت طرق المواصلات بين خوارزم وبغداد وما وراء النهر . فلم تمض مدة إلا وظهر آل سامان أيضاً في تلك الجهات فأقاموا دولة لهم مستقلة .

وفي أثناء ذلك خرج أيضاً أحمد بن طولون عامل مصر والشام عن طاعة الخليفة واستقل بالأمر وهو من مواليه، تركي الأصل . ولما توفي بعد بضع سنين تولى ولده مكانه فصار حاكماً مستقلاً في مصر والشام .

وبعد مدة اضمحل آل صفار وآل طولون أما آل سامان فقد زادت قوتهم على سائر الخلفاء واستولوا على عدة ممالك لآل صفار .

ثم في سنة عشرين وثلاثمائة هجرية ظهر آل حمدان في بلاد الموصل ورتبوا فيها حكومة مستقلة . فقام أيضاً أخشيد التركي الأصل الذي كان والياً على الشام ومصر وادعى الاستقلال وحارب آل حمدان وجرت بينهما حروب كثيرة فكان الخليفة يلاحظهم من بغداد ولكن لا يستطيع المداخلة فيما بينهم .

وفي خلال ذلك ظهر آل بويه^(٢) في سواحل بحر الخزر فاستولوا على عدة أيالات مثل كرمان وعراق العجم وحكموا فيها فصاروا دولة عظيمة .

وظهرت بعض إمارات مستقلة كملوك الطوائف في سائر الجهات حتى في

١- فؤدالتيه: مصطلح فرنسي بمعنى الإقطاعية وقد ظهر إلى حيز الوجود بعد تفكك وسقوط النظم الأوروبية العتيقة للتفصيل انظر: الموسوعة الفلسفية، إعداد ليف من الباحثين، ترجمة: سمير كرم . بيروت: دار الطليعة، ط ٢-١٩٨٧ م. ص ٤٣ .

٢- راجع فيما يخص الدويلات التي استقلت عن دولة الخلافة في كتاب البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ ابن كثير، مج ٦، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٨ هـ .

حوالي بغداد فكان كل منهم مستقلاً في الحكم إلى أن انتزعت البلاد من يد الخليفة فلم يبق له سوى بغداد ومع ذلك فقد كانت الكلمة النافذة فيها لضباط العساكر من الأتراك لا للخليفة.

وكان الخليفة وقتئذ الراضي بالله^(١)، فأراد التنصل من هذه الحال، فعين وكيلاً عنه مفوضاً سماه أمير الأمراء، وكان بوظيفة سر عسكر فأخذ على عهده جميع الأمور الملكية والمالية في ذلك العصر، وإن كان يوجد في ذلك العصر في الأندلس عند الدولة الأموية هناك وكيل مطلق كهذا يسمى عندهم بالحاجب؛ غير أن أمير الأمراء في بغداد كان نافذ الكلمة فوق العادة، وكان يذكر اسمه على المنابر مع اسم الخليفة، ثم إنه لم يبق للخليفة أمر ولا كلمة، وانحصر ذلك في أمير الأمراء، حتى إنه كان يتصرف في نفقات القصر، فكان هو الحاكم فعلاً وقولاً وصار الكبراء يتنافسون في هذا المنصب ويتنازعون عليه فسلبت راحة الأهالي بسبب ذلك فرفعوا أمرهم إلى آل بويه واستعانوا بهم فحضر منهم معز الدولة إلى بغداد في سنة ٣٣٤ هجرية، واستولى على هذا المنصب وكان ذا عصبية عظيمة في بلادهم، فاستمر هذا المنصب في قومه نحو مائة سنة.

ومع هذا الخلل الكلي في الدولة العباسية كان سوق العلم رائجاً كل الرواج وكان كل أمير يسعى في إعلاء مناره، حتى إن آل بويه المذكورين قاموا بشأنه أحسن قيام.

والحاصل إن الخلفاء العباسيين لم تكن لهم كلمة نافذة في جهة ما مطلقاً، مع أن المسلمين في جميع الأقطار كانوا يرون الخليفة العباسي بمنزلة ملك الملوك، ما عدا أهل الممالك التي تحت سلطة الخلفاء الأمويين في الأندلس؛ فإنهم كانوا لا يرون ذلك، ثم بعد ظهور الخلفاء الفاطميين في أفريقيا واستيلائهم على مصر

١- الراضي بالله محمد جعفر المقتدر الخليفة العباسي (٢٩٧هـ-٣٢٩هـ) قاموس الأعلام:

وعلى الديار الشامية في السنة الثامنة والخمسين بعد الثلاثمائة وتأسيسهم دولة شيعية ضعفت مكانة العباسيين بالكلية. وهؤلاء الخلفاء الفاطميون جعلوا في ابتداء أمرهم قاعدة ملكهم مدينتي القيروان ومهدية في قطعة تونس.

وبناء على ذلك كانت الخلافة الإسلامية في ذلك العصر منقسمة إلى أقسام ثلاثة: عباسية وأموية وفاطمية. وكانت السياسة النافذة منقسمة إلى أقسام أربع محصورة في بني أمية (في الأندلس) والفاطميين وبني بويه والسامانية، وهؤلاء الدول الأربع كانوا يعززون جانب العلم ويروجون أمر الصنائع؛ إلا أنهم لم يتفوقوا على أمر الجهاد وفتح البلاد ولم يتعرضوا في ذلك الوقت لبلاد أوروبا وإنما تعرضوا لجهات بحر الروم فقط. وأما ملك القسطنطينية فإنه كان بخلافهم فقد تعرض إلى ممالك الإسلام بعد سنة ٣٠٥ حتى إنه جاوز نهر الفرات مراراً وهجم على ولاية الجزيرة واستولى على عدة قلاع ومدن كأنطاكية في جهة الشام. وفي سنة ٣٨٧ هجرية ظهر من جهة بلاد الأفغان محمود بن سبكتكين الغزنوي الشهير الذي ألف كتاب (شاهنامه طوسي) باسمه فحارب آل بويه وقهرهم وأسس دولة عظيمة. ثم بعد ختام سنة ٤٣٠ جاء آل سلجوق من وراء النهر وقاتلوا آل الغزنوي^(١) ونزعوا الملك منهم وأقاموا دولة جسيمة في بلاد العجم (إيران) وغيرها.

وأما الخلفاء الأمويون في الأندلس (أسبانيا) فإنهم حكموا مئتين وخمسين سنة بغاية الانتظام لا سيما عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني ومحمد ابن أبي عامر المنصور، حاجب هشام، قد أبدوا من الهمة ما ازدادت معه الثروة وانتشرت المعارف وقوى أمر المدينة حتى بلغ الغاية؛ لكن بعد وفاة ابن أبي عامر المؤمى إليه انعكس الأمر فوق الشقاق والنفاق بين الأهلين في كل مكان وخرج العمال عن

١- راجع فيما يخص دول آل بويه وآل الغزنوي وآل سلجوق في: ابن كثير، البداية والنهاية، المجلد السادس.

طاعة الخليفة واستبدوا عنه بأنفسهم ووقع الخلاف بينهم فصاروا يتقاتلون كما وقع في أوربا بين الأمراء من أهل الحسب حتى تزلزلت جزيرة الأندلس وانقلب الحال فيها انقلاباً كلياً فاغتنمت الفرصة عند ذلك الحكام المسيحيون وأخذوا في التقدم، ثم بعد سنة ٤٠٠ هجرية انقرض نسل الأمويين بالكلية وقد أخذ بعض الأمراء لقب الخليفة انتحالاً لأنفسهم ولكن بسبب الخلاف والشقاق الذي وقع بينهم بعد سنة ٤٥٠ هجرية لم يبق لهذا اللقب أثر^(١) ولم يبق للدولة العباسية من يشاركها فيه إلا الدولة الفاطمية المقيمة في مصر.

على أنه كما ظهر الفساد في بغداد والاختلال في الأيالات^(٢) كذلك الخليفة الفاطمي في مصر وأمراء الشام كانوا غير هادئين عن بعضهم ولهذا استمد القائم بأمر الله أحد الخلفاء العباسيين بالأمير السلجوقي وفوض إليه الحكومة الجسمانية^(٣) لجميع الممالك الإسلامية وذلك في سنة ٤٤٩ هجرية فجمع آل سلجوق وجميع طوائف الأتراك المتجولين في جهتي نهر جيحون، وشمر عن ساعد الجد وأخذ في أسباب الحرب. ومع كون العرب والمستعربين إذ ذاك كانوا مشغولين بدرس العلوم وممارسة الفنون فإنهم اهتموا للمحاربة فقويت شوكة دولته يوماً بعد آخر فسار بجيشه إلى بلاد الأناطولي^(٤) وحارب ملك الروم حاكم القسطنطينية وغلبه وظفر به وأسر^(٥) وكان الخطباء يخطبون في مكة المكرمة باسم

١- استمر الحكم الإسلامي للأندلس بعد ذلك تحت حكم المرابطين والموحدين، وأخيراً في مملكة غرناطة إلى سنة ٨٩٧هـ. عبد الرحمن علي الحجي، مرجع سبق ذكره، ص ٤٠.

٢- لم تكن تسمى الأيالات آنذاك وإنما الأقاليم أو الولايات، وظهر استخدام عبارة الأيالة في العهد العثماني.

٣- في الأصل العثماني للكتاب وردت عبارة الحكومة المادية وعربها المترجم إلى الحكومة الجسمانية وهو اصطلاح غير مستعمل ويقصد بذلك أن الخليفة قد فوض السلاجقة في الأمور السياسية وأبقى في يده السلطة المعنوية أو الروحية.

٤- أي الأناضول أو ما يطلق عليه آسيا الصغرى.

٥- في المعركة المشهورة ملاذكرد سنة ٤٦٣هـ، بقيادة السلطان السلجوقي ألب أرسلان: ابن كثير، البداية والنهاية، مج ٦، ص ١٠٧.

الخلفاء الفاطميين فصاروا يخطبون باسم الخليفة العباسي على المنابر ويذكرون معه الأمير السلجوقي أي ألب أرسلان.

وفي سنة ٤٦٥ توفي الأمير السلجوقي ألب أرسلان وخلفه في الإمارة ابنه جلال الدين ملكشاه الذي كان أكثر أهلية للملك من أبيه ومتصفاً بجميع الصفات الحسنة، وكان له وزير يدعى نظام الملك^(١) ذو عقل كامل ورأي سديد فأخذ الأمير والوزير يحسنان السياسة والتدبير في مصالح المملكة وتوسيع نظامها حتى صار اسم الأمير يذكر على المنابر في مكة المشرفة والمدينة المنورة والقدس الشريف وبغداد وبخارى وسمرقند وكاشغر. ثم استولى بواسطة سليمان، أحد أقاربه على ولاية الأناطولي إلى حد خليج استامبول، ومع كون مدينة اصفهان كانت عاصمة ملكه فإن مملكته كانت ممتدة من الهند وسمرقند إلى بوغاز استامبول ووصلت شهرته وصوت سطوته إلى جميع الأقطار ولم يبق للخلافة العباسية في بغداد حكم سارٍ ولا أمر جارٍ بل كانت اسماً بلا رسم. وعلى هذا الوجه كان ملكشاه أكبر حاكم في ذلك العصر. وبهذه الصورة تجددت الشوكة والقوة للملة الإسلامية.

وتجدد سطوة الملة الإسلامية وقوتها كما ذكر بواسطة الأتراك قد شوش أفكار ملوك النصارى. وظهرت وقتئذ علائم النصر وتجددت القوة للمسلمين القاطنين في الأندلس. فإن الأمير يوسف (بن تاشفين) رئيس المرابطين الذي كان ملكاً مشهوراً في أفريقيا عظم أمره وقويت سطوته فدخل بلاد الأندلس (إسبانيا). وغلب الملوك المسيحيين ودخل أكثر الممالك الإسلامية التي في إسبانيا في يده سنة ٤٩٧ هجرية، ثم بايع الخليفة العباسي، ولما رأى ملوك أوروبا أن جميع المسلمين صاروا على وشك الاتحاد والاتفاق زاد ذلك في تأثرهم وحقنهم مع أسباب أخرى سنذكرها. فامتعضوا واتفقت كلمتهم جميعاً وهجمت الجموع الصليبية واقتحموا ممالك الإسلام.

١- وهو الذي تنسب إليه مدارس نظام الملك النظامية.

وفي أثناء ذلك توفي ملكشاه المشار إليه سنة ٤٨٥ وخلفه أحد آل سلجوق .
إلا أنه لم تيسر له إدارة تلك المملكة الشاسعة فوقع الشقاق بين السلجوقيين
وانقسم ملكهم إلى عدة أقسام فتشتت قوى المسلمين التي كان ملكشاه جددها
وفي أثناء ذلك الاختلال هجم الخليفة الفاطمي المقيم في مصر على بيت المقدس
واستولى عليه .

أما أهل الصليب فإنهم جاوزوا حدود أوربا ودخلوا قطعة الأناطولي كما
سنذكره وتسلطوا على عدة أماكن من بلاد الإسلام وجاسوا خلالها ووصلوا إلى
بيت المقدس واستولوا عليه ^(١) .

وهذا الأمر هال المسلمين فأخذ الخوف منهم مأخذاً عظيماً ثم ظهرت أثناء
ذلك دولة الأتابكية في الجزيرة ^(٢) فحارب الأتابك عماد الدين زنكي - الذي
مدحه الشيخ سعدي ^(٣) في كتابه المسمى «كلستان» - أهل الصليب حرباً عظيمة
وظفر بهم واستولى على حلب وصار ركناً متيناً وسداً قوياً دون أهل الصليب
الذين كانوا يتابعون الغزو على بلاد الإسلام . واستولى ولده نور الدين من بعده
على دمشق أيضاً وقوى شوكة الأتابكية ^(٤) بأكثر مما كانت من قبل .

١- وذلك في سنة ٤٩٢هـ: ابن كثير، البداية والنهاية، مج ٦، ص ١٦٦ .

٢- الجزيرة: هي المنطقة الواسعة الممتدة بين نهري دجلة والفرات وتشمل أجزاء من العراق وسوريا
وتركيا في الوقت الراهن . وتذكر في المراجع الغربية بـ Mezopotamia .

٣- مصلح الدين سعدي شيرازي (ت ٦٩١) مؤلف الكتاب المشهور «كلستان» بالفارسية ويتضمن
أشعار وقصائد وأدباً منشوراً . ترجم الكتاب إلى العربية والتركية واللغات الأخرى . قاموس
الأعلام ٤/ ٢٥٧٢ .

٤- الأتابكة: تعبير كان يطلق على من كان يتولى التربية العسكرية لأبناء ملوك السلاجقة، وبمرور
الزمن أصبح لهؤلاء الأتابكة دول مستقلة . وأشهر سلالات الأتابكة هم أتابكة الموصل الذين
يسمون الزنكيون، نسبة إلى عماد الدين زنكي أحد أمراء السلاجقة . وقد نال شهرة واسعة مع
ولده نور الدين محمود في محاربة الصليبيين . وكان صلاح الدين الأيوبي أحد العسكر الخاص
لنور الدين . انظر: يلمازا أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، نشر مؤسسة فيصل للتمويل،
إستانبول، ١٩٨٨، ج ١، ص ٥٣ .

أما الدولة الفاطمية فقد كانت مختلة النظام وقتئذ فاغتنم أهل الصليب الفرصة وهجموا على القاهرة فاستمد العاضد الخليفة الفاطمي من الأمير نور الدين واستنصره، فأرسل إليه جيشاً كثيفاً إلى مصر برئاسة أسد الدين شيركوه الكردي الذي كان من أكبر أمراءه وكان ابن أخيه الأمير يوسف صلاح الدين بن أيوب أحد أمراء الجيش في معيته فأنقذوا بلاد مصر من يد الأفرنج واستقل أسد الدين في مصر بلقب (سر عسكر) يعني رئيس العساكر، فلما توفي خلفه صلاح الدين وقبض على زمام الحكومة وكان سنياً فأظهر شعائر أهل السنة ولأول ولايته عزل القضاة الشيعيين ونصب قضاة من الشافعية .

وفي سنة ٥٦٧ هجرية أرسل الأمير نور الدين من الشام خطاباً إليه وأمره بقطع الخطبة باسم الخليفة الفاطمي العاضد على المنابر وإقامتها باسم الخليفة العباسي حينئذ وهو المستضيء بأمر الله المقيم في بغداد وصادف ورود هذا الأمر مرض العاضد فتوفي قبل أن يبلغه هذا الخبر وبعد وفاته استقل صلاح الدين بالسلطنة في مصر . وطار الخبر إلى بغداد فسر له أهلها وأظهروا علائم الابتهاج والفرح أياماً عديدة وأرسل الخليفة المستضيء بأمر الله الخلع الفاخرة إلى نور الدين وصلاح الدين وإلى الخطباء وأرسل الأعلام السود معها وهي شعار الخلفاء العباسيين . فانقرضت دولة الفاطميين الشيعية من مصر وتأيد مذهب أهل السنة وصار صلاح الدين سلطاناً على مصر؛ غير أن نور الدين لم يعترف له بالاستقلال بل كان يعتبره اعتبار السر عسكر تابعاً له وكان يحاول الذهاب إلى مصر ليخرجه منها ويستولى عليها فما مضت عليه أيام قليلة حتى توفي رحمه الله وانتقل الملك إلى صلاح الدين وانقرضت دولة الأتابكية من الشام . وأسس صلاح الدين دولة عظيمة باسم الدولة الأيوبية ثم إنه غلب الصليبيين واستولى على بيت المقدس فقيوت شوكة المسلمين وضعفت قوى الصليبيين من الإفرنج الذين كانوا انتشروا في بلاد الشام وفي سنة ٦٤٨ هجرية انقرضت الدولة

الأيوبية. وانتقلت السلطنة المصرية إلى ممالكها من التركمان ثم إلى الجراكسة الذين كانوا من ممالكها أيضاً. وكان هؤلاء الممالك عبيداً أرقاء لهم يستخدمونهم في الحرب والنزال، فكانوا على غاية الشدة حتى حاربوا الإفرنج وأخرجوهم من الديار الشامية، غير أن أهل الإسلام طرأت عليهم حوادث عظيمة وكان ذلك الزمن زمن طغيان واعتداء ومن أشد تلك الحوادث تسلط المغول والتتار على البلاد فخرج جنكيز خان وخرب بلاد إيران وتوران.

وفي خلال تلك الدواهي العظيمة سنة ٦٢١ هاجر سليمان شاه أحد ملوك تركستان جد آل عثمان^(١) في بلاد الترك إلى ديار الروم مع عشائر التركمان وهم خمسون ألف عائلة. وفي سنة ٦٥٦ استولى هلاكو خان على بغداد وسائر الطرق وقتل الخليفة المستعصم ومراسم الخلافة العباسية وشن الغارة على حلب وحماة.

وأما أمراء مصر من الطائفة المدعوة (كوله من)^(٢) فإنهم قاوموا آل جنكيز أشد المقاومة ودافعوهم^(٣). كما غلبوا قبلهم أهل الصليب حسبما ذكرناه.

وحاصل القول إن دول العرب انقرضت في الشرق والغرب وظهرت ملوك من طوائف أخرى في كل جهة فاختلفت أحوال الممالك الإسلامية واستولى التتار على الأقطار الشرقية، وكان يظهر في جهات الغرب أيضاً دول صغيرة ولضعفها لم تثبت ولم تطل أيامها وفي آخر أمرها خرجت بلاد إسبانيا (الأندلس) من يد المسلمين بالكلية.

وجنكيز خان ملك التتار لم يكن مسلماً فلذلك قهر المسلمين في بلاد الشرق

١- هناك فرضيات أخرى كثيرة عن منشأ بني عثمان وعن قصة هجرتهم إلى الأناضول. راجع : يلماز أوزتونا، مرجع سبق ذكره، ج١ ، ص ٨٣-٨٧؛ محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣ م.

٢- أي الممالك.

٣- يشير بذلك إلى المعركة الإسلامية الكبرى عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ، بقيادة سلطان الممالك المظفر قطز: ابن كثير، البداية والنهاية، مج ٧، ص ٢٣٣.

وأذلهم مدة مديدة ثم أسلم بعد موته جماعة من ذريته ثم انقراضوا وبقيت بلاد الشرق في حوزة ملوك الطوائف إلى أن ظهر تيمور خان.

وفي سنة ٦٥٩ بايع الناس المستنصر^(١) وهو من أهل بيت الخلفاء العباسيين، وكان وصل مصر هارباً من هلاكو خان. ثم استمرت البيعة لأولاده من بعده على الخلافة خلفاً عن سلف. إلا أن نفوذ الأحكام كان للملوك في مصر ولم يكن في أيدي الخلفاء شيء من الأحكام وما يتعلق بالملكة سوى الخلافة الاسمية التي كان يتبرك الناس بها كما يتبركون بمشايع الطرق العالية. وكان الخطباء يذكرون اسم الخليفة واسم سلطان مصر معاً.

والحاصل أن الوحدة الإسلامية فقدت، وكلمتها تشتت؛ فلذلك لم يكن للإسلام إذ ذاك كهف يلجأون إليه فأصبحت ممالكهم في كل جهة مختلة النظام وآل أمرهم إلى حالة تستوجب الأسف.

وكانت أعظم حكومة للإسلام أثناء ذلك حكومة آل سلجوق في مدينة قونية^(٢) غير أنها كانت تعاني أثقالاً من غارات قبائل التتار عليها شرقاً ومن ملوك مصر غرباً فاستمرت مدة ضعيفة تدفع للتتار الجزية السنوية إلى أن اختل نظامها. وفي سنة ٦٩٩ هجرية اضمحلت وانقرضت.

ثم إن ذلك الزمن الذي كانت مقدماته مظلمة ورؤياه مخيفة كانت عاقبته ولله الحمد والمنة حسنة وذلك بإشراق كوكب سعد الدولة العثمانية من برج المهابة والإجلال على الأقطار الإسلامية وتنويرها به.

وهذه الدولة السعيدة وإن كانت في بدء نشأتها على هيئة حكومة صغيرة فإنها كانت جامعة للديانة والشجاعة العربية متصفة بالثبات الذي هو من أخلاق الترك؛ فلذلك كانت مع صغرها جمعية جميلة. وكان يشير استعدادها إلى أنها ستكون

١- وهو أبو العباس، عم المعتصم. وقد وصل عدد الخلفاء العباسيين ممن تقلد منصب الخلافة في القاهرة ما يربو على قرنين من الزمان ثلاث عشرة خليفة.

٢- قونية : مدينة تقع في وسط الأناضول تشتهر بآثارها السلجوقية كالجوامع والخانات والقصور والقلاع والمكتبات والمدارس. وكانت عاصمة دولة سلاجقة الروم الذين ورثوا حكم السلاجقة الأوائل. قاموس الأعلام ٣٧٨٢/٥.

كهفاً وملجأً للملة الإسلامية. وإليك أمر نشأتها فإنها لم تستول على ملك مؤسس ولا ظهرت في هيئة ذات مكانة في العالم بل فتحت البلاد ووسعت المسالك وجعلت لنفسها مكانة وأسست سلطنة جسيمة. وجمعت من اداب الملل أحسنها وألفت لغة من لغات كثيرة وربت للملك هيئة جديدة ذات محاسن عديدة. فبظهورها قوي عنصر الإسلام وعظمت شوكته وتجددت سطوته وزال الضعف والهوان وتبدل الخوف بالأمان^(١).

إن سليمان شاه المشار إليه آنفاً لما هاجر من بلاده أيام فتنة آل جنكيز ودخل ديار الروم ووصل إلى حلب عن طريق أذربيجان وألبستان^(٢) أراد الرجوع إلى وطنه بعد مدة قليلة فعند مروره من الفرات غرق ومات رحمه الله ودفن في جوار قلعة بـ (ترك مزارى) أي مزار الترك. فرجع اثنان من أولاده مع كثير من العشيرة إلى وطنهم القديم وبقي ولده أرطغرل وأخوه الصغير دندار وبعض أناس من جماعتهم، ثم توجهوا إلى جهة الأناطولي. ففي أثناء الطريق صادفوا عسكر السلطان علاء الدين السلجوقي صاحب قونية يقاتل التتار فانضموا إليه وقاتلوا التتار معه وهزمهم. ففرح السلطان علاء الدين بهم وأكرمهم وأحسن قراهم. وأنعم عليهم بناحية تسمى سكوت ليسكنوا فيها. وكانت هذه الناحية في التخوم التي بين مملكة السلجوقيين والروم^(٣) فكان أرطغرل بك من أمراء الحدود القائمين بالجهد والغزو لا يألو في ذلك جهداً إلى أن توفي في سنة ثمانين وستمائة، وخلفه ولده الأمير عثمان المسمى بين جماعته بعثمانجق^(٤) فسار على منهج أبيه ومازال يقاتل الروم ويهاجم بلدهم حتى ابتز من أيديهم بلاداً كثيرة فعند ذلك أرسل إليه السلطان السلجوقي منشوراً ولواء أبيض وآلات الطبول إعلماً بإمارته وولايته وقد لقبه في ذلك المنشور بهذه العبارة (عثمان غازي حضر تلري مرزبان عاليجاه عثمان شاه).

١- الصحيح أن يقول المترجم: وتبدل الأمان بالخوف. لأن الباء تدخل على المتروك.

٢- مدينة تابعة لولاية مرعش في جنوب شرق تركيا حالياً.

٣- أي الروم البيزنطيين.

٤- عثمانجق: جق هنا أداة تصغير تلحق بعض الألفاظ الثقيلة في اللغة التركية. الدراري اللامعات،

ص ١٨٩.

استطراد

(ذَكَرَ واصف أفندي في تاريخه مقالة على سبيل الاستطراد، بَيَّن فيها ما كان للألوية والتوغات من الاعتبار والمنزلة فاستحسننا إيرادها هنا ملخصة لمناسبة المقام).

قال : إن السر في إحداث التوغ والسنجق واللواء^(١) هو أنه إذا اجتمع قوم تحت لواء واحد يحصل بينهم الاتحاد، بمعنى أن هذا اللواء يكون علامة على اجتماع كلمتهم ودلالة على اتحاد قلوبهم فيكونون كالجسد الواحد ويألف بعضهم بعضاً أشد من ائتلاف ذوي الأرحام. وإذا كانوا في معركة القتال لا ييأسون من الظفر ما دام لواؤهم منشوراً. بل تقوى همتهم ويشتد عزمهم. فإذا سقط لواؤهم أخذوا من جانب الوهم وباتوا موضوعاً للخوف والرهبة فينهزم بعضهم ويتبدد البعض الآخر. بخلاف ما إذا كان علمهم مرفوعاً خافقاً مزدهياً تبتهج به نفوسهم فتأخذهم نشأة الفرح والبسالة وتتسلط على أعدائهم هزة الرعب فتأخذ بمجامع قلوبهم. وكما أن الموسيقى العسكرية تنعش أرواحهم وتحثهم على الإقدام والشجاعة كذلك مناظر الألوية وتموجها، فإنها تحدث فيهم دواعي الغيرة وتجلب لأعدائهم الدهشة والفتور.

كان لجميع الأمم السالفة والدول الماضية آلات موسيقية متنوعة وألوية وأعلام عديدة.

ولم يكن في زمن الرسالة موسيقى بل أعلام فقط. فإن في السنة الأولى من الهجرة أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية قدرها ٣٠ نفساً من المهاجرين برئاسة عمه سيدنا حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهم ليتعرضوا قافلة لقريش كانت قادمة من الشام، معها ثلاثمائة مقاتل تحت رئاسة أبي جهل

١- التوغ: طرة من شعر الخيل كانت تعطى قديماً للأمراء بحسب رتبهم. وأما السنجق واللواء فهي الراية والبيرق عند العثمانيين. الدراري اللامعات، ص ١٧٩، ص ٣٠٠.

فعقد بيده المباركة صلى الله عليه وسلم علماً أبيض على رمح، وسلمه لأبي مرثد رضي الله عنه. وهذا أول لواء عقد في الإسلام وأول سرية ألفت من المسلمين لطلب المغانم^(١). فكان أبو مرثد أول من حمل لواء للمسلمين وكان هذا اللواء المبارك يعقد في كل غزوة وسرية إلى حين غزوة خيبر. وكان يطلق على الكتيبة اسم سرية حتى يبلغ عددها ٤٠٠٠ نفس فإذا كان فيها حضرة سلطان الأنبياء عليه أفضل التحيات سميت غزوة واللواء هو العلم الذي ينصب في محل إقامة أمير الجيش علامة له.

وقد عقد لواء آخر أسود في وقعة خيبر وسمى راية. وعلماء اللغة يقولون: إن اللواء والراية بمعنى واحد، وأما في اصطلاح عصرنا هذا أعني عند العثمانيين فإنه يقال للواء ببرق وللراية سنجق.

وقد تعددت الألوان والرايات في زمن الخلفاء. فأما العباسيون فكانت ألويتهم سوداً وكان لباسهم أسود فسموهم المسودة، دلالة على حزنهم ومأثمهم لشهداء كربلاء. وكانت ألوية العلويين الذين خرجوا على العباسيين بيضاً فسموهم المبيضة. وكانت الألوية أيام المأمون خضراً وكان اللباس أخضر أيضاً. وذلك لأن المأمون غير لون الأسود بالأخضر ثم رجع إلى الأسود.

وأما عدد الألوان والرايات عند باقي الدول فكان عند البعض كثيراً وعند البعض الآخر قليلاً فكان في صفوف دولة بني الأحمر في الأندلس ما يزيد على مئة لواء كلها مزخرفة بالذهب مزينة بالأشكال والصور الغربية.

وأما ألوية ملوك الترك القدماء في الممالك الشرقية، وبلاد دشت وترك وملوك الصين والهند، فكانت عظيمة عليها علامات ملونة منسوجة من أذنان الخيول شبيهة بالشعور المرسله وكانت تحمل أمام الجيش وتسمى حاليش وكان هذا بعينه عند آل جنكيز وآل هلاكو. وقد استعملته الدولة الأيوبية والملوك

١- ليس القصد طلب المغانم، وإنما يمكن القول بالإذن بأخذها.

السلجوقيون لكنهم جعلوا على رأسه صورة زورق مذهبة وعقدوا الشعر المحلول
المار ذكره صفائر فازدان بذلك. هذا كان يسمى توغ عند الدولة العلية في القديم.
وكانت تستعمل راية أخرى عظيمة في الدول الشرقية السالف ذكرها تنتشر
على رأس الملك وتسمى عصابة وسطفه وسنجا. ولا يستعملها غير السلطان.
وفي دولة الخلفاء وضعوا على رأس الألوية والسناجق علماً في صورة الهلال من
النحاس المطلي وعلامة أخرى شبيهة بدائرة الشمس مدورة مشقوقة الوسط. ولما
تغلب بعض الأمراء والسلاطين على الخلفاء وتحكموا استنكفوا عن استعمال تلك
الألوية ووضعوا على ألويتهم وسناجقهم كرة مذهبة تشبه فلكة المغزل وأقاموا
على الألوية الكبيرة صفائح مذهبة منقوشة بالأشعار وزينوها بألوان سود وميناء
منقوشة. وهذه الألوية والرايات ذات الهلال الأسود والأخضر التي كانت في
القديم مخصوصة بالخلفاء قد انتقلت إلى مشايخ طرق الصوفية وإلى الجوامع
والتكايا وكانت تنشر أمام جنائز الأكابر وترفع في أيام عاشورا وما ماثلها من
الأيام المشهورة. ولا غرو فإن هذه عادة الدنيا في أهلها فإنه متى انقضت أيام دولة
أو إمارة منها أهملت رسومها وآثارها وما كان دليلاً على شهرتها وطرح في
زوايا النسيان.

وكانت الدولة العلية تستعمل لواء مخصوصاً للوزراء اسمه يوروك
بيراعي^(١) عوضاً عن اللواء الأبيض. واستعملت أيضاً سنجاً كبيراً بدلاً من
العصابة والشطفة وجعلت الشعر الذي كان يعقد على الألوية ويعرف باسم توغ
في غاية الأهمية. فخصت كل أمير من الأمراء بواحد منه. وخصت أمير الأمراء
بأثنين، والوزراء بثلاثة وحضرة السلطان بتسعة. وما زال استعماله إلى يومنا هذا
معلوماً. انتهى كلام واصف أفندي.

١- يوروك بيراعي: بمعنى بيرق الجسارة والسرعة. الدراري اللامعات، ص ٥٥٥.

اعلم أن استعمال التوغ والعلم مازال معروفاً عند الدولة إلى زمن غير بعيد كما ذكره واصف أفندي، ولكن لما رتب النظام الجديد غيرت هذه الأصول بالكلية وألغى اعطاء التوغ إلى الباشاوات بالمرّة. أما الأصول المتعلقة بالبيريقي والسنجق فهي معلومة عند الجميع فلا نخوض في بيانها ولنرجع إلى ما كنا بصدده.

ولما رأى حضرة الغازي عثمان شاه أن الدولة السلجوقية التي كان تابعاً لها قاربت الزوال. وأن حكومة القيصر في القسطنطينية اختلت أحوالها أيّ اختلال، وأهملت السياسة إهمالاً تاماً. وذلك لما حدث وقتئذ من الخلاف في أمر الدين بين المسيحيين؛ أخذ في تمهيد أسبب الملك واستعمال الوسائل مع حسن التدبير مستعيناً على نيل مآربه بما اتصف به من سعة العقل وعلو المدارك وأحسن من نفسه القوة على تأسيس دولة عظيمة.

وفي سنة ٦٩٩ هجرية انقرضت الدولة السلجوقية وقام أمراؤها وولاتها ونادوا باستقلالهم في بلادهم فتيسر حينئذ لحضرة عثمان الغازي أن يؤلف قلوبهم عليه وخطب باسمه في يكي شهر^(١) التابعة لبروسة.

١- يكي شهر: تقرأ بالنون هكذا يني شهر ومعناها المدينة الجديدة وتقع بين أنقرة وبروسة التي تعرف حالياً ب بورصة، غرب الأناضول.

الفصل الرابع

(في بيان أحوال الدولة العلية المختلفة)

اعلم أن حكومة حضرة عثمان الغازي خان الذي هو شريف الأصل وأصل الشجرة العثمانية قد اتصلت أيامها إحدى وعشرين سنة مضت كلها في الغزو والجهاد وفتح البلاد فكان أحياناً يذهب بنفسه وأحياناً يرسل السر عسكر^(١) ولده الغازي أورخان بك ففتح كثيراً من المدن التي للقيصرية في جهة الأناطولي وأسس الدولة العلية الدائم بنيانها بهذه الممالك الجديدة وببقايا الدولة السلجوقية .

ثم توفي رحمه الله سنة ٧٢٦ هـ جرية وكان ولده أورخان الغازي قد فتح وقتئذ مدينة بروسه فتولى مكانه وجعل هذه المدينة عاصمة المملكة . ثم قلد أخاه علاء الدين باشا منصب الوزارة فقام بأعبائها واشتغل في تأسيس المنظمات والقوانين واستمر حضرة الغازي أورخان على ما كان عليه من فتح البلاد فافتتح بلاداً كثيرة من الأناطولي وضمها إلى مملكته العثمانية وأرسل ولده الكبير سليمان باشا إلى جهة الروم إيلي فاستولى على كليولي^(٢) ونواحيها وتمكن من فتح طريق أوروبا .

ثم توفي سليمان باشا هناك وهو مقبل على الحرب والجهاد . ثم توفي بعده بقليل أبوه حضرة أورخان الغازي رحمهما الله . فتولى مكانه ولده الصغير حضرة مراد الأول وكان يلقب (بخداوندكار)^(٣) فاستولى على كثير من البلاد في

١- سرعسكر: عبارة فارسية عربية معناها رئيس الجيوش عموماً. الدراري اللامعات، ص ٢٩٤ .

٢- كليولي أوغاليبولي: مدينة ساحلية في الجانب الأوربي على مدخل بحر مرمرة تبعد عن استانبول ٢٠٥ كم إلى الجنوب الغربي منها. قاموس الأعلام ٥ : ٣٨٧٨ .

٣- خداوندكار: كلمة فارسية تعني آمر، حاكم. الدراري اللامعات، ص ٣٣٥ .

الأناتولي وعلى مدن كثيرة وقلاع عديدة في جهة الروم إيلي كمدينة أدرنة^(١) وقلبه،^(٢) وسلستره،^(٣) وضمها إلى الممالك العثمانية.

ثم توفي رحمه الله في السنة ٧٩٢ من الهجرة. وجلس مكانه ولده السلطان يلديرم بايزيدخان واقتفى آثار أسلافه واستولى على كثير من البلاد حتى اتسعت الممالك العثمانية في أيامه اتساعاً عظيماً فلقبه الخليفة العباسي المقيم في مصر وخاطبه بلقب سلطان إقليم الروم بعد أن كان يخاطب أباه وجده بأمرير.

فهذا القرن هو الدور الأول للدولة العلية فإنها في تلك المدة أي بظرف مئة سنة قد عظم أمرها وقويت أركانها وصارت دولة عظيمة بعد أن كانت إمارة صغيرة. وذلك بسبب استمساكها بوصية المرحوم الغازي عثمان، وهي أنه لما حضرته الوفاة أوصى ولده حضرة أورخان الغازي بوصايا ثلاث فقال أولاً تمسك في كل أمورك بالشرعية الغراء وشاور في المهمات أهل الرأي والدهاء. ثانياً أعط كل ذي حق حقه من التكريم والإنعام من الخواص والعوام لاسيما العلماء الأعلام الذين هم دعائم دين الإسلام لتكون مظهرًا لما قيل (خير الناس من ينفع الناس) ثالثاً حيث إنك خليفتي من بعدي فتنبه لما هو أعظم ركن من أركان هذا المقام وهو التعظيم لأوامر الله والشفقة على خلق الله واطلب النتائج الخيرية من إعلاء كلمة الله والغزو لوجه الله. فعمل حضرة أورخان الغازي بهذه الوصية وسلك بنوه فيها على منهجه القويم وأزالوا عن البلاد غشاوة الظلم وما كان في بعض الممالك الإسلامية من التعصب المخالف لللسنة النبوية وسلوكوا جادة العدل والدين متمسكين بالشرع المبين من غير إفراط ولا تفريط وعدلوا بين الرعية، حتى رفع

١- أدرنة: مدينة عثمانية في الجانب الأوربي (الروملي). اتخذها العثمانيون عاصمة للدولة قبل فتح القسطنطينية. تبعد عن استانبول ١٢٥ كم إلى الجهة الغربية الشمالية منها، وبها آثار عثمانية كثيرة. قاموس الأعلام ٨٠٨/٢.

٢- قلبي: مدينة في شرق الروملي تبعد عن مدينة صوفيا بـ ١٤٠ كم إلى الجنوب الشرقي منها، وتبعد عن استانبول بـ ٣٧٣ كم في الجهة الغربية الشمالية منها، قاموس الأعلام، ٥/ ٣٤٢٠.

٣- سلستره: مدينة تقع على نهر الدانوب تبعد عن صوفيا بـ ٣٥٩ كم في الشمال الشرقي منها. وكانت فيما بعد مركز للمواجهة بين العثمانيين والروس. قاموس الأعلام ٤/ ٢٥٩٩.

الله منارهم وقوى أركان سلطنتهم في برهة يسيرة وأيام قليلة .

أما العساكر في ذلك الوقت فلم تكن على هيئة منتظمة في جهة من الجهات . إلا أن عساكر الدولة العلية كانت بالنسبة لحال الزمان على غاية من الانتظام . وكانت البلاد التي تفتح عنوة تعطى أراضيها للغزاة باعتبار التيمار^(١) «راتب» والباقي يعتبر من الأراضي الخاصة التي يعين قسم منها للأمرء والباقي لخزينة الدولة بعنوان (خاص همايون)^(٢) . وبذلك كان يتزايد عدد فرسان ذوي التيمار كلما اتسعت البلاد العثمانية . وكان هؤلاء الفرسان ماهرين في الفنون الجندية واستعمال السلاح وكانوا يتنافسون في اقتناء السلاح الجميل والخيول الحسان . وكانوا على أتم وجه من الضبط والانتظام والمعرفة بالفروسية وكانوا يذهبون إلى الحرب في معية أمرء السناجق^(٣) .

وفي زمن الغازي أورخان رتبت الدولة عساكر مشاة موظفة من أولاد الأتراك . وبعد مدة كانت تلتقط على هذه الصورة رجالاً من أولاد النصارى فإذا صاروا إلى حالة حسنة من الترتيب والانتظام أدخلتهم في سلك اليكچري (الإنكشارية) فهم نخبة موظفون يقيمون في الثكنة على الدوام وهم على غاية الطاعة والانقياد مع ما هم عليه من الشجاعة والثبات في المعارك . ورتبت الدولة نوعاً آخر من العسكر وسمته (مُسَلِّم)^(٤) ورفعت عنهم الضرائب الأميرية بشرط أن يكونوا متهيين للحرب بمعية أمرء الألوية عند ميسس الحاجة .

وحيث كان مشروطاً على الخيالة ذوي التيمار أن يتوطنوا ضمن اللواء الذي يكون تيمارهم فيه رتب أيضاً في زمن حضرة خداوندكار الغازي نوعان آخران

١- التيمار: إقطاع كان يعطى للعساكر في العهد العثماني . الدراري اللامعات ، ص ١٨٢ .

٢- خاص همايون: أي خاص بالسلطان يقع تحت تصرفه . الدراري اللامعات . ص ٥٣٣ .

٣- أمرء السناجق: أي أمرء الألوية . الدراري اللامعات ، ص ٣٠٠ .

٤- مُسَلِّم: بضم الحرف الأول وفتح الثاني، جنود مشاة راجلون متطوعون من العشائر التركمانية . يلماز أوزتونا، مرجع سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٠٨ .

من العسكر سماهما بلوك سپاه^(١) وبولك سلحدار^(٢) بشرط أن يكون أربابهم موظفين وعلى أهبة الحرب كالإنكشارية. وأما العسكر الذي له العلوفة^(٣) ويسمى (قپوقولي)^(٤) فكان المشاة فيه من الإنكشارية والخيالة من بلوكى السپاه والسلحدار وكان هؤلاء الخيالة منتخين من الملتقطين ومن أخذوا أسرى في الحرب وتربوا في السراي الهمايونية وفي بيوت الأمراء والوزراء كالإنكشارية. وفي زمن يلديرم بايزيد أحدثت الدولة أصول التعليم الجندي وجدت في تعليم هؤلاء العساكر المشاة والخيالة.

وهياً يلديرم بايزيد خان ما كان مطمح أنظار العثمانيين منذ زمن حضرة عثمان الغازي وهو فتح القسطنطينية. لكن من سوء الحظ استولت عليه أهواء النفس في أواخر أمره فتهافت على مالا يليق من الإسراف والتبذير والميل مع هوى النفس والاسترسال في اللهو والخلاعة^(٥) وغير ذلك من دواعي التأخر. فاغتنم الفرصة تيمورلنك وسار على الدولة العلية في سبعماية ألف مقاتل فقابله يلديرم بايزيد المشار إليه فوقع في يده أسيراً بحكمة من الله فاستولى عليه الهم والكدر فمرض ومات رحمه الله وذلك سنة ٨٠٥ هجرية.

١- بلوك سپاه: أي فوج العساكر الفرسان الخيالة. الدراري اللامعات، ص ٢٩٠.

٢- بلوك سلحدار: أي فوج السلاح. الدراري اللامعات، ص ٢٩٩.

٣- العلوفة: بالعثمانية علوفه لي. ذو معاش. الدراري اللامعات، ص ٣٧٧.

٤- قپوقولي: الجندي من المشاة والفرسان الذي يعمل دوماً في الجيش العثماني ويتقاضى راتباً. معجم الدولة العثمانية. ص ١٥٩.

٥- لم تشر أغلب المصادر العثمانية والعربية إلى أن السلطان بايزيد (٧٦١هـ-٨٠٤هـ) كان مشهوراً باللهو والمجون. وإنما ذكرت أنه هو الذي حقق للعثمانيين وحدة الأناضول بالقضاء على الإمارات التركمانية، وحاصر القسطنطينية، وفتح أجزاء من الروملي، وانتصر على التحالف الصليبي الكبير في معركة نيقوبولو سنة ٧٩٨هـ. ولكن حجم الهجوم الكبير الذي قام به التتار بزعامة تيمورلنك، خذل بايزيد وعصف مؤقتاً بكيان الدولة العثمانية. انظر يلماز أوزتونا، مرجع سبق ذكره، ج١، ص ١٠٣؛ إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص ٤٦.

ولما كان اعتلاء شأن الدولة العلية في مدة يسيرة وازدياد شوكتها ورفع مكانتها بوجه خارق للعادة مما ساء دول أوربا فرحوا طبعاً بما وقع من حكم القضاء والقدر على يلديرم بايزيد، حتى أن ملك الفرنسيين في ذلك الوقت أرسل يهنئ تيمور بما حصل له من الظفر وأجابه تيمور بكتاب^(١) باللغة الفارسية وقد أثبتناه مع ترجمته في ذيل هذا المجلد بعدد ٢.

وبعد يلديرم بايزيد تنازع أولاده في أمر الملك ووقعت السلطنة السنية لذلك في فترة فاصلة يعني منفصلة عن محورها الأصلي مدة إحدى عشرة سنة. على أن ضربة أليمة كهذه لو وقعت على أية دولة كانت لمحتها عن آخرها. إلا أن أساس الدولة العلية كان متيناً جداً فاستقر أمرها. ثم إن السلطان محمد خان چلبلي^(٢) تغلب على إخوته فتهيأت له أسباب الاستقلال بالملك فرفع شأن الدولة العلية وعادت في زمن قليل إلى سابق عزها. ثم توفي في سنة ٨٢٤ للهجرة. وقام بشأن الملك من بعده ابنه السلطان مراد خان الثاني^(٣) فقوى أركان الدولة ووسع نطاق المملكة بما يزيد على ما كانت عليه، ولما توفي رحمه الله في السنة ٨٥٥ تولى مكانه ولده حضرة أبي الفتح السلطان محمد خان الثاني^(٤).

وكان وقتئذ حدث نزاع مذهبي بين الأروام ووقع الضعف والوهن في إمبراطورية الأستانة، حتى إنه لم يبق للإمبراطور من السلطة إلا مجرد الاحتشام والرسوم والعادات البسيطة. ويروى أن وكلاء القيصر لما بلغهم أن حضرة

١- فحوى رسالة تيمور إلى شارل السادس ملك فرنسا كما وردت في ملاحق هذا الكتاب هو شكر ملك فرنسا الذي أرسل أحد الرهبان لتقديم التهاني بالانتصار على العثمانيين العدو المشترك للطرفين، والوعد بتعزيز الصداقة والتجارة بين الجانبين. انظر الملاحق. وفي هذا إشارة إلى الخطورة التي كان يمثلها تيمورلنك على العالم الإسلامي آنذاك.

٢- السلطان محمد چلبلي الأول (٧٨١هـ-٨١٧هـ) السلطان العثماني الخامس. إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢.

٣- السلطان مراد الثاني (٨٠٦هـ-٨٥٥هـ) السلطان العثماني السادس. المرجع السابق، ص ٥٦.

٤- السلطان محمد الفاتح (٨٣٣هـ-٨٨٦هـ) السلطان العثماني السابع. فاتح القسطنطينية، وأشهر سلاطين الدولة العثمانية. المرجع السابق، ص ٦٤.

السلطان محمد خان الثاني بني (قلعة بوغازكسن)^(١) وسد عليهم خليج القسطنطينية اختبطت عقولهم واضطربت أفكارهم وعقدوا للمذاكرة في هذا الأمر مجلساً كبيراً في أيا صوفيا. فأخذوا يتزاحمون في أوقات الاجتماع على التقدم في الجلوس ولم يراعوا حقوقهم بحسب مراتبهم فأدى بهم ذلك الاختلاف إلى التضارب بالكراسي على الرؤوس. وفتح الاستانة وإن كان ممكناً قبل هذا الأوان نظراً لارتباك أحوال أهلها فإن عوارض الزمان قد حالت دونه ثم لما صار الأمر إلى حضرة أبي الفتح محمد خان المشار إليه تمكن من حل هذه العقدة وفاز بما كان يأمله.

وذلك إنه في سنة ٨٥٧ هجرية جهز المشار إليه عساكر جرارة ومدافع عظيمة وزحف إليها من جهة أدرنة وفتحها.

فاهتدت الدولة العلية بذلك إلى مركزها الحقيقي وأصبح حضرة الفاتح بعد أن تمت له لوازم السلطنة بهذا الفتح جديراً بلقب ملك الملوك.

ولا يخفى أن سعادة كل أمة من الأمم ناشئة عن اتحاد الكلمة واتفاق الرأي وكرم السجاي كما ثبت ذلك وتحقق عندنا من هذه القضية. فإن الروم كانوا على غاية ما يكون من القوة المالية والمعرفة بأمور السياسة الدولية. حتى إن أوربا كانت تستفيد منهم وذلك أيام انتشارهم في أوربا بعد فتح القسطنطينية. فغلبهم العثمانيون الذين كانوا بالنسبة إليهم شردمة قليلة مقيمة في ضواحي الأناطولي. وما ذلك إلا لدخول الفساد على أخلاقهم وشدة الشقاق فيما بينهم فلم تنفعهم قواهم المالية ولا معارفهم السياسية.

ولما كان موقع القسطنطينية الطبيعي والجغرافي من أجلّ المواقع السياسية في

١- بوغازكسن: اسم القلعة التي بناها محمد الفاتح على الجانب الأوربي من القسطنطينية وتسمى بوغاز كسن حصاري أي القلعة قاطعة البوغاز وللقلعة مسمى آخر مشهور هو روملي حصار. يلماز أوزتونا، مرجع سبق ذكره، ج١، ص ١٣١.

الكرة الأرضية كانت غلبة الدولة التي تحل بها لسائر الدول أمراً طبيعياً كما نقل عن نابليون بونابرت أنه قال: لو كانت الكرة الأرضية في حوزة دولة واحدة لكان يلزمها أن تتخذ الأستانة عاصمة لها. فبناء عليه لما فتحت الدولة العلية الأستانة استقر لها المقام فيها فبلغت سطوتها درجة الكمال واستكملت أسباب الغلبة على سائر دول أوربا في مدة يسيرة. ولو لم يساعدها القدر في فتح القسطنطينية لما استطاعت أن تبلغ هذه القوة والاقتدار. ولذلك كان الملوك العثمانيون موجهين أنظارهم إلى هذا الأمر المهم وقد ورد في الحديث الشريف ﴿لَتَفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنَعَمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنَعَمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ﴾^(١) إشارة إلى هذا السر.

وبعد فتح القسطنطينية أحرزت الدولة العلية في مدة وجيزة أسطولا كامل العدة والذخيرة. واستولى حضرة الفاتح على قريم وعلى قلاع ومواطن كثيرة في آسيا وأوربا وضمها إلى مملكته. وحيث كانت الدولة العلية تراعي جانب العلماء والفضلاء وتكرمهم كل الإكرام وكانوا يؤمنونها من كل فج عميق وأصبحت القسطنطينية في ذلك العصر داراً للعلوم والفنون.

وفي سنة ٨٨٦ هجرية توفي الفاتح وجلس مكانه حضرة ولده السلطان بايزيد خان الثاني^(٢) ففتح أيضاً بعض بلاد وقلاع.

وفي هذه المدة أعنى من زمن السلطان محمد جلبي إلى هذا الزمن أي مدة مئة سنة تقريباً زادت سطوة الدولة زيادة عظيمة وقويت شوكتها ثم زيد في عدد مشاة الإنكشارية المنظمة المسماة (قبوقولي) بلوكات (الطوبجية)^(٣) والخمبره جيه^(٤)

١- الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (٢٣٥/٤).

٢- بايزيد الثاني (٨٥١هـ-٩١٨هـ) السلطان العثماني الثامن. ومدة حكمه إحدى وثلاثين سنة. إبراهيم بك حلیم، مرجع سبق ذكره، ص ٧٠.

٣- الطوبجية: فرقة المدفعية. الدراري اللامعات، ص ٣٦٣.

٤- الخمبره جيه: فرقة ضاربي القنابل. المرجع السابق، ص ٢٤٠.

(١) والعربة جيه^(٢) واللغمجية^(٣) . وألحق بعدد الخيالة المسماة بلوكات (سباه وسلحدار) أربعة بلوكات سميت (علوفجيان^(٤) يمين ويسار وغرباي^(٥)) يمين ويسار). وأما عسكر الأيالات ذوو التيمار فإنهم زادوا زيادة عظيمة وانتظمت أحوالهم انتظاماً تاماً. وكان للدولة فرسان خفاف غير هؤلاء قاطنون في الروم إيلي واسمهم آقنجي^(٦) وظيفتهم السير أمام العساكر السلطانية والدخول قبلها إلى بلاد العدو وشن الغارات إرهاباً وتهويلاً.

وبالجملّة فقد كان هذا العصر عصر نجاح وإقبال للدولة العلية إلا أنه كما يدخل على الإنسان فتور القوى والضعف إذا مضى عليه مئة عام من العمر كان لابد للدول أن تضعف وتنتهك إذا مر عليها طويل زمن، وكما حصل ضعف للدولة في أواخر القرن الأول في زمن يلديرم بايزيد خان الذي هو السلطان الرابع، كذلك حصل لها تهاون في أمر الفتوحات وذلك في أواخر الدور الثاني من زمن السلطان بايزيد خان الثاني الذي هو ثامن السلاطين.

فلما تنازل بايزيد خان الثاني وتخلّى عن السلطنة سنة ٩١٨ هجرية وجلس ولده حضرة السلطان سليم خان^(٧) توجهت الأفكار إلى الفتوحات وبلغت شوكة الإسلام إلى الدرجة العليا.

-
- ١- العربية جية: فرقة سائقي عجلات المدافع والعربات، يلماز أوزتونا، مرجع سبق ذكره، ص ٤٠٠.
 - ٢- اللغمجية: فرقة الألغام. والمقصود باللغم آنذاك النفق الذي يفتح في حروب القلاع تحت الأرض. المرجع السابق، ص ٤٠١.
 - ٣- الجبه جية: فرقة التجهيزات العسكرية. ومهمتها جمع أسلحة حامية الإنكشارية بعد الحملات وإصلاحها وصيانتها، ثم توزيعها في الحملات التالية. نفسه، ص ٤٠٢.
 - ٤- علوفجيان: من فرق الفرسان الذين يتقاضون مرتبات. نفسه، ص ٣٨٨.
 - ٥- غرباي: من فرق الفرسان المساعدة. نفسه، ص ٣٨٨.
 - ٦- آقنجي: أي فرقة الصاعقة أو المغاوير. نفسه. ص ٤٠٧.
 - ٧- سليم الأول (٨٨٥-٩٢٦هـ) السلطان العثماني التاسع، كان يلقب ياوز، أي القاطع والصارم. إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص ٧٩.

(١) وذلك أنه بعد الأمير تيمور قام أولاده، وقره قويونلير، وآق قويونلير وأوز بكير، وأقاموا حكومة في بلاد العجم مدة قليلة. وبهذا الأثناء ظهر بعض مشايخ يقال لهم الصفوية في مظهر الإرشاد. فكان مرامهم تحويل الأمر من المشيخة إلى السلطنة فكانوا يجمعون الناس في هيئة المريدين والدرأيش حتى كثرت أتباعهم يوماً فيوماً، وقوي عنصرهم، وكان فيهم الشيخ إسماعيل الصفوي ابن أحد المشايخ، فانتحل لنفسه لقب شاه إيران وسار بجامعته على البلاد الشرقية بدعوى اشتها مذهب الشيعة فاقترحها واستولى عليها فاستمر المذهب تيمور (في فساد) (٢). وعزم على دخول بلاد الروم والاستيلاء على الانطولي والوصول إلى أسكدر (٣). ولم يدر أن الدولة العلية قد استتب لها الملك وتمكنت من أريكتها. ولا علم أن هناك شهماً هماماً وبطلاً مقداماً وهو السلطان سليم (باوز) الذي لما بلغه خبره سافر إليه في عساكره العثمانية متولياً قيادتها بنفسه وهزمه أقبح هزيمة وفرق جيوشه وجال في تلك الأقطار فدخل إيران وكردستان وكرجستان وشن الغارة على تلك النواحي ودوخها بالخيول والرجل.

ثم لما علم الشاه إسماعيل أنه يتعذر على حكومة إسلامية أن تبقى في جوار دولة إسلامية أخرى عظيمة أبدية القرار إلا باختلاف المذهب أقبل على بث مذهب الشيعة في ديار إيران وأقام الدولة الصفوية على أساسه. فتمكن من إلقاء الشقاق وتحريك الاحن بين أهل الملة الإسلامية.

١ - بعد موت تيمورلنك أسس أولاده حكومة في بلاد العجم (فارس) ثم انتقل حكم هذه البلاد إلى حكم سلالتين تركمانيتين هما أصحاب الخراف السود (قرة قويونلير. ٨٤١-٨٧٢هـ) وأصحاب الخراف البيض (آق قويونلير ٨٧٢-٩٠٨هـ) يلماز أوزتونا، مرجع سبق ذكره، ج١، ص ٦٠.

٢ - أي ان إسماعيل الصفوي قد قلد تيمورلنك في إفساده وتخريبه. وقد وقع خطأ مطبعي في النسخة العربية المترجمة بذكر عبارة (استمر) والصحيح (استمر). راجع الأصل العثماني، ص ٣١.

٣ - حي من أحياء إستانبول الآسيوية.

ولما علم السلطان سليم أن دولة الجراكسة في مصر كانت ميالة إلى الشاه إسماعيل أثناء الحروب التي جرت بينه وبين الدولة العلية، قرر وجوب تربيتهم بالذهاب إلى مصر. ثم بلغه أن الغوري سلطان مصر أعد الأموال والذخيرة واستعد للاستيلاء على ديار الروم وحصر الأستانة، كما خطر ذلك في فكر الشاه إسماعيل، فلم ينجح حسبما تقدم آنفاً. فخرج السلطان سليم بعساكره فلاقى جيوش الجراكسة في أرباض حلب واشتبك القتال بين الفريقين ثم دارت الدائرة على الغوري وصرع في ميدان القتال وانهزمت جيوشه وتفرقت شذر مذر. وتبع السلطان سليم المظفر جماعة المماليك وأبادهم واستولى على الديار الشامية ثم الأقطار المصرية والحجازية. وتاريخ ذلك في حساب الجمل (فاتح ممالك العرب). وكان قبل هذا الفتح يدعى سلطان الدولة العثمانية وبعده لقب بخادم الحرمين الشريفين وخليفة الإسلام زيادة على لقب السلطان. وعند رجوعه من مصر نقل الآثار النبوية الشريفة التي هي شعار الخلافة إلى الأستانة عاصمة السلطنة العثمانية. فجمع بين الخلافة والسلطنة. ووصلت الدولة العلية إلى مرتبة عليا هي خليفة بها. فاتحدت كلمة المسلمين، وتجددت قواهم.

ومن الأمور المسلمة أن قوة الدولة واتساع نطاقها وشدة اقتدارها في عالم الوجود إنما تكون بحسب قوى عناصرها الأصلية وجسامتها. وعنصر الدولة العلية الأصلي وإن كان في أول نشأته ضعيفاً، فإنه قوي بعد ذلك، وتجمعت الدولة وكثر عددها وقويت شوكتها بانحياز الأتراك إليها بعد انقراض الدولة السلجوقية. مع من أسلم من الروم على يدها فصارت دولة عظيمة مؤلفة من الأتراك والروم وغيرهم من القبائل والشعوب.

ثم إن حضرة السلطان سليم خان ياوز لما جمع بين الخلافة والسلطنة كما ذكرنا آنفاً اقتضت الأحوال أن جميع الموحدين يعدون أعظم أجزاء عنصر هذه الدولة الإسلامية. غير أن أهل إيران استمروا خارجين عن هذا العنصر حيث

سرى فيهم سم النفاق الذي بثه إسماعيل شاه بين المسلمين فكانوا لذلك حاجزاً منيعاً بين المسلمين السنيين القاطنين في ما وراء النهر وبين الدولة العلية في بلاد الروم. فلم يتيسر لأولئك السنيين أن ينالوا شرف التبعية فبناءً على ذلك رأت الدولة حيثئذ أن تجمع بوحدة الخلافة تحت لوائها جميع الأمم التي تعد من عناصرها الأصلية في الشرق والغرب والهند والسند.

هذا الذي كان يخالج صدر حضرة السلطان سليم خان ياوز حتى إنه كان يريد المسير ثانياً إلى إيران ليقوض بنیان مذهب الشيعة ويمحو آثار الدولة الصفوية التي كانت مؤيدة له وجادة في نشره غير أن عمره كان قصيراً ففي مدة ثمان سنين التي كان فيها سلطاناً استولى على المشرق والجنوب وعزم على المسير إلى المغرب والشمال ففاجأته المنية وذلك سنة ٩٢٦.

فجلس بعده ولده حضرة السلطان سليمان خان القانوني^(١) فجهز الجيوش أيضاً وبعث البعث والغوازي شرقاً وغرباً، وسار بنفسه فافتتح ثلاثمائة وستين حصناً من الحصون المنيعة. وروج سوق العلوم والمعارف ووضع نظاماً مخصوصاً لترقى رجال العلم، ونظم القوانين المالية للدولة وسائر دوائرها الأميرية. وزاد في عدد طوائف العساكر المعروفة بقبوقولى وفي عدد عسكر الأيالات المسماة تيمارلو ووضع لهم قوانين جديدة فاشتهر لذلك بالقانوني.

وفي ذلك العصر كانت المشاة من عساكر أوروبا مجموعة من أصناف شتى جاهلة بأمر الحروب. وكان فرسانها على حالة غير مرضية فإنهم كانوا يخدمون الأمراء الذين يدعون المساواة بالملوك. أما الدولة العلية فكانت عساكرها المشاة

١- سليمان الأول (القانوني) ٩٠٠هـ-٩٧٤هـ. السلطان العثماني العاشر. بلغت الدولة العثمانية في عصره عهدها الذهبي. وحكم قرابة ثمان وأربعين سنة. وهو بذلك أطول من جلس في سدة الحكم من السلاطين. إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص ٨٧.

والفرسان منظمة كثيرة العدد. فلذلك تمكنت من مرادها وانتشرت سطوتها ووقعت رهبتها في قلوب العالم أجمع.

وفي سنة ٩٣٦ سار السلطان الغازي سليمان خان إلى بلاد أوستريا وحاصر مدينة وينا^(١) المعروفة يومئذ بمدينة بج عاصمتها. وبعد وقوع حروب شديدة ترك محاصرتها بسبب دخول فصل الشتاء فأقلع عنها ورجع إلى عاصمته. وكانت أساطيل الدولة العلية أيضاً في غاية القوة فائقة على أساطيل الدول الأوروبية جميعاً كما سنبين ذلك في محله. وكان أيضاً وزيرها خير الدين باشا المعروف بجليل المزايا وحسن السجايا رئيساً بحرياً خاض عباب البحار، فأرهب جميع ثغور أوروبا بشدة سطوته. فهو جدير بأن يكون واسطة عقد أمراء البحر. وكانت أساطيل الدولة في بحر الروم^(٢) غالبية على أساطيل سائر الدول وكانت تتجول في البحر الأحمر ومياه عمان وتنفذ كلمتها في سواحل اليمن والهند.

وفي أثناء ذلك قام امبراطور ألمانيا على دولة فرنسا فضيق عليها الجهات وحاربها فغلبها وأسر ملكها فرنسوى. فجاء جوني فرانجيانى سفيراً مخصوصاً إلى الأستانة سنة ٩٣١ مستغيثاً بحضرة السلطان سليمان فدفع إليه كتاباً رجع به. وقد أدرجنا هذا الكتاب^(٣) في ذيل هذا المجلد رقم (٣).

وفي سنة ٩٣٣ سار حضرة السلطان سليمان في العساكر إلى بلاد المجر فدخلها. ومن بعد ثلاث سنين زحف إلى وينا وفي أثناء ذلك تم عقد الصلح بين الملك فرنسوى وإمبراطور ألمانيا.

وما برح ملك الفرنسيين بعد ذلك يستمد ويستعين بالسلطان ويتابع إرسال السفراء والكتب إليه في ذلك. وفي سنة ٩٥٠ بعث السلطان خير الدين باشا في

١- (وينا): وهي عاصمة النمسا (أوستريا).

٢- بحر الروم : هو البحر المتوسط.

٣- فحوى هذا الكتاب إبلاغ ملك فرنسا بوصول طلب استنجاهه وتخليصه من الأسر إلى السلطان سليمان القانوني وأن الدولة العثمانية بمالها من قوة ونفوذ ستكون إلى جانبه.

الأسطول الهمايوني مدداً لفرنسا كما سنذكره. واستمرت فرنسا أخيراً تستمد من الدولة العلية فأرسلت إليها سفيراً مخصوصاً، وكان السلطان سليمان إذ ذاك يحارب في جهة الشرق مستنبياً عنه في الأستانة وزيره الثاني إبراهيم باشا فلما قابله السفير في الديوان الهمايوني أجابه شفهاً بما دل على اقتدار الدولة وعظم نفوذها في الأقطار الغربية وصورة جوابه^(١) اثبتناها في ذيل هذا المجلد في عدد (٤).

ثم عرض هذا الأمر على حضرة السلطان وكان وقتئذ معسكراً في صحراء ترجان فأصدر أمره العالي إلى بياله بك أمير البحر بالسفر حالاً بالأسطول الهمايوني مدداً لدولة فرنسا وقد أثبتنا صورة هذا الأمر^(٢) في الذيل عدد (٥).

وحاصل القول إن حضرة السلطان سليمان خان أخرج من القوة إلى الفعل أكثر ما خالج خلد والده. فكانت أيامه مزدهية زاهرة بمحاسن النبل حتى إن القلم يقصر عن إيضاح ما جرى فيها من الحوادث المهمة والأمور الخطيرة.

وقد تقدم أن السلطان سليم ياوز كان في عزمه أن يجمع أولاً الطوائف الإسلامية من الجهات المختلفة في نقطة واحدة تعزيزاً للشوكة الإسلامية. وثانياً أنه بعد ذلك يتوجه إلى المغرب والشمال. فهذا العزم المهم لم يحققه من جاء بعده ولم يراعوا حقه. بل صرفوا همهم مدة طويلة إلى بلاد المجر. ونحن لا ننكر أن

١- خلاصة جواب الوزير العثماني إبراهيم باشا للسفير الفرنسي، إن الدولة العثمانية ملتزمة باتفاقها مع فرنسا في مساعدتها ضد أعدائها. ولكن يجب أن تقدّر فرنسا هذا الموقف ولا تتقاعس مستقبلاً فيما لو احتاج العثمانيون لمساعدة فرنسا: «... كلما وقعت الدولة العلية في تهلكة واضطراب تظهرون دائماً التغافل والتساهل. وإذا انخرطت ملتكم في محاربة ومخاطرة فإنكم تظهرون كل التيقظ والتنبه وتسارعون لطلب الإعانة، مع أنكم لم تمدّدوا الدولة العلية بالمعاونة اللازمة في وقت من الأوقات، بل طالما هرعتم فوراً لإظهار الحب بالوعود وبالسفارات التي لا فائدة منها.» انظر الملاحق في آخر الكتاب.

٣- أصدر السلطان سليمان أوامره إلى أمير البحر بقيادة أسطول بحري مكون من ستين قطعة بحرية تحمل كل منها خمسين من العسكر لنجدة أسطول فرنسا ومساعدته في عملياته الحربية. انظر الملاحق.

الدولة العلية أتت بأمور كثيرة حسنة لداخليتها وخارجيتها. وإنها فتحت عدة ممالك جديدة ووسعت الحدود ولكن عناصرها الأصلية التي تركبت منها لم تكن لها طاقة على صيانتها والإحاطة بها فخرجت من يدها في مدة يسيرة وعادت إلى دائرتها الأصلية التي كانت تدور عليها رحاها في زمن السلطان سليم ياوز، فلو سار الخلف على مسلك السلطان سليم الياوز لكان يظن أن قوة الدولة وجسامتها تنتقل إلى حال أعظم.

ومع ذلك فإن الملوك العثمانيين الذين زينوا تحت الإمارة والسلطنة والخلافة منذ ظهور الدولة إلى ذلك الحين عشرة سلاطين على التعاقب. فكان كل منهم سما به عصره وازدان به دهره. وهذا لم يتسن مثله لدولة من الدول. غير أن حضرة يلديرم بايزيد خان في آخر أمره وقع في إشراك القضاء فألقت سفينة الدولة مراسيها مدة أخلدت فيها إلى السكون ومرّ أيضاً عصر السلطان بايزيد خان الثاني على هذه الحال وكان ذلك سكوناً واقفاً بين حركتين عظيمتين.

قليل في أمثال العامة الورد يلازمه الشوك والدفينة تأوى إليها الأفاعي فقد كانت الثروة التي حصلت في أيام السلطان سليمان داعية إلى الشهوات والوقوع في السفاهة. فدخل على مزاج الدولة أمراض رديئة ظهرت آثارها سيئة في برهة يسيرة.

وفي سنة ٩٧٤ هجرية انتقل إلى دار النعيم حضرة السلطان سليمان خان القانوني، فجلس على سرير الملك من بعده ولده السلطان سليم الثاني. على أن وفاة السلطان سليمان وإن كانت من الخسائر العظيمة على الدولة والملة فإن وجود محمد باشا صوقوللي^(١) في مقام الصدارة قد عوض هذه الخسائر فإنه كان من أهل الذكاء والنبل ومن ذوي الصدق والأمانة في خدمة الدولة ممدوح المآثر عاقلاً

١- محمد باشا صوقوللي: الصدر الأعظم في عهود السلاطين سليمان القانوني وسليم الثاني ومراد الثالث، لمدة خمسة عشر سنة. أصله من بلاد البوسنة من بلدة صوقل. ساهم في المحافظة على قوة الدولة. قتل غدرًا في سنة ٩٨٧ هـ. قاموس الأعلام ٦/٤١٩٥.

لللغاية مدبراً ذا رأي شديد فقام بأعباء خدمة الدولة على أتم الوجوه حتى ان الدولة لم تشعر بفقد السلطان سليمان ثم انقضت أيام السلطان سليم الثاني على ما يرام .

وفي سنة ٩٨٢ توفي إلى رحمه الله تعالى وتولى مكانه ولده السلطان مراد الثالث . فازدادت في أيامه دواعي السفاهة والذوق والصفاء وصارت كلمة الندماء والقرناء نافذة فضاق الوزير المشار إليه ذرعاً عن هذه الأمور . ومع ذلك فلم تفتر همته بل عارض ووقف سداً مانعاً لجميع المضرات . وقصارى القول إن هذا الوزير الخطير لم يأت أمراً مضراً بمصلحة الدولة في أيام صدارته التي مر عليها ثلاث سلاطين في مدة ١٥ سنة .

وفي سنة ٩٨٧ دخل عليه أحد الأشرار في زي مجذوب وهو في الديوان فقتله فذهب شهيداً . وقتل القاتل ، ولم يعلم سبب جرائته وهل ارتكب تلك الفعل المنكرة من عند نفسه أم كانت بإغراء أحد من أبناء جنسه .

ومن بعده انحط اعتبار الديوان وأهمل شأن القوانين والنظامات وصار الندماء والقرناء من ذوي النفوذ يتدخلون في كل أمر فوسدت أمور الدولة لغير أهلها فخرجت عن وضعها الأصلي . وظهر الفساد داخل المملكة من جهات شتى . وكان من جملة سوء التدبير إشهار الحرب على النمسا بما لا طائل تحته . فانتهى دور الدولة الثالث على هذه الحال المشوشة للأفكار .

استطراد

(ذكر واصف أفندي في تاريخه جملة فصلٍ فيها فائدة ترتيب الدواوين وتأسيسها فأوردنا خلاصتها بهذا المقام على الوجه الآتي)

(قال) إن من اجتمعت فيه النبوة والخلافة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن أتى بعدهم من عظماء الملوك كانوا يتخذون لاستماع الدعاوي وإجراء الأحكام وعقد الأمور وحلها وفصل المنازعات وحسمها محلاً خاصاً يجلسون فيه ويباشرون فصل الأمور بأنفسهم. منهم سيدنا يوسف عليه السلام فإنه كان يجري الأحكام وهو جالس على كرسیه في سرايته الخصوصية في مصر. وسيدنا داود عليه السلام كان يباشر الأحكام أيضاً وهو جالس في قبة العهد بالقدس الشريف. وسيدنا سليمان عليه السلام كان ينفذ الأحكام وهو على كرسي مرتفع في تلك القبة أيضاً. ولما رجع سيدنا موسى عليه السلام من الطور أمر بني إسرائيل أن يأتوا بألوف عديدة من أذرع القماش فخيطة وجعلت خيمة واسعة على شطرين أحدهما خارجي والثاني داخلي سماها بيت النبوة. وكان الشطر الداخلي مزداناً بأنواع الزينة عینہ جلوسه، وجلوس أخيه هرون عليهما السلام وللوجوه من أولاد هارون يجلسون فيه ويجرون الأحكام. والشطر الخارجي الذي كان بمنزلة ديوان أي ديوانخانه يعقد فيه من بقى من كبراء بني إسرائيل للنظر في الأمور. واستمر الحال على هذا المنوال حتى ملك سيدنا موسى القدس الشريف حسب الوعد الإلهي. وعلى ما نقله المؤرخون أن كيومرث وهو أول من جلس على سرير السلطنة من بني آدم كان يقعد كل يوم عند طلوع الشمس على صخرة مرتفعة كالمصطبة مدورة الشكل في فضاء خارج البلدة ويسمع دعاوي الناس وينشر العدل بمقتضى الأحكام الإلهية المسطرة في صحف سيدنا آدم. وكان على رأسه غطاء كالتاج من جلد الأسد ويجلس على سجادة من جلد النمر

وبيده عصا. وكانت الخدم تقف في خدمته متكوفي الأيدي ولباسهم من جلود النمر وينفذون الأحكام بين يديه. وجاء بعده الملك هوشنك^(١) واتخذ بدلاً من الصخرة المذكورة سريراً وزينه بزينة فاخرة وأقام فوقه مظلة. وأما أسرة الملوك الأكاسرة فإنها كانت مكللة بالجواهر وأنواع التحف كما هو مسطر في التواريخ.

ولما بعث حضرة سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام كان يجلس مع جميع صحابته الكرام في مسجده الشريف للنظر في مصالح الأمة. وهكذا سيدنا أبو بكر رضي الله عنه من بعده وسيدنا عمر وسيدنا عثمان رضي الله عنهما اتخذوا مجلساً على ترتيب الديوان في بيت مخصوص، وكذا معاوية اتخذ لنفسه دائرة خصوصية كان يجلس فيها على كرسي مثل التخت ويجري الأحكام، ودام الحال على هذا لآخر أيام الدولة الأموية. وكانت الدولة العباسية تراعي هذا القانون رعاية تامة، وفي أواسط أيامها زاد الاحتشام والاحتجاب عندها وفرشت الدواوين بالفرش الملوكي وعينت كراسي لقاضي القضاة والوزراء وسائر أصحاب المراتب. وتركت محل الخليفة خالياً فكان الوزير يرى أمور الديوان والخليفة ينظر إليه من منظرية عالية حيث لا يرى شخصه. لكن في الأعياد كان يخرج ويأتي جميع الوزراء والأعيان إلى حضرته فمنهم من يصافحه ومنهم من يقبل يد الخليفة. والمعتصم الذي هو أكثر ميلاً إلى الاحتشام والأبهة من جميع الخلفاء قد زاد في التعاضم وسمى الديوان دار العدل وعمل قصراً عالياً يصعد إليه بسلم فكان ينقل ويوضع أمام فسطاطه في الحروب وقد سماه قصر العدل وسدل على منظرته التي ينظر منها الديوان ستاراً أسود مذهباً من كسوة الكعبة المكرمة. وعلق في أطرافه سجافاً مذهباً كان الموكلون به يرفعونه في يوم الجلوس. ومع هذا ما كان يرى شخصه من وراء قضبان النافذة الذهبية. وكان يجلس في الأعياد

١- كيومرث وهوشنك: أسماء للملوك وردت في الأساطير الفارسية عن التاريخ القديم. قاموس الأعلام ٦/ ٤٧٧٠.

والأيام الرسمية على كرسیه المرصع بما يدهش الأنظار . وعلى جانبه اليمين سيف سل نصفه وعلى الجانب الآخر قوس حديدي شد وتره وكان يلبس جبة سوداء مزركشة بالذهب وعلى دائرة القبة ذیل طوله سبعة أذرع مدلی على الأرض . فكان الذي يحضر للملاقاته یقبل طرفه المدلی وما وجد أحد أفرط في الثروة الكسروية مثل المعتصم . وكان اجتماع أهل الديوان في قصر الملك من العادات القديمة . وأما الوزراء والوكلاء فإنهم وإن كان لهم دواوين في سراياتهم ينظرون فيها الأمور المفوضة لهم لتخفيف الأشغال عن الحضرة السلطانية . فإنه كان لفتح الديوان في أوقات معينة في سراية الملك واجتماع الوزراء ووكلاء السلطنة فيه أسرار عظيمة .

هذا هو الديوان الأصلي وما عداه من الدواوين كلها فرعية . فكان أعيان السلطنة وأصناف العسكر في هذا المجلس یجلسون في أماكنهم المخصصة بهم المعينة لهم في القانون بالألبة الرسمية المتعارفة فينظرون في أمور العباد على مرأى ومسمع من عموم الناس وكانوا یحقون الحق ویبطلون الباطل وكان ذلك اليوم شبيهاً باليوم الموعود یقف فيه خدمة السلطان كل واحد في مقامه على حسب استحقاقه ومرتبته الذاتية . ولا یخفی أن لقيام الناس في مراتبهم بحسب استحقاقهم وخدمتهم لجانب السلطنة وثبتهم في مراكزهم من حيث القرب والبعد أسراراً خفية وحكماً جلیلة .

وهذه القوانين والرسوم منها ما هو قديم طبعی ومنها ما وضع برأى العلماء والحكماء حسب الاقتضاء .

أما الدولة العلية فكانت تراعى هذا الترتيب لعهد قريب فكان ینعقد الديوان مرتين في الأسبوع یطالعه الملك المعظم من مقره العالي . والوكیل المطلق یجري المحاکمات ویحق الحق . ومع ذلك فإن الوکیل كان یعقد في كل يوم مجلساً في سرايته الخصوصية یرى فيه أمور العباد . ثم انحصر الديوان الهمايوني بالتدريج شيئاً في أيام المراسم والأعياد ومقابلة السفراء وانحصرت المحاکمات في ديوان

الوكيل المطلق المسمى باشا قبوسي حيث يؤخذ حق المظلوم من الظالم وينظر في الدعاوي بمقتضي العدل والنصفة^(١) ولم يزل ذلك جارياً إلى الآن.

ومن الحكايات المتعلقة بفوائد الديوان السلطاني ما يروى من أن المرحوم نور الدين^(٢) الشهيد لما سمع في أوائل دولته أن أسد الدين شيركوه أكبر أمراءه اغتصب بعض أملاك من الأمراء والوكلاء والأعيان، وأن هؤلاء كانوا يغتصبون أملاك الناس ظلماً. أمر ببناء دار تسمى دار العدل وأمر أن يعين فيها محل للملك ومحلات لقضاة المذاهب الأربعة والمفتين لتجري فيها الأحكام الشرعية، فبلغ أسد الدين أنه شرع في بناء دار العدل على هذا المنوال فأخذ يتدبر في هذا الأمر. وقال إن عدل نور الدين وسياسته معروفان في المشرق والمغرب وجميع الأمراء والعساكر تهابه فلا حاجة لبناء دار العدل والغالب أن بناء هذه الدار هو لأجله. فجمع من ساعته الأمراء والعمال الذين كانوا تحت يده، وقال لهم إن نور الدين أمر ببناء دار العدل وأظن أن بناء هذه الدار لأجلنا ثم نبه عليهم قائلاً إنه إذا شكأ أحد الناس منكم أو مني فإني أقتلكم لا محالة فأخذ كل منهم يهتم بإرضاء خصمائه من الأهالي ويحسن إليهم حتى زال ما كان في صدورهم ثم اصطلحوا جميعاً. ولما تم بناء دار العدل كان نور الدين يجلس فيها ويحضر العلماء والوزراء فلم يأت أحد من التبعة شاكياً ولا متظلاً من الوزراء وأتباعهم. فحينئذ ترك الجلوس فيها وبقيت خالية إلى أن مات فوجود ديوان كهذا كان باعثاً على اطمئنان قلوب الخلق وراحتهم وعلى ردع العمال وخوفهم وخشيتهم لمن أعجب الأمور.

وقد كان سلاطين الدول الماضية يعينون عدة أيام في السنة يقابلون فيها الضعفاء والشرفاء فيعرضون لديهم أحوالهم وكان يقال لهذه الأيام بر عام ثم تركت هذه العادة لظهور بعض الموانع وبعد ذلك عينت كل دولة أوقاتاً مخصوصة

١- لمزيد من المعلومات حول النظام القضائي في الدولة العثمانية، انظر: يلماز أوزتونا، مرجع سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٧٩ وما بعدها.

٢- هو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، وقد تقدم ذكرهما.

لاستماع الدعاوي وفصل المخاصمات على وجه مخصوص كما هو معلوم انتهى . ولنعد إلى ما كنا بصده ^(١) .

* وفي سنة ١٠٠٣ هجرية توفي السلطان مراد الثالث وجلس ولده محمد خان الثالث الذي كان والياً لمغنيسيا ^(٢) ثم ألغت الدولة توظيف ولاية العهد في الولايات والإمارات نظراً لما ظهر من سوء الاستعداد في ذلك الزمن .

ولما لم يتيسر لأمراء الجيوش النصر والظفر في حروب النمسا وظهرت على المسلمين آثار الضعف، أشار بعض أهل النظر من محبي الدولة على السلطان محمد الثالث بالسفر إلى دار الحرب بنفسه اقتداء بجده الأجد حضرة السلطان الغازي سليمان . فوافقه على ذلك وسار إلى جهة الروم إيلي مع العسكر ففتح قلعة أكرى ^(٣) واشتهر بلقب فاتح أكرى . ثم ظفر ظفراً عظيماً في ميدان القتال وذلك أن امبراطور ألمانيا وقيصر النمسا اتفقا مع سائر دول أوربا على خفض مقام الشريعة البيضاء ومحو المسلمين لا سيما العثمانيين عن وجه البسيطة . فجمعوا عسكرياً عظيماً لا يحصى عدده ولا تسعه الصحاري وزحفوا به إلى تخوم الدولة العلية . ولما وصلوا إلى قرب قلعة أكرى خاف رجال المعسكر الذي كان هناك فاجتمع الأمراء وتشاوروا فمنهم من رأى أن عدم الحرب أولى . ومنهم من رأى أن الموكب السلطاني يتأخر وأن العسكر يتقدم لمقاتلة العدو تحت رئاسة السرعةسكر . فقام سعد الدين أفندي معلم السلطان مع بعض الأعيان وتكلموا بكلام أظهروا فيه شعائر الغيرة والحمية وذكروا ما قوى عزم الخليفة وحرك منه

١- استغرق هذا الاستطرد من المؤلف أربع صفحات حول ترتيب الدواوين . ويعود هنامة أخرى إلى صلب الموضوع في الحديث عن أحوال الدولة العثمانية المختلفة .

٢- مغنيسيا: مدينة في غرب الأناضول، وتبعد عن أزمير ٣٣ كم إلى الشمال الشرقي منها . وهي مركز سنجقية صاروخان التابعة لولاية آيدين في التنظيم العثماني . قاموس الأعلام ٤٣٨٤/٦ .

٣- أكرى: مدينة واقعة في بلاد المجر . استطاع السلطان العثماني محمد الثالث فتح قلعتها المنيعنة سنة ١٠٠٥ هـ . قاموس الأعلام ١٠١٤/٢ .

الشجاعة الموروثة له من أجداده الكرام. فزحف مع الموكب الهمايوني إلى قتال الأعداء واتصلت الحرب ثلاثة أيام متوالية فتغلب الأعداء على الجنود العثمانية فتشتت شملهم. وكان العدو ينهب المعسكر حتى إن بعضهم أمسك بأطناب فسطاط السلطان. ومع ذلك فكان سعد الدين أفندي وسائر الأعيان يجراؤون السلطان ويشجعونه على الصبر والثبات فاشتدت عزيمته واستقر في مركزه كالقطب ثابت القدم. فما كان من الحاشية والبطانة إلا أنهم أخذوا يضربون النهبة من عساكر الأعداء بالبلطات^(١) وما تصل إليه أيديهم من الآلات حتى تمكنوا من ارجاعهم القهقري فشاخ حيثئذ بين الجنود العثمانية أن العدو قد هزم فتحررت فيهم النخوة وردوا الكرة عليه من كل جانب. وخرج إذ ذاك سنان باشا بن جغاله من مكمنه وهجم على الأعداء فانهزموا وقتل منهم في تلك الواقعة بحد السيف ما يزيد على خمسين ألفاً.

ثم بعد ذلك شددت الدولة وطأتها على من فر من العساكر في تلك الواقعة فقطعت رواتبهم. وكانوا عدة ألوف فاجتمعوا في جهة الأناطولي وعصوا بها ولقبوا أنفسهم باسم جلاله. وكان القرناء والمقربون وقتئذ يتنافسون في نفوذ الكلمة. وكانت حرب اوستريا متصلة فلم يبق للدولة فرصة لتوجه أنظارها إلى جهة الأناطولي فكثرت طائفة الجلالية فشنوا الغارات وخرّبوا تلك البلاد.

وحيث كانت كلمة قرناء السوء نافذة انتصب المداهنون والمدلسون على منصات الوجاهة فلم يمثلوا لأمره تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٢) فوسدت مصالح الدولة إلى غير أهلها. وفتحت أبواب الرشوة والارتكاب. وأصبحت المأموريات والمناصب تباع وتشتري بالدرهم والدينار.

١ - بالطه: كلمة تركية بمعنى فأس. الدراري اللامعات، ص ١٠٥.

٢ - الآية بتمامها ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ النساء، ٥٨.

فاختلت الأمور الداخلية من كل جهة وبرزت أمارات الاعتلال والفساد أيضاً في دار السعادة. وفي أثناء هذه الأحوال السيئة اغتتم الشاه عباس^(١) ملك إيران هذه الفرصة فأخذ يتجاوز الحدود العثمانية. وفي سنة ١٠١٢ هجرية توفي حضرة السلطان محمد الثالث. وجلس ولده حضرة السلطان أحمد الأول فأرسل العساكر إلى الشرق والغرب واجتهد مدة طويلة في إصلاح ما فسد من الأمور. ثم عقد الصلح مع دولة أوستريا فسار وزيره الأعظم المستقل قويجي مراد باشا إلى جهة الأناطولي فدمر طائفة الجلالية وطهر البلاد منها واستأصل عرق الفساد.

وفي سنة ١٠٢٦ هجرية توفي السلطان أحمد الأول وهو آخر السلالة المتصلة من عمود هذا النسب. ثم جلس أخوه السلطان مصطفى وهو أول من ارتقى على سرير السلطنة من اخوان ملوك بني عثمان. لكن لما كان المشار إليه ممن تربى في حجر الانزواء كانت أحواله مخالفة للمألوف من حال الزمان فلم يتيسر له البقاء سوى ثلاثة أشهر وعشرة أيام. فخلع وأجلس السلطان عثمان خان الثاني أكبر أولاد السلطان أحمد وعمره أربعة عشر سنة فبذل هذا الشهم مع صغر سنه جهده في إصلاح الأحوال إلا أنه من سوء الحظ كان طراً على العساكر الفساد وخرجت الأشغال عن محورها ومرح الفجار في غيهم. وبعد أربع سنين ثارت نار ثورة عظيمة في الأستانة وخلع السلطان ثم قتل شهيداً. وأجلس مكانه السلطان مصطفى مرة ثانية. فلم يقدّر بأعباء السلطنة نظراً لأحواله المعلومه فخلع أيضاً في سنة ١٠٣٢. وخلفه السلطان مراد الرابع^(٢) وهو الابن الثاني للسلطان أحمد

١- الشاه عباس الأول: ٩٧٨هـ-١٠٣٨هـ، خامس ملوك الأسرة الصفوية في بلاد فارس (إيران). قاموس الأعلام/ ٣٠٦٠.

٢- مراد الرابع ١٠٢٠هـ-١٠٤٩هـ. السلطان العثماني السابع عشر. أعاد النظام والهيئة للدولة، واسترد بغداد من الصفويين الشيعة. شبهه المؤرخون بالسلطان سليم الأول في حزمه وعزمه. إبراهيم بك حلیم، مرجع سبق ذكره. ص ١٢٦.

وكان عمره ١٢ عاماً وفي أثناء هذا الاختلال وقع الخلل والضعف في نظام الطرق العلمية القديم وأكثر قوانين الدولة الأساسية .

والحاصل أن أحوال الدولة اختلت من كل جهة وصارت محتاجة لمن يصلحها . ولما كان من يتولى الحل والعقد من أهل هذا الاختلال والعش كان الخروج من هذه الدائرة الفاسدة وإصلاح الأمور من المحال . فاعتنم الشاه عباس هذه الفرصة فتولى على بغداد وبعض الجهات وعلاوة عن ذلك أن العسكر الذي كان في العاصمة القسطنطينية خلع ربقة الانقياد وساد الفجرة ولم يبق للسلطنة نفوذ .

ثم لما بلغ حضرة السلطان مراد الرابع رشده . أخذ بيده القوية زمام الدولة ودمر وقهر جماعة الفجار ومنع الناس عن شرب القهوة والتبغ كل المنع . فكان يخرج متنكراً يمشى في أسواق الآستانة ليلاً بدعوى تأديب المولعين بشرب الدخان والقهوة ويتلف الأشرار أثناء تجوله . ومع ذلك فقد ازداد في الناس الحرص على شرب القهوة والتتن كما قيل (المرء حريص على ما منع منه) .

استطراد

قد اختلف العلماء في شرب التبغ. ^(١) فقال بعضهم بتحريمه، وذهب بعضهم إلى كراهيته، وبعضهم إلى إباحته، وآخر فصل ذلك بالنظر إلى أحوال شاربیه. وسبب ذلك هو كون أمزجة الناس مختلفة فشرب التبغ يضر بعضهم ويولد فيهم العلل فيكون شربه بمنزلة تجرع السم. وكل ما تحقق ضرره فاستعماله حرام فشرب الدخان محرم على من يكون كذلك وقد تنعكس القضية فيكون نافعا للبعض بمنزلة الدواء لهم. فقد نقل أن بعض الذين كانوا مدمنين على شربه وتركوه أصيبوا بأنواع من الأمراض. فعدم استعماله لهؤلاء خطأ لأنه بمنزلة الدواء لهم ويباح شربه للذين لا ضرر ولا منفعة لهم فيه طباً. بل يتعاطونه لموافقة لذوقهم. على أنه متى تجاوز الحد الطبيعي ووصلوا فيه إلى درجة الاسراف فإنه يحرم عليهم. وقد استوفى الشيخ عبد الغني النابلسي تفصيل الأبحاث المذكورة وأدلة كل منها في رسالته التي صنفها في شرب التبغ. وقد ابتلي بعض الصالحاء به مع قبيح استعماله عندهم منذ القديم. وعند اجتماعي بفاضل من علماء سمرقند وصلحائها وكان مبتلياً بشرب الدخان سألته عن سبب تعاطيه له وعرضت له باستهجان استعماله واستقباحه في جهات ما وراء النهر. فأجابني أنه في بداية مجيئي إلى الديار الرومية كنت أستقبحه ولما كانت الرطوبة في الآستانة أكثر منها في الديار التي ألفتها منذ الصبا أصابتنني نوازل شديدة وأمراض عديدة أعياني علاجها فأشار علي بعض الناس باستعماله فجربته فإذا هو مزيل لتلك الأمراض ومفيد لصحتي فصرت لذلك مجبوراً على استعماله.

ذكر عبد الشكور أفندي ^(٢) من شرفاء مكة المكرمة في تاريخه الجملة الآتية على سبيل الملاحظة قال. كان في مكة قاض يألف شرب التبناك وكان نائبه يراه

١- تم تأليف هذا الكتاب قبل عشرات السنين من الاكتشافات الطبية الحديثة التي تثبت أضرار التدخين على صحة الإنسان وحياته.

٢- تقدم ذكره في مصادر المؤلف.

حراماً ويغض شاربيه . ففي اليوم الثامن من ذي الحجة قال النائب للقاضي يا سيدي غدا يوم عرفة تتركون التباك إن شاء الله فإنني قد استحسنيت تنبيهكم بهذا ناصحاً مخلصاً . فأجابه بجواب مسكت على وجه التهكم وهو إنني أدخل الآن في الإحرام فأتركه . يعنى بقوله هذا إن التباك نوع من الطيب وذلك ليس بحلال للمحرمين ونظم بعض الفضلاء في هذا الموضوع فقال

اشرب من التباك واقصد به توديعه يا من غدا يحرم
فهو لأهل الذوق طيب ومن أحرم فالطيب له يحرم

والحاصل أن التباك والتبغ قد ظهر بعد عصر المجتهدين فصارت مسألتة موضوعاً لمنازعة العلماء فمنع حضرة السلطان مراد الرابع شرب التبغ كما قلنا وجعل تجوله ليلاً بحجة منعه وسيلة لإعدام الفجار .

وبهذه الوسائل قهر حضرة السلطان المشار إليه عصبة الأشقياء ودمرها تدميراً . وبعد أن قبض بيده القوية على زمام الحكومة ودمر بهذه الوسائل زمرة الأشقياء توجه بالعسكر الهمايوني إلى جهة الشرق فاسترجع بغداد وأخذ من الإيرانيين بالثار كما ينبغي . على أن الاختلال قد عاد ثانياً بعد موته وذهبت شهرته وثباته وتجلده وفتوحاته التي رن صداها في أقطار العالم ومحيت من أذهان العصاة فعادوا ثانية إلى ما ألفوه من الفساد وتحولت أحوال الدولة إلى حالة سيئة هي شر من الأولى .

[حالة الدولة بعد عهد مراد الرابع]

وجلس على اثر وفاته سنة ١٠٤٩ أخوه السلطان إبراهيم خان . ولما كان مشابهاً في أحواله وأطواره لعمه السلطان مصطفى توزعت شؤون السلطنة بيد هذا وذاك فاختلفت أحوالها كل الاختلال . وظهر العصيان والفساد في جهة الأناطولي . وفي خلال ذلك فتحت حرب كريت^(١) فهجم البندقيون على لواء

١ - كريت أو كريد : إحدى جزر البحر المتوسط .

بهاكه^(١) التي كانت تسمى براكليس . واستولت سفنهم على جزيرة مدلولو^(٢)

ووسدت خليج جناق قلعة . فامتنع المرور فيه إلى البحر الأبيض . ولما كان
عسكره غير منقاد إليه ولم يكن في خزينة الدولة ما يكفي لسد الحاجة كان ينظر
في هذه الأحوال بعين الحيرة . وذلك لأن مجاري واردات الدولة قد تحولت عن
باب الخزينة فسرى في عروق الناس دم الفساد نظراً لاختلال الجند وانحلال عقد
النظامات الداخلية حتى أمست الدولة معتلة الجسم كله .

وفي سنة ١٠٥٨ قام الأهالي على قدم وساق وكثرت فيهم الآراء والأقوال
فخلعوا السلطان إبراهيم ، وأجلسوا مكانه ابنه السلطان محمد خان الرابع . وهو
صبي في السابعة من العمر . واستمر الاختلال شديداً في الدولة مدة ثمان سنين .

وفي نهاية سنة ١٠٦٦ جعل محمد باشا الكوبريلي صديراً أعظم مستقلاً
فأجرى أمور المالية والعسكرية في مجراها فعاتت للدولة صحتها . ومن عجيب
أمره أنه كان عندما تولى مسند الصدارة شيخاً في نحو التسعين من العمر ومع
ذلك فإنه كان قوي العزم شديد الرأي فأحيا جسم الدولة في مدة يسيرة . وذلك
بحسن تدابير . وقوة جأشه فكان يهتم حيناً بتطهير روضة الحكومة من الأعشاب
الأجنبية ، ويجول آونة في العساكر السلطانية فينتقم من الأعداء في جبال أردل^(٣)
وسائر الحدود ، ويسعى تارة في فتح خليج البحر الأبيض . فوفق لإصلاح أمور
الدولة في مدة السنين الخمس التي كان فيها صديراً أعظم .

وبعد وفاته تولى ابنه فاضل باشا مسند الصدارة العظمى وهو وإن كان
صغيراً في السن عكس والده ، فإنه كان موافقاً له في أصالة الرأي والتدبير موافقاً
في أعماله . فأدى للدولة خدمات كثيرة في مدة صدارته التي استمرت خمس
عشرة سنة ، وضم إلى الممالك المحروسة بعض بقاع وقلاع كجزيرة كريت .

١- بهكة: منطقة واقعة في بلاد البوسنة . وتبعد عن سراييفو ٢٧٥ كم إلى الشمال الغربي منها .
قاموس الأعلام ١٤١٩/٢ .

٢- مدلولو أو مدللي: جزيرة في بحر ايجه ، قريبة من الساحل الغربي للأناضول . قاموس الأعلام
٤٢٤٢/٦ .

٣- وتسمى ترسلفانيا وهي من أعمال المجر حالياً .

والحاصل أنه بهمة وإقدام الكوبريليين قد أصلح ما تداعى إلى الخراب من أحوال الدولة العلية، حتى كاد يعود إليها رونقها القديم. ولكن هيهات فإن الأراذل كانوا أثناء الاختلال الماضي نالوا الوجاهة ووسدت المناصب إلى غير أهلها فتزلزل لذلك ركن الدولة وفسدت أخلاق الناس. فلم يتيسر العودة تماماً إلى ما كانت عليه في السابق. وزيادة على ذلك فقد تقوضت أصول المعاملة بالمعاملة التي هي مستحسنة بل واجبة في الأمور السياسية. يشهد لذلك أنه لما فتحت كريت قتل القائد محافظها وجميع من كان تحت إمرته من ضباط البندقيين. مع أن السلطان سليمان لما فتح جزيرة رودس واستحضر إليه (ويليه دوليل آدم) حاكمها أخذته عليه الشفقة. فقال للحاضرين وقد تغرغرت عيناه إنني لتأسف على إخراج مثل هذا الشيخ من داره. ثم أمر بإرساله بحراً إلى حيث يريد بمزيد الاحترام مظهراً بذلك أحسن وجوه السياسة. وهذا مما يدل على الفرق بين المعاملات السابقة والمعاملة اللاحقة.

وبعد فاضل باشا تولى قره مصطفى باشا صداراً أعظم وكان تربى تحت أنظار محمد باشا الكوبريلي. واستعمل في النيابة للصدارة العظمى مدة مديدة حتى صار معدوداً من مشاهير وزراء السلطنة السنية فلما تولى أمرها بالأصالة قام بحسن إدارتها واتصلت ولايته لها سبع سنين.

ولكنه في آخر مدته أشهر الحرب على النمسا وحاصر ويانا وكاد يفتحها. إلا أنه ترك ما كان يتعين عليه قبل ذلك وهو فتح قلعة يانق النمسوية الواقعة بين ويانا والحدود الإسلامية. فاستعجل في حصار عاصمة النمسا وترك وراء القلعة المذكورة والأعداء فيها. ولو ابتداءً بفتحها أولاً ثم انتقل لفتح ويانا في السنة القابلة لكان ذلك أولى به. ولما وصل إلى حدود ويانا وجد نفسه وعسكره في بعد عن الأراضي الإسلامية. وكان عدد عساكره كثيراً ونفذ ما كان عنده من الذخائر

فانتشر بينهم الجوع والغلاء وفترت همهمهم . وزيادة على ذلك فإن أهل (له)^(١) نقضوا عهده وهاجموه فهزموا العسكر السلطاني وكبدوهم خسائر فاحشة وحاول أعداؤه قتله وتسببوا فيه فتمكنوا منه .

ومؤرخو ذلك الوقت كانوا يقولون إنه لو بقي في الحياة لكان يتلافى ما وقع في السنة التي بعد هذه . وأما أعداؤه فكانوا يقولون إن البازي إذا كسر جناحه فلا يتيسر له أن ينقض على فريسته . فينبغي التعجيل بقتله ليكون عبرة لغيره وبهذا قضى عليه هؤلاء وذلك إما أنهم لم يفتكروا فيمن يستطيع أن يتولى مكان هذا الوزير الغيور . أو أنهم خافوا وتظاهروا بالنصيحة مقدمين أغراضهم الذاتية ومنافعهم الخاصة بهم على مصالح الدولة ، وعلى فرض أن هذا الوزير أخطأ بعجلته لضعف البشرية فإن قتله كان بلا ريب خطأ أعظم من خطائه .

حكى أن قائداً من قادة فريدريك ملك بروسيا المشهور انهزم في الحرب مراراً ، فقامت البطانة وطلبت عزله . فلم يجبه الملك بل قال لهم إن القائد قد تعلم أصول الهزيمة لكثرة ممارسته عليها فإذا نصب غيره يستغرق زماناً طويلاً في القرار وينهزم مرات عديدة حتى يتعلم أصولها . وقد أصاب الملك فيما قال لأن قائده فاز أخيراً .

وهكذا لو أبقى على حياة قره مصطفى باشا لكان الأمل قوياً في ظفره كما ادعى المؤرخون . ثم استمرت الحرب مع النمسا بعد ذلك عدة سنين ولم ير العثمانيون يوم ظفر في خلالها . فما رأوا إلا الهزيمة والأضرار التي لم تكن تخطر على الأفكار . فإن العساكر التي كانت ترسل في كل سنة إلى حرب النمسا قد ضعفت قواها فلم يبق لها طاقة على الثبات . وفي تلك المدة كانت عساكر أوروبا

١ - له أولهستان : هي بلاد بولونيا (بولندا) ، وسكانها من القومية السلاوية . امتد إليها النفوذ العثماني خلال فترات متفاوتة ، ولكن تنازعت المنطقة دولتان هما روسيا وإمبراطورية بروسيا والنمسا . قاموس الاعلام ٦/٣٨٠٤ .

قد انتظمت ولذلك لم يثبت أمامها السردار ولم يجد سبيلاً إلا إلى الهزيمة. وكان السلطان محمد الرابع إذ ذاك يصرف أوقاته في الصيد ولم يلتفت إلى مصالح الدولة. فتغيرت عليه أفكار العامة وسرى الخلل في المعسكر واتسع الميدان للطغام. وعندما تكرر صدور الفرمان العالى بجعل الروم إيلي مشتى للمعسكر الهمايوني عاد المعسكر للأستانة مجاهراً بالعصيان. ولما صار على مقربة منها رفع عرضاً عمومياً في خلع السلطان محمد وتنزيله عن سرير السلطنة فاضطر رجال الدولة لذلك وخلعوه في أوائل سنة ١٠٩٩ وأجلس بدلاً منه أخوه السلطان سليمان الثاني.

ولما دخل العسكر إلى الأستانة ضربت كتائب السباهيين خيامهم في المحل المعروف بميدان السلطان أحمد. والإنكشاريون ضربوها في المحل المسمى آت ميدان^(١) فقبضوا على أزمة الأحكام وأخذوا يعزلون ويولون وينفون ويحرمون من شاءوا ويقتلون ويصادرون الوزراء ويجرون ما شاكل ذلك من المنكرات، حتى حملتهم الجرأة على الدخول إلى الباب العالى يوماً من الأيام وقبضوا على سياوش باشا^(٢) الصدر الأعظم فمات شهيداً. إلا أن الله قد قهرهم وذلك أنه في خلال هذه النوائب كان بعض الأتقياء ينهبون بيت أحد الشرفاء الواقع في قرب يزاستان فرفع الشريف المذكور منديلاً على رأس هراوة وأخذ ينادي قائلاً من كان مسلماً فليأت السنجق فلبى الخلق نداءه واجتمعوا لديه وشاع في جميع الأطراف خروج السنجق النبوي الشريف. ثم علم أن تجمع الخلق إنما

١- آت ميدان: بمعنى ميدان الخليل وهو مكان مشهور جرت فيه أحداث كثيرة في العهد العثماني والميدان مجاور لجامع السلطان أحمد وجامع أيا صوفيا.

٢- سياوش باشا: من أصل أباطة (ابخازيا) من بلاد القوقاز. تولى الصدارة في أواخر سلطنة محمد الرابع. قاموس الأعلام ٢٧١٨/٤.

كان بغيره إلهية. فحينئذ أخرج السنجق النبوي الشريف للحال فكان في ذلك الوبال العظيم والنكال الشديد على الأتقياء. وفي أثناء هذا الاختلال كان أهل البندقية قد استولوا على إيالة الموره. والنمساويون وصلوا إلى بلغراد واستولوا بعد ذلك على قلاع ودين وفتح الإسلام ونيس وديار الأفلاق وخرج أحد الرعايا بجمع الأتقياء لابساً قلباً^(١) بدلاً من التاج مدعياً أنه ملك لقومانوه^(٢) من طرف النمسا. فوقع وكلاء الدولة من وقوع هذه الأمور في حيرة وعقدوا مجلس مشورة قرروا فيه أن هاته الأحوال السيئة ستكون نتيجتها شراً منها. واعترفوا بأن أفكارهم وتدبيرهم عقيمة سقيمة. وأنه لا بد لإصلاح هذا الخلل ومدواة هذا الداء من مدبر غيور ووزير جسر تفوض إليه جميع الأمور. فوقع اختيارهم على مصطفى باشا الكوبريلي^(٣) فتسلم خاتم الصدارة. فاعترض بعضهم على ذلك وزعموا أنه لا يصلح عزل الوزير في زمن الحرب. واعتراضهم هذا وإن كان صحيحاً فإن مثل هذه الأحوال الاضطرابية لا علاج لها إلا أهل الرأي والتدبير. على أنه يوجد في كل عصر أناس فضلاً عن كونهم لا يقدرّون على شيء لا يحسن عندهم عمل. فلا ريب أن هذه الكوارث الفاجعة هي نتائج وخيمة قد حصلت بعد تولي أصحاب هذه الأفكار العقيمة والآراء السقيمة على أزمة الأمور.

وما قبض على زمام الصدارة حتى أبطل جميع البدع والمظالم التي كانت

١- قلباق : كلمة تركية بمعنى قلنسوة (ماتلبس في الرأس). الدراري اللامعات. ص ٤٢٢.

٢- قومانوه : قضاء عثماني يتألف من ١٠٩ قرى، ويقع في جنوب بلاد البوسنة. قاموس الأعلام ٣٧٦٨/٥.

٣- مصطفى باشا كوبريلي زاده (١٠٤٧هـ-١١٠٢هـ) الصدر الأعظم في عهدي السلطان سليمان الثاني والسلطان أحمد الثاني. له جهود جليلة في تثبيت سلطة الدولة. مات في ميدان المعركة مجاهداً. قاموس الأعلام ٣٩٠٨/٥.

أحدثت في الكمارك وسائر الأمانات والالتزامات لاجل تزييد الوارات نظرا لضيق المالية. وأبطل أيضاً بعض رسوم وعادات كهدايا الوزراء في مواسم الأعياد وتشبث بأصول العدلية. إلا أن الناس قد اعترضوا عليه قائلين يا هل ترى ما فعل هذا الوزير من التدبير في شأن النقود بعد أن أبطل هذه البدع الظالمة والواردات الرسمية التي كانت واسطة لإنقاذ الإدارة من الضائقة المالية وهل هذا الوقت ملائم لإجراء مثل هذه الأمور.

غير أنه من الأمور المسلمة أن واردات الدولة الحقيقية ناتجة عن صحيح ثروة التبعة والأهالي. فلا يزداد إيراد الدولة إلا بزيادة ثروتهم فإن مثل هذه التكاليف الموجبة لضيق الأمة وتقليل زراعتها وتجارتها وصناعتها وإن كان يظن ابتداء أنها تفيد خزينة الدولة بعض الفائدة إلا أنها بسبب ما تورثه للملك والتبعة من الأضرار والضجر في مدة قليلة تلحق بواردات الدولة نقصاناً. ولما أدرك الوزير المشار إليه، بكمال فطنته وعلمه بدقائق هذه الأشياء لم يعبأ بظواهر فائدتها. فألغى البدع والمظالم وأسس أصول العدلية فاستفادت الدولة من ذلك خمسة أضعاف مما كان، وفضلاً عن زيادة الواردات على ما ذكر كان من ثمرة عدله أن عموم الجند كانوا يسرون به ويرغبون في السير معه إلى الحرب ويطلبونه بقلوبهم وألستهم. وكان دعاء جميع الناس له ورضاهم عنه سبباً عظيماً لفوزه وظفره. غير أنه لما قطع في خلال ذلك رواتب وتعيينات جماعة من غير المستحقين لم ينبج من ألسنة الخلق، ومع ذلك فإنه لم يعبأ بتلك الأقوال. وبعد أن رتب النظمات الداخلية على وجه السرعة بادر إلى أخذ الثأر من الأعداء.

وذلك أنه بينما كان مشتغلاً بمحاربة دولة النمسا وله^(١) والبندقين من سنين عديدة نقض بطرس امبراطور الروسية المعروف ببطرس الأكبر^(٢) عهده وهجم على الحدود الإسلامية قصد التنصل من الجزية التي كانت تؤديها دولته من القديم إلى بكوات القرم. فساق الوزير المشار إليه على المذكور جند التتر فانهزم العسكر الروسي شر هزيمة تاركاً مدافعه ومهمات الحربية غنيمة للعثمانيين. وابتسم أيضاً ثغر الإسلام لظفر العساكر التي كانت أرسلت لقتال البندقين. وسار الوزير قره مصطفى باشا بالعسكر الهمايوني على النمسا فابتدأ من شهر كوي وفتح قلعة نيس وجميع القلاع والبقاع المتصلة إلى قلعة بلغراد بما فيها، وقلعة سمندرة. وتيسر له أثناء ذلك إرجاع قلعة ويدين بواسطة الأسطول الهمايوني الذي كان رتبه في الطونة. وحصلت الفرقة العسكرية التي بعث بها إلى أطراف أردل على الظفر والنصر فانقلب والحمد لله بهذا الفوز المبين ما كان طراً على الملة الإسلامية من الأكدار السالفة من سنين عديدة مسرة وصفاء.

وكان حضرة السلطان سليمان خان الثاني مقيماً إذ ذاك بأدرنه ينتظر نتائج هذه الحروب ويرسل نظر الفكرة إلى أطراف البلاد يتجرع غصص الأكدار من تفكره الفشل الذي طراً على الدولة العلية منذ سنين عديدة. ثم إنه لما اتصلت به هذه الأخبار السارة رجع إلى الأستانة وجلس على سرير السطوة والسلطنة بمزيد البهجة والصفاء وعلى أثر ذلك عاد الوزير المشار إليه بالعساكر إلى الأستانة وروايات النصر والظفر تخفق فوق رأسه.

١- أي بولندا كما سبق بيانه.

٢- بطرس الأكبر (١٧٢٢-١٧٢٥): قيصر روسيا الشهير. أسس مدينة بطرسبورغ وجعلها مقراً لحكمه. له طموحات واسعة، ولذلك بدأ في محاربة العثمانيين. خلف وصيته المشهورة لزوجته الإمبراطورة كاترينة، وفيها أوصى بضرورة توسع روسيا في شرق أوروبا والأراضي العثمانية بما فيها إستانبول. قاموس الأعلام ١٤٨٨/٢.

وصادف ذلك وقت الشتاء فأخذ الوزير الموما إليه يصرف الأوقات في إجراء الأحكام الشرعية والعدلية. ولما كان يعتقد أن البيع والشراء لا يتمان إلا بالقبول والرضى ولا يجوز التداخل بشأنهما، وكان وقته لا يمكنه من الاهتمام بأمر الأسعار وما شاكلها من الجزئيات لاشتغاله بالكليات من أمور الدولة؛ قضى عليه ذلك أن يكون هدفاً لمطاعن الناس. فيا للعجب هل يكون مثل هذا الوزير الخطير مضغة في أفواه الخلق لكونه لم يلتفت إلى صغار الأشياء كتسعير الغلات والخضر، مع أنه قد ظفر بفتوحات عظيمة ووفق لأمر جسيمة تسنى له في مدة يسيرة أن يشيد بناء قد تداعى إلى السقوط. أليس ذلك من عدم الإنصاف؟

وعلى كل حال فإن الوزير المشار إليه لم يعر هاته الأقوال أذناً سامعة. وفي هذا الشتاء أحدث أيضاً للخرينة الجليلة كثيراً من الواردات الصحيحة بتدابيره الحكيمية وتمسكة بأسباب الأصول العدلية. وعندما أقبل الربيع سافر حضرة السلطان إلى أدرنة وتوجه السر دار المقدام بالعساكر قاصداً بلغراد وبعد وصول حضرة السلطان سليمان الثاني إلى أدرنة توفاه الله فيها سنة ١١٠٢. وجلس مكانه أخوه السلطان أحمد خان الثاني. وفي أثناء ذلك أصيب مصطفى باشا الصدر الأعظم برصاصة وهو في الحرب في ساحة بلغراد فمات شهيداً.

وبعد ذلك أخذت تظهر أمور مكدره، ودخل التنافس بين الوكلاء والقرناء فمن ذلك أن أحمد أفندي جانبي الدفتردار^(١) الذي كان محافظاً على الأموال الأميرية حريصاً على جمعها. وكان لا يعرف الكذب والمداهنة أصلاً قد عرض له ما كدر به بعض المقربين فعزل واستبدل بغيره. وبالنظر لكونه معدوداً من الأعيان المعتمد عليهم في الخزينة، سعى حاجي علي باشا الصدر الأعظم في إبقائه في منصبه سعيّاً كلياً. ولما لم يفلح سعيه استقال وهو في الحضرة الشاهانية من منصب الصدارة وخطوبها الجسيمة وسلم الختم الهمايوني واختار التقاعد.

١ - دفتردار: أي كبير المحاسبين، الدراري اللامعات، ص ٢٥٢.

وفي سنة ١١٠٦ ودّع السلطان أحمد خان الثاني هذا العالم الفاني فجلس على سرير السلطنة حضرة السلطان مصطفى خان الثاني ابن السلطان محمد خان الرابع . وأقام مدة سنتين يتوجه بموكبه الهمايوني إلى الروم إليي ويباشر حرب النمسا بنفسه فظفر مرتين، وفتح فيهما فتوحات جلييلة . وفي السنة الأولى من جلوسه جاء الروس وحاصروا قلعة أزاق فأرسل إليهم تتار خان فأوقعهم في الفشل وهزمهم . ثم إنهم عادوا في السنة الثانية أي سنة ١١٠٨ هجرية واستولوا على القلعة المذكورة وبعد سنة انكسر عسكر الإسلام وهزم في حرب النمسا . وكان ذلك من آثار النفاق والحقد الذي تأسس بين الوزراء وأركان العسكر .

فبناء على ذلك أعطى خاتم الصدارة لحسين باشا عموجه زاده من عائلة كوبريلي . وكان الناس يعدون من التدابير الحسنة اختيار الصلح طلباً للراحة . غير أن الصدر المشار إليه أخذ بقول القائل إذا أردت الصلح والصلاح كن مستعداً للحرب والكفاح . والهزيمة التي وقعت علينا في السنة الماضية كانت فيها خسائر النمسا أكثر من خسائرها . ونظراً لما حصل للنمسا من الضعف والفتور من أثقال الحروب خمسة عشر سنة رغبوا في الصلح فلم يجبههم إليه الصدر المشار إليه وقتئذ وسار بالعسكر الهمايوني إلى نواحي بلغراد ثم بعد ذلك توسطت دولة انكلترا وفلمنك^(١) في عقد الصلح . فنظر لما ناب الجند من التعب لتوالي الحروب عليهم في أربع جهات مختلفة، ولنفاد الأموال من الخزينة، وما طرأ على البلاد من الخراب، وما شعرت به الدولة من التعب رأى الصدر الأعظم المشار إليه أن الدولة محتاجة إلى الراحة والسكون، رضي بالصلح . ونظراً للوقت والحال في ظرف مدة يسيرة أي بصورة حسنة .

١ - فلمنك : هي هولندا .

شعر

شكر خدارا كه بلطف أزل صلح وصفا سدز خومت بدل
نادىء إقبال درين كهنه دبر غلغله أنداخت كه صلح خير

معناه بالعربي

جرى بعد الخصومة عقد صلح وغرد للصفاء والأنس طير
وفي الدنيا بشير السعد نادي بمنطقه الفصيح الصلح خير .
فتم أمر الصلح مع الدول الأربعة . وقد وفقه الله في مدة صدارته التي
استمرت خمس سنين لحسن الإدارة بتدابيره الحكيمة وبث في جسم الدولة حياة
جديدة .

غير أن فيض الله أفندي شيخ الإسلام لم يرض بشهرة المشار إليه وبعد صيته
ونفوذه، فأخذ يلقيه في مشاكل تكدر خاطره . ولكونه كان وزيراً غيوراً لم يطق
تحمل هذه الأمور، وقع مريضاً وانقطع عن الحضور إلى الديوان . واضطر أخيراً
إلى الاستقالة من مسند الصدارة فجاءه خطاب همايوني ونصه . أنا مسرور منك
ولطلبك التقاعد قد أجبتك إليه .

وقد ختمت بهذا الوزير سياسة محمد باشا الكوبريلي . وبعد ذلك تغيرت
إدارة الدولة وذلك أنه كان لحضرة السلطان انعطاف كلي وميل تام لفيض
الله أفندي شيخه الخصوصي قياماً ببحث التعليم، فتصدى لإجراء أمور وحركات
لم يأتها أحد قبله من سلفائه . ولا تليق بشأن العلماء الأعلام كترقية ابنه إلى رتبة
المشيخة وسائر أولاده، ومن ينتسب إليه إلى المراتب العليا، وحصر النفوذ ومنافع
الدولة فيه وفي أولاده وأتباعه . فنقد صبر الخلق على تحمل هذه الأحوال واضطر

حسين باشا^(١) إلى ترك الخدمة فكان ذلك سبباً داعياً إلى إعراض أكثر أركان الدولة وأعيانها عنه. فظهرت على أثر ذلك واقعة أدرنه^(٢) وكانت من الحوادث المفجعة التي لم يشاهد ولم يسمع بمثلها في الدولة العلية وذلك سنة ١١١٥، وقد كان البعض من محبيه نصحوها له ولابنه أن يعدلا عن مسلكهما فلم يقبلا وذلك للغفلة التي أوقعهما فيها مزيد الإقبال وكانت هذه النتيجة وبالأعلى عليهما وعلى ولي نعمتها. فنسأل الله أن يحفظنا جميعاً من ضرر إفراط الإقبال ومن سوء حال تفريط الأدبار.

وعلى أثر هذه الفتنة العظيمة تخلص حضرة السلطان مصطفى الثاني من غائلة السلطنة واختار العزلة. وجلس أخوه حضرة السلطان أحمد خان الثالث على منصة السلطنة. وبعد أن طهر رياض الدولة من الأعشاب الأجنبية اجتهد في تقوية بنية الحكومة وعمرانها. وبعد أن أكسب الدولة العلية كثيراً من القوة والانتظام ابتدأت وظهرت وقوعات الروسية وإسوج^(٣).

[وقوعات روسيا]

وكان بطرس الكبير المشهور قيصر الروسية هجم على قلعة أزاق في القريم وانهزم شر هزيمة كما ذكرناه، فاغتنم فرصة الحروب الواقعة منذ سنين عديدة بين الدولة العلية والبندقية ولهستان والنمسا، فأعاد الهجوم على قلعة أزاق واستولى عليها. ثم اغتنمها أيضاً في حرب إسوج والدانميرك وله فأشهرها على إسوج. وكان قارلوس الثاني عشر ملك إسوج المعروف بين أهل الإسلام بتييمور باش على غاية من الحكمة والتدبير والشجاعة فتغلب على أخصامه مرات كثيرة. وإن يكن طمع في تنزيل بطرس عن تخت ملكه، ولكن هذا لم يلحقه من ذلك أقل

١- وكان الصدر الأعظم آنذاك.

٢- واقعة أدرنه (١١١٥هـ) وفيها ثار العسكر على السلطان مصطفى الثاني لأنه ترك المجال لنفوذ المفتي فيض الله أفندي، وانتهت بعزل السلطان. إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٦.

٣- إسوج : أي السويد.

ضعف، بل ثابر على حربه في أطراف حدود لهستان المجاورة للدولة العلية. فنال الغلب وكاد أن يأخذ ملك إسوج أسيراً. ففر ملك إسوج إلى بندر، ملتجئاً لكهف الأمان للسلاطين والملوك وهي الدولة العلية. فظهر حينئذ الاختلال في بلاد إسوج وضمت روسيا قطعة عظيمة منها الواقعة في ساحل بحر البلطيق إلى ممالكها.

وفي أثناء هذه الحرب تجاوز العسكر الروسي بعض الحدود السلطانية في حال تعقبه عسكر إسوج وكان تيمورباش قبل ذلك أنذر الدولة العلية بما يتوقعه من الدولة الروسية من الضرر والشر لها. فأعلنت الدولة العلية الحرب عليها. فشيد محمد باشا البلطه جي الصدر الأعظم والسردار الأكرم جسراً على نهر الطونة وقطع بعساكره إيالة بسارابيا من جهة يساقجي. وكان الروس قطعوا قبل ذلك نهر بروث فنزلوا على ساحل الطونة في أراضي البغدان.^(١) فلم يلتفت السردار إليهم بل استمر سائراً من الجانب الآخر وحاذاهم من غير أن يعبا بهم بل بقي سائراً إلى أن بلغ ممر فالجي وحاول عبور نهر بروث منه. فعلم بذلك بطرس الأكبر فأرسل فرقة من الجند تمنعه العبور اعتقاد منه بأن منعه للعساكر العثمانية من العبور في ممر فالجي يلجئهم إلى إقامة جسر جديد يستغرق بناؤه أياماً. واعتقد أيضاً أن العثمانيين بعد مرورهم النهر لابد أن يصرفوا بضعة أيام في ترتيب شؤونهم فيكون هو قد انتهاز الفرصة اللازمة في الاستعداد لمقابلتهم. فأخطأت سهامه الغرض وذلك لأن العساكر الإسلامية لم تنتظر تشييد جسر آخر بل تجشمت النهر وقطعته، وأكرهت الروس على الفرار. وفي الليل شيدت ثلاثة جسور مشى عليها القسم الأكبر ممن بقي منها عند السحر فتعقبوا الروس وهزموهم شر هزيمة وألحقوهم بمعسكرهم. وفي الصباح تم مرور العساكر الهمايونية جميعاً على تلك الجسور ومع كون المسافة التي بينهم وبين المعسكر الروسي كانت نحو ست

١- البغدان : في بلاد رومانيا، وكانت تابعة للعثمانيين.

ساعات فقطعوها غير مبالين بالسهر ومشاق الطريق فبلغوا المعسكر الروسي بغتة عند العصر ولم يطلبوا الراحة من التعب بل فاجأوا الأعداء بالهجوم. فلما رأى ذلك بطرس تحير وارتبك حيث إنه كان يتوقع هذه الحال بعد خمسة أو ستة أيام فانهزم بجنوده فعارضه النهر من جهة، وكان خان القريم في الجهة الأخرى فقطع عليه خط الرجوع من البر، فبات محصوراً وأجبره الحال على طلب الأمان وهو في غاية الغلبة والقهر. وقد ثبت بعد ذلك أن عسكر الروس في أثناء هذا الحصار أكلوا قشور الأشجار. ولذلك التمس الصلح والأمان من السردار الأكرم معلناً له أنه يرضخ لجميع مطالبه مهما كانت. فأجابه إلى ذلك السردار الأكرم وربطه بشروط شاقة لا تستطيع دولة ما على قبولها، منها عدم تداخله في أحوال دولة (له)، وأن يرد قلعة أزاك للدولة العلية، وأن يعطيها ما شيده على الحدود من القلاع، وأن لا يكون له سفير في الأستانة، وأن يقبل بتنازله عن مقام سائر الملوك. فألجأته الضرورة إلى قبول هذه الشروط العنيفة. وانعقد الصلح وأخذ منشور الوزير البلطه جي وسار إلى مملكته والمنشور المذكور مسطر فيه آخر الجزء تحت عدد (٦).

وكان السردار المشار إليه صاحب حيل ودهاء، دقيق الفكر في أعماله وحركاته. حتى إنه نال مسند الصدارة العظمى بما أجراه من الدسائس الكثيرة. ثم لما وقف حضرة السلطان أحمد خان على حقيقة حاله أعرض عنه وعزله. غير أنه لما ظهرت أخيراً حوادث روسيا وإسوج اقتضت المصلحة توليته مقام الصدارة مرة ثانية. فأحسن فيها العمل وتغلب على ذلك الرجل الكثير الحيل وهو بطرس الأكبر وكان في إمكانه محو عسكر الروس عن آخره. ولكنه لم ير من الحكمة تتبع أثر الأعداء المايوسين^(١) الذين قبلوا بشروط هذا الصلح، فرضي بالظفر الذي وقع له، وقنع به قناعة مبينة على قاعدة الحزم والاحتياط وشعار المروءة. فكان من ذلك أن بعض المؤرخين نسبته إلى الغفلة. وكان رجال السلطنة في

١ - الأصل أن يقول اليائسين.

الأستانة غير آمنين منه، فسعوا في عزلة زاعمين أن الفرصة قد سنحت له فكان ينبغي له أن يحق عسكر الروس عن آخره. وادعوا عليه أنه أخذ رشوة من الروسية فلذلك قبل بالصلح. إلا أن حضرة السلطان أحمد خان رد كلام الوشاة بقوله: إنه لا يرى من الصواب عزل مثل هذا الوزير الذي وجد في مثل هذه الغزوات. بل من الصواب أن يحسن إليه ويتلطف به، ولكن الافتراء في حقه كان بلغ مبلغاً لا يمر في خاطر وخیال، فتمكنوا أخيراً من عزله ونفيه قبل أن يصل إلى الأستانة وهو وإن كان بريء الذمة من هذا الافتراء ففي صدارته الأولى ارتكب كثيراً من الدسائس على كثيرين فظهر به الآن سر قولهم الجزاء من جنس العمل.

وعلى كل حال فإن الدولة العلية وإن كانت خسرت كثيراً في الحروب التي استمرت نيفاً وخمس عشرة سنة كما ذكرنا أعلاه فهذا الظفر أعلى شأنها وأسمها علواً كبيراً.

ثم إن الذين تولوا بعده مسند الصدارة العظمى كانوا يعزلون حالاً نظراً لعدم توفيقهم إلى أن تولي علي باشا داماد.^(١) فنظم أحوال الدولة وساق الجند على الرعايا في الجبل الأسود وذلك أنهم كانوا جاهرُوا بالعصيان فردهم إلى الطاعة.

ونظراً لاتصال الحروب مع البندقيين ذهب بذاته بالعسكر الهمايوني لقمعهم ففتح كثيراً من البقاع والقلاع كاستنديل وكوردوس وأنابولي وقستل. ورجع إلى الأستانة ظافراً ظفراً تاماً. وفي ربيع السنة التي بعدها سافر من الأستانة على قصد محو دولة البندقيين عن بكرة أبيها. ونظراً للفتوحات التي حصلت في السنة الماضية تقرر في أفكار دولة أوستريا أن الدولة العلية قادرة على محق البندقيين والاستيلاء على خليجهم وهذا مما يفتح باباً واسعاً لنقل الذخائر والمهمات

١- داماد : لقب يطلق على صهر السلطان أي زوج ابنته. الدراري اللامعات، ص ٢٤٦.

وللهجوم على بلادها ويغني عدوها عن المجيء إليها على طريق بلغراد وطمشوار^(١) فتقع النمسا على هذا الفرض في الهلكة. فأخطرت الدولة العلية بمجانبة حرب البندقين وأندرتها بأنها إذا أبت ذلك أشهرت الحرب عليها فكان ذلك على السردار صعباً فصرف عنان عزمته عن حرب البندقين. وسار قاصداً حرب النمسا. وكان العسكر الهمايوني يعامل معاملة سيئة من جانب مدير أشغال السردار جرياً على ما طبع عليه من سوء الخلق وكان بعض الرؤساء لا روية ولا ثبات لهم في الأمور فلذلك انهزم العسكر واستشهد السردار.

والحق يقال إن الوزير المشار إليه كان على غاية من التعقل والتدبير والعدل والشجاعة. وقد وفقه الله لتسوية مصالح الجمهور وضبط الأمور. وظفر في مدة قليلة بفتوحات لم يكن فيها نصيب لأحد سواه من الوزراء وكان أعلى منهم همة. غير أن القدر لم يساعده. ومن عادته أنه لا يلتفت إلى ذوي الحسب ولا إلى قبول شفاعاة أصحاب الوجاهة بل كان يجري الأمور على حسب الاستحقاق. وفي أثناء وضع النظامات أصلح حالة الطريقة العلمية، وذلك أن أصول ونظامات الدولة كانت من قبل مختلفة ونظام الطرق العلمية أيضاً في حالة الاعتلال. وكان منصب القضاء يعطى لغير أهله. فرفع قدر أهل العلم، وأنعم على من كان ممتازاً بالفضل من المدرسين بوظيفة نيشانجي^(٢) ومنع الرشوة وما يتعلق بها كالهدايا فلذلك كان كثير ممن يفضلون مصلحتهم الذاتية على مصالح الدولة غير راضين عنه.

وقد كتب بعض المؤرخين أن من نال الظفر وحصل على الفتوحات الكثيرة في مدة يسيرة من السلاطين العظام هو السلطان سليم ياوز، ومن الوزراء الفخام

١- طمشوار: مدينة في جنوب بلاد المجر، فتحها السلطان سليمان القانوني سنة ٩٥٩هـ، وبقيت في حوزة العثمانيين قريباً من مائتي سنة. قاموس الإعلام ٣٠١٧/٤.

٢- نيشانجي: أي رتبة رئيس قلم كتابة الطغراء السلطانية. الدراري اللامعات، ص ٥٢٠.

هو علي باشا داماد. وكما كان العالم يرتعش من حضرة السلطان المشار إليه. كذلك كان الناس يخافون من السردار المشار إليه أيضاً. فلما توفاه الله أي السردار سرّ بذلك كثيرون. وقالوا وإن كان الوزير قد مات والعسكر انهزم فنحن قد نلنا بذلك الأمن وسننتقم من الأعداء عند سنوح الفرصة. قالوا هذا وهم غير مفكرين فيمن يقوى على القيام بأعباء الوزارة من الوزراء. ومن الأمور المعلومه طبعاً أنه متى سرى الخلل في نظام الدولة واستولى الكسل على الناس، عرف حينئذ قدر أهل الغيرة والإقدام.

ثم أخذ الفشل في الدولة يزداد يوماً فيوماً بالنظر إلى عدم توفيق من تعين لحرب النمسا من السردارية وإلى عدم ثبات وغيره العساكر الإسلامية في مواقع الحرب والصدام. وظهرت ضروب من الفساد والاختلال في المعسكرات. فدخل في يد النمسا عدد كثير من المواقع حتى طمشوار أيضاً. وبناء على ما شوهد في الجند من قلة الثبات أصبحت الحرب غير ممكنة بعسكر هكذا غير منتظم. ولما طلبت دولة النمسا انعقاد الصلح مال إليه داماد إبراهيم باشا نائب الركاب الهمايوني. وقال فلنجر المصالحة الآن وبعد تحسين نظام العسكر نأخذ بالثأر من الأعداء، فأنكر العسكر ذلك وقالوا إنهم كانوا قادرين على الفتك بالعدو وجعل بعضهم يحيل التقصير الواقع في الحرب على بعض سترأ لقبائهم، ويقولون لا يمكن أن نترك طمشوار الجميلة في يد العدو. فهيجوا الناس بقولهم هذا وتبعهم في ذلك طلبه العلم زاعمين أن العدو متى رأى ميلهم ورغبتهم في الصلح اعتقد فيهم الضعف واستحسن سائر الناس هذا الرأي. وانفرد إبراهيم باشا برأيه وبقي الكلام في الصلح نسياً منسياً وأعيدت الحرب مرة ثانية، فانهزم العسكر هزيمة شراً من الأولى، وأخذت بلغراد من أيديهم، فرجعوا حينئذ إلى رأي إبراهيم باشا في طلب الصلح مع أنهم كانوا يأنفون منه حين لم يكن في يد الأعداء غير طمشوار. ثم رجعوا تاركين بلغراد في حوزة النمساويين. وعلى أثر ذلك صار إبراهيم باشا صدرأ أعظم فعقد الصلح ولكن أي فائدة فيه بعد أخذ بلغراد. وبالجمله فقد لحق الدولة ضرر كثير من ذلك.

واستحسن بعض المؤرخين فعل إبراهيم باشا في هذا الخصوص وكرهه آخرون، وزعموا أن رغبة إبراهيم باشا في الصلح إنما لإظهار كونه صهراً للسلطان نافذ الكلمة. وهذا مما قوى عزائم أعدائه وحملهم على الشطط والرد على قبوله، ثم إن عقد الصلح تم بصعوبة كلية وشروط شديدة. وقيل إنه لو أظهروا للعدو علائم القوة والبسالة لتم عقده على وجه أسهل.

ومتى بلغت الأحوال إلى مثل هذا فلا بد لطالب الصلح أن يصادف جنفا في عقده. وهذه هفوة صغيرة وقعت من إبراهيم باشا ولكن لا تعد خطأ كبيراً. وما قاله منذ سنة «فلنجر الصلح الآن ثم ننظم العسكر» لو صمم عليه وطابق كلامه فعله لرفع عنه ذلك معرة قصوره. وقد أقام في الصدارة أكثر من ١٢ سنة مستقلاً بأمورها ولم يصلح أحوال الجندية بل أدخل بأصول الدولة القديمة ونظامها ولم يصرف أفكاره إلا إلى الإسراف والسفه. وكان يعد الكلام في أمور العسكر والحرب من قبيل الكفر. وبالجملية إنه وجه همته إلى الترف المدني وفروعه الباطلة وترك المحافظة على الأمر الأهم وهو ما يتعلق بالنظمات العسكرية والإدارة الملكية كما يعلم ذلك من التفصيلات الآتية.

وفي أثناء هذا الصلح ادعى بعض المشايخ المدرسين أنه يلزم النطق بحرف الضاد من مخرج الظاء. وحيث إن هذا من باب المباحث العلمية وقع بين عامة الناس وجهلة الحفاظ نزاع قضى بالخوف على الجميع فنفي بعض المشايخ المدعين بهذه الدعوى ووبخ البعض الآخر وزال الخلاف على الضاد.

ولما علمت الدولة العلية أن المحاربة السالفة حطت من شأنها رأت من اللازم تنظيم عسكر أصولي.

مع أنه بعد أن صار إبراهيم باشا صدرأ أعظم ووضع على معاهدة الصلح كما سبق بيانه ترك أمر الحرب رأساً وضربت على سيوف الغزاة الحداد حجب النسيان، وصار الكلام في أمر الحرب ممنوعاً عن الناس وبخست أثمان جواهر

السيوف، ولم تتعلق بالخواطر إلا بدواعي الخلاعة ومعاطاة الصهباء. واستبدل معمل السلاح بمعامل النقوش والفصوص المزخرفة. وصارت رحاب تعليم الجند ملاعب لطالبي البسط والارتياح. ولما اتصلت هذه الأخبار بالروسية وأمعت النظر فيها وعلمت أن أمر الحرب يكدر صفو إبراهيم باشا والمنتسبين إليه من أعيان العصر، جاء سفيرها في الحال إلى الأستانة، وأخذ يكلف الدولة بأمور عنيفة وهو وإن كان أجيب بأجوبة مسكتة، فإن المشاكل الدولية لا تحسم إلا بالسيف. ولذلك كان إيراد البراهين القطعية عليه يذهب سدى. وهذا نص ما قاله السفير «إننا أكرهنا على الصلح سنة حرب بروث بسبب الفشل الذي ألمّ بنا، فحط ذلك من قدرنا وأسقط لقب ملكنا من بين جميع الملوك وبناء على ذلك فإذا لم يجدد لنا الصلح فإننا ننقضه»، ولأجل دفع هذه الغائلة أجيب إلى ما طلبه وهو أن يكون للدولة الروسية سفير في الأستانة، وأن يكون لقب ملكها كلقب سائر الملوك. وبالجملة إنه يعطى جميع مطالبه سوى شرط واحد وهو أن لا تتداخل دولته في أمر بلاد (له). فقال إن تداخلنا في أمر هذه البلاد مبني على مصافاتنا للدولة العلية لأن أهل (له) أحرار قد خاصموا ملكهم (نعلقران) فلو تركوه وشأنه لما نالوا ما يرجونه ولكان ملكهم يدخلهم في حيز الطاعة والانقياد طوعاً أو كرهاً فيستقل بذلك ويجلب الضرر على الدولة العلية لكونه مجاوراً لحدودها. فنحن ندخل بلد (له) وبعد أن ننظم أمورها نخرج في الحال، إلى غير ذلك من الأعذار الواهية التي لا تقنع الصبيان. فأجابوه بالإيجاب وأهملت الأمور المهمة التي هلك لأجل الحصول عليها كثير من النفوس وأهرفت من شأنها دماء وافرة. كل ذلك حتى لا تتعكر كأس صفائهم. ودولة الروسية التي كانت يلزمها أن تتلف لأجل الحصول على كل طلب من مطالبها ألوفاً من الجند نالتها جميعاً بلفظ ننقض العهد. ومع كون الصلح عقد على قصد تنظيم العساكر والأخذ بالثأر بعد ذلك فإن الناس دخلت عليهم جوائح وعوائد جديدة جعلت طبائعهم تألف السفاهة وما شاكلها من نتائج الطيش، فأصبح كل واحد منهم غريقاً في بحور الملاهي والملاذ.

وفضلاً عن اختلال نظام العسكر، فقد اضمحلت أنوار الآداب وفسدت الأصول القديمة التي كانت مرعية بين الناس حتى إن الروابط الطبيعية الودية بين الزوجين اختل نظامها. وشيد الناس القاعات الجميلة بأنواع الرخام، وزينوا أطرافها بالأزهار، وأوقدوا المصابيح، وجعلوا ظهور السلاحف منابر لها فكانت تتجول في طرق القاعات والجنائن والأنوار تسطع على ظهورها، وترسل مرتبة على غاية الانتظام فأطلق عليها اسم چراغان أي الشموع وقد بنى إبراهيم باشا قصراً جميلاً بجوار بشكطاش^(١) دعي بقصر چراغان. فكان يأدب فيه كل سنة مأدبة حافلة يدعوا إليها السلطان فيحضر بأنجاله للترفج على تلك السلاحف الحاملة الأنوار. فكان يقيم على هذه الحال عدة أسابيع وبعض الأحيان يأتي باشا قبوسي ليحضر سهرة كانوا يسمونها بسهرة تاطلي (الخلويات) فيقيم هناك خمسة أو ستة أيام. وكان سهل الكاغدخانه قُسم على الأعيان والوجهاء فشيّد فيها نحو ستين قصراً وحدائق عديدة حتى امتدت عمارتها إلى قرق أغاج. وبنى قصر دعي سعدآباد، وأجرى نهار چاغليان بين تلك الحدائق والقصور وزين ذلك المكان بالأنوار. وهذا وإن كان مما يظهر شأن الدولة وشوكتها في أنظار السفراء والأجانب، ويوافق ما هو لازم للسلطان أن يتخذة لسروره من المنتزهات فإنه مخل بالأصول. وقد أكثر الناس في هذا المحل الذي هو الكاغدخانه من السفاهة والملاهي حتى تجاوزوا الحدود.

وقد كثر في الأستانة العلية أنواع اللاله، وهو نوع من الزنبق الأحمر أشبه بشقائق النعمان^(٢) واتسعت رياضها ورياض الورد وما شابهما. فكان ذلك داعياً إلى تشبيهات الشعراء وتخييلاتهم وباعثاً على زيادة الرغبة في الشعر والإنشاء وارتفعت أسعار بصل اللاله حتى بيع المعروف منها باسم محبوب بخمسائة ذهب (ربعية) وكان الراغبون فيه لا يستطيعون شراءه لغلاء ثمنه فساءهم ذلك.

١- بشكطاش: أحد أحياء إستانبول الأوربية على ساحل البسفور.

٢- اللاله: هي الخزامى، نبت طيب الرائحة. الدراري اللامعات، ص ٤٩٣.

فوضع له سعر معلوم وصدر التنبيه على الناس أن لا يبيعوا المعروف منه باسم محبوب بأكثر من ألف غرش. وصار هذا السعر دستوراً للعمل وسجل في محكمة الأستانة كما ورد في كتب التاريخ.

وكان هذا الدور في الأستانة من أحسن الأدوار صفاء وذوقاً إلا أنه أورث الدولة خللاً والناس كسلاً. وبعد أن زالت هذه الجوائح تقلبت الأحوال وتغيرت الشؤون. وصار من جاء بعد ذلك من الخلف على أثر أولئك السلف الأول تأنف نفوسهم من ذكر العشق.

وفي أثناء هذا الدور^(١) أفاد دري أفندي بعد رجوعه من سفارة العجم^(٢)، أن بعض عقلائهم قالوا إن حال إيران سيئة وأنه، إن كان يوجد بيننا رجال ذوي التدبير والدربة فإن السفهاء ما تركوا لهم نفوذاً. وإذا بقيت الأحوال على هذا المتوال تزول الدولة الصفوية في مدة سنتين لا محالة. فكان الأمر كذلك فإنه لم يمر على ما قالوه سنتان حتى غلبهم الأفغانيون واستولوا على أصفهان. ولما اتصل بالدولة العلية خبر اضمحلال هذه الدولة الصفوية رأت من المناسب أن تستولي على بعض الأيالات التي كانت قديماً في حوزتها ثم دخلت في يد العجم قبل أن يبتزها غيرها، فاستولت على عدة أیالات كهمدان وكنجة وروان وشروان وكورجستان. وحيث لم يكن لوكلاء الدولة معرفة بتدريب العساكر اللازمة لمحافظة الأيالات المذكورة فعندما قام بعد ذلك نادر شاه^(٣) في إيران استرد الولايات التي كانت في يد الدولة العلية والروس. وذهب ما أنفق في هذا السبيل من العساكر والذهب سدى. واستولى الخراب على الأناطولي في هذه الحروب فندم إبراهيم باشا، وعمّ الكدر جميع الناس.

١- الدور بمعنى العهد. أي، وفي أثناء هذا العهد.

٢- العجم: بلاد فارس (إيران).

١- نادر شاه (١٠٩٩هـ-١١٦٠هـ) قائد فارسي من أصل خراساني. أسقط الدولة الصفوية في فارس، وحكم أفغانستان وإيران وبلاداً أخرى لمدة عشرين سنة. قاموس الأعلام ٦/٤٥٤١.

وفي أثناء ذلك قررت الدولة العلية إعلان الحرب على روسيا وذلك لكونها كلفتها من الشروط مالا يطاق. وعندما قرأت فاتحة الحرب راجعت أفكارها وجنحت إلى الصلح وعقدته معهم. غير أن تلك المعاهدة تضمنت كثيراً من الأمور المضرة بالدولة كما ظهر ذلك فيما بعد. وبهذه الوسيلة توصلت روسيا إلى وضع يدها على سواحل بحر الخزر.^(١) وقد اعترض بعض المؤرخين على إبراهيم باشا لرضاه بهذه المصالحة زاعمين أنه لو ثبت مستمراً على الحرب لارتفع شأن الدولة وبلغت كبير النفخ مع إنه أصاب في عقد الصلح بالنظر لما شاهده من أحوال الدولة في ذلك الوقت، فإنه لو لم يصالح لوقع ما كان وقع في الهزيمة التي جرت بعد ذلك في حرب سنة ١١٨٢هـ. ولو نبذ رؤساء الدولة تلك السفاهات وساروا إلى الحرب بقلوب قوية صحيحة لكانوا أحسنوا عملاً. ولكن لما كانوا غريقين في بحر العظمة، وكان النفوذ للسفهاء، والعدو تنتظم جنوده يوماً فيوماً كان في الحرب وقتئذ خطر وخطأ كبير. فالاعتراض على إبراهيم باشا بقبوله الصلح في ذلك الوقت بعيد عن الحق والصواب، ولكن لو تصدى أحد إلى الاعتراض على ما هو عليه من السفاهة والتوسع في دائرة الملاحية لما وجد من ينكره عليه.

وكان ينبغي القيام بدفع فساد نادر شاه ولكن ذلك يقتضى قوة عظيمة، ولما كانت الدولة منغمسة في بحر اللهو والخلاعة، نشوانة بخمر اللذات فلم يتأت لها ذلك. وعندما ظهر الأفغانيون كما أوضحناه واستولوا على أصفهان وخلعوا الشاه حسين الصفوي الذي كان آخر الملوك الصفوية؛ طلبه أحمد باشا والي بغداد إليه. فلم يكن من الأفغانين إلا أنهم قطعوا رأسه وأرسلوه إليه. وعليه

١ - بحر الخزر: أو بحر قزوين، ويقع على الحدود الشرقية الجنوبية لبلاد القوقاز، ويعتبر منطقة فاصلة بين أراضي الدولة العثمانية وفارس من جهة وبين روسيا من جهة أخرى. وجميع الأراضي التي على سواحل بلاد إسلامية.

انقرضت الدولة الصفوية. فلم يبق منها إلا طهماسب بن حسين شاه الذي كان في جهة قزوین حين الاستيلاء على أصفهان فتسلطن هناك. وفي أثناء ذلك ظهر من عسكره رجل جسور من قبيلة أفشار اسمه نادر علي، فاشتهر بالإقدام والقوة شيئاً فشيئاً فعينه رئيساً لحجابه وتغلب على الأفغانين واستخلص منهم أصفهان. فنال بذلك عند الملوك نفوذاً تاماً وعين وكيلاً مطلقاً ولقب اعتماد الدولة. وسار إلى الأفغانين لاسترجاع إيران من حوزتهم، وفي أثناء ذلك انهزم الشاه طهماسب في حربه مع سر عسكر روان علي باشا ابن الحكيم، كما انهزم في حربه مع أحمد باشا والي بغداد في صحراء همذان. فاضطر إلى طلب الصلح فعقدت المعاهدة معه على أن تبقى كنجه وتفليس وروان وشروان في حوزة الدولة العلية، ويستمر في يد طهماسب همذان وكرامان شاهان لا غير، على أن نادر علي لما بلغه خبر الصلح الذي عقده الشاه طهماسب امتعض لذلك وخلعه وأجلس ابنه عباس مكانه وكان عمره ثمانية أشهر، ثم خلعه أيضاً ولبس هو الخلعة الملوكية فصارت ممالك إيران جميعها مسخرة لأمره، واستولى بغتة على الأيالات المذكورة، لأنها كانت خالية ممن يحافظ عليها بسبب الصلح المعقود. وأخذ يشن الغارة على الحدود الخاقانية. فنشأ عن ذلك في الأستانة أقوال كثيرة وأراجيف متنوعة وأنكر جماعة من الصالحين هذه الأحوال السيئة على إبراهيم باشا وقدحوا فيه لسوء أفعاله. وأما العامة فإنهم جسموا هذه الأشياء وجعلوا الحبة قبة ولا يخفى ان القدح سجية خفية في الخلق تظهر عند وجود سببها. فأطلقوا ألسنتهم في الوزير وقالوا إنه ترك ما كان عليه أسلافه من الوزراء من شدة الاعتناء بتعليم العسكر، وأنه وقع في مهواة الملاعب وعود السلطان على اللهو والخلاعة وجعل مراتب الدولة ورتبة الوزارة في أيدي الندامى بعد أن كانت تعطى للمستحقين لها المستعدين للقيام بها من المجاهدين. وأنه أعطى لنادر شاه ما كان استولى عليه من الولايات في العجم وترك المسلمين في يد الأعداء. إلى

غير ذلك من التنديدات والمطاعن المتوالية سراً وجهرًا. ثم إن إبراهيم باشا شعر بأن الحال سيئة فضرب السراقات الهمايونية في أسكدار^(١) لإرهاب نادر شاه وأذاع السفر إلى جهة العجم. فكان تارة يذيع أن حضرة السلطان يسافر بنفسه إلى العجم وآونة يقول إنه هو الذي يسافر فقط. فاشمأزت نفوس الناس من هذا التردد. وأثار بعض الأشقياء ممن ألفوا الفساد نار الفتنة في الأستانة وذلك سنة ١١٤٣، وكان المعسكر الهمايوني إذ ذاك في أسكدار.

كان بعض محبي إبراهيم باشا حذروه أمر الفتنة قبل ظهورها. إلا أن جماعته كانوا سكارى بخمرة الجاه والترف، معتادين على المداينة والنفاق، فلم يستحسنوا كلام المحبين بل كان مرأً علقماً في أذواقهم. وكذلك تقدم بعض الصادقين في الخدمة إلى كتحدا بك^(٢) وحذره. وقال له إن الأحوال سيئة وأنه يجب أخذ التدابير اللازمة لتسكين أفكار العموم ظناً منه أنه يقبل نصيحته. فأنكر عليه ذلك وقال هل هذا وقت هذه التصورات. ثم أنبه ووبخه فتباعد الناس حينئذ عنه وتحاشوا عن المداخلة في هذه الأمور. حتى أنهم إذا رأوا الأشقياء في الأسواق يتظاهرون بالفساد يقولون لهم شأنكم وما تريدون. واجتمع كثير من أركان الدولة قبل وقوع هذه الحوادث ورفعوا للأعتاب السلطانية أمرها فلم يلتفت إليهم السلطان ولم يعزل وزيره إبراهيم باشا نظراً لعلو مكانته عنده. فاعتزلوا جميعاً عن المداخلة ويئسوا من الإصلاح وأقاموا ينتظرون ما يظهره القضاء والقدر من الغيب. فاتسعت لهذا السبب دائرة الفساد. ثم أخرج السنجق الشريف ولما كان الناس حانقين على إبراهيم باشا فلم يجتمعوا حول السنجق الشريف، ثم إن حضرة السلطان أحمد خان قتل إبراهيم باشا وبعض المنتسبين له وسلم أشلاءهم إلى الأشقياء وتخلّى عن السلطنة. فتولاها السلطان محمود

١- اسكدار: أحد أحياء إستانبول على الجهة الآسيوية للبحر الأسود.

٢- كتحدا: بمعنى معتمد ووكيل. الدراري اللامعات، ص ٤٥٣.

الأول. ويجلسه زالت غوائل الشر. ثم إن تأخر الناس عن الاجتماع حول السنجق النبوي الشريف لم يكن عن ضعف أو عصيان بل كان نكايته لإبراهيم باشا. وإلا فإنهم لما رفع أحد الشرفاء سنجقاً وظنوا أنه السنجق النبوي اجتمعوا إليه من كل جهة كما ذكرناه في الفصل السابق.

والحاصل أن المعاهدة التي انعقدت مع شاه طهماسب كانت سبباً لخلعه وداعية إلى حدوث هذه الحوادث في الأستانة. على أنه عند جلوس السلطان محمود، هدأت الحال وزال الاضطراب. ومن الأمور المجربة أن الإفراط يدعو إلى التفریط، فالأشقياء الذين محوا بتعصبهم الرسوم السابقة تجاوزوا حدودهم وتظاهروا بحركات غير مرضية فكان ذلك داعياً للدولة العلية إلى الاشتغال بدفع أضرارهم مدة طويلة. حتى إن قاضي استامبول الذي كانت توليته على أيديهم لجهله وجنونه. أصدر بعد هذه الحوادث إعلاماً هدمت بمقتضاه الرياض والقصور العالية التي كانت شيدت في الكاغد خانة، وهذا الأمر أظهر رذالته الكبيرة في عيون الأعداء والأصدقاء.

وقد ظهر في ذلك العصر ميل الدولة إلى السير في طريق المدنية، ورغبتها في ترتيب عسكر منظم غير أنها تركت الرؤوس وتمسكت بالأذنان، بل شرعت في زخرفة البنيان من غير أن تنظر إلى أساسه. وذلك أنها بدلاً من أن تبذل الهمة في رواج أسواق الصناعة والفنون المنتشرة في أوروبا. انخدعت للسفهاء واسترسلت في طرق الإسراف، تاركة أنوار المدينة الحقة. وكان أهل الأستانة إذ ذاك على غاية التعصب والتصلب فنفروا من تصرفات كبار المأمورين وصاروا ينظرون بعين الازدراء إلى جميع المحدثات الجديدة حتى الأبنية^(١).

١- يشير جودت باشا هنا إلى بدايات نقطة التحول في الدولة العثمانية، وأن الدولة لم توفق لإيجاد صيغة سليمة للأخذ بأسباب المدنية، وفي الوقت نفسه تعطل الجهاد السابق الذي كانت تسير عليه الدولة، ولهذا السبب بدأ الضعف يسري في أجهزة الدولة والمجتمع في آن واحد.

والحاصل أن سبل المدنية قد فتحت أيام صدارة إبراهيم باشا على ما يقتضيه الوقت. فأسست صناعة الطباعة في دار السعادة إلا أن كبار المأمورين أفرطوا في السفاهة حتى نفرت عنهم طباع العامة فظهرت الفتنة العظيمة التي ذكرناها سابقاً وجرى منها ما جرى ولم يبق في الأستانة من آثار المدنية إلا صناعة الطباعة. ومع ذلك فإنها طرحت مدة في زاوية الإهمال وبقيت الدولة مدة لا تنظر إلى هذه الأمور بسبب ما ظهر من التعصب الذي لا طائل تحته وما توالى عليها من الحروب في إيران وأوربا، كما سنذكره ولنبدأ الآن في ذكر زمن اختراع فن الطباعة وكيفية تأسيسها في الأستانة.

استطراد

في صناعة الطباعة

لاريب أن صناعة الطباعة فن جليل لا مثيل له، جدير بأن يسمى أم المدنية، لأنه أنفع وأرفع شأنًا من جميع المخترعات البشرية. وقد اتفقت الآراء على أنها هي الأساس لما نشاهده في زماننا من الصنائع المتنوعة والتقدم العظيم في أهل أوروبا وأمريكا. فإن الكتاب الذي كنا نستغرق في استنساخه باليد زمناً طويلاً بنفقة كثيرة مع كون أسرع الكتاب لا يستطيع أن يكتب منه نسخة واحدة في أقل من ثلاثة أشهر، صرنا نحصل منه على ألف نسخة كاملة خالية من الخطأ في مدة عشرين يوماً مثلاً. وهذا مما يثبت أن انتشار العلوم النافعة حصل بواسطة هذه الصناعة التي كانت سبباً قوياً في انتشار العلوم والاطلاع على كثير من الفنون ونشر فوائد المعرفة بين جميع الملل والنحل وإظهار الخصائص والمعارف الإنسانية وبيان ما يلزم وما يحتاج إليه المدنية. وبالجملة فهي التي جعلت الإنسان إنساناً ولا شك أن عدم انتشارها بين الأقدمين الذين كانوا متقدمين في الفنون والمعارف هو الذي كان سبباً في انقراض آثارهم وترك معارفهم وعلومهم كأن لم تكن شيئاً مذكوراً.

أما الآن فقد انتشر في كل جهة من جهات العالم عدد كثير من تأليف ومصنفات في كل فن من الفنون وذلك بواسطة الطبع، وأصبح الأمل قوياً ببقاء المعارف إلى ما شاء الله. وقد اختلف المؤرخون فيمن اخترع هذه الصناعة وفي مكان وجودها الأول. ثم ثبت أنها وجدت في ألمانيا في مدينة ماينس من أعمال غرندوقية هس دار مشتاد، وأول مطبعة انشئت، مطبعة كوتنبورغ باشتراك مع فوست، غير أنه يظن أن كوتنبورغ أحدث هذه الصناعة من قبل في مدينة ستراسبورغ فقام كل فريق من أهالي هذين البلدين يدعي اختراع هذه الصناعة في بلده وكلهم متفقون على أن مخترعها هو كوتنبورغ.

وقد ولد كوتنبورغ^(١) في مدينة ماينس سنة ١٤٠٠م مسيحية الموافقة لسنة ٨٠٣ هجرية من عائلة معتبرة شهيرة. وفي سنة ٨٢٨ هجرية سار إلى مدينة ستراسبورغ ونسب إلى أهلها، إلى سنة ٨٤٨ هجرية. وفي سنة ٨٤٠ للهجرة عقد مع رجل يقال له أندره دوريزن وغيره شركة على بعض الحرف والصنائع الخفية فمات أندره المذكور وقام أخوه جورج دوريزن يدعي بالإرث وحق الدخول في الشركة المذكورة. وعند المرافعة سنة ٨٤٣ حكم له بإعلام رسمي أن يأخذ حقوق أخيه بوجه الشركة. ولذلك كان يظن أن صناعة الطبع كانت من جملة الصنائع الخفية في هاته الشركة. فيمكن القطع والحالة هذه بأن الصناعة المذكورة وجدت في ستراسبورغ سنة ٨٤٠ للهجرة ولا يوجد ما يدل صريحاً على كيفية الابتداء بالطبع، ويقال إن كوتنبورغ ابتداء هذا العمل بحروف مصنوعة من الشجر إلا أن عدم وجود اسمه على ظهر الكتب التي كان يطبعها أوجب اختلافاً كلياً بين المؤرخين.

وقد تحقق أن كوتنبورغ اتخذ مطبعة في مدينة ماينس سنة ٨٤٧ وعقد شركة مع فوست. ومن روايات العامة أن الإنجيل الشريف طبع فيها وهو المسمى عندهم باثنين وأربعين سطراً. وقد جهلت مطبعته وطابعه لعدم كتابة شيء عليه. ومن المحقق أن كوتنبورغ وفوست كانا سنة ٨٥٥ للهجرة مشتركين في العمل معاً وأنهما أحدثا ثلاثة أنواع من الطبع، أحدهما بحروف محفورة في الخشب والثانية بحروف صغار من الأخشاب أيضاً والثالثة تسكب حسب العادة.

وفوست المرقوم^(٢) ولد في مايناس واشتغل في صناعة الصياغة، ولكونه كان من أهل الثروة أعان كوتنبورغ المذكور بالمال وقيل إنه أعانه بمهارته في

١- يوهانس غوتنبرغ (١٤٠٠-١٤٦٨م) طباع ألماني، ولد في ماينتس. اخترع الطباعة بالأحرف المنفصلة في ستراسبورغ ١٤٤٠م. وقد بنى اختراعه على نظرية صينية من القرن ١١. استقر ماينتس، وطبع بالاشتراك مع يوهان فوست الإنجيل في ١٤٥٠م. المنجد في اللغة والأعلام، ص ٣٩٤.

٢- أي المذكور.

الصناعة. وفي سنة ٨٦٠ وقعت بينهما منازعة أدت إلى فسخ الشركة فاضطر كوتنبورغ إلى أن يترك لفوست اسمه من الشركة في مقابلة الدراهم التي كان دفعها له. فبناء على ذلك إن إعانته له كانت مالية. ثم استعان ببعض الوجهاء على إنشاء مطبعة أخرى فطبع فيها بعض الكتب وتوفي في مدينة ماينس سنة ٨٧٣هـ. وأما فوست فبعد أن استولى على جميع المطبعة على الوجه الذي ذكرناه عقد شركته مع بتروس شوفر فشرعا في الطباعة. وفي سنة ٨٦٢ هجرية الموافقة ١٤ أغسطس سنة ١٤٥٧ مسيحية، طبعا المجلد المسمى يسوتية المشتل على الزبور الشريف وهو أول كتاب طبع مؤرخاً. وقد ولد شوفر المرقوم في قرية كرنس هايم من قرى دار مستشاد، فاشتغل بصناعة الكتابة. وأقام في باريس إلى سنة ٨٤٣ هجرية. ثم جاء إلى ماينس واشتغل في مطبعة كوتنبورغ وفوست ثم شاركه فوست وصاهره، لأنه كان على غاية الذكاء والدراية. وكانت مطبعة كوتنبورغ وفوست تطبع بحروف على هيئة التما^(١). ثم اخترع شوفر قالباً لصب الحروف لم يكن يعرف من قبل وأتقن صناعة الطبع، فزاد سرور فوست من اختراعه هذا وشاركه وصاهره كما تقدم. وأول الكتب التي طبعت في المطبعة المذكورة بهذه الحروف الجديدة سنة ٨٦٤ كتاب المؤرخ دوراندي. وفي سنة ٨٦٥ طبعت نظامات قلمانديسي. وفي سنة ٦٧ طبعت التوراة الشريفة بلسان اللاتيني مؤرخة، وهذه أول مرة لطبعها. فمن هذه الروايات يتضح جلياً أن كوتنبورغ هو المخترع لفن الطبع وأن شوفر قد أكمله وزاده إتقاناً وقال المؤرخون إن محدث هذه الصناعة ومخترعها هو لوران فوستر من هارلم التابعة لمملكة هولاندا الذي صار اسمه منسياً، ونسب الاختراع لكوتنبورغ وفوست، كما نسي اسم قريستوف قولونب الذي اكتشف أمريكا في سياحته ونسب اكتشافه لرجل غيره يسمى أمريك كان سافر إلى هناك في تلك الأوقات.

قل إن لوران فوستر المذكور كان يتجول في بعض الجبال فصنع من قشور
الشجر صور بعض الحروف وطبع بعض الأشعار. وبعد ذلك اجتهد مع صهره
فاخترعا نوعاً من الحبر الثابت وطبعا به كتاباً. ثم اصطنع حروفاً من الرصاص ثم
جعلها من النحاس لكونه أقوى واستجلب عملة^(١) وأظهر صناعة الطبع وكان
يكتم كفييتها عن الصناع فوقف فوست على هذا السر لأنه كان وقتئذ من جملة
العملة. فأكرمه فوستر أن يحلف له على كتمانها. وبينما كان استاذة لوران فوستر
ذات ليلة في الكنيسة أخذ فوست آلات الطبع وفرّ بها وبقي مدة يتجول في
أطراف أمستردام وغيرها من الأنحاء إلى أن حط رحله في مدينة مايناس. وسنة
٨٤٦ طبع فيها عدة من الكتب ثم اشترك مع كوتنبورغ وشوفر واشتغلوا في هذه
الصناعة سنة ٨٥٥هـ.

فعلى هذه الرواية أن أصل مخترع الطبع كان لوران فوستر وأما كوتنبورغ
وفوست فلهما المزية المبرورة في نشر هذه الصناعة لا في اختراعها. نعم إنه كان
يستعمل في الأزمنة القديمة آلات للطبع كالقالب الذي يطبع به الشيت وما
شابهه. وكانت صناعة حفر الخواتم من الصنائع القديمة أيضاً. غير أن صناعة
الطبع ليست في شيء من ذلك بل هي عبارة عن تركيب الحروف المصنوعة
وفكها، واختراع لوران فوستر لم يعلم من أي الأنواع هو؛ فلذلك يتعين أن
ينسب اختراع فن الطبع إلى كوتنبورغ.

ثم بعد أن علم الناس منافع الطبع ظهرت روايات لم تبلغ حد الثبوت تفيد أن
الصينيين أو عرب الأندلس هم أول من اخترع هذه الصناعة.

نعم إن الطبع بحروف مصنوعة من الخشب على أشكال مختلفة كان موجوداً
جارياً في الصين واليابان منذ ألف وستمائة سنة ومألوفاً في زمن اليونانيين وقدماء
الرومانيين. وقد وجد بين آثار هركولانوم التي في جوار نابولي في إيطاليا تذاكر

١ - أي العمال، جمع عامل.

دعوة مطبوعة. وهذا مما حمل البعض على القول بأن صناعة الطبع كانت معروفة عند الأوائل وأن تفصيلاتها وإن كانت مجهولة عندهم فإن ذلك مما يوجب الحكم بأن هذه الصناعة قديمة والذي يظهر أنها كانت من قبيل صناعة القالب والخاتم. أما فن الطبع المعروف الآن الذي هو عبارة عن ترتيب الحروف وتفكيكها فمخترعه الحقيقي هو كوتنبورغ.

والحاصل أن صناعة الطبع قد ظهرت في ماينس وبقيت جارية فيها متصلاً عملها إلى سنة ٨٦٧ كما قلناه، إلا أنه بسبب الحرب الواقعة يومئذ في مدينة ماينس والاستيلاء عليها تعطلت المطابع وتعطل عملها مدة ثم انتشرت بعد ذلك واستعمل في كثير من البلدان.

وبعد هذه الواقعة رجع فوست وشوفر إلى عملهما وفتحا مطبعتهما واشتغلا مقدار سنتين بعناء وصعوبة وطبعاً بعض الكتب. ثم سافر فوست المرقوم إلى باريس في سنة ٨٧١ وباع فيها نسخ التوراة المطبوعة، فافتى عليه جماعة من المتعصبين وقالوا إنه ساحر وأن الرسوم المصنوعة في نسخ التوراة المذكورة باللون الأحمر قد رسمت بدم الإنسان. فألقوه في السجن غير أن لويس الحادي عشر الذي كان ملكاً لفرنسا في ذلك الوقت كان له ولع عظيم بهذه الصناعة فأطلقه من الحبس بقصد الوقوف على سرها. ثم لم يلبث فوست أن توفي في باريس بعلّة الوباء. وبقيت المطبعة التي في ماينس لصهره شوفر، فاشتغل فيها مدة طويلة. وكان اسمه مسطوراً في الكتب التي طبعت إلى تاريخ سنة ٩٠٨. واستدل على وفاته في التاريخ المذكور بوجود اسم ولده زان شوفر منقوشاً على كتاب في فن الحكمة طبع في مطبعته سنة ٩٠٩، ثم انتشرت الصناعة المذكورة في جميع البلاد بعد وقعة ماينس واستعملت أولاً في إيطاليا ثم فرنسا. وراجت في فرنسا رواجاً عظيماً في مدة قليلة. ولويس الحادي عشر المشار إليه وإن كان سيء الخلق فإنه اهتم بنشر الصناعة المذكورة ورواجها. فجلب من ماينس ثلاثة أشخاص وباشر في طبع الكتب. ثم إن بعض الخطاطين في باريس لما رأوا أن صناعة الطبع تمس منافعهم الخصوصية من غير أن يلتفتوا إلى المنافع العمومية حضوا الأهالي على

إلغائها، فاجتمع منهم زمرة من المتعصبين واتهموا الأشخاص الثلاثة الذين أتى بهم لويس الحادي عشر لرواج صناعة الطبع بالسحر، وسعوا في منعهم من تعاطي هذه الصناعة وتأديهم . فصدر من البارلامنت إعلام يتضمن مصادرتهم وضبط أموالهم . غير أن الملك المشار إليه أنقذهم من هذه الورطة وجعلهم تحت حمايته وأعطاهم عدة امتيازات واقتدى به في ذلك لويس الثاني عشر وأعطى الطبّاعين والمجلّدين وسائر خدمهم امتيازات عديدة . وقد كثرت هذه الصناعة في زمن فرانسوى الأول ملك فرنسا الذي سار على سنن سلفائه في استحسانها فصدق على الامتيازات المعطاة لهم . وزاد عليها أشياء أخرى . ثم بعد ذلك تغيرت هذه الامتيازات وتبدلت وذلك لشكاية أساتذة مدرسة دار الفنون (صوريون)^(١) في باريس منها . وصار من الأصول القانونية أن يتعين (صانسون)^(٢) مفتش يقف على كل كتاب قبل طبعه .

وفي سنة ٨٧٦ انتشرت الصناعة المذكورة في إسبانيا ولم تعرف في روسيا إلا بعد ذلك بمائة سنة .

وأما في انكلترة فإن أحد الناس جلب إليها الحروف المصنوعة في سنة ٨٧٦هـ، غير أن ضباطها وحكامها حالوا دون استعمالها . وبعد ذلك تعلقت المهمة في إنشاء مطبعة في مدينة نورويك من أعمال انكلترة فقام ذوو العقول السخيفة من أهاليها وقدموا شكواهم لمجلس الأمة (البارلامنت) طلبوا منع هذه الفائدة العمومية زاعمين أنه لا يجوز استعمالها لأنها كثيرة الضرر قليلة النفع لا خير فيها . وفي خلال ذلك اتسع نطاقها وانتشر عملها في الآفاق شيئاً فشيئاً . والذين أتوا بعد ذلك قويت مهارتهم في تحسين الحروف وزخرفتها . وبلغت هذه الصناعة درجة الكمال خصوصاً الكتب التي طبعت سنة ١٠٠٠ في هولاندا فإنها وقعت عند أصحاب العلوم والمعارف موقع الاستحسان .

١- أي السوربون المعروفة حالياً .

٢- أي المراقب .

ومما يعتبر به، هو أن كثيراً ما يتفق للامة الذين هم في قلة العقل كالصبيان لا يعرفون منافعهم الشخصية أن يأتوا أموراً يجلبون بها منافع وأغراضاً لغيرهم من أهل المآرب وهم لا يعلمون أن ذلك يضر بهم كما وقع في أوربا. فإن كثيراً من النساخين حركوا الأهالي لمنع هذه الصناعة العائدة بالنفع العمومي فأجابوهم إلى ذلك وسعوا فيه غير أن الإرادة الإلهية قضت بعمران العالم في تلك العصور فلم يتمكن أحداً من منع ظهورها فانتشرت بسببها المعارف والعلوم، ولم يبق لأصحاب الأغراض تأثير في حركاتهم.

وأول ما ظهرت الرغبة في هذه الصناعة في دار السعادة من الممالك الشرقية غير أنها لم تبرز للوجود إلا بعد سنين عديدة. ولا يخفى أن السعى والاجتهاد في تحصيل العلوم والمعارف وانتشارها فرض. كما أن التشبث بالوسائل والأسباب التي عليها مدار انتشارها مطلوب بدليل ما ورد في فضائل العلم من الآيات والأحاديث الشريفة قال تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)^(١) وفي الحديث (اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد)^(٢) غير أنه لما كان الوقت غير مساعد لذلك ولم يحصل الاختلاط بالأوربيين فلم يراع الشرقيون الحكمة في قولهم (من عرف لسان قوم آمن من مكرهم) وحديث (اطلبوا العلم ولو بالصين)^(٣) ولذلك لم يصل ضياء شعاع مثل هذه العلوم والمعارف إلى الممالك الشرقية إلا بعد أن استنارت بها بلاد أوربا وانتشر ضياؤها في جميع أقطارها.

وكان ظهور هذه الصناعة في دار السعادة كما يأتي. وهو أن في مدة وجود

١- الآية بتمامها (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب) سورة الزمر، آية ٩.

٢- (اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد) ذكر غير واحد من المعتنين بالحديث أنه ليس بحديث وإنما حكمة على الألسنة، والله أعلم.

٣- (اطلبوا العلم ولو بالصين) رواه ابن عدي في الكامل، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، وحكم بضعفه كل من الإمام أحمد وابن الجوزي والألباني. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني (١/ ٦٠٠ رقم ٤١٦).

محمد أفندي المعروف باسم يكرمي سكر^(١) جلبي سفيرا في باريس كان معه ابنه سعيد أفندي الذي كان من خلفاء مكتوبي الصدارة وصار بعد ذلك صدراً أعظم فشاهد منافع الطباعة هناك. فلما عاد إلى الأستانة تذاكر في هذا الخصوص مع بعض أصحاب المعارف والفنون. فكان كل منهم يرغب في ذلك. وكان وقتئذ إبراهيم أفندي المجري المعروف بإبراهيم أغا أنكروسي، المتفنن في الرياضيات، الماهر في كثير من الفنون الشهير بالذكاء والإقدام موجوداً في الأستانة وأحسنّت الدولة إليه براتب ٩٩ درهماً من الفضة، سمى هذا الراتب متفرقه دركاه عالي^(٢) مكافأة له على خدمته فعرف باسم إبراهيم متفرقة. فجاء سعيد أفندي الموما إليه وبحث معه في إظهار صناعة الطبع في دار السعادة^(٣) فأفاده بأنه يستطيع على إخراج هذه الصناعة من القول إلى الفعل إذا حصلت المساعدة بالمال. فكتب تقريراً ورفع لإبراهيم باشا صهر الذات الشاهانية ملتمساً منه رخصة بطبع كتب الحكمة واللغة والتاريخ والطب والهيئة وسائر الفنون ما عدا كتب التفسير والحديث والفقه والكلام. وكانت جرت المذاكرة قبل ذلك في دار السعادة باستعمال هذه الصناعة، ولكن لم يتجرأ أحد على إجرائها، فتردد وكلاء الدولة في إجابته فأصر سعيد أفندي على ذلك وأعانه الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وكتب بعض علماء العصر وعبد الله أفندي شيخ الإسلام عدة تقارير بليغة على تلك العريضة وذلك في خلال سنة ١١٢٩. ثم أفتى عبد الله أفندي شيخ الإسلام بإجراء هذه الصناعة، فصدر الفرمان العالي موقعاً بالخط الشريف^(٤) خطاباً إلى سعيد أفندي وإبراهيم أفندي بالرخصة في طبع سائر الكتب سوى كتب التفسير والحديث والفقه والكلام.

١- يكرمي سكر : وتعني الرقم ٢٨ في اللغة التركية وله رحلته المسمى باسمه، يذكر فيه ما شاهده أثناء وجوده في باريس بشيء من التفصيل.

٢- متفرقة دركاه عالي: بمعنى راتب الباب العالي، الدراري اللامعات، ص ٢٤٩.

٣- حول هذا الموضوع بنوع من التفصيل انظر: إبراهيم متفرقة وجهوده في إنشاء المطبعة العربية في إسطنبول/ سهيل صابان، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٥هـ.

٤- في عهد السلطان أحمد الثالث في سنة ١١٢٩هـ.

وعلى هذا لم يبق من محذور يحول دون همة إبراهيم أفندي وعزمه ولم يقصر سعيد أفندي في الإعانة بالمال اللازم فبذل هذان الغيوران وسعهما مدة سنين وأسساً مطبعة وجلبا آلات وأدوات حسنة جداً وسكبا قوالب للحروف .

وعين إسحاق أفندي قاضي استانبول السابق، وييري زاده صاحب أفندي الذي عزل من سلاطيك، وأسعد أفندي اليانيلي الذي كان معزولاً من غلطة وموسى أفندي شيخ مولوية قاسم باشا مأمورين بتصحيح الكتب المطبوعة . وفي سنة ١١٤١هـ طبع من كتب اللغة أكثرها لزوماً والتي كان الطلبة يعانون شدة في اشتراكها من كتب اللغة وهو قاموس وأنقولي^(١) في مجلدين فبيع كل نسخة منه بخمسة وثلاثين قرشاً، وهي بمنزلة أربعمئة قرش في هذا العصر، ومن أراد الاطلاع على صور الفتوى الشريفة والفرمان العالي والتقايرظ المحررة على التقرير المذكور فليراجع ذلك الكتاب فإنها مكتوبة في أوله^(٢) .

وفي تلك السنة أيضاً طبع كتاب تحفة الكبار^(٣) أثناء تصحيح القاموس وذلك لكي لا يتوقف عمل المطبعة . ثم طبع تاريخ الأفغان الذي ترجمه إبراهيم أفندي^(٤) من اللاتيني . وفي سنة ١١٤٢ طبع تاريخ الهند الغربي، وتاريخ تيمور لنظمي زاده، وتاريخ مصر القديم والجديد لسهيلى . وفي سنة ١١٤٣ طبع كتاب كلشن خلفاً^(٥) لنظمي زاده، ثم كتاب نظام الأمم وفيوضات مغناطيسية لإبراهيم

١- قاموس وان قولي : ترجمة تركية لكتاب صحاح الجوهري في اللغة (العربية) ترجم بواسطة الفقيه الأديب وأنقولي محمد بن مصطفى الواني، وهو أحد العلماء في عصر السلطان مراد الثالث . توفي سنة ١٠٠٠هـ . وهذا الكتاب هو أول كتاب يطبع في البلاد العثمانية . عثمانلي مؤلفري ج-٢، ص ٤٨ .

٢- توجد نسخة من هذا الكتاب النادر في قاعة الكتب العثمانية والتركية بمكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض .

٣- تحفة الكبار في أسفار البحار، لمصطفى بن عبد الله كاتب چلبى (١٠١٧-١٠٦٧هـ) المعروف بالحاج خليفة، مؤرخ بحاث، مولده ووفاته في إستانبول . الأعلام، ج-٧، ص ٢٣٦ .

٤- أي إبراهيم متفرقة .

٥- كلشن خلفاً: (بمعنى حديقة الخلفاء) للمؤرخ العثماني نظمى زاده حسين مرتضى أفندي، ت ١١٤٣هـ . عثمانلي مؤلفري، ج-٣ ص ١٥٢ .

أفندي، وكتاب جهانما للكاتب جلبي. وتقويم التواريخ، وتاريخ نعيما، وتاريخ راشد، وذيل جلبي زاده، وتاريخ عمر أفندي المتعلق بغزوات بوسنة، وكتاب فرهنك شعوري.

وعدا عن ذلك فقد حفر إبراهيم أفندي حروفاً فرنسوية وطبع خريطتي البحرين الأسود والخزر باللغتين التركية والفرنسوية. ثم توفي سنة ١١٥٨. وخلفه إبراهيم أفندي القاضي، فطبع قاموس وانقولي مرة ثانية، وكتباً أخرى. إلا أنه وجد في طبع هذه الكتب كثير من الغلط والسهو مع رداءة الحروف.

ثم توفي إبراهيم أفندي حينما كانت الدولة العلية مشغولة بمشاغل كلية فلم يكن لها وقت أن تأذن في العمل من بعده لأحد. فبقيت المطبعة المذكورة معطلة مدة مديدة. ثم فتحت في سنة ١١٩٨ كما سنورده، فطبع فيها تاريخاً صبحي وغري، وكتاب أصول المعارف في ترتيب المعسكر، وكتاب إعراب الكافية ورسالتان في فن الألغام والحرب للمرشال وبان، وترجمة قوانين الملاحاة للموسيو تروكه، وأصول المعارف في ترتيب الأساطيل. وهذه الكتب لم تطبع خالية من الغلط كالكتب التي طبعها إبراهيم متفرقة.

ثم صبت حروف جديدة بنظارة عبد الرحيم أفندي عندما اشتدت الرغبة في رواج الأمور النافعة أيام الدور السليمي،^(١) فأست مطابع جديدة في أسكدار وقمبره خانه، وطبع فيها من الكتب المفيدة نحو من خمسة وأربعين كتاباً، وأنشئت مطابع جديدة أخرى، وبلغت الصناعة المذكورة بالتدريج في دار السعادة إلى الدرجة التي نشاهدها الآن.

١ - الدور السليمي: أي عهد السلطان سليم الثالث (١١٧٥هـ-١٢٢٣هـ).

ولا يخفى أن الرخصة الممنوحة لإبراهيم أفندي وسعيد أفندي لا تشمل طبع التفسير والحديث والفقه والكلام كما هو مقتضى الفتوى الشريفة التي صدرت على حسب استدعائهما كما ذكرناه وذلك حذراً من اعتراض أصحاب التعصب. فمضت مدة طويلة لم تطبع بها كتب شرعية ولم ير علماء أصول الفقه من بأس بطبع الكتب الشرعية وإن كان فيه أعمال تخل بتعظيمها وذلك استناداً على القضية المسلمة عندهم وهي «الأمور بمقاصدها». فإنهم بناء على هذه القضية أجازوا تجليد القرآن الكريم خوفاً من شتات أوراقه وضياعها مع أن في التجليد أموراً تخل بالتعظيم أكثر من الطبع مثل الرض بالمطارق والتضييق بالملازم. وللمقاصد الخيرية في تكثير الكتب نوّعوا طبعها تعميماً لمنافع الطلبة فاستفاد من ذلك جميع أصحاب الفنون. ولنرجع الآن إلى بحثنا^(١).

[الدولة العثمانية في منتصف القرن الثاني عشر الهجري]

وفي عصر حضرة السلطان محمود خان الأول،^(٢) صاحب الغيرة والإقدام والشأن العظيم، فتحت فتوحات عظيمة وجرت وقائع جسيمة. فإنه ساق العساكر إلى الشرق والغرب، وأتى بأعمال كبيرة تدل على ما عنده من الغيرة وعلو الهمة.

وذلك أنه حارب نادر شاه عدة حروب أولاً وآخرأ. فعين عثمان باشا الأعرج سر عسكراً لجهة المشرق فغلب نادر شاه وظفر به بعد امتداد المحاربة في صحراء كركوك^(٣) نحو تسع ساعات. ففر نادر شاه مجروحاً وأمسى أكثر بلاد إيران خراباً. ثم جرت بين نادر شاه والعثمانيين حروب عديدة كانت بينهما سجالات، وذلك ناشيء عن إنكار المذهب الخامس الذي انتحله نادر شاه. وفي آخر الأمر عقد الصلح على الحدود بين الفريقين على أساس المعاهدة التي عقدت سابقاً في ١- انتهى هنا ما يتعلق بالطباعة بعد استطراد المؤلف حول هذا الموضوع الذي استغرق ثمان صفحات تقريباً.

٢- السلطان محمود الأول (١١٠٨هـ-١١٦٨هـ) السلطان العثماني الرابع والعشرون. حكم لمدة

خمس وعشرين سنة. إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٦.

٣- مدينة تقع في شمال العراق الآن.

عهد السلطان مراد الرابع.^(١) فأخذ بعد ذلك نجم نادر شاه في الأفول وخرجت خانات إيران عن طاعته واحداً بعد آخر ولم يمض قليل من الزمن حتى قتله ذووه وانتهى أمره.

وأما الخدم المبرورة التي أجراها أحمد باشا الذي كان والياً على بغداد أثناء هذه الحروب فهي مسطورة في صحف التواريخ.

وعندما انتشبت الحرب بين أوستريا والدولة العلية في سنة ١١٤٨ هـ. اتفقت حنة أيضاً قيصرة الروسية مع أوستريا، فسأقت عسكرها على الدولة العلية بقيادة الجنرال مونيخ. وقد أعلن الجنرال مونيخ أنه سيحيى بها دولة الروم القديمة فاشرأبت نفوس الروم إلى هذا المأمول وتلقى أهالي بغداد عساكر الروس عند دخولها إلى بلادهم بالقبول، ففشل المسلمون وهزموا لأن عساكر الدولة العلية وقتئذ كانت مختلة النظام فلم تستطع مقاومة العساكر المعلمة. ثم إن الجنرال مونيخ تصور في أفكاره أن يقطع نهر الطونة. وأما حضرة السلطان محمود خان المشهور بالغيرة والإقدام فقد استفاد من صلابة وغيره العثمانيين الذين لم يسر الخلل في عروق حميتهم وأعصابها فتغلب بهم على أوستريا واسترد بلغراد. وفي أثناء ذلك توسطت دولة فرنسا بين الروس ودولة إسوج^(٢) التي قامت على روسيا فعقدت المصالحة بينهما في سنة ١١٥٢ هجرية وبقيت بلغراد في يد الدولة العلية وتخلصت دولة الروسية من العار والذل الذي لحقها في مصالحة بروث.

وفي هذه الحروب قام علي باشا حكيم زادة ومحمد عوض باشا بخدمات مبرورة تتزين بها صحف التواريخ. ولما ظهرت فوائد العساكر المعلمة في هذه

١- ربما أخطأ المترجم أو أن هناك سقطاً في الطباعة إذ كتب «وفي آخر الأمر في عصر السلطان مراد الرابع عقد الصلح على الحدود بين الفريقين..» وهذا بنصه خطأ تاريخي. ولذلك أصلحنا العبارة على النحو التالي «وفي آخر الأمر عقد الصلح على الحدود بين الفريقين على أساس المعاهدة التي عقدت سابقاً في عهد السلطان مراد الرابع..» انظر النسخة الأصلية التركية، ص ٦٢، وانظر حول هذا الموضوع، إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

٢- إسوج: أي دولة السويد.

الحروب رغب السلطان محمود الأول في ترتيب عساكره وتعليمها غير أن الدولة العلية وقعت يومئذ في المشاكل الداخلية فلم توجه أفكارها إلى ذلك بل بقيت هذه المسألة دائرة بين الألسنة.

والحاصل أن الدولة العلية نالت حياة جديدة في مدة حضرة السلطان محمود خان الأول الذي استمر ملكه ٢٥ سنة وخرج من عهدة الوقوعات الجسيمة. ومن أمعن النظر في التواريخ علم أن تلك الوقائع جرت حينما كانت الدولة ضعيفة وكان المسلمون في حال ضجر وفتور، وأن دفاعها كان ناشئاً عن علو همة الحضرة السلطانية وغيرها. ولو لم يكن الأمر كذلك لكانت الدولة ساعدت أهل أذربيجان الذين طلبوا حمايتها ومعونتها عندما أصبحت ممالك إيران بعد نادرشاه فوزى لا حاكم لها، ولكانت استولت على كثير من بلاد إيران.

ثم توفي السلطان المشار إليه سنة ١١٦٨ هجرية وجلس مكانه أخوه حضرة السلطان عثمان خان الثالث. وفي سنة ٧٠ صار راغب باشا المشهور صدراً أعظم. وفي سنة (٧١) توفي السلطان عثمان وجلس السلطان مصطفى خان الثالث ابن السلطان أحمد الثالث فأبقى راغب باشا في الصدارة.

وكان راغب باشا يذهب بنفسه إلى غزوات الروم إيلي والشرق فوقف على حقائق الأحوال، وفي مدة صدارته وهى ست سنوات حافظ على السلم واجتنب الحرب. حتى إن حضرة السلطان مصطفى تحركت نفسه إلى إيقاد نار الحرب مراراً وقال إذا كان المقصود هو الدراهم فإني أقوى على بسط بساطين من الذهب أفرشهما من باب أدرنه إلى روسجق. فراجع راغب باشا وقال إن دولتك العلية هي غضنفر حرب ووعى، كما أنها مهابة في أنظار الأجانب لما سبق لها من الوقوعات الجسيمة غير أن مخالبتها الآن مكسورة فإذا علم بها الأعداء عند الحرب وقعنا في الحيرة، فالأولى أننا ننظم العسكر أولاً ثم ننظر في أمر الحرب. فعلم مما ذكر أن هذا الصدر قد نصح بكلامه هذا في خدمته للدولة إذ لولاه لخيف أن يقع

نظير ما وقع في حرب روسيا سنة ١١٨٢هـ، وعلى كل حال فإنه لم يوفق لإنقاذ المال المذكور في تنظيم العساكر.

قال شاني زاده^(١) إن العقلاء صاروا يشمئزون من الحروب بعد تاريخ ألف ومائة حتى إن راغب باشا اجتنب الحرب أيام صدارته. رحم الله امراء عرف قدره ولم يتعد طوره. انتهى.

والحاصل أن وكلاء الدولة وعقلاءها الذين صرفوا أوقاتهم في معامع الحروب أيام السلطان محمود الأول، كانوا جانحين إلى جانب الصلح لأنهم علموا أن الدولة كانت تقع في إشراك المشاكل عند فتح الحروب بسبب الخلل الذي ألمّ بأصولها ونظامها القديم وبإهمال تنظيم العسكر مدة مديدة وقد ألف الناس الراحة والسكون. وأما الأعداء فإنهم ترقوا بتنظيم جندهم وتضلعهم في معرفة الفنون الحربية. ومن المسلم أن أهم الأمور للدولة العلية تجديد تنظيمات العسكرية غير أنه لم يتشبث أحد به على أهميته اتباعاً للأحوال فكانت الأمور حينئذ تجري في أعنتها.

وفي ذلك الوقت كانت نوبة قاترينة الثانية^(٢) في حكومة الروسية والمشار إليها لم تكن من ذوي النسب المعتبر من أنساب الروسية إنما كانت زوجة بطرس الثالث حفيد دلي^(٣) بترو فقامت عليه وخلعته بالحيلة والدسائس وصارت امبراطورة عوضه، ثم قتلتها حذراً من غدره بها فصعب هذا الأمر على الروسيين فأرادت أن تستر قبائحها بتجشم الوقائع الجسيمة وعزمت على إجراء ما كان دلي بترو عازماً عليه ولم يجره وهو التعرض لبلاد (له) والممالك السلطانية فأدخلت جندها في لهستان أولاً، ثم تداخلت في أمورها فكان ذلك مخالفاً لما انعقدت

١- صاحب كتاب تاريخ شاني زاده. وقد سبق ذكره في الحواشي.

٢- كاترينا الثانية (١٧٢٩-١٧٩٦): المعروفة بالكبيرة. إمبراطورة روسيا ١٧٦٢م. اشتهرت

بحروبها وانتصاراتها على العثمانيين. المنجد ص ٤٤٧.

٣- ولي بمعنى المجنون والمعتوه. الدراري اللامعات ص ٢٥٥.

عليه المعاهدة الهمايونية ومضراً بالدولة العلية وكان يقتضي منع ذلك ولكنها كانت يومئذ ضعيفة محتاجة إلى تنظيم عسكرها.

وكانت السياسة والموازنة الدولية تقضيان على دول أوروبا جميعاً بتعرضها لقاترينه وحملها على الوقوف عند حدها. ومع ذلك فلم تهتم لهذا الأمر بل وجه كل منهم اهتمامه الى منافعه الخصوصية. وقد كان بين فرنسا وبين قاترينه فتور وضغائن، فرأت أن عاقبة هذا الأمر وخيمة فلم تر بداً من محاربتها فحضت الدولة العلية بواسطة سفيرها في الأستانة على الحرب مع علمها أن الدولة العلية لا تقوى على اقتحام نارها ولكنها أرادت أن تغتنم بذلك فرصة تشغل فيها روسيا مدة من الزمن. وكان راغب باشا قد توفى ففتح ميدان واسع لأرباب التملق والمداينة فكانوا يحسنون الحرب لذوي الوجاهة وهم لا يعلمون منها سوى لفظهاً ولا يدركون ما يقتضي لها من المهمات والذخائر. فأمست الحرب على الأبواب وعقد العزم على إعلانها على روسيا. وكان إذ ذاك محسن زادة محمد باشا صدرراً أعظم. وكان قبل ذلك في أيام الشبيبة جال في بلاد الروم إيلي وأطرافها ووقف على حقيقة أحوال عساكر الروسية وانتظامها ورأى عياناً أحوال حدود تلك البلاد، فمانع في إعلان الحرب وقال إن حدودنا خالية من الذخائر والمهمات والعساكر فإذا أسرع بإعلان الحرب يخشى من وقوع العسكر الهمايوني فيما لا خير فيه قبل أن يصل إلى الأعداء. فالأجدر بنا والحالة هذه أن نصرف مدة من الزمن في بناء الاستحكامات وتحصينها على الحدود وإكمال مهمات العسكر ثم نعلن الحرب في السنة الآتية إن شاء الله. فرماه بعض رجال الدولة والأعيان بالجن والإهمال وكانوا سبباً في عزله. ثم شوقوا حضرة السلطان مصطفى خان الثالث إلى الحرب توصلاً إلى منافعهم الذاتية، فأعلن الحرب على الروسية وذلك في سنة ١١٨٢هـ فنالوا بها أمانهم ورغائبهم وفتحوا جراحاً عظيماً في جسم الدولة. ثم إن حضرة السلطان زحف على روسيا بعسكر جرار لكنه غير منتظم

فلم يقو على مقابلتها لقوة عسكرها وحسن انتظامها وزيادة على ذلك أنه انتشر القحط والغلا في الممالك الشاهانية وكان العسكر الهمايوني إذ ذاك في أدرنه وعندما قطعوا نهر الطونة كانت إدارة العسكر إسماً بلا جسم وظهرت فيهم آثار الضعف والتلاشي .

هذا وإن قريمكر أي خان ^(١) شن الغارة على ممالك الروس ونهبها آتياً من ورائها وجاء قسم من عسكر الإسلام من الأمام ماراً بنهر الأوزي وضيقوا على الروس وجاء عسكر السردار إلى أطراف خوتين وشيد جسراً على نهر طورله فأخذ عسكره في التقدم فنشأ عن هذه الحوادث هول ودهشة في بطرسبرج، وكادت تكون سبباً للاختلال فيها، غير أن قريمكراي خان توفي، وكان خلفه بطيء الحركة فلم يقدر على القيام مكانه، وفي تلك السنة هاجت الأنهر وفاضت قبل أوانها ففرقت العساكر الإسلامية إلى أقسام شتى وأتلقت أكثر مهماتها . فكان في ذلك فائدة عظيمة لعساكر الروسية واقتفوا آثار العساكر الإسلامية إلى جهة الطونة . قال بعض مؤرخي أوربا أن طغيان نهر أوزي وفيضانه قبل وقته قد أنقذ قاترينه من التهلكة . كما أن غفلة محمد باشا بالطه جي أنقذت الروس من الوقوع في الاضمحلال في وقعة بروث ^(٢) فبموت قريمكر أي خان، استفاد الروس فائدة عظيمة .

وبهذه الأسباب المذكورة اضمحلت العساكر الإسلامية كما قلنا . ثم إن المعسكرات التي كانت تترتب بعد ذلك في كل سنة ويحصل لها الظفر في بعض الأحيان كانت في عاقبة الأمر تتوالى عليها الهزيمة . وبالجمله فقد تلاشى أمرها وذهب جميع ما كان في قبضتها من القلاع والبقاع في الجهة المقابلة للطونة . وكان أسطول الروس الذي جاء من بحر بلطق ألحق بجزائر البحر الأبيض خسائر كلية . وفي سنة ١١٨٥ خرج القرم بالكلية من يد الدولة العلية .

١- راجع ما يتعلق بنشاط خانات القرم في فصل أحوال القرم والتتار من هذا الكتاب .

٢- أي في الوقعة السابقة مع الروس سنة ١١٢٢هـ .

وألفت يومئذ رسالة بعنوان (لا أدري) ذكر فيها سوء معاملة أركان الدولة وأحوال العسكر الهمايوني وحركاته . وصاحب هذه الرسالة غير معلوم ، والذي يظهر من إفاداته أنه كان من أرباب الوقوف على حقيقة الأحوال فقد قال في رسالته إن العساكر من ذوي العلوفة ^(١) وأصحاب التيمار ^(٢) والزعامة القائمين بقوة الدولة وعصبيتها في القديم كان إقدامهم على الحرب إما لحماية دمار ديانتهم وإما لتحصيل العواطف الشاهانية المخصوصة بهم أو على خوفهم من التأديب . فلم يبق الآن من الرجال الذين يجاهدون في سبيل حماية الدين إلا القليل ، وذلك لأن الزعامة والتيمارات والعلوفة وسائر المرتبات السلطانية إنما تنال الآن بالدراهم والشفاعة والمحسوية بلا كلفة ، فلم يبق لذلك داع إلى تشوق الرجال إلى الحرب لحماية الدين فدخل الخلل في نظام العسكر ^(٣) انتهى .

وتفصيل أحوال هذه الحروب وزلات رؤسائها مذكورة في هذه الرسالة وفي رسالة رسمى أحمد أفندي المسماة خلاصة الاعتبار ^(٤) وفي سائر التواريخ . ثم إنني رأيت بعض إفادات علاوة على ما ذكره في بعض الرسائل المتعلقة بأحوال قريم فاردت أن أذكرها على وجه التفصيل هنا .

وهي إن خانات القريم ^(٥) كانوا يقيمون أكثر الأوقات في قوشان وكانت الدولة العلية غير ملتفتة لمراقبة أحوال تلك الجهات كما ينبغي ، فانتهز جواسيس

١- ذوو العلوفة : الفرسان الذين يتقاضون مرتبات . يلماز اوزتونا ، مرجع سبق ذكره ص ٣٨٨ .
٢- التيمار : إقطاع كان يعطى للعساكر في ذلك العهد . الدراري اللامعات ، ص ١٨٢ .
٣- ما ذكره صاحب هذه الرسالة يشير إلى الأسباب العميقة لضعف الدولة العثمانية بسبب الخلل الذي حل في النظام العسكري .

٤- راجع ما يتعلق بهذه الرسالة في هوامش بداية الكتاب .

٥- القريم أو القرم : شبه جزيرة في شمال البحر الأسود ، على الحدود الجنوبية لروسيا . معظم سكانها من التتار المسلمين ، الذين حكموا في السابق أراضي واسعة من البلاد الروسية ، يطلق على حكامها لقب خان (خانات القرم) . دخلت القرم في حوزة العثمانيين في سنة ٨٨٠هـ . وأول الخانات الذين دخلوا تحت التبعية العثمانية هو منكلي كراي أحد أحفاد چنكيز خان . قاموس الأعلام ٥ / ٣٦٥٠-٣٦٥٤ .

الروس الفرصة وبثوا الفساد في قلوب أمراء القريم ورؤسائها ووعدوهم بالحرية كما يرغبون فصار التتار يتمنون إبعاد الجنود الشاهانية من هناك وينظرون إلى السلاحدار إبراهيم باشا سر عسكر القريم شذرا، حتى أبوا عليه إعطاء العربات التي طلبها منهم لنقل المهمات العسكرية وقالوا لا يلزم لنا عساكر عثمانية. وكان التاتار عاقدوا الروس على الوفاق خفية عن العثمانيين فصاروا يتمتعون من إمداد المعسكر الهمايوني بل كانوا يسعون في انهزامه كيفما كان، وكثيراً ما كانوا يتمسكون بأهداب السكون ويتركون الجنود الشاهانية تحارب الروس وحدها على قلة عددها، وكانت مهمات المعسكر الهمايوني غير كافية للقيام بشؤونه، ومع ذلك فقد كان الدفتردار وأمناء النزل أي الأرزاق يبدون ويسرفون فأضاعوا الأموال في غير طائل. وأصبح المعسكر الهمايوني في حالة سيئة. على حين كان السلاحدار إبراهيم باشا لا يفتر قط عما فيه المصلحة حتى إنه لما هجم الروس على قلعة أور سنة ١١٨٤ نقل عسكره إليها وتحمل مشقة عظيمة وظفر بالروس وغلبهم واستمال التاتار إلى الدولة العلية. ثم إنهم مالوا إلى الروس مرة ثانية عندما انتشرت الأراجيف. بانهزام المعسكر الهمايوني واستيلاء الروس على بندر وسائر القلاع.

وقال بعض مؤرخي قريم أنه لما جاء خان القريم إليها وهو قبلان كراي خان الثاني استعد فيها للحرب والنزل فتمكن من فصل طائفة قالموق عن روسيا وضمها إليه وقرر أنه يسير بها إلى جهة قوبان غير أنه عزل في شعبان سنة ٨٤. وقد ظهر في تحقیقات أمثال الرجال الذين وقفوا على أحوال القريم أيام كانوا في المعسكر الهمايوني أن تاتار نوغاي اتبعوا روسيا أولاً وذلك عندما انتشرت تلك الأراجيف المذكورة آنفاً ثم جاء خان القريم حاكمها قبلان كراي خان الثاني وقابل السر عسكر باشا ثم سار إلى بقجه سراي^(١) فجمع أعيان القريم وبيّن لهم أحوال

١- باغجه سراي: مدينة في جنوب شبه جزيرة القرم. وهى المقر الرسمي لحانات القرم.

نوغاي ولزوم التجائهم إلى روسيا حفظاً لنفوسهم وأموالهم وأمر بكتابة عرض محضر ختمه هو ورفعته إلى أعيانهم فختموه أيضاً وبعد حين من الزمن جاء خبر عزله، فجمع الأمراء والأعيان وقال لهم قد عزلوني فهل أذهب أم أجابو فأجابوه باستحسان ذهابه وقالوا إن أكثر أهل القريم يجهلون ما عقد بيننا وبين الروس من الوفاق، فإذا جاء الخان الجديد أصبح أهل القريم فريقين فتساعد الجنود العثمانيين فريقاً منهم وتنال الغلبة فنبقى نحن حينئذ موضوعاً للتهم؛ ولكن إذا هزمت الجنود العثمانية وغلبت بدون مداخلتنا يكون العذر لنا، فركب الأمير المشار إليه السفينة التي أتى بها المأمور بعزله وسافرا معاً، وعين عوضه سليم كراي خان الثالث وقد صرف السر عسكر فصل الشتاء في ناحية كفه، غير أن المعسكر الهمايوني قد زاد احتياجه يوماً بعد آخر إلى المهمات والدراهم، وقبل ذهابه إلى كفه رهن السر عسكر جميع مجوهراته وما تملكه يده حتى خاتمه لتدارك أمر العساكر التي تبقى في قلعة أور لأجل المحافظة عليها، وبعد ذلك سار إلى كفه وتكبد مشاقاً وصعوبات كثيرة، وقد كان طلب مرات من الأستانة الدراهم والذخائر والمهمات الكافية للعسكر في سنة ١١٨٥، فتأخر ورود الأسطول الهمايوني إلى أن مرت ثلاثة أشهر من فصل الربيع والمهمات والذخائر التي أحضرها الأسطول العثماني لم تكن كافية للقيام بما يلزم للجند فكان ذلك باعثاً على ظهور الاختلال وسيء الأحوال يوماً فيوماً.

والغريب أنه صدر الأمر بإرسال سفينة من كفه إلى قلعة فاش لنقل الشعير والدقيق من القلعة المذكورة إلى معسكر القريم وهذا الشعير والدقيق كانا باقين من مؤونة معسكر أخسخره لسنتي ٧٨ و٧٩. والحال أن نقلها يستغرق شهرين ومع ذلك، فإن السر عسكر الذي كان وقتئذ والياً على الأناضولي، وكان عالماً بأنه لا أثر لهذه البقية لأن الأمر كان صدر بإعطائها إلى والي جلدر المأمور في ذلك الوقت لمحاربة بلاد الكرج، ففتش عليها فلم يجد منها شيئاً وقد أرسل بذلك

تحريراً على يد السرعسكر المشار إليه إلى الأستانة. ومن هنا يعلم ما كان عليه مأموروا الأقلام التهاون في الأمور فإنهم حولوا الحبوب التي لا وجود لها إلى القريم بعد أن حولوها إلى والي جلدر قبل ذلك ولم ير لها أثر، فساء ذلك السر عسكر وحدث به بعض خواصه وهو متأثر ممتلىء غيظاً على هذه الأحوال وازداد غيظه مما بلغه من أن محمد باشا أبازه محافظ قلعتي الجديدة وروباتي ووالي كفه طلبه أن يكون سر عسكر بدلاً منه حسداً له فوقع لذلك التضامن بينهما. فأصدر السر عسكر المشار إليه أمراً إلى محمد أبازه بالذهاب إلى محافظة القلاع المذكورة فلم يقيم بإيفاء مأموريته وادعى أنه ليس عنده دراهم ولا مهمات.

وفي ذلك الوقت حضر كتاب من سليم كراي خان إلى السر عسكر المشار إليه يخبره بدخول الروسيين إلى قلعة أور ويوعز إليه باقتفاء آثارهم فامتنع العسكر والإنكشارية حينئذ من الذهاب وقالوا إنه لا يوجد عندنا عربات لنقل المعسكر. غير أن السر عسكر لم يعبأ بقولهم بل تقرر لديه أن يأخذ بطانته وقسماً من الجند المسمى سباه^(١) ويقابل بهم الخان المشار إليه وقد كتب له بذلك، ثم إنه وإن يكن خرج من كفه قاصداً قلعة أور فإن الأمراء خدعوا الخان بقولهم إن الشهرة في الحرب أصبحت منذ سنة أو سنتين للعثمانيين فإذا كان الأمر كذلك فالأولى بنا أن نذهب وحدنا ونكتسب هذه الشهرة فدخل على الخان الغش والخداع نظراً لغفلته وسذاجته، فلم ينتظر قدوم العثمانيين بل أسرع بالذهاب إلى قلعة أور على قصد نوال تلك الشهرة، فلما وصلها خرج قسم من أهلها لملاقاته. والقسم الآخر فتح القلعة للروس وأدخلوهم إليها، فلما رأى الخان ذلك أركن إلى الفرار أما العساكر الذين كانوا في قلعة أور فقد استشهد أكثرهم وأصبحت القلعة في يد الروس وهي بمثابة مفتاح للقريم فتسلطوا على جميع القلاع المجاورة لها فتشتت شمل الأهالي، فلم يقو سليم كراي على البقاء في القريم مع هذه الحال فذهب

١ - تقدم شرحه.

إلى دار السعادة راكباً إحدى السفن ، وأقام الروس حاكماً في القريم صاحب كراي خان الثاني بانتخاب بعض الأهالي، فعين هو أخاه سلطان شاهين كراي في منصب قالغاي.^(١)

وقد أظهر السر عسكر المشار إليه غيرة وشجاعة وثبت أمام الروسيين، فجاء شاهين كراي سلطان الموما إليه الذي هو في منصب قالغاي بعدد كثير من جند التتار وأعلن المعاهدة التي عقدت بينهم وبين الروسيين ثم بين للعسكر الهمايوني وجوب رجوعه وأنذرهم بالنهب والاستيلاء على مهماتهم إذا لم يرجعوا فركب الجند القوارب علناً وأخذوا ينهزمون وفر أيضاً محمد باشا والي كفه عندما ساعدته الرياح فلم يبق إلا السر عسكر إبراهيم باشا السلحدار مع بطانته فثبت في وجه العدو ثم أسر وأخذ إلى بطرسبرج.^(٢)

وعقد التاتار مع الروسيين معاهدة على شروط عديدة وذهب شاهين كراي مفوضاً من قبل أخيه إلى بطرسبرج يصحبه خمسون أو ستون شخصاً من كبراء التتار لتسوية بعض مواد لم يحصل الاتفاق عليها في القريم. فكتبت الروسية سنداً اشترطوا فيه أن يكون أهالي القريم تابعين لها إذا عقد الصلح بينها وبين الدولة العلية وكلفتهم ختمه فختمه شاهين كراي وأما الأعيان فإنهم أمعنوا النظر فوجدوا عاقبة هذا الأمر وخيمة فرفضوا وضع أختامهم فيه خلافاً لما فعل شاهين كراي، ثم تركوه في بطرسبرج، وجاءوا القريم فبينوا واقعة الحال فتشتت أهالي القريم فرقاً ولحقوا بالجلال وأخذوا يجمعون العسكر، إلا أن الدولة الروسية كانت وقتئذ استولت على جميع الجهات فلم يفوزوا بالمرغوب وبقي الأمر على هذه الحال من الاضطراب حتى عقدت معاهدة الصلح، وفي خلال ذلك جاء شاهين كراي إلى القريم رأساً فلم يدخل إليها لشدة الخوف الذي اعتراه ولا قابل أخاه

١ - (قالغاي) و(نورالدين) ألقاب مناصب كان يستخدمها خانات القرم. قاموس الأعلام ٥/ ٣٦٥٤.

٢ - عاصمة بطرس الأكبر قيصر روسيا. أسسها سنة ١٧٠٣م، وهي اليوم لينينغراد، المنجد ص ١٣٠.

صاحب كراي ثم اضطر إلى الإقامة في قلعة بالطوه فأقام فيها إلى أن عقدت معاهدة الصلح المذكورة.

وعلى هذا الوجه دخلت القريم في يد الروسيين واستولوا على جميع جهاتها كما هو مسطور في التواريخ. ولما استولت روسيا على الجهة الشرقية من الطونة طلبت الصلح أواخر سنة ٨٦، وذلك في أيام صدارة محسن زاده الثانية، فوافق أركان العسكر الهمايوني على ذلك، حيث إنهم رأوا الصلح ضرورياً ف عقد من الطرفين مجلس مفاوضة ومخابرة في بكرش.^(١) وكتب المرخص عبد الرزاق باهر أفندي عهداً وأرسلت صورته إلى دار السعادة. ومن جملة المواد المذكورة فيه: حرية التتار وبقاء قلعة بكرش ويكي قلعة في يد الروسية وسير سفن تجارها في البحرين الأبيض والأسود وحرية تجارتهم. ف اتخذت الروسية هاته المواد أساساً للصلح ولا سيما حرية التتار فإنها كانت أقصى آمالها ولنيل هذه المقاصد أظهرت التساهل وخيرت الدولة في هدم قلعة قلوبون أو إبقائها وأبقت ضرب السكة والخطبة باسم السلطان الأعظم في قريم وأجازت بناء قلعة في الجزيرة الواقعة بين يكي قلعة وطمان حتى لا تنقطع علائق الدولة العلية من القريم بالكلية، وتجاوزت عن الخمسين ألف كيس من النقود التي كانت ضربتها على الدولة في مقابلة نفقة الحرب - غرامة حربية- وأظهرت التساهل لذلك.

ولما كان الأعيان والكبراء في الأستانة وليس لهم علم بحال العساكر الهمايونية فلم يستحسنوا ما أجراه أركان المعسكر المذكور من قبول هذا الصلح وأنكروا قبول حرية القريم وسير السفن فأعادوا الحرب. وفي الواقع أنه لم يكن للروسية من مقصد في إصرارها على إعطاء الحرية للتتار إلا لإلقاء الفتنة والفساد في القريم كما فعلت من قبل في لهستان ولكي يتسنى لها أن تستولي في المستقبل

١- بكرش : هي بوخارست عاصمة رومانيا، وكانت تابعة للدولة العثمانية آنذاك. قاموس الأعلام ١٣٣٣/٢.

على ديار القريم مثل ما استولت على أيلتي قزان وازدرهان. ولو أظهر المعسكر الهمايوني شيئاً من الحركة أو لو جال لحفظ وحراسة ضفة الطونة من جهته لتمكن وجود الخلاص من تحت ثقل هذه المعاهدة المضرة نظراً لما انتشر وقتئذ من الغوائل والقلق في داخلية الروسية.

وذلك لأن عساكر روسيا وإن تقدم لها الفوز والانتصار في الحروب فإن كاترينه^(١) لما أخذت تدخل أولاد الأهالي تدريجاً في السلك العسكري وتبتدع كثيراً من ضروب الظلم والتعدي سداً للخلل المالي الذي حل بها من توالي الحروب نفرت قلوب الناس منها وأشرف أكثر بلادها على الخراب. والذي أوجب لها الضرر أكثر هو تزلفها بالمساعدة الكلية لتجار انكلترا بقصد أن تساعدوا دولتهم بالمال. وزيادة على ذلك فإن عساكر التتار خرجوا عن الطاعة وسعوا في تخريب تلك الجهات وساقوا العساكر الكثيرة عليها ففي المقابلة ابتدرت الروسية للمحاربة.

وبناء على ذلك اضطرت كاترينه إلى الاستعجال بمصالحة الدولة العلية كما أن المأمورين العثمانيين لما رأوا أن عساكر الروسية عبرت نهر الطونة سنة ٨٨ وحاصرت العساكر العثمانية في شمنه مع سريان الشقاق والنفاق وتفرق كلمة المعسكر الهمايوني استعجلوا في الأمر واتفقت كلمتهم على عقد الصلح بأي وجه كان، فقبلوا الشروط التي تقررت في بكرش بل زادوا عليها. هذا بعد أن اتلف من العساكر والمهمات كثير انخبروا على عقد مصالحة معاهدة قينارجة^(٢) المضرة.

١- إمبراطورة روسيا.

٢- معاهدة قينارجة (١٨٨٨هـ) : هي أول معاهدة مضرّة بالمصالح العثمانية، اضطرت الدولة لتوقيعها مع الروس نتيجة لضعفها وهزائمها المتكررة أمام الروس. وبموجب هذه المعاهدة استقلت بلاد القرم، وأعطيت روسيا امتيازات أخرى على حساب المصالح العثمانية، انظر إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٣.

وفي سنة ٨٧ عين دولت كراي خان الرابع حاكم القريم الأسبق وحاجي باشا جانيكلي مأمورين لاستخلاص القريم فتوجها إلى جانب طمان واستجلبا إليهما قبائل لنوغاي وقبائل الجركس ودخلا إلى القريم سنة ٨٨ وباشرا الحرب والصدام فاتحد معهما أهالي القريم بالاتفاق ونشطوا للانتقام من الأعداء وظهرت آثار النصر لجانب الإسلام وحيث كان من جملة شروط مصالحة قينارجه بقاء الحرية للقريم اضطر المشار إليهما إلى أن يعودا إلى قلعة كفه لصرف فصل الشتاء فيها.

أما ما وقع للدولة العلية في هذه الحروب من الخسائر فمنها لا يدخل تحت حساب حتى أنه روي بعد ذلك أن الخيل انقرضت في الممالك العثمانية.

فذلكة^(٢)

إن الدولة العلية شجرة غرسها في الابتداء حضرة الشاه عثمان الغازي فسقتها مياه همم خلفائه فنمت وأورقت أغصانها وبلغت في زمن حضرة السلطان سليمان خان درجة الكمال ثم صارت تتقلب عليها الأحوال تارة يدهمها خريف الاختلال والانكسار وطوراً يأتيها ربيع الانتظام والاقتدار، حتى توالى عليها الطوارئ والغوائل وبقيت كذلك إلى أن أتيح لها ظهور حضرة السلطان محمود خان الثاني فأزال بيد سطوته الخاقانية ما كان متسلطاً عليها من العوارض المكدرية والحشرات المضرة وقطع منها فروعاً يابسة وفروعاً رديئة وبعد أن طهرها من تلك الإدران المضرة وجعلها بريئة من العيوب تجلّى على طورها خير خلف له وهو حضرة السلطان عبد المجيد خان الذي نرتع الآن بسطوة عدالته في بحبوحة الأمن وسعة الراحة والذي يعتبر دور خلافته فصل ربيع لذلك العصر فسقى بماء تدابير الحكيمية شجرة الدولة وأحياها حياة جديدة وزادها رونقاً وبهاء.

١ - الفذلكة، بمعنى مُجمل أو خلاصة ما فُصِّل أولاً، وهي مختصرة من قول الحاسب إذا أجمل حسابه: فذلك كذا وكذا. المنجد ص ٥٧٣.

الفصل الخامس

في ذكر الخلل الذي طرأ على قوانين الدولة العلية (١)

يعلم من دقق النظر في أخبار السلف أن الدولة العلية كانت إلى زمن سلطنة حضرة السلطان سليمان خان ساذجة تغلب عليها أحوال البداوة، وبناء عليه فلم يكن للدولة ولا للرعية شيء من الرغبة والميل إلى الشهوات والفساد والزينة وما شاكل ذلك من نتائج الترف، فلا شغل للناس وقتئذ إلا في الانتظام في سلك الجندية والسعى في توسيع الممالك وتأسيس الأصول والقواعد، فكثرت الفتوحات وضم كثير من الممالك إلى المملكة العثمانية في زمن سلطنة السلطان سليمان. ففي مدة وجيزة بلغت الدولة إلى منتهى درجات الكمال وحصلت على ثروة وانتظام خارق للعادة فقضى عليها ذلك بتغيير حالتها البدوية، فالاعتراض على هذا والزعم بأفضلية البقاء على حالة البداوة لا يقول به إلا من أنكر تصرفات الدهر الطبيعية وتعاورها على الخلق من غير اختيار منهم، فقد مر عموم البشر على هذا الجسر وانتقلوا من طور إلى طور آخر، وأما الذين لم يقدروا تصرف الزمان حق قدره وقاوموا الأحوال الطبيعية وثابروا على أطوارهم القديمة فقد وقعوا في بحار الجهل وصاروا في حكم العدم، ثم إن الخوف على الدولة والأمة من الوقوع في الخطر والتهلكة إنما يكون في زمن انتقالها من طور إلى آخر، وهذا من الأمور المجربة فإذا لم يحصل الاهتمام الكامل والاعتناء التام بأمر المريض أثناء تقدمه إلى الصحة تنتكس علته لغلبة الضعف عليه ويصير إلى حالة التلف.

وهكذا الحال في الدول فإن إحداها إذا لم تنتقل بالحكمة والتأني من حالها

١- هذا فصل هام يحتاج إليه المتخصصون في تاريخ الدولة العثمانية، وقد أوضح فيه جودت باشا النظم الإدارية والعسكرية والعلمية، وازدهارها في البداية ثم ضعفها في أواخر عهد الدولة وأسباب ذلك.

السابق إلى حالها الذي أجبرت على الدخول فيه وانتقلت دفعة واحدة من الطور الأول إلى الطور الثاني، فلا بد أن يتزلزل جسمها ويعضل داؤها، وبناء عليه فلا سلامة لها؛ وذلك مثل السيل السريع الجريان فإنه إذا انحدر متدفقاً ولم يكن له من الحواجز ما يجعل سيره متدرجاً خرب ودمر الأماكن التي ينصب عليها. فمن وقف في وجه تصاريف الدهر وحاول ردها كأرباب الحكومة الذين يتصورون هذه التصورات كان بمنزلة ذلك السيل المنحدر فيخرب رياض الدولة. والحاصل أن النواميس الإلهية مصونة عن التغير بخلاف القوانين البشرية التي تتغير تبعاً لأحكام الزمان، فالقوانين والأصول التي كانت تحسب بالغة حد الكمال والانتظام في القرنين الماضيين أمست الآن بسبب التغير الذي طرأ على أمزجة القوم وأحوال العالم لا تنفع شيئاً، فكان من الواجب على وكلاء الدولة أن يوجهوا الفكرة إلى التقلبات الواقعة ويدققوا النظر في أحكام الدهر وفي احتياجات الدولة الحاضرة غاية التدقيق يطبقوا الإدارة والنظم الموجودة على الأحوال الحاضرة بمنتهى الحكمة والانتباه. والطريق الموصل إلى هذا المطلوب بل الطريق الأقل تبعاً للوصول إليه هو أنه يجب على جميع الرعايا أن يعرفوا قوانين دولتهم القديمة وأحوالها السابقة وتقلباتها العارضة، وهي أي قوانين السلطنة السنية القديمة وأطوارها السابقة وإن كانت مسطرة في كتب التاريخ وكان ذكرها في تاريخنا هذا خارجاً عما نحن بصدده نوعاً ما، فإن ذكر خلاصتها على الوجه الآتي وبيان ما طرأ عليها زماناً بعد زمان من أسباب الفساد؛ يعد خدمة حقيرة لمن يأتي بعدنا ويريد الوقوف على حقائق الأمور، ويكون أيضاً. وسيلة لفهم النظم الجديدة التي ستصير من موضوع بحثنا في هذا التاريخ.

[النظم الإدارية والعسكرية في الدولة العثمانية]

إن الأحكام الأساسية لكل دولة تنقسم إلى فريضتين: فالفريضة الأولى إحقاق الحق للعباد بإجراء العدل في داخل البلاد. والفريضة الثانية حماية الحدود من تعرض الأجانب فإن رفعة شأن كل دولة وبلوغها إلى أقصى درجات المنعة والعظمة وحصولها على مراتب القوة والإجلال إنما يكون على قدر سعيها

وإقدامها في هاتين الفريضتين. وقد كانت الدولة العلية في الأصل مهمة غاية الاهتمام بإيفاء حقوق الفريضتين المذكورتين. فطريقة العلماء المأمورين وهي الحكم بالعدل بين الناس كانت على غاية الضبط والانتظام، وكان حضرات الأسلاف من سلاطين آل عثمان خلّد الله خلافتهم إلى آخر الزمان يعتنون بذلك كل الاعتناء ويهتمون بمصالح المملكة وأمور الدين والدولة ويحضرون بأنفسهم في الديوان. وذكر في صحف التواريخ أن حضرة ياوز سلطان سليم خان^(١) كان يحضر بنفسه في ديوانه القديم.

وكان أمراء الأمراء أي ولاية الولايات^(٢) لا يكون أحدهم إلا ممن استعمل زماناً طويلاً في إمارة السناجق عارفاً مدرباً قد اختبر الدهر وله مزايا كثيرة، وكذلك أمراء السناجق أيضاً لا يكونون إلا من محبي الدولة والملة الساعين في خيرهما المجربين في الأحوال، وكانوا لا يعزلون بغير ذنب بل يستمرون في مناصبهم مدة مديدة فتكون قوتهم في منتهى كمالها وتنحصر أنظارهم فيما فيه عمران البلاد ورفاهية العباد وذلك أيام السلم فإذا وقعت حرب ساروا إليها بجنود منظمة وأسلحة تامة.

ولم يكن لدول أوربا في تلك الأوقات عساكر موظفة متهيئة دائماً للحرب وإنما كانوا يجمعون العساكر ويجلبونه من الأطراف عند الاقتضاء، وأما الدولة العلية فقد كان عندها وجاقات من العساكر المرتبة مخصوصة بالموكب الهمايوني وتدعى قبوقولي^(٣) فهذه كانت من أصحاب العلوقة متهيئة على قدم المسير تنتظر الأوامر والفرمانات، وكان فرسانهم من أواسط الإنكشارية وهم عبارة عن ستة

١- السلطان سليم الأول (٨٨٥هـ-٩٢٦هـ)، وقد تقدم ذكره.

٢- في العهد العثماني كانت الدولة تقسم إلى إيالات يرأسها والي يلقب بيلربي. والإيالة تقسم إلى ألوية تسمى سناجق. وفي عهد التنظيمات (ق١٣هـ) أطلق على الإيالات اسم ولايات، وكل ولاية تتكون من عدة ألوية (سناجق): يلماز أوزتونا، مرجع سبق ذكره، ج٢، ص٨١٦.

٣- تقدم شرح هذه المصطلحات وما يليها في هوامش الفصل الرابع.

بلوكات مؤلفة من أبناء السباهيين والسلحداريين وغرباي اليمين وغرباي اليسار وأصحاب علوفة اليمين وأصحاب علوفة اليسار.

فالإنكشاريون كانوا يقيمون دائماً في الثكنات ويواظبون على تعلم الفنون الحربية ومتى سار حضرة السلطان للحرب ساروا في خدمة ركابه فتسير كل فرقة بلوازمها بمزيد الرغبة، وكان انقيادهم وطاعتهم لضباطهم على ما ينبغي. وكانوا يتحاشون أثناء مسيرهم في الطرق أقل تعدي على الرعية، وكانوا في مدة إقامتهم في الثكن لا تجول أفكارهم إلا في كيفية الهجوم وانتظاره فيما أن يقتلوا أو يُقتلوا، وذلك لأنهم تربوا منذ الصغر على بذل النفوس متعطشين إلى الحرب غير مبالين بالوقوع في المهالك والمخاطر بل يتلقون العدو بصدورهم وقوة ثباتهم فكان الظفر والغلبة ملازمين لهم. وهؤلاء العساكر كانوا لا يتأهلون ما داموا قادرين على القتال فإذا عجزوا عنه تعطفت عليهم الدولة بمعاش المتقاعدين وحينئذ يتزوجون. وكان للدولة ثكن مخصوصة لإقامة الشبان العجم وهم الذين يراد انتظامهم في سلك الإنكشارية وفي كل سبع سنين ينظر في فرق أوجاقات الإنكشارية والنقص الذي يوجد في عددهم يتمم من هؤلاء الشبان. وكان نظام أوجاقات الطوبجية وحملة البنادق جارياً على هذا المنوال والمراد بالأولاد العجم المنتخبون الذين ينتقون صغاراً فيعلمون اللغة التركية ويتربون على السنن الإسلامي ويسيرون مدة في الثكن ومتى بلغوا الدرجة المطلوبة ألحق منهم من كان فيه أهلية بالأندرن الهمايوني^(١) وهو محل التمرين للخدمة السلطانية، والباقون تقيد أسمائهم في الوجيهات، وعلى هذا الأسلوب كانوا يتهذبون جميعاً. وهؤلاء المنتخبون لا بد أن يكونوا من أولاد الأرناووط والبشناق والبلغار والأرمن فلا يؤخذون من غير الطوائف المذكورة. ولا من أبناء البلدة^(٢)، وأما أولاد الإنكشارية فإنه يجوز

١- الأندرن الهمايوني : بمعنى الدائرة السنية السلطانية. الدراري اللامعات، ص ٥٠.

٢- يقصد بأبناء البلدة أبناء المدن العثمانية (الأهالي من المسلمين).

أخذهم إلى ثكن الشبان العجم فيتربون مع المتخين المومي إليهم ثم يتعينون في الوجاقات بموجب النظام. وهكذا كان نظام وجاقات الخيالة الذين أتينا على ذكره أعلاه ففي كل سبع سنوات ينظر في عددهم والنقص الذي يطرأ عليهم يتم من قدماء أغاوات الأندرون الهمايوني ومن أصناف الإنكشارية والجبه جية والطوبجية ممن ظهرت درايتهم.

فبناء على ذلك كان جميع الوجاقات^(١) المسماة قبوقولي مجموعة من منتخبي الطوائف المذكورة آنفاً ومن أبناء أهل الوجاقات. والحاصل أن أوجاق القبوقولي عسكر خارج عن صنوف الأهالي وكلهم تربوا تربية حسنة منذ الصغر ودخلوا الوجاقات بالطرق القانونية فترقوا بعناية الدولة بهم فكان فداء الدولة بأرواحهم طبيعة لهم وكانوا عساكر منتخبة في غاية الضبط لا يمكن لفرد من غيرهم أن يدخل في سلكهم^(٢).

والمراد بأهل الوجاقات عموم عساكر السلطنة السنية الموظفة ومنهم تكون الأجزاء الأصلية التي يينظم منها العسكر الخاص الهمايوني. وأما القوة الجسيمة للدولة فهي مجموع أرباب التيمار^(٣) والزعامة وعددهم نحو مائتي ألف خيال وعند استعدادهم وانتظامهم لا يحتاج إلى عسكر الوجاق المعروف بقبوقولي، ولصدقهم في خدمة الدولة كان وجودهم مانعاً لظهور العصاة والبغاة داخل المملكة، والمعيّنون منهم في الروم إيلي كانت فيهم الكفاية لمداغة أي دولة كانت، وقد كان عددهم في ذلك الوقت في الأيالة المذكورة اثني عشر ألف

١- الوجاقات، مفردا أوجاق بمعنى القطاعات التي تتشكل منها فرق الجيش العثماني. وكلمة أوجاق في الأصل تعني موقد وملجأ. الدراري اللامعات، ص ٥٧.

٢- وهذا هو سر قوة هذه الفرقة آنذاك، وسر ضعفها فيما بعد. وفق ما ذكره المؤلف في الصفحات التالية.

٣- التيمار: إقطاع كان يعطى للعساكر، والزعامة: إقطاع ممثل ولكن بدرجة أعلى. الدراري اللامعات، ص ١٨٢.

سيف-أي رئيساً- بموجب القيود. وكان من القانون أن كل صاحب سيف يجب عليه أن يتوجه إلى الحرب ويصحب معه جبه جيه يكون عددهم على حسب ما يبلغ تيماره بنسبة كل ثلاثة آلاف أقجاية - (الأقجاية)^(١) ثلث باره-جبه جي واحد- أي عسكري واحد- فكان على هذا الحساب عدد أرباب التيمار والزعامة مع جبه جيتهم في الروم إيلي مقدار أربعين ألفاً. ومع ذلك كان بعض أبناء أهل الوجاقات كل واحد منهم يجمع حسبة لله خارجاً من القانون ثلاثين جبه جي إلى الخمسين ويذهبون بهم إلى الحرب وبذلك كان يبلغ عدد عسكر الروم إيلي نحو سبعين أو ثمانين ألفاً. وأما في الأناطولي فكان عدد السيوف سبعة آلاف بموجب القيود أيضاً، وجبه جيتهم بمقتضى القانون يبلغ عددهم سبعة عشر ألفاً، والذي فضل عن القانون يبلغ عددهم مع جبه جيتهم أكثر من ثلاثين ألفاً. وعساكر ديار بكر وكردستان وسائر الإيالات كان على هذا القياس. ومن كان مرتبة ثلاثة آلاف درهم إلى ٢٠ ألف درهم يسمى صاحب تيمار والذي يكون مرتبه ما فوق ذلك فهو صاحب زعامة. وكان ترقية موقوفاً على إثبات مهارتهم وشجاعتهم في ميدان الحرب، وصاحب التيمار الذي يظهر كمال شجاعته يضاف له على كل عشر دراهم من مرتبة درهم واحد ترقياً وإنعاماً عليهم. ومن فاق أقرانه منهم في الشجاعة والفروسية في ميدان القتال فإنه يستوجب الترقى إلى الزعامة وأمراء السناجق أيام الحرب بمنزلة الضباط الأمرين، وأمراء الأمراء بمنزلة رؤساء الفرق وأمراء الأيالات يكفلون بتنظيم أمور العساكر. وجميع التوجيهات كانت تعطى على مقتضى عرضهم، فكان أمراء الأمراء يوجهون المرتبات المحلولة إلى مستحقيها فترفع توقيعاتهم إلى دار السعادة وبموجبها تصدر الإرادة. وبناء عليه فلا يوجه التيمار أو الزيادة فيه من دار السعادة رأساً، كما أن التيمار أو الزعامة لا تعطى لأحد بصفة (أربه لق)^(٢) أو (باشمقلق)^(٣)، وهما أسماء مرتبات كانت

١- أقجه: درهم، فلس، وتبادل ثلث باره آنذاك. الدراري اللامعات ص ٣٣.

١- أربه لق: راتب للمعيشة بدون وظيفة. الدراري اللامعات، ص ١٦.

٢- باشمقلق: مخصصات تعطى قديماً لكبار القوم والسلطين. الدراري اللامعات ص ١٠٢.

تنعم بها الدولة قديماً إلى ما سوى العسكر، فالباشمقلق ألغى وبقي الأربة لق مختصاً بأهل سلك العلمية. وكان الزعماء كبراء أصحاب التيمار، ومن هذا يعلم قدر الزعامة ودرجة اعتبارها، فإن أصحاب رتبة (قبوجي باشي) لدركاه (عالى)^(١) الذين يترشحون لإمارة السناجق وإمارة الأمراء مع كونهم من أهل الخبرة بالأمور صادقين في الخدمة ويحبون الخير فقد كانت مرتباتهم باسم أربه لق لا تزيد على تسعة عشر ألفاً وتسعة وتسعين درهماً، فلا يبلغ مرتبتهم إلى درجة مرتب الزعامة. وكذلك عندما تقتضي الحال تخصيص معاش باسم باشمقلق للحريم اللواتي يعبر عنهن (خاصكي)^(٢) من ريع القرى السلطانية المسماة خواص همايون، فمع قربهم كان مقداره لا يتجاوز ما ذكرنا يعني إنه لا يبلغ عشرين ألفاً. وكان أصحاب التيمار والزعامات يعيشون خلفاً عن سلف بالمرتبات السلطانية وهم من أمثال النساء ممتازون مجربون الأطوار لا ترجمه بالمرتبات السلطانية وهم من أمثال الناس ممتازون مجربو الأطوار لا توجه رتبة الزعامة ولا رتبة التيمار إلى سواهم ولا يجوز دخول من هو دونهم في سلكهم وكانوا كثيرون العدد مدربين عارفين بأحوال الأمة والدولة يقيمون في ألويتهم وعند الاقتضاء في أيام قليلة يكونون حاضرين ومتهيئين للحرب.

وكان يوجد في الروم إيلي مقدار ٤٠ ألفاً يطلق عليهم (بوركان)^(٤) (ومسلمان)^(٣) وفي الأناطولي ٣٠ ألفاً يقال لهم (يايا)^(٥) فإذا وقعت حرب في الروم إيلي يرسل منهم إليها خمسة أو ستة آلاف نفس من بوركان ومسلمان وإذا ثارت في الأناطولي يرسل إليها ثلاثة أو أربعة آلاف من يايا. وكل من الفريقين

١- قبوجي باشي لدركاه عالي: معناها رئيس البوابين في العتبة السلطانية، الدراري اللامعات ص ٢٤٩ وص ٤١٢.

٢- خاصكي: مأمور خصوصي للسرايا السلطانية. الدراري اللامعات، ص ٢٣٣.

٣- بوركان: الشجعان ذوو الجسارة، الدراري اللامعات، ص ٥٥٥.

٤- مُسلمان: المشاة الراجلون المتطوعون، يلماز اوزتونا، مرجع سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٠٨.

٥- يايا: مشاة راجلون، الدراري اللامعات، ص ٥٤٦.

يستخدم في إقامة المتاريس وقطع الأحرار وفتح الطرق وأما أرباب التيمار والزعامة فإن مساعيهم محصورة في أمر الحرب لا يتعاطون الأشغال المذكورة .

وفضلاً عن ذلك يوجد أيضاً في جهة الروم إيلي ٢٠ ألفاً أصحاب قيود يعبر عنهم آقنجي^(١) وعندما تقع الحرب يجمع أمراؤهم نحواً من أربعين أو خمسين ألفاً من الفرسان المتطوعة الخفيفة المؤنة ثم يزحفون بالجميع إلى بلاد الأعداء وتقوم سوق الحرب فيها فتسلم بذلك التخوم الإسلامية وفي أثناء اشتغال الأعداء بالمدافعة كانت العساكر الهمايونية تصل إليهم وتنال الظفر فلا يحتاج وقتئذ إلى طائفة التاتار أصلاً .

وصنوف هذه العساكر المذكورة كانت قوة الدولة السيارة وتوجد عساكر أخرى يعرفون بالمستحفظ شأنهم محافظة القلاع السلطانية فكان منهم من يقيم في أهله إلى حين الاقتضاء ومنهم من يقيم في القلاع وكانوا أهل شجاعة وإقدام يبذلون أرواحهم في سبيل هذه المحافظة وبهذا الترتيب كانت الحدود والثغور في غاية الأمن وكانت القوة الحربية حينئذ في انتظام تام .

وكان للدولة صنف آخر من العساكر يسمى (بشلو) يقيمون في مواقع مخصوصة وعند الاقتضاء تجمع الدولة عساكر أخرى بأجرة يومية .

يقول مونتو قوقولي^(٢) في كتابه المعلق بفن الحرب: إن العساكر العثمانية تنظم من ذوي العلوفة أو المتصرفين بالتيمار والزعامة . وعند الاقتضاء تجمع جيوشاً أخرى من مشاة وخيالة باسم لوند^(٣) وصاريجه^(٤) وسكبان^(٥) وهؤلاء

١- آقنجي: فرقة الصاعقة أو المغاوير، يلماز أوزتونا، مرجع سبق ذكره، ج٢، ٤٠٧ .

٢- مونتو قوقولي: مؤلف كتاب فن الحرب . وكان قائداً للعساكر النمساوية وزيراً للحرب ١٦٨١م . انظر مصادر جودت في أول الكتاب .

٣- لوند: كلمة أفرنجية، وتعني نوع من العسكر سريع وخفيف . الدراري اللامعات ص ٤٩٧ .

٤- صاريجه : عسكر غير منظم . الدراري اللامعات، ص ٣٢٩ .

٥- سكبان: عسكر غير منظم . الدراري اللامعات، ص ٢٩٧ .

ليس لهم رواتب قانونية بل تعين لهم أجور يومية مدة وجودهم في الحرب وذلك على نسق عساكرنا. والباشلويان من السواري العثمانية هم صنف من العساكر الخيالة شأنهم المحافظة، وهم مثل عساكرنا الفرسان في ديار الأنكروس^(١) واسمهم هوساري. ثم قال وما دمنا نخاف من العثمانيين يتعين علينا أن يكون لنا عسكر متهييء للحرب. وقال أيضاً في كتابه المذكور في وصف قوة واقتدار الدولة العلية: إن الدولة العلية كانت لها سلطة قاهرة ذات بأس وقدر، وكان عندها عساكر لا تعد، وكلها في غاية الشجاعة والإقدام، ألفوا الحروب والغارات، وكانوا متهيئين لها دائماً، يدخلون ساحات القتال قبل إعلان الحرب، وكانوا كثيري العدد لا يحصون كالنجوم وكانت العربات التي تجرها الجواميس والأبقار في سنة ١٦٦٠ ميلادية إلى الطونة وبلغراد وأوسكه وبور؛ تحمل ذخائر ومهمات لا تعد ولا تحصى، ومن دأب العثمانيين في الحرب أنهم يتظاهرون بشيء ويفعلون سواه ويأتون بصور وحركات عديدة سترًا لمقاصدهم ونواياهم ففي سنين عديدة أظهروا السفر إلى قتال البندقين فإذا بهم فاجأوا على حين بغته راقوجي ملك أردل^(٢) وأعلنوا بمحاربة بلطه ولكنهم هجموا على كريت^(٣) بغته، وهذا التهييء قبل وقوع الأمر كان من دأب الرومانيين القدماء، فاقتفت الدولة العلية آثارهم فيه منذ ظهورها وكان وجود النجارين والبنائين وأصناف العملة في المعسكرات الهمايونية في درجة عجيبة وكان أدلاء هؤلاء العساكر وجواسيسهم كثيرين. وكانت مهماتهم ومدافعهم كثيرة جداً فكانوا يجمعون العملة والمعاونين لهم من سائر الجهات أثناء الحرب وكان أكثر أساتذتهم

١- ديار الأنكروس: هي بلاد المجر (هنغاريا) في شرق أوروبا.

٢- أرول هي ترنسلفانيا من أعمال المجر الآن. وكان يطلق على أمرائها اسم راقوجي..

٣- كريت أو إقريطيش قديماً: جزيرة في البحر المتوسط. من مراكز الحضارة في العالم القديم، دخلها المسلمون العرب، والبيزنطيون، واستولى عليها العثمانيون في القرن الحادي عشر الهجري. وهي تابعة لليونان في الوقت الحاضر. المنجد ص ٤٦٢.

ولا سيما المدفعيين منهم ممن فروا من أوروبا وأسلموا، فالأشغال التي كانت تصعب على سائر الملل كانت سهلة لديهم وكانت متايسهم على غاية المتانة والإحكام وكانت سرعتهم في إنشاء المتاريس غريبة حتى ضرب بهم المثل فيقال (إن من أراد مقابلة العثمانيين يجب أن تكون رجلاه من رصاص ويده من حديد). انتهى .

فكانت الممالك المحروسة وقتئذ محفوظة من الظلم والاعتداء، والثغور الإسلامية وحدودها منيعة لا يتجاوزها الأعداء. فكان الناس إذ ذاك راتعين في بحبوحة الراحة والأمن في الحرب والسلم، وأخذت الممالك في العمران يوماً فيوماً والدولة العلية اتسع نطاقها وزادت قواها ولا سيما في عصر حضرة السلطان سليمان القانوني فإن قواها البحرية والبرية قد بلغت كمال أمرها فزلزلت سطوتها وسلطتها أركان العالم. وكما أخذ الكمال يتدرج في أيام حضرة السلطان المشار إليه، كذلك أخذ الانحطاط يتكون من ذلك الوقت أيضاً، غير أنه لم يشعر به لأن قوة الدولة كانت حينئذ في درجة الكمال، وأخذوا في تطبيق القوانين وترتيبها على ما استحسنته عقولهم وبهذه الأسباب ظهر الاختلال في نظام القوانين شيئاً فشيئاً وبعد برهة وجيزة ظهرت آثاره الرديئة.

وذلك أن قوة الدولة وشوكتها لما بلغت درجة الكمال في عصر السلطان سليمان احتجب السلطان عن الناس وترك الحضور إلى الديوان مع أنه كان قبل ذلك يحضره ويلقى السمع إلى الأمور من وراء الحجاب وكان يسافر مع العساكر إلى الحرب وتارة يتوجه إلى أدرنة ويانبولي لأجل الصيد، وكان المظلوم يرفع له عرض حاله بلا واسطة فكان يطلع على أكثر الأحوال وكان يهتم بالأمور كما يجب، وبهذا تهيأ للأهالي أن يتمتعوا بالراحة والأمن والأمان.

وكان منصب الصدارة لا يتوجه إلا على من ثبتت لياقته وأهليته بين الوزراء وكان مزايا حسنة في ذاته وصفاته، واستعمل في إمارة السنجق ثم إمارة الأمراء ثم إمارة أمراء الأناطولي ثم إمارة أمراء الروم إيلي، وجرب أحوال العالم ووقف

على الغث والسمين من الأمور، لا يأخذ هدية ولا رشوة على توجيه المناصب بل كان الاستحقاق سائداً والأهلية معولاً عليها. ثم إن حضرة السلطان سليمان خان خالف القاعدة القديمة فوجه مقام الصدارة رأساً إلى إبراهيم آغا خاص أوطه باشي^(١).

ولما كان السلطان المشار إليه يدبر الأمور بيد اقتداره، وكانت الوكلاء بمنزلة آلات في يده؛ فلم يكن نصب إبراهيم آغا الذي تربى تحت أنظاره مضرراً بالمملكة في زمانه، إلا أنه كان مثلاً سيئاً من بعده، فأخذ خلفاؤه في تعيين من يحبونه في مناصب الوزراء وهم شبان غير مجربين للأمور ولا واقفين على الأصول، ولا غترارهم بإقبال الحضرة الشاهانية عليهم كانوا يجرون الأحكام بما يرونه من غير أن يتنازلوا إلى استفادة المسائل من أرباب الوقوف عليها، غير مراعين لأحكام القانون ولا يخفي أن إسناد الأمور لمثل هؤلاء مخالف للقاعدة الكلية المبنية على منطوق آية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٢) وبناء على ذلك صارت الإجراءات على ما تقتضيه الرغائب الشخصية بدون أن يتأمل أحد منهم في غاياتها وحقائقها فاختل بذلك نظام الدولة وتبدلت قوتها ضعفاً. ومن جملة ما أشرنا إليه أن السلطان سليم الثاني لأول جلوسه ولى أحد أغوات الانكشارية قائداً للبحر وحيث إن هذا الرجل يجهل أمر البحر كان سبباً في حرق الأسطول الهامبوني في مرسى إينا بختي كما سيأتي، ومن ذلك الوقت أخذت قوة الدولة العلية البحرية تضعف وتنحط شيئاً فشيئاً.

وكانت التيمارات تعطى لذوي الوجاهة وللمستحقين لها من الملازمين. ثم لما تولى خسرو باشا في زمن السلطان سليمان القانوني منصب إمارة الأمراء ولم

١- خاص أوطه باشي: بمعنى قيم السراي الخاص. الدراري اللامعات، ص ٦٨.

٢- الآية بتمامها (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً) النساء، آية ٥٨.

يكن من أهله بل كانت وظيفته قبل ذلك أنه يذوق طعام الحضرة السلطانية قبل إحضاره إليها، ابتدع بدعة سيئة وهي توجيه رتب التيمارات بالرشوة فظهرت لذلك أضرار عديدة.

ذكر مونتة قوقولي في كتابه السالف ذكره، بعد أن مدح السردارية^(١) الأكرمين بالمهارة في فنون الحرب ورغبتهم في تنفيذ الأحكام وحسن تصرفهم وذكر استحقاقهم للشكر. أخذ يوضح الأسباب فقال: قد كان وزراء الدولة العثمانية يستعملون في الوظائف الحربية أيام شبابهم ليكتسبوا الاستعداد واللياقة للقيام بالأمور المهمة فكانوا لذلك يألفون النهوض بأثقالها حتى صار ذلك ملكة لهم يتقلّبون معها في الوظائف تدريجاً ويتقلّبون من مملكة إلى مملكة ومن حرب إلى حرب، يتفنون في استعمال الآلات والأسلحة وتنفيذ الأحكام، يستمرون على ذلك منذ شبابهم إلى شيخوختهم وبذلك وصلوا إلى الغاية المطلوبة من الكمال. ولكن لا يخفى أنه قد ظهرت بدع عديدة يومئذ بين العثمانيين واختل نظام التمرين الحربي وكسد سوق الفنون والمعارف، فانحطت شهرة السرداريين والسر عسكريين وذلك لأن السلطان ولى في هذه المناصب رجالاً كثيرين من حاشيته مع أنهم كانوا جاهلين بأمور الحرب الخطيرة المهمة.

وكان في ابتداء الأمر لا يتداخل أحد بين السلطان ووزرائه العظام. ثم في زمان السلطان مراد الثالث صار ندماءه والمقربون إليه يتداخلون في مصالح الدولة ويكلفون الصدر الأعظم بأمور غير معقولة، فإذا لم يجب طلبهم يفترون عليه الكذب، فكانوا بذلك يتوصلون إلى قتل بعض الصدور ونفي آخرين، وأصبح الصدور العظام لذلك مكرهين على اتباعهم وموافقتهم، وبالجملة فقد كان هؤلاء المقربون لا يباليون بشيء بل كانوا يفعلون ما يشاؤون.

١- السردارية: أمراء الجيش. الدراري اللامعات، ص ٢٩٤.

وفي سنة ٩٠٠ هـ جرى الاحتفال بختان نجل السلطان محمد^(١) واتصل القيام بالفرح نحو شهرين وجاء الناس أرسالاً من أطراف البلاد لحضوره وفي ختام الحفلة توجهت الأفكار إلى ما فيه زيادة فرح فتهيئوا عدداً من الأجلاف الذين طلبوا الانخراط في سلك الإنكشارية فصدرت الإرادة بإجابة سؤلهم وعين فرهاد أغا رئيس الإنكشارية مأموراً بإجراء مرغوبهم ومع أنه كان من مقتضى قانون الإنكشارية أن جنودهم لا تتنظم إلا من الأولاد العجم المقيمين في الثكنة المخصصة بهم فاستشار فرهاد أغا رؤساءهم فقالوا إن دخول هؤلاء الأشخاص الخارجين عن طائفتنا في سلكنا يخل بالقاعدة والقانون ويحصل عنه ضرر عظيم للدولة العلية. وقرروا عدم قبولهم ثم إن بعض الندماء والمقربين الذين لم يتأملوا في عواقب الأمور أخوا وأصروا على هذا الأمر فصدرت الإرادة السنية مرة ثانية ففضل فرهاد أغا استقالته على هذه الرئاسة وتولى مكانه يوسف أغا فأدخل الطوائف المرقومة في جند الإنكشارية باسم أغا جراغي،^(٢) وهكذا بذرت بذور الفساد. ثم إن خلفاء يوسف أغا الذين جاءوا من بعده أحدثوا بدعاً جديدة في الأسماء والألقاب وأدخلوا أشخاصاً لا يعرف أصلهم ولا منشؤهم في سلك الإنكشاريين الذين تربوا في الثكنات منذ الصغر فكانوا بذلك علة خراب هذه الوجاق^(٣). وبينما كان استخدام أصحاب العلوفة في دوائر الوكلاء والوزراء وسائر المأمورين مستحيلاً، وكانت إقامة عموم الإنكشارية في الثكنات مشروطة شرطاً لا ينفك وإدخال الغرباء في سلكهم ممنوعاً وإجراء تقاعدهم قبل بلوغ الشيخوخة محظوراً، أخذت الحال في التحول فصارت علوفات الإنكشارية

١- أي محمد بن السلطان بايزيد الثاني.

٢- أغاجراغي: وهم الحائزون على وظيفة. أو من يعمل لدى أحد كبار الموظفين بأجره. الدراي اللامعات، ص ٢٨ وص ٢٠٨.

٣- وهذا من أسباب بداية الخلل في نظام الإنكشارية.

تعطى للخدم وتجري أرزاق التقاعد على الشبان والأقوياء فازدادت المفاسد بذلك وأخذ أغوات الإنشكارية ورؤساء الوجاق وكتبة الأقالام يبيعون ويهبون أسماء - أي مرتبات - الأنفار وزيادتها إلى من يريدون. والأسماء المذكورة هي جراغيه وإيراد^(١) ثم بعد ذلك سرى هذا الأمر واشتهر وصارت الأسماء - أي المرتبات - كالأسهام والإقطاعات. فانتقل أكثرها إلى العامة والخاصة كخدمة أندورن وببيرون،^(٢) ودوائر العلماء وطوائف الخدم والأتباع. وسمى هؤلاء الذين يشترون تلك الأسماء قبولى أسامي. وأخذ رؤساء الثكن يدفعون مرتبات الجند ناقصة اعتادوا على ذلك، وتزايدت أسماء الإنكشاريين يوما فيوماً، ولكن الأشخاص الذين يعول عليهم في الحرب تناقصوا، فلم يبق في ثكن الإنكشارية إلا الصعاليك الذين يسمونهم باش أسكي،^(٣) وبيرقدار،^(٤) وقره قوللقجي،^(٥) واشججي^(٦) وبالجملة فأسماء الإنكشارية تضاعفت أضعافاً كثيرة على ما كانت عليه من قبل. وبينما كانت خزينة الدولة العلية عاجزة عن صرف مرتباتهم كانت المبالغ التي تجمعها الدولة العلية بشق الأنفس تعطى إلى المتقاعدين، وهم الأتباع والخدم وغيرهم ممن لا يذهبون إلى الحرب ولا يقومون بواجبات الخفارة ولا يصلحون لشيء ما. فكانت الدولة تستأجر رجالاً للخفارة، وأما رجال الحرب فلا وجود لهم. وكما كان في الأستانة كثيرون من الأسافل والأجلاف يدعون بكونهم من الإنكشارية كذلك كان منهم في الخارج مئات ألوف يدعون ما ادعوه

١- جراغيه وإيراد: أسماء مرتبات بعض الوظائف (المأموريات). الدراري اللامعات، ص ٢٠٨.

٢- اندرون وببيرون: أي الخدمة في داخل وخارج (الدائرة السلطانية مثلاً) الدراري اللامعات، ص ٥٠، ص ١٣٤.

٣- باش أسكي: الأمر القديم. الدراري اللامعات، ص ١٠٠.

٤- بيرقدار: حامل العلم (البيرق). الدراري اللامعات، ص ٢٤٤.

٥- قره قوللقجي: الحرس. الدراري اللامعات، ص ٤١٨.

٦- أشججي: الطباخ. الدراري اللامعات، ص ٢٥.

ولذلك كان الذين يأخذون المرتبات العسكرية من المنتمين إلى الوجاقات إذا أرادوا فتنة أثاروها وحضوا الأسافل على تجسيمها، فيجمعونهم باسم الإنكشارية في مركزهم ويظهرون فيها عصيانهم، مع أن الإنكشارية كانوا بداءة بدء على غاية الطاعة والانقياد، حتى قيل فيهم أربعون منهم يقادون بشعره. وإذا كان أحدهم يخالف قانون الوجاق وأركانه فأهل الوجاق لا يحمونه بل يوجهون الدعوى عليه ويسرعون في تأديبه، ولكن بعد ما اختل نظامهم وقانونهم أصبحوا لا يتقادون والتحقوا بزمرة الأشقياء، وصارت فرقهم ملجأ المتهمين ومأوى الجانين. وبذلك كانوا علة لكثرة من الفظائع، كالخروج عن طاعة السلطان مثلاً وعدم النظر في الأعمال النافعة للدين والدولة. وكانوا يرفضون المصالح الملكية مع أنهم لا يفرقون بين النافع منها والضار فزاد فيهم الاختلال والغش حيناً بعد حين حتى بلغت مساويهم وأضرارهم للدولة العلية إلى درجة لا يستطيع اللسان أن يصفها. والحاصل أنك عندما كنت تقول يا هل ترى يوجد للشقاء والعصيان من يرتكبهما كنت ترى ألوفاً مؤلفة منهم في الزوايا والأسواق وكلهم يدعون باسم الإنكشارية، وما قصدوا بنسبتهم إلى الإنكشارية إلا التنصل من ربة التأديب والتكليف وما تقضي به السياسة والتوصل إلى الحرية المطلقة في أعمالهم، ولم يعلموا أن الإنكشارية وظيفتهم الحرب عند الاقتضاء لا غير. ولما وقعت الحرب ونودى عليهم إليها فلم يخرج منهم من الأستانة إلا فرق قزغان^(١) وجورباجي^(٢) وأوطه باشي وآشجي وعدة أشخاص من قرة قو للجي^(٣) وعشرون أو ثلاثون

١- قزغان: بمعنى المُرْجَل، وهم طائفة من العسكر. الدراري اللامعات، ص ٤١٩.

٢- في الطبعة العربية وردت عبارة جورباجي، وهو خطأ مطبعي، وفي الأصل التركي العثماني للكتاب عبارة جورباجي ولذلك قمنا بتعديلها في الطبعة الجديدة. جورباجي: ضابط في عسكر الإنكشارية كانت رتبته تعادل رتبة يوزباشي. الدراري اللامعات. ص ٢١٧.

٣- شرح عبارات أوطه باشي وآشجي وقره قوللجي، وردت سلفاً.

نفساً من المنتخبين، ولما قيل لهم في ذلك قالوا إن رجالنا سيحضرون من الروم إيلي والأناطولي، وكان من الواجب على هؤلاء أن يحضروا بمعية سردار كل قضاء ومع ذلك فإنه لا يخرج معه إلا خمسة أو عشرة أشخاص، وإذا جاء بعضهم من الخارج فإنهم يأتون مع لواء المتطوعة وعددهم لا يتجاوز الثلاثين وإن تجاوز فغايتة إلى الستين، مع أن القانون يوجب عليهم أن يكونوا ١٢٠ تحت كل لواء، ولكونهم من الفلاحين الجاهلين بأمر الانتظام كانوا في حال سفرهم إلى دار الحرب يعيشون ويهتكون الأعراض في كل مكان مروا فيه، وعند وصولهم إلى المعسكر لا يثبتون بل يهرب أكثرهم والبقية منهم عندما يسمعون إطلاق مدفع واحد ينهبون موجودات المعسكر ويفرون بها فلا يبقى مع الضباط إلا عدة أشخاص من فرق الجوربجييه. وكانت مرتبات الوجاقات التي تصرف من الخزينة وهي تبلغ ألوفاً من الأكياس^(١) مأكلاً لهذا وذاك فما كان يصل منها إلى أيدي الجند إلا شيء يسير، وإذا طلبوا مرتباتهم من ضباطهم قالوا حتى نصح القيود أو نفتح اكتتابات جديدة فوق العادة، وما كانوا يكتبونه من العسكر يكون من أخلاط الناس ورعاعهم فلا يفيدون شيئاً بل يكونون سبباً لضيق الخزينة وزيادة عدد مرتبات العسكرية. ولئن كان في الإمكان تسديد المرتبات للمكتتبين الحديثين من محلولات الوظائف فإن تلك المحلولات كانت بأيدي أهل الوجاقات يظهرون منها ما يريدون ويخفون الباقي، ومع ذلك فإنهم كانوا يرون أنفسهم معذورين ومجبورين على كتمان أمرها وذلك لأن أغاوات الإنكشارية كان يؤخذ منهم مبالغ كلية سراً وجهراً باسم الجوائز والعبودية، وهو من قبيل الرشوة

١- الأكياس : مفردا كيسه (فيقال مثلاً) كيسه أقجه بمعنى كيس الخمسمائة قرش. الدراي اللامعات، ص ٤٨٩.

المحضة، فهم كانوا يغرمون كتحذا القول^(٢) ورؤساء صامصونجي،^(٣) وزغرجي^(٤) وطورنجي،^(٥) والچوربچين الوسط وضباط الإنكشارية الموجودين في الثغور بالرشوة حين توليتهم وهؤلاء أيضاً كانوا يغرمون من دونهم فكان لذلك المتولون على الثكن والشيوخ مجبورين على كتمان المحلولات تحصيلاً لما يدفعونه .

وتلاشى عسكر الدولة المستحفظ المسمى يرلوقولي - أي الموجود في الثغور - بسبب انعدام مرتباتهم، وذلك أن قسماً منها اغتصب في الآستانة والقسم الآخر اغتصبه رؤساؤهم . ونظام المستخدمين في الثغور وأن كان محفوظاً إلا أن الفساد الذي وقع في سائر البقاع والقلاع سرى إليه بعد مدة وجيزة .

والحاصل أن الدولة العلية وإن كانت عينت مرتبات كافية لمحافظي القلاع غير أن أكثرها صار مأكلاً لضباط الوجاقات في دار السعادة وغيرها، فأصبحت الدولة محتاجة إلى ترتيب عسكر كبير لمحافظة الثغور، ومست الحاجة لصرف المبالغ الوافرة عليهم .

وصار حال وجاقات الجبه جيه والطوبجيه والعربه جيه^(٦) شراً من حال وجاق الإنكشارية، فلم يبق جندي واحد للخفارة، وربما يوجد في الثكنات بعض أنفار حراس من الذين يسمون قره قوللقجي من ذوي العمائم لأنه لم يترك

٢- كتحذا القول: رئيس فرقة في الجيش الدراري اللامعات، ص ٤٣٦ .

٣- صامصونجي: مدربوا الكلاب الضخمة التي كانت تستعمل للحرب. الدراري اللامعات، ص ٣٣ .

٤- زغرجي: محافظو كلاب الصيد، وهم صنف من الإنكشارية. الدراري اللامعات، ص ٢٨١ .

٥- طورنه جي: صنف من العسكر القديم. الدراري اللامعات، ص ٣٦٦ .

٦- تقدم شرح هذه المسميات .

للموجقات إلا مقدار العشر من الأسامي والباقي هم قبولي،^(١) أعني أن أفراد العساكر الإنكشارية أضحت أسامي بلا مسمى، فمقدار العشر كان في الموجقات والباقي اتباع الكبراء من رجال الأندرون والبلاط السلطاني وخدمة العلماء، فالأغوات،^(٢) والكتخدا،^(٣) والجاويز،^(٤) والجوربه جي من كل أوجاق خصوا أنفسهم بأكثر مراتب الأنفار المقيدة أسماؤهم عندهم الذين هم بمقدار العشر فكان بعضهم يأخذ ٣٠٠ درهم وبعضهم ٥٠٠ وبعضهم ١٠٠٠، وإذا سئلوا عن العسكر هزوا رؤوسهم مشيرين إلى اتباع هذا وذاك يقصدون بذلك تخطئة أسلافهم. وكان فسادهم للمهمات لا حد له وذلك أنهم كانوا يجمعون الأسافل عند وقوع الحرب فيسيرون إليها كما يسيرون إلى الصيد، ولم يبالوا بالمهمات بل كانوا يتركونها في مواضعها، وكان المكلفون بأمرها يؤجرون لسوق عرباتها أوغاد الأهالي ورذالهم فما كان يصل من الذي يحمل منها من الآستانة إلا نصفها أو أقل وإذا قابلهم العدو تركوها في محلها وفروا منه. ومن عادة الطوبجية والعربجية أنهم يركبون الخيل فإذا داخلهم الرعب تركوا المدافع وعرباتهم وركنوا إلى الفرار.

وكانت نظمات أصحاب الزعامة والتميز ووجقات الفرسان محفوظة لا يدخل بينهم أجنبي إلى سنة ٩٩٢هـ. تولى عثمان باشا سردار إيران ابن أوزدمير^(٥) فأعطى بعض الذين أراد نفعهم بلوكا بتسعة دراهم، وأدخلهم إلى وجاق الفرسان، وأصدر أمراً لبعضهم بإعطاء التيمارات بثلاثة آلاف درهم فدخل على

١- قبولي : عسكر في معية رجال الدولة . الدراري اللامعات ، ص ٤١٢ .

٢- آغا : بمعنى سيد ، كبير . الدراري اللامعات ، ص ٢٨ .

٣- كتخدا : معتمد ، نقيب . رئيس . الدراري اللامعات ، ص ٤٥٣ .

٤- جاويز : شاويز (رتبة عسكرية) بمعنى عريف . الدراري اللامعات ، ص ٢٠٥ .

٥- يقصد عثمان باشا بن أوزدمير ، سردار إيران .

وجاق الفرسان وبين أصحاب الزعامة والتميمار أشخاص أجنيون عنهم خلاف القانون. والذين أدخلهم عثمان باشا كانوا من الأعيان المستحقين، وأما الذين خلفوه في منصبه واقتفوا آثاره في هذه البدعة فإنهم كانوا يدخلون الأشخاص من غير أن ينظروا إلى أحوالهم في سلك وجاقات الخيالة، وبذلك أدخلوا بنظامهم وصارت مرتباتهم كمرتبات الإنكشارية عرضة للنهب. وكان من مقتضى نظام هؤلاء في الأصل أن يسكنوا في القصبات والقرى التي بين استانبول وأدرنه وبروسه فلم يراعوا هذا القانون، بل كانوا يتفرقون في الجهات ويقيم كل منهم في زاوية ويتدخلون في أشغال المأمورين شرعية كانت أو ملكية.

وعند وقوع الحرب كانوا لا يخرجون من أماكنهم ويتركون رواتبهم إلى ضباطهم ورفاقهم والذين يأتون إلى الحرب كانوا قليلين جداً. ومن العادة أن أوراق التوجيه تكون بأيدي الأنفار وعندما يصدر الأمر بدفع الرواتب يأتون إلى الأستانة لأجل قبضها فيجتمع في الأستانة ألوف من الرجال وفي مدة إقامتهم يتجاسرون على ارتكاب الفظائع. فرؤي بعد ذلك أن عدم مجيئهم إلى الأستانة أولى دفعاً لمضراتهم، وصدر الأمر بأن تعطى أوراق التوجيه إلى الشواش^(١) وعندما يؤمر بدفع المرتب يقبضه هؤلاء الشواش ويرسلونه إلى الولايات، ومنع مجيء الأنفار إلى الأستانة، وجرت المعاملة على هذا المنوال. وقد يوجد أسماء أنفار مقيدة في الدفاتر ولا تعلم أشخاصهم، فشاع أن الشواش عند موت أحد الأنفار لا يخبرون بموته لكي لا يرفع اسمه من الدفتر بل يكتُمونه ويستمرون على قبض راتبه. ولأجل صيانة بيت المال أعلن أن كل من يخبر بموت أحد الأنفار يعطى له نصف راتبه فكثر المخبرون، وحيث إنه لم يكن كل مخبر أهلاً لأن يكون

١ - جمع شاووش.

صاحب راتب انتقل أكثر الرواتب لغيرمستحقيها. ثم بعد ذلك صار كل ما انحل راتب يزداد عليه اقجاية^(١) أو آقجائتين مع تغيير البلوك وكنتم الحقيقة فاختل نظام المحلولات - أعني المرتبات التي مات أصحابها- وصار لا يعرف المحلول ولا مقداره الأصلي، فاتخذوا القاعدة الآتية: وهي أنه إذا توفي ضابط من الضباط يجب على آغا الأوجاق أن يضبط الكيس الذي فيه أوراق التوجيه المتمضن أسماء جماعته فيعطيه لمن شاء بعد أن يأخذ على كل ورقة توجيه آقجائتين لجهة الحكومة سواء كان في الأوراق محللول أم لا. ثم بعدها صار أغاوات الأوجاق يضمون على كل ورقة آقجائتين أخراوين باسم الجائزة ويبيعون أوراق الذي توفي من الضباط على هذا المنوال أي بضم أربع آقجايات وأغلب الذين اشتروا هذه الأوراق-أي من الضباط- توفوا قبل أن يستوفوا ما كانوا دفعوه، فطراً الضعف والوهن على الوجاقات، فلذلك كان كل من في يده من تلك الأكياس شيء يستوفي ما دفعه من أصل المرتب عند صرفه من الخزينة، وبناء على ذلك صار الأنفار المحررة أسمائهم في الأكياس المذكورة لا يدخل في أيديهم شيء فامتنعوا من الحضور إلى الحرب.

وعندما كانت العساكر الخيالة تأخذ رواتبها من الخزينة لم يكن موجود في المعسكر الهمايوني سوى ألف أو ألفين، وهؤلاء أيضاً ما كانوا من أهالي الأستانة بل من سيواس وتوقات وسائر الجهات.

وكما كان يزداد اكتتاب اليكجري- الإنكشارية- على ما بيناه من قبل كذلك كان يتزايد أيضاً عدد هؤلاء الجند والخيالة المعروف بخلق البلوك.^(٢) ففي عصر حضرة السلطان سليمان القانوني كان عدد الإنكشارية نحو اثني عشر ألفاً وكان عدد خلق البلوك المؤلف من ستة بلوكات نحواً من سبعة آلاف، فلما جاء عصر

١- آقجه: عملة. وقد تقدم شرحها تفصيلاً.

٢- خلق البلوك: بمعنى أفواج الخيالة، الدراري اللامعات، ص ١١٧.

السلطان مراد الثالث بلغ عدد الإنكشارية ٢٧ ألفاً وعدد خلق البلوك ١٣ ألفاً، وفي عصر السلطان محمد الثالث في سنة ١٠٠٤هـ بلغ عدد الإنكشارية ٤٥ ألفاً وعدد خلق البلوك ٢٠ ألفاً، وفي عصر السلطان أحمد الأول في سنة ١٠١٨ صار مقدار الإنكشارية ٤٧ ألفاً ومقدار خلق البلوك ٢١ ألفاً، فصارت لذلك الخزينة التي كانت تعجز عن القيام بنفقات الجند أيام السلم غير قادرة على القيام بنفقاتهم نظراً للزيادة التي حصلت فيهم، فلذلك وقع الفساد والفتن بينهم، مع أنهم لما كان عددهم قليلاً كانوا في غاية الضبط والانتظام ينتفع بهم، فلما زاد عددهم إلى مقدار عجزت معه الخزينة عن القيام بأودهم اختل نظامهم وزال نفعهم، وأدى ذلك إلى عصيانهم وعدم انقيادهم، وصاروا علة لحصول التنافر والشقاق وباعثاً على ظهور المفاسد والمكارة العديدة حتى في أيام السلم. ولما أبى العسكر المعروف بخلق البلوك الانقياد إلى أوامر الدولة أرسلت عليهم الإنكشارية فكبحوا جماحهم وكسروا شوكتهم، ولكنهم لم يلبثوا حتى التحقوا بهم وشقوا العصا وبالغوا في العصيان وعدم الطاعة فصاروا بلاء مستمراً على الدولة.

وكما أظهرنا آنفاً أنه قد زاد عدد العساكر ذوي العلوفة الذين يأخذون المرتبات، كذلك ازداد عدد سائر الطوائف من أصحاب العلوفة أيضاً، فضاقت الخزينة ذرعاً عن تسديد رواتبهم فاضطرت الدولة إلى زيادة الرسوم الأميرية، فكان ذلك داعياً إلى الظلم والاعتداء منافياً لدواعي العمران والثروة ولذلك جرى ما فيه خراب البلاد وفاقاة الأهالي.

ولهذا وقعت المباشرة في تقليل عدد أصحاب العلوفة حتى صار في زمن السلطان مصطفى الثاني،^(١) عدد الإنكشارية نحواً من ٤١ ألفاً، وصار عدد

١- مصطفى الثاني (١٠٧٤هـ-١١١٥هـ) السلطان العثماني الثاني والعشرون. حكم لمدة تسع سنوات. إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٣.

خلق البلوك ٤٧٠٠ نفس، وخفض مثل ذلك مقدار عظيم أيضاً من سائر الطوائف ذوي العلوفة. وكما أن كثرة هؤلاء الطوائف ذوي العلوفة أضرت بالدولة كذلك أضربها قلة أصحاب التيمار والزعامة وقد كان من مقتضى القانون أن أرباب التيمار والزعامة يكونون من أهل البلاد الساكنين داخل اللواء بين الهيئة الاجتماعية، فلما أتى عصر السلطان مراد الثالث،^(١) أسند توجيه التيمار والزعامة إلى خدمة الوزراء وهذا يخالف نصوص القانون المذكور آنفاً فساءت الحال. وكان أهل البلاد وأصناف الرعايا من الأشرار المجهولي الأصل يتزلفون إلى أرباب التيمار والزعامة فيركبون الخيل ويتقلدون السيوف ويتشبهون بهم. وكان من شروط القانون أن العامل الذي كان يسمى يومئذ بكربكي^(٢) إذا وجه تيماراً أو زعامة إلى غير أهلها أتى مستحقو هذه الوظائف إلى دار السعادة وشكوا أمرهم فيكون البكربكي معاتباً ومسئولاً من طرف السلطان، وكثيراً ما كان يعزله عن منصبه. فلما صار توجيه التيمار والزعامة إلى خدمة الوزراء في دار السعادة، لم يجد أصحاب الاستحقاق سبيلاً لإظهار شكاياتهم. وفي عصر السلطان مراد الثالث نال مقربوه وندماؤه الوجاهة العظيمة كما ذكر فاغتصبوا بعض القرى والمزارع التي كانت خاصة بغزاة المسلمين فكانوا يطلقون عليها اسم (اربه لق) وبعضهم تملكها فلما أثروا ثروة عظيمة وزعوا كثيراً من التيمارات والزعامات إلى أتباعهم وحواشيهم، وفعل وكلاء الدولة فعلهم أيضاً فصاروا يوجهون المحلولات من التيمارات والزعامات المهمة إلى خدمهم حتى صار بعضها (اربه لق) وبعضها (بشمقلق) وبعضها ألحق بالخواص الهمايونية، أي الأراضي السلطانية وبعضها خصص لتقاعد أناس صحيحي الأبدان.

١- مراد الثالث (٩٥٣هـ-١٠٠٣هـ) السلطان العثماني الثاني عشر. حكم لمدة عشرين سنة. المرجع السابق، ص ١٠٣.

٢- بكربكي: أي الحاكم العام الذي يضطلع بمسؤولية الجيش، وكان للدولة بكربكي في الروملي وآخر في الأناضول. معجم الدولة العثمانية، ص ٤٨.

وكذلك قسم اغتصبه الأكابر فضمه إلى أملاكه تحت براقع أسماء مستعارة حتى انتقل بعض التيمارات إلى بعض الكتّاب وأغاوات أمراء السناجق وأمراء الأمراء وأغاوات الوزراء وإلى سائر الندماء حتى المهرجين قصار القامة والبكم، وبعضها قيد بأسماء، خدامهم ومماليكهم بمقتضى البراءات السلطانية، وكان ريعها لهم وبعضها جعلها الندماء والمقربون وسائر الحاشية وقفاً لجهات مختلفة، مع أن وقف هذه الأراضي لا يجوز مطلقاً لأنها من حقوق المجاهدين والغزاة. وبدعة وقف الأراضي الأميرية قد ظهرت في أيام السلطان سليمان فإنه عندما اتخذ رستم باشا صهراً له وجعله صدرًا أعظم التفت إليه كل الالتفات وساعده على نيل أمانيه فملكه عدة من القرى التي فتحها أجداده، فلم يكن من الباشا المشار إليه إلا أنه وقفها في وجوه مختلفة. وقد رفع قوجي بك تقريراً بخصوص هذه الأوقاف إلى السلطان مراد الرابع يقول فيه: أنه كان لما يتولى أحد خواص السلاطين كانت مرتباتهم تدخل للخزينة غير أن الذين جاءوا بعد ذلك أخذوا يجعلونها وقفاً خلافاً لنصوص الشرع الشريف فلذلك ضاع قسم عظيم من الحقوق الخاصة لبيت المال فركبوا الأوزار معتقدين أنهم يغتنمون الأجر بذلك. ثم قال: ويوجد عدة أملاك وأوقاف لا يجيزها الشرع الشريف. وهي في ظاهر الأمر أنها من المبرات وفي الحقيقة هي إضاعة لبيت المال. فإن ريع القرى والمزارع الموجودة في الممالك الإسلامية هي نفس بيت المال فهي حق الغزاة والمقاتلين. فكيف والحالة هذه يجوز وقف هذه الأراضي والمزارع التي عين وجه صرفها في الشرع الشريف؟ لعمري إن الأوقاف التي يجيزها الشرع الشريف هي أوقاف حضرات السلاطين الماضية أسكنهم الله في جنانه العالية فإنهم جعلوا قسماً من الممالك التي فتحوها وقفاً لجميع المسلمين. وأنعموا في الزمن السابق على الأعيان الملقبين (بغازي نك) و(بكلربكي) ببعض القرى والمزارع من الممالك التي فتحوها في ظل الدولة العلية جزاء لصدقهم في نصرة الدين والدولة، ثم إن هؤلاء الأعيان وقفوا هذه المحلات بإذن السلطان لجميع المسلمين بقصد نفعهم احتساباً لله، فهذه هي الأوقاف التي أجازها أئمة الدين وما سواها غير مشروع فكيف يسوغ للإنسان بمجرد تقربه من السلطان أن يستولى على القرى والمزارع

التي فتحت منذ سنين عديدة، وهي مختصة ببيت المال؟ أو كيف يصلح وقفها؟

وحاصل القول إن رستم باشا هو الذي فتح باب وقف الأراضي الأميرية التي هي من حقوق الغزاة والمجاهدي، فاقتدى به من جاء بعده فأوقفوها نفعاً لأولادهم وأعقابهم واستدراً لوارداتها عليهم فكان ذلك داعياً إلى نقصان التيمارات والزعامات وانقراض أصحابها.

فعلى هذه الصورة أمست التيمارات والزعامات التي هي حق الغزاة مأكلاً لهذا وذلك، وفي مدة قصيرة اضمحلت هيئة العسكرية العظيمة التي كانت في غاية الترتيب والانتظام وزال رونق الألوية والايالات، فأصبحت الدولة غير قادرة على تأديب العصاة الذين يظهرون داخل البلاد فضلاً عن مقاومة أعدائها من الدول. فمع مرور الأيام لم يبق من أرباب التيمار والزعامات أكثر من سبعة أو ثمانية آلاف. وزيادة على ذلك فقد كانوا عندما يقع الحرب يأبون حمل السلاح وذلك لما وقع بينهم من الخلاف على مرتباتهم، وبيان هذا أن التيمارات والزعامات كانت توجه من الإستانبول فوق الخلل والتناقض في البراءات حتى كان شخصان منهم يدعيان بتيمار واحد بناء على ما بيد كل منهما من البراءات والمقررنامه التي تناقض مضمونها واختلف فحواها، وعندما طرق مسامع الحضرة الهمايونية أن فلاناً مثلاً قد تعرض لحقوق سواه تزويراً منه فصدر الأمر أنه يلزم منعه وردعه وإعادة الحق إلى ذويه وكان الخصمان يحملان هذه البراءة وبينما كان الغزاة يفدون الدولة بأرواحهم في ميدان الوغى كانت أخصامهم تذهب إلى سناجقهم عند حلول موسم المحاصيل فتضبط جميع الربيع وتأخذ قسماً منها ويأخذ قاضي البلدة القسم الآخر.

فتضعضت لذلك أحوال أصحاب التيمارات والزعامات وزالت تأثيرات الفرمانات السلطانية. مع أنه قد كان الأهالي من قبل ذلك إذا ورد إلى إحدى بلدانهم أمر شريف ينتهبون إليه وتحصل دهشة للكبير والصغير منه ويخضعون لمنطوقه خضوعاً تاماً ويقولون إنه حضر فرمان سلطاني. فلما حصل التناقض في البراءات والاختلاف في مضموناتها زالت لذلك هيبتها.

ومن القديم كانت وظائف آلاي بك أي أمير الای. تتوجه على أصحاب الاستقامة وأهل العرض والاعتبار، فصار الولاة يعزلونهم منها بدون سبب موجب استرسالاً إلى منافعهم الشخصية، فسادت الحماية والرشوة والشفاعة وصار أصحاب المناصب يتقلدونها وإن كانوا أسافل ومن رعاع الناس لا يستحقونها، وصار من عادة هؤلاء أيضاً أن يجدوا الأسباب والوسائل المتنوعة ويعزلون هذا ويولون ذاك وأحدث الوجوه أضراراً كثيرة مضرّة. ومع قلة أرباب التيمار والزعامة وضمحل حالهم فقد زادت أشغالهم عما كانوا عليه من قبل. وذلك لأن طایفتی الیورکان والمسلمان^(١) ارتبطتا بمقاطعات مخصوصة. والمشاة في إیالة الأناطولی نسخوا أيضاً خدمة التيمار وصار لا يأتي أحد من هؤلاء إلى الحرب، وكلفت رايات التيمار والزعامة بأثقال حفر المتاریس وما يتعلق بالمدافع وغير ذلك من الأشغال الشاقة، والمشاة الذين هم في إیالة الأناطولی أبطلوا التيمار.

فسرى هذا الخلل في جميع أصناف العساكر ثم إن بعضاً من طائفة الآقنجي،^(٢) تقلدوا وظيفة القول^(٣) ذوي العلوفة، وبعضهم أبى أن يبقى في الآقنجية فانقرضت لذلك هذه الطائفة أيضاً، فاحتاجت الدولة العلية إلى جند التاتار لإيفاء وظيفة الآقنجين المهاجمة، فكان عندما تتلظى نار الحرب يزحف خانات القريم إلى بلاد الأعداء بجنود التاتار البالغين نحواً من ٣٠ أو ٤٠ ألفاً من الخيالة فينهبون ويفتكون. وحينما استولت مؤخراً دولة روسيا على القريم عينت الدولة العلية رئيساً من عائلة سلاطين آل جنكيز على جند التاتار الموجودين في البلاد العثمانية وأخذت في استخدامهم كما في السابق إلا أنه لما تبدلت أحوال

١- تقدم شرحهما.

٢- آقنجي: فرقة الصاعقة أو المغاوير. يلماز وزتونا، مرجع سبق ذكره، ج٢، ص٤٠٧.

٣- قول: بمعنى قسم أو فرقة الجيش. الدراري اللامعات، ص٤٣٦.

العالم وتحولت الحركات الحربية إلى هيئة أخرى وزالت صولة التاتار وشجاعتهم القديمة لم تحصل الفائدة المطلوبة منهم كما حصلت قبل ذلك .

لم يكتف ندماء السلطان ومقربوه بما فعلوه بالغزاة من قطع رواتبهم كما ذكرناه بل فتحوا باب الرشوة وتدخلوا في توجيه الأيالات والألوية وسائر المناصب إلى من يريدون فتأخر ذوو اللياقة وتقدم من ليس أهلها وسروا بما نالوه من الرتب كإمارة السناجق وإمارة الأمراء، وبات أصحاب الاستحقاق مهجورين، وابتذلت رتب الدولة شيئاً فشيئاً وصارت الوزارة تعطى لبعض بكوات السناجق ولعموم أمراء الأمراء وعلى هذا المنوال فقس . ولم يبق للرتب قدر واعتبار كما كان أولاً . ولأنه لما رأى حضرة السلطان سليمان خان، قوة الدولة ووفرة عسكرها مال إلى التفاخر والتنافس والشهرة وعلو الشأن وذهبت الأهالي مذهبه عاملين بما قيل: الناس على دين ملوكهم . فلم تعد رواتب أصحاب المناصب ووظائف طائفة القول تكفي للقيام بنفقاتهم فبسط الظلم والاعتداء جناحه وكلما كثرت أصحاب المناصب ازدادت المظالم والتعدييات أيضاً . وأحدث رستم باشا الذي تقدم ذكره أصول الالتزام بداعي تزييد الأموال الأميرية فطرح ربع الأراضي الهمايونية المسماة خواص همايون والإقطاع للملتزمين . ولما أبى الأعيان أصحاب الدين والإنصاف أخذ الالتزامات أخذها الأراذل والأسافل فصار ذلك سبباً آخر إلى تخريب خواص القرى الهمايونية والإقطاع . فخربت المدن لهذه المظالم والاعتداءات ووقع الرعايا الذين هم في الحقيقة خزينة الدولة في شرك الفقر فنقصت واردات الدولة نقصاً عظيماً ولم يبق من قوة كافية لدفع أيدي الأعادي الذين تطاولوا على الحدود الخاقانية، فذهب أكثر المدن وزاد خراب الباقي بكثرة الفتن والفساد الداخلي .

إن مصالح الدولة وإن تكن تحسنت في أيام السلطان مراد نظراً لشدته وبطشه ولكن بعدها رجعت إلى حال أسوأ من الأولى . والدولة وإن كانت قد تقوت

لسوكها على النظام الذي رتبته في آخر الأمر محمد باشا كوبريلي،^(١) فإنها بعد بمدة وجيزة أخذ أمرها في الاختلال.

وفي ذلك العصر أخذت الفنون والصنائع تترقى في أوروبا وتحول تنظيم العساكر وتعليمهم إلى هيئة جديدة، وبناء على هذا فكان يجب على الدولة وقتئذ أن تصلح ما اختل من نظامها وأن تصلح أمر تنظيم عساكرها وتنظر في أدواتها الحربية، غير أن السفاهة التي كانت سائدة في أيام وزارة إبراهيم باشا، صهر^(٢) السلطان حالت دون ذلك فطراً على جسم الدولة الكسل، وعلى أخلاق الأمة الخلل. فلو لم يأت بعد ذلك بمدة أيام حضرة السلطان محمود الأول^(٣) المشهور بالغيرة والحمية لكان يتوقع من ذلك الوقت؛ الخوف على الدولة من وقوعها في خطر عظيم وخلل جسيم.

ولا يخفى أن حضرات أسلاف السلاطين العثمانيين العظام كانوا يخرجون مع عساكرهم الهمايونية وقت الحرب إلى أكثر الغزوات، فإذا عادوا إلى مقر السلطنة لا يكتفون فيه مدة مديدة، بل كانوا ينصبون أحد الوزراء قائمقاماً لإستانبول، ويحيلون وظيفة ضبط البلدة وربطها إلى مأمور يسمونه سكبان باشي بمعنى ناظر الضبطية وهو آغا الإنكشارية الثاني، ويذهبون بعد ذلك مع رجال الدولة والعلماء والوزراء والمستشارين وبطانة السلطنة فيجولون تارة في جوار أدرنه ويكي شهر، وآونة يصرفون أوقاتهم في الصيد والقنص اللذين هما من ضروب تمرينات الحرب، وحيناً يأتون بحركات وأعمال تتعلق بالحرب كرمي الأهداف بالرصاص والسهام فصارت لذلك أركان السلطنة وسائر المأمورين في

١- محمد باشا كوبريلي: أحد أشهر الصدور العظام في عهد الدولة العثمانية، تولى الصدارة سنة

١٠٦٦هـ في عهد السلطان محمد الرابع، توفي سنة ١٠٧٤هـ. قاموس الأعلام ٥/٣٩٠٧.

٢- إبراهيم باشا: الصدر الأعظم وصهر السلطان أحمد الثالث (١٠٨٤هـ-١١٤٣هـ).

٣- تقدم الحديث عنه.

أيام السلم بمثابة قوة سيارة خفيفة المؤنة، أعنى أحوالهم أحوال المسافرين لا همة لهم في أمور الرفاهية ودواعيها التي تقتضي كثرة النفقات، فلذلك كانت وارداتهم تزيد على نفقاتهم. ومما يروى أن أحمد باشا^(١) صهر رستم باشا،^(٢) تقلد مرتبة الوزير الرابع في محاربة سكتوار ثم رقي فصار وزيراً أعظم. ولما تقلد الوزارة في الابتداء كان لا يملك من ألبسة الأبهة غير فروتين يلبس احديهما في الديوان الهمايوني والثانية في بيته، مع أنه كان يملك خمسمائة عبد كاملي العدة والذخيرة. وكان كل الوزراء على هذا المنوال ولكل منهم في ضياعه مائة قطار من البغال ومائة من الجمال، فكانوا لذلك إذا سار أحدهم مأموراً إلى جهة من الجهات يستغنى عن شراء جمل أو حصان وتيسر عليه أسباب السفر في مدة ثلاثة أيام. ثم انتقلت الدولة العلية من أحوال البداوة إلى أحوال الحضارة، فكان حضرات الخواكين العظام يكتشون دائماً في دار الخلافة حتى ألقوا الراحة، وتبعهم في أحوالهم سائر رجال الدولة فعمرؤا القصور الشامخة والبنائات العظيمة داخل إستانبول وجملوها بأنواع الزينة والزخارف والأثاث الثمين على حسبها، فسرى داء التشبه إلى العامة فتكلفوا لاتخاذ الملابس الفاخرة والمفروشات الجميلة إلى غير ذلك من دواعي الترف فزادت مصاريف المأمورين زيادة فاحشة على وارداتهم الأصلية، فاضطر أصحاب المناصب إلى الرشوة والارتكاب. وجعل أصحاب الإقطاع والزعامات يلزمون أراضيتهم بأجور باهظة، والملتزمون كذلك يكلفون الفقراء من الرعايا بما لا طاقة لهم على تحمله من الظلم والجور تحصيلاً للأموال التي دفعوها وربحاً باهظاً لأنفسهم فأكروهوا بذلك أكثر الأهالي على مهاجرة أوطانهم، فارتحل الرعايا وأهل الذمة منهم إلى البلاد الأجنبية وأكثرهم أتى الأستانة واستوطنوا بها وكثروا، حتى غصت ديارها بالواردين إليها فلم يبق

١- أحمد باشا : أحد الصدور العظام في عهد السلطان القانوني.

٢- رستم باشا: أحد الصدور العظام في عهد السلطان سليمان القانوني وتولى الصدارة قبل أحمد باشا المذكور.

فيها محل فارغ من السكان ، وكانت البيوت والبنيات متصلة ملاصقاً بعضها ببعض فضاقت مع اتساعها وكثرة بيوتها، فكثرت لذلك وقوع الحريق وفسد الهواء من العفونة الكثيرة لازدحام النفوس فانتشرت العلل والأمراض وعزت المؤنة والغلات بيد السلطان، فاضطرت الحكومة إلى ابتياعها فكان الباعة يظلمون الأهالي ظلماً فاحشاً كما سنبين ذلك في محله، وهذا صار داعياً آخر إلى خراب البلاد، وسقوط العباد في إشراك الفاقة.

ومن المعلوم أن انتقال الأمم من حال البداوة إلى حال المدنية وترقيها في مراتبها يستدعى اتخاذ التدابير اللازمة لأحوالها وقيامها بما تستوجبه أحوال الزمن وهو أمر طبيعي. فكان من فروض وكلاء الدولة وهم في حال الحضارة أن يوجهوا أنظارهم إلى إكثار الفنون والصنائع، وتوسيع نطاق الزراعة والتجارة، وتعليم العساكر وتدريبها كعساكر الأمم المتقدمة، تقوية لدعائم الملك وتعزيزاً له، غير أنه بدلاً من أن يهتموا فرص الزمن ويتشبثوا بالوسائل الداعية إلى بقاء الدولة في حال حضرتها صرفوا أفكارهم عن ذلك وأمضوا أوقاتهم في الشهوات والسفاهة التي نشأت عن الأحوال الرديئة التي كان عليها إبراهيم باشا فإنه كان يصرف أوقاته بالملاهي والملاذ. فتعصب لذلك الجند وقرءوا على الدولة وحاولوا دون إجراء التدابير النافعة لها ولا سيما أن الإنكشارية نبذوا النظام ظهرياً لفرط جهلهم وتعصبهم، ولم يتركوا الفرصة للدولة لتنظيم عسكر جديد فصارت لذلك مرتبات العسكرية نهبة بين الناس. ولما كانت مسألة تنظيم الجند تمس أكثر الناس كان أكثرهم يأبى ذكرها بلسانه.

يقول جاويد أحمد بك: ^(١) إن العساكر الإسلامية في ابتداء أمرهم عندما كانوا منقادين إلى الروابط والنظامات؛ كانت شجاعتهم وبسالتهم لا يختلف فيها

١ - في تاريخه «منتخبات جاويد بك». انظر مصادر المؤلف في أول الكتاب.

اثنان. ثم إنهم في عصر السلطان أحمد الثالث عندما جرى الاحتفال الهمايوني وقتئذ وبمساعدة إبراهيم باشا المقتول لا اراحه الله، ألحق أصحاب المطافي^(١)

بسلوك العسكر المسمى قول، فاختل نظام الجند وامتلا وجاق الإنكشارية العامر بأسافل الناس. وفي الواقعة التي جرت في سنة ثلاث وأربعين،^(٢) قل وجود الأعيان الذين يعرفون النظام وينقادون إلى القانون. وفي جلوس حضرة السلطان محمود الأول أعدم كثيراً من الأشقياء وعم هذا البلاد كثيراً من الذين لا جنحة لهم والذين ينتفع بأشغالهم. وفي حرب إيران قتل كثير من الذين كانوا من الإنكشارية حقيقة، فلم يبق منهم من يعرف فروض القانون وحق رعايته إلا القليل ثم آل الحال إلى ما هو مشهور ومعلوم عند الجميع. ومن العادة أنه يُقام على حراسة الثغور شزيمة من الجند فألف لذلك كثيرون الدخول في معامع القتال، غير أن إبراهيم باشا المقتول كان انس بالترف فأبعدهم عن مراكزهم استرسالاً إلى مرضاة الأجانب، كما أنه أعدم كثيراً من أصحاب الشهامة والإقدام في الأستانة لأسباب واهية، فضعفت لذلك قلوب الرجال ولم يبق من ينتفع به منهم. ثم أخذ أغاوات الإنكشارية يبدلون الرشوة لنيل المناصب كما أنهم يأخذونها أيضاً لتوظيف غيرهم في وظيفة الضباط وصارت وظيفة الأسامي، وهي وظيفة عسكرية ذات راتب كوظيفة الدعاكوا، أي الذين لهم معاشات ولا وظيفة لهم إلا الدعاء تباع وتشتري وإذا كان أحد الإنكشارية حائزاً على سبعة آقجايات من الأسامي كان يرى نفسه أنه في راحة أعظم من راحة وزراء الدولة، وكان يعتقد أن ما ناله هو عناية كبرى، فصار أغاوات الإنكشارية الذين نالوا هذا المنصب بالرشوة وبغير استحقاق كانوا يرسلون عند صرف مرتباتهم معاش عشرة أيام أو عشرين يوماً من معيناتهم اليومية لرجال الدولة وأهل النفوذ فيها استجلاًباً

١- أصحاب المطافي: ويطلق عليهم بالتركية «طلومباجيلر» أي الجماعة التي تدير مضخات الإطفاء. انظر النسخة التركية من تاريخ جودت، ج١، ص٨٦.

٢- أي سنة ١١٤٣هـ، وفيها قام الانكشاريون بالعصيان ضد سياسة الصدر الأعظم إبراهيم باشا وانتهت بقتل الصدر الأعظم واعتزال السلطان. انظر إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص١٦٣.

لخواطرهم، فلم يبق مع هذه الحال شجاع يركن إليه ويعول عليه من الإنكشارية الحقيقيين، فصارت لذلك الأسامي أي الوظيفة العسكرية التي كان يفتخر بها بمنزلة علوفة الكمرك التي تعطي إلى خدمة قضاة العسكر وخدمة رجال الدولة المعروفين بقبوجو قدار،^(١) فسقط لذلك اعتبارها. ولما رأى الجند أن مرتبات الخدم تزيد على مرتباتهم ثلاثة أضعاف مع ما هم عليه من تحمل المشاق كحضر المتاريس وتعرضهم للجراح وأذى البرد؛ ضعفت همهم وتمنوا أن يكونوا في عددهم بدلاً من أن يكونوا جنوداً. وصارت الوظائف العسكرية المومي إليها تنتقل يومياً إلى أرباب، التقاعد فقل عدد العساكر الاشكنجي - أي المشاة - حتى أصبحت الدولة عند وقوع حرب ما مضطرة إلى تجديد جند الأسامي وزيادته فثقل ذلك على خزينتها. وقد اعترف ملوك النصارى بشجاعة العثمانيين الإنكشارية ورأوا أن دون مقاومتهم صعوبات كلية وعرفوا أنهم يعتقدون أن من مات منهم في الحرب مات شهيداً فلا يخافون الموت. وكان الفرس في محاربتهم للدولة يسألون أولاً هل يوجد بين العساكر العثمانية من يكثر السجود- يريدون بذلك الإنكشارية- ولكن قد تغيرت حالهم بعد ذلك واختل الأمر وأصبحوا لا نفع لهم بشيء وحاصل القول إن وجاق الإنكشارية وخلق البلوك كانوا من الطبقة الأولى بين جميع جنود الدنيا غير أن تحول مرتباتهم العسكرية ودخول الخلل في نظامهم فصم عروتهم النظامية، وصاروا في حال أسوأ من حال عسكر النفير العام.

وفي عصر السلطان أحمد الثالث ما أمكن التشبث بالنظمات اللازمة، كما أنها لم تيسر في عصر السلطان محمود الأول للمفاسد الداخلية والخارجية فأخذت حال العساكر تتغير يوماً بعد آخر حتى ضعفت الدولة وتغيرت أحوالها على حين كانت دول أوربا مجتهدة في ترقى الفنون والصنائع وكان في أمل

١- قبوجوقدار: مأمور بمعية معتمد الأشغال. الدراري اللامعات، ص ٤١٢.

حضرة السلطان مصطفى الثالث أنه يرتب أمور العسكرية وينظمها فأنشأ لها مدافع سريعة الطلق بمناظرة طُوت بك^(١) زاده المجري وأحد ضباط فرنسا، وأجرى إصلاحات كثيرة في الطوبخانة،^(٢) غير أن مسألة تنظيم العساكر وتعليمها قد بقيت تحت المطالعة إذ لم يوفق لإجرائها. وفي ذلك الزمن قل الذين يعرفون حال الدولة وما تحتاج إليه من الرجال وأركان السلطنة فلما أشهرت الحرب في سنة ١١٨٢هـ على حين فجأة، كان نظام العساكر الإسلامية وقوانينها في اختلال على نحو ما ذكرناه، وكانت المرتبات العسكرية نهبة للذين لا يصلحون للجندي فأصبحت الدولة مضطرة إلى جلب رجال من الفلاحين وأرباب الحرف الذين ما اهتموا رائحة البارود ولا ألفت آذانهم استماع صدى القنابل والمدافع، فجمعتهم بشق الأنفس وبذلت لهم النفقات الباهظة ثم أرسلتهم إلى الحرب بمنزلة جنود معلمة فلم يقفوا أمام العساكر المنظمة لكونهم غير مدربين، بل أركنوا إلى الفرار. فالهزائم التي كانت متوالية أثبتت للعالم أجمع لزوم النظام الجديد وأبانت فائدته، غير أن اعتداء الانكشارية وعتوهم واختلال أحوال سائر الطوائف قد حال دون وقوع ذلك. وكان حضرات السلاطين العظام السالفين يهددون خلق البلوك الستة بالإنكشارية ويهددون الإنكشارية بخلق البلوك ويهددونهما معاً بأرباب التيمار والزعامات فلما اختل نظام هؤلاء كما سبق وبلغ درجة الاضمحلال وصار في حكم العدم لم تبق الدولة قوة تكره بها أصحاب الأوجاقات على الطاعة والانقياد.

وكما اختل نظام الملكية والعسكرية على ما بيناه سابقاً اختل أيضاً نظام أرباب الطرق العلمية وقوانينها ولنشرح على وجه الإجمال أحوال الطرق المذكورة السابقة واللاحقة.

١ - واسمه البارون دو توت.

٢ - الطونجانة: معمل المدافع، الدراري اللامعات، ص ٣٦٣.

الخلل الذي طرأ على الجوانب العلمية^(١):

كان أسلاف السلاطين العثمانيين يبذلون غاية الهمة والاعتناء في ترويج العلوم والمعارف حتى امتلأت مدينة بروسة^(٢) بالعلماء والفضلاء والشعراء وأصحاب الإنشاء. وبعد فتح استانبول واتخاذها قاعدة للملك بذل حضرة السلطان محمد خان الفاتح جهده في سبيل ترقية العلوم والمعارف فيها (فراجت سوق العلم والمعرفة رواجاً عظيماً)^(٣) حتى كان يحضر إلى الأستانة العلية من جميع الجهات العلماء الذين يشار إليهم بالبنان، فشيدت المدارس العلمية الكثيرة في مدة وجيزة وملئت دار السعادة بأهل العلم والمعرفة، وأضحت رتبة التدريس في غاية الاعتبار لأنها موصلة إلى المولوية^(٤) وقاضى عسكر، وكان الوصول إليها لا يتيسر بمجرد العلم والأهلية بل بالاشتغال في المدارس زمناً طويلاً تحصيلاً للملازمة التي هي مدخل للتدريس. وإذا أراد أحد الطلبة التوصل إلى درجة العلماء تعين عليه أن يثابر أولاً على الدرس الابتدائي عند أحدهم ثم يأخذه شيخه إلى أحد المدرسين فيقرأ عليه الدروس الداخلية، ولا يزال على ذلك إلى أن يكتسب الأهلية لدروس صحن، ولأجل الدخول في مدارسها كان ينبغي للطالب أن يكمل العلوم المعينة في المدارس التي هي لها في حكم المدارس الإعدادية ويقال لتلك المدارس موصلة صحن، ومدارس صحن هي المدارس الثمانية المبينة بالحجر والمسقوفة بالرصاص في طرفي الجامع الشريف للسلطان محمد الفاتح، ويقال لها صحن ثمان، والطلبة المقيمون في حجر هذه المدارس

١- وضعنا هذا العنوان لزيادة توضيح الموضوع الجديد الذي بدأه المؤلف.

٢- بروسة هي بورصة الحالية في شمال غرب الأناضول، وكانت ثاني عاصمة اتخذها العثمانيون بعد مدينة أسكى شهر.

٣- «فراجت سوق العلم رواجاً عظيماً» ذكرها المعرب بهذه الصيغة «فنفتت سوق العلم نفاقاً عظيماً» فعدلناها إلى «فراجت.. رواجاً» لتطابقها مع ما يقصد المؤلف ولركاكة ما ذكره المعرب.

٤- أي لقب ملا.

كانوا من أفاضل العلماء ولهم تآليف عديدة مقبولة ويقال لقدماتهم معيد، وهم الذين كانوا وكلاء على التلامذة يقرئونهم العلوم في المدارس الثمان المسماة تنمة وهي في مقام الإعدادية الواقعة وراء تلك المدارس. يقول قوجي بك،^(١) في رسالة قدمها إلى السلطان مراد الرابع أنه إلى حين تاريخ ألف كان لمعيدي صحن قدر واعتبار نظير المدرسين الآن.

ف هكذا كان الطلبة ينتقلون من المدارس الابتدائية إلى المدارس الإعدادية، فيكملون العلوم والفنون وكانت أسماؤهم تقيد في الروزنامة الهمايونية، أي السجلات السلطانية عندما يصيرون ملازمين داخل صحن وخارجه. والحاصل أن الملازمين كافة كانوا من أصحاب العلوم والمعارف ولم يكن فيهم أحد من الجهلاء أو من مجهولي الأحوال. وحينما يتحقق أن أحدهم امتاز على أقرانه بعلومه ومعارفه ونال عنوان (قدوة العلماء المحققين) يعطى له الرؤوس المدرسية في مدرسة من مدارس (ابتداء الخارج) وبعده يترقى تدريجاً ويحوز إذا أتت نوبته على رؤوس مدرسة من مدارس (داخل) و(صحن) ويكون بذلك حائزاً على الشرف والاحترام، والذي لا يحوز على هذه الرتبة من أصحاب المعارف والعلوم ينال منصب القضاء، وكلهم كانوا من العلماء المستحقين للاحترام والإكرام لا سيما المدرسون الكرام فإنهم كانوا في نظر الناس بمثابة المجتهدين، وحيث إن أرباب العلوم والمعارف كالأطباء والمهندسين يتعينون من بين أولئك الطلبة كانت تلك المدارس مركزاً لتربية العلوم ومنشأ للحاكم والحكيم ولسائر أصحاب المعارف الذين هم الأعضاء الرئيسية في جسم الهيئة الاجتماعية.

ولا حاجة لبيان قدر وصيت المدرسين الذين يهتمون بالأمر الأهم في التدريس. وخصوصاً مدرسي صحن ثمان، لأنهم كانوا ممتازين بين جميع العلماء وكانوا رفيعي الشأن في أنظار الخواص والعام. ولما كان أحد العلماء واسمه علي جمال أفندي في الحجاز وجهت عليه مشيخة الإسلام، فنصبوا له وكيلاً من مدرسي (صحن) لحين مجيئه وهذا دليل على علو منزلتهم ورفعة شأنهم.

١ - انظر مصادر المؤلف في أول الكتاب.

وكان جميع المدرسين يحق لهم العنوان المحرر في فرمانات رؤوسهم وهو (قدوة العلماء المحققين)، وكانوا يدرسون العلوم والفنون في الحُجَر المعدة للدروس في المدارس، وما كانت تعطى رتبة رؤوس التدريس إلا إلى الذين كانوا يلزمون في طريقها وينالون ما يسمونه ورقة الملازمة أي الشهادة، فيبدلون حينئذ مساعيهم مدة طويلة في التضلع من العلوم العالية ويثبتون أهليتهم وكمالهم بين أقرانهم وأمثالهم كما بيناه قبل هذا. وكان هؤلاء يعينون بداءة ذي بدء إلى التدريس في مدرسة من المدارس التي هي أقل مرتبة من المدارس الأخرى، وبعد ذلك يترقون في مناصب التدريس كما كانوا ينتقلون من مدرسة إلى أخرى أثناء تحصيلهم العلوم.

وكان منصب قضاة عسكر الذي هو بمقام قاضي القضاة وقضاة البلاد الجسيمة كاسلامبول وأدرنه يوجه إلى العلماء الحائزين على رتب التدريس. وكان قضاة العساكر يتقلدون منصبهم مدة عشر سنين أو خمس عشرة سنة كما كان غيرهم من القضاة والموالي^(١) يثبتون في مأمورياتهم مدة مديدة فلا يعزلون منها بغير موجب، وبعد انفصالهم يصيرون من أهل التقاعد بمرتبات كافية وكان بعضهم يختار التقاعد بمعاش التدريس.

ولما صارت المعسكرات الهمايونية شديدة الاحتياج إلى زيادة الأطباء والجراحين في بداية عصر السلطان سليمان خان وزادت أهمية المهندسين على ما اقتضيته الأحوال شيدت مدرسة طبية بجانب جامع السلیمانية الشریف وفصل صنف الأطباء عن غيرهم وبنيت في جوارها دار الشفاء (مستشفى) وهي لم تكن تخطر على بال أحد من أهل أوروبا من قبل ذلك الحين، وشيد أيضاً أربع مدارس كبيرة بجوار الجامع الشریف المذكور، وجرت العناية الكبرى في ترويج العلوم

الرياضية ونشرها فيها ؛ لأنها مقدمات الفنون الحربية ، ثم أنشئت دار الحديث أمام الجامع المذكور ، واعتبر عدة من جملة المدارس إعدادية للمدارس السليمانية وسميت موصلة سليمانية .

وبعد ذلك قسمت رتب المدرسين إلى اثنتي عشرة رتبة وذلك لما اقتضته الأحوال المشروحة سابقاً ونظراً لمقدار الرواتب المخصصة للمدارس وهذه الرتب الاثنتي عشرة هي (ابتداء خارج) (ابتداء داخل) (حركة داخل) (موصلة صحن) (صحن ثمان) (ابتداء التمثلي) (حركة التمثلي) (موصلة سليمانية) (خوامس سليمانية) (سليمانية) (دار الحديث) .

ويقال للحائزين على رتبة موصلة سليمانية وما فوقها كبار المدرسين فهؤلاء يكونون متهيئين للمولوية . وأما دونهم فصنفان الأول منهما الحائزون على رتبة صحن ثمان فما فوقها ، والثاني الحائزون على رتبة موصلة صحن فما دونها ، والفرق بين هؤلاء أنهم كانوا يذهبون أيام الملازمة في يوم الخميس من كل أسبوع لمقابلة شيخ الإسلام ، فالذين يكونون حائزين على رتبة صحن ثمان وما فوقها يجلسون في حجرة مخصوصة ، وأما الباقون أي أصحاب رتبة موصلة صحن وما دونها فيتظرون خارجاً وكانوا عند دخولهم بالطريقة الرسمية على شيخ الإسلام يرأسهم جميعاً مدرس دار الحديث .

المراد بدار الحديث المدرسة المذكورة آنفاً الواقعة أمام جامع سليمانية ومدرسها هو أقدم جميع المدرسين وأما قولنا سليمانية فهو عبارة عن المدارس الأربع المذكورة أعلاه وهي المدارس المبنية بالحجر في سوق الصبايين (دوكمجیلر) ولهذه المدارس أربعة مدرسين ورتبة المدارس المذكورة هي في الدرجة الحادية عشرة من طريق التدريس . وخوامس سليمانية هي المدارس الخمس التي هي بين موصلة سليمانية وبين مدارس السليمانية الأربع كان يتعين لها من مدة قريبة خمسة مدرسين لا غير ثم كثر عددهم بالاعتبار أعني حكماً لا فعلاً . وكلمة خوامس

تطلق في دفاتر المدرسين القدماء على (خواص سليمانية) ثم أطلق عليها في الدفاتر الجديدة خامسة سليمانية ومدرسو (صحن ثمان) كانوا كما سبق ثمانية لا يزيدون ولا ينقصون. أما المدارس الباقية فمن كونها تعددت وكثرت رتبت بحسب مقدار مرتباتها والحقت بإحدى الدرجات المذكورة.

والأعيان الذين كانوا ينالون مناصب المولوية وقضاء الروم إيلي والأناطولي وقضاء استامبول كانوا متصفين بالأوصاف العالية متسمين بالفضائل يتقلدون مناصبهم مدة مديدة ويحافظون على حقوق العباد بالعدل، وكانوا يحضرون مجلس الشورى ويقفون على أسرار السلطنة وأحوال المملكة فيوفون للأمور النافعة للدين والدولة. وكانوا بعد انفصالهم يتعيشون بمعايش التقاعد فيصرفون عمرهم في الدعوات الخيرية للحضرة السلطانية ويؤلفون تآليف عديدة في أيام تقاعدهم.

وكان جميع القضاة المأمورين بإجراء الأحكام الشرعية في بقية الممالك المحروسة مجربي الأطوار، مشهوري الأحوال، علماء عارفين، قد تربوا وتعلموا في المدارس عدة سنين كما ذكرناه، فاشتهروا بالعدل في أحكامهم بين العباد، فإذا عرضوا للدولة شيئاً كان لكلامهم تأثير وإذا تجرأ بعض الظلمة على ظلم أحد من الناس حالوا دون نفوذه حتى صاروا كلهم سبباً في انتظام أحوال البلاد وعين الرحمة للعباد.

كانت الطرق العلمية في هذه الحال مضبوطة نقية، حتى إذا قال العلماء في قضية هذا أمر الله، قال الكل: السمع والطاعة فلا يتجاسر أحد على المخالفة.

وقد قال قوجي بك في رسالته السالف ذكرها إنني لما جئت إستامبول لم يكن للعلماء العظام خدم وحشم مثل هذا الوقت، لكن إذا مر أحد المدرسين في الطريق يقابله الناس بالإقبال التام وكمال التعظيم والاحترام فكان مقامهم محفوظاً، وجاههم عظيماً. ومن بعد سنة ألف أخذت قوانين الطريقة العلمية

ونظاماتها تتغير، حتى دخل التسامح في كل أمر وكثر التداخل في المصالح، حتى قضت الأحوال بإعطاء المناصب إلى غير من يستحقها، فصار قضاء العسكر يعزلون لغير ذنب في مدة وجيزة فالذين ابتلوا منهم بالطمع والحرص صاروا يحسبون زمان توليتهم فرصة اغتنموها فكانوا يوجهون المناصب إلى غير أهلها وصار الموالي يبيعون أوراق الملازمة أيضاً كما أن أوراقها صارت تعطى بزيادة عن قانونها ونظامها وبغير طريقتها وحيث إنها مدخل لطريقتي التدريس والعلماء فباختلال نظامها اختل هذان الطريقتان أيضاً، وصار عوام الناس وكتبته (ويوه ده)^(١) أي أمراء المقاطعات (وصوباشي) أي الضباط ملازمين بواسطة الدرهم والدينار وفي برهة يسيرة صاروا مدرسين وقضاة فامتلاً صحن العلم بالجهلة، ولم يتميز العالم من الجاهل. بينما كان يشتغل المدرسون بتدريس العلوم في مدارسهم تركوا شرط الخدمة الفعلية، وصار مدرس المدرسة يعتبر وجوده في ذلك الصنف المحدود منه شيئاً وهمياً. وما برحت هذه الأمور تزداد شيئاً فشيئاً حتى صار المدرسون لا يذهبون إلى مدارسهم وربما لا يسألون عن محلها وفي أي جهة هي. وبعد أن صارت المدارس خراباً واحترقت ولم يبق إلا عرصاتها كان يوجه التدريس إلى مدارس هوائية^(٢) كاسم بلا جسم وكثر عدد المدرسين وتُنوَسِي أمرُ التدريس الذي هو من وظائف المدارس. وصارت وظيفة التدريس عبارة عن ترفيع الدرجة بالنقل من مدرسة إلى أخرى أو عن مجرد ترفيع الرتبة. على أنه وإن كان الامتحان الأصولي الذي وضع وتأسس لأجل منع دخول الذين هم ليسوا من أهل هذه الطريقة ما برح مرعياً، غير أنه كان مخصوصاً بطلبة المدارس القانونية، وبقي باب أخذ الرؤوس بلا امتحان مفتوحاً إلى ذوي البيوت

١- ويووده: كلمة أفرنجية بمعنى محافظ، والي، أمير، وتستخدم قليلاً في العثمانية التركية. انظر الدراري اللامعات، ص ٥٣٠. وكان هذا اللقب يطلق على أمراء بعض مناطق البلقان مثل البغدان والأفلاق.

٢- في النسخة الأصلية للكتاب «هويي مدرسه» ومعناها مدارس واهية هزيلة، انظر الدراري اللامعات، ص ٥٣٤.

المعتبرة وبعض المنسوبين . أما أبناء الصدور، القضاة فإنهم ينالون وظيفة التدريس على حداثة سنهم، ثم لا يلبثون أن يترقوا في الوظائف، حتى إن الواحد منهم كانت تأتية نوبته في المولوية قبل أن يدب عذاره . وقد كان يوجد بينهم من اكتسب الكمال وحصل العلوم في ذلك الوقت ولكن أكثرهم كانوا ينظرون إلى المناصب والراتب العلمية بنظر الإرث الأبوي فلا يكلفون نفوسهم مشقة التعلم ولذلك استمروا في الجهالة . وأخذ الوزراء وبعض رجال الدولة في إدخال أولادهم وكثير ممن لا فائدة فيهم في الطريقة العلمية، حتى امتلأت هذه الطريقة بأهل الجهل واستوى في الترقى العالم والجاهل .

ولم يكن ينظر في المولوية إلى التولية الفعلية فلذلك صارت إدارة الأعمال على الأكثر في يد النائب، وصارت المدة العرفية لولاية القاضي وهي سنة واحدة في حكم الأمور القانونية، وصارت المولوية عبارة عن أخذ الرتبة والمقام، وقسمت أيضاً إلى درجات متعددة مثل المدرسين وهكذا في كل سنة يوجه مخرج المولوية إلى ثمانية من المدرسين، وهم مدرسو دار الحديث والسليمانية وثلاثة من المدرسين الذين هم في أدنى درجة منهم بشرط أن تكون مدتهم سنة واحدة، وبعد الانفصال يعتبرون من معزولي المخرج ويوجه إلى أربعة منهم في كل سنة قضاء مصر والشام وبروسه وأدرنه، وعلى أن يكون لهم هذا المنصب سنة واحدة أيضاً إلى اثنين من معزولي هؤلاء قضاء مكة والمدينة، وإلى أحد معزولي هؤلاء قضاء استامبول، وإلى أحد معزولي إستامبول صدارة الأناطول يعني قاضي عسكرها، وإلى أحد معزولي الأناطول قاضي عسكر الروم إيلي، وصار ذلك على وجه الرسم والعادة .

وعلى هذا النحو كان يخرج بوظيفة المولوية في كل سنة ثمانية مدرسين ثم يتعين ثمانية من الدرجة التي هي أدنى منهم في مواضعهم . وكان هذا الترتيب متصلاً كالسلسلة يعتبر من الأعلى إلى الأدنى إلى حد رتبة خارج . ولما كان طبيعياً أعنى لابد من فتح طريق للترقي في كل سنة كان عدد الخارجين برتبة ابتداء خارج من الدرجة السفلى أكثر منه إلى عدد الخارجين من الطبقة العليا، وكان

عدد مدرسي صحن ثمان محصوراً في ثمانية أشخاص فقط . ثم تراكم وتزايد أيضاً عدد مدرسي موصلة وتزاحموا فسميت تلك الدرجة (باتاق) أي وحلة غبيطه .

وقد ترك النظر أخيراً في أمر التقدم والامتياز من جهة الفضيلة والعلم الاستحقاق والأهلية، وإنما اعتبر مسلكاً وأصولاً، الأقدم فالأقدم، وبقي قاعدة استثناء تعرف باصطلاح المدرسين بالطفرة. وهي أن المنتسبين إلى ذوي الشرف والمتدربين بواسطة ذوي الشفاعة المجبرين كانوا يتقدمون على كثير من القدماء. وهذه القاعدة أيضاً بعينها كانت جارية في رتب الصدور والموالي وذلك بأن يعطى إلى أحد المدرسين رتبة مخرج، ويكون في حكم معزول المخرج، ويعطى إلى أحد معزولي المخرج رتبة مكة، ويكون في حكم معزول الحرمين، فكثير لذلك عدد الذين نالوا رتب الصدور والموالي والمدرسين وقد ورد في لائحة تاتار جق عبد الله أفندي المشهور الحائز رتبة روم إيلي التي كتبها في نظام الدولة، فقال: إن كثيراً من الذين أدخلوا في طريقة التدريس نالوا المولوية ثم ترقوا إلى رتبة قاضي عسكر الرفيعة من دون استحقاق ولا قابلية ولا أهلية ولا فائدة تحصل منهم للدولة، ومع ذلك فإنهم يرون ذلك قليلاً عما يستحقونه بل يستحقونه ثم أنهم يتفاخرون ببلوغهم رتبة القاضي عسكر فيظهرون الجبروتية ويتكبرون ويصرفون أوقاتهم في ذكر مساوي بعضهم بعضاً. فلا شغل لهم إلا هذا، ومن حيث إن هؤلاء بلغوا هذه الرتب السنية فقد أصبحت المحافظة على مقامها واعتبارها من واجبات السلطنة السنية، ولا شك أن إدارة هؤلاء حمل ثقل على الدولة بلا فائدة .

ولما كان من الواجب على ذمة الحكومة أنها توجه اعتنائها إلى أصحاب المراتب، عينت لكل من المدرسين والصدور والموالي قضاء يتولى إدارته نائب له . فيتناول النائب منه حصته المعينة، والباقي يأخذه صاحب المنصب باسم معيشة

١- آربه لق : راتب للمعيشة بدون وظيفة . الدراي اللامعات، ص ١٦ .

للمدرسين، وأربة لق^(١) للصدور والموالي. فكان الصدور والموالي يتعيشون على هذا الوجه ويوجهون للجهات نواباً من أقاربهم وأتباعهم ولكون هؤلاء أيضاً ليسوا من أهل القضاء فيلتزم كل منهم لتعيين نائب لإدارة القضاء جرياً على سنن رؤسائهم فأصبحت النيابة في جميع الأفضية هي دستور العمل، وأصبحت رتبة القضاء نهبة للصدور والموالي والمدرسين، وتبعهم في انتهابها الجوخدارية^(١) وسائر الخدمة. ثم إن الطريق العلمية التي وضعت لنشر المعارف والعلوم وأحقاق الحقوق صارت وسيلة لتعيش من ليسوا بأهل لها فنشأ عن وقوع ذلك فساد وخلل كلي للملك والملة.

ولما زاد عدد المدرسين أصبح أكثرهم في حالة تشبه حال المتسولين، وتبدل عز وشرف التدريس بالذل، وكان مخرج المناصب محصوراً في الأصل بقضاء القدس وحلب وأزمير وسلانيك ويكيشهر وفنار وغلطة، ثم ضم إليه أخيراً قضاء أسكدار وقضاء أيوب.^(٢) وذلك بالنظر إلى كثرة المدرسين. وعلى الوجه المشروح أخذ يظهر في كل سنة ثمانية من معزولي المخرج، وما حدث هذا إلا عن كثرة الموالي الذين لا يمكن أن يوجد لهم مرتبات تقوم بإدارة معيشتهم، لكن الدولة لم تر وسيلة لدفع الضيق عنهم إلا أن توجه لكل منهم قضاء يتولاه فيتعيش معه باسم أربه لق. على أنهم هم أيضاً قد صرفوا النظر عن كونهم يستخدمون نواباً ذوي دين ومعرفة بإجراء الأحكام الشرعية بل استخدموا نواباً أهل مكر وجباية من الجهلة والأسافل ليكون لهم بهؤلاء القوم من الفائدة ما يكفي لسد مصاريفهم الباهظة. وهكذا كان هؤلاء النواب الخاسرون في حال وصولهم إلى القضاة يتصدرون للمفاسد لاستغلال أموال العباد. ويشركون مع أرباب الظلمة فيظلمون عباد الله العاجزين ويكونون سبباً لخراب البلاد.

١- جوخه دار: خادم، الدراري اللامعات، ص ٢١٧.

٢- فنار وغلطة وأسكدار وأيوب، أسماء لأحياء كبيرة في إستانبول على الجانبين الآسيوي والأوربي.

وأما الباقون الذين فاتتهم ورقة الملازمة بالتقرب، فهم فئة من الأسافل قد دخلوا في سلك القضاة بواسطة الشفاعة والانتساب والرشوة، ودخل معهم أيضاً خدمة العلماء وأتباعهم، وهم قوم لا يعرفون يمينهم من يسارهم ولا قراءة اسمهم وقد امتلأ دفتر القضاة بالذين لا يجوز أن يتقلدوا قضاء بل ولا يقدرّون على أداء الشهادة على الوجه المشروع، وهؤلاء يبيعون هذه الوظائف لغيرهم من الجهلة والأراذل الذين هم أكثر شناعة من النواب الذين توجهت عليهم المناصب لأجل أن يتعيشوا منها، ولأجل ذلك دخل الاختلال الكلي على الأمور الشرعية التي هي الأمانة الكبرى.

ودخول مثل هؤلاء الجهلاء والأسافل الذين هم على ما ذكرناه آنفاً في الطريقة العلمية؛ نقص جاه العلماء ولم يبق لهم قدر ولا اعتبار عند الدولة ولا عند الناس حتى إنهم كانوا يعزلون بإشعار من جهة الملتزمين والجبابة. واضطر من وجد بينهم من العلماء والصلحاء إلى مدارة الظلمة للمحافظة على ناموسهم وشرفهم.

والحاصل فباختلال نظام الملازمة اختل أيضاً نظام طريق القضاء وطريق التدريس، وبعد أن كانت المناصب العلمية تعطى بالفعل لمن هم منوطين ومربوطين بخدمة العلم أصبحت بجملتها عبارة عن الرتبة والمقام. وعلى كل حال فلم يحصل في طريق التدريس ما حصل في طريق القضاء بل كان أهون حالاً، وذلك أن نظام المعارف في المدارس وإن كان قد اختل فإنه يعرف ولو بصورة رسمية، وأصول الامتحان للرؤوس والملازمة في مدرسة بايزيد^(١) لم تزل باقية.

فالطلبة الذين يتقدمون للدخول في سلك التدريس كان يجب أن يكونوا من الذين أدوا امتحان الملازمة وأثبتوا لياقتهم، فمن كان منهم من أهل الدرجة العليا

١- بجوار جامع السلطان بايزيد في إستانبول.

تعطى لهم الملازمة، بمعنى أنهم يلحقون رأساً بجامعة الملازمين، ومن بقى منهم فإنهم يقيدون في دفتر أهل المعارف في مدرسة بايزيد ويسكنون فيها على ما يقتضيه الامتحان ودرجاته، وفي كل ستة أشهر يخرج منهم اثنان تعطى لهما أوراق الملازمة، وكل من أقام سبعة أعوام يحق له أن يتقدم للامتحان لأخذ الرؤوس، فإذا ثبت استحقاقه نال رؤوس مدرسة الخارج التي هي المرحلة الأولى في طرق التدريس وأول رتبة في مراقبة المدارس. أما الذين لا يلزمون سبعة أعوام فلا يجوز لهم أن يتقدموا إلى امتحان الرؤوس. وأما التدريس في مدرسة بايزيد فقد كان منوطاً بحضرات مشايخ الإسلام إلا أنه عرض لهم أخيراً ما منعهم عن القيام بأمر التدريس بالذات نظراً لمقتضى الوقت والحال فعهدوها إلى وكلاء عنهم من كرام المدرسين القدماء الذين عرفوا بعلو المنزلة وسمو الحيشية. ومن حيث إن هؤلاء المدرسين يكونون بمنزلة آمرين وضابطين لطلبة المدارس القانونية، فقد أصبحت وكالة التدريس وظيفة مستقلة في باب الفتوى، وصارت الدروس على العموم تؤدي في الجوامع الشريفة بصورة رسمية، ووكلاء الدروس يذهبون في الأسبوع إلى المدرسة المذكورة مرة واحدة للإلقاء الدروس تبعاً لشرط الواقف وقياماً بالأمر الرسمي ومع ذلك كان إجراء هذه الأصول بهذا المقدار على التماذي سبباً في حصول التشويق والرغبة في تحصيل العلوم.

وأما أصول هذا الامتحان على الوجه المشروح فقد كان مخصوصاً بطلبة العلوم الذين نشئوا في المدارس، لا بتحصيل الرتبة المدرسية بالامتحان ولا بالتقدم في العلوم والمعارف باعتبار الطريقة العلمية، وعندما كانت تعطى الرؤوس إلى الذين استحقوها بالامتحان صاروا يعطونها بأثناء ذلك لأولاد العلماء وعند الحاجة للذين يريد مشايخ الإسلام ملاطفتهم ولإئمة السلطنة ورؤساء أطبائها عناية مخصوصة بهم وأصبح ذلك عادة مستمرة. ومن حيث إن

المدرسين كانوا ينالون بالتدريج رتبة قاضي عسكر والمولوية على الوجه السابق وهم لا يعلمون شيئاً ولا ينفعون لشيء أصبحت الرتب العلمية وسيلة لتعيشهم بلا تعب ودخل في طرق التدريس من لا قابلية لهم لتحصيل العلوم ولا استعداد لهم للاستخدام بخدمات الدولة من أبناء الكبراء، وكذلك بعض الوكلاء والوزراء أيضاً كانوا يدخلون أبناءهم في هذه الطريقة العلمية بمجرد كون أهلها مصونين من القتل والمصادرة ولهذا السبب كثر الحائزون على رؤوس التدريس وعنوان قدوة العلماء المحققين من أبناء الكبراء، مع أنهم لم يبلغوا أشدهم بل ولا الحلم ولا أقل من ذلك ولم يباشروا درس العلوم أصلاً وبذلك صار أكثرهم لا يجهد نفسه في تحصيل العلم فيبقى جاهلاً غيباً. أما الذين ينالون رتبة المدرسين عند الامتحان لكونهم صرفوا عمرهم في المدارس وانحصرت دروسهم في الكتب المعتمدة من الفنون المرتبة فلم يبلغوا أرفع درجات المدارس وإنما وقفوا في نصفها. وأما الذين نالوا رتبة المولوية منهم وهم نادرون فلم يكن لهم إلمام ولا معرفة بأحوال الملكية وأمور الدولة. وجملة القول إن أولئك بالنظر لنيلهم رتبة التدريس مع صغر سنهم وهؤلاء لتأخر أخذهم لها نظراً لكبر سنهم ندر بين الصدور من هو أهل لحمل أسرار الدولة والوقوف على سياستها الخفية ومصالحها المهمة ليستفاد منه عند المشورة.

فأصبح الموضوع الأصلي للطريقة العلمية مختلاً بحيث لم يبق إلا الاسم والرسم فقط أما الاسم فصار مخالفاً للمسمى وأما الرسم فأضحى مبايناً لأصول العلماء المستحسنة، فصار هذا الأمر سبباً لبداية شنيعة وهي استعمال سفلة القوم وجهلتهم الذين لا يقرأون ولا يكتبون كالملاحين والخدمة - الجوقدار -^(١) في

١- جوقدار: خادم، وهي مثل كلمة جوخة دار المذكورة سلفاً، الدراري اللامعات ص ٢١٩.

منصب القضاء بل كان علة عظيمة لرواج البطالة والجهل بالطريق العلمية ولوقوع مضرات عظيمة لا تخطر في البال، وذلك في أمر إحقاق حقوق العباد. وهذا الأمر قد استشعر بقبحه ولزوم إصلاح الخلل الواقع فيه ورؤي ذلك من أهم الأمور، غير أن إزالته دفعة واحدة والاعتناء بتوجيه المناصب لمن يستحقها مما لا يمكن، فلذلك كانت المقاصد متوجهة للإصلاح بالتدريج.

الفصل السادس

فني فن الحرب

إن كل دولة وملة كانت تتخذ العساكر لأجل المحافظة على الملك . واستمر ذلك إلى أن كان زمن فيليب والد الاسكندر الكبير، فلم تكن حينئذ حركات العسكر وأعماله في الحروب تحت قاعدة وأصول معلومة . ثم إن فيليب وضع ابتداء للعساكر وقاعدة ورتب منهم أربعين ألفاً دربهم ونظمهم وهم الذين سار بهم ابنه الاسكندر من اليونان وفتح الممالك حتى بلغ الهند، وبهذه الصورة ظهر عند اليونان علم يعرف بفن الحرب، وانتشر إلى جميع الدول الذين اقتبسوه عنهم وبسطوه بهذا العلم تغلب الرومانيون على كثير من الممالك حتى أوشكوا أن يستولوا على جميع العالم . إلا أن لعسكر كل زمان قواعد ونظامات في الحرب يجب أن تكون الأسلحة على مقتضاها، وهذه القواعد الحرية ما برحت حتى الآن تتقلب على صور شتى؛ فإن سلاح الرومانيين واليونانيين إنما هو السيف والرمح والقوس والمقلع، وهذه القواعد لا تنطبق على قواعد هذه الأيام، ومع ذلك فإنهم اكتسبوا في علم الحرب شهرة كلية بواسطة ذلك السلاح الذي كانوا يستعملونه . وكان العرب يحاربون على أصول الكر والفر . وفي زمن النبوة كان الصحابة الكرام يحاربون صفوفاً وتقدموا كثيراً في فن الحرب، وفي وقت قليل مهر منهم أمراء عسكريون مهارة كلية، تغلبوا بها على أقطار الدنيا . وكثر الاعتناء عند الدول الإسلامية بأمر التنظيم العسكري ووضع الأمثلة للتعليم إلا أنهم كانوا يعتبرون الخيالة أكثر مما عداهم، ولهذا السبب ظهرت جنود ماهرة جداً خصوصاً ممالك مصر وهم (كوله من)^(١) فإنهم كانوا يعدون في المنزلة الأولى بين فرسان الدنيا .

وعلى نحو ما ذكر آنفاً اعتنت الدولة العلية بأمر الخيالة ورتبت لهم وجاقات

١- كوله من : مملوك، رقيق . الدراري اللامعات، ص ٤٨٤ .

منتظمة واهتمت بشأن العساكر الرجالة اهتماماً خارقاً للعادة.

وبعد انقراض الرومانيين تغيرت أحوال أوربا وصرف النظر فيها عن المحافظة على العساكر الدائمة التي كانت تجرى عليهم المرتبات المعينة شهرياً، وأعطى القرار بجمع العساكر المتطوعة أثناء الحاجة لمدة وقتية، فاختل علم الحرب اختلالاً لا مزيد عليه. وكان رعايا الناس لذلك العهد كالأسرى للأعيان وكانت أسلحة الأعيان الرمح والدرع، وكانوا يقتنون الخيل، وكانت أسلحة الجموع الكثيرة التي يسوقونها إلى الحرب هي المقلاع والقوس ولا خيول لهم، ولا شك أن عساكر مشاة كهذه لا ترتيب لها ولا نظام لا تقوى على الثبات في مقابلة الخيالة من العدو. فلذلك كان الغلب لمن كانت فرسانه أكثر عدداً وكان الناس الذين لا يعلمون قواعد الحرب يظنون أن النصر لا تكون إلا للخيالة، ولهذا كانوا يكثرون الفرسان ويجعلون المشاة كأنها لا فائدة لها زاعمين بأن أصل القوة العسكرية انحصرت في الفرسان فقط، واستمر الحال مدة على هذا المنوال إلى أن تغيرت أحوال أوربا نوعاً ما، ففي الابتداء نظمت فرنسا ستة عشر ألف عسكري مشاة وتسعة آلاف خيالة برواتب شهرية أول سنة ستين وثمانمائة هجرية، قلدوا الرماح لأكثر المشاة وجعلتهم قسماً مثقلاً ولباقيهم القوس والمقلاع وجعلتهم قسماً خفيفاً، وكانوا يرتبون العسكر في الحرب فيجعلون صفوف العساكر التي تحمل الرماح ثمانية صفوف وأقلها ستة أمام العدل، وأما العساكر المشاة الخفيفة الذين يحملون المقلاع والقوس يجعلون قسماً منهم يناوشون العدو من جوانبه، وأما الفرسان فإنهم يسلحونهم بالرماح والدروع ويستعملونهم عند الاقتضاء في وظائف الفرسان أولي الصنف المثلث.

ثم أخذ ملوك أوروبا رويداً رويداً يرتبون الجنود المنظمة في سائر الجهات على هذا الترتيب المذكور، وإنما كانوا يعتنون بالخيالة أكثر من المشاة وذلك لأن كثيراً منهم فضلاً عن كونهم لم يعترفوا ولم يسلموا أن المشاة أنفع في الحرب من الخيالة بل إن الخيالة تفوق وتغلب المشاة وهذا زعم قديم فيهم؛ فلذلك كانوا يجعلون عدد الخيالة أكثر من المشاة. نعم لا ينكر نفع الخيالة في حالة الصدام إذا التقوا بالمشاة إلا أنهم لا يقومون بغير أعمال المراقبة في الجهات اللازمة والاطلاع على أمور العدو وتعقبه بوجه السرعة، وذلك لثقلهم وثقل خيولهم بالدروع وسائر الأشياء الثقيلة، ثم تبين لهم ذلك فرتبوا خيالة في غاية الخفة لا يحملون سوى السيف والقوس للقيام بالأمور المذكورة آنفاً.

وقد أحدثت المدافع قرب سنة ثمانين وسبعمائة، غير أنها لم تستعمل إلا في حالة الحصار إلى سنة ثمانمائة، ثم صاروا يستعملونها في الحروب. ولما بعثت فرنسا عسكرها إلى إيطاليا عدة مرات جهزتها بالمدافع الكثيرة. وفي سنة ٩١٠هـ صنعت بندق خفيفة وصغيرة على شكل مدافع لتحمل باليد وهي على صورة تقرب من البنادق الموجودة الآن، وأعطى قسم من هذه البنادق إلى العساكر المشاة الخفاف واستخدموا في الحرب مع العساكر الذي يحملون القوس والمقلاع. وبالنظر إلى ظهور فوائد هذه البنادق أهمل استعمال القوس والمقلاع، وأعطيت هذه البنادق لكل فرد من المشاة فصار العسكر يحمل الرمح والبندقية ولم يبق غيرها سلاح.

وهؤلاء المشاة الخفاف من العسكر كانوا يرسلون لمناوشة العدو، غير أنه بسبب تكاثر البنادق أصبحت العساكر المشاة الثقيلة الذين لا يحملون سوى المزارق^(١) غير قادرين على الثبات أمام العدو مع كونهم يقاسون أشد مصاعب الحروب. فأوجب الحال إعطاء قسم منهم من هذه البنادق، فتقرر أن يكون الصفان اللذان من شأنهما التقدم أمام الصفوف في الحرب وهما من ذوي

١ - أي الرمح.

البنادق، وأن الصفوف الثلاثة أو الأربعة التي هي قائمة من وراء الصفين المذكورين أن يكونوا من ذوي الرماح، وبهذه الوسيلة أصبح العسكر المسلح بالبنادق حمى لذوي الرماح. وعسكر الرماح حمى لذوي البنادق، من حيث أن الرمح يزيد بالطول على البندقية. ومع أنه كان في معتقدهم أن هذا النظام قد بلغ منتهى درجات الكمال لم يلبثوا أن رأوا من الصواب أن يرتبوا العساكر الرماحة خمسة أو ستة صفوف، وقيموا ذوي البنادق على جوانبهم. وفي قرب سنة عشر ومائة وألف اخترعوا الحربة (السونكو)^(١) فرفعوا الرماح من أيدي العساكر والرجالة والخيالة، وأعطوا لذوي الرماح بندقية ذات حربة ولذوي البنادق حربة ليس إلا. أما العساكر فقد كانت بداءة ذي بدىء مؤلفة من أربعة صفوف، على أنهم رأوا بعد مدة أن لا فائدة للصف الرابع منها، فأبطلوه وأبقوا الجنود مؤلفة من ثلاثة صفوف، ثم لما صار سلاح المشاة سواء كان من أهل الثقل أو الخفة في حالة متحدة جعلوا طرق التعليم لهم واحدة أيضاً، وأخذوا يستعملون كل صنف منهم بحسب اللزوم فتارة ينتظمون صفوفاً وآونة يتفرقون طلائع في مراكز الحرب لمناوشة العدو، ولم يبق بين الجنود الثقيلة والخفيفة تباين إلا باللفظ فقط. وكانت نظمات العساكر وأسلحتها في ذلك الوقت تقارب ما هي عليه الآن، غير أن الأصول والقواعد الحربية القديمة لا تذكر بالنسبة إلى ما صارت إليه الآن من تجديد هذا الفن وظهور فائده في بعض حروب أوروبا.

وأما كيفية التعليم فإن مونته قوقولي^(٢)، أحد قادة جنود النمسا لما شاهد انتظام المعسكرات الشاهانية قال إن عساكر دولة النمسا إن لم تنظم عسكرها على طريقة عساكر الدولة العلية التي لا شغل لها إلا تعلم الفنون الحربية والإدمان على استكمال أهبة الحرب فلا يمكن أن تثبت أمامها، وذلك إن عسكر النمسا بالنسبة

١- سونكو: حربة. سنان البندقية، الدراري اللامعات، ص ٣٠٧.

٢- تقدم ذكره في الحواشي السابقة.

لعسكر الدولة العلية من قبيل عسكر النفر العام. ثم إنه رتب قسماً من العساكر ودربهم ونظمهم وكتب كتاباً في فن الحرب ذكر فيه وقائع النمسا مع الدولة العلية وحوادثها وعدد الملاحم كلا في زمانها ومكانها وحرر أسماء رؤساء عساكرها ورسومهم وكميات الجنود وكيفيات حركاتها في معامع الحرب وأحوال الكتائب وانتظامها وسرعة انقيادها إلى رؤسائها، ثم أظهر التحسر والتأوه وقال: إن تلك العساكر المنظمة لا تقابل، ثم رمي بالسفه والحمق كل من يدعي مكافحة عساكر الدولة العلية سواء كانوا من أهل بلاده أو من سائر الدول. ثم نبه دولته إلى تقليد نظام العساكر العثمانية، ثم ذكر إثباتاً لمدعاه أنه درب قسماً من العسكر، وادعى أنه في سنة ١٠٧٠ هـ هزم فرقة من عساكر أحمد باشا الفاضل بن كوبريلي^(١) عند نهر رابه، ثم عقد المصالحة هناك إلى غير ذلك من التفاخر والمباهاة والدعوى التي لا طائل تحتها.

والحق يقال إن غلبة مومته قوقولي هذه لم تكن ناشئة عن قوة انتظام عساكره؛ بل سببها اختلال نظام العساكر العثمانية، وكان ذلك الوقت مبدأ اختلال العساكر العثمانية. فإن القائد مومته قوقولي قد حصل منتهى كمال انتظام الإنكشارية ومبدأ زوال نظامهم، ويوجد فرق بين العساكر التي هزمها في هذه المرة والعساكر العثمانية؛ التي رآها وعرفها قبل ذلك على أول ظهوره فيهم بعد أن بلغ نهاية الكمال، فالفرق الذي رآه بين العساكر العثمانية التي ذكر أنه هزمها في هذه المرة والعساكر التي رآها وعرفها من قبل كان ظاهراً للعيان.

ثم ظهر البرنس (أوترن) وبذل سعيه في إتمام تعليم العساكر، وفي ذلك الوقت ظهر في فرنسا أيضاً رجال اشتهروا في فن الحرب مثل (فوندة) و(تورن) و(ووبان) فصرفوا همهم في ترتيب القواعد الحربية، وبذلك صارت أصول

١ - الصدر الأعظم في عهد السلطان محمد الرابع.

الحرب فناً عظيماً وصناعة كبيرة شاعت في أوروبا على قاعدة قولهم (تتزايد العلوم بتلاحق الأفكار) ولما طُرد البروتستانتيون من فرنسا تفرق الماهرون في هذه الفنون والصنائع إلى الأطراف، فجلب في ذلك الأوان (فرديرق كليوم) الذي استولى إذ ذاك على ملك بروسيا أكثرهم، فصارت بروسيا في أيامه منبع المعارف والصنائع وعرف ابنه (فره دريق الثاني) وهو الرجل المشهور باسم (بيوك فر دريق) لكونه تربي بين أصحاب هذه العلوم وصار استاذاً للجميع في فنون الحرب واطلع على دقائق كثيرة في تفاريحها ومهر في ترتيب سوق الجيش وتعبئته، فلهذه الأسباب ترقى علم الحرب في أيامه ترقياً تاماً ورتب صف المدفعيين من الخيالة.

وبعد سنة ألف ومئتين من الهجرة ازداد الترقى في هذا العلم شيئاً فشيئاً، ولا سيما في اثناء ظهور نابليون بوناپرت فإنه أظهر أسرار هذا الفن إلى العالم وأوصل نظام العساكر إلى الدرجات التي نراها في عصرنا.

ومع كثرة التجارب أخذ فن الحرب في الترقى يوماً فيوماً. حتى اخترعت في عهد قريب البنادق المسدسة الزوايا، ورتبت كتائب مستقلة من الجند حملت تلك البنادق، والمشاة ساروا خفافاً، وفي محاربة روسيا سنة ألف ومائتين وسبعين هجرية شوهدت له محسنات كثيرة. ولم يكن قبل ذلك فرق بين المشاة الخفاف والثقال من العساكر إلا قليلاً، فلما وضعت التنظيمات الجديدة حصل فرق أساسي من جهة الأسلحة، وعلى التعاقب صار أبطال البنادق القديمة واستعيض عنها بالبنادق المسدسة الزوايا.

فانقسم لذلك علم الحرب إلى فنين جرى الاعتناء بهما حتى صارا صناعة عظيمة، وهما فن سوق الجيش، وفن التعبئة، وأضحى من الفروض على أركان المعسكرات ورؤسائها أنهم بعدما يحصلون مقدمات العلوم يتقنون هذه الفنون.

وفن سوق الجيش هو عبارة عن انتخاب المواقع المهمة في وقت الحرب سواء كانت للدفاع أو للهجوم، وأما فن تعبئة الجيش فهو إجراء التدابير والأعمال التي يترتب عليها الظفر عند المصادمة.

وكان قادة الدولة العلية وسردارها أي قائد قوادها يتقنون فن الحرب عملاً وتجربة كما ذكرناه سابقاً. فمن ذلك أنه لما توجه^(١) قيصر روسيا بطرس (بترو) من بغداد إلى الطونة، خرج عليه محمد باشا البالطه جي^(٢) وسبقه من طريق بسارابيا ليقطع عنه خط رجوعه، فاستولى على مجاز نهر فالجي وهي مكيدة حربية جميلة جداً موافقة لفن سوق الجيش، ثم بعد ذلك هزم عسكر الروس الذين وقفوا لسد طريقه وقطع الماء وهجم واقتحم المعسكر الروسي بغتة. وأبرز بذلك مهارة عجيبة في فن تعبته الجيش أيضاً. ومن ذلك أيضاً؛ أن تقدير أهمية موقع شمنى واتخاذة أساً للحركات الحربية سنة اثنين وثمانين^(٣) كان مطابقاً لفن سوق الجيش، كما أن إحكام مواقع الدفاع في ذلك الوقت كان موافقاً أيضاً لفن تعبته الجيش.

ولما انقسمت في آخر الأمر القواعد الحربية الشبيهة بهذه الحركات إلى فنين مهمين وصارت علماً كبيراً تحت اسم فن الحرب، كان يلزم في تحصيلهما الوقوف أولاً على فنون عديدة، فأصبح أمراء العساكر ورؤساؤها عاجزين عن قيادة المعسكرات المنظمة على أصول أوربا، ما داموا لم يقفوا على الفنون المذكورة ويتقنوها عملاً ونظراً، وكلما كان فن الحرب يتقدم في أوربا على الوجه المشروح كان نظام الجنود العثمانية الذي كان تشهد به الأعداء - والفضل ما شهدت به الأعداء - يختل شيئاً فشيئاً. وبعد سنة ألف ومائة تحقق أن الاستمرار على الحرب موجب لخسارة الإسلام وسقوطها في اشرار الأخطار، فأهملت الدولة لذلك شأن المحاربات جانحة إلى السلم والمصافاة وحسن معاملة الدول، فكان إهمالها لشأن المحاربات مدة مديدة باعثاً على ضعف القوى العسكرية، لعدم ممارسة الفنون الحربية، فخسرت الدولة في الغزوات خسائر كلية ومن تلك الأحوال كان الروسيون أكثر علماً.

١- وذلك سنة ١١٢٢هـ.

٢- الصدر الأعظم في عهد السلطان أحمد الثالث.

٣- أي سنة : ١١٨٢هـ.

وكان البحث في أمر تنظيم الجنود الشاهانية الذي تحتاج إليه الدولة العلية جارياً منذ أيام السلطان أحمد الثالث ولا سيما في عصر حضرة السلطان مصطفى الثالث^(١) فإنه اهتم بذلك اهتماماً عظيماً، إلا أن خوفه من الإنكشارية كان مانعاً له من المذاكرة به بكمال الحرية.

وكذلك كان السلطان مصطفى المشار إليه حريصاً على جمع الأموال فكان منصب الدفتردارية ذا أهمية في زمانه، حتى إنه كان يشاور أهل هذا المنصب في جميع الأمور فقال ذات يوم للدفتردار^(٢) حليم أفندي: «إذا نحن لم ننظم العساكر حسب التنظيمات الجديدة فلا نقدر على مقاومة أوربا فما العمل حينئذ» فقال: «فلندخل الإنكشارية تحت النظام» فقال السلطان: «وهل يقبلون النظام» قال نعم، فقال: «وهل تتعهد أنت بذلك» قال «نعم» غير متردد، فأوقع هذا الكلام عليه الشبهة، وتصور حضرة السلطان أن حليم أفندي لو لم يكن له مداخلة مع الإنكشارية لما تجرأ على هذا الجواب القطعي، واتهمه أنه يكشف هذا السر لهم، فأبعد عن الأستانة خوفاً منهم في صورة متصرف على الموصل، فلما كان في الطريق نفاه ثم أعدمه.

وقد روي بعض الثقة عن أحد ندماء حالت أفندي الذي كان من مشاهير رجال السلطان محمود خان الثاني، إنه قال له ليتكم تجعلون لكم يداً مع الإنكشارية، فقص عليه حالت أفندي ما جرى على حليم أفندي، وقال له أخاف أن يجرى علي كما جرى عليه.

أما حليم أفندي فلم يكن ذا إلمام بالأمور العسكرية بل كان من أصحاب الدفاتر، وأخذ الإنكشارية تحت النظام لا يغيرهم عن إنكشاريتهم القديمة، ولا

١- مصطفى الثالث (١١٢٩هـ-١١٨٧هـ) السلطان العثماني السادس والعشرون، حكم لمدة ست

عشرة سنة. إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٧.

٢- دفتردار: كبير المحاسبين، الدراري الامعات، ص ٢٥٢.

يدخلهم في حيز الطاعة كما هو المطلوب. وكان ترتيب العسكر الجديد وانتظامه موقوفاً على استجلاب معلمين ومهندسين من أوروبا. وكان أكثر الرجال لم يكن لهم إلمام بالأمور السياسية لحل مشكلات العصر، وبعضهم كان يأبى دخول الأوروبيين إلى الممالك المحروسة، حتى إن رسمى أحمد أفندي، لما عاد من سفارة بروسيا أبان أيضاً إلى يوسف أفندي، المشهور بين رجال السلطان مصطفى الثالث أموراً شتى أثناء بحثهما في مدينة أوروبا، وأظهر له أيضاً محسنات المحاجر الصحية، فأجابه يوسف أفندي بقوله: ظننتك ذا فكر ثاقب تفتكر في مستقبل الأمور فإذا بك لم تلاحظ أن عدم مجيء الأوروبيين بكثرة إلى هذه الجهات هو ناشئ عن خوفهم من العلل الوبائية، فإذا ضربنا المحاجر المذكورة يتواردون إلينا فكيف نسوسهم أو ندبر أمورهم، لا جرم أن هنا محل تأمل، وإلا نحن أيضاً نعلم ما ينشأ من المحسنات عن ضرب المحاجر.

والحاصل أن الدولة كانت تريد تنظيم عسكرها في ذلك الوقت، ولكنها لم تدر بأي طريقة يجب السعي في تنظيمه. وبينما كانت الحال على هذا المنوال صارت في سنة ١١٨٢هـ حرب خسرت فيها الدولة خسائر عظيمة وذلك بسبب هيجان المغفلين من أركان الدولة وغيرتهم الصادرة عن جهل حيث إنهم كانوا يجهلون الأسباب التي يتوقف عليها أمر الحرب.

وهذه المحاربة كانت للدولة بمثابة بحث كبير، أدرك بها كل العالم شدة الحاجة إلى ترتيب العساكر المعلمة، ومع ذلك لم يجر شيء منه سوى أن حضرة السلطان مصطفى الثالث سعى في إجراء بعض إصلاحات في معمل المدافع فأدركته المنية أثناء ذلك. ويروى أن السلطان عبد الحميد^(١) الذي تولى السلطنة بعده نظراً لضعفه وشيخوخته قال لبعض حاشيته قبل وفاته: إنه غير قادر على

١- عبد الحميد الأول (١١٣٨-١٢٠٣هـ) السلطان العثماني السابع والعشرون. حكم لمدة ستة عشرة سنة. وهو غير السلطان الشهير عبد الحميد المعروف بالثاني، إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٣.

ترتيب نظام العسكر الجديد الذي هو على الدولة فرض عين، وأظهر أنه يتمنى أن ابنه السلطان سليم يجلس على سرير السلطنة. وبالجملّة لم يظهر شيء يدل على التثبّثات الفعلية إلى حين جلوس السلطان سليم. ولا ننكر أن حميد باشا الصدر الأعظم في زمن حضرة السلطان عبد الحميد خان تعاطى بعض إصلاحات في دار الصناعة ومعمل المدافع، غير أن آراء ذوي التعصب قد تغلبت عليه، على حين كان المقربون من السلطنة يظنون أن إظهار الميل إلى النظام الجديد يحمل على اتباع سياسة السلطان مصطفى تقرباً إلى ابنه السلطان سليم، فكانوا يخافون من المذاكرة في الأمر، فأخذ أعداء حميد باشا يشنون الدسائس حتى تمكنوا من سلب ثقة السلطان به.

الفصل السابع

في الأمور البحرية

كانت الفلك منذ القديم تسير بالمجازيف، فصنعت سفن كبيرة تسيرها ثلاثة أزواج أو خمسة من المجازيف، واخترعت الدفات والشرع، وصار فن البحرية يتقدم بالتدريج، وكان الناس من قبل يسيرون المراكب على شاطئ البحار فقط لكونهم غير قادرين على الخوض في عباب البحور، فلما ظهر الصوريون^(١) والفينيقيون وكشفوا من العلوم الرياضية أسراراً متنوعة واخترعوا فنوناً شتى خاضوا في البحار وساروا إلى أرض اليونان وخليج سبتة، وفي رواية وصلوا إلى أماكن أبعد من هذه قصد التجارة، حتى إن سائر الملل كانوا ينظرون إلى أفعالهم فيزعمون أنهم سحرة أو كهنة وذلك باعتبار أحوالهم وحركاتهم.

وكان المسلمون إلى خلافة سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه لم يسافروا في البحر، وعندما فتح عمرو بن العاص مصر كتب إليه سيدنا عمر الفاروق وأمره أن يصف له البحر، فأجابه عمرو بن العاص رضي الله عنه بقوله ﴿يا أمير المؤمنين إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف فهم فيه كدود على عود﴾ فمنع سيدنا عمرو ركوب البحر صيانة للأمة المحمدية، وامتنعت قريش وسائر القبائل من ركوبه. غير أن أهل مصر وسائر التجار المختلفي الملل والنحل في الممالك المصرية كانوا يألفون ركوب البحر لدواعي التجارة والحرب. وفي زمان الدول السالفة كانوا يصرفون أعمارهم في الأسفار البحرية حتى صارت حرفة نافعة لهم يتوارثونها أباً عن جد، مدمنين عليها. وكانت سفنهم تتردد بين إسكندرية ورشيد ودمياط وسائر السواحل، وكانوا يسافرون من خليج السويس إلى أطراف اليمن والهند لا يفترون عن الاتجار، وكانوا يرغبون رؤساء قبائل العرب في سواحل مصر كزناته

١- أهل صور. وهي مرفأ في جنوب لبنان، أسسها الفينيقيون في الألف الثالث قبل الميلاد، المنجد ص ٣٤٩.

والمغاربة في الغزو والتجارة البحرية، وكان الصحابة الذين أتوا مع عمرو بن العاص رضي الله عنهم ومن تبعهم من العربان قد امثلوا أمر سيدنا الفاروق وقبلوا نصيحته فلم يتجرأوا على مخالفته في بدء الأمر، ولكن قيل: إن عرفة ابن هرثمه الأزدي شيخ النخيلة الذي كان قابضاً علي زمام القوة من المال والرجال وحاكم مسكت قالاً: إنه ليس من الصواب منع الإسلام عن الغزو والجهاد واكتساب المنافع في البحر، وخالفاً نصح الفاروق وركبا السفن وسارا للغو في بحر عمان وسائر الجزائر والسواحل، فلما بلغ أمرهما سيدنا عمر الفاروق كتب إلى سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنهما كتاباً يسأله فيه زجر عرفة ومؤاخذته. ولا يخفى أنه ليس من الحزم أن العرب الذين هم عنصر الإسلام الأصلي أن يركبوا السفن ويتفرقوا في البلاد ويتباعدوا عن مركز الخلافة قبل أن يتمكنوا في البلاد التي دخلت في حوزتهم وسخرها الله لهم. ثم إن أكابر المسلمين اشتركوا مع الأغنياء من أصحاب السفن المصرية وصاروا يركبونها تارة للغز وتارة للتجارة، فلما بلغ ذلك حضرة سيدنا عمر رضي الله عنه تركهم وشأنهم ولم يشدد عليهم الأوامر بالمنع، وبقي المسلمون يتجرون ويغزون في سفن صغيرة إلى حين زمان معاوية رضي الله عنه. وكان أكثر رؤساء تلك السفن وخدمتها من النصارى الماهرين في فن الحرب، فكان المسلمون يستخدمونهم بأجور كثيرة، وكان المسلمون إذ ذاك ليس لهم المام بركوب البحر ومتعلقاته. وفي زمن معاوية لما عين عمرو بن العاص والياً على مصر مرة ثانية أذن للمسلمين إذنًا عاماً في الغزو بحراً بأمر معاوية رضي الله عنهما. وقدوجه العلماء المحققون منع سيدنا عمر ركوب العرب في البحر بأنه قصد به الشفقة عليهم والصيانة لهم من الغرق لعلهم أنهم يجهلون أمر البحر وما يتعلق به وحينما تمرنوا على ركوبه وتعلموا ما يلزمهم في ذلك من التفاريع، سكت عنهم على سبيل المسامحة، ثم لما كملت معرفتهم بهذا الفن أذن لهم إذنًا عاماً في الغزو والجهاد بحراً.

وبعد صدور الإذن العام على الوجه السابق؛ صنع غزاة المسلمين سفناً

مناسبة واستأجروا رؤساء من النصاري عارفين بأحوال الرياح، فصاروا يسافرون في البحر تارة بالأدوات والآلات الحربية للغزو وأخرى بالبضائع للتجارة. حتى إن أمير مصر عقبة بن عامر غزا جزيرة رودس،^(١) وأخذ منها غنائم كثيرة. وروي عن الإمام الواقدي في تاريخ الخميس: أن حضرة معاوية غزا قبرص في سنة ٤٨ هجرية. وقد ذكر في تاريخ واصف:^(٢) أن عبد الملك بن مروان في أيام سلطته أرسل أمراً إلى حسان بن نعمان عامله على أفريقيا بأن يبني داراً للصناعة في تونس وذلك لإنشاء السفن المتنوعة، فكانت تلك الدار أول دار بنيت لإنشاء السفن في الملة الإسلامية، والآن يطلق في التركية على دار صناعة السفن (ترسانه) فهذه الكلمة محرفة عن دار الصناعة. وقد صنع في دار الصناعة أكثر من خمسمائة سفينة خفيفة المؤنة تشابه الفرقته^(٣) فلما تهيأت بعد ذلك تلك السفن كان إذ ذاك زيادة بن إبراهيم أميراً حوالي تونس، وتولى عطا بن رافع إمارة هذا الأسطول، فتوجه به وفتح جزيرة صقلية العظيمة التي نسميها الآن سيسيليا. وفي سنة ٩١ للهجرة توجه طارق بن زياد مأموراً من جانب موسى بن نصير حاكم أفريقيا لغزو بلاد الأندلس فافتتحها ثم افتتح جزيرة سردينيا. وفي سنة ٩٢ خرج طارق بن زياد المذكور أيضاً قائداً وأميراً لاسطول عظيم من خليج سبته إلى بحر الأوقيانوس^(٤) وحارب الأسبانيول مدة وظفر بفتوحات عظيمة، وكان هذا الأسطول أول أسطول للإسلام خرج من مضيق سبته، وقد سمي هذا المضيق جبل طارق نسبة لأميره. وفي ذلك الوقت كان آل غوت يحكمون في الأندلس، فكان الأسبانيول رعايا لهم وكان كرسي مملكتهم طليطلة، وكان أغنياء إسبانيا

١- رودس: جزيرة جبلية يونانية في بحر إيجه. المنجد ص ٢٦٨.

٢- واصف أحمد أفندي: كاتب الوقائع ومؤلف كتاب (تاريخ عثمانيسي) المعروف بتاريخ واصف. انظر الهوامش حول مصادر تاريخ جودت في أول الكتاب.

٣- الفرقته هي الفرقاطة بالاصطلاح الحديث، وهي سفينة ذات ثلاث صواري انظر الدراري اللامعات، ص ٣٨٥.

٤- أي المحيط الأطلسي.

يوقفون أموالاً كثيرة ونفائس ثمينة كما كان يفعل الأوروبيون فشيدوا أديرة عظيمة وعمرها في طليطلة ديراً كبيراً جداً ملئته بالأموال والتحف الثمينة. وقال بعض نقلة الأخبار الضعيفة أنه كان في طليطلة بيت للحكمة، والحال أن ذلك البيت هو نفس الدير المذكور، لأن إسبانيا كانت وقتئذ لا علم عند أهلها ولا حكمة، ولا ندري بأي سبب توصل الرهبان إلى النفوذ وإظهار القدرة في تلك الجهات، حتى بلغ من أمرهم أنهم كادوا يدعون الاستقلال في بعض المدن. ولما اتصل الملك بالملك رودريك من آل غوت جلس على كرسى المملكة، وكان شاباً شجاعاً ذا حمية فلم يصبر على بلوغ نفوذ الرهبان إلى هذا الحد فهجم على الدير المذكور وأمر بنهبه فنفر منه الكبراء وبعض الأهالي، وبعد ذلك اغتصب بنت السردار جوليانوس محافظ الطرف الجنوبي من الأندلس، فبات هذا أيضاً عدواً لدوداً له فدعا العرب إلى أطراف الأندلس انتقاماً منه بسبب حقه عليه وباتت بلاد أسبانيا عرضة للاستيلاء، وكان الإسلام يومئذ في عنفوان شبابه وإبان نفوذه وشوخته، فلما وطأ المسلمون تلك الأراضي استولوا عليها في مدة قليلة وغنموا غنائم كثيرة ولا سيما الأموال والأشياء الثمينة التي كانت في طليطلة عند الفتح مما لا يحصى عدده، وهذه الفتوحات العظيمة لم تيسر إلا بالقوة البحرية. وبعد أن أحرز غزاة المسلمين استعدادات بحرية قوية على ما ذكرناه، صاروا يخرجون في أساطيلهم في كل سنة من أطراف إفريقيا وتونس ومصر وتغلبوا على كثير من ممالك الأفرنج في جزائر البحر والسواحل وفتحوها فنالوا الظفر والفتوحات الكثيرة. وكان أسطول الأندلس يشتمل على مائتي سفينة وأسطول أفريقيا على مائة وخمسين سفينة، وكانت الحرب بين أساطيل الإسلام وأساطيل النصارى سجالاً، وكان كل منهم يستولي على بلاد الآخر، وكانت الحروب البحرية دائمة بلا انقطاع.

ولما وجدت البوصلة (الإبرة) ترقى فن البحر كثيراً. فابتدأ العرب بالسفر إلى الهند وسائر السواحل والجزائر البعيدة، أما الأوروبيون فكانوا يسافرون إلى

الأوقيانوس (البحر المحيط) حتى تمكنوا من الاكتشاف على أميركا وغيرها من الجزائر العديدة. وكان السفر من أوروبا إلى الهند في طريق (أميد بروني) رأس الرجاء الصالح.

ولما احتاجت تجارة الدول والأمم القاطنون في السواحل البحرية إلى ركوب السفن والسفر في البحار اشتغلوا في فن إنشاء السفن والملاحة وحصلوا فيهما مهارة عظيمة، وترقت الصناعة البحرية شيئاً فشيئاً، وكلما كانت تترقى الصنائع والفنون كان حجم السفن يزداد اتساعاً وكبراً، حتى صنع منها ما هو كبير جداً كما هو مشهور في عصرنا من النوع المسمى (قباق) (واوج انبارلي)^(١) ثم وجدت البواخر والمدرعات فانقلبت أحوال البحر والتجارة انقلاباً تاماً ودخلت معاملات الدول والأمم وروابط الدنيا في دور جديد.

وفي أوائل نشأة الدولة العلية لم تنصرف الهمم إلى الاعتناء بأمور التجارة لأن أكثر الحروب كان جارياً في البر، إلا أن سليمان باشا بن السلطان أورخان الغازي اجتاز البحر في جهة كليبولي^(٢) في صنادل الروم، وبعد ما ضبطها استولى عليها وعلى عدة أماكن في بلاد الروم إيلي وضمها إلى الممالك المحروسة وأنشأ عدة صنادل في مجاز كليبولي. ولما كان حصار الأستانة لا يمكن إلا من جهة البحر انشئت سفن كافية للهجوم عليها غير أن العدو مد سلسلة غليظة من الحديد بين غلظه واستامبول فمنع السفن أن تصل إلى مرساها. وفي رواية أن سليمان بك بن باطله أنشأ سفناً وأنزلها من سورليجه، وفي رواية أخرى أنه أنزلها من وراء حصار الروم إيلي إلى المرسى المسمى طولمة بقجه^(٣) جرها بتدابير عجيبة

١- أوج انبارلي: نوع من السفن، (انبار) تعني مخزن الغلال والأمتعة، و(أوج) بمعنى ثلاثة. أي السفينة ذات الثلاثة مخازن. الدراري اللامعات ص ٤٨.

٢- كليبولي أوغاليبولي: شبه جزيرة في مضيق الدردنيل بين بحري مرمرية وإيجة.

٣- طولمة بقجه: أحد أحياء إستانبول على مضيق البسفور والقصر المسمى بهذا الاسم في إستانبول مشهور.

دبرها المهرة من العارفين بفن جر الأثقال، وذلك أنهم جعلوا تحتها ألواحاً دهنوها بالشحم ثم دحرجوها عليها فتدحرجت بسهولة إلى البحر، وعندما تمكنت في مواضعها منه وضعوا فيها متاريس وهاجموا الأستانة وفتحوها بهذا التدبير العجيب. وكان أول من عينته الدولة العلية أميراً للبحر سليمان بك بن بالطة الموما إليه، والمرسى المشهور في الجهة الثانية من حصار^(١) روم إيلي نسب إليه وسمى باسمه. وبعد فتح الأستانة جرى الاهتمام في أمور الترسانة (دار الصناعة) فأنشئت في مدة قليلة سفن عديدة كافية لتهديد البندقيين الذين كانوا يعتبرون البحر الأبيض أنه ملك لهم. وفي زمان الفاتح فتحت قلاع وبقاع عديدة بواسطة القوة البحرية، فتقدمت الدولة العلية بهذه القوة وانتقت لها رؤساء مهرة من جملتهم الرئيس كمال، الذي اشتهرت لياقته وأهليته عند الأصدقاء والأعداء. وفي عصر السلطان بايزيد الثاني سنة ثمانمائة واثنين وتسعين هجرية قام الإسبانيول على المسلمين في الأندلس وجزيرة سيسيليا فأرسل ملك آل الأحمر حاكم تلك البلاد قصيدة غراء شكا بها للدولة العلية قيام الإسبانيول في البلاد، والتمس فيها النجدة والإمداد لإنقاذها من أيدي الأعداء، فجهز السلطان عدة سفن بقيادة الرئيس كمال الدين المذكور مدداً له، غير أنه وقتئذ قامت الحروب البحرية في بلاد الأرناؤط وأطراف المورة فحال ذلك دون إغاثة أهل الأندلس.

وفي ذلك العصر شرع في إنشاء عدة سفن كبيرة وروى كاتب جلبي^(٢) عن بعض تواريخ اللاتين: أن أحد ملوك أوربا المسمى الفونس صنع مركباً يسع أربعة آلاف طن وسق، وصنع مركبين آخرين له لم يتقدم مثلهما أبداً، غير أنه لم يستعملهما لأن أحدهما لطم الآخر في المرسى فتعطلا. وشرع حينئذ البندقيون

١- حصار؛ بمعنى قلعة.

٢- مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي المعروف بالحاج خليفة، مؤلف كتاب، تحفة الكبار في أسفار البحار. وقد تقدم ذكره في هوامش أول الكتاب.

أيضاً في إنشاء السفن الكبيرة. وصنع أيضاً محمد خان الفاتح مركباً يسع ثلاثة آلاف طن وسق، ولكنه غرق في المينا عند انزاله إلى البحر.

والطن بمعنى برميل، ونحن نستعمله في لساننا بمعنى كيل قياساً لصغر السفن وكبرها، والأوروبيون يستعملونه لتعيين حجم السفن ويعتبرون الطن الواحد عبارة عن ٣٦ كيل، غير أن هذا الاعتبار مقيد بأنواع السفن المسماة قليون^(١) وأننا وإن كنا في عصرنا هذا نعتبر قليون من السفن ذات الطبقات الثلاث ومن القبق، إلا أن نوع القليون في الأصل هو السفن الكبيرة التي لا تستعمل إلا بالشرع، وله أنواع عديدة مثل قراقه وبارجه وبوليفه. أما القراقه، فهو القليون الكبير الذي كان الإسبانيول يستعملونه كثيراً وكان أكثر السفن الحربية عند سائر الدول من نوع بارجه. أما نوع جكديرر فإنه يستعمل بالشرع وبالمجاذيف أيضاً. وله أقسام عديدة والقياس فيها -أوتوراق- مقعد، فالذي هو من عشرة مقاعد إلى سبعة عشر، يقال له فرقته، وهي التي يجز في كل مجذاف منها اثنين أو ثلاثة من الرجال، وإن كانت من ثمانية عشر إلى تسعة عشر مقاعد يقال لها بَرَكَنْدَة، ومن تسعة عشر إلى أربعة وعشرين قَالِيَتَه، وإن كانت ذات خمسة وعشرين مقعد يقال لها قَدْرَغَه، وهي التي يجذف في كل من مجاذيفها أربعة رجال. وإن كانت من ستة وعشرين مقعد إلى ستة وثلاثين مقعد يقال لها باشرده، وهي التي يجذف في كل من مجاذيفها خمسة أو ستة رجال، وإذا كانت السفينة عريضة وعالية يقال لها ماونة، وإن كانت السفينة ذات طبقتين وكان أصلها من نوع الماونة وأعلاها من نوع قليون فتسمى كوكا، ونوع قدرغه يجب أن يكون طوله من المقدم إلى المؤخر ٥٥ ذراعاً، وعرض باب العنبر ٢٠ شبراً وعلو مؤخره ١٨ شبراً وعلو مقدمه ١١ شبراً وعلو وسطه ستة أشبار وأصبعاً واحداً، ويجب أن يكون في كل قدرغه رئيس ماهر وخريت^(١) بارع ينظران في الخزيتة والإبرة، وإذا وجد فيها ٢٠ رجلاً

١- قليون : كلمة أفرنجية، وتعني نوعاً من السفن القديمة، الدراري اللامعات ص ٣٢٣.

١- الخريت: الدليل الحاذق الذي يهتدي إلى أخرات المفاوز وهي مضايقتها وطرقها الخفية. المنجد ص ١٧٢.

من الذين ينشرون الشراعات ويطوونها يتعين لهم رجل للنظر في حاجاتهم . وأما نوتيتها فإنهم يبلغون أكثر من ٣٠ نفساً منهم من يتولى أمر الدفة ومنهم من يتولى أمر الشراع ومنهم النجارون والمصلحون والمرفتون^(١) إلخ . وزد على ذلك أن في كل قدرغه ٥٠ محلاً للمجاذيف على الجانبين يقوم في كل منها ٤ جدافون وقد خص واحد منهم للطبخ . ويبلغ عدد الجدافين ١٩٦ نفساً فضلاً عن وجود مائة مقاتل فيها ويكون عددهم جميعاً في كل منها ٣٣٠ نفساً . ثم إن السفن المعروفة باشتراكها يكون في كل جهة منها ٢٦ محلاً للتجذيف وطولها ٥٧ ذراعاً وعدد أنفسها يكون بالنسبة إليها . وأما السفن المسماة باشا باشتراكها سي ، فيكون طولها من ٧٠ إلى ٧٢ ذراعاً وعدد محلات التجذيف فيها ٣٦ . ويقف على كل مجذاف سبعة أشخاص ويبلغ عدد من فيها نحواً من ٨٠٠ شخص . والمأونة التي طولها ٦٥ ذراعاً يكون علو مؤخرها ٢٠ شبراً وعلو مقدمها ١٢,٥ شبراً وعلو وسطها ٧ أشبار ونصف شبر وفيها ٢٤ مدفعاً ، فالتى فيها ٢٩ محلاً للتجذيف على الجانبين كان يقف على كل مجذاف لها ٧ رجال فيبلغ عدد من فيها ٦٠٠ نفس . وكان الأسرى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يستخدمون على المجاذيف ويسمونهم فورسى بمعنى مجبورين ، وكانوا يقعدون في المحل المسمى أتوراق ويجذفون وهم مقيدون بالسلاسل وعندما تنتشب الحرب يجعلون نصف المجذفين من هؤلاء الأسرى فورسى المجبورين ونصفهم من الأتراك وذلك لعدم أمنية رؤساء السفن الإسلامية منهم .

فلما أراد السلطان بايزيد الثاني الاستيلاء على سواحل المورة أمر بإنشاء سفن كبيرة فعمرت بأثناء إنشائها سفينتان كبيرتان من نوع كوكه ، كان طوله كل منهما سبعين ذراعاً وعرضها ثلاثين ذراعاً وأقيم في كل منهما عدد من المدافع الكبيرة وألفان من الرجال بين مقاتل وجذاف ، فترأس على إحداهما الرئيس كمال

١- المرفتون: معلمو الصنعة وأصلها بالتركية قلفانجي . ، انظر الدراري اللامعات ، ص ٤٢٢ .

المشهور، وترأس على الثانية الرئيس براق، ورتب أيضاً ثلاثمائة سفينة بين صغيرة وكبيرة من جميع الأنواع، فأرسلت السفن إلى جهة اينة بختي،^(١) فلما تجاوزت موقع أوارين ووصلت إلى جزيرة براق قابلت عمارة العدو، فثارت نار الحرب بينهما، وهجم العدو بأربع سفن اثنتان من نوع كوكه وواحدة من نوع ماونة وواحدة من نوع بارجة على سفينة الرئيس براق التي هي من نوع كوكه، وفي أول وهلة كسر الرئيس براق الماونة والبارجة المذكورتين بالمدافع وغرقهما فهجمت سفينتان كوكه على كوكه الرئيس براق وأحاطتا بها فأحرقهما الرئيس بزيث النفط، إلا أنه لم يستطع أن يتخلص من بينهما فامتدت النار لسفينته أيضاً فاحترقت ومات الرئيس براق واستشهد معه خمسمائة نفس من العساكر الإسلامية وأنقذ من سقط في البحر من غزاة المسلمين بالزوارق، أما الذين سقطوا في البحر من سفن الأعداء فاحترقوا وغرقوا ولم يتخلص منهم أحد، واستولى المسلمون على القليون الذي أتى لإمدادهم وإنقاذهم وسميت الجزيرة المجاورة لمحل تلك المعركة جزيرة براق.

ثم تغلب الأسطول الهمايوني أيضاً على « أسطول الوندك »^(٢) في سائر المحاربات التي حدثت بعد ذلك وتيسر للدولة العلية فتح قلاع اينه بختي ومستون وقرون وبينما كانت قوة الدولة العلية في البحر تترقى وتزداد حتى تغلبت على أسطول الوندكين كما ذكرناه، إذ حصل الفتور والضعف في مزاج الدولة، وأهملت الحروب في البحر وذلك مسبب عن اعتزال السلطان بايزيد عن أمور السلطنة نظراً لشيخوخته وتهامل الوكلاء وتسامحهم. أما حضرة السلطان سليم خان الياوز، فراعى قاعدة تقديم الأهم على المهم واشتغل بالحرب في نواحي إيران وبلاد العرب ولذلك لم يتمكن من النظر في أمور الأساطيل البحرية، وعدا عن ذلك فقد منع قرصان المسلمين عن السفر في البحر الأبيض في أثناء ذلك لثلا

١- اينة بختي: مدينة ساحلية تقع شمال شبه جزيرة المورة اليونانية وغرب مدينة سالونيك، ويطلق عليها أيضاً اسم لبيانتو.

٢- الوندك: البندقية، الوندكيون: البندقيون.

يكونوا سبباً لحدوث متاعب عظيمة على الدولة العلية، فلذلك وإن كانت قوة الدولة العلية البحرية أخذت في الانحطاط إلا أن العثمانيين كانوا في حدة شبابهم يسري دم الغيرة والحمية في عروقهم فكانوا يحبون الجهاد والغزو فحمل أكثر قادتهم المتطوعة على سواحل الغرب مجاهدين مخافة أن يفقدوا انتهاز الفرصة فأوقدوا نيران القتال على الأوربيين، وكان مقدمهم خير الدين باشا. وفي ذلك الوقت جلس حضرة السلطان سليمان خان على سرير السلطنة فاهتم بأمر الأسطول اهتماماً كلياً فتجددت فيه حياة قوة الدولة العلية البحرية.

وحيث كان حضرة السلطان سليم الياوز مهتماً في تنظيم أمور دار الصناعة البحرية، عمّر مخازن وحياض للمياه أكثر من الحياض التي بنيت في زمن السلطان الفاتح في جهة آيينه لي قواق، وكان عزمه أن يتدارك أمر الأساطيل واستعدادها وللاستيلاء على السواحل والجزائر الواقعة في البحر الأبيض بتمامها وقد قال في أثناء كلامه الخصوصي لإدريس بدليس ولبعض كتمة أسراره «إن البحر الأبيض هو عبارة عن خليج واحد يمتد إلى حد بوغاز سبته فكيف يليق أن تجتمع فيه ملل مختلفة، ثم إنهم لا يكونون تحت حكم الدولة العلية فعدم الاجتهاد في بلوغ هذه الغاية المقصودة هو من قصور الهمة المزري بشأن الدولة، ثم قال: «إني آليت على نفسي وعاهدتها إذا مد الله في عمري أني أحرمها الراحة والسكون ما لم أنشيء الأساطيل الكافية لنيل هذا المرغوب واستولي على ثغور البحر الأبيض». وبناء على ذلك شمر عن ساعد الهمة والعزم لتكثير وتكبير بناء دار الصناعة البحرية.

ودولة الجراكسة في مصر التي كانت في نظر الناس معتبرة بشرف خدمتها للحرمين الشريفين وجيليلة القدر بالنظر للشرف المستعار الذي اتصل بها من الخلافة العباسية المصرية قد أظلم الجو بينها وبين الدولة العلية لأسباب متعددة فتداخل بينهما ملك تونس عثمان الحفصي وشيد دعائم الولاء وجرت المخابرات في مجراها وتبادلت السفراء بين الطرفين، وحيث إن الجراكسة كانوا يواصلون

أهل إيران وأشقياء العربان سرّاً، ومن دأب الدولة العلية أنها لا تقبل الاشتراك في مركز استقلالها رأت لذلك من أهم الأمور أن تفتح مصر وتضبط بلاد الشام في طريقها فبذلت المهمة في ذلك واستولت على الجميع، وبعد أن استولى السلطان سليم على مصر والشام كما هو مشهور، رجع إلى دار السلطنة وشرع في تنزيل الأساطيل إلى البحر على قصد الاستيلاء على البحر الأبيض جميعه، ولكنه بادرته الوفاة في السنة الثانية من دخوله إلى دار السعادة.

ولما جلس حضرة ولده السلطان سليمان خان على تخت الخلافة جعل جل اهتمامه في أمور دار الصناعة البحرية ، وكان فرسان رودس تقلدوا صفة قرصان وصاروا يجولون في البحر الأبيض لقطع الطريق على التجار، وبالاتفاق أنهم صادفوا بعض السفن التجارية فأخذوها ولأجل تأمين طريق مصر تعين على الدولة أن تفتح رودس وتستولي عليها، فتوجه لذلك في بادئ الأمر السلطان سليمان بأسطوله العظيم وفتح الجزيرة المذكورة سنة ٩٢٩هـ. وفي سنة تسعمائة واثنتين وثلاثين توجهت قيادة بحر السويس على أحد أهل القرصان وهو سليمان رئيس، فأرسله في عشرين سفينة من نوع قدرغه من ثغر السويس إلى ديار اليمن فاستولى على ساحل عدن، ثم لما دخل خير الدين باشا إلى الاستانة كانت قوة الدولة العلية البحرية بالغة حد الكمال.

جهاد خير الدين بارباروس

وكان خير الدين باشا يعرف باسم خضر وعند الأورباويين باسم بار باروس، أي صاحب اللحية الحمراء، وكان مشهوراً بأعماله العظيمة وغزواته الخارقة للعادة في البحر وهو مجاهد جليل المناقب حتى ظن الناس أنه من أهل الكرامة المجاهدين الأجلاء ذوي المناقب. وقد ألف كتاباً في أخباره بأمر السلطان سليمان خان وقدمه لحضرته، ومن الكتاب تعلم تفاصيل أحوال خير الدين باشا التي يمنع ضيق المقام من ذكرها، وإنما نرى من المناسب أن نذكر على وجه الإجمال ترجمة حاله في الزمان الذي كان فيه رئيساً لسفن الدولة حينما كانت ذات شوكة واقتدار

ولا سيما في البحر. نقول: أصل خير الدين من جزيرة مدلولو،^(١) وكان رئيساً يشتغل في سلا نيك وكان أخوه الكبير عروج يسافر إلى طرابلس الشام، وبينما كان الرئيس عروج مسافراً إلى طرابلس وقع أسيراً بأيدي قرصان رودس وبعد تخلصه منهم كان السلطان قورقود في أنطاليا^(٢)، فاستأذنه وذهب في مركب يسع ثمانية عشر أوتوراق،^(٣) بقصد الجولان في البحر، وبعد أن أغار على عدة سفن للنصارى في أطراف رودس وفي سائر السواحل، توجه إلى جهات الغرب لأنه عند جلوس السلطان سليم خان اختفى السلطان قورقود،^(٤) فمنعت مراكب البحر الأبيض عن السفر، فحينئذ سار قرصان أهل الإسلام إلى سواحل الغرب واتخذوا لهم مرسى ومأوى هناك. وبعد ذاك نشر الرئيس خير الدين شرع مركبه وتوجه لجهة الغرب أيضاً ولدى الملاقاة مع أخيه الرئيس عروج في جزيرة جربة الواقعة في حدود تونس من جهة طرابلس الغرب عقدت معاهدة بين الأخوين على الغزو ووصلا إلى تونس وطلبا محلاً من حاكمها. وفي ذلك الزمان كانت تونس في يد آل حفص، فعينوا لهما قلعة حلق الواد على شرط أن خمس الغنائم تسلم إلى خزينة تونس. وعلى هذه الصورة خرج الإخوان إلى البحر وأخذوا في الغزو وضبطوا ما صادفاه من سفن الإفرنج. وبالتالي كثرت سفنهما وأوصلا شهرتهما وصيتهما إلى المقام الأعلى وجعلا البحر الأبيض يستجير منهما. ثم هجما على مدينة بجاية الواقعة في طرف تونس من جهة الجزائر التي كانت في يد الإسبانيول وغلبا الأسطول الأسبانيولي الذي جاء عليهما. وفي هذه المحاربة جرح الرئيس عروج في كتفه فأرسله أخوه خير الدين إلى تونس، وتوجه هو إلى جزيرة ميروقه في الأندلس فخربها وفتح جملة قلاع وغار على عدد كثير من قراها

١- جزيرة مدلولو: جزيرة في بحر إيجه قريبة من الساحل الغربي للأناضول.

٢- أنطاليا: مدينة ساحلية جنوب الأناضول مطلة على البحر المتوسط.

٣- أوتوراق: مقعد، الدراري اللامعات، ص ٥٥.

٤- قورقود هو أخو السلطان سليم.

وغنم أموالاً وافرة، وصادف في البحر أسطول قورسيقا فغلبه وعاد إلى تونس مظفراً. وبعده في موسم الشتاء خرج مرة أخرى إلى البحر لأجل القرصنة،^(١) وفي ظرف شهر أخذ ثلاثة آلاف وثمانمائة أسير وعشرين مركباً ورجع بالأموال والغنائم. وبعد ذلك في فصل الربيع صار قايماً في مركبه على سبع قطع متطوعة وأجلب بهم على بعض سواحل أوربا وزيادة على ما أخذه من الغنائم الكلية أخذ خمسة سفن، أرسل منها واحدة إلى الدولة العلية مع الرئيس محيي الدين ابن أخت الرئيس كمال المشهور، وفي مقابلة ذلك أنعمت عليه الدولة العلية بمركبين من نوع القدرغة.

وبعد هذه الغزوات لم يقدر أحد أن يقف في البحر لمقاومة الرئيس خير الدين، وصار جميع البحر الأبيض يرتعش من اسم بارباروس، وانتشر الخوف منه في السواحل والجزائر وبعض أهالي أوربا، حتى إنهم كانوا يخوفون أولادهم وهم في المهد ويسكتوهم باسم بارباروس.

وظهوره وخروجه على هذا الوجه كان موجباً لقلق دول أوربا، وبناء على ذلك فالفرنساويون أيضاً أرسلوا أسطولاً مؤلفاً من ثلاثين قطعة هاجموا بها جهة تونس وعادوا منهزمين أيسين. ثم إن الرئيس عروج استولى على الجزائر وتمكن منها وتقاسم مع أخيه الرئيس خير الدين القلاع التابعة إلى الجزائر وبجايه، فما كان منها في جهة الغرب كان باسم الرئيس عروج وما كان في جهة الشرق كان باسم الرئيس خير الدين. فاتفق حاكم تلمسان مع الأسبانيول على طردهما من الجزائر وسواحلها وبينما كان حاكم تلمسان بصدد الهجوم من جهة البر والأسطول الإسبانيولي من جهة البحر اتصل الخبر بالرئيس عروج فأسرع في التوجه إلى تلمسان مع مقدار من العسكر وكان الأهالي قد نفروا وقتئذ من الحاكم

١ - القرصنة هنا بمعنى الإغارة على سفن الأعداء وحماية السفن الإسلامية، وكانت جهاداً بحرياً، وقد أطلق الصليبيون الأسبان وغيرهم لفظ القراصنة على المجاهدين المسلمين، نظراً لما عانوه من المتاعب الشديدة من هؤلاء المجاهدين.

بالنظر لاتفاقه مع أعداء الدين، وأعطت العلماء فتوى في قتله. وعندما قرب الرئيس عروج من البلد فرّ حاكمها إلى أسكلتها^(١) وهران التي كانت دخلت قبلاً في يدي إسبانيا واستمد منهم وجمع عسكرياً من العربان بالأموال التي بذلها فانضموا إلى ما جمع من عساكر الأفرنج، ثم إن عروج حاصر أولاً قلعة المشور وبعده حاصر مدينة تلمسان، وامتد الحرب والقتال أكثر من سنة، وفي نهاية الأمر استشهد الرئيس عروج وبعد استيلائه على تلك القلاع جاء الأسبانيول في مائة وسبعين مركباً وأخرجوا عسكرياً كثيراً إلى البر وهجموا على الجزائر، وكانت جنود الرئيس خير الدين قليلة وحيث إنه انقاد له نحو العشرين ألفاً من عساكر العرب ثبت في مقام مدافعه الإسبانيين وأجبرهم على الفرار بعد أن أتلّف أكثرهم. وبعد عودته من حصار تلمسان وبلد تنس وفتحهما جاء الأسبانيول في مائة وثلاثين مركباً وهجموا على مراكب خير الدين التي كانت رابطة في ليمان الجزائر، ولكنهم انهزموا أيضاً وشطط بعض سفنهم في الرمل وأسر منهم نحو ثلاثة آلاف نفر وكثير من الضباط مع قبودان^(٢) الأسطول.

ثم بعد هذه الواقعة طلب أهالي الجزائر من الرئيس خير الدين قبول إمارته على الجزائر فقبل ذلك منهم على شرط أن تكون الخطبة والسكة باسم السلاطين آل عثمان، ولكن غضب لذلك حاكم تونس الحفصيّ وحاكم تلمسان الزياني فاتفقا على قتال خير الدين بك وأفسدوا عليه قلوب الأعيان من أهالي الجزائر. فنشأ من طرف هؤلاء ومن طرف آخر وهو بذل الأموال تشويش بعض القبائل على الجزائر، وزيادة على ما أجروه في نواحيهما فإن بعضهم من أولاد ملوك تلمسان استجاشوا حاكم فاس وبعضهم استعانوا بإسبانيا وكانت الحرب والمناوشة مستمرتان، وبإثناء اشتغال خير الدين بك بدفع مضرات أولئك كان يسوق العساكر براً وبحراً. وبعد أن حاصر مستغانم وهي واقعة في القرب من

١ - أسكلتها: أي ميناءها.

٢ - قبودان: رئيس، آمر. الدراري اللامعات ص ٤١٢.

وهران واستولى عليها مر أسطوله بطرق الأندلس وأخذ من أساكره^(١) غنائم وافرة وأنقذ من يد الأسبانيين ما وجده من المسلمين الموجودين عندهم في حالة الذل ونقلهم إلى الجزائر وأسكنهم فيها. وكان خير الدين بك لا يخلو من مهاجمة البربر بأغواء حاكم تونس من جهة الشرق وأسبانيول من جهة الغرب، وبهذه الصورة استولوا على أكثر محلات الحصار التي بيده وكان الكثير من أهالي الجزائر مايلون إلى الأعداء، ولذلك بالنهاية ترك خير الدين بك الجزائر وهاجر والتجأ إلى قلعة جيجل الواقعة أيضاً بتلك السواحل. وفي مدة ثلاث سنين كان يصرف أوقاته تارة بشن الغارة على سواحل أوروبا وتارة على مراكب المخالفين من التونسيين، وبعد ذلك استولى على الجزائر مرة أخرى واستقر بها وكان يرسل تحريراته في سياق النصيحة إلى عبد الله حاكم تلمسان الذي كان من مدة لم يقرأ الخطبة باسمه فلم يسمع كلمته وهجم على الجزائر بعسكر من البربر فانكسر واستأمن إلى خير الدين بك على شرط أن يخطب باسم آل عثمان ويدفع سنويا عشرين ألف دينار ذهباً. وبعد ذلك لم يكن خير الدين بك خالياً من الجهاد والغزو وحيث لم تكن مراكب أوروبا قادرة على السفر في البحر الأبيض. كان امبراطور ألمانيا وملك أسبانيا شارلكن^(٢) المشهور يفتش على طريقة لهذا الأمر. وكان المشهور والمعروف بالجرارة والمهارة بين قباطين أوروبا القبودان المسمى أندريا دوريا فأعطاه أسطولاً مكتملاً وأخرجه إلى البحر الأبيض لمقاومة خير الدين بك.

١ - بمعنى موافقه.

٢ - شارلكن، شارل كينت (١٥٠٠م-١٥٥٨م) وتعني شارل الخامس امبراطور ألمانيا وأسبانيا الشهير، كانت له طموحات واسعة في تكوين امبراطورية كبيرة. حارب ملك فرنسا وتغلب عليه، وبدأ في محاربة السلطان العثماني ومنازلة أساطيله في البحر المتوسط، ولهذا ساعد العثمانيون فرنسا ضده، وانتهى النزاع لصالح الدولة العثمانية، قاموس الأعلام. ٢٨١٠ / ٤.

لكن لما كان اسم بارباروس ملأ الرعب قلوب أهل أوروبا كافة كان أندريا دوريا يحتذر من ملاقاته، على أن خير الدين بك كان يطوف في البر الأبيض طلباً له، وأما أندريا دوريا فإنه كان يواصل الحسائر لبعض السواحل الإسلامية كلما وقعت له فرصة في ذلك. وفي خلال ذلك ابتداءً الإسبانىون تظاهرون بالجفاء مع المسلمين الذين عندهم وصاروا يحرقونهم بالنار مالم يرتدوا عن دين الإسلام مع أن هذا الأمر لا يجوز دين ولا يليق بالإنسانية، فاجتمع طائفة من الإسلام في محل واحتموا خلف جبل واستمدوا من خير الدين بك فنقل مقدار سبعين ألفاً منهم ومن غيرهم من الإسلام^(١) وأسكنهم في الجزاير وشن الغارة على كثير من سفن الإفرنج.

وبعد ذلك دعاه إليه حضرة القانونى السلطان سليمان خان، فخلف على محافظة الجزاير أحد معتمديه المدعو حسن بك، وخرج هو من الجزاير في أسطول محكم في نية القصد إلى دار السعادة فتوجه إلى سواحل أوروبا وغار على قلعة كائنة في قرب جينوى وخربها، ثم صادف في ناحية مينه ثمانية عشر قطعة فأخذها واستولى عليها، ثم جاء إلى جهة بروزة يترصد أندريا دوريا، وكان أندريا دوريا موجوداً في تلك النواحي فقبل له على سبيل الإخبار والإخطار إن بارباروس يفتش عليك فلا تكن غافلاً فهرب من هناك واختفى في برنذري من أعمال إيطاليا، ولما لم يتفق لخير الدين بك أن يصادفه توجه نحو الأستانة فبلغها في أواسط سنة ٩٤٠ وعقب وصوله إليها نصب قبوداناً على البحر وألحق إليها رتبة جزاير بكلركي. وبأمر حضرة السلطان سليمان خان صار إنشاء إحدى وستين مركباً من نوعي الباشترده والقادرغه، وكان أحضر معه من الجزاير ثمانية عشر مركباً، ومع الخمس سفن المتطوعة التي كانت معه سافر ثانية إلى البحر الأبيض في أربعة وثمانين قطعة حربية وكبس^(٢) جزاير مالطة وساردينيا ومينورقة

١- الصواب من أهل الإسلام.

٢- أي استولى على.

وميورقه وخرب كثيراً من البقاع والقلاع وأحرق كثيراً من سفن الأعداء، وفي عودته إلى الأستانة صدر الأمر السلطاني في إنشاء مائتي سفينة أخرى بقصد الإستيلاء على أطراف بوليا الواقعة في إيطاليا، وبينما كان ساعياً بإتمام المراكب ذهب في ربيع الآخر سنة ٩٤٣ إلى طرف بوليا في ثلاثين مركباً خفاف الحمل وخرب قلعة منها ورجع. وفي أثناء ذلك صرف حضرة السلطان سليمان خان نظره عن جهة بوليا وعزم على حرب قورفو فتوجه جلالته في الأردوي^(١) الهمايوني نحو بولونيا،^(٢) وجعل لطفي باشا سرداراً على الأسطول، وفي شهر ذي الحجة في سنة ٩٤٣ خرج خير الدين باشا إلى البحر الأبيض في مائتي وثمانين قطعة من السفن وكان فيها مائة وخمسة وثلاثون قطعة من نوع الباشترده والقادرغه، ولحد هذا التاريخ لم يخرج من الأستانة هكذا أسطول مكمل، وبخروج الأسطول الهمايوني على المنوال المشروح أغار أولاً على بعض القلاع الكائنة في أطراف بولونيا وخربها، وبعد ذلك أتى إلى جزيرة قورفو^(٣) فأغار على جميع قراها ونهبها، ثم إنه لما طال أمر حصار قلعتها إلى أن قرب فصل الشتاء تركها وأقلع عنها، وعاد السلطان سليمان مع الأردوي الهمايوني للأستانة براً ولطفي باشا في الأسطول الشاهاني بحراً، أما خير الدين باشا فإنه انتخب ستين مركباً من الأسطول من نوع القادرغه وبقي في البحر، وافتتح جزائر كثيرة مثل جوقة واكنه ومرتد وباره وحصل منهن على غنائم لا تحصى، حتى إنه بلغ خمسمائة بيت المال أربعمائة ألف دينار مع ألفين وخمسمائة أسير، وعلى هذا القياس في الجوخ وسائر البضائع والأشياء، وغب وصوله للأستانة في مثل هذا الانتصار العظيم عرض للأعتاب السلطانية تلك الهدايا والتحف التي لم يسبق في عصر من الأعصار تقديم مثلها من أحد من رؤساء البحر فصار مظهراً للالتفات العظيم السلطاني وألبسه الخلع الفاخرة.

١- الجيش والصحيح الأورو بدون ياء.

٢- أي بولندا.

٣- كورفو أو كركيرا: جزيرة يونانية في مدخل بحر الأدرياتيك، المنجد ص ٤٧٣.

وفي شهر محرم سنة ٩٤٥ سافر أيضاً إلى البحر الأبيض في مائة وثمانية وثلاثين سفينة واستولى على بعض الجزائر مثل اسكرى واستندل، ثم ذهب إلى كريد وشن الغارة على كثير من قراها وأخذ ما ينوف عن الخمسة عشر ألف أسير ثم رجع إليها مرة أخرى وافتتح قلاعها الثلاثة في ظرف عشرة أيام وربط الخراج على أهلها. والحاصل كان في كل جزيرة من جزائر ونديك التي جمعتها خمس وعشرون جزيرة قلعة واثنتان وثلاثة فافتتحها كلها في هذه السنة، ورتب على اثنتي عشرة جزيرة منها الخراج المقطوع والثلاثة عشر الباقيات خربها وأعفى أثرها، ثم انحدر بعد ذلك إلى جهة الروم إيلي ووصل إلى أغريبوز، وترك فيها بعض المراكب التي كان سيرها بطيئاً، وسار في المراكب السريعة، وفي خلال ذلك كانت أساطيل الدول المتفقة تتجمع في قورفو، فبلغ خير الدين باشا هجومها على قلعة بروزه، وأتت العشرون مركباً المتطوعة التي أرسلها للاكتشاف فأخبره ربانها أنهم رأوا في مياه زاكلسه أربعين مركباً من نوع جكدير، كما أن مراكب العدو لما رأت مراكب الدولة رجعت مسرعة على أعقابها وأخبرت الأسطول الراسي في قورفو بأن بارباروس قريب منكم فتركوا بروزه وخرجوا منها وبلغ خبر خروجهم خير الدين باشا وهو تجاه متون، فمر إلى جزيرة كفالونيا وأخرج عسكره إلى البر وغزا قراها ثم أتى بروزه وأمر العسكر بترميم بعض محلاتها المنهدمة من قنابل العدو أثناء حصاره لها.

وفي أثناء هذا بلغه خبر تجمع أساطيل البابا والبورتكيز والونديك^(١) في قورفو أيضاً وذلك لأن خروج خير الدين وظهوره على الدول الأوروبية سلب راحتهم لا سيما وقد صار أخيراً قبودان باشا ودخلت ترسانة الأستانة تحت امرته، فإنه يستطيع إذا أن يعمل أساطيلاً بقدر ما يريد، ويمكنه الاستيلاء بها على أي محل شاء، ففكرت الدول في إيجاد قوة كافية لردعه وصدده فاتحدت أساطيلهم

١ - أي أساطيل بابا روما والبرتغال والبنادقة.

وتجمعت في محل تتربق الفرص للهجوم على الأسطول الهمايوني، وحينما كان خير الدين باشا في بروزه^(١) كما ذكرنا آنفاً أتوا إلى محل يبعد نحو ميلين عن بروزه وذلك في جمادى الأولى سنة ٩٤٥، وألقوا الحديد في البحر على هيئة المحاصرة للأسطول الهمايوني، وكان رئيسهم الأول أندريا دوريا وفي معيته اثنان وخمسون قطعة من القادرغه وقطعة من القليون كبيرة جداً، وكان مع قبودان الونديين إحدى وسبعون قطعة من نوع القادرغه أيضاً وعشرة قطعات من القليون العظيم المدعو بفرقاته، وأربعون قادرغه للبابا والمالطين، وثمانون بارجة للبورتيكيز والأسبانيين، وعدد من البوارج أيضاً لغيرهم، فكان عدد مجموعهم مائة وإثنان وستون قادرغه، ومائة وأربعون غليوناً، ونيف وثلاثماية مراكب حربية كبيرة وفيما بينهم من المراكب المتطوعة معية خير الدين باشا كان نحو مائة واثنين وعشرين مركباً لا غير من نوع جكديرر، فجعل يشوق عساكره للقتال وبادر لأخذ الاحتياطات الحربية فأنزل السواري عن المراكب ونه على العساكر في مراقبته بالحركة والسكون، وأعطى التعليمات اللازمة لقباطين المراكب المتطوعة، وأن يقفوا خارج الآلاي وبأن إطلاق المدافع يكون بحسب الإيجاب واللزوم وكان في جملة هؤلاء المتطوعين طورغوردجة البحري الشهير، أما الأمراء البحرية فلما رأوا كثرة العدو عرضوا عليه إخراج كمية من العساكر والمدافع للبر، فلم يستصوب هذا التدبير أولاً، غير أنه لما استخبر عن قصد دخول الأعداء عن بوغاز بورزه ليلاً، أخرج إلى الشاطئ عدداً كافياً من العساكر والمدافع الكبيرة وبادر للمحافظة عليها، وبعد يومين جاء إلى بوغاز بروزه عدة مراكب ومن نوع القادرغه السريعة المشى وابتدروا بإطلاق المدافع على السفن الإسلامية، فلما رأى خير الدين باشا تجاسر الأعداء عليه وطلبهم له للبراز على هذه الصورة بعد أن كانوا يولون الأدبار أينما سمعوا به كبر عليه ذلك وسلب منه الصبر والقرار

١- بروزه: شبه جزيرة في جنوب ألبانيا، ذات موقع تجاري وحربي هام. قاموس الأعلام

وكان يقول (ديكرنيستا) كلمة بالفارسية معناها (أنا لا غير) فخرج عليهم في جميع الأسطول إلى خارج البوغاز، وابتدأ بإطلاق المدافع عليهم من جميع السفن الإسلامية أعني المائة والعشرين قطعة دفعة واحدة، فهجومهم هذا كان باعثاً لخوف الأعداء ورعبهم، وكان الليل يقترب فلم يقدر أسطول الأعداء على الثبات ففروا هاربين، وفي اليوم الثالث من جمادى الأولى تقابل الأسطولان بعيداً عن مرسى بروزه وتهياً للفريقان للقتال وكان الهواء مساعداً لجهة الأعداء فوقع الخوف عند أهل الإسلام، لأن أساطيل دول أوربا كانت من نوع الجكديرر والقليلون، والدولة العلية وإن تكن صنعت في عصر السلطان الفاتح وبعده من أنواع القليون إلا أنها كانت تستعملها في النقلات، وأما في الحرب فلم تستعمل إلا الجكديرر، وهذا النوع في ذلك العصر كان في عصرنا بمنزلة الوابورات^(١) الحربية وهو ينفع للقرصنة ويغلب القليون، فاذا رأى القليون أطلق نيرانه عليه وهو بعيد منه حتى إذا تمكن من تخريبه هجم عليه وأخذه، وأما عند وجود الهواء فلا يقدر من القرب إلى القليون والبوارج تدوس القادرغات. وبالجملية فقد كان الهواء هذه المرة مساعداً للأعداء وموجباً لخوف الإسلام فكتب خير الدين باشا آيتين كريميتين وعلقهما على ساري مركبه استمداداً بالخواص القرآنية وبحكمة الله تعالى فارتبطت المراكب حالاً صفّاً واحداً وابتدأت بإطلاق المدافع، وكانت قنابل مدافع القليونات تتدفق كالسيل ولكن حيث كانت مدافعهم قصيرة فلم تصل قنابلهم إلى السفن الإسلامية، وأما قنابل الإسلام فإنها كانت تصل إلى القليونات وحيث إنهم بسبب الضرب من بعيد أضعفوا بارة أخصامهم جاء أندريا دوريا وقبطان الونديك في قدرغاتهم وأخذوا هيئة الدفاع والتحوط، وهكذا فعل أيضاً خير الدين باشا فهجم مصوباً أفواه نيرانه عليهما فلم يتمكنوا من المقاومة والثبات ودارا خلف البوارج وسعيّاً مراراً في الإحاطة بالأسطول الهمايوني وأن يأخذوه بين بوارجهم فلم يتمكنوا من ذلك، وكلما هجم عليهما خير الدين باشا

١ - أي السفن. مفردة وابور، وأصله فرنسي.

كانا يمران إلى الناحية الأخرى من البوارج التي كانت مصطفة كالقلعة، وغير ممكن تفريقها، وإنما نظراً لشدة السفارين الإسلامية دارت مراكب الأعداء التي هي من نوع الجكدير إلى بوارجها فبعد ذلك كبر خير الدين باشا وهجم على البوارج مطلقاً عليهما نيراناً شديدة فأغرق منهما كثيراً وأوجد طريقاً للمرور من بينهما، فلما مر إلى جهة قدرغات الأعداء استولى الخوف والرعب عليهم جميعاً في صورة فوق العادة، فلم تقدر مراكبهم الجكدير على الثبات فعندها أركنوا إلى الفرار، فأغرق بعضهم بإطلاق المدافع وعطل بعضهم، ولما رأى أندريا ما خلف مراكب الجكدير، وقد تعقبته العساكر الإسلامية ومسكوا سفينتين من نوع القادرغه، أما باقي البوارج التي غرقت في البحر في محل الحرب فقد ألقى الأعداء بأنفسهم عليها النار فصارت للأسطول الهمايوني شعلة في البحر إلى حد الصباح.

وبداية الحرب كانت في وقت الضحى وامتدت إلى ما بعد غروب الشمس ولم يعلم قبل هذا وقوع حرب عظيمة وغريبة مثلها على وجه البحر، وهذا الظفر الذي حصل للأسطول الهمايوني على أساطيل الأعداء على هذه الصورة، حالة كون عددها يزيد أضعافاً عليها مع وجود اندريا دوريا المشهود له بالجسارة والمهارة بأروبا قائداً لها، إنما هو ثمرات خيرية تنسب إلى مهارة خير الدين باشا ومن في معيته من الأمراء في الحروب البحرية وفرط شجاعة العساكر الإسلامية، ثم أن اندريا دوريا بعد هزيمته التجأ إلى جزيرة قورفو، وأما خير الدين باشا فإنه بعد مرور بضعة أيام غزا جزيرة كفالونيا، ثم أحرق حصار بارغا ومنها أتى إلى مدخل قورفو، لكنه صادف نوءاً عظيماً فمر إلى أولونيا وأقام بها منتظراً سكون الرياح، ولما قرب فصل الشتاء عاد إلى الأستانة، وأما أندريا دوريا فإنه ضرب قلعة نوه، واستولى عليها أثناء النوء الذي حصل في البحر، فلما أتى فصل الربيع خرج خير الدين باشا إلى البحر الأبيض في مئة وخمسين مركباً واستخلص القلعة المرقومة.

وفي خلال ذلك ذهب سليمان باشا الخادم أمير الأمراء في مصر إلى الهند، والسبب في ذلك أنه كما ان الإسبانيول ظفروا في أمريكا في سنة ٩٠٠، كذلك كان البرتوغال توجهوا إلى الهند من طريق رأس الرجا الصالح واستولوا على بعض البنادر^(١) الهندية، وقد عجزت عن دفاعهم ملوك تلك الديار فاستمدوا من السلطان سليمان، فأرسل سليمان باشا لإمدادهم فقام من السويس بالأسطول، واستولى على عدن وأقام فيها عسكرياً لمحافظةها، ثم ذهب إلى الهند وضرب بالمدافع بعض القلاع التي دخلت في أيدي البورتيكيز ففتحها واستولى عليها.

وكذلك حسن بك الذي كان أقامه خير الدين باشا محافظاً على الجزائر جهز ثلاثين مركباً من نوع قادرغه وقاليتا، وكان لا يفتر عن الغارة على السواحل الإسبانية، ولما توجه حضرة السلطان سليمان خان إلى حرب الأنكروس^(٢) وذلك في سنة ٩٤٨، جاء الامبراطور شارلكن إلى سواحل ونديك في أسطول عظيم بقصد إعانة أخيه فردينان ملك أوستريا بإيصال الخسائر على سواحل الروم ايلي، غير أنه لما بلغه خبر خروج خير الدين باشا إلى تلك النواحي، علم أنه لا يقدر على إجراء عمل ما، فحالا ألقع عنها وأتى إلى جزائر الغرب، وأخرج للبر عساكر كلية، هجم على الجزائر فأحسن حسن بك مدافعته وأتلف كثيراً من عسكريه، ووقع في البحر نوء ورياح شديدة ألفت كثيراً من سفنه إلى البر وصار مجبوراً على الإقلاع بشر هزيمة.

وبناء على استرحام فرنسا من الدولة العلية أولاً وآخرأ أن تعينها على أمبراطور ألمانيا، ففي تاريخ سنة ٩٤٩، استمد ملك فرنسا من السلطان سليمان

١ - أي الموانئ.

٢ - أي بلاد المجر في (شرق أوروبا).

على شارلكن. وفي فصل الربيع من سنة ٩٥٠، توجه خير الدين باشا بالأسطول مدداً لفرنسا، فوصل أولاً إلى مدينة مسينا فأجبرها على التسليم وبعد أن استولى عليها ذهب منها إلى مارسيليا، فقبل بكمال الاحترام والاحتشام وتوجه مع الأسطول الفرنسي إلى مدينة نيس واستولى عليها وبينما كانت قلعتها في المقاومة جاءه الخبر بأنه سيأتيها إمدادات كلفة فأحرق البلدة المذكورة وأقلع عنها.

وبعد ذلك توجه إلى البحر الأبيض في مدة سنتين، وغب وصوله توفي ولحق بدار البقاء في اليوم السادس من جمادي الأولى في عام ٩٥٣، وقد تجاوز سنه الثمانين وجاءت هذه العبارة (مات الرئيس البحري) ^(١) تاريخاً لوفاته.

[البحرية العثمانية بعد خير الدين]

وأقيم مكانه محمد باشا الصوقلي أحد الوزراء قبطاناً للبحر، وبعد اشتغاله في محافظة البحر الأبيض عدة سنين، صار عوضاً عنه قبوداناً للبحر سنان باشا أخو رستم باشا الصدر الأعظم، ولما توفي هذا أيضاً في ٩٦١ جعل مكانه لرئاسة البحر بياله بك المشهور المخرج من الحرم الهمايوني بالقبوجي باشيه ^(٢). وكان وقتئذ وجود ذات جليل الصفات مثل خير الدين باشا بمسند القبطانية قد اكسب الشرف والأهمية لهذا المنصب الجليل، فصار يلتزم وجود ذات لقبودانية البحر ممتازاً ومحترماً من المؤمنين عند وكلاء الدولة أو ممن حصل على توجيه ونظر الذات الشاهانية. وإلا كان يوجد من يقوم مقام خير الدين باشا وهو طورغورجه بك القورصان المشهور، وهو في الأصل كان من لوندية ^(٣) البحر، ونظراً لفرط شجاعته استحصل قبودانية زمرة اللوند وكان في الحروب يصاحب خير الدين

١- أي وفق حساب الجمل الذي كان رائجاً في العهد العثماني.

٢- قبوجي باشي: رئيس الحجاب. الدراوي اللامعات، ص ٤١٢.

٣- لوند: كلمة أفرنجية تعني نوع من العسكر سريع الحركة يستخدم في الأسطول. الدراوي اللامعات، ص ٤٩٧.

باشا، ويروى أن خير الدين باشا أطراه في المدح والثناء وتكلم علناً في ديوانه، وقال في حقه إنه ينفع أكثر منى وهو نظير خير الدين باشا في أفعاله، فقد غزا غزوات وفيرة في جهة الغرب، وعندما صار صاحب أموال زاد في عدد مراكبه حتى صار يطوف في خمسة وعشرين مركباً وكان القبودان المشار إليه سيف الإسلام المسلول، وله مع الافرنج غزوات كثيرة جداً وله فتوحات عظيمة، وهو الذي هابه الأوروبيون كهبتهم من خير الدين باشا وهو الذي خلفه في محاله في البحر الأبيض. حتى إن سنان باشا لما كان قبوداناً للبحر تخابر معه مرة وخرج إلى البحر الأبيض في الأسطول وجاء طورغورجه من جهة الغرب، فلما تلاقيا وأجريا تمريناً بالمدافع ظهرت غلبة نيران مراكب طورغورجه لمقابلتها، فقال سنان باشا إن هذا الرجل لو سلك في بعض الظروف سبيل المخالفة ولو مرة يكون من المشكل تأديبه ثم إنه استماله إليه وجاء به إلى الأستانة، وكان معه أيضاً سبعة أنفار من رفقاته القباطين المشهورين في البحر، وفي جملتهم (أولوج علي) القرصان المشهور، ولما أتى إلى دار السعادة على هذه الصورة، أحسن إليه بلواء قارلي إيلي، وأحسن لسائر رفقاته كل منهم بسبعين وثمانين أقدانية علاف.^(١) لكن رستم باشا^(٢) كان لا يحب طورغورجه لأنه كان ينظر إليه نظير رقيب ومعارض لأخيه وهو أيضاً لم يكن ممثلاً لرستم باشا، لأنه كان واقفاً على سوء قصده بحقه، وبناء عليه لما أرسل رستم باشا جاويشاً لكي يستحضره إلى دار السعادة بسبب دعوى، امتنع عليه لعدم الأمانة عليه في دار السعادة ففر في مراكبه إلى جهة الغرب وأقام هناك نحو سنتين.

١- علاف جمع علوفة بمعنى مرتبات.

٢- رستم باشا : الصدر الأعظم في عهد السلطان سليمان القانوني من أصل كرواتي. توفي سنة ٩٦٢هـ. قاموس الأعلام ٣/ ٢٢٧٧.

وفي ذلك العصر كان طراً الضعف على دولة بني حفص في تونس . وفي أثناء استيلاء الإسبانيين على أكثر سواحل المغرب أخذوا أيضاً قلعة طرابلس الغرب .

وكان مطلوب السلطان سليمان افتتاح طرابلس غير أن أمراً جسيماً مثل هذا يتوقف على وجود ذات في الأسطول الهمايوني يكون خبيراً بأحوال الحروب البحرية حقيقة مثل طورغورجة ، وكان السلطان سليمان متغيراً عليه لفراره لجانب المغرب كما مر ، ثم صفح عنه لأجل الحصول على هذا الأمر المهم ودعاه إليه ووعدته برتبة بكربكية طرابلس مادام حياً أن فتحها ، وجعل الأمراء البحرية مأمورين بمتابعته ، وفي ٩٥٨ ذهب سنان باشا إلى تلك النواحي في مائة وعشرين قادрге ، وافتتح طرابلس بمعرفة ودلالة طورغورجه ، ووجه سنان باشا إيالتها على غيره ، فتكدر لذلك طورغورجه وهم بالخروج إلى جانب المغرب ثم خرج وتبعه سائر الأمراء لأنهم كانوا مأمورين باتباعه ، ولما بقي سنان باشا وحيداً أشار عليه طورغورجه بالرجوع إليه فرجعوا وأرجعوه هو أيضاً معهم بكل منة وقبول وجاؤا به إلى الأستانة . وحرر في بعض التواريخ أنه في ٩٦٠ صار سرداراً على الأسطول الهمايوني وذهب إلى البحر الأبيض في مائة وعشرين قادرعة . وكذلك في سنة ٦١ خرج إلى البحر الأبيض في خمسة وأربعين قادرعه وذلك بناء على استدعاء ملك فرنسا ، وحصر قلعة مسينا الواقعة في سواحل إيطاليا واستولى عليها وبعد أن أتى بأعمال عظيمة وخلص سبعة آلاف من أسرى المسلمين عاد إلى الأستانة بغنائم وفيرة ، وأنعم عليه حضرة السلطان العالي القدر برتبة بكربكية الجزائر مع القبودانية مكافأة له ، إلا أن رستم باشا عارض في ذلك قائلاً إن طورغورجه نشأ في الخارج وهو لا يرضى بوجوده في خدمة بابكم العالي وصار إبقاؤه في سنجق قارلي ، فتغير طورغورجه من هذه الصورة وامتنع عن القبول ثم قبل الركاب الهمايوني في الطريق والتمس شفاهاً إيالة طرابلس

وبناء على استدعائه أعطاه السلطان طرابلس وبقي فيها إلى أن مات شهيداً في مالطة كما يأتي .

والحاصل أن القبودانية بعد خير الدين باشا كانت حق طورغورجه باشا ولكن حال دونها غرض رستم باشا .

وهكذا الأغراض الشخصية تكون مانعة أبداً من تفويض الأمور إلى أهلها وتكون سبباً لإخراج كثير من المصالح المهمة من مجراها الطبيعي .

وفي ذلك الأوان كان أسطول البرتغاليين يتجول في مياه الهند وسبب ذلك هو أن سليمان باشا بعد أن استولى على عدن وأقام فيها عساكر على ما بيناه آنفاً اتحد أهاليها مع البرتغاليين وسلموهم قلعتها، ثم أن الرئيس پيري الذي ألف كتاب البحر المشهور^(١) في أحوال البحر الأبيض قام من السويس في الأسطول وبوصلوه استخلص عدن .

وبعد ذلك في سنة ٩٥٩ قام من السويس أيضاً في ثلاثين قطعة قادرغه وباشترده وقالته وقلبيون، وطاف سواحل اليمن وفتح قلعة مسكت^(٢) وجزيرتي هرمز ودركت وجاء إلى البصرة، فأخبروه قرب مجيء أسطول البورتكيز^(٣) لتلك الأنحاء وأنه لم يبق له إمكان للمرور وقتئذ في بوغاز هرمز، وحيث إنه لم يمكنه أن يخرج ويستصحب الأسطول جميعاً أخذ قطعتين من القادرغة وذهب إلى مصر . فمراد بك الذي نصف قبوداناً على مصر صدر له الأمر بأن يبقى في البصرة من الأسطول الذي كان راسياً بها بارجتين وخمس قادرغات وقالية واحدة، وأن يرسل الباقي إلى السويس فخرج من البصرة في خمسة عشر قادرغة وبارجتين ولما وصل قبالة هرمز قابله أسطول البورتكيز وحصل بينهما حرب

١- وهو كتاب «كتاب بحرية» وقد طبع في إستانبول طبعة جديدة بثلاث لغات، التركية القديمة والحديثة والإنجليزية . ونشرته وزارة الثقافة التركية مع مركز الأبحاث التاريخية بإستانبول، ١٩٨٨ م .

٢- مسقط .

٣- أي البرتغال .

عظيمة استشهد فيها كثير من العساكر والقباطين المعتبرين وتعطلت المراكب ورجع إلى البصرة. ثم لما كان القبطان سيدي علي^(١) صاحب الكتاب المسمى (المحيط) الذي ألفه في أحوال البحر الهندي ماهراً في الفلكيات وفي علم البحر وشهد الحروب مع خير الدين باشا، وكان ذاتاً نادر الأمثال جداً. فجعل قبطاناً على مصر وذلك في أواخر سنة ٩٦٠هـ، وكان مأموراً في إيصال ما بقي من المراكب بالبصرة إلى السويس فوصل البصرة وأصلح المراكب وخرج منها، وحصلت له انتصارات عظيمة في الحروب التي كانت بينه وبين أسطول البورتكيز في جهات هرمز ومسكت، مع كون أسطولهم كان أكثر من الأسطول الإسلامية بضعفين وثلاثة. ولكن بعد ذلك ظهرت عليه أنواء شديدة أجبرته على اتباع الرياح واقتحام بحر عمان حتى صار آيساً من النجاة لوقوعه في ورطات غريبة فوقع في سواحل الهند وحيث إنه في هذه الأنواء غرق البعض من مراكبه وهال رؤساء الأسطول منظر أنواء البحر المحيط، خرجوا إلى البر في سواحل كجرات وهم في غاية الاضمحلال وباقي المراكب أصبحت خالية من أهلها، فالقبودان سيدي علي المسكين ترك الستة قطع الباقية من المراكب في قلعة سرت وتوجه بمن بقي معه من رفقائه وهم نحو الخمسين طائفاً من أطراف الهند، ومر بايران في طريقه حتى وصل بكل صعوبة إلى ديار الروم وألف كتاباً، تذكيراً لخلائفه، حرر لهم فيه ما مر عليه. ومن ذلك جاء في المثل المشهور (أتى على رأسه ما أصاب سيدي علي).

والحاصل أن حضرة السلطان سليمان خان كان له الإقبال والشوكة في البحر

١- سيدي علي: سيدي علي رئيس، من مشاهير البحارة والرياضيين والأدباء في العهد العثماني، عين رئيساً للأسطول البحري في السويس في عهد السلطان سليمان القانوني خلفاً لبيري رئيس الذي قتل في سنة ٩٦٠هـ. وله كتاب «محيط» في أحوال بحر عمان. وكتاب «مرآت الممالك». توفي سنة ٩٧٠هـ.

الأبيض زيادة على ما كانت عليه أساطيله من التجول في بحر الهند، وفي ذلك العصر كانت قوة البورتغال البحرية فايدة وعالية على سائر الدول وكانت مراكز الدولة العلية لا تخلو من الحروب معهم سواء كانت غلبة أو مغلوبة .

وكما أنه لم تستمر قوة الدولة العلية البحرية في بحر الهند، فكذلك طراً الضعف أيضاً على الأساطيل البورتغالية بأسباب تلك المحاربات . ولهذه الأسباب اغتتم الإسبانون الفرصة بتسيار أسطولهم في تلك الأطراف وهجموا على البورتغاليين ثم بعد ذلك انتهت سوطه البورتغال البحرية وانتقلت من بعدها إلى الفلمنك والإنكليز . ولنرجع إلى ما كنا بصده فنقول :

إن بياله بك^(١) الذي تولى قبودانية البحر بعد سنان باشا في ٩٦١، وإن لم تكن نشأته من اللوند إلا أنه كان جريئاً وجسوراً ومفطوراً على كمال الرشد والروية وذاتاً ممدوح الصفات، فاهتم بأمور الأسطول بأحسن اهتمام وإقدام، وجعل الأمراء البحرية وعلى الخصوص طورغورجه باشا مسرورين فعلاً، واستخدمهم . والحق يقال إنه خدم الدولة العلية خدمات جميلة وأصلح أموراً جسيمة جداً، وذلك إنه في وقت تعيينه قبوداناً أرسل ملك فرنسا سفيراً مخصصاً مستمداً من السلطان سليمان على إمبراطور ألمانيا، وفي ذلك الوقت كان السلطان سليمان في حرب العجم فأحال إجراء المقتضى بهذا الخصوص إلى إبراهيم باشا الوزير الثاني الذي كان معيناً لمحافظة الأستانة، وحينما كان المعسكر الهمايوني في صحراء ترجان كما بيناه في الفصل الرابع صدر من هناك الفرمان العالي، وأرسل بياله بك أمراً له أن يأخذ معه طورغورجه باشا ويتوجه في الأسطول الهمايوني لإمداد فرنسا .

١ - بيالة بك : من مشاهير قادة البحر في عهد السلطان سليمان القانوني . تولى قيادة أسطول البحر المتوسط لمدة أربع عشرة سنة ٩٦١هـ - ٩٧٥هـ، واستطاع ضم ٦٧ جزيرة للسيادة العثمانية . توفي سنة ٩٨٥هـ . قاموس الأعلام ١٥٧١/٢ .

وبمقتضى فرمان العالي خرج بباله بك إلى البحر في الأسطول وضرب أولاً جهات بوليا وأخذ منها غنائم لا تحصى، ثم ذهب إلي مياه نابولي لكونه سمع بوجود أندريا دوريا فيها على قيادة مراكب إسبانيا، فغلب وصوله إليها لم يجد فيها أندريا لأنه كان لما بلغه الخبر فر منها هارباً، ثم زحف على بعض حصون هناك بيد إسبانيا ففتحها واستولى عليها، ثم اتحد بعد ذلك مع أسطول فرنسا وحاصر قلعة قالييا. وحيث إن عساكره لم يحصل بينهم حسن امتزاج مع عسكر الفرنسيين وكان غير ممكن إدارة الأسطولين معاً في صورة حسنة، ونظراً لقرب أيام الشتاء عاد بالأسطول الهمايوني إلى الأستانة. وفي هذه الحرب كان القبودان والقومانندان^(١) الرسمي هو بباله بك يشهد لذلك فرمان المشار إليه المحرر من صحراء ترجان، لكن قيادة الأسطول المعنوية بعد خير الدين باشا إنما كانت لطور غورجه وبوجوده أنسى خير الدين.

وبعد أن استولى خير الدين باشا مقدماً على وهران أسكلة^(٢) تلمسان، استولى عليها الإسبانيون أخيراً، فذهب بباله بك سنة ٩٦٠ في الأسطول الهمايوني واستخلصها منهم، وفي ٦٤ استولى على قلعة بنزرت الواقعة قريباً من تونس، وفي ٦٥ ذهب في مائة وخمسين قادرغه وغزا ميورفه من جزاير إسبانيا، وبعد عودته منها أحسن إليه برتبة بكليز بكية إيالة الجزائر علاوة على القبودانية مكافأة له.

ثم وقعت البرودة حيناً بين طورغورجه باشا وأشراف العرب واتحدت أمراء العرب ومشايخهم مع الإفرنج أيضاً، وبهذه الوسيلة اشترأت نفوس الإفرنج إلى الاستيلاء على طرابلس الغرب، لكن كان اسطولهم في جزيرة جربا يقصد صرف فصل الشتاء فيها حتى إذا جاء الربيع تسلطوا على طرابلس، فأنهى طورغورجه باشا عن ذلك في ٦٧. وجربا هذه بلدة واقعة في الجانب الغربي على

١- أي القائد.

٢- أي ميناء.

بعد مائتي ميل من طرابلس وهي جزيرة قريبة من الشط، وفي الأصل كانت بأيدي الإسلام واستولى عليها الإسبانيون، وكان تأمين حوالي طرابلس موقوفاً على فتح الجزيرة المذكورة وبناء على ذلك توجه بياله باشا إلى تلك الجهة في مائة وعشرين قادراً وذلك في عام ٦٧، وبأثناء الطريق انضم إلى أسطوله بعض الأمراء البحرية مثل قورد أوغلي أحمد بك أمير رودس، وأولوج علي البحري المشهور، وبعد ذهابه إلى مالطة وغاراته وتخريبه منها كثيراً من المحلات ذهب إلى جربا، وكان أسطول الأفرنج في تلك الجهة، ولدى المقابلة اضمحل أسطول الأفرنج في المحاربة التي جرت بينهما غاية الاضمحلال وانهمز شر هزيمة. وفي أثناء محاصرة جربا مدة ثمانين يوماً وقع بها محاربات شديدة جداً، وفي النهاية أخذت بالهجوم ومضايقة الأسبانيين من جهة المراكب ومن جهة العساكر كانت خارجة عن حد التعريف والتوصيف.

ثم عاد بياله للأستانة بهذا الانتصار في سنة ٦٨ ومعه أربعة آلاف أسير وثلاثة من مشاهير القبودانات، والتمس له توجيه رتبة الوزارة العلية مكافأة له، فلم يجوز ذلك حضرة السلطان سليمان خان وقال مضى إلى الآن على رتبة بكربك المتوجهة عليه سنتان. فإذا أعطيت له الوزارة هذه المرة يكون ذلك من العجلة ويتنازل قدر الوزارة العلية التي هي أعظم المراتب الدنيوية ولكن لما كانت رعايته ملتزمة ففضلاً عن توقيره وترقيه بالإحسانات الوفيرة زوجه كوهر خان من الشهبزادات أي بنت السلطان سليم. قال الكاتب جلبي إن عزة المناصب واعتبارها كانت في تلك العصور على هذا المنوال. ولكن في عصرنا صارت مبتذلة ولم يبق لها اعتبار ولم يبق للوزير القدر والاعتبار الذي كان لأمير السنجق، قلت فلو كان الكاتب جلبي في عصرنا هذا فماذا كان يقول وكيف كان يبين درجة تنزل المراتب واعتبارها.

وفي تاريخ ٩٧٢ خرج بيالة باشا إلى حرب مالطه في مئة وخمسين مركباً وكان تعين مصطفى باشا الوزير الرابع سرداراً للأسطول أيضاً. ولكن لما كان

اعتماد حضرة السلطان سليمان في أمور المهام البحرية على طورغورجه باشا وإلى أiyale طرابلس الغرب السالف الذكر الذي كان بمثابة بارباروس في ذلك العصر، صدرت إرادته العلية إلى كل من السردار والقبودان قائلاً لهم احترسوا بعدم الخروج عن رأيه، وعند وصول الأسطول الهمايوني إلى مالطه كان طورغورجه لم يأت بعد، فتركوا أمر ضرب قلعة مالطه وأوقفوه لحين مجيئه، وقال لابد لنا من أن ننظر شغلاً إلى أن يأتي، وحيث رأيا من المهم فتح برج صانترمة المبني لمحافظة الميناء فابتدأوا بضربه بالمدافع. وفي مضي اليوم السابع من هذه المحاصرة أتى طورغورجه باشا بأسطوله وعند خروجه إلى مالطه تأسف على مباشرتهم حصار صانترمه وقال ما هي فائدة فتح صانترمه، أليس من الممكن ضبطها إذا لم تؤخذ عنوة؟ فالأصل هو قلعة مالطة لانه عندما تفتح دار الملك يدخل في اليد سائر أطرافها بسهولة، وعند تقدير عدم دخول دار الملك في اليد فتكون المعالجة في توابعها من قبيل الاشتغال بالعبث. وتكلم كلاماً كثيراً. ولكن ما الفائدة لأنه حيث صار الشروع في ذلك فما أمكن تركه واستمروا على حصار البرج المذكور، وفي اليوم السابع عشر أخذه بالهجوم بعد أن استشهد ناس كثيرون وتعطل كثير من العساكر الذين ينتفع بهم في الأشغال وجرح في أثناء المحاربة طورغورجه باشا الذي كان بمثابة الروح للبدن في أسطول الدولة العلية. وفي اليوم الذي وقع فيه الاستيلاء على البرج المذكور انتقل بالوفاة إلى دار البقاء، وبياله باشا الذي كان شبيهاً له وبطلاً في الحرب لم يلتفت إليه السردار، بل لطف جميع العساكر بالبخاشيش والترقيات في الرتب ولم ينظر إلى الغزاة واللوندات الذين كانوا في قوله^(١).

١ - قوله: بمعنى فرقته من الكلمة التركية (قول) فرقة من الجيش، الدراري اللامعات، ص ٤٣٦.

وقبودان باشا أيضاً لم يعياً به وكان لا يراجعه ولا يتابعه في كثير من الأمور، فوقعت بينهما برودة وتركوا مالطه وعادا. ولم يتفق في محل تلف فيه نفوس وصرف عليه مصاريف بهذا المقدار كما اتفق في هذه الغزوة وفي عودتهما إلى الأستانة بالخلجل جعل كل منهما يجلب اللوم على رفيقه ولكن حيث كان كلام عسكر الأسطول مثمراً ومؤثراً صار عزل السردار المشار إليه من الوزارة.

وفي ٩٧٣ الحق بباله باشا جزيرة ساقز^(١) بالممالك المحروسة، ثم بمروره على طرق بوليا خرب بعض القلاع والبقاع، وبعد الفراغ من الغارة عليها عاد إلى الأستانة في سنة ٩٧٤، وفي أثناء ذلك كان قد توفي السلطان سليمان وجلس على تخت السلطنة العثمانية ابنه السلطان سليم وأتى والي الأستانة في العسكر الهمايوني بعد وصول الأسطول إلى الترسانة بعدة أيام. ونظراً لكون بيالة باشا من جهة أنه قبودان باشا ومن جهة ثانية كونه صهر السلطان العظيم الشأن أحسن إليه برتبة الوزارة في مقابلة خدماته. ووجه مسند القبودانية على مؤذن زاده علي آغا الإنكشاري لسابق خدمته في سكتوان.

فوزارة بيالة باشا ومكافأة على باشا بهذه الصورة من واجبات استحقاقهما ولكن توجيه القبودانية على علي آغا الإنكشاري كان من غرائب ذلك العصر وكان ذلك بعد السلطان سليمان داعياً لتوقف سفينة الدولة عن المسير في بحر الظفر، كما كانت في الأول وكانت الأسباب الأولى التي ذكرناها مقدمة لتنزلها، وبيالة باشا مع كونه كان ذاتاً في غاية الشجاعة والدراية والخبرة كانت إرادة حضرة السلطان سليمان خان له أن لا يجرى حركة في عطايم الأمور البحرية خارجة عن رأي المرحوم طورغوجه باشا، وهو يرى ذلك من الواجب عليه وأن لا يكون خالياً من مشاورة أرباب الأهلية وبناء عليه اكتسب الوقوف على أحوال البحر وصار مظهراً لخدمات مشكورة.

١ - جزيرة ساقز: إحدى جزائر بحر أيجة، قريبة من ساحل الأناضول في الجهة المقابلة لمدينة أزمير. ويطلق على هذه الجزيرة مسمى آخر هو خيوس. المنجد ص ٢٣٦.

أما مؤذن زاده علي باشا فهو وإن كان في نفسه جسوراً فإنه موصوف بالشدة ومعتاد في حركته على إعجابه برأيه مع عدم وقوفه على أحوال البحر فلذلك كان سبباً لفناء أسطول الدولة بالكلية على الوجه الذي سيأتي بيانه أدناه . وذلك أنه توجه لفتح قبرص في مائة وثمانين قطعة قادرغه وعشرة ماعونة ومائة وسبعين بارجة وقره، بل وغير ذلك من أنواع المراكب ومجموع ذلك ثلاثمئة وستون مركباً، وتعين لا لا مصطفى باشا الوزير الخامس سرداراً على عموم العساكر، وأحيلت محافظة جانب البحر على بياله باشا الوزير الثالث صهر الحضرة السلطانية . ففي أوائل سنة ٩٧٨ وصل الأسطول على الوجه المشروح إلى قبرص وافتتح وضبط كثيراً من محلاتها، وفي الشتاء عاد بياله باشا وقبودان باشا إلى دار السعادة وشتى السردار مصطفى باشا في قبرص، وفي فصل الربيع تعين برتو باشا الوزير الثاني سرداراً للأسطول، فأتى إلى قبرص في مائتين وخمسين قادرغه ومعونة وسلم المهمات إلى السردار مصطفى باشا، وبالجملة بلغ الأسطول الهمايوني مع مراكب اللوند إلى ثلاثمئة مركب ثم ذهبوا جميعاً إلى أنحاء رودس ليقطعوا خط سفارين الأعداء، وفي مايس ٩٧٩ دخلت قبرص بأجمعها في قبضة الاستيلاء .

وهنا نذكر أحوال الأسطول فنقول بعد وصول قبودان باشا وبرتو باشا إلى رودس كما ذكرناه أقاما بعض أيام للاستراحة، ثم أغارا على سواحل جزيرة كريت، ثم سار أمير أمراء الجزائر أولوج علي باشا بعشرين سفينة حربية ولحق بالأسطول الهمايوني، وسافروا إلى جزيرتي كفالونيا وقورفو، وعاثوا وخربوا أكثر نواحيهما وبعد ذلك حاصروا قلاع الوندكيين اسمبوث، وأولكون وبار الواقعة في أطراف الروم إيلي واستولوا عليها وجالوا مدة في تلك الأطراف ولما راوا ان فصل الشتاء قد حان أوانه ذهب قسم من العساكر إلى محلاتهم، والقسم الباقي رجع في الأسطول إلى مرسى إينه بختى قبل أن يتلاقى مع سفن الأعداء .

وعند وصوله إلى ليمان^(١) بختي بلغه أن دول أوربا المتفقة كلمتهم جاءت أساطيلها وأزمنت على الهجوم عليه، وأن الأساطيل المذكورة كانت اجتمعت في مسينه وأقامت فيها بدون أن تتظاهر في جهة ما في فصل الصيف منتظرة أواخره، وهو أوان فتور همم عساكر الأسطول الهمايوني وضعفهم، فلما رجع الأسطول الهمايوني إلى مرساه في اينه بختي على الوجه المشروح حاصروه، وكانت أساطيلهم تشتمل على مئتي قطعة منها واحدة من نوع جكديرر، وسبع قطعات من نوع ماونة وعشرون قطعة من نوع بارجة، وقطعتان جسيمتان من نوع القليون، وكان أكثر مراكب الجكديرر تحت رئاسة أندريا الخصوصية فاجتمع السردار برتوباشا ورئيس البحر علي باشا وأمير أمراء الجزائر أولوج علي باشا وأمير أمراء طرابلس الغرب جعفر باشا وحسن أغا ابن المرحوم خير الدين باشا وأمراء خمسة عشر سنجقاً وسائر أعيان العسكر وتشاوروا. فلم يرض أولوج علي باشا بالحرب وقال إن أسطولنا ناقص وقد تجول منذ ستة أشهر في البحر فالمرائب معطلة وعند رجوعنا إلى اينه يختي اختل أمر العسكر فعساكر السباهيين والإنكشارية تفرقوا فمنهم من ذهب بالرخصة ومنهم بغير رخصة وأسطول العدو لا يقدر أن يدخل داخل البوغاز وخروجنا منه يجعلنا في خطر وتابعه على هذا الرأي برتو باشا. وأما قبودان باشا حيث إنه كان شديداً متهوراً ولم يكن ذا وقوف على أحوال البحر فقال إن الأوامر السلطانية التي أتت تحثنا على مقابلة أسطول الأعداء في أي محل كان فينبغي العمل بها وإلا فالعتاب يوجه عليكم. ثم قال فهل لم تبق لكم غيرة إسلامية ومحافظة على الزمام السلطاني. فإذا كانت كل سفينة ناقصة خمسة أو عشرة أشخاص فما الذي ينشأ عن ذلك، وتابعه الجميع في رأيه فقرروا الخروج والمسير إلى الحرب اضطرارياً. ثم قال أولوج علي باشا حيث إنكم قررتم الحرب فلنشق وسط البحر فعارضه قبودان باشا وقال الأولى أننا

١ - ليمان: بمعنى ميناء.

نلازم الساحل في مسيرنا فأولوج علي باشا قال أين الذين قابلوا العدو مع خير الدين باشا وشاهدوا الحرب مع طورغورجه لم لا يتكلمون، وقال إن المركب إذا أصابه مدفع ربما يميل إلى البر هرباً من الغرق فيكون ذلك باعثاً لانهزام الجميع . فلما رأى كلامه غير مفيد قال فإن كان ولا بد فارفعوا الفئارات والبيارق الكبيرة والفلائندرات^(١) من المراكب ، فاستهزأ القبودان بكلامه وذهب رأيهم سبهاً . فاجأت الضرورة إلى خروجهم يوم الأحد السابع عشر جمادى الأولى سنة ٩٧٩ بأسطولهم من مرسى اينه بختي، وسار برتو باشا في الميسرة وأولج علي باشا في الميمنة ورئيس باشا سار في القلب وجملة المراكب مائة وثمانون مركباً، ورتبوا على أسلوب الآلاي^(٢) وكان أسطول الدول المتفقة مقيماً في ما وراء الرأس الكائن في جهة المورة القريب من البوغاز المذكور، فأرسل أولوج علي باشا إلى قبودان باشا يقول الأولى نمر منحرفين أمام سفن العدو التي هي من نوع الماونه والبارجة، ولندخل من وراء العدو أو من وسطه فقال لا يمكنني بأن اكون سبياً في اطلاق اسم الهرب على أسطول السلطان، وسار في الحال إلى مقابلة العدو وبوصوله إليه خرج من أسطول العدو خمسون مركباً تقابلت مع القبودان ولم ير سائر المراكب، وذلك لأنها كانت وراء الرئيس فأطلقت المراكب الإسلامية النار على الخمسين مركباً المذكورة ابتغاء إحراقها فخرجت مراكب العدو الباقية فيما وراء الرئيس، وأحاطوا بالأسطول الإسلامي وأطلقوا عليه المدافع فخرج قبودان باشا في مركبه الباشترده وهجم على مركب ليحرقه ومن فناراته الثلاثة علمت الأعداء أنها باشترده قبودان باشا فهجموا عليه بسرعة، وجاءت بارجتان ودهمتا باشترده الرئيس في الوسط فاستشهد قبودان باشا وأسر ولداه الاثنان وسائر من كان في الباشترده المذكورة من الجند وأغرق مركب برتو باشا بالمدافع، وبينما كان يسبح على وجه البحر صادفه حسن باشا وولده محمود بك فانقذهما إلى مركبهما .

١- فلاندره: كلمة افرنجية بمعنى علم، أو راية. الدراري اللامعات، ٣٨٩.

٢- آلاي: فوج من أربعة طوابير، الدراري اللامعات، ص ٤١

إذا ذهب الرأس زلت القدم، فعلى هذا المثل إذا ذهب الرئيس فسد الأمر واستقل كل واحد برأيه فأغرق بعض السفن الإسلامية بالمدافع وبعضها نشب في البر، وستون قدرغه وقعت في يد العدو بآلاتها وأدواتها، واستشهد في هذه الحرب عدة أمراء ورؤساء وكثير من المسلمين فلذلك سميت هذه المحاربة حرب أسطول السئامة.

وأما أولوج علي باشا فإنه كان قرصانياً قديماً ماهراً، وكان في الأصل من أتباع خير الدين باشا ومنه تعلم أمور البحر ثم صاحب طورغورجه في حروب عديدة. فلما خرج الأسطول مال إلى وسط البحر وعندما رأى باشرتة قبودان باشا في قبضة الهلاك هجم على سفينة رئيس مالطة فأخذها وأعدم الرئيس، وبعد أن أغرق عدة مراكب من أساطيل الأعداء سار بسفن الجزائر في حالة المدافعة إلى موتون. ثم عرض أولوج باشا هذا الخبر المخزن إلى الاعتبار الشاهانية مع أحد رجاله، فوجه إليه مسند رئاسة البحر وأبدل لقبه بقليج وتحمر هذا اللقب في الأمر، وصاروا يدعونه قليج علي باشا أي السيف علي باشا، ورئاسة البحر وإن أعطيت وقتئذ لهذا الرجل الذي هو جدير بها فما الفائدة ولم يبق حينئذ أسطول، ثم بهمم حضرة صوقوللي محمد باشا الصدر الأعظم التي تحير العقول أفرز قطعة من البستان الخاص الواقع قرب دار الصناعة البحرية، وانشأ فيها داراً لصناعة المراكب مؤسسة على ثمانية قناطر، وأسسوا مائة وخمسين سفينة من نوع قدرغه وثمانية قطع من نوع ماونة واتصل العمل فيهم في ذلك الشتاء بجد واجتهاد تام وفي الرابع تم أسطول مثل الأسطول الذي تلف، وكان في اعتقاد دول أوروبا أن الدولة العلية لا تقدر في تلك السنة على إخراج أسطول إلى البحر، فإذا بقليج علي باشا خرج في سنة ٩٨٠ إلى البحر في أسطول مؤلف من مائتين وأربعة قطع من نوع قدرغه وثمانية ماونة، ولكن الأسطول في تلك السنة اكتفى بالمحافظة على حركاته متجنباً سفن الأعداء لكون الرجال الذين كانوا قائمين بالأشغال وكانوا بمثابة الروح للأسطول تلف منهم كثير في هزيمة الأسطول في السنة الماضية وباقي العسكر استولى عليهم الفزع.

وفي سنة ٩٨١ حينما كان پياله باشا سرداراً، خرج قليج علي باشا إلى البحر في مائتين وثمانية وخمسين قدرغه وإثنى عشر ماونة وغار على بعض البقاع والقلاع في سواحل إيطاليا.

وبعد ذلك في سنة ٩٨٢ عندما كان سنان باشا فاتح اليمن سرداراً جهز قليج علي باشا مائتين وثمانية وستين قدرغه وقاليته وخمس عشرة ماونه وخمسة عشر قليوناً، وخرج إلى البحر الأبيض وبعد ان غار على سواحل مسينة استولى على قلعة حلق الوادي المسمى مرسى تونس التي كانت بيد الإسبانيول وبعد ذلك خربها بقنابل المدافع واستولى على بلاد تونس وصيرها من الممالك المحروسة ونصب رمضان باشا والياً عليها.

ومن بعد ذلك إلى حين ظهور حرب كريد لم يخرج أسطول إلى البحر الأبيض لأجل الحرب وإنما كان مقيداً بالمحافظة. ثم في عصر السلطان مراد خان الثالث والسلطان محمد خان الثالث في أيام قبودانية سنان باشا ابن جعالة و خليل باشا حصل بعض انتصارات بحرية.

وبعد أن فتح حرب كريد في سنة ١٠٥٤ استعملت مراكب القليون في الأسطول الهمايوني، وأما قبل ذلك فكان يستعمل القليون الذي هو من نوع البورتن. ثم كثرت القلايين بالتدريج وسقت المهمات والعساكر الجرارة في جملة الأسطول الهمايوني إلى كريد وجرى الاستيلاء على قلعة خانية أولاً وبعد ذلك شرعت سفن البندقين في قطع طرق كريد، حتى إن ثلاث سفن كانت آتية بجنود من الأستانة إلى كريد تعرضوا لها وأغرقوا إحداها بمن فيها من المسلمين وكان فيها ٤٢ مدفعاً وأوقفوا بعض التلف في الاثنتين الأخريين ولكنهما أنقذتا بعد ذلك. وكانت صناعة البحر في الأوقات الماضية ترقى بين الإسلام كثيراً وتغلب أسطول الدولة العلية على جميع أساطيل أوروبا، إلا أنها أخذت بعد ذلك تتناقص تلك الصناعة من الإسلام بالتدريج، وازداد رواجها في بلاد أوروبا أكثر من الأول ولا

سيما الصناعة الشراعية، وكذلك ترقى صناعة القليون، فصارت أساطيل الدولة لا تقوى على مقاومة أساطيل الإفرنج. وبينما كان أسطول الدولة المؤلف من ١٤٠ مركباً راسياً أمام خانية للمحافظة عليها وكان الاهتمام جارياً بوضع المدافع على جانبي المرسى للمحافظة، كانت سفائن البندقيين الآتية لإمداد سودا مؤلفة من ١٠٠ قطعة من جكدير وبورتن وماونه تجول في الأطراف بقصد التهديد بدون مبالاة. وبعد قليل هجم أسطول البندقيين على سفن الجزائر مع سائر السفن الراسية خارج خانية فاطلق عدة مدافع عليها وعلى القلعة، وتقدم منه خمس سفن نارية لإحراق السفن الإسلامية غير أنه قبل وصولها إليها تنبه المسلمون وعلموا أنها من السفن النارية فلم يكن منهم إلا أنهم حملوا الكلايب وأغرقوا سفنهم بأيديهم بدون أن تلحق بهم سفن العدو، وإذا كان يتعذر على البندقيين الاستيلاء على قلعة سودا تعرضوا إلى سواحل كريد فاستولوا على أكثر ثغورها. وفي أيام الشتاء ثارت أنواء عظيمة في خانية فاغرقت عدة سفن إسلامية. وفي ربيع تلك السنة رجع أسطول البندقيين إلى أعماله وقطع طرق كريد فتعذر حينئذ على الدولة نقل الذخائر إلى كريد على الوجه المرغوب فيه. ثم أخذ أسطول البندقيين يأتي كل سنة في موسم الربيع الذي يخرج فيه الأسطول الهمايوني إلى البحار فيقطع عليه الطريق فيها، فتعذر أيضاً لذلك خروج الأسطول الشاهاني على عادته إلى البحر الأبيض، فاضطرت الدولة إلى إرسال شيء من الذخيرة على ظهور مراكب بعض أمراء البحر من الأجانب.

ولهذا لم يتيسر فتح كريت تماماً وهذه الأسباب التي قضت بامتداد حروب جزيرة كريت عدة سنين، ولو وجد أسطول يضاوي أسطول البندقيين قوة لما استمرت ثلاث سنوات.

وحيث إن الأعداء كانوا يتجولون في البحر بمراكب قليون ويستعملونها أثناء الحروب بالشرع ويدرسون بها السفن المسماة قدرغه فاضطر الأسطول الهمايوني

إلى التبعاد عنهم فإن مراكبه قدرغه لا تقوى على مقابلتهم وهم راسون فكيف بهم وهم يسرون. فتعين على الدولة حينئذ أن تنشئ مراكب نوع قليون ليتسر لها مقابلة القليون بالقليون فتقرر إنشاء القليونات وذلك في زمن جلوس حضرة السلطان محمد الرابع، وفي أيام صدارة ملك أحمد باشا سنة ١٠٦١ شرع في إنشاء قليون طوله ٦٠ ذراعاً في محل اسمه باغجه قبو، وإذ كان صنعه غير تام كما ينبغي غرق عند إنزاله إلى البحر. ثم أنشئ عدد كاف من نوع جكدير وبورتن على الطرز القديم، وأخذوا في تكثير القليونات شيئاً فشيئاً، وعين لها قادة تخصصها حتى إنه في سنة ١٠٦٤ لما وصل الأسطول الهمايوني إلى الخليج وجد في خارجه أسطول البندقين راسياً حسب عادته فساق عليه أولاً القليونات ثم الماونات ثم الجكدير ووقعت بين الفريقين حرب عظيمة فاضطر البندقيون إلى ترك الخليج.

وقد ظهر نفع هذه القليونات ولا سيما أن قائدها المسمى أمير قبودان بك أبرز في هذه الحرب شجاعة فوق العادة ثم خرج أسطول الدولة من البوغاز وألحق به قلايين مصر وتونس و١١ قطعة من قلايين الجزائر وأغار على جزيرة استنديل وخربها ثم وقع بينه وبين أسطول البندقين حرب شديدة في جهات دكر منلك.

ثم إن الأسطول الهمايوني لما وصل إلى الخليج سنة ٦٥ ووقعت بينه وبين أسطول البندقين حرب عظيمة على المنوال المشروع أعلاه خسر عدة قطع من سفنه، وكذلك البندقيون فقد تلف لهم خمس أو ست سفن والباقي منها تكسر وتحطم، فأكروهوا على الرجوع والذي ظهر نفعه في هذه المحاربة هو عدة من القلايين، أما الباقون فقد ثبتوا مدة وجيزة في الحرب ثم تخلصوا إلى جزيرة مدلولو. وبعد ذلك اجتمع الأسطول الهمايوني في ساقز وأعادوا الماونات والقليونات بدعوى أنها لا فائدة فيها كما ينبغي وساروا في البحر بمراكب الجكدير.

والسبب في تلك القليونات هو إنه لما كان حسن استعمالها موقوفاً على المهارة في صنعة الشراع، وكان في ذاك الوقت رجال البحر لم يكتسبوا حذقاً في هذه الصنعة وفق المطلوب لم يتسن استعمال القليونات كما يجب، فأصبحت مراكب جكدير هي المعول عليها في الأسطول الهمايوني، أما القليونات فلم تستعمل إلا لدفع البندقين من الخليج، وهي للأسطول الهمايوني بمثابة معين. ولما كان البندقيون في ذلك الوقت ذوي مهارة كلية في أمر البحارة فلم يتيسر للعثمانيين فتح الخليج في كل سنة حتى أنه في سنة ٦٦ كان تهيأ أربعون مركباً من نوع قدر وعشر ماونة و ٣٠ قليون، فعجلت هذه المراكب وسارت قبل أن تستكمل لوازم الأسطول الهمايوني ومعها عشرون مركباً من مراكب البكوات ولما وصلت إلى الخليج هالها الأمر ولم تستطع مقابلة مراكب العدو ومقاومتها، وهي سبعون سفينة للبندقين متنوعة من مراكب جكدير وماونة وبورتن كانت هناك لسد الطريق وبهذه المحاربة التي جرت بين الفريقين آل أمر الأسطول الهمايوني إلى حالة الاضمحلال التام وانهزم هزيمة تامة أسطول السائمة التي وقعت في ايته بختى.

وفي تلك السنة صار محمد باشا كوبريلي صدرأ أعظم، فأرسل مع قبودان باشا في أيام الشتاء المراكب الأربعين من نوع جكدير التي تم إنشاؤها إلى أطراف استانكوي وروودس، لتكون في الخارج قوة بحرية قبل مجيء أسطول الافرنج إلى الخليج، وفي أيام الربيع أضيفت السردارية إلى الصدر الأعظم محمد باشا كوبريلي، فذهب إلى الخليج ومعه ١٩ قليون و ١٠ ماونات و ٣٠ قدرغة وباشرده مع ١٥٠ فرقته وسائر ما في الأستانة من القوارب، وفي هذه المرة أيضاً انهزم الأسطول الهمايوني في الحرب التي وقعت بينه وبين أسطول البندقين في الخليج.

والحاصل أن البندقيين كانوا يحاصرون الخليج في كل سنة ليقطعوا إرسال العساكر والمهمات إلى أكريت على الوجه المرغوب للدولة العلية، وكانوا يقيمون خارج أطراف القلعتين اللتين بنيتا في أيام الفاتح لأجل المحافظة على الخليج، وفضلاً عن كونهم لم يدعوا السفن تمر إلى الخارج فإنهم كانوا يختطفون السفن التي تأتي إلى الأستانة من سائر الجهات. على أن الخليج وإن كان قد فتح مرة أو مرتين بقوة مراكب القليون إلا أنه لما كانت دار صناعة الدولة العلية معطلة إلى ذاك الحين من عدم عملة^(١) للقليونات ماهرين، وقعت تلك الكسرات العظيمة كما سبق بيان ذلك واستمر الخليج مسدوداً، فاضطر محمد باشا كوبريلي إلى بناء قلعتين متقابلتين في الجانبين السفليين من فم الخليج إزاء القلعتين المذكورتين قبلاً على مسافة ٢٠٠ ميل منهما.

ومع كون إنشاء القلايين يكلف كثيراً من النفقات، فإنه لم يحصل الوقوف التام على كيفية استعمالها، فلذلك لم تنتظم أحوالها ولم تنفع بشيء كما هو مرغوب، فمن كون أصول استعمالها يخالف أصول استعمال الحكدير المستعملة في دار الصناعة العامة، وكان يقتضي أن يكون جندها مستقلاً مرتباً على صورة مخصوصة، فقبودان باشا وأمراء البحر وسائر رجال دار الصناعة العامة كانوا يستثقلون طائفة القلايين حسداً لهم، وكانوا يقولون إنهم طائفة حادثة فإذا انتظمت أحوالهم وقاموا بالأشغال يشتهرون ويفوقون على أمراء البحر وسائر رجاله فيحصلون على النظر الشاهاني فيصرون صنفاً مستقلاً كصنوف عساكر الغرب، فلذلك كانوا يستصغرونهم ويتهاونون بأمرهم، وبهذا السبب لم يتسن للدولة أن تحسن أحوال مراكب القليون لصرف النظر عن إنشائها تماماً في زمن صدارة فاضل أحمد باشا، ولذلك جهز أربعين قطعة من مراكب دار الصناعة وأربعين مركباً من مراكب أمراء البحر لأجل المحافظة على البحر

١ - أي عدم وجود عمال مهرة لإدارة هذه السفن.

الأبيض، وجرت المحافظة مدة بواسطة هذه المراكب واستعملوا قلايين التجار في نقل الذخائر والمهمات فقط. أما في مصر وتونس والجزائر فإنهم لم يتركوا القلايين لأنها هي وسفائن شهتية كان المعول عليها في الحروب عندهم، وكان يوجد أيضاً في تلك الجهات مهرة في فن البحر، فأسطول الدولة كما قلنا وصل إلى درجة لم يستطع معها مقاومة أسطول البندقين في ميدان الحرب. وأما مراكب تلك الجهات المذكورة فإنها تسافر في البحر بدون أن تبالي بأساطيل أوربا حتى إنه سنة ١٠٧٩ وقع بين قلايين الجزائر وتونس وبين قلايين البندقين حرب في مياه كريت دارت فيها الدائرة على البندقين فغرق من قلايينهم مركبان يحمل كل واحد منهما سبعين مدفعاً واستولوا على قليونين من هذا النوع أيضاً.

ثم لما أخذت قوة الدولة العلية البحرية في الانحطاط زالت شوكتها في سواحل الهند واليمن والحش، وقل نفوذها في البحر الأبيض وزالت تلك الفتوحات والترقيات التي كانت تقع على التمادي في كل مكان، فاكثفت كما تقدم بفتح بعض الجزر ككريت وحصرت نظرها في المحافظة على الممالك الموجودة في قبضة تصرفها وكان هذا أيضاً من آثار همم وحمية الصدور العظام كالكوبريلين.

وحيث تجددت برودة الحال بين الدولة العلية وبين البندقين في زمن صدارة قره مصطفى باشا، وكان لا يتيسر أخذ الثار منهم إلا بغلبتهم في البحر، فاستحصل سنة ١٠٩٣ على إرادة شاهانية بإنشاء قلايين حربية وباشر في إنشاء عشرة منها ذوي أنابر^(١) ثلاثة أو أربعة يحمل كل قليون منها ثمانين مدفعاً من معدن النحاس الأصفر، والستة الباقية يحمل كل واحد منها ستين مدفعاً، وكان طول بعض هذه القلايين خمسين ذراعاً وبعضها خمسة وأربعين ذراعاً، وجعل إدارة خمسة منها برئاسة إبراهيم باشا المصري من أمراء البحرية، وسمي الرئيس قبودان باشا، والخمسة الباقية برئاسة بابا حسن بك الجزائري وسمي قبوداناً ثانياً،

١ - أي عنابر مفردها عنبر (معرب أنبر) وهو المخزن والمأوى. المعجم الوسيط، ص ٦٣٠.

وخصص لكل منهما بعض السناجق ليأخذوا مال الميري منها سنة فسنة، وأمر بحفاظة مارة^(١) رودس، وصار رجال القلايين صنفاً مخصوصاً ممتازاً عن سائر صنوف دار الصناعة البحرية، وعينت أيضاً إلى رؤسائهم وآغاواتهم وجاوشياتهم ومعلميهم وطوبجيتهم ولسائر الأفراد منهم رواتب كافية مثل رجال البحر في الغرب، واستجلبت رجالاً ماهرين في استعمال القلايين من صنوف رجال البحر في الغرب فانظمت بذلك أمور القلايين كما ينبغي. وفي سنة ١٠٩٦ خرج إلى البحر الأبيض مصطفى باشا المعروف بمصاحب أمير البحر بستين سفينة فمر بخليج سيسام^(٢) حتى بلغ جزيرة رودس. فكان الخروج من الخليج المذكور والوصول إلى رودس في البحر يعد ظفراً كبيراً، وذلك لأن أسطول الدولة العلية بقي مدة لا يتيسر له المرور في خليج سيسام. وفي سنة ٩٧ نال إبراهيم باشا ابن المصري رتبة الوزارة وصار أميراً للبحر وتولى الرئاسة الأولى للقلايين بابا حسن بك وخلفه في موضعه الأول علي بك. وفي خلال هذه السنة وقع بين قلايين الدولة وبين قلايين البندقية حرب عظيمة دارت فيها الدائرة على البندقيين، ثم إن بابا حسن باشا مات بعد ذلك مطعوناً، فأحيلت إيالة قبرص التي كان متصرفاً فيها إلى علي بك الذي صار رئيساً أول، وأعطى توغان ولواء اسكندرية الذي كان متصرفاً فيه علي بك مع توغ^(٣) واحد أعطى إلى قبودان ممى الذي سمى رئيساً ثانياً للبحر.

وعلى هذه الصورة كثر عدد القلايين في الدولة ونال رؤساؤها وأمراؤها الأعزاز والتوقير وكثر أرباب الوقوف والاطلاع على أمورها فترقت أمور القلايين في دار صناعة الدولة العلية البحرية، حتى إنه لدى استيلاء البندقيين على ساقز سنة ١١٠٦، خرج إلى البحر عموجه زاده حسين باشا، وهو رئيس البحر وقره مورتة حسين باشا رئيس القلايين بعشرين قطعة من القلايين المرتبة المنظمة وأربعة

١- أي تجارة رودس وتحصيل ضرائبها.

٢- سيسام: جزيرة في بحر إيجه يفصلها عن الأناضول خليج صغير.

٣- توغ: طرة من شعر الخيل كانت تعطى للأمراء بحسب إدارتهم، الدراري اللامعات، ص ١٧٩.

وعشرين مركباً من نوع جكديرر، فوقعت بينهما وبين البندقيين في جهة جزائر
قيون حرب كان الظفر لهما فتلّف عدد من البندقيين، وتشتت شمل الباقي
فاضطروا إلى الرجوع مهزومين إلى جهة ساقز، وبعد عدة أيام وقع أيضاً بين
الأسطولين حرب ثانية انكسر فيها أسطول البندقيين واحترق منهم قليون يحمل
خمسة وخمسين مدفعاً وتحطم أربعة مراكب من نوع ماونة جكديرر وفر الباقون
منهزمين، واستخلصت جزيرة ساقز من أيديهم.

ولما تبين للدولة أن الظفر الذي بلغته لم يكن إلا بواسطة القلايين عينت
عموجه زاده حسين باشا مأموراً بمحافظة ساقز، ووجهت لعهدة قره مورته حسين
باشا إمارة البحر مكافأة له على خدماته المشكورة المشهورة التي أداها في
المحاربات البحرية، فاهتم هو أيضاً بتكثير القلايين وتنظيم أمورهما وقد كان النصر
أبداً في جانب الدولة العلية في سائر الحروب التي وقعت مع البندقيين في البحر
سنة ١١٠٩ و ١١١٠ و ١١١١.

وعلى هذه الصورة اكتسبت المراكب البحرية عند الدولة العلية جسامه عظيمه
فأخرجت إلى البحر الأبيض سنة ١١١٤ عشرين قطعة من القليون مع ستة
مراكب لأمرء البحر من نوع جكديرر، وفي البحر الأسود رتبت خمسة مراكب
من القليون وعشرين قاليتيه مع خمسة عشر مركباً لأمرء البحر فيه من نوع
جكديرر وخمسة وعشرين قطعة من نوع شايقه، وزيادة على ذلك فقد رتبت في
نهر الطونة أسطولاً مؤلفاً من نحو مائتي قطعة من فرقته وقاليتيه وشايقه وغير ذلك
من السفن المعبر عنها (أوستى اجيق) أي مفتوحة الظهر.

وأيضاً في أوائل عصر السلطان أحمد الثالث صرفت الهمة إلى إكمال الأمور
البحرية وأنشئ مجدداً قليون كبير. وفي تاريخ سنة ١١١٩ أغار أمير القلايين
محمد قبودان المعروف بجانم خواجه، بعشرين قليوناً على جزائر إسبانيا وبعض

السواحل وعاد بعد أن خرب قلعتين ورسى أمام جزيرة مالطة. وفي أثناء ذلك هجم قبودان البترونة^(١) الذي هو مصطفى قبودان في قليونين كانا معه على قلايين مالطه التي كانت تتجول بين الجزر الإسلامية وأحرقها.

وعلى هذه الصورة تقدمت صناعة القلايين في دار الصناعة البحرية عند الدولة العلية، فصار الأسطول الهمايوني كله من المراكب القلايين، وصارت السفن الأميرية التي هي من أنواع الجكدير تستعمل لمعاونة الأسطول فقط. وكان الرجال الذين ينالون منصب القبودانية يركبون الباشترده الهمايونية، وهم بمثابة السردار الذي كان قبلاً يترأس الأسطول الهمايوني. وبالعلة صار يطلق قومندان الأسطول على قبودان القلايين، والقلليون الذي يركبه قبودان القلايين يسمونه قبوداني همايون، وللقبودان الثاني بترونة، إلا أن بعد ذلك تركت الباشترده راساً، وصار يقال لقلليون القبودان باشا كيميسي أي مركب الباشا وللقبودان عنوان بك وإلى ثانية بترونة بك وإلى ثالثة ريال بك.

ولم يكن يعمل قبلاً في الاستانة ما يلزم للقلايين من الحديد، وقدر ثقل ذلك سبعون أو ثمانون قنطاراً، وإنما كان يجلب من انكلترة. غير أنه ظهر سنة ١١٢٠ من وجاق عملة القنابل رجل يقال له أوسطه علي وكان ماهراً بالفنون العديدة، فأنشئ بتعليمه وراء قناطر دار الصناعة البحرية معملاً جديداً وفي مدة وجيزة عمل الياطرات^(٢) اللازمة للقلايين على وفق المطلوب، فاستغنت الدولة عن الحاجة إلى الأجانب في هذا الخصوص، وفي ذلك الأوان أنشئ أيضاً سفينة من نوع باشترده وسفينة ثانية من نوع قليون يبلغ طولها ٥١ ذراعاً.

وفي أثناء ذلك كان يخرج جانم خواجه محمد قبودان المذكور الذي صار

١- باترونه: العلم الثاني للبحرية، الدراري اللامعات، ص ١٣٩.

٢- الياطره: مرساة السفينة ويقال لها بالتركية (لنكر) وترجمها العرب ياطره. انظر الأصل التركي لكتاب جودت، ص ١٢٦.

قبوداناً للقلايين المعروفة قبودانيء همايون، لأجل محافظة البحر الأبيض،
واتصل خروجه مدة سنة أو سنتين استولى فيها على عدد وافر من قلايين القرصان
الجسيمة، ثم يعود إلى دار السعادة مظفراً وزيادة على ذلك فإنه تغلب في آخر
الأمر على البندقيين في الحروب التي وقعت مراراً بينه وبينهم سنة ١١٢٨، ١١٢٩
حينما كان قبودان البحر.

وفي الأيام الأخيرة في مدة السلطان أحمد خان أيضاً أنشئ سفينة ذات ثلاث
مستودعات طولها ٦١ ذراعاً ونصف وقطعتان تعرفان بقره وكه،^(١) ثم أنشئ أيضاً
سفينة ثانية من القليون ذات ثلاث مستودعات، وبعد ذلك في عصر السلطان
محمود الأول أنشئ بادئ بدء قليونان ثم أنشئت القلايين المسماة تحفة الملوك
ومرادية وفاتح بحري وبر بحري أي جناح البحر، وناصر بحري وبريد الظفر
وزبور بحري وسفينة ذات ثلاث مستودعات، وأنشئ في عصر السلطان
مصطفى خان الثالث قليون اسمه حصن بحري أما القليون المسمى بر بحري وهو
الذي تقدم ذكره فقد كان عند الاقتضاء يسير بالمجازيف مثل الجكدير وكان
مصنوعاً على طرز في غاية الحسن والجودة بين المراكب الجديدة مشتملاً على
صنائع عجيبة.

فعلى هذه الصورة كانت قوة الدولة في البحر قد تجددت واتسعت، إلا أن
الحروب البحرية بعد ذلك أهملت وتركزت مدة مديدة الأسطول الهمايوني، فكان
يخرج للبحر الأبيض على الوجه المعتاد لأجل المحافظة فقط وفي فصل الخريف
يرجع إلى دار الصناعة العامرة. فمن هذه الجهة لم يكن يوجد في دار صناعة
الدولة العلية رجال من ذوي المهارة وأصحاب العلم، فعندما كانت تذهب
العساكر ورؤساء البحر في الأسطول الهمايوني إلى البحر الأبيض لم يكن يترتب

١- قره وكه: اسم للسفن العظيمة قديماً واطلقت أخيراً على السفن غير المنتظمة. الدراري
اللامعات، ص ٤١٩.

على ذلك سوى نهب الرعايا المساكين في الجزر، وترقت الفنون البحرية في ذلك الوقت في أوروبا كل الترقى بسبب اتساع دائرة المعارف والصنائع فيها. وكان رؤساء البحر عند الدولة مع كونهم معدودين في جملة أركان الدولة والسلطنة فإنهم يجهلون الفنون البحرية. وفي الغالب كان لا ينظر إلى الأهلية في توجيه المناصب البحرية بل كانوا يجهلون أن الأسفار البحرية تتوقف على معرفة علوم جمّة، وفضلاً عن عدم قوة الأسطول لمقابلة أساطيل الدول البحرية في أوروبا لم يكن في إمكانه أن يدفع القرصان الذي كان يتجول في البحر الأبيض حتى احتاج الحجاج والتجار الذين يسافرون إلى مصر إلى سفن مأمونة تحميهم من القرصان. ومع كون أمور دار الصناعة البحرية على هذه الحالة من الخلل والتشويش فقد كانت مصاريفها باهظة، وإذا أنشئ قليون واحد في عدة سنين كان يكلف الدولة عشرة أضعاف ثمنه، حتى إن السفن التي خربت لأجلها القضاوات بوسيلة جلب الأخشاب منها وبوسائل أخرى كانت لا تنفع في الحروب أصلاً وذلك لأن جهات مؤخرها كانت مملوءة بغرف عديدة، وكانوا أيضاً يستعملون الأخشاب قبل جفافها حتى إذا جفت انفصل بعضها عن بعض.

والحاصل أن واردات دار الصناعة والأماكن المخصصة إلى جكديري باشا لقلري^(١) وكذلك ما يجمع من الضرائب التي كانت معينة باسم قبودان المراكب صار نهباً لرجال الدولة ورؤسائها، وكانت العساكر البحرية المعروفة بقلينجي عبارة عن أشخاص عديمي الحمية والشهامة يشتغلون بتجارتهن ويتعرضون لأعراض الناس فلا يأتي منهم نفع، وقبودانية المراكب كانت تنال بالرشوة فيشتريها من لا خبرة لهم بأحوال البحر، يتناولون المبالغ الكلية المخصصة من

١ - جكديري باشا القلري: المديرية العامة للسفن.

طرف الدولة باسم علوفة قليونجي^(١) ويقتسمونها بينهم، وفي حرب سنة ١١٨٢ كانت أحوال البحرية على هذا المنوال، وكان لدولة روسيا في بحر البلطيق أسطولاً مؤلفاً من خمسة عشر قباق وست فرقتين^(٢) وعدة من السفن الصغيرة بإدارة علىكسي أورلوف وبعيته الأميرال اسبريدون، فخرج إلى البحر الأبيض من خليج سبتة، ولما وصل إلى مياه المورة^(٣) سنة ٨٤ أرسل حسام الدين باشا أمير البحر الأسطول الهمايوني إلى البحر الأبيض لمدافعتة وهو وإن كان أكثر عدداً من الأسطول الروسي، إلا أنه كان يوجد في الأسطول الروسي عدد كبير من رجال الإنكليز والدنيمارك وسائر أوربا الماهرين بفن البحر، وكان فيه أيضاً كثير من أميرالية الانكليز، وكان رؤساء الأسطول الهمايوني إذ ذاك لا علم لهم بشيء من الأمور البحرية والحيل الحربية وأكثر عساكره من الفعلة^(٤) والزراع الذين جمعوا بالجبر من الأطراف والأكناف، وكانوا لا يحسنون إدارة المراكب بل لا يترتب على وجودهم فائدة في الحرب ولا يستطيعون الوقوف على أقدامهم لدى ظهور أدنى تلاطم للأمواج. غير أن حسن بك الجزائري الذي كان رئيس السفينة المعروفة بقبودانة همايون الحاملة تسعين مدفعاً، أعني الغازي حسن باشا المشهور بالشجاعة الذي بقي مؤخراً مدة طويلة أمير البحر أيام السلطان عبد الحميد خان الأول، وهو في الأصل قد تعلم فن البحر في الجزائر قد قابل الأعداء في أطراف جزيرة قيون وباشر الحرب هناك مع قليون الأميرال أسبريدون الروسي المذكور فأظهر في هذه الحرب الهائلة من الشجاعة والإقدام ما شهد به العدو والصدیق وفي نهاية الأمر احترق المركبان وطيرهما الهواة، ومع ذلك فقد تمكن حسن بك من إنقاذ نفسه بالسباحة وسيفه في فمه، وكذلك اسبريدون تمكن من النجاة بكل

١ - علوفة قليونجي: مرتب من يعمل في السفن التي من نوع (قليون)

٢ - فرقتين: بارجة (سفينة) كبيرة للقتال. الدراري اللامعات، ص ٣٨٥.

٣ - المورة: شبه جزيرة جنوب بلاد اليونان تحيط بها مياه البحر المتوسط.

٤ - أي العمال والأجراء.

صعوبة. وفي أثناء هذه الواقعة المدهشة حصلت الهدنة بين سائر السفن ثم عادوا إلى الحرب ثانياً وفي المساء افترقا عن بعضهما ثم إن قبودان باشا لجهله بفن البحر أدخل الأسطول الهمايوني إلى مرسى جشمه واستدعى البلاء لنفسه فقرب أسطول الأعداء الى فم المرسى وشرعوا في الحرب وأدخلوا جملة قطع من قوارب النار بمعرفة أمراء الإنكليز إلى داخل المرسى وأحرقوا الأسطول الهمايوني أجمع .

بسبب ذلك انسد طريق البحر الأبيض عن الأستانة ووقع أهلها في شدة من جهة غلاء الأسعار، ولما لم يكن في الإمكان سرعة إنشاء سفن في الحال تكفي للمحافظة اعتزمت الدولة عى شراء خمسة مراكب من جمهورية الوندنيك وأمثالها وراسلتهم في ذلك بواسطة سفرائهم المقيمين في الأستانة وعرضت عليهم في أثمانها مبالغ وافرة، فبعد أن ماطلوها مدة أرسلوا كتباً يعتذرون فيها بأن بيع السفن ينافي الحزم والاحتياط في أثناء حرب دولتين عظيمتين، ثم عرضوا بتقريع الدولة وقالوا إننا مع كوننا نحتاج إلى تحصيل آلات السفن وأدواتها من خارج ممالكنا فإنه يوجد عندنا سفن تؤلف أساطيل عديدة وأنتم يوجد في ممالككم جميع اللوازم لإنشاء السفن، ومع ذلك فإنكم لا تحتاطون لأمركم بل تغفلون عن تداركه بإنشاء سفن عديدة تكفي لتأليف أساطيل متعددة.

وبناء عليه تولى وقتئذ حسن بك الجزائري السالف الذكر قبودانية البحر وقام بمحافضة البحر الأبيض بما قدر على جمعه من السفن المنتظمة وغير المنتظمة، ثم اهتم بعد ذلك بتجهيز أسطول أحسن من الأسطول الذي احترق قبلاً، ولم يكن اهتمامه متعلقاً بإنشاء السفن فقط بل كان جل اهتمامه في الحصول على جال ماهرين في إدارة السفن. ومع أن الحرب المذكورة كانت للدولة العلية بمثابة بحث كبير فقد بقي نظام أمور الدولة لا يتعدى حد اللسان وكانت الرشوة سارية في جميع الزمور حتى في نصب رؤساء السفن فلم يكن يبحث وقتئذ عن الأهلية والاستحقاق .

وإمارة البحر هي رتبة رفيعة ومصلحة عظيمة عند الدول البحرية وكان عرب الغرب والأندلس في اشتغالهم بالأسفار البحرية اكتسبوا الكمال في فن البحر وكان رئيس الأسطول عندهم يسمى أمير البحر وكانت إمارة البحر بينهم منصباً كبيراً ولفظ أميرال المستعمل الآن في اللسان الأفرنجي هي مأخوذة ومخففة عن لفظ أمير البحر أو أمير الماء ومعناها في لساننا قبودان البحر .

ولفظه قبودان مأخوذة أيضاً من اللغة الإيطالية ومعناها في الأصل باشبوغ أي الرئيس، وسبب ذلك أن الدولة العلية عندما اهتمت بتكثير الأساطيل وإكمال الفنون البحرية استجلبت أساتذة السفن ومعلمي البحرية من البندقيين لأنهم كانوا ماهرين في فن صناعة السفن، وكانوا غالبين حينئذ على أهالي جينوه الذين كانوا ذوي نفوذ وإقبال في البحر، فاستخدمتهم الدولة العلية في الأمور البحرية، ومن المعلوم أنه إذا انتقل فن من بلدة إلى بلدة أخرى تتقل معه الألفاظ والاصطلاحات المتعلقة بذلك الفن، ويكون ذلك في مقام الترجمان أيضاً فلذلك بقي في أطراف إسبانيا كثير من الألفاظ العربية المنقولة عن عرب الأندلس، وكذلك البندقيون تعلموا كثيراً من التعبيرات التي تناولوها عن مدرسة دار الصناعة العامرة التي كانت بنتها الدولة الأيوبية في الإسكندرية زمن قوتها وسطوتها ونقلوها إلى لغتهم، هكذا الدولة العلية فإنها عندما أكملت أمور الأسطول البحري دخل في لغتها قسم كبير من كلمات الإيطاليان فكانت أكثر اصطلاحاتها البحرية مأخوذة عن لسانهم، وعلى هذه الصورة أخذت لفظة قبودان واستعملت فكان يقال في الدولة العلية لأكبر الأُميرالية أولاً دريابكى أي أمير البحر وبعده قبودان دريا أي رئيس البحر وبعده أضيف إلى القبودانية لفظة باشا فصار يسمى قبودان باشا .

وعلى هذا فإن كلمة لوند التي تطلق على عساكر البنادق في السفن إنما هي مأخوذة من لغة الإيطاليان ومحرفة عن كلمة لوانتي .

ومعنى لوانت في لغة الإيتاليان الشرق وعند ما ضبط البندقيون في جهة الشرق خروات وأرناود^(١) تداركوا من أهالي تلك الجهات رجالاً للحرب يستخدمونهم في السفن فيسموهم لوانتى ومعناها شرقي، واللفظ المذكور قد تحرف في اللغة العثمانية فصار يقال لعساكر الأسطول ذوي البنادق لوند أيضاً.

وفي أوائل الدولة العلية كان أكثر القبودانية ينالون سنجق كلبولي برتبة سنجق بكى أي أمير السنجق، إلا أنه كان يوجه منصب القبودانية مع اللواء المذكور بحسب الاقتضاء إلى بعض الوزراء على سبيل العلوفة، ومن التفصيل الذي سنأتي عليه أدناه يعلم أن خير الدين باشا حينما أتى من الجزائر الحقت إمارة أمراء الجزائر برتبته التي هي قبودان وأخيراً عندما صار يباله بك قبودانا للبحر برتبة أمير اللواء أعطيت له بعد ثلاث سنين رتبة إمارة أمراء الجزائر أيضاً مكافأة له على خدمه المبرورة.

ثم بعد ذلك سمي لواء كليبولي باشا سنجاعي - أي لواء الباشا - واللواء المذكور مع سنجق أغريبوز واينه بختى ومدللو وصيقه جق وقوجة إيلي وقارلي إيلي وردوس وليقا ومزستره في الموره وساقز ونقشه ومهديه، وانضم بعضها إلى بعض فصارت أيلة واحدة باسم قبودان باشا، وأطلق على متصرفي هذه الألوية اسم أمراء البحر وكان كل منهم يذهب إلى الحرب بمركب أو اثنين وبناء على ذلك فكما كان للدولة العلية عسكر بري ذو رواتب باسم قبوقولي وهم ٤٠ أو ٥٠ ألفاً مقيمون في الثكن، ونحو مائتي ألف من العساكر المعروفة بالسباهيين ذوي التيمار في الأيالات، وكذلك كانت عساكرها البحرية تنقسم إلى قسمين فالقسم الواحد يسمى خَلَق دار الصناعة البحرية وهي طائفة العزاب من ذوي الرواتب، وتبلغ نحو ألفين وخمسمائة نفس، والقسم الثاني كان من الأمراء وأرباب التيمار

١ - أي بلاد الكروات وبلاد الأناؤوط على السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك.

والزعامة من السناجق الكائنة داخل إيالة قبودان باشا، وكان هؤلاء العسكر البحرين يبلغون أكثر من عشرة آلاف، ثم لأجل تكثير القوى البحرية الحق بإيالة قبودان باشا بعض الألوية المجاورة للبحر من سائر الإيالات البحرية، والحق أيضاً وجاق يايا ومسلم^(١) القاطنين في إيالة الأناتولي إلى دائرة البحرية، فامتدت الدائرة البحرية شيئاً فشيئاً وأعطى لأمير الأمراء بعض إيالات وظيفة القبودانية على أن يكونوا بمعية قبودان باشا فترتبت الأساطيل صفافاً وكان مرتباً وموجوداً في هذه السناجق فضلاً عن السفن الأميرية أربعون أو خمسون سفينة حربية .

وأخيراً اختلت أمور الأسطول في الدولة العلية ومع كون أكثر عسكر السناجق المذكورة لا يتفعون شيئاً فإنهم تشتتوا وأجروا في داخلية الأناتولي خسائر كثيرة ونجاسروا على ارتكاب المنكرات العديدة، ثم رتبت الدولة لوندات هذه الألوية ووضعتهم في وجاق مخصوص على قصد استخدامهم ببعض الخدم العسكرية، غير أنهم لعدم دخولهم ضمن رابطة ونظام معلوم قد سببوا للأهالي كثيراً من الشرور والخسائر مدة طويلة ومن ثم ألغي اسم لونديه بالكلية في عصر السلطان عبد الحميد خان كما سنبين ذلك أدناه، وأعدم من دخل منهم في قبضة اليد ومن بقي منهم حياً تفرق في الأطراف، أما السبب في استعمال اسم لوند في بعض جهات آسيا وإطلاقه على البغاة ومن لا خلاق ولا ناموس لهم فقد نشأ عن انتشار شهرة شقاوة اللوندين في عموم آسيا على الوجه المشروح .

وبعد أن فتحت الدولة رودس تحول من كان بها من الفرسان إلى مالطه وأخذوا هناك على عادتهم في مداومة القرصنة والتعرض للسفن الإسلامية فالدولة العلية غضت النظر عن طائفة وجاقات الغرب واستثنتهم في المعاهدة التي عقدتها مع دول أوربا فبهذا السبب داوم هؤلاء أيضاً القرصنة . وفي هذه

١ - راجع شرح هذه المصطلحات في هوامش الفصل الرابع .

الوجاقات كان كثير من الرجال الذين اكتسبوا المعارف والمهارة في فن البحر وكانوا أولاً وآخرأ حين التحاقهم بالأسطول الهمايوني يأتون بالأعمال المفيدة في أثناء الحروب البحرية، فعلى الوجه المشروح في هذه المحاربة أيضاً أفادت مراكب تونس والجزائر وأتت بأعمال عديدة. ولكن لما كانوا طائفة مطلقة العنان غير مقيدين بشيء تعذر أمر ضبطهم وإدارتهم فلذلك كانوا يتجاسرون في ارتكاب المنكرات العديدة في البلاد التي وجدوا فيها من الممالك المحروسة فكانت أضرارهم مقابلة لخدمتهم.

وفي الأول عند وقوع الحروب العظيمة كانت الدولة تعين أحد وزرائها سرداراً يكون قبودان باشا تحت إمرته، ونظراً لعدم استقلال قبودان باشا بالرأي كانت تصعب عليه رؤية الأشغال، ولاسيما كون قبودان باشا في رتبة الوزارة فتعيين وزير آخر سرداراً يشوش مصلحة الإدارة وشوهد ضرر ذلك عدة دفعات. وعقيب ذلك أعطى جميع قواد البحر قبودان باشا استقلالاً تاماً فلم يكن يعين في هذه الوظيفة إلا من كان من أركان الدولة ومن حصلوا على ثقة الحضرة الشاهانية واعتمادها وأمنيتها من الذوات الفخام، ثم إن الصدور العظام وإن كان لهم بحسب وكالتهم المطلقة نظارة شاملة عامة على الترسانة العامرة، إلا أن قواد البحر قد ازدادوا استقلالاً بعد ذلك وصاروا أحياناً شركاء للصدور العظام في نفوذهم أو على الأقل يديرون أمور البحر بالاستقلال.

الفصل الثامن

(يتعلق بأصول أوروبا وأحوالها السابقة واللاحقة)

فكما أنه كان لوقائع الدولة الإسلامية السالفة تعلق بوقائع أوروبا السابقة كذلك كان لتاريخ الدولة العلية ارتباط كلي بوقائع أوروبا اللاحقة .

وعلى الأخص أن الاختلال العظيم الذي ظهر في فرنسا منذ عهد قريب كان سبباً لحصول انقلابات عظيمة في أوروبا فإنه فتح طريقاً جديداً في مناسبات ومعاملات الدول والملل وكان مبدءاً لعصر جديد في أوروبا . فهذه الأحوال قد أثرت في الدولة العلية تأثيراً كبيراً ونشأ عنها كثرة العلائق في دول أوروبا . فلزم لذلك أن نبحث أحياناً في وقوعات أوروبا ، فوقائعها الكلية كانت من النتائج الطبيعية لكثير مما ظهر من المبادئ والمقدمات التي كانت متصلة ومسلسلة من عهد قديم جداً . على أن حقيقة الحال لا تعلم من مجرد حكاية الوقوعات بل يلزم فيها بيان الأسباب الموجبة ، فلذلك رأينا من المناسب في أول الأمر أن نبين إجمالاً أحوال أوروبا اللاحقة والسابقة على الوجه الآتي :

[التمدن في قارة آسيا]

بينما كانت قارة آسيا منبع التمدن في جميع أطرافها كانت الخطة المصرية قبل تاريخ ميلاد عيسى عليه السلام بقرون متطاولة فيها أمم متمدنة ودول جسيمة . كانت ممالك أوروبا محرومة بالكلية من آثار المدنية لأن أول بلاد سكنت بعد الطوفان هي القطعة المسماة بالجزيرة الواقعة بين نهري دجلة والفرات فكان موقعها قابلاً لزيادة العمران والتمدن فأصبحت في مدة وجيزة عامرة وانتشرت منها آثار المدنية إلى سائر أطراف آسيا . فقد روي أن أولاد نوح عمروا ابتداء قطعة الجزيرة من جهة نهر الفرات وبنوا مدينة بابل في محل قريب من ملتقى النهرين ، وإن النمرود من أحفاد حام بن نوح نظم حكومة فيها . ثم إن أشور أحد أولاد سام

ابن نوح الذي طرده النمرود من بابل ذهب إلى الجانب الشمالي وبنى مدينة نينوى على نهر دجلة يضاهي بها بابل فظهر في الجزيرة دولتان؛ إلا أننا لسنا على علم تام من أحوالهما؛ فإن أحوال الأجيال القديمة هي مظلمة جداً في التاريخ. على أنه يفهم من الروايات والآثار القديمة أنه ظهر في الآشوريين حاكم يقال له نينوس وذلك قبل ميلاد عيسى بنحو ألفي سنة وكسور، فاستولى على بابل وأقام في آسيا سلطنة كبيرة وسع مدينة نينوى التي كانت عاصمة الملك ومن بعد ذلك صارت بابل يديرها وال. وروي أن مصر كانت في تلك الأعصار لا سيما قبل الميلاد بألفي وخمسمائة عام حائزة على العمران والمدنية في درجة الكمال ثم جاءت طائفة من الشرق^(١) واستولت على مصر ومحت آثار العائلة الوطنية الحاكمة حتى أنه لما هاجر سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه السلام من جهة بابل إلى سورية، وذلك قبل الميلاد بألف وتسعمائة سنة وورد على مصر صادم أوان سلطنة الطائفة الأجنبية وهي في حالة الخوف والرعب من دولة الآشوريين أصحاب آسيا. ثم بعد مائة وأربع وتسعين سنة لما أتى إليها سيدنا يوسف عليه السلام ثم أبوه وأخوته كان حكام مصر من هؤلاء الأجانب وبينما كانوا ينظرون إلى بني إسرائيل نظر الوطنيين أبناء البلد الواحد ويعاملونهم بالرعاية ظهرت الفراعنة من الوطنيين قبل الميلاد بألف وستمائة سنة فتغلبوا وطرّدوا أولئك الأجانب من مصر واستولوا على الحكومة، وصاروا ينظرون إلى بني إسرائيل نظر الأجانب ويعاملونهم معاملة الأسرى. ثم ظهر سيدنا موسى عليه السلام قبل الميلاد بألف وأربعمائة وإحدى وتسعين سنة فأخرج الإسرائيليين من مصر وأنقذهم من الذل وظهرت بعد ذلك دولة بني إسرائيل في أرض فلسطين. ولا يخفى أن الفينيقيين في البلاد الشامية كانوا في أثناء ذلك متمدين يرّوجون الأعمال التجارية وكانت مدينة صيدا عاصمة لحكومتهم وكانت بلدة شهيرة قبل الميلاد بألف وخمسمائة عام. ثم انتقل الملك إلى مدينة صور وكانت عاصمة لهم وذلك بعد خمسمائة سنة وفاق أهلها على أهل صيدا. وكانت للفينيقيين تجارة عظيمة مع أهل بابل.

١- وهم طائفة الهكسوس: قبائل سامية غزت مصر وحكمتها ١٦٥٠-١٥٦٠ ق.م، أسست السلالتين ١٥ و ١٦، وفي عهدهم استقر بنو إسرائيل في مصر. المنجد ص ٥٩٦.

وجملة القول إن أكبر دولة كانت لذلك العهد في آسيا هي دولة الآشوريين . غير أن والي مديا من ممالك إيران اتفق مع والي بابل فشقا عصا الطاعة على دولة الآشوريين وحاصرا مدينة نينوى عاصمة الملك فتغلبا على حاكمها، واستقل الولاة في أعمالهم، وانقرضت دولة الآشوريين قبل الميلاد بثمانمائة وست وسبعين سنة . ثم إن دولة الآشوريين الثانية التي قامت في نينوى أخيراً استولت على بابل وسائر الأيالات وصارت دولة قوية أيضاً غير أنها حيث لم تتمكن من الاستيلاء على مديا وسائر ما كان في حوزتها من الأيالات التي في أطراف الشرق لم تبلغ في السعة والقوة ما بلغته الدولة الأولى . أما حكومة مديا فكانت توسع دائرة اقتدارها يوماً فيوماً فبنت مدينة همذان لتجعلها عاصمة لها . وعلى هذه الصورة انقسمت ممالك آشور القديمة إلى قسمين بقي قسم منهما في يد هذه الدولة الآشورية الجديدة وهو يمتد من نهر دجلة إلى البحر الأبيض والقسم الثاني كان تابعاً لدولة مديا وكانت تحكم من نهر السند إلى نهر قزل إرماع (يعني النهر الأحمر)^(١) . ثم إن حاكم مديا خرج أخيراً عن طاعة نينوى ووافقه والي بابل على ذلك وأرسل إليه ابنه بخت نصر وبعد أن حاصرا نينوى بعساكرهما مدة سنين فتحاها وأحرقاها . وبعد ذلك ظهرت دولة بابل ثانياً في الجزيرة فسميت بالدولة الكلدانية، وفي أثناء ذلك أي قبل الميلاد بستمائة وخمس سنين توفي والد بخت نصر فجلس هو في بابل واستولى على ممالك إيران وجميع ممالك آشور ووسع بابل ليجعلها أكبر عاصمة في آسيا، ثم زحف على سورية فأسر الإسرائيليين وأحرق القدس الشريف وألحق مصر بالدولة الكلدانية فحصلت له مكانة عظيمة . غير أن دولة بابل لم تطل مدتها فإنه بظهور كيخسرو أحد ملوك الكيانية انتقلت دولة إيران من المدياويين إلى الفارسيين وفتح كيخسرو المذكور مدينة بابل قبل الميلاد بخمسمائة وثمانية وثلاثين سنة، واستولى على أذربيجان وكردستان وأوصل سطوته وسلطنته إلى درجة الكمال حتى صارت الدولة

١ - قول إرماق أو النهر الأحمر: أطول أنهار تركيا . ينبع في الأناضول ويصب في البحر الأسود . المنجد ، ص ٤٣٧ .

الإيرانية أكبر الدول وأكثرها قوة، واستولى على مدينة بابل التي كانت في ذاك العهد من أكبر المدن جسامه وعمرانا فارتفع بذلك صيته وشأنه ارتفاعاً كبيراً.

وكان في الجزيرة في ولايات بغداد وكردستان وحلب أراضي قليلة معمورة والأراضي الكثيرة الواسعة كانت مجالات للعربان وكان يشاهد خراب بابل في قصبة الحلة وإذا حضرت إلى الأماكن الواقعة أمام الموصل تظهر لك بعض آثار نينوى (سبحان محوّل الأحوال) فلما تكاثر نوع الإنسان في آسيا أخذ أكثر الطوائف والأقوام يهاجرون إلى أوربا وقتاً بعد وقت، ذاهبين من جبل قفقاس طائفين من جهة بحر الخزر إلى سواحل البحر الأسود الشمالية أو من طرق أخرى، والذي الجأهم إلى ذلك لا يخلوا أمام الازدحام أو الظلم والتعدي أو البطالة التي توجب الجولان سدى، وحيث إن عمران المنطقة الشمالية صعب والطوائف المذكورة كان يتعقب بعضهم بعضاً، فتعين على الذين تقدموا أمام الجميع أن يتقدموا أيضاً في نقلتهم وحركتهم إلى الأمام، وهكذا كان الحال بدون راحة فعلى هذه الصورة كانوا غير متمكنين من التمدن وبقيت قطعة أوربا أوقاتاً كثيرة مهجورة من التمدن. والذين هاجروا ابتداء إلى أوربا على هذه الطريقة كانوا أربعة أقوام رؤساء يعدونهم أجداداً لأكثر ملل أوربا: فالأولى منهم طائفة بلاسكى الذين هاجروا إلى اليونان وإيطاليا من طريق الأناطولي وهم أجداد اليونان والإيطاليان القدماء، والثانية طائفة غال وهم أجداد أهالي فرنسا وإسبانيا وإيرلاندة، والثالثة طائفة الجرمان يعني الذين نسميهم الألمان ورؤساء طوائفهم الألمان والفرنج وغوت ولومبارد وساقسون وأنكل وواندل، والرابعة طائفة السلاف وهم عبارة عن أصول ملل موسقو وله^(١) وصرب وخروات.

كما أن آسيا منشأ نوع الإنسان فهي أيضاً مبدأ المدنية ومنها انتشرت العلوم والمعارف رأساً إلى الغرب. واللاتين الذين نسميهم الآن إيطاليان واليونان هم أول من ترقى في سلم العلم والمعارف في أوربا. وفي الابتداء اكتسبت اليونان

قوة وتمكننا وصارت رقية وعدوة لدولة إيران فأخذ اليونان في المحاربة والمجادلة مع الفرس الكيانيين. وكذلك اللاتين أيضاً فإنهم قبل تاريخ ميلاد عيسى بسبعمئة وثلاثة وخمسين سنة بنوا مدينة رومية وأقاموا فيها دولة وهي الآن عاصمة للبابا. وفي الكتب العربية تدعى رومية، وفي اللغة التركية (قزل الما) أي التفاح الأحمر. وكان الغاليون خلق متوحشون يعبدون الأصنام ويتوجهون إلى إيطاليا وسائر الجهات يطلبون الخدمات العسكرية. والقطعة التي نسميها الآن فرنسا كانت تدعى في ذلك الوقت غاليا؛ ولكن غاليا كانت أكبر من فرنسا في الحالة الحاضرة فإنها كانت شاملة لأكثر ممالك ألمانيا الواقعة في الجهة الشمالية من نهر الرين ومحيطه بالجهة الشمالية من إيطاليا. غير انه في ذلك الوقت كان يوجد في غاليا وخصوصاً في الطرف الشمالي طوائف أخرى غير الغاليين. ويوجد اليوم بين أهالي فرنسا الشمالية والجنوبية فرق في الهيئة وتفاوت وما برحت آثار هذه المباينة باقية إلى الآن. فعلى الوجه المشروح من ظهور العداوة بين اليونانيين والإيرانيين ووقوع المحاربات الكثيرة طرأ الضعف الكلي على الفريقين فاسكندر الكبير^(٢) ابن فيليب حاكم مكدونيا بعد أن استولى على جميع ممالك اليونان وفتح الحرب على دولة إيران ودخل جقور أوه ثم حارب دارا في جهة بياس فقهره واستولى على ممالك إيران وقسم من الهند وصار سلطان الدنيا، توفي بغتة في مدينة بابل وذلك قبل الميلاد بثلاثمائة وثلاث وعشرين سنة، فتجزأت دولته بين رؤساء قواده على أن دول مصر وسورية ومكدونيا كانوا في منتهى القوة والجسامة، ولكن ابتلاء حكامها تدريجاً بالسفاهة والترب وما شاكل ذلك من أسباب الفساد بدل قوتهم بالضعف.

١- له: أي بولندا في شمال شرق أوروبا، وكان يطلق عليها لهستان في العهد العثماني. قاموس الأعلام ٤٠٣٩/٦.

٢- الإسكندر الأكبر: (اسكندر الثالث) (٣٥٦-٣٢٣ ق.م) ملك مقدونيا، حارب الفرس، واستولى على صور وغزة، وأسس مدينة الإسكندرية. توغل في فتوحاته إلى الهند. ومات وعمره ٣٣ سنة في بابل. ويعتبر من أعظم القواد وأبرز الشخصيات في التاريخ. الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٥١.

[وقوعات أوروبا]

وكانت دولة رومية في أوائل أمرها غير قوية فهجم عليها الغاليون قبل ميلاد عيسى عليه السلام بخمسائة سنة وعادوا إليها بعد ذلك بمائة وخمس وثلاثين سنة فأحرقوها لكن لما كان الرومانيون اعتادوا بهذه الصورة على الحروب فرويداً رويداً غلبوا الغاليين الذين كانوا ألقوا الرعب في قلوب الجميع مظهرين للعالم قوتهم ومكانتهم .

وبعد أن كان للغاليين في الأيام القديمة حكام مستقلون فالغوا أصول الاستقلال وقرروا إدارة أمور المملكة بالحكومة الجمهورية فتشتت أمورهم وتفرقت أحوالهم، ولم يبق من اتفاق فيما بينهم . وحيث إن أصول الجمهورية أولاً وآخرها وفي كل محل انتجت سوء الحال أدى الأمر بالغاليين إلى الاضمحلال فزالت قوتهم وسطوتهم القديمة . أما الرومانيون فكانوا شديدي الغيرة على دولتهم فلما رأوا ضعف حال الدولة اليونانية كما ذكرنا آنفاً ورأوا الجو خلالهم تحفزوا للقيام رغبة منهم في تملك الدنيا فادخلوا تحت أمرهم ممالك كثيرة من الدول والأمم . وكان أهل قرطاجنة العظيمة الواقعة في جوار مدينة تونس بأفريقيا التي كانت بنيت في القديم بهمة تجار فينيقيا بالشام قد ضبطوا يومئذ تجارة البحر الأبيض فازدادت ثروتهم ازدياداً مهماً ولكن بسبب وقوع العداوة والبغضاء بينهم وبين الرومانيين ثارت الحرب بين الفريقين، فجاء الغاليون وأمدوا أهل قرطاجنة فجاهر الرومانيون بحرب الغاليين واستمروا عليها مدة طويلة حتى غلبوهم وذلك قبل الميلاد بمائة وتسعين سنة، ومن ذلك الوقت أخذ الغاليون يجتنبون الهجوم على الرومانيين .

وقبل الميلاد بستمئة سنة تقريباً بنى تجار اليونان الذين هاجروا من جهة أزمير إلى غاليا مدينة مرسيليا الموجودة الآن فقدّموا فيها أمر التجارة تقدماً مهماً وبهذه المناسبة ظهرت المتاجر في جميع سواحل غاليا وأصبحت تجارة الدنيا في ذلك

الزمان كأنها بيد أهالي قرطاجنه وأهالي مرسيليا المذكورة. ثم ان أهالي مرسيليا رغبوا في بناء بعض المدن في غاليا إلا أن الغالين حسدوهم مخافة توسيع دائرة حكومتهم فهاجموهم وحاصروا مدينة مرسيليا، فالتمس أهلها من جمهورية رومية امداداً فجاءهم عسكر رومية وخلصوا مرسيليا وذلك قبل الميلاد بمائة وأربع وخمسين سنة. ثم لم يمر وقت طويل حتى استولى الرومانيون على مدينة قرطاجنه وخربوها وألصقوا جدرانها بالأرض فاكسبت التجارة في مرسيليا زيادة الأهمية. فقام الغاليون وهجموا عليها مرة أخرى وذلك قبل الميلاد بمائة وعشرين سنة، فأعان الرومانيون أهلها وتغلبوا على الغالين واستولوا على مرسيليا وأطرافها وشكلوها لواء الحقوه بحكومة رومية.

والحاصل أن الرومانيين تغلبوا على الغالين وسائر الأمم وسخروا لأمرهم الممالك اليونانية فاكسبوا بذلك مالا مزيد عليه من القدرة والثروة، وبينما كانت دولة رومية في أوائل ظهورها ملكية محضة أصحبت بقرار الجمهور جمهورية فراراً من ظلم الملوك وتنصلاً من غدرهم. إلا أنه لما كانت الجمهورية داعية إلى التفرق والتشتت وبالنظر لزيادة ثروة المملكة كما أشرنا إليه واستمرار توارد الأموال على روميه من كل صوب بحيث غرق الخلق في لجج البذخ والسفاهة فسدت الأخلاق العمومية، وتجاوز الكبراء حد الحرص والسفاهة فوقعت أنواع الفتن والفساد في روميه، وانتشرت المظالم وأنواع الاعتداء فسقطت جمهورية، رومية في مهواة التذبذب والخلل قبل الميلاد بخمس وستين سنة على حين كانت أقوى حكومات الدنيا وأكبرها. وفي أثناء ذلك صار أحد أعيان رومية المسمى قيصر(سزار) قائداً على العسكر وكان ذا مهارة كلية في الأمور الحربية والسياسية فكره أن تبقى رومية جمهورية على حالتها من الخلل فقر قراره على ترك روميه وسافر إلى غاليا سرداراً أي رئيس القواد. وفي الحروب التي وقعت بين الفريقين انكسرت غالياً بالكلية، وقبل الميلاد بتسعة وأربعين سنة ألحق أكثر ممالك غاليا

بجمهورية روميه وعلى ذلك طلب القيصر من سناتو رومية أي من مجلس الأمة بعض أمور فلما أجب بالسلب قال إنني أحصل رغائبي بحد السيف، فجاء روميه وصار بمساعدة القوة العسكرية رئيساً للجمهورية، وأخذ عنوان امبراطور ومعنى كلمة الامبراطور في اللغة اللاتينية في الأصل قائد جيش ثم توسعوا في استعمالها فصارت تطلق على القواد الذين يكونون مظهرًا للظفر والنصر. وقد حاز قيصر في حياته أرفع الرتب والمناصب في جمهورية روميه وصار مستبدًا يجري أمور المملكة بالاستقلال كأنه ملك. وقد كان لقب (الإمبراطور) في ذلك الوقت يطلق على القائم بأهم الأمور العسكرية فكان هذا اللقب شاملاً لجميع وظائف القيصر، ولذلك كان مقدماً ومفضلاً على غيره من الألقاب. وحيث كان أهل رومية ينفرون من أصول الملكية فلم يأخذ قيصر لقب ملك. ومع ذلك فقد كان يحكم فيهم حكماً مستقلاً مظهرًا علائمه كضرب النقود مرسومة برسمة، فخاف الأهالي أن يتوصل بذلك إلى الملكية فقام بعض أعدائه وقتلوه علناً في مجلس السناتو^(١) وذلك قبل الميلاد بأربع وأربعين سنة. ولما كان مظهرًا لحسن توجه الخلق وانعطافهم إليه كان قتله سبباً في فتنة كبيرة فاندفعوا على بيوت قاتليه فأحرقوها. وقد كان قيصر أوصى بعنوانه وأملاكه لأوقتافيوس ابن شقيقته فلما قضى عليه بالاعدام تولى أوقتافيوس أمر الحكومة بالاستقلال وحيث كان مقبولاً عند الناس لقب بالإمبراطور رسماً وذلك قبل الميلاد بتسعة وعشرين سنة، وعمره إذ ذاك ١٨ عاماً. وبعد ذلك بستين أضاف مجلس السناتو على اسمه اسم قيصر الذي انتقل إليه بالإرث وفضلاً عن ذلك فقد الحق المجلس إليه لقب أغستوس بمعنى جدير بالاحترام، ولكن إظهاراً لكون حكومته مشروعة وأعطى له في مجلس السناتو المقام الأول وأخذ أيضاً لقب برنيسيس الذي معناه (أول). ولفظ برنس مشتق منه ومعناه (أمير) فاستجلب أوقتافيوس أغستوس بحسن معاملته قلوب الخلق واكتسبت دولة رومية في زمانه صنوف الراحلة والعمران وكان يستر

١ - أي مجلس الشيوخ.

حكومته المطلقة تحت هذه العنوانات المختلفة من دون أن يلعب نفسه بالملك تمويهاً على الناس الذين كانوا يظنون أن حكومة رومية لا تزال جمهورية محضة مع أنه في الحقيقة كان يجري ما يجريه من الوظائف العائدة إلى الحاكم المستقل .

ومع أن لفظ قيصر هو اسم علم وكلمة امبراطور تفيد السردار المظفر فقد توسع الناس فيهما حتى صارتا تستعملان بمعنى سلطان .

وقد ولد سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام في زمن هذا الأغستوس الذي استولى في أيامه على الأماكن التي لم تكن دخلت في اليد من قبل من بلاد غاليا، وضرب عليها مكوساً فادحة، فتقلب الغاليون في أحوال الظلم والتعدي غير أن بعضاً من طوائفهم وهم الذين لبثوا إلى هذا الوقت متشتتين في البلاد متفرقين في الجهات جمعهم الرومانيون ووضعوهم تحت إدارة واحدة فاتحدوا بهذا السبب والتحموا كأنهم جسم واحد حتى صح أن يقال إن ذلك من الأسباب التي صيرت غاليا بعد ذلك دولة عظيمة الشأن .

وفي زمن حكومة أغستوس ذهب إلى غاليا عدد كلي من أهالي روميه فأحدثوا المكاتب والماراسح^(١) وغيرها من الأبنية ونشروا فيها آثار المدنية . إلا أنه لما كانت مدنية أهل رومية على نوع مادي ونفساني لم يكن لهم لذلك اهتمام بتهذيب الأخلاق الإنسانية وإصلاحها وإنما كانوا يسعون وراء الفساد ولذلك ابتلى أكثر أهالي الأماكن التي دخلت في حوزتهم بصنوف شتى من الشرور . وقد أضاع الرومانيون بهذه المدنية الرومية حسن أخلاقهم الطبيعية وكان استيلاؤهم على أكثر الممالك بهذه الصورة، فنشروا فيها مدنيتهم وأفسدوا أخلاق عدة ملل وأقوام سوى جزيرة العرب وجرمانيا فإنهم لم يتمكنوا من الظفر بهما، فبقيت أخلاق العرب والجرمان على حالها الطبيعي محفوظة ولم تمسهم مساوئ

١ - أي الماراسح مفرداً مسرح، وهو المكان المعد لتمثيل الروايات .

مدينة رومية، وهاتان الملتان جددتا بعد ذلك نظام العالم. وأغستس في أيام حكمته استولى على ممالك سويسرا ودالماسيا وخروات والروم إيلي ومصر وألحقها بدولة رومية. غير أن الرومانيين انكسروا على نهر الرين، ولم يتمكنوا من الظفر بجرمانيا، فساءت هذه الحال أغستوس إساءة كلية. فمات في السنة الرابع عشرة بعد الميلاد وخلفه تيبيريوس، وكان ظالماً عاتياً فقتل خنقاً في فراشه. وفي أثناء حكمه وقع الاهتمام في القدس الشريف بأمر صلب سيدنا عيسى وذلك في زمن واليها المسمى بلات (بيلاطوس). والإمبراطوريون (الأباطرة) الذين أتوا بعد ذلك كان كل منهم شراً من الأول بأنواع السفاهة مبتلين بسوء الأخلاق وفسادها، فظهرت الفتن والفساد في أيامهم شيئاً فشيئاً، ومات أكثرهم بالسم وبغير ذلك من الطرق.

وفي اعتقاد النصارى الذين على مذهب الكاثوليك ان الباباوات هم الخلفاء على الأرض لحضرة عيسى عليه السلام، وهم نواب بطرس الذي هو من الحواريين. لأن سيدنا عيسى عليه السلام بعد أن ارتفع إلى الملاء الأعلى جاء بطرس إلى رومية لتلقين الدين العيسوي، غير أنه لم يتمكن من ذلك علناً لأن العيسويين كانوا من جهة الدين تحت ظل الخفاء كما كانوا في سائر المحلات، فعوقب بطرس ومن تبعه في رومية بالصلب على الأخشاب. وكانت تجرى عقوبات شتى على العيسويين أيام قسطنطين.

ثم ظهر الاختلال في أطراف غاليا وأسبانيا ناشئاً عن سوء أطوار الامبراطورين وافراطهم في المظالم. واليهود الذين كانوا في أرض فلسطين نشطوا للحروب، غير ان دولة رومية كانت دبرت الأمر على قدر الإمكان فدفعت هذا الخلل واستولت على جزيرة (بريتانيا) انكلترا بأسرها، ونقلت بعضاً من الرومانيين وأوطنوهم أرض الأفلاق التي كانت في بعض الأحيان ذريعة لسلب الأمن في حدود الطونة، فأقاموا فيها وصانوا الراحة ثم شهرت الحرب

على دولة اشكانبان الواقعة في بلاد إيران فاستولت على جميع أملاكها الممتدة إلى منتهى خليج البصرة. ومع ذلك فلم تتمكن من الاستيلاء على شبر واحد من جزيرة العرب، فأثر ذلك في خيلاء الرومانيين. ولذلك سموها سورية يعني بر الشام أي المواضع التي كانت تمتد في ذلك الوقت من دمشق الشام إلى بحيرة لوط (عربستان) أي بلاد العرب مع أنها لم تكن معدودة من بلاد العرب. والقياصرة كانوا يحكمون على أسلوب الحكام المستقلين ولم يكن تنصيبهم جارياً على أصول الوراثة بل كانت قاعدة الانتخاب دستوراً للعمل في تولي الأحكام لا على أصول الموارثة، وذلك لم يتسن لهم التملص من حال الجمهورية. وتوالى إعدام الامبراطورين كما تقدم وبقي أمر الانتخاب بيد الأسافل، فكان الجند ينتخبون القياصرة بواسطة الدراهم. أما أهل رومية فقد كانوا بوجه العموم منهمكين في السفاهة والخلاعة وعدم الاحتشام وبناء على ذلك أخذت الدولة الرومانية في التنازل يوماً فيوماً حال كونها كانت ديارها عامرة. وكانت إلى سنة ١٨٠ ميلادية تحكم على ١٢٠ مليوناً من الأهالي. وفي سنة ٢٠٠ للميلاد تقريباً بدأ الجرمانيون في تجاوز غاليا وحيثما شعروا بضعف رومية وهبوط قواها حصلت عندهم جراءة كلية على تجاوز الحدود. وفي سنة ٢٢٠ للميلاد انقضت دولة اشكانيان ودخلت دولة إيران في سلالة ساسان، فخالج صدر أزدشير الذي هو مجدد الدولة أن يوسع حدود دولة إيران (العراق) كما كانت في زمن دارا إلى حد البحر الأبيض وبحر مرمرة. فطالب دولة رومية برد كثير من الأماكن، وعلى ذلك اضطر اسكندر (الكساندر) إمبراطور رومية أن يسافر إلى جهة الشرق ويشهر الحرب عليه. وفي أثناء هذه الحرب دخل بعض طوائف جرمانيا في غاليا مرة أخرى فأصبح الكساندر لهذا السبب مجبوراً أن يعود إلى نهر الرين لأجل تأمين حدوده.

وقد اتفق بعض الطوائف الصغيرة من الجرمانيين الرحالين في أطراف نهر

الرين على حيواناتهم وانعامهم على حفظ أنفسهم من الرومانيين فسموا أنفسهم باسم (فران) أي اسم الحر المستقل، وبسبب هذا الاتفاق وشدة طاعتهم لرؤسائهم ازدادوا قوة ونالوا أمانيتهم والذين يسمون منهم ساليق فرانق، ويتوطنون في شاطئ نهر سال الواقع في جرمانيا اشتهروا أكثر من الباقين شهرة عظيمة فأخذوا كغيرهم من الطوائف الجرمانية الأول أن يتخطوا حدود غاليا.

والحاصل أن الطوائف الموجودة على حدود روميه خصوصاً الجرمانيين منها كانوا يتخطون ويتجاوزون الحدود على التماسي. أما دولة رومية فبالنظر لما وقع بها من الخلل كانت قياصرتها تخلع وتقتل بالتتابع، فإذا قتل أحد القياصرة كان كثير من الناس ينهضون في ادعاء القيصرية في وقت واحد. ففي سنة ٢٧٠ ميلادية جرى انتخاب أوريليانوس إمبراطوراً على روميه، وقام في كل من غاليا وبلاد الشام أيضاً من يدعى الإمبراطورية. فلما توفي إمبراطور الشام وأفضى أمر الحكومة إلى زوجته زنوبيا قصدها أوريليانوس فدمر عاصمة مملكتها (بالمير) وهي تدمر، وسار بعد ذلك إلى غاليا، وهناك نال الظفر، ثم إنه عندما فتحت حرب إيران قتل في الطريق بفتنة ودسياسة، ثم إن الإمبراطورين الذين أتوا على أثره لم يلبثوا طويلاً في تخت الملك لأنهم وإن كانوا تمكنوا من دفع الطوائف التي كانت تدخل إلى غاليا من أمانيا إلا أنهم اضطروا لاستخدام كثيرين من الطوائف الأجنبية المتنوعة في العسكر لأجل المحافظة على الحدود، فكان ذلك أيضاً داعياً لزيادة مشاكل دولة رومية.

ثم في الأخير أدرك القيصر قسطنطين المشهور سوء الحال فقر رآه على نشر الدين العيسوي وإعلانه، وفي سنة ٣١٣ مسيحية أعان من مدينة ميلان الكائنة في ايطاليا حرية الدين العيسوي، وبقي مدة مشغولاً بمدافعة الرقباء، وهو وإن كان تغلب عليهم جميعاً ونال الاستقلال التام إلا أنه استولى عليه الغم والكدر من أهالي روميه بسبب هذا الدين، ونفرت نفسه من سكنى مدينة رومية فقر رآه على

تبديل العاصمة، وقال إنه يجب أن العاصمة تكون قريبة من أعدائه الإيرانيين، وقد كان في معتقد أهالي رومية أن بانها في الزمن القديم كان أحد أهالي مدينة توردا الواقعة في جوار بابايورني خارج خليج البحر الأبيض، فرعاية لذلك عقد قسطنطين النية على عمارة خرابة مدينة توردا، ثم إنه عدل عن ذلك وجاء إلى قسبة بزانتيون فابتنى هناك مدينة استامبول^(١) وجعلها قاعدة للملك، وأعلن أن الدين المعتمد في دولته بعد ذلك هو الدين العيسوي وقد أطلق على أهالي العاصمة وهم من طائفة اليونان اسم رومانين يعني بتخفيف روم ولا يزال باقياً إلى الآن. وقد كان الدين العيسوي إلى ذلك الوقت جارياً في غالبا بوجه خفي إلا أنه بسبب ارتباط غالبا بإستامبول صار أهاليها أثناء ذلك عيسويين أيضاً. وبسبب ما كان من المناظرة بين العاصمتين زادت مشاكل الدولة فأصبحت إدارة أوروبا من الأستانة في غاية الإشكال. وصار قسطنطيوس ابن قسطنطين مشغولاً بأنواع الاختلالات. وفي أثناء ذلك مرت طائفة فرانق التي أتينا على ذكرها بنهر الرين فتجاوزت غالبا فأرسل قسطنطينوس إلى غالبا رجلاً من أقربائه يقال له جولييانوس وجعله قائداً للعسكر، فتمكن هذا القائد من طرد قسم من هاته الطائفة المذكورة إلى الجهة الثانية من نهر الرين، واضطر أن يعطى القسم الآخر أراضي بلجيقا، على شرط أنهم يكونون تابعين لرومييه، وفي خلال ذلك صار جولييانوس قيصراً بانتخاب عساكره، وتوفي عقيب ذلك قسطنطيوس فدخل جولييانوس إلى إستامبول بعظمة الإمبراطورية سنة ٣٦١ عيسوية وقد اجتهد في إعادة عبادة الأصنام، إلا أنه لم ينجح. أما القياصرة الذين أتوا على أثره فكانوا جميعاً على الدين العيسوي.

وفي عصر تيودسبيوس الذي صار قيصراً سنة ٣٧٩ وبقيت حكومته ١٦ سنة

١- أي القسطنطينية التي أطلق عليها العثمانيون بعد ذلك مسمى إستانبول.

ظهر أيضاً في الممالك الغربية أصداد له، إلا أنه تمكن من دفعهم وقام في الأستانة قيصرًا مستقلاً استقلالاً تاماً، ثم قسمت دولة روميه بين ولديه الاثنين فصارت إحداهما تعرف بالدولة الغربية والثانية توصف بالدولة الشرقية، فظهر بذلك إلى العيان دولتان. وكانت مدينة أشقودره حداً للدولتين، واستمرت الدولة الشرقية إلى عصر السلطان محمد خان الفاتح.

وأما الدولة الغربية فقد مشت على قدم الخراب وقسمت إلى حكومات شتى، فدخلت بذلك بلاد أوربا في هيثة جديدة. وعلائم الانقراض كانت ظهرت في تلك الأثناء فدولة روميه وانقسامها إلى مملكتين كان من أسباب انقراضها فضلاً عما كان يتناوبها من الأسباب الخارجية. ومن هذه الأسباب تركها قيصر روميه وسكن في مدينة روانه^(١) فشعر طوائف الجرمان في ذلك الوقت بضعف دولة روميه فطمحت أنظارهم إلى أراضي إيطاليا وغاليا اللطيفة. ولكن شاع في غضون ذلك أن جموعاً عظيمة من تاتارستان يقال لهم (خن) قادمون رأساً إلى أوربا، فخافت منهم طائفة غوت^(٢) وهي من جنس الجرمانيين الذين سكنوا في سواحل البحر الأسود الشمالية فرحلوا إلى الطونة، وسمع الطوائف الأصلية الجرمانيون أيضاً بقدوم التتر فتركوا أماكنهم وأخذوا يرحلون من مكان إلى آخر، ولم يستطع الغوتيون كلهم أن يتخلصوا من طوائف الخن المومى إليهم فاضطر قسم منهم إلى أن يدخلوا في حمايتهم ويتبعوهم، وقسم آخر التجأوا إلى دولة رومية الشرقية. غير أن الغوتيين كانوا من القوم المتوحشين فتحملت منهم الدولة الشرقية أثقالاً لا تحصى. ومهما كان من الحال فإنهم استخدموهم تارة بالوعد وتارة بالوعيد حتى مالوا إلى بلاد الغرب، فقصدوها

١- روان: مدينة في شمال فرنسا على نهر السين، عاصمة نورماندياً قديماً، بها آثار تاريخية وعمرانية ومتاحف. المنجد ص ٢٦٧.

٢- أي القوط: أحد الشعوب الجرمانية القديمة، انقسموا في القرن الرابع الميلادي إلى القوط الشرقيين والقوط الغربيين: الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٤٠٧.

كغيرهم من طوائف جرمانيا، فنجت بذلك الدولة الشرقية من غائلتهم. أما الدولة الغربية الرومية فإن دخول هؤلاء الطوائف الجرمانية الكثيرة إلى ممالكها، وإن استخدمت بعضهم في جنديتها فإنهم لم يفيدوها شيئاً وصاروا ثقلًا عظيمًا على عاتقها، فحربوا إيطاليا وغاروا على رومية ونهبوها وذلك لتأخر رواتبهم مدة عنهم ثم تجاوزوا غاليا وهناك أيضاً أعادوا الغارة كما فعلوا برومية. فعلى أثر ذلك زحف والي بريتانيا بعساكر رومية على غاليا فتسنى له تأديب هذه الطوائف الجرمانية، وأجلى أكثرهم إلى جهة إسبانيا، ولم يبق منهم غير طائفة بورغون رخص لها في الإقامة بغالي. وأخيراً ذهب الغوتيون أيضاً إلى غاليا، فلم يبق في الإمكان إخراجهم منها فأعطاهم قيصر رومية بعض الأراضي. وفي سنة ٤١٣ للميلاد أنعم القيصر على البورغونيين وهم طائفة متحابة، وأذن لهم أن ينتخبوا ملكاً منهم تحت بعض الشروط. أما طائفة واندال التي أخذت منها لفظة أندلس وهي من الطوائف الجرمانية المطرودة إلى جهة أسبانيا كما ذكرناه قبلاً فإنها دخلت جهة تونس بإفريقيا وأسست هناك حكومة مستقلة. ثم أشهر قيصر إستامبول الحرب عليها فاستولى عليها وظهرت على أثر ذلك ملة الإسلام ففتحت هاتيك الجهات ولم يبق للأندلسيين من أثر وسميت بلاد أندلس بهذا الاسم نسبة إليهم. أما غاليا فإنها كما تقدم الكلام كان بعضها تابعاً للبورغون وبعضها لطائفة غوت، وإن كان باقي أراضيها بقيت بيد دولة رومية الغربية إنما كانت الطائفتان المذكورتان تزددان مع تقدم الأيام تمكناً واتساعاً. وفي أثناء ذلك خدم الإفرنج الدولة الغربية بالصدق والأمانة فاجتهدوا كثيراً أن يمنعوا الطوائف الجرمانية من دخول غاليا غير أنهم لم يتمكنوا من ذلك، ومع ذلك فإنهم لما رأوا فتوحات البورغونيين والغوتيين أملوا أن تصيهم حصة من هذه الغنائم فتجمعوا على شاطئ نهر الرين، وساروا في حدود سنة ٤٢٠ عيسوية إلى جانب بلجيقا فأسسوا هناك حكومة صغيرة، واتخذوا مدينة طورنه الواقعة في حدود غاليا مقراً لها.

وبالنظر إلى ما أته الطوائف الجرمانية من الهرج والمرج في بلاد إيطاليا وغاليا كما تقدم بيانه علم علم يقين أنه لم يبق في الإمكان الاستيلاء على جزيرة بريتانيا فلذلك أعيدت عساكر رومية الموجودة هناك. فعلى أثر ذلك استمد الأهالي المعونة من طوائف أنكل وساقسون الآتية من الطرف الشمالي في جرمانيا لأجل المدافعة عن أنفسهم من أهل أسكوجيا، فجاءوا واستولوا على بريتانيا في سنة ٤٤٠ ميلادية وقد سميت جزيرة بريتانيا بانكلترة بإضافة لفظة بر التي هي بمعنى أرض إلى طائفة أنكل.

وفي خلال ذلك اتفق أن قيصر الخن^(١) المسمى الخاقان أتيل سار بخمسائة أو ستمائة ألف من العسكر إلى الغرب فكان يغير على كل مكان مر به حتى أنه بعد أن هدم وخرب بعض القرى في الروم إيلي واكتفى بأخذ الخراج من دولة رومية الشرقية توجه منها رأساً إلى الغرب، فوصل إلى وسط غاليا دون أن يرى مقاومة من أحد. ثم اتفق أهالي رومية مع الطوائف الجرمانية فهجموا عليه من كل جانب وهلك من الفريقين في تلك الحروب العظيمة التي جرت في غاليا جنود لا تدخل تحت حساب، ثم إن الخاقان أتيل توجه في السنة التالية لها إلى إيطاليا، ولكنه اكتفى منها بأخذ الغنائم بناء على التماس البابا وهو رئيس أساقفة رومية وبعد ذلك بسنة توفي أتيل فتشتت أهل خن والتجأوا إلى الجبال في جهة البحر الأسود، أما أهالي إيطاليا الذين تفرقوا وتشتت شملهم في أطراف البلاد بسبب تقرب أتيل منهم كما أشرنا إليه من قبل، فقد بنى بعضهم سنة ٤٥٢ للميلاد مدينة البندقية لأجل المحافظة على أنفسهم.

وبعد أن زالت غائلة الخنيين تجددت المنازعة بين الطوائف الجرمانية الموجودة في غاليا وبين الرومانيين وصارت الدولة الغربية إلى حال هي شر من الأولى.

١- أي الهون أو الهياطلة: شعوب آسيوية من غزا العالم القديم. أصلهم من سيبيريا ومنغوليا. دفعوا أمامهم شعوباً بربرية أخرى. غزوا الامبراطورية الرومانية واستقر بعضهم فيها. المنجد ص ٦٠٣.

ولا سيما أن طائفة غوت قد اتسعت في الكبر والعظمة فاستولت على إسبانيا بجملتها وألحقها بممالكها الجنوبية من غاليا. والدولة التي تغلبت عليها الدولة الإسلامية حين دخولها إلى إسبانيا هي دولة غوت المذكورة. وبينما كان الخلل مستولياً على كل جهة حسبما أوضحناه، ووقع في رومية سنة ٤٦١ للميلاد فتنة قتل بسببها القيصر فخرج على أثر ذلك أكيدوس سردار غاليا وهو من شيعة القيصر عن طاعة رومية، وأخذ يحكم بالاستقلال في طرف غاليا الشمالي الذي كان تحت تصرف رومية، ثم قتل مسموماً سنة ٤٦٤ ميلادية في مدينة سواسون التي كان ساكناً فيها، فتولى ابنه مكانه، وسار على سنن أبيه من الاستقلال في الحكومة. ونظراً لكون الجانب الجنوبي والشرقي من غاليا في تصرف حكومتي غوت وبورغون أخرجت غاليا بالكلية عن حكومة رومية. ومع كون الدولة الغربية لم يبق في يدها سوى قطعة إيتاليا فقط لم تكن كلمة إمبراطورها نافذة البتة لأنهم كانوا تحت حكم قادة العساكر الأجانب الذين كانوا اتخذوهم لخدمتهم، فزحف أحد هؤلاء القادة المسمى (أوداقر) سنة ٤٧٦ ميلادية على رومية يقود عسكرياً مؤلفاً من الطوائف الألمانية المتنوعة فخلع قيصرها وأعلن فيها بملكه. فهذه هي نهاية دولة رومية الغربية التي قام ملك ألمانيا عوضاً عنها. ثم أن طائفة غوت إحدى الطوائف الجرمانية التي كانت في طرف الطونة أشهرت الحرب على هذا الملك فقهرته وضبطت مملكة الإيتاليان سنة ٤٩٣ للميلاد، واتخذت مدينة روانة مركزاً لحكومتها.

وحيث إن دولة رومية الغربية هدمت من أساسها كما سبق بيانه فمن الأمور الطبيعية أن الحكومات التي تبني بالانقراض الواهية لا يتأتى لها الثبات فلذلك كان لا أساس لحكومة ابن أكيدوس الذي حكم غاليا بعنوان ملك الرومانيين، وفي حكومات طائفة غوت وبورغون، ومع ذلك فإنه كان يتعذر على الغالين أن يؤسسوا حكومة لأنهم استمروا عدة سنين تحت حكم أجنبي عنهم ففترت همهم

وفسدت أخلاقهم الطبيعية لانغماسهم في أحوال مدنية رومية، فلم يبق لحب الوطن أثر ما في عروقهم، فلما شاهد (قلوديس) المقيم في بلجيكا (وهو أحد أشرف عائلة مرودينج ورئيس الإفرنج) أنه من قواعد الحكمة أن يحكم في الرومانيين من كانت أخلاقه كأخلاقهم السيئة وأطواره كأطوارهم السافلة، علق أمله بالفتوحات العظيمة وتوجه إلى مدينة سواسون عاصمة ابن أكيدوس سنة ٤٨٦ ميلادية ومعه خمسة آلاف جندي فاستولى عليها وتجمع الإفرنج على أثر ذلك من كل صوب وما مر عليه زمن يسير حتى ازدادت قوته، وعلى هذه الصورة تأسست دولة الإفرنج في غاليا. ولما كانت أكثر الأوراق والسندات في ذاك الوقت مكتوبة باللسان اللاتيني استعملت لفظة فرانق بمقتضى قاعدة اللسان اللاتيني فرانسيا ثم بعد ذلك قيل لها فرانساً.

وكان قلوديس^(١) من عبدة الأوثان ثم إنه تزوج بابنة رجل من أمراء عائلة ملك بورغون وهي على دين عيسى فتنصر لسبب ذلك ودخل معه يوم تنصره في الدين العيسوي ثلاثة آلاف عسكري. وكان يدعى بين النصارى بالابن الكبير للجماعة العيسوية، ثم انتقل هذا العنوان إلى ملوك فرنسا علاوة على ألقابهم. وكان للإفرنج قانون نظموا أيام عبادتهم للأصنام فأصلح بمعرفة قلوديس على مقتضى أساس الدين العيسوي. وقيل لهذا القانون الذي نظم على هذا الوجه قانون ساليق لأن طائفة ساليق الإفرنجية كانت أول من فتح غاليا وبقي هذا القانون مرعياً معمولاً به مدة طويلة مع قوانين رومية. وبعد ثلاثمائة سنة نقح وبدل شارلمان ملك الإفرنج المشهور كثيراً من مسائله بمواد قوانين رومية، إلا أن قانون ساليق كان الأساس الأول للقوانين الفرنسية. وكان للإفرنج في إثبات الجرائم أصول غريبة فكان يخرج المدعي والمدعى عليه إلى الميدان فيقتتلان بالسيف اعتقاداً منهم بأن صاحب الحق يغلب وأن البريء لا بد أن يكون محفوظاً من الله

١- كلويس (٤٦٥-٥١١م): أول ملوك فرنسا الفرنج. جرمانى الأصل، كان وثيقاً ثم اعتنق المسيحية. المنجد ص ٤٦٧.

تعالى . وإجراء المباراة التي يقال لها الآن في أوربا (دويللو) قد حدثت عن هذه القاعدة . وكان بمقتضى أحكام قانون ساليق أن المواضع التي تؤخذ عنوة تفوض إلى الذكور لا تنتقل إلى الإناث لكونها مخصصة بالخدمة العسكرية . وبناء على كون بلاد فرنسا معدودة في جملة البلاد المأخوذة عنوة لم يجلس أحد من طائفة النساء على تخت الملك في فرنسا . وقد ضبط قلوديس أماكن رؤساء طوائف الإفرنج الآخر بطرق متعددة ووسع في وقت قريب دائرة حكومته ، بما أتيح له فتوحات كثيرة . فمن جهة امتدت حدود مملكته إلى نهر الرين ، ومن جهة أيضاً أجبر ملك بورغون بالحرب على تأدية الخراج ، وفي المحاربة التي وقعت بينه وبين الغوتيين كانت الغلبة له أيضاً ، وانهزم ملك الغوتيين هزيمة عظيمة . واكتسب قلوديس في ذاك العصر شهرة وشأناً خارقين للعادة . ومن الأسباب التي سهلت له هذه الفتوحات هو أن الغالين والرومانين كانوا على مذهب الكاثوليك وأما الغوتيون والبورغونيون فكانوا على مذهب (أريان) . وكلمة الكاثوليك معناها مذهب الجماعة العيسوية الذين يذهبون إلى أن جوهر الأب والإبن واحد ويقولون بالوهية عيسى ، ومذهب الأريان نشره الأسقف أريوس في الإسكندرية سنة ٣٠٠ عيسوية ، فكان الذين اتبعوه يقولون إن الله تعالى هو الخالق وأن روح الله مخلوق وروح الله معناه كلمة الله . بمثابة روح سيدنا عيسى عليه السلام وجسده قولنا كسائر أجساد بني آدم . ويقولون إن روح القدس هو جوهر آخر . والحاصل أنهم كانوا يذهبون إلى القول بالتوحيد ، على أنه وإن كان في المجلس المذهبي الذي عقد من الأساقفة في مدينة أزيق سنة ٣٢٥ عيسوية رد مذهب أريوس بأكثرية الآراء إلا أنه بقي عدد عديد في الأستانة متمسكاً به وكثير من الأساقفة في الممالك الغربية أيضاً بقي تابعاً له . ثم بعد ذلك ترك هذا المذهب من مذاهب النصرارى وذلك قبل الاعتقاد بالأقاليم الثلاثة في كل مكان فلما جاءت طائفتا غوت وبورغون إلى غاليا كانتا على مذهب (أريان) وكان قلوديس كاثوليكياً كالغاليين والأيثاليين فلذلك كانت أميالهم منصرفة إلى أنه يكون مؤيداً

غالباً. وقد حل لقلوديس الظفر في كل مكان حتى إنه في زمن قليل وسع حكومة طائفته الصغيرة توسيعاً كبيراً ثم نقل عاصمة حكومته إلى مدينة باريس، وتوفي بها سنة ٥١١ ميلادية، فخلفه أولاده من بعده وساروا على أثره ففتحوا عدة أماكن في جرمانيا وضبطوا مملكة البورغونيين. وزيادة على ذلك فإن الغوتيين الذين كانوا يحكمون في إيطاليا تركوا لهم سنة ٥٤٠ للميلاد ولاية برودانس يعني مرسيليا التي كانت في تصرفهم، وبذلك دخلت ممالك غاليا وقطعة من جرمانيا في حوزة دولة الإفرنج.

وفي أثناء ذلك شرع أيضاً جوستينيانوس قيصر إستانبول^(١) الذي ابتنى أياصوفية في محاربة دولة غوت الموجودة في إيطاليا فلأجل أن يستجلب لجهته الإفرنج تخلى للموكمهم عن حقوقه التي كان يدعيها في غاليا. وقد امتدت هذه الحروب مدة طويلة وكانت الغلبة للقيصر فضبط إيطاليا سنة ٥٥٥ ميلادية وجعلها تابعة إلى إستانبول.

وبعد أن جمع جوستينيانوس قوانين قياصرة رومية في كتاب مخصوص جمع أيضاً ما يتعلق بالمواد الحقوقية من تأليف رومية المشهورة ولخصها ورتبها تأليفاً واحداً في غاية النفاسة، وكان هذان الكتابان معتبران لدى كل إمبراطور في الشرق، غير أنهما لما كانا باللغة اللاتينية وكان أكثر أهالي الدولة الشرقية لا يعرفون غير اللسان اليوناني ترجمت خلاصتهما سنة ٩٦٠ ميلادية إلى اللغة اليونانية وصارت هذه الخلاصة بعد ذلك دستوراً للعمل بين الأروام.

أما جوستينيانوس فإنه فضلاً عن كونه أبرز مثل هذه الآثار المعبرة للوجود استولى على إيطاليا التي كانت وطناً لقياصرة الروم القدماء كما ذكرناه وألحقها بمملكه وعين عليها والياً يلقب (أقسارق). ثم في سنة ٥٦٨ ميلادية جاءت طائفة

١- جوستينيان الأول: (٤٨٣-٥٦٥م) إمبراطور بيزنطي. حارب الوندال في إفريقيا، والقوط في إيطاليا وكان أقل نجاحاً في محاربة الفرس. شيد كنيسة أياصفويا الشهيرة في القسطنطينية. الموسوعة العربية الميسرة ص ١٩٩١.

لومبارد إحدى طوائف جرمانيا إلى إيطاليا فتغلبت على أقسارق وظهرت في إيطاليا حكومة لومبارد وجعلت مدينة باديا حاضرة حكومتها. لكن حيث إنها لم تتمكن من ضبط إيالة أقسارق الواقعة في سواحل إيطاليا بقيت هذه الإيالات مع أطراف مدائن البندقية ورومية ونابولي وجزيرة صقلية في تصرف قيصر استانبول، غير أن نفوذ أسقف رومية الروحان كان يزداد ويترقى قوة يوماً فيوماً.

وذلك لأنه لم يكن قط رئيس روحاني عمومي للدين العيسوي في بدء ظهوره، بل كان ينتخب أحد الشيوخ رئيساً لمناظرة الأمور الدينية للجماعات المتألفة خفية في أماكن متعددة، ثم أطلق على من كان ينتخب من الجماعات الكبيرة للرئاسة على الجماعات الصغيرة اسم أسقف. غير أن أسقف رومية نظراً لكونه خليفة بطرس أحد الحواريين على ما تقدمت الإشارة إليه كان له مزيد اعتبار عن سائر الأساقفة. ومع ذلك فإنه كان لا يتدخل في مسائل الحكومة في عصر الامبراطورين وفي أيام حكام جرمانيا. ولا سيما بعد قسطنطين فإن الامبراطورين الذين خلفوه علموا ميل أسقف رومية إلى الاستقلال فأوقفوه عند حده حتى أنهم أناطوا عقد المجالس الدينية بالإذن منهم، ثم بعد ذلك صار أكثر الامبراطورين لا يستقرون في مدينة رومية بل اتخذوا مدناً أخرى كميلان حاضرة لحكومتهم، وكذلك عندما ألحقت بلاد إيطاليا على ما سبق بيانه بقيصر استانبول أخذ الولاية التليانيون المتولون بعنوان أقسارق يقيمون في مدينة روانه، ولم يبق للمأمورين الملكيين المقيمين في رومية أهمية ولا اعتبار في نظر العموم، وصار الأكبر والأكثر اعتباراً الريم بابا أي أسقف رومية، فكان مرجع جميع الأمور إليه. والحاصل أن تساهل قياصرة استانبول والضعف الذي كان يطرأ تدريجاً على دولة رومية الشرقية لم يجعل لهم وقتاً للنظر في أحوال رومية، فأصبحت مدينة رومية كأنها قائمة بنفسها. أما لفظ بابا فهو مأخوذ من كلمة باباس اليونانية ومعناها أب وكانت تطلق على جميع الأساقفة غير أنها بعد ذلك

صارت مخصوصة بأسقف رومية. وفي نحو سنة ٦٠٠ ميلادية أخذ بعض الأساقفة يعلنون أن الريم بابا خليفة الله. أما الذي رتب ونظم الطقوس الكنسية والمراسم وأيام الأعياد والأدعية والألبسة المخصصة بالكنيسة فهو البابا غريغوريوس المشهور الذي تولى مسند البابوية من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٦٠٤ ميلادية، وتأسس الدين العيسوي في عصره على حسب مطلوبة وانتشر انتشاراً كلياً في أوربا وحصل مسند البابوية على اعتبار كلي ورونق بهي. على أن بطريك إستانبول عاصمة القيصر التي هي منشأ إعلان الدين العيسوي وانتشاره كان يدعى أنه يفوق على البابا ولم يتحمل أن يكون البابا مرجع الأنام والأساقفة. إلا أنه في خلال ذلك كانت الدولة الشرقية في مزيد الغوائل بحيث لم يكن لها وقت يمكنها من النظر إلى أمور رومية. خصوصاً لوقوع الحرب بين كسرى وقيصر بعد سنة ٦١١ ميلادية وظهور الغلبة لعساكر الفرس، الذين استولوا على مدن أنطاكية ودمشق والقدس فإن كسرى كان في أفكاره أن يحيي من هذه الأماكن آثار الدين العيسوي بالكلية لأن يقيم في مكانه الدين المجوسي.

والحال أن هذا العصر كان عصر السعادة المحمدية حيث نزل فيه القرآن الكريم آية فآية وكان صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم يدعو الخلق إلى اتباع الشريعة الأحمدية البيضاء أنذاراً وتبشيراً وتطهيراً للعالم من أدناس الشرك وأدراجه. أما لاروم فمع كونهم داخلين في هذه الدعوة فإنهم أقرب إلى الإسلام نظراً للأمر الجامع وهو كونهم من أهل الكتاب خلافاً للدولة الفرس التي كانت مأوى المشركين، فإن الفرس اغتروا بتغلبهم في حدود بلاد العرب مما يلي سورية على الروم الذين هم من أهل الكتاب ففرح المشركون بنصرتهم على الروم وشمثوا بالمسلمين، وقالوا لهم إن إخواننا قد انتصروا على إخوانكم فنحن كذلك لا بد أن نغلبكم فكان كلامهم هذا ثقيلاً على مسامع خاتم الأنبياء عليه أكمل التحيات فنزلت الآية الكريمة ﴿الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون

في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله^(١) . وعلى ذلك خاطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه المشركين ، قائلاً : إن الله لا يقر لكم عيناً ولا شك إنه سيعطي النصر للروم فيتغلبون على الفرس في بضع سنن فعارضه من بينهم أبي بن خلف وكذبه وقال له : عين لما تدعيه وقتاً فإني أدخل معك في البحث . فعين حضرة الصديق مدة ثلاث سنين وعقد شرطاً على عشرة من الإبل ثم عرض الكيفية لحضرة سيدنا الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم فتفضل بأن أوضح له أن لفظة بضع هي ما بين الثلاثة والتسعة فجدد حضرة الصديق البحث والشرط وأبلغ الثلاث إلى تسع ، والجمال إلى مائة وفي الواقع فإنه في سنة ٦٢٢ ميلادية أرسل هرقل^(٢) قيصر إستانبول عسكرياً في البحر إلى جقور أده فتغلب على الفرس في أطراف إياس ثم أرسل في السنة الثانية عسكرياً في البحر إلى طرابزون فسار إلى تبريز وكان هناك مظهراً للظفر العظيم ثم استرد الممالك الشامية ونال الظفر أيضاً في وقعة جرت بأطراف الموصل وتقربت العساكر الرومية إلى عاصمة كسرى ، وقد صادف ظفر الروم في مصالحة الحديدية وظهر النصر الإلهي الذي وعد به وبشر في الآية الكريمة المذكورة آنفاً المشار فيها ببضع سنين . وكان أبي بن خلف هلك قبل ذلك فأخذ أبو بكر الصديق رضي الله عنه المائة جمل التي عقد عليها الرهن من ورثته وأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتصدق بها ففعل .

فعلى الوجه المشروح خربت ممالك الروم والفرس في الحروب المذكورة وصارت الاثنان إلى حالة الضعف وانتقلت قوتهم إلى القوة الإسلامية التي كانت تستعد في بلاد العرب لمحوهما . هذا مع أن كل واحدة منهما كانت توازن الأخرى من حيث القوة ولم يخطر في بالهم وقوعهم في خطر جديد من قوة دولة أخرى قريبة مقبلة عليهم .

١ - سورة الروم الآيات (١-٤) .

٢ - هرقل الأول أو هيراكليوس : إمبراطور بيزنطي (٦١٠-٦٤١م) . قاهر الفرس ، فشل في وقف الفتح الإسلامي العربي فتخلى عن سوريا وفلسطين وما بين النهرين ومصر . المنجد ص ٥٩٥ .

أما دولة الإفرنج فإنها وإن بلغت مبلغاً من الترقى في زمن أبناء قلوويس كما ذكرناه، إلا أنها في زمن أحفاده صارت إلى أسوأ حال من الاختلال والاعتلال، فعقد الإفرنج مجلساً سنة ٦١٣ ميلادية للمباحثة في ملافاة هذه الأحوال فانتخبوا ثانياً رجلاً من عائلة أمراء مردونيچ ملكاً على فرنسا غير أن هذه السلالة لم تكن نافعة بشيء. فبقي حل الأمور وعقدها بيد وكيل الدولة المتولي بعنوان مدير الرأي وهو من أبناء البيوت المعتبرة من النبلاء فنال هؤلاء وجهة نفوذاً فحصلت بينهم المنازعات والشحناء فآل أمر دولة الإفرنج إلى حالة سيئة وشق بعض الطوائف الجرمانية التابعة لها عصا الطاعة وجاهروها بالعصيان.

وفي ذلك الأوان انتشر الدين العيسوي في كل الأطراف وترك من كان في أوربا من الوثنيين عبادة الأصنام وصاروا عيسويين. ولما كان أساس الدين هو ترك عبادة الأصنام فوجود الصور والأصنام في كنائس العيسويين مع احترامهم لها وتعظيمهم إياها قد أوقع استغراب المسلمين وأخذوا بالاعتراض على ذلك، فخلج قيصر إستانبول ليون عندما بلغه ووضع في سنة ٧٢٦ ميلادية قانوناً يمنع به تعظيم الصور والأصنام منعاً قطعياً وأمر بأن تكسر جميعها. ولما جرى التشبث بإجراء هذا القانون في إيطاليا أيضاً خالف البابا في قبوله وبناء على مخالفته خالف أهالي رومية وروانا أيضاً وقتلوا والي إيطاليا وطردوا، غيرة من المأمورين القيصريين فقبلت أهالي روانة اللومبارديين في بلدتهم ودخلت أهالي رومية في صفة جمهورية فعينت البابا مديراً عوضاً عن مأمور الملكية في رومية. فمن هنا نشأت حكومة البابا الجسمانية، غير أن البابا كان شديد الخوف والاحتراز من اللومبارديين فلم ير من المناسب أن يخرج عن طاعة القيصر فأغرى جمهورية البندقية على اللومبارديين وبواسطتهم خلّص مدينة روانة من أيديهم وسلّمها للوالي الجديد الذي عينه عليها القيصر. فلما انحل مسند البابوية بعد ذلك بايع البابا الجديد للقيصر بعد أن جعل والي روانة يصدق عليه. ثم أرسل إليه مكتوباً

شديد اللهجة في أمر القانون المذكور والأهالي استدعوا أيضاً إبطاله، فامتعض واستاء من ذلك وأرسل على روانه أسطولاً فدافعه الأهالي، وحيث لم ترسل قوة عسكرية ثانية خمدت نار المنازعة في إيطاليا وأصبحت مدينة رومية مع توابعها تحت رئاسة البابا. أما هذه المنازعة فقد استمرت زمناً طويلاً في الدولة الشرقية فإن إكراه الناس على ترك عاداتهم من أصعب الأمور وفي النهاية أبطل القانون المذكور وأذن للكنائس في الممالك الشرقية أن تعود إلى سابق عاداتها من تعظيم الأصنام والصور وبمثل هذه الوسائل ازداد نفوذ الباب ترقياً ورفعة.

[أوروبا بعد ظهور الإسلام]

وفي هذا العصر كانت سطوة الإسلام أرسلت أشعة شمسها على الآفاق فأدعن لها أهلها في مدة الخلفاء الراشدين والدولة الأموية بعدها ودخل ما لا يتصوره العقل من الممالك في الطاعة وتجاوزت جيوشهم البحر إلى بلاد أوروبا فحاصرت استامبول فلم تتمكن إذ ذاك من فتحها، فعادت إلى سورية. أما الفرقة الإسلامية التي كانت في أفريقيا فقد عبرت خليج جبل طارق إلى الأندلس وفازت في تلك الجهة من أوروبا بفتوحات عظيمة، وإلى سنة ١٢٠ من الهجرة النبوية دخلت في حوزة أهل الإسلام فضلاً عن الأناطولي جميع الممالك الواقعة بين الهند وسمرقند ومصر، ومنها إلى البحر المحيط وجميع ممالك أسبانيا والبرتغال وإيالة من فرنسا، وكانت الدولة الإسلامية أكبر من دولة الإسكندر الكبير فإن أهل الإسلام استولوا في مدة ٨٠ سنة على أماكن تزيد عن الأماكن التي فتحها الرومانيون بثمانين قرناً. وكان الإفرنج إذ ذاك مكرهين على تأديب الطوائف الجرمانية التي جاهرت بالعصيان عليهم ولكن دخول العساكر الإسلامية إلى ممالك فرنسا من جهة أخرى كان يشوش عليهم.

وبناء عليه وصلت دولة الإفرنج إلى حالة الخطر. وفي ذلك الأثناء ظهر شارل مارتل من رعايا الناس فقبض على زمام منصب مديرية السراي وأدخل الطوائف الجرمانية العاصية إلى دائرة الطاعة فاضطرت العساكر الإسلامية التي كانت دخلت في أواسط فرنسا إلى الرجوع فحافظ حيثنذ على حدود دولة فرنسا، وذلك أنه سنة ١١٤ هجرية وقع بين عبد الرحمن^(١) أمير العرب أمام مدينة بواتيه من فرنسا وبين شارل مارتل محاربة عظيمة قيل إنه تلف فيها ١٢٠ ألفاً من الطرفين فغلب المسلمون في هذه الحرب فكان ذلك مانعاً من زيادة القوة الموجودة في الشرق في ذلك الوقت فأخذت تتقدم إلى ديار الروم.

واتحد أهالي إيالة مرسيليا مع الإسلام فراراً من متابعة الإفرنج واستولى المسلمون وقتئذ على جميع المدن من مرسيليا إلى ليون، غير أن شارل مارتل استردها وأدب أهاليها.

وعلى ذلك لم يبق في يد ملك الإفرنج شيء فبقيت أمور الدولة في يد شارل بالاستقلال مع أنه لم يلقب بلقب ملك وإنما ترك ذلك لأولاده، فلما توفي ظهر على أثره ابنه بين، وكان لم يزل باقياً إلى ذاك الحين بعض طوائف في جرمانيا من عبدة الأصنام فمحا كثيراً من حكوماتهم الصغيرة بقصد دعوتهم إلى الدين العيسوي وألحق ممالكهم بدولة الإفرنج، ولم ينقصه من وظائف الحكم غير عنوان ملك. ثم تخابر مع الأساقفة وأعيان الشعب فنال موافقتهم ورضاهم وخابر البابا بذلك خفية فأرسل إليه يقول أليس أولى لمن يقوم بوظائف الملك أن يسمى ملكاً

١- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي: أمير الأندلس، من كبار القادة الغزاة، أصله من غافق في اليمن. تاهب لفتح بلاد الغال (فرنسا)، فاجتاز بالمسلمين جبال البرانس، والتقى بقائد الغال شارل مارتل في معركة بواتيه (بلاط الشهداء) واستشهد فيها رحمه الله سنة ١١٤ هـ. الأعلام ٣/٣١٢.

فجاءه الجواب الإيجابي على سؤاله، وفي سنة ٧٥٢ للميلاد و١٣٤ هجرية أعلن ملكيته، وأرسل الملك الرسمي الذي كان من آل مروونج إلى أحد الأديرة فظهرت في فرنسا على هذه الصورة الملكية الثانية من آل كارلوتيج.

وفي أثناء ذلك انقرض الخلفاء الأمويون وظهر الخلفاء العباسيون فكان ظهور دولة كبيرة في الشرق ودولة أخرى كبيرة في الغرب بعصر واحد يعد من غرائب الاتفاق.

وفي هذا الأوان استولت دولة لومبارديا السالفة الذكر على إباله أقسارق التي كانت في حوزة قيصر استامبول، فعزمت على أن تستولي على رومية بدعوى أنها من ملحقات هذه الإيالة فاستمد الريم بابا من متبوعه إذ ذاك قيصر إستامبول غير أن حصول المشاكل الخارجية والمضايقة الداخلية في الدولة الشرقية منع القيصر من إمداده، فسافر البابا بالذات إلى فرنسا طالباً مساعدة بين، ولما كان هذا الرجل قد حاز لقب الملكية جديداً والأهالي يعتبرونه مغتصباً لتخت الملك فوافقه على هذا الطلب مع كمال المنة، وعده وسيلة حسنة لإظهار أن حكومته مشروعة، وكذلك البابا فإنه في مقابلته إياه عامله تأييداً لملكه بإجراء المراسيم الدينية كما أجراها مع زوجته وأولاده، وأعطاه لقب حامي مدينة رومية معلناً أنه يلحن كل من يخالفه ولا يكون صادقاً في طاعته. وبين أيضاً وُضِعَ في مجلس دولته أصولاً تقضي بحضور فرقة من القسس فيه مكافأة لهم. وبناء على ذلك ساق العسكر على إيطاليا واسترد إباله أقسارق من يد اللومبارديين فطالبه قيصر إستامبول بردها فلم يسمع له بل أحسن بها مع مدينة رومية للبابا.

وعلى هذه الصورة دخل البابا سلك الحكام ثم ازداد بعد ذلك نفوذه وقويت

في أوروبا أفكار التعصب وصارت إيطاليا تتفرق على التوالي وانقسمت إلى حكومات صغيرة .

وبعد محاربة لومبارديا المذكورة دخلت دوقية بافاريا الواقعة في جرمانيا تحت حماية بين وصار نفوذ دولة الإفرنج واعتبارها في غاية من الرفعة والترقي ، حتى أن أهل الإسلام الذين كانوا استولوا على بعض ممالك فرنسا الجنوبية اضطروا أن ينسحبوا إلى أسبانيا ، وصارت جميع بلاد فرنسا في قبضة تصرفه .

أما الدول التي بنتها الطوائف الجرمانية من أنقاض دولة رومية فقد انقرض أكرثها ولم يبق منها في حالة القوة غير دولة الإفرنج التي هي أيضاً لم تنتظم أمورها بسرعة بحيث إن الدول التي كانت في عصر بين أكبرها وأكرثها انتظاماً الدولة الإسلامية ودولة قيصر إستمبول .

لا يخفى أن الشام كانت عاصمة الخلفاء الأمويين وهي واقعة في وسط الممالك الإسلامية ، فكانت إدارة سائر الأطراف منها في غاية السهولة ، ولم ينتبه الخلفاء العباسيون لذلك فغادروها واتخذوا بغداد عاصمة الملك ، فصار أهالي إسبانيا والمغرب بالنظر إلى بعد العاصمة عنهم في عدم الراحة ، فاتصل بهم أن عبد الرحمن من نسل الأمويين جاء إلى المغرب فاستدعوه سنة ٧٥٥ ميلادية و١٣٨ هجرية وتولى الخلافة فيهم ولذلك انقسمت الملة الإسلامية إلى خلافتين ، حيث ظهر في جانب الغرب مشارك للخلافة العباسية أن يتخذوا لأهالي أفريقيا سياسة ملائمة ويعاملوهم معاملة تستميلهم إليهم فلما شاهد الإفريقيون ذلك أخذوا يقلدون أهل الإسلام الموجودين في أسبانيا ثم ظهر أيضاً في أفريقيا عدة حكومات مستقلة كبني إدريس وبني الأغلب وهؤلاء وإن كان بعضهم تابعاً

للخلافة العباسية إلا أنهم قطعوا روابط التبعية بعد زمن قليل ، ومع هذا التفرق الذي وقع في الملة الإسلامية فإن الخلافة العباسية كانت أول دولة في ذاك العصر .

وفي سنة ٧٦٨ ميلادية مات بين فتولى مكانه ابنه شارلمان ^(١) ، فمحا دولة لومبارديا وصار على حدود قيصر إستانبول ثم لبس تاج تيمور الخاص بملوك لومبارديا بمعرفة البابا وصدق على ما كان والده وهبه للبابا من الممالك مضيفاً إليها وملحقاً بها أماكن أخرى . وبعد ذلك أعطى للباباوات من الحكمدارين بعض أماكن أيضاً ، والبابات كذلك اشتروا غيرها فاتسعت بهذا السبب حكومة الباباوات الجسمانية . وقد اشتغل شارلمان نحواً من ثلاثين سنة حتى تمكن من أن يقود طوائف الساقسون التي كانت في جرمانيا مستمرة على عبادة الأوثان إلى الانخراط في الدين العيسوي شيئاً فشيئاً على أنه في أثناء اهتمامه وشغله بالساقسون ، ظهرت منازعة بين أهل الإسلام الموجودين في إسبانيا ، فالتمس بعضهم مساعدتهم فسار بعسكره إلى إسبانيا وكان هناك أيضاً مظهراً للفوز والنصر إلا أنه اضطر إلى العودة إلى جرمانيا بسبب تجدد غائلة الساقسون . ثم عندما ابتدأ الإسلام من إسبانيا بالدخول إلى فرنسا والغارة على مملكته رأى من اللازم الاستيلاء على بعض مدن من الدولة الأموية الموجودة في إسبانيا تأميناً لحدوده في شن الغارة فأرسل ابنه لؤي إلى تلك الجهة واستولى على المملكة الممتدة إلى نهر أبرو ، ثم استولى سنة ١٨٤ هجرية على مدينة بارشلونة أيضاً .

١ - شارلمان أوشارل الأول الكبير (٧٤٢-٨١٤م) : ملك الإفرنج إمبراطور الغرب . مؤسس السلالة الكارولية . جعل أكس لاشايل (آخن) عاصمة له ، وأقام علاقات تجارة مع الشرق . المنجد ص ٣٢٧ .

أما شارلمان فإنه رغبة في حماية العيسويين الموجودين في الممالك الشرقية الإسلامية وخصوصاً زائري القدس الشريف أرسل إلى بغداد سفراء يستجلبون رضى وتوجهات هرون الرشيد^(١) أحد الخلفاء العباسيين الذي كان معاصراً له، وكذلك هرون الرشيد فإنه اقتضاء لمصلحة السياسية وإرادة أن يجعل أوروبا من جهته فيقوى بها على الدولة الأموية التي ظهرت في الأندلس كما سبق البيان رقية للخلافة العباسية، بعث إلى شارلمان سفيراً يحمل شيئاً من الهدايا، فبناء على ذلك كان شارلمان يظهر الجميل إلى هرون الرشيد في الأندلس على الوجه المشروح على فتوحاته. وآمال شارلمان لم تكن منصرفة إلا إلى أن يجعل دولته متقدمة على دولة القيصر في إستانبول فلذلك كان مسروراً في الفوز الذي ناله هرون الرشيد في ذاك الأوان على قيصر إستانبول فلذلك قابل بمزيد الإكرام السفير الذي قدم من جانب هرون الرشيد في المرة الثانية. وفي ذاك العصر لم تكن تأسست دول روسيا وبروسيا وأوستريا، وأما انكلترا فكانت منقسمة إلى حكومات صغيرة. وأما ممالك الفلمنك وبلجيكا وسويسرة فإنها كانت معدودة من إيلات دولة الإفرنج، وأما ولايات الدانيماركة وأسوج ونروج والونديك وله، فإنهم كانوا حكومات صغيرة وكانوا مشغولين بالقرصنة، فلذلك كان الدول الذين هم على المدنية الصحيحة هم الإسلام ودولتا الإفرنج وإستانبول لا غير .

وقد اكتسبت دولة الإفرنج بما ضم إليها شارلمان علاوة على الممالك التي ورثها عن أبيه قوة وجسامة على دولة قيصر استانبول وفاق الإفرنج بالشهرة على سائر أقوام أوروبا. أما كلمة فرانق فهي باللاتينية فرانس، وقد زاد العرب على أولها ألفاً وعلى آخرها جيماً فصارت عندهم أفرنج. والتعبير الموجود عندنا بإطلاق لفظة فرنج على الأورباويين وبلاد الإفرنج على ممالك أوروبا مأخوذ من هنا .

٢- هارون الرشيد: الخليفة العباسي الخامس (١٧٠-١٩٣هـ) من أشهر الخلفاء العباسيين، حارب البيزنطيين. قامت علاقات بينه وبين شارلمان ملك الإفرنج. ازدهرت في عهده التجارة والعلوم. المنجد ص ٥٨٩.

والحاصل أن شارلمان صار أكبر حاكم في أوروبا غير أن عنوان دولة استانبول كان أكبر من عنوانه، فإنه تقدم لنا القول أن عنوان لفظة قيصر وامبراطور في قوة الاعتبار يستعملان مقام السلطان وملك الملوك، ولفظة قيصر كانت مشهورة في جرمانيا، كما أن لفظة امبراطور كانت مشهورة في غيرها من أوروبا، فهذا العنوان منذ القديم كان له اعتبار كبير عند الناس إلا أنه كان مخصوصاً في ذاك العصر بقيصر استانبول ليس إلا. على أن شارلمان لما كان متصرفاً بأهم ممالك امبراطورين رومية القدماء كان ذا أمل بالحصول على هذا العنوان. فاتفق وقتئذ أن البابا أهانه بعض أعدائه في أحد الأيام الرسمية وحبسوه في أحد الأديرة، فتملص البابا من الحبس وذهب بذاته إلى شارلمان وهو إذ ذاك كان في جرمانيا يرجوه تأديب متهميه، فسار شارلمان على الفور إلى رومية إيفاء لوظائف الحماية.

وفي سنة ٨٠٠ ميلادية كان قاعداً على ركبتيه بين يدي البابا فألبسه التاج بمراًى كثير من الناس، فنادوا بأعلى صوتهم فليعيش امبراطور رومية، وبعد لبسه التاج أظهر البابا خضوعه إلى الامبراطور. وبهذه جددت امبراطورية الدولة الغربية وأحييت، فصار شارلمان معدوداً أكبر حاكم جسماني على أن يكون حامياً للأمة العيسوية جميعاً، وكذلك البابا فإنه صار أكبر رئيس روحاني إذ صار له الحق بتلييس التاج إلى الحكام. وعلى هذا الوجه انفصلت رومية بجملتها عن قيصرية استانبول.

ولما كان تجدد الامبراطورية الغربية وإحيائها سبباً لقصور وقع في نفوذ قيصر استانبول، وترقي نفوذ البابا وعلو شأنه على هذا الوجه، آخر نفوذ بطريك استانبول فكما حصلت مباينات الحكومة الجسمانية بين مدينتي استانبول ورومية، كذلك صارت المضادة في المذهب أيضاً، وظهر بعد ذلك بعض اختلافات بينهما في العقائد، فأوجب ذلك في نهاية الأمر انقسام العيسويين إلى مذهبين بعنوان كنيسة الشرق والغرب وسمى التابعون للكنيسة الغربية بالكاثوليك والتابعون للكنيسة الشرقية بالأرثوذكس.

وكان الباباوات في أوائلهم يعرفون بباباوات رومية وينتخبون من الأهالي ولكن يجب التصديق من الامبراطور على نصبهم، حتى إنه يروى أن جوستينيانوس قيصر استامبول أخذ من البابا مبلغاً من النقود لأجل التصديق عليه بابا.

كان البابا سبباً في معرفة ملكية (بن) التي نالها بالغضب بصورة مشروعة كما تقدم الكلام عليه، وكان (بن) هو الذي أدخل البابا في سلك الحكام، فبالنظر إلى كون البابا هو الذي ألبس شارلمان تاج الإمبراطورية مع كون البابا كان يدفع للقيصر نقوداً لأجل التصديق على البابوية، قام شارلمان يناصر الباباوات وأوصلهم إلى درجة أنهم يلبسون الامبراطورين التاج، وبعد ذلك بلغ الباباوات مرتبة من النفوذ والاقتدار إلى أن صاروا يتهددون الملوك العيسويين. وبعض الامبراطورين كانوا يستغنون عن التصديق على الامبراطورية، فكان الباباوات يحرمون من لا يوافقهم على مرامهم منهم ومن الملوك والأمراء، وكان الذين يقعون تحت الحرم أي (لعتلمه)^(١) يحرمون أشياء كثيرة من المذهب ويسقط اعتبارهم ولا يخالطهم أحد، وبعضهم كانوا لغرض ما يسودون صحيفة بعض أهل العرض في انظار العامة وبهذا السبب كان الملوك والأمراء مجبورين على خدمة أغراض البابا طوعاً أو كرهاً.

وكان ظهور دولة الإفرنج مشابهاً لظهور العثمانيين، وكيفية تأسيس دولة شارلمان نظير تأسيس الدولة العثمانية، إلا أن شارلمان مع كونه متصرفاً في أهم ممالك دولة رومية الغربية لم يتسن له أن يتخذ رومية عاصمة له. وأما السلطان محمد خان الفاتح فإنه كان متصرفاً في جميع ممالك دولة الروم الشرقية واتخذ عاصمتها عاصمة له، والإفرنج قاموا أكثر من ٣٠٠ سنة حتى وصلوا إلى المرتبة

١ - لعتلمه: كلمة تركية بمعنى اللعن والطرده. الدراري اللامعات ص ٤٩٤.

التي ذكرناها، وأما آل عثمان فإنهم نالوا مقصودهم في مدة ١٥٠ سنة وزد على ذلك فإن السلاطين (آل عثمان) كانوا جامعين بين السلطنة والخلافة وأما أمراء قارلويج^(١) فإنهم خلطوا الحكومة الجسمانية بالرئاسة الروحانية وسلموها للبابا، فحكم أوروبا سلموا أنفسهم في يد البابا.

وقوم الإفرنج عندما جاءوا من جرمانيا واستولوا على غالبا بقيت أكثر الأراضي في تصرف الملوك، وما فضل منها انقسم بين العسكر بالاقتراع، ومعلوم أن الأراضي التي تقسم بالقرعة يتصرف فيها تصرف الملك، أما الأماكن العائدة للملوك فإنها تحسب من قبيل الأراضي الأميرية، ولذلك كان يعطى مقدار منها إلى بعض الذوات على وجه المكافأة، ويشترطون في ذلك مدة حياتهم، فإذا مات أصحابها تعود ثانية إلى الميري، غير أنها صارت بعد ذلك تنتقل من يد إلى أخرى أحيانا برضى الملوك وأحيانا بالإجبار. وعلى ذلك فهذه القضية أصبحت في فرنسا مسألة حيرة ونزاع أما (بين) فقد صار مجبوراً لغض الطرف عن بعض الامتيازات التي اغتصبوها بغير حق، وذلك لجلب أصحاب الأراضي وتأليفهم ستراً للحال، وبهذا اكتسب ذوو البيوت الشريفة قوة تزيد عن الأول وصار نفوذهم يترقي ويقوى يوماً فيوماً.

وفي زمان هرون الرشيد بلغت الدولة الإسلامية إلى أطراف هندستان وتاتارستان في ما وراء النهر، وكذلك شارلمان أيضاً فإنه استولى على ممالك فرنسا وإيطاليا وألمانيا بجملتها إلى حد لهستان ومجارستان وإيزغلاونيا، وأسس ومهد في أوروبا دولة عظيمة، وجدد امبراطورية رومية القديمة على المنوال المشروح. وحيث أنه كان دائم الفكر والقلق من هجوم أهل الإسلام عليه أخذ من جهة يحارب الخلفاء الأمويين الذين جددوا الدولة الإسلامية في الأندلس، ومن

١ - قارلويج (كارولنجيون): أسرة من الحكام الفرنجة. أسسها في القرن السابع الميلادي (ببين) أمير لاندن. توج ابنه شارلمان امبراطوراً، وبلغت الأسرة في عهده أوجها. الموسوعة العربية الميسرة ص ١٤٢٣.

جهة ثانية كان يسعى في تمكين علاقات المودة والاتفاق بينه وبين عدوهم هرون الرشيد حاكم ذلك العصر من الخلفاء العباسيين .

وكانت الوحشة والنفرة إذ ذاك متمكنة بين الملل الشرقية والملل الغربية وأنوار العلوم والمعارف خامدة بل منطفئة من أوربا بالكلية، وذلك لأنها بانقراض الرومانيين انقرضت واندرست، وكذلك فإن الجرمانيين أنفسهم كانوا في حالة البداوة، فظلت أوربا بأسرها في ظلمات الجهل . أما الخلفاء العباسيون فإنهم كانوا مهتمين غاية الاهتمام بنشر العلوم والمعارف، كما أن الخلفاء الأمويين في الأندلس كانوا يصرفون مساعيهم وعنايتهم في هذا الخصوص أيضاً فسعى شارلمان سعيًا كلياً في إصلاح وتجديد أصول وقوانين دولته مقلداً هرون الرشيد في نشر العلوم والمعارف، وفي كثير من الأحوال والأطوار كان يجتهد في ترويجها في أوربا إلا أنه لم يوفق لذلك، فظلت أوربا في حال الجهالة إلى عصر الحروب الصليبية التي سنأتي على بيانها أدناه .

فبناء على ذلك كان فن الطب في تلك الأزمنة في بلاد الإفرنج بيد اليهود الذين حصلوا العلوم في الممالك الإسلامية وساروا بها إلى بلاد الإفرنج، فانتخب شارلمان من هؤلاء اليهود رجلاً يقال له إسحاق وأرسله إلى هرون الرشيد برسالة مصحوباً ببعض الهدايا، وبعد أربع سنين حين كان شارلمان في مدينة روانه التي كانت حينئذ بمثابة عاصمة لا يتاليا عاد إليه إسحاق مع ثلاثة أكابر من أمراء هرون الرشيد ومعهم هدايا وهي ساعة وراغنون^(١) وفيل وبعض أقمشة نفيسة، فلما نظرها جهلاء الإفرنج ظنوها من الأمور السحرية وأوقعتهم في الحيرة والتعجب، حتى أنهم هموا على كسر الساعة فمنعهم الامبراطور . وفي ذاك التاريخ اتفقوا على أمور تتعلق بحماية المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة القدس الشريف .

١- في النسخة التركية أرغنون، وهي كلمة إفريقية مستخدمة في اللغة التركية بمعنى آلة موسيقية. الدراي اللامعات ص ١٧ .

وبينما كانت دولة شارلمان تحتوي علي نصف أوربا وبلغت قوتها مرتبة الكمال، قام أهالي الدانيمارك وأسوج ونوريغ الذين اعتادوا على القرصنة والتجول في البحار والأنهار واشتهروا باسم (نورمان) أي رجال الشمال فدخلوا في ذاك العصر ممالك الإفرنج ورموها بالخسائر، فتأثر في ذلك شارلمان تأثيراً عظيماً، حتى روي أنه بكى وذلك لأنه كان يعتقد أنه مهد الأمن والراحة في جميع الأطراف، وأحكم روابطها بعد أن تحمل المشقات والمحن، فلما ظهر ما ظهر تأثر.

وفي سنة ٨١٤ ميلادية توفي شارلمان، فجلس مكانه ابنه لوير وبعد أن ساس الحكومة مدة ٢٦ سنة سياسة حسنة قُضي عليه، فانتشبت على أثر وفاته حرب عظيمة بين أولاده الثلاثة تلعف فيها نحو من مائة ألف مقاتل، فلأجل ذلك عقد أصلاؤهم مجلساً تقرر فيه تقسيم دولة الإفرنج بين الإخوة الثلاثة، فتميزت دولة ألمانيا يعني جرمانيا وإيطاليا وفرنسا كل دولة على حبتها. وفي الحقيقة أن دولة الإفرنج التي كانت موجودة إلى ذلك الوقت إنما هي دولة جرمانيا، وكان الحكام المأمورون يتكلمون بالجرمانية متخلقون بأخلاقها وعاداتها. ثم لما مات قسم عظيم في هذه المحاربة من أمراء الإفرنج وعساكرهم وأهاليهم الذين كانوا يتكلمون بالجرمانية غلب لسان غال وعاداتهم في فرنسا. ولسان الغال الذي كان يستعمله الغاليون وقتئذ هو لسان رومية الركيك المختلط أعني لسان اللاتين، ثم أصلح وصحح شيئاً فشيئاً، فصار لسان فرنسا الذي نعرفه الآن. والغاليون والأقوام المختلفة الذين جاءوا إلى غاليا منذ زمن حالة كونهم أخلاطاً تألفوا من أمم الإفرنج وأصبحوا بعد ذلك جميعاً أمة واحدة وأطلق عليهم فرانسيس.

ولما انقسمت دولة الإفرنج بين الإخوة الثلاثة كما ذكرناه بقي عنوان الامبراطور لملك إيطاليا (لوتار) ولكن على كل حال فقد تميز (لوتار) بأخذ باية الامبراطورية، ولم يحصل راحة لهذه الدول الثلاث نظراً لاستمرار العداوة بين

الإخوة الثلاثة، ولما لحقهم من الخسائر من دخول قرصان الشمال المتجولين في البحار والأنهار إلى بلاد فرنسا وألمانيا. وفي أثناء ذلك أيضاً ضيق الإسلام على إيطاليا من جهة البحر حتى إن الأمراء الأغلبين وهم حكام أفريقيا وصلوا بجنودهم إلى رومية وخربوا الأبنية التي هي خارج سورها.

وفي سنة ٨٥٥ ميلادية انسحب لوتار إلى أحد الأديرة بعد أن قسم حكومته بين أولاده الثلاثة فمات اثنان منهم بلا وارث. وقد كان من اللازم أن تبقى الممالك التي كانت بتصرفهما لأخييهما الثالث الحائز رتبة امبراطور رومية وملكية إيطاليا الذي هو لويس الثاني، فأخذ عماء ملك ألمانيا وملك فرنسا الذي هو القسم الأعظم من مملكتيهما واقتسماه فيما بينهما. وعلى هذا التقسيم فالقطعة الواقعة على الشاطئ الشمالي من نهر الرين وإن تكن معدودة من غاليا إلا أنه بسبب كونها كانت مسكونة بالجرمانيين دخلت في حوزة الألمانين، فهي إلى الآن باقية في تصرف دولة بروسيا، والفرنساويون يدعون إنها لهم بالاستحقاق ويريدون أن يجعلوا الحد بينهم نهر الرين.

وفي ذلك الأوان كان العرب الذين يأتون بحراً من الممالك الإسلامية يواصلون الهجوم على إيطاليا من جميع الأطراف، فكان لويس الثاني المذكور آنفاً يطلب الإمداد من عمية، فلم يصغوا لكلامه ولم يلبوا طلبه، فاتفق هو أيضاً مع قيصر استانبول حالة كون القيصر لم يكن مسروراً من نوال لويس عنوان الامبراطورية، ومع ذلك فقد أمده قليلاً، إلا أنه بعد ذلك توقف عن إمداده فظل لويس منفرداً في الأمر يهتم في الحروب الإسلامية والمشاكل الداخلية. وما مر عليه وقت طويل حتى قضى عليه، فألبس البابا تاج الامبراطورية لكلشارلي ملك فرنسا وأجبره أن يمده ليمنع أهل الاسلام عن تعرضهم وتسلبهم المتواصل على إيطاليا، وهدده بأنه إذا لم يرسل مدداً فإنه يسلبه عنوان الامبراطورية ويعطيه

لسواء، ونظراً لاحتياج كلشارلي^(١) إلى قوة الدراهم والجند دفعاً للخسائر التي ألّت بممالك فرنسا من قرصان أهل الشمال الذين كانوا يغيرون عليها مما كان يجبره على مساعدة أهل الشرف، أدى به ذلك إلى وضع قانون يتضمن انتقال الأراضي بالإرث بعد ما كان يتصرف فيها على وجه التغلب.

وكان في زمن الرومانيين يقال لولاية الأيالات دوقه وملتصرفي السناجق قونته، فلما فتح الافرنج غالباً أبقوا هاتين المأموريتين على حالهما، فكان الملك هو الذي يعين الدوقات والقونتات، ويخصص لهم في مقابلة رواتبهم إيراد بعض الأملاك والقرى، وكان يقال لقونتات الحدود ماركي، أي محافظ الحدود أو أمير أمراء الحدود، وقد ساعد كلشارلي في انتقال هذه المأموريات بالإرث، فكان عنوان المأمورية أي لفظة دوقه وقونته وماركي تنتقل بالوراثة ثم صارت عنواناً للمقام. وقد وضع شارل أيضاً قانوناً يتعلق بأن يكون انتخاب الملك من حقوق الأصلاء فكانت الحكومة والحالة هذه بجملتها في يد الأصلاء وأصول الفودلتية (أي أصحاب المقاطعات) بلغت حد الكمال.

أما أصول أصحاب المقاطعات فكانت مشابهة لمعاملة الجفتلكات^(٢) وأصول التيمار والزعامة^(٣) وأرباب الملك التي كانت جارية من قبل في الممالك المحروسة، غير أنه كان يختلف بعضها عن بعض من جهات كثيرة. لأن صاحب الأرض الذي يسمى مالكانة وأصحاب الزعامة والتيمار كانوا يأخذون عُشر أراضيهم وحاصلات الطابو فقط، وأصحاب الجفتلكات يأخذون إجارة الأرض أوحقوقهم بحسب الشركة، ولم يكن لهم حق الحكم على الأهالي أصلاً. وكان

١- في النسخة التركية (كل شارلي): بمعنى شارل الأصلع: (٨٢٣-٨٧٧م)، ابن لويس، انضم لأخيه لويس الجرمانى ضد أخيه لوثير الأول وهزمه، أصبح ملكاً على الفرنجة الغربيين (فرنسا)، وتوج إمبراطوراً في سنة ٨٧٥م. الموسوعة العربية الميسرة ص ١٠٦٣.

٢- جفتلك: كلمة تركية بمعنى مزرعة. الدراري اللامعات ص ٢١١.

٣- تقدم شرحها.

المزارعون في الجفتلكات لهم الحق في المرافعة مع أصحاب الأرض أو مع أغوات الجفتلك عند الحاكم، مع أنه بمقتضى أصول الفيودالية أي أصحاب المقاطعات كان كل واحد من أصحاب الأرض بمثابة حاكم مستقل، ومأذوناً بتحصيل الويركو^(١) ضمن دائرة أملاكهم ورؤية الدعاوي، بل وصلوا إلى حد أنهم كانوا يضربون السكة ويشهرون الحرب على بعضهم بعضاً، فكان كل واحد منهم يغير على أملاك الآخر ظلماً. وهذا مما كان يضطرهم إلى إنشاء القلاع والمستحكات في جفتلكاتهم لأجل الدفاع والتحفظ. وما برحت آثارها تشاهد إلى الآن في أوروبا. وكان مستأجرو الجفتلكات عرضة للمظالم والتعديت ومكلفين لرسومات فاحشة. وكان الحق في الصيد لأصحاب الأراضي فمن اصطاد من المستأجرين أرنباً مثلاً أو حمامة يستحق الإعدام من صاحب الأرض.

وقد تقدم إن كلشارلي قضى بانتقال الأراضي بوجه الإرث، فلما تولى ابنه مكانه فوض ما بقي في يد الحكومة من الأراضي القليلة إلى هذا وذاك ليجعل له حزباً في البلاد. ثم فقدت الأمانة من المملكة حتى صار كل فرد من الأهالي محتاجاً لمن يذب عنه ويحميه، وكان أصحاب الملك أيضاً يعطون أملاكهم طوعاً أو كرهاً لصاحب أرض من ذوي النفوذ ويستأجرونها على أصول الفيودالية طلباً للحماية، وكان كبار الدوقات والقوننتات تحت حماية الملك رأساً وأصحاب الأراضي القدماء تحت حمايتهم، فصار الكبار المذكورون يوجرون قدراً من أراضيهم ببعض شروط معلومة إلى إناس آخرين، وهؤلاء يؤجرون قسماً من هذه الأراضي التي استأجروها إلى غيرهم، فأصبح الكبار حماة لأولئك وهم حماة لهؤلاء. فعلى هذه الصورة كان الملك بالدرجة الأولى حامياً والمزارعون محميين وأصحاب الأراضي حماة من جهة ومحميين من جهة ثانية، بحيث إن

١- ويركو: كلمة تركية بمعنى رسوم وضرائب، الدراري اللامعات ص ٥٢٩.

فرنسا أصبحت مربوطة بحماية متسلسلة، غير أن الدولة لم يبق في يدها شيء من الأراضي، فأصبح الملوك بدون رعية إلا عدداً معلوماً من كبار الدوقات والقوننات والأساقفة، أما أصول الفودالتيه^(١) في ذلك الوقت فقد كانت جارية أيضاً في أماكن أخرى من أوروبا.

وكان سكان أوروبا منقسمين في تلك العصور إلى أربعة أقسام: الأول الحماة من أصحاب الأراضي، والثاني الأحرار في أملاكهم، والثالث المزارعون والأحرار وهم المقاطعون الذين لم يكونوا مقيدين إلا بإعطاء الأجرة لأصحاب الأراضي، والرابع المستبعدون من الرؤساء لتيemor باش^(٢)، أي الذين كانوا يباعون ويشترون مع الأراضي. ففي زمن الرومانيين كان الإنسان يباع ويشتري كسائر الأشياء، غير أن ذلك منع في زمن الإفرنج فلم يكن يباع الإنسان بخصوصه، وإنما كان يباع تبعاً للأراضي، فنظراً لتعديل مادة الإشارة وتنزيل التيمور باشية عن درجتها، كانت أوروبا بالنسبة إلى الزمن الماضي تدعي أنها تقدمت شيئاً في أودية المدنية. على أن أنواع المكارة والمظالم التي كانت متعلقة بأصول الفودالتيه أي أصحاب المقاطعات لا تنطبق على شيء من مبادئ الإنسانية. فإن حكم المحامين على المحميين كان شديداً، خصوصاً من كان منهم كثير الغدر، فكانوا إذا زفت بنت أحد المزارعين فقبل أن تصل إلى زوجها يفتض المحامي بكارتها، ثم تزف إلى زوجها إلى غير ذلك من ضروب المعاملات التي لا نستطيع تصديقها ولا تمر على خاطر وخيال في الممالك الإسلامية مما هو خارج عن حد العقل والإنصاف. فأكمل كلشارلي هذه الأصول السيئة وعلاوة على ذلك فإن في أيامه كان قرصان الشمال من جهة يشن الغارات والأصلاء يسمون فرنسا بالخراب من جهة أخرى، فخلد له ذلك في التاريخ شهرة قبيحة.

١- أي الإقطاع وقد تقدم شرحها.

٢- تيمور باش: في اللغة التركية بمعنى أثاث أو آلات وأدوات الاستعمال والأشياء الثابتة. الدراري اللامعات ص ١٨٢.

وكان كلشارلي يهتم في تدارك الأمر بكثرة العسكر والدراهم لإعانة البابا لأجل أن يلبسه تاج الامبراطورية، وقد دعاه ذلك إلى مساعدة الأصلاء مساعدة فوق العادة فساق مملكته إلى أردى الطرق، ومع ذلك فإن وعده للبابا بمساعدته في كبح غارات أهل الإسلام لم يأت بفائدة مرغوبة له بل تزايد تعرض الأمراء الأغلبة حكام أفريقيا على إيطاليا وأجبروا البابا على أن يؤدي لهم الخراج.

وفي تلك العصور كان إلباس تاج الإمبراطور معدوداً من حقوق البابات فكانوا يريدون إعطاءه لأي حاكم يمدهم ويساعدتهم على طرد أهل الإسلام الذين كانوا يتعرضون ويتسلطون على القطعة الجنوبية من إيطاليا. فبعد وفاة كلشارلي لم يوجه عنوان الامبراطورية إلى أحد وبقي ثلاث سنين في حكم المنحل. وبالنهاية في سنة ٨٨٠ ميلادية و٢٦٧ هجرية جاء ششمان شارل^(١) ابن ملك ألمانيا إلى إيطاليا فلبس تاج ملكية إيطاليا وبعد سنة أخذ لقب امبراطور رومية ثم انتقلت إليه بالإرث ملكية ألمانيا فصارت الدولتان دولة واحدة.

أما دولة فرنسا فكانت تنزل عن عرش قوتها يوماً فيوماً، واستحفل نفوذ الأصلاء فصار الدوقية والقونية في حكم ملوك الطوائف، حتى أن الدوق الذي كان في برودانس، يعني في طرف مرسيليا ادعى الاستقلال وأخذ لقب ملك، وفي ذلك الوقت بلغت غارات قرصان أهل الشمال حد النهاية فكلف ششمان شارلمان من جانب الأصلاء على أن يأتي فرنسا فيدير شئونها فلبى دعوتهم وصارت ممالك شارلمان بأسرها سنة ٨٧ ميلادية في قبضة يده. غير أن فرنسا تحملت بحركتها على أهل الشمال الذين كانوا يهاجمونها مشقات كلية، وبقي أهل باريس محصورين ستين. وفي آخر الأمر جاء ششمان بعسكره ولكنه

١ - ششمان شارل: شارل الثاني (البدين) وكلمة ششمان تركية بمعنى البدين (٨٣٩-٨٨٨م) توج ملكاً على إيطاليا ثم إمبراطوراً، وملكاً على فرنسا وألمانيا، وخلع سنة ٨٨٧م بعد فشله في صد غارات النورمان على فرنسا. الموسوعة العربية الميسرة ص ١٠٦٣.

اجتنب الحرب، ودافع أهل الشمال عن فرنسا بإعطائهم الدراهم وساعدتهم مساعدة فوق العادة فنفرت من ذلك عموم التبعة وخلعه الأوصلاء عن الممالك، فبقيت دولة الإفرنج نحواً من سنتين في يد حاكم واحد منفرد. وبعد ذلك قسمت إلى ثلاثة أقسام، وتأسست إذ ذاك دول ألمانيا وفرنسا وإيطاليا.

وذلك أن حفيد لويس ملك ألمانيا انتخبه أصلاًؤهم ملكاً على ألمانيا وانتخبوا ابن روبر دوق إيالة باريس ملكاً على فرنسا، وأظهر شجاعة كلية في حرب أهل الشمال. وقانون انتخاب الملوك الذي أعطاه شارل لأصلائهم استعمل بعد إحدى عشرة سنة صرفاً ضد عائلته، وذلك من الأمور الموجبة للاعتبار.

فمن هذه الجهة انقرض آل قارلويج من فرنسا، فظهر على أثرهم أبناء روبر الذين تولوا ملكية فرنسا، وكان يقال لهم أمراء قايت. على أن الملوك الذين أتوا من هؤلاء الأمراء لم يحز أحدهم عنوان امبراطور، وإنما بعض البطون منهم كان رجالها يجلسون على تخت فرنسا من وقت إلى آخر، حتى ظهرت الجمهورية الفرنسية.

أما في إيطاليا فقد وقعت حروب كلية لأجل الملكية فتغلب أخيراً أحد الدوقية فصار حاكماً لإيطاليا بعنوان امبراطور، وبناء على ذلك انحصر أمراء قارلويج في ألمانيا، ثم بعد نحو من عشرين سنة انقرضت أيضاً من هناك سلسلة نسبهم فلم يبق لهذا البيت حكم في جهة ما.

وعلى هذه الصورة انقسمت دولة الإفرنج إلى ثلاثة أقسام، ثم ظهر ملك في مرسليليا كما تقدم، وأسس أحد الأوصلاء في سويسره ملكية بورغون فصارت بذلك دولة الإفرنج منقسمة إلى خمس دول. أما دولة فرنسا فقد صارت إلى حالة سيئة وما مر عليها نحو من مئة سنة حتى انمحت وطار في الهواء، ولو أبصر شارلمان أن سعيه ذهب سدى واضمحل في وقت قليل لما وسعه غير البكاء.

وبعد شارلمان تأسست دولتان كبيرتان إحداهما دولة انكلترا وكانت جزيرة انكلترا منذ مدة تحت حكم ملوك صغار فتغلب أحدهم فأسس دولة أخذت تزداد على مرور الأيام قوة وثروة. والثانية هي دولة روسية وقد أسس حكومتها قوم من أهل الشمال أتوا من بحر البلطيق سنة ٨٦٠ ميلادية واتخذوا مدينة كيف^(١) عاصمة. وكان بعض الفرق منهم يجولون فيأتون استامبول وفيها يدخلون في الدين العيسوي، ويستصحبون في عودتهم لبلادهم بعض القسيسين، ثم عقدوا صلحاً بينهم وبين قيصر استامبول فصاروا جميعاً مسيحيين على مذهب الأرثوذكس أي الروم. فهذه الدولة على مرور الأيام توسعت دائرة قوتها ومكانتها فاتخذت مدينة موسقو عاصمة لها ثم بنت بعد ذلك مدينة بترسبورج.

أما دولة (له)^(٢) فهي أقدم من دولة روسية فاللهوليون بعد أن تمكنوا من فتح كثير من الأماكن في روسية وبروسيا وجه وغير ذلك من الممالك ذهبت هذه الأماكن من يدهم.

وطائفة جه^(٣) هي من قوم السلاف وكانت قد أسست حكومة في حكم الملكية ودامت نحو خمسمائة إلى ستمائة سنة.

وبقايا الخنيين الذين يعرفون الآن بالهنكاريين والمجرمين، كانوا يتجولون في أطراف جرمانيا مشغولين بالغارات على الممالك التي يدخلونها، ثم أنهم بعد سنة ٩٠٠ ميلادية ابتدأوا بتأسيس حكومة.

وبعد انقراض أولاد شارلمان صار ينتخب لألمانيا حاكماً من الهرسكيين يعني إما من الدوقيين وإما من القونتيين المناسيين، وفي الأكثر يجتمع مجلس الأمة

١- كيبي : مدينة روسية، عاصمة أوكرانيا، بها كاتدرائية بيزنطية منذ القرن الحادي عشر الميلادي. المنجد ص ٤٨٥.

٢- أي بولندا وقد تقدم شرحها.

٣- جه : قوم من السلاف مواطنهم في شمال غرب النمسا في منطقة بوهيميا. قاموس الأعلام ١٨٨٧/٣.

ويصدق على من انتخبه أصلاًهم. وحكومة ألمانيا وإن كانت بقيت مدة في عائلة من أصحاب النفوذ فإنها لم تجر فيها قاعدة الوراثة. وكما أن قاعدة وراثة الأراضي المتصرف بها على أصول الفوداليتها كانت جارية في فرنسا، وكذلك كانت في ألمانيا، فازدادت بذلك قوة أصلائهم، وصار انتخاب الامبراطور بيدهم بالاتفاق مع بعض الأساقفة. وكان هرسكيو ألمانيا يعني دوقاتهم في ذلك الوقت بمثابة ولاية، فأعطى لبعضهم نفوذاً زائداً لأجل محافظة أسلاف ألمانيا من المجريين فصاروا في أقرب وقت كالحكام المستقلين. أما قطعة إيطاليا فكانت في ذلك العصر عرضة للخلل من كل الجهات فسرت في رومية أنواع من الدسائس ناشئة عن سوء سياسة الباباوات وهذا مما حمل أهاليها على الميل إلى الجمهورية.

ومن غريب الاتفاق أن اليوم الذي مات فيه شارلمان، مات فيه هرون الرشيد الخليفة في بغداد، وكما أن دولة الإفرنج مالت إلى النزول كذلك دولة العباسيين أيضاً. وعلى ما ذكرناه ظهرت على أثر ذلك ملوك الطوائف في جميع الأطراف وصار كل من حكومة الخلفاء وحكومة حكام الإفرنج حكومة اعتبارية.

ولما كان ينصب ويعين مديراً لقصر الملك عند الإفرنج، كان في الدولة العباسية ما يقابل ذلك بلقب أمير الأمراء، وهاتان الدولتان كانتا متشابهتين في التقليد مختلفتين في خصوص نشر المعارف كما ذكرناه.

وكانت الملة الإسلامية في مبدأ ظهورها مخوفة في أعين جميع العالم وارتعدت منها أوروبا، ثم إنها في هذه العصور وقعت في تفرق غريب حتى إن الأورباويين لم يبق لهم في جانب الإسلام خوف، وكان هؤلاء الأورباويون متفرقين على الوجه المذكور أيضاً ولم يبق لهم للتجاوز طرف ما. وكانت فرنسا وقتئذ في حالة مضمحلة جداً وظهر فيها قحط عظيم وغلاء. وكان أهل أوروبا جميعاً في درجة نهائية من الجهل والتعصب، وكان الفرنسيون يقولون قد تمت سنة ١٠٠٠ ميلادية وقرب اليوم الأخير (يوم القيامة) فتابوا عن خطاياهم وأوقف

بعضهم أمواله وذخائره على الكنائس، وبعضهم أخذوا يذهبون لزيارة القدس الشريف ففنى كنائس فرنسا نشأ عن ذلك.

وقد توجه أحد الفرنساويين المسمى زربير إلى مدينة قرطبة عاصمة الإسلام في الأندلس فحصل من مكاتب العرب فيها قليلاً من فن الحساب والهندسة والهيئة والكيمياء وما شابهها، ثم عاد إلى فرنسا فكان ينظر إليه كأنه ساحر، على أن زربير هذا قد نال بفضائل المعارف التي تعلمها وأخذها عن العرب مقام الباباوية، ثم مات في رومية وهو بابا سنة ١٠٠٣ للميلاد.

والحاصل أن حالة أوربا في ذلك العصر كانت سيئة من جميع الجهات غير أن امبراطورية ألمانيا اكتسبت قوة قليلة. ونظراً لتعصب أهل ذلك العصر ازداد نفوذ الباباوات الروحانيين.

وذلك أن هنرى حاكم ألمانيا المشهود له بحسن الإدارة توفي سنة ٩٣٦ للميلاد فانتخب مجلس الأمة ابنه أوتون الكبير ملكاً على ألمانيا فسار على نهج أبيه بحسن التدبير على ما يقتضيه العقل، فاكسبت دولة ألمانيا قوة ثم أدخل دوق ولاية جه إلى الدين العيسوي جبراً وضمها إلى ألمانيا، وتغلب على المجاريين فخلص ألمانيا من تجاوز التهم، ثم أحدث إمارة بين ماركيزية ألمانيا ومجارستان وسميت أوسترماق أي إمارة الحدود الشرقية وكلمة أوستور في اللسان الجرمانى بمعنى الشرق وكلمة أوستريا مركبة منها.

فهذا السنجاق الصغير الذي هو في حدود الدولة العلية والمعدود من توابع ألمانيا تأسست فيه دولة أوستريا وعاصمتها مدينة فيينا، والصقالبة ويسمون بها بج وهي مذكورة في تاريخنا أيضاً باسم مدينة (بج).

أما الأقليم العظيم المسمى ألمانيا فهو ملك واسع يحده بحر البلطيق ولهستان والمجار وخروات وإيطاليا وفرنسا والفلمنك ويقال لأهاليه ألمان ونمسه، غير أن الجاري في لساننا في التعبير عن نمسا يطلق على أوستريين.

فعلى الوجه المشروح اكتسب أوثون قوة فاستولى أيضاً على إيطاليا وسار إلى رومية فلبس تاج جرمانيا فهو مخصوص بملك ألمانيا وملوكهم ينالون بالأكثرية عنوان الامبراطورية بعد أن يلبسوا التاج في رومية، غير أنهم متى لبسوا تاج جرمانيا فقد صاروا أكبر حاكم لحكومة رومية، أي لجماعة الكاثوليك بأسرهم، وحصلوا مع ذلك على مزيد من التقدم عند سائر الملوك. وفي سنة ٩٧٤ ميلادية توفي أتون وبعد جلوس ابنه وحفيده على تخت الملك انتخب أحد أقربائه هنري الثاني^(١) من دوقه بافاريا ملكاً لألمانيا، فسار إلى رومية وعندما لبس تاج الامبراطورية قدم له البابا تفاحة من ذهب وعليها رسم صليب، فجعله ذلك في المنونية، وكان قصد البابا من تقديمها أن يشرب فكرة إنه هو الذي فوض إليه أمر الدنيا، وأن يوطد ويمكن هذا الفكر من الأذهان. فلما أقسم هنري اليمين على أن يكون حامياً لجماعة العيسوية أكرهه البابا على أن يقول له إنه مخلص له أيضاً. وبهذه الألفاظ المتشعبة المعنى وبمثل هذه الدسائس ازدادت قوة البابا شيئاً فشيئاً.

وكان هنري المذكور من أمراء سقس، فلما توفي سنة ١٠٢٤ ميلادية لم يبق من هذه العائلة أحد فاجتمع شرفاؤهم والأساقفة وعموم الأهالي وانتخبوا قونراد من أمراء جرمانيا فلبس تاج جرمانيا في مدينة ماينس وتاج إيطاليا في مدينة ميلان وتاج الامبراطورية في مدينة رومية. فلما مات ملك بورغون وليس له وارث استولى قونراد على حكومته، وبهذه المناسبة دخلت سويسره في حوزة دولة ألمانيا.

وأخذ قونراد المذكور يساعد الأساقفة وأهالي المدن ويعطيهم كثيراً من الامتيازات كسراً لشوكة نفوذ الأوصلاء فامتدت حكومته على هذا الوجه ١٥

١- هنري الثاني (٩٧٣ - ١٠٢٤م) دوق بافاريا. انتخب ١٠٠٢ ملكاً على ألمانيا، توج ١٠٠٤ ملكاً على اللمبارد، وتوج ١٠١٤ امبراطوراً في روما. رفع هو وزوجته الإمبراطورة كونيغند إلى مراتب القديسين في الكنيسة الرومانية. الموسوعة العربية الميسرة ص ١٩٠٧.

سنة، ثم توفي وجلس مكانه ابنه هنري الثالث. وهو الذي ابتدأت الحروب الصليبية في زمانه كما سيأتي أدناه، فصار هنري المذكور ملكاً لألمانيا وإيطاليا والبورغون، وعزل الدوقات المخلين بالنظام وعين مكانهم عمالاً لأجل أن تكون إدارتهم من قبل الحكومة. وفي أثناء ذلك اجتمع في إيطاليا ثلاثة باباوات فسار إليها وخلع الثلاثة بقرار من مجلس القسس وانتخب قسيساً آخر فجعله في منصب البابا، وليس هو أيضاً تاج الامبراطورية. غير أن ابنه هنري الرابع وسع للأصلاء دائرة النفوذ والقوة وكان من الأصول القديمة وجوب تصديق الامبراطور على انتخاب البابا، وات غير أنه بأمر البابا غريغوار السابع تقرر بمجلس الأساقفة برضى الأهالي أن يكون انتخاب الباباوات من قبل الكردينالية الحائزين على أرفع رتبة في الكنيسة بدون احتياج إلى تصديق الامبراطورية على ذلك، وأظهر بعض التدابير كمنع الكهنة عن الزواج، ثم نشر بعض تنبيهات مفادها استقلاله وانفصال الأساقفة عن الحكومة الجسمانية بالكلية. فوقع بسبب ذلك بينه وبين هنري الرابع منازعات، ثم تول هنري إلى أن عقد مجلساً من الأساقفة تقرر فيه خلع غريغوار المذكور من منصب الباباوية، وكذلك البابا أيضاً خلع هنري وحرمه وانتخب بعد ذلك بمساعدة الأصلاء أحد الدوقات بدلاً من هنري، إلا أن هنري تغلب على البابا فسار إلى إيطاليا وحصر مدينة رومية ثلاث سنين فنال الفوز ولبس تاج الامبراطورية من يد البابا الجديد الذي انتخب بمعرفته. غير أن الكردينالية بعد ذلك تمكنوا من الحصول على انتخاب الباباوات وانحصر فيهم وما برحت هذه القاعدة جارية إلى الآن. وقد امتدت منازعة الأساقفة فتقرر في نهاية الأمر أن يكونوا تحت حكومة البابا بالاستقلال وأن الامبراطور يكون حامياً لهم ومحافظةً على الأراضي المتصرفين فيها.

{الحروب الصليبية}

أما الحروب الصليبية فقد ظهرت في زمن هنرى الثالث المتقدم ذكره سنة ١٠٩٦ ميلادية و ٤٩٠ للهجرة، وأسباب هذه الحروب هي أن النصاري الذين كانوا يذهبون لزيارة القدس الشريف من قديم الزمان كان العرب يحسنون معاملتهم فلما ضعفت قوة الدولة العباسية وتلاشت سطوتها كثر تردد قبايل التاتار والتركمان على جهات الشام والعراق فسرت خشونتهم الطبيعية في طبائع الناس فتبدلت الغيرة الدينية الصحيحة بالتعصب وعلو الهمم بالدناءة والمظالم فاضمحل لذلك حال الرعايا المستأمنين من النصارى، فأخذ روبر الذي توصل إلى مقام البابوية بعلمه وجاهه وسعادة طالعه يحرك ويرغب أهالي أوربا في الإجلاب على أهل الإسلام وذلك بعد أن زار القدس الشريف سنة ٣٨٥ هجرية وبعد أن صارت القدس الشريف في يد السلجوقيين، فكانت أرباب الحكومة هناك من طائفة التركمان يعاملون الزوار من النصاري بالجفاء والأذى، فدعاهم ذلك بعد عودتهم من زيارة القدس الشريف إلى التشكي والتظلم في كل جهة وطرف .

وكان قيصر استامبول وقتئذ يخاف كثيراً من قرب السلجوقيين إلى استامبول كما ذكرناه أنفاً، وكان يغري الأورباويين على الحرب مبيناً لهم أن استامبول تكاد تدخل في يد الأتراك، فرأى ملوك أوربا وأمراؤها أنه يتحتم عليهم اتخاذ تدبير يخلص أوربا من الخطر المتوقع من السلجوقيين، فيكون ما يدبرونه في ذلك سداً مانعاً لعزمهم وحروبهم المتواصلة .

وكذلك ملوك فرنسا فإنهم كانوا يرغبون وقوع الحرب لكي يسوقوا إليها الأوصلاء الذين جعلوا البلاد في أسوأ حال فيحصلون على الراحة .

أما البابا فلم يخرج من فكره تعهد أسلافه بإعطاء الخراج للأمراء الأغالبة، وكان متكدراً مما وصل إليه أهل الإسلام من الترقى والرفعة، ومؤملاً أن يكون

بيده القدس الشريف الذي هو مزار العيسويين، فلذلك كان منذ جلوس ملكشاه^(١) يحرك أهالي أوروبا على حرب أهل الإسلام.

فهذه الأسباب هيجت أوروبا عموماً فتقرر لديهم الزحف سريعاً على القدس الشريف للاستيلاء عليه. وفي أول الأمر نشرت في فرنسا رايات المتطوعين منهم فاجتمع تحتها عدد عديد من الناس.

وجميع من يقدر على حمل السلاح من أهالي أوروبا قاموا على قدم وساق، سوى أهالي إسبانيا فإنهم كانوا خائفين ومحتريزين من عرب الأندلس فلم يتحركوا من أماكنهم، وكل من دخل تحت الرايات المذكورة واكتتب وضع على صدره رسم الصليب فلذلك تسموا بالصليبيين، وخرج من إيطاليا وفرنسا وألمانيا عدد من ذوي الصلبان لا يعد ولا يحصى ينادون القدس القدس متوجهين إليه.

وكان السلجوقيون الذين أزهبوا أهل أوروبا كما بيناه في الفصل الثالث وقعوا في حال عجيب من تفرق الكلمة، كما أن أهل الصليب أيضاً لم يكونوا تحت إدارة منتظمة فمات منهم خلق كثير في مرورهم بمجارستان وبلغارستان من شدة الأمراض والتعب، والباقون منهم بعد وصولهم إلى إزنيق هلكوا عن آخرهم في الحرب التي وقعت بينهم وبين من كان هناك من أهل الإسلام.

غير أن دوقية بلجيكا التابعة لألمانيا إذ ذاك وجماعة من دوقات وقونيات فرنسوية باعوا أراضيهم وجمعوا لأجل هذه الحروب الصليبية عدداً وافراً من النقود ورتبوا لذلك عساكر كثيرة كانت منظمة نوعاً ما، فسار قسم منها على طريق المجر، وقسم آخر على طريق دالماسيا، ومع كونهم حل فيهم نقص غير قليل في الطريق فإن الباقي منهم كان كثير العدد، فلما بلغوا استامبول بهذه الكثرة خاف قيصرها فأجازهم إلى أسكدار بوجه السرعة، واستوثق منهم بأنهم يعيدون

١ - ملكشاه الأول (٤٤٧-٤٨٥هـ) : سلطان سلجوقي من الكبار. خلف أباه ألب أرسلان. اتخذ نظام الملك وزيراً، وبلغت الدولة في عهده أوج ازدهارها. المنجد ص ٥٤٥.

إليه الممالك التي ستفتح في الجهات التي استولى عليها أهل الإسلام وكانت تابعة من قبل للامبراطورية، وعلى ذلك سافروا من أسكدار فاستولوا على مدينة إزنيق عاصمة قليج أرسلان أحد السلجوقيين، وكان ذلك سنة ١٠٩٧ ميلادية و ٤٩١ للهجرة، ثم ساروا إلى مدينة انطاكية على طريق الأناطولي وبعد أن حاصروها تسعة أشهر استولوا عليها فرتبوا فيها دوقية، ثم استولوا على مدينة أورفة مولد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وفيها مقامه الشريف، وبعد أن أسسوا فيها قونتيه تركوا فيها حامية من العسكر وساروا بالباقيين إلى القدس الشريف، فحاصروها مدة تزيد على شهر ثم هجموا عليها فانتزعوها من يد الخليفة الفاطمي واستولوا عليها وقتلوا من فيها من المسلمين واليهود، وبعد ذلك استولوا على مدن الساحل كبيروت وعكا وعلى الأماكن الممتدة إلى بحر السويس أيضاً ورتبوا بالقدس ملكية تحت عنوان ملكية القدس الشريف.

وقد ظهر في أثناء ذلك في الجزيرة دولة الأتابكة^(١) فاستولى الأتابك عماد الدين زنكي على مدينة حلب واستخلص أورفه من يد الصليبيين وقتل من فيها من المسيحيين، فلما اتصل خبر مقتلهم بالإفرنج في أوربا هاجوا وماجوا فجمع حينئذ لويس السابع ملك فرنسا مائة ألف مقاتل وقادها بنفسه للحرب الصليبية كفارة وتتميمًا للتوبة عن حرم البابا له في بعض الأمور، وكذلك إمبراطور ألمانيا فإنه رتب معسكراً أيضاً فمرت هذه العساكر من استامبول سنة ٥٤٢ هجرية غير أن إدارة معسكر الإمبراطور لم تكن في حالة مرضية، وعلى قول بعض الرواة أنهم انخدعوا بأولاد الأروام فتلاشي جمعهم في الحرب التي وقعت بينهم وبين المسلمين في الأناطولي ومن سلم منهم من السيف لحق بعسكر لويس، وكذلك لويس تلف نصف عسكره في المحاربة التي وقعت بينه وبين العساكر الإسلامية

١- أتابك : لقب تركي أطلقه السلاجقة على بعض رجال البلاط والوزراء والقادة، تمكن بعض الأتابكة من الوصول إلى الحكم فنشأت في القرن السادس الهجري دويلات متعددة في بلاد فارس وبلاد الشام. أشهرها أتابكة زنكي في الموصل والجزيرة والشام. المنجد ص ٢٤.

في جهة أيدين فلما رأى أنه لم يبق في يده قوة كافية عدل عن القتال وتوجه إلى أنطاكية بجرّاً من سواحل الأناطولي، ومنها قصد زيارة القدس الشريف كما فعل الامبراطور من قبل.

ثم اجتمع الإمبراطور ولويس بملك القدس الشريف فهجموا على الشام ولكنهم لم يقدروا على إجراء شيء ما وأكروها على ترك مدينة أورفة أيضاً، وعاد الامبراطور ولويس إلى أوروبا بخمسة أو عشرة رجال ليس إلا.

ثم استولى نور الدين بن عماد الدين على دمشق الشام فاكسبت دولة الأتابكة مرتبة زائدة من القوة، وكان الظفر يزداد ظهوراً يوماً فيوماً للإسلام ثم ظهر بعد ذلك في مصر يوسف صلاح الدين بن أيوب^(١) من أمراء نور الدين وتسلطن فيها فبادت الخلافة الفاطمية وقامت الدولة الأيوبية بدلاً منها، فازدادت سطوة الإسلام رفعة وارتقاء، وضعفت في تلك الجهات قوة الإفرنج وتحولت غلبتهم إلى الفشل ومالت إلى الزوال.

وقد أصبح الأصلاء^(٢) في أثناء هذه الحروب محتاجين للنقود فصاروا يبيعون امتيازات حريتهم لأهالي المدن وهؤلاء كان يحصل لهم من الحكومات مساعدة كلية، فبمثل هذه الوسائل كان يهتم بكسر وتقليل نفوذ الأصلاء، إلا أن نفوذ الباباوات كان في حال الزيادة والترقي حتى أن امبراطور ألمانيا الذي اكتسب قوة زائدة في ذلك العصر وأخذ شهرة بارباروس وحارب البابا وأهالي إيطاليا مرات متعددة، التزم في آخر الأمر أن يتنازل إلى البابا عند اجتماعه به في إيطاليا، إلى

١- صلاح الدين الأيوبي (يوسف صلاح الدين بن أيوب) (٥٣٢-٥٨٩هـ) : مؤسس الأسرة الأيوبية بمصر، ومقاتل وبطل مسلم، اشتهر بطولاته ضد الصليبيين الغزاة. ولد في تكريت من أصل كردي. عاش سنوات في دمشق في خدمة نور الدين. وأنهى حكم الفاطميين، وأسس الأسرة الأيوبية. وبدأ أعماله الجهادية بضم اليمن وفلسطين، وهزم الصليبيين في معركة حطين، ودخل بيت المقدس. مات في دمشق ودفن بها. الموسوعة العربية الميسرة ص ١١٢٨.

٢- بمعنى النبلاء وقد تقدم شرحها.

درجة أنه مسك ركابه عند ركوبه وبخضوعه هذا لبس تاج الامبراطورية وأحرق الشخص الذي كان أطرده البابا وقتئذ من رومية، وكان سبباً للاختلال في سبيل تأسيس الجمهورية.، ولما اتصل في ذلك الوقت أي سنة ٥٨٢ هجرية خبر استيلاء صلاح الدين على القدس الشريف بمسامح أهل أوربا، وجموا واندھشوا له جميعاً ومات البابا من شدة كدره وقام كافة أصلاء أوربا فتعاهدوا واتفقت كلمتهم على أن يسيروا عموماً إلى الحرب فتقلد فريديك السالف الذكر مع فيليب ملك فرنسا وريشار ملك إنجلترا علامات الحاج. وعلى هذه الحال سار فريديك بالعسكر في الحرب الصليبية غير أنه غرق في النهر في جهة قونية؛ أما فيليب وريشار فإنهما سارا من أسكللة مرسيليا وجنوه بحراً إلى بلاد الشام، ثم وقع بينهما نزاع وخصام نشأ عن الحسد فسلم فيليب عسكره إلى أحد الدوقات وقفل عائداً إلى فرنسا، أما ريشار فإنه وإن كان اكتسب بجسارته الشهرة نوعاً ما غير أنه لم يتمكن من أخذ القدس الشريف وإنما عقد مع صلاح الدين عقد متاركة كان من شرائطه أن تبقى السواحل الممتدة من يافا إلى عكا بيد الصليبيين وأن يرخص لهم في زيارة القدس الشريف وسائر أماكن الزيارة.

وعلى أثر ذلك أغرى البابا كبار الملوك مرة أخرى بالحرب الصليبية إلا أنه لم يحصل على طائل، وإنما تسنى له أنه جلب إليها قسماً عظيماً من أصلاء فرنسا وسائر ممالك أوربا. ولما كان هؤلاء قد علموا أن أسهل طريق إلى القدس طريق البحر وأدركوا أنه إذا لم يستولوا على مملكة مصر في أول الأمر فلا يمكن لهم أن ينتفعوا بشيء من أرض الشام فصمموا أولاً على الاستيلاء على مصر فاستأجروا من البندقيين عدداً كافياً من السفن رتبوها أسطولاً، وفي أثناء ذلك خُلع قيصر إستانبول فدعا ابنه أهل الصليب للمجيء إلى استانبول متعهداً لهم بتوحيد المذهب الكاثوليكي والمذهب الأرثوذكسي وغير ذلك من الأمور، فجاءوا إلى إستانبول ودخلوها وذلك سنة ١٢٠٤ ميلادية، ثم إنه لم يف لهم بتعهداته وقام

عليه الأهالي وأعدموه ومات أبوه أيضاً من كدره، فشن أهل الصليب الغارات على إستانبول وأحرقوا نصفها وكسروا كثيراً من آثارها القديمة ومحوها وانتخبوا منهم إمبراطوراً لهم، ثم انقسم أكثر ممالك قيصرية إستانبول بين أصلاء فرنسا واستولى البندقيون على معظم السواحل والجزائر فهذه هي القيصرية المعروفة بإمبراطورية اللاتين في الأستانة.

ثم إن أحد الماركية أسس حكومة مستقلة على شرط أن تكون تابعة لحكومة الإمبراطورية في بعض المحلات التي هي في أطراف سلانيك مع طرف من أراضي اليونان. وكما أن آل القيصر المخلوع أسسوا قيصرية في إزنيق كذلك أحد عائلات قياصرة إستانبول أسس أيضاً قيصرية أخرى في طرابزون.

وبعد أن امتدت إمبراطورية اللاتين ٥٧ سنة استرد الأستانة منهم ميشل باليولوغ قيصر إزنيق بمساعدة الجنويزيين فدرست إمبراطورية اللاتين.

ودخول الأستانة بيد الإفرنج وإن كان قد جلب النفع إلى البابا بسبب اختلاف المذهب فإن هذه الحرب لم تنتج شيئاً من المقصد الأصلي في شأن القدس الشريف، فلذلك رغب البابا العالم المسيحي ثانياً في الحرب الصليبية لكن كانت أفكار أهالي إنكلترا في تلك الأوقات مائلة إلى الحرية وداخلت تحت حكومة مقيدة، وكان فيليب ملك فرنسا موجهاً مقاصده لعمران مملكته وترويج العلوم والفنون فيها، وكان ظهر في جرمانيا اختلافات داخلية كثيرة فكان يوجد أحياناً بعض واحد عدة ملوك وأحياناً كان يقع بين الملوك كان يقع بين الملوك وبين البابا وأهالي إيطاليا مجادلة ونزاع فكان البابا يحكم على الملوك المذكورين بالحرمان.

والحاصل أن أحوال أوروبا كانت وقتئذ متلونة وصار ملوكها لا يسمعون للبابا كلاماً، ثم هاج بعض الأحداث وركبوا السفن من مرسيليا عازمين على فتح القدس فغرق بعضهم ومات آخرون والباقيون وقعوا في أيدي المسلمين فباعوهم في الإسكندرية بيع الأسرى.

وفي أثناء ذلك سار أيضاً من ألمانيا نحو عشرين ألفاً من المتحمسين قاصدين القدس الشريف فعاد أكثرهم من الطريق وهلك قسم منهم من الجوع وتفرق شمل الباقين .

أما القدس فمع كونها بيد أهل الإسلام فقد كان عنوان ملكيتها وقتئذ على أحد أصلاء فرنسا فرتب هذا أيضاً عسكرياً لمساعدة البابا ثم سار به إلى جانب مصر واستولى على دمياط، وبعد مدة قليلة اضطر إلى تركها ولم يتيسر له العودة إلى أوربا إلا بصعوبة شديدة .

وفي سنة ٦٢٠ هجرية توجه فريدريك الثاني قيصر ألمانيا بإجبار البابا بعسكر إلى عكا وعقد مع الكامل ملك مصر أحد السلاطين الأيوبيين متاركة^(١) فأعطاه بعض قلاع وفي مقابلة ذلك أخذ فريدريك القدس الشريف مع قسم من الأراضي وألبس نفسه تاجاً في القدس الشريف، ثم عاد إلى أوربا إلا أن البابا لم يرض بما فعله من إعطاء القلاع بدون محاربة وأخذ القدس فقط في مقابلة ذلك وكونه ألبس لنفسه التاج .

ثم إن القدس الشريف دخلت ثانية في يد أهل الإسلام وبعد سنة انتقلت للعيسويين، ثم لطائفة الخوارزميين الذين كانوا هربوا من المغول وأتوا إلى هذه الجهات، فسار لويس التاسع ملك فرنسا بعسكره إلى قبرص على قصد الاستيلاء على القدس مرة أخرى ومنها توجه سنة ٦٤٧ هجرية إلى جانب مصر فاستولى على دمياط وهجم على القاهرة فتلقت جنوده ووقع أسيراً، فرد طبقها على ما اطلع عليه من آثار المدينة الشرقية التي أوجبت عبرته، وكان متعصباً في الدين، فنظم قانوناً آخر في الأحكام المذهبية ليمنع بذلك تجاوز البابا حده .

ثم استخلص حكام مصر وهم (الكوله من)^(٢) ما كان باقياً بأيدي الصليبيين كأنطاكية ويافا وعكا وغيرها من المواقع .

١ - أي اتفاق صلح .

٢ - أي الممالك .

ولما بلغ أوروبا خبر استيلاء الإسلام على أنطاكية ويافا دعا لويس التاسع ملك فرنسا السالف الذكر الأصدقاء إلى باريس وقرر الحرب، إلا أنه في خلال ذلك بلغه أن حاكم تونس من بنى حفص عزم على الدخول في الدين العيسوي فذهب بمعسكره أول وهلة إلى تلك الجهة فكان منه أنه شاهد هجوم المسلمين عليه، وفهم أن الخبر الذي اتصل به كذب ففقل من هناك راجعاً ونزل على إطلال مدينة قرطاجنة ومات هناك، فلبث عسكره بها مدة شهر أو شهرين ثم عقدوا مع حاكم تونس صلحاً اشترطوا فيه حرية الدين العيسوي. وحرية التجارة الأوربية ثم رجعوا إلى فرنسا.

أما أدوار بن ملك انكلترا الذي كان مع لويس فإنه لم يرجع مع معسكر فرنسا بل قصد بلاد الشام باثني عشر ألف مقاتل، ثم أنه لم يتمكن من اجراء شيء إزاء بيبرس (الملك الظاهر) سلطان مصر والشام فعاد إلى انكلترا.

أما ساحل صيدا الذي بقي بعد الجميع في يد العيسويين فقد استولى عليه ممالك مصر سنة ١٢٩١ ملادية و٦٠٩ هجرية ففترت بذلك غيرة الإفرنج وهمهمهم وكان ذلك آخر العهد بالحروب الصليبية.

والبلاد الإسلامية وإن كانت على هذه الصورة أنها تخلصت من تعرضات الافرنج فإنها صارت بمهاجمات المغوليين خراباً يبابا خالية، وكذلك سلاطين مصر قد اشتغلوا مدة من الزمن بحروب المغوليين، والطائفة التي كانت باقية في بلاد الأناطولي من السلجوقيين ضعفت بمثل هذه الحروب. وفي نهاية الأمر انقضت في عام ٩٩٦ للهجرة وظهرت الدولة العثمانية فانسعت سطوتها وقوتها بسرعة لا مزيد عليها، وجددت بل أحييت قوة الملة الإسلامية ثم رتبت عسكر موظفاً بمقتضى أحوال تلك الأوقات، وكانت عساكر أوروبا تجمع عند الاقتضاء جموعاً من غير ترتيب، وكانت هيئة عساكر الدولة العثمانية مخوفة في عيون الأوربيين فبناء على ذلك صارت هذه الدولة العلية في زمن قليل مظهراً لفتوحات عظيمة في بلاد أوروبا.

ونذكر هنا ما ينبغي الانتباه له والعبرة به وهو أن الأتراك أعني السلجوقيين الذين أخافوا الأوروبيين تفرقت كلمتهم قبل ابتداء الحروب الصليبية، وفيها لم يكونوا قادرين على عمل كبير، وأما أهل الصليب فإنهم في أول الأمر كانوا أقوياء في أعمالهم قادرين على إنجاز ما يريدون بغاية السهولة، فلولا ظهور عماد الدين زنكي ونور الدين الشهيد ثم يوسف صلاح الدين بعدهم لكانت أحوال الملة الإسلامية في حالة سيئة جداً، وهؤلاء مع كونهم كسروا شوكة الإفرنج فإن دولهم لم تلبث طويلاً حتى انقرضت فأصبحت الممالك الإسلامية بعد ذاك العصر خراباً باستيلاء التاتار عليها، وبينما كانت أحوال الإفرنج قد تجددت بانتظام ما، فبظهور الدولة العثمانية اكتسب أهل الإسلام حياة جديدة، وتمكنت أعني الدولة العثمانية من الاستيلاء والتصرف على أجمل قطعة من أوروبا وصارت مقتدرة على تهديد أوروبا. غير أنه يقال إن الحروب الصليبية قد أخرجت فتح القسطنطينية مئين من السنين، ولو لم تقع هذه الحروب ربما كانت تدخل أوروبا بجملتها في يد أهل الإسلام.

وكان الغرض الأصلي من الحروب الصليبية إنما هو بقاء القدس الشريف في يد الأوروبيين، على أن الإفرنج وإن لم يحصلوا على هذه الأمانة المقصودة فقد انتفعت أوروبا بهذه الحروب وخصوصاً فرنسا وحصلت على منافع عظيمة. فإن العلوم والفنون والصنائع في ذلك العصر كانت بأعلى درجة في استامبول ومصر، فتعلم الإفرنج فيهما أشياء كثيرة واشتروا عدة كتب رومية وسريانية وعربية وأخذوها إلى أوروبا واجتهدوا في مطالعتها، ثم أخذوا ينظمون الشعر تقليداً ويؤلفون الحكايات والقصص، وبعد ذلك صاروا يجمعون كتب اليونان واللاتين القديمة وصاروا ينشرون في جهات أوروبا بعض العلوم التي نقلت من بلاد العرب إلى إسبانيا، وشاعت بين أهل الإسلام كالطب والكيمياء وعلم النباتات والحساب والهندسة والمنطق والهيئة، وقد تعلمها الأوروبيون الذين كانوا

يترددون إلى قرطبة عاصمة الأمويين في الأندلس . ومن ذلك الوقت ظهر لعالم الوجود كل ما كان غير معروف في أوروبا من أنواع النبات والأمتعة . وبعد ذلك فتحت المكاتب في كل مكان من أوروبا فوصلت فيها العلوم والصنائع إلى المرتبة القصوى التي لا تزال ننظرها الآن بعين الحيرة . وقد كان الأورباويون ينظرون ويقلدون في ابتداء الأمر العرب والروم في المدينة ، وبعد ذلك وصلوا فيها إلى حد الكمال ، وبمناسبة هذه الحرب تعلموا الأصول الحربية .

وبعد ذلك العصر تقدمت صناعة إنشاء السفن في أوروبا ثم أن مرافقتهم في الحرب مكنت بينهم الألفة والاختلاط وصاروا يرون أنفسهم كأنهم ملة واحدة ، وبمقتضى المدينة أخذوا في التعاون والتعاقد فأدى بهم النظر إلى وجود طرق لمساعدة الفقراء والضعفاء ، وبعد ذلك ظهرت في تلك البلاد جمعية الفرماسون^(١) التي لم تزل إلى الآن معتبرة عندهم ، ومن خصائصها خدمة الإنسانية على قولهم وتقبل كل إنسان من أي دين ومذهب كان ، ولها سر على حد قولهم (من لم يدخل لم يعرف) ولهم علامات وإشارات خصوصية يعرف بها بعضهم بعضاً . وفتحت عيون الأورباويين بالسياحة في الممالك المتقدمة ، وبعد ذلك صاروا لا يتكلمون بشيء إلا بعد تطبيقه على العقل وصرفوا النظر عن الأوهام الباطلة وأفكار التعصب التي كان يلقيها الكهنة عليهم ، ثم إنه بمناسبة هذه الحروب سافر أكثرهم إلى رومية فأطلعوا على ما كان جارياً فيها من الدسائس والأغراض الخصوصية وعرفوا حقيقة الحال فاعتدلت أفكارهم كثيراً في الأمور المذهبية . وبناء على ذلك فإن نفوذ الباباوات الذي ترقى كثيراً أثناء الحروب الصليبية ضعف ومال بعد ذلك إلى الزوال ، وسقطت قضية الحرم من الاعتبار في الأنظار العمومية فاضطر الباباوات أيضاً أن يلتزموا في سيرهم وحركتهم خطة

١ - أي الماسونية .

الاعتدال. حتى أن لويس ملك فرنسا السالف الذكر مع كونه شديد التعصب وسار بذاته إلى الحروب الصليبية مرتين أعلن في الشعب أن فرنسا راجعة إلى الله وحده. وأن لا حق للبابا في المداخلة بأمورها بوجه من الوجوه، وكذلك فإن ملوك فرنسا الذين أتوا بعده اجتهدوا في تقليل نفوذ الباباوات، وفي توسيع دائرة نفوذ الحكومة الملكية. حتى أنه بعد لويس المذكور انعقد لأجل مقاومة البابا مجلس عمومي مركب من الكهنة والأصلاء وعامة الناس المندوبين إليه من كل الجهات استجلاً لقلوب الأهالي، وكان هذا المجلس يتكرر اجتماعه في فرنسا مرات عديدة عند مسيس الحاجة، وكان انعقاده في المرة الأخيرة من جملة مقدمات ومبادئ جمهورية فرنسا.

فعلى هذا الوجه انحط نفوذ البابا أيضاً في سائر الأماكن. حتى أنه سنة ١٣٣٨ ميلادية اجتمع في مدينة فرانقفورت في ألمانيا الأمراء والأساقفة الذين جرت العادة بأن يجتمعوا عند انتصاب الامبراطور، ووضعوا لذلك قانوناً مخصوصاً وقرروا أن المترشحين الذين يصير انتخابهم بأكثرية الآراء لقيصرية جرمانيا ينتخبون بدون احتياج لموافقة البابا وإذنه، وأن إمبراطور رومية يترصف بوظائفه وحقوقه على مقتضى الدين، فمن أجل ذلك ضعف نفوذ البابا ضعفاً شديداً، وصار الباباوات بعد ذلك غير قادرين على أن يحرموا إمبراطور جرمانيا.

أما ملوك فرنسا فقد صاروا محرومين من عنوان إمبرطور وكانوا غير خاضعين للبابا، بل كانوا قادرين على مقاومته كل المقاومة ويفعلون في دولتهم ما يريدون. وكانت فرنسا في ذلك الوقت قد ابتدأت أن تتحد كلمتها على نحو ما نراه الآن. أما حكام ألمانيا فبناء على حوزهم للقب الإمبراطور كان تصرفهم في رومية يدعوهم لاحتياج العسكر والمال، ولذلك كانوا مجبورين على مساعدة الدوقات والكونتات وسائر الأصلاء مساعدة كلية. وحيث إنه لم يكن لهم وقت للنظر في أشغال شعبهم ولا للمداخلة في أمور إيطاليا ازداد نفوذ الأصلاء في

ألمانيا أي ازدياد، ف وقعت دولة ألمانيا في حالة سيئة من التصرف، على أن رودلف قونت هابسبورغ الواقعة في سويسرة الذي انتخب قيصرًا اكتسب بعض القوة، ف منع تجاوز الأ صلأ عن حدودهم، ثم انتخب بعده ابنه روبر الذي كان دوقاً لأوستر يا إلى قيصرية ألمانيا فامتدت حكومته إلى سنة ١٣٠٨ ميلادية، ثم انتقلت الامبراطورية بعده إلى عائلة أخرى، وفي زمانه خرجت سويسرة عن الطاعة فامتدت الحرب بينهم وبين دولة ألمانيا مدة مديدة، وفي آخر الأمر انفصلوا عن ألمانيا وصاروا جمهورية مستقلة.

وازد ياد قوة الأ صلأ في ألمانيا على الوجه المشروح كان سبباً في سلب الأمن العمومي حتى أن أهالي بعض المدن اتفقوا فيما بينهم على محافظة أنفسهم من شر الأ صلأ ولفظة (ويل انسياتيقي) بقيت من ذلك.

وبينما كانت تترقى الإمبراطورية في ألمانيا بالانتخاب لا بالوراثة، كان الدوقات والقوننات وسائر الأمراء من المنتخبين متصرفين في ممالكهم بالوراثة، ولما كان كل واحد منهم كحاكم مستقل حصروا حق انتخاب القيصر بالقوة فيهم وفي بعض أهل الكهنة، فأمتست الإمبراطورية أمراً اعتبارياً وصار دوقات ألمانيا لا يقبلون الإمبراطورية، فعلم أنه إذ ذاك لم يبق في الإمكان رفع أصول الوراثة وتجديد نفوذ الإمبراطورية. ومع أن مسألة انتخاب القيصر كانت في ألمانيا من المواد المهمة فلم تكن معروفة رسماً ولا جارية تحت قاعدة وأصول معلومة، ففي سنة ١٣٥٠ ميلادية اجتمع في مدينة فرنقفورت في مدة ثلاثة أشهر بعد وفاة القيصر جميع الأمراء والكهنة الذين لهم حق في انتخاب القيصر واتخذوا قانوناً في انتخابهم للقيصر بأكثرية الأراء فحاز هؤلاء الدوقات والأمراء والكهنة لقب منتخب ثم بعد ذلك صار انتخاب الإمبراطور معدوداً من حقوقهم قانوناً. وكان ملك جه وماركيس براندوبورغ أيضاً من هؤلاء المنتخبين فلهذه الأسباب المذكورة لم تدخل ألمانيا تحت هيئة اتحادية بل انقسمت في نهاية الأمر إلى حكومات صغيرة كإيطاليا.

وكان لأوروبا كما قلنا سابقاً فائدة كبيرة من الحروب الصليبية وهي أنه لما كان مقصد أهل الصليب واحداً حصلت المساواة والاتحاد بالأفكار، ووقع الميل إلى إبطال أصول أصحاب المقاطعات ، ولم يبق الاعتبار منحصراً في الأصلاء وأخذ في تحصيل اللياقة والشجاعة والغيرة ، فالذين كانوا عند الأصلاء لا يعدون من الناس صار لهم قدر وقيمة، وكان الأصلاء لا يضطربهم في هذه الحروب إلى المال يبيعون من أهالي المدن امتيازاتهم فيها وكذلك أن بعض أهل المدن كانوا ينظرون إلى هؤلاء فيحصلون حريتهم بالقوة والاقتدار فمن هذا الوجه تخلصت عدة أماكن من مخالب تحكم الأصلاء وتسلطهم، فامتدت الصناعة والتجارة ووضعت فيها البركات، ودخلت المدنية في درجة عالية من الترقى بواسطة ما صاروا إليه من سعادة الحال.

وظهرت الراحة في فرنسا عند سفر أصلائهم إلى الممالك الشرقية فعرف الأهالي قيمة الملك وهو عرف حق الأهالي، فامتدت بذلك سطوة الملكية وقوي نفوذها ثم أخذ في تنظيم بعض قوانين جديدة وإعلانها مع المحافظة على اعتبار قوانين رومية القديمة، وحيث لم يتنازل الأصلاء لتحصيل مثل هذه الأشياء نبغ في علم القانون كثير من لفيف الناس وابتدأوا يتوظفون في المحاكم والمجالس وكان في فرنسا ملوك يحمون الأهالي. ويصطنعون الأصلاء فلذلك دخلت دولة فرنسا وقتئذ في طور حكومة مطلقة.

وأما الإنكليز فكانوا ميالين قبل سائر الناس إلى آراء الحرية، وكان الأصلاء منهم سائرين بالاعتدال والحكمة بحيث كانوا يرون امتيازاتهم الحائزين عليها موافقة لمقتضى الوقت والحال، فدخلت دولة انكلترا في طور حكومة مقيدة وبقي شرف الأصلاء واعتبارهم محفوظاً. وأما أصلاء ألمانيا فبعد أن قاموا في داعية الاستقلال والاستبداد ضداً للإمبراطور صاروا إلى حالة تستلزم بعض موازنات في مثل هذه الامتيازات.

والحاصل أن أوروبا دخلت بعد الحروب الصليبية في دور من العمر جديد
فرفعت من جميع أماكنها أعمال الظلم بل أزالها كلها وسارت في جادة المدنية .
غير إنه لم تمكنهم إزالة الأخلاق الوحشية دفعة واحدة نظراً لتمكنها منهم منذ
إعصار مديدة، فلذلك لبثت بقايا أفكار التوحش والجهل سائرة زمناً طويلاً مع
أفكار المدنية الجديدة جنباً لجنب . فمن أخلاقهم الوحشية أنهم عندما ظهر القحط
والغلاء في فرنسا بعد سنة ٧١٦ هجرية أسندوا ونسبوا إلى اليهود أنهم القوا
السحر في آبارهم فعمدوا إليهم وأعدموا منهم قسماً كبيراً ظلماً وعدواناً، ومن
عوائدهم أنهم كانوا يعقدون مجالس عمومية في أوقات كثيرة يسنون فيها
نظامات مفيدة، ووقعت إذ ذاك حرب بين دولتي فرنسا وإنكلترا كان الباعث
عليها ادعاء والدّة ملك إنكلترا حق الوراثة لتخت^(١) الملك بسبب كونها من آل
ملك فرنسا، فامتدت هذه الحرب مائة سنة فكان ملك فرنسا في هذه الحرب
يعتمد على همة الأصلاء، وكانت قوته العسكرية حينئذ كلها من الركبان وأما
ملك إنكلترا فقد جلب إليه أفكار عموم تبعته فكان له أيضاً عسكر من المشاة
الشجعان وزيادة على ذلك فإنه كان يستعمل في الحرب نوعاً من المدافع على
شكل الهاون . وأما فرنسا فإنها لم تكن باشرت إلى ذلك الوقت استعمال شيء
من هذا القبيل، فبهذا وغيره تمكنت الإنكليز من التغلب على الفرنسيين في كل
مكان فاستولت على قسم كبير من ممالك فرنسا .

وبينما كان أهل البادية يتغلبون في الحركات الحربية على أهل المدنية، شاع
استعمال البارود وصار للحروب فن مخصوص، فانعكس الأمر وصارت المدنية
في حماية الأسلحة النارية والبارود الذي انتج تبديلاً وتغييراً عظيماً في الأحوال
العمومية هو مما ظهر من الاختراعات على يد البشر . وكما أن المدنية وقتئذ لم

١- تخت: كلمة فارسية مستخدمة في اللغة التركية بمعنى كرسي السلطنة والملك . الدراوي
اللامعات ١٦٧ .

تتقدم كما يليق كذلك كيفية استعمال البارود لم تتعلم كما ينبغي، وقد استعمل الإنكليز نوعاً من المدفع كما سبقت الإشارة إليه فأروا منه فوائد عظيمة. وظهر في العصر المذكور مرض عمومي من نوع الهواء الأصفر فنسب إلى اليهود كما نسب إليهم السحر، وفي هذه المرة ضيقوا عليهم كما ضيقوا عليهم أولاً.

وهذا الداء وإن كان سبباً لفصل الحرب الجارية بين الإنكليز والفرنسيين مدة قليلة فإن نارها اشتعلت بعد ذلك، وكان النصر والظفر للإنكليز ثم إنه لما صار في إنكلترا احتياج شديد إلى الدراهم اجتمع مجلس البرلمان^(١) الإنكليزي ورفع بهذه الوسيلة للملك بعض تكاليف اضطر لقبولها وبذلك توسع وازداد نفوذ البرلمان. وفي ذلك العصر اتخذت أصول انقسام برلمنتو إنكلترا إلى قسمين يعنى دائرة الأوصلاء والكهنة. ودائرة نواب الأمة. وزيادة نفوذ نواب الأمة في كل الأمور نتجت عن مثل هذه الأحوال.

وبسبب موت بعض أوصلاء فرنسا وأسر آخرين منهم انحط نفوذ كلمتهم وصار أهالي باريس أحراراً في تصرفاتهم، واكتسب مجلس الأمة العمومي زيادة نفوذ تذكر. غير أنه في أثناء هذا الاضطراب قام فلاحو فرنسا على التجار فصاروا يعدمون كل من يصادفونه من الناس، ولأجل كبح جماحهم صار الأوصلاء ينتقمون منهم بصورة وحشية.

ولما ضبط في فرنسا كثير من الأملاك إلى الميري^(٢) انتقل بعض كبار الأوصلاء عنها ثم لحقهم على أثرهم من عائلة الملوك جماعة من الأمراء وقد كانوا قبل ذلك متصرفين في الأراضي الكلية، وصارت قوتهم تعارض نفوذ الملك وتزاحمه وبقي أهالي فرنسا بعد ذلك تحت المظالم والتعديات الكثيرة.

١ - البرلمان: المجلس النيابي والهيئة التشريعية التي تجمع النواب الذين يتم اختيارهم عن طريق الانتخاب بحيث يمثل كل منهم دائرة معينة ليمارسوا السلطة باسم الشعب ونياابة عنه. معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. ص ٣٠٤.

٢ - أي الأراضي الحكومية.

وبسبب المناظرة التي وقعت بين الدوق أورليان شقيق ملك فرنسا وبين عمه الدوق بوربون انقسموا إلى فرقتين وظهرت الحروب الداخلية وابتليت فرنسا بمصائب تزيد على مصائبها الأولى.

وقد اتفقت فرقة بوربون مع ملك إنكلترا فدخل الإنكليز إلى باريس وأخذوا يجرون الأحكام باسم ملك إنكلترا ولم يبق في يد دولة فرنسا غير بضعة إيالات. ومن الحوادث الغريبة أنه ظهر فيها أوائل المائة التاسعة للهجرة بنت أمرها من خوارق العادات، وذلك أنها نشرت راية وقادت العسكر الذي اجتمع تحتها باسم ملك فرنسا لحرب الإنكليز، فغلبتهم ثم أن البوربونيين قبضوا على هاته الفتاة فباعوها من الإنكليز، فادعوا عليها أنها ساحرة وألقوها في النار فاحترقت. ثم أن البوربونيين ندموا على ذلك وتأسفوا على ما حل بأوطانهم وصاروا يخجلون من تعديات الإنكليز الحاكمين في باريس، فاتفقوا مع ملك فرنسا فأخرجوا الإنكليز من باريس ثم أخذوا يستخلصون بلاد فرنسا من يدهم شيئاً فشيئاً.

وظهرت وقتئذ في إنكلترا حرب داخلية هائلة امتدت ثلاثين سنة فأمنت لذلك فرنسا من تخطي الإنكليز إليهم وحصلت على الراحة غير أن العداوة بقيت بين الفريقين مدة مديدة.

وبعد استخلاص السلطان صلاح الدين القدس الشريف من يد الصليبيين وانقراض حكومتهم من بلاد الشام، عادوا إليها وتوالى هجوم عساكرهم الجرارة ثمان مرات على جهات الأناطولي وأرض الشام ومصر.

وأما بلد القدس الشريف فلم يزل تارة يدخل في يد الإسلام وتارة في يدهم على التناوب إلى سنة ٦٥٢ هجرية ثم كثرت بعد ذلك المواصلات بين الممالك الشرقية والغربية ولم يطل الأمر حتى انقسمت دول أوربا إلى حكومات كثيرة وصارت أحوالها كأحوال ملوك الطوائف، وهذا الأمر منعها زماناً طويلاً عن الحصول على أعمال كبيرة.

{أوروبا والدولة العثمانية}

وفي ذلك الوقت ظهرت الدولة العثمانية واتسعت دائرتها سريعاً وفي حال أخذها في توسيع ممالكها في جهة الروم إلى وقعت حكومات البابا والبندقية وألمانيا وقيصرية القسطنطينية في الاضمحلال، وحصلت المواصلات نوعاً ما بين ملوك الجنكيزيين واق قيونلير وسلاطين مصر وزاحموا الدولة العلية في تلك الأطراف وسعوا فيما يشغلها عن توطيد أمرها.

ثم إن الدولة العلية وسعت دائرة مكانتها في المائة الثامنة للهجرة كما بيناه وبعد أن هيأت قوة من الجنود المظفرة لتسهيل فتح الأستانة توقفت عن ذلك على أثر وقعة التيمورلنك^(١) فحصل لها فتور. وقد بينا في الفصل الرابع أن قارلوس السادس ملك فرنسا هنأ تيمور في ظفره، فأجابه تيمور ربما كان من غلبة للسلطان يلديرم بايزيد ورغبه في ترويج التجارة التي هي أعظم سبب في عمران العالم، ولكن أهل أوروبا وقتئذ كانوا مشغولين بدفع غوائلهم حتى أنهم أخرجوا الممالك الشرقية من أفكارهم كأنها لم تكن موجودة، وأهملوا أسباب التمدن والترقي كالتجارة وغيرها. وبالجملة فلم تظهر من هذه المخابرة الوقتية فائدة، أما سطوة تيمور فإن رهبتها كانت تملأ القلوب رعباً، ثم بعد زوالها جددت الدولة العلية حديقة سلطنتها وفتحت فتوحات عظيمة في الروم إلى، ولأجل الاتفاق والاتحاد على العثمانيين توجه باليولوغ قيصر استانبول وبطريقها إلى إيطاليا بقصد جمع المذهبين الأرثوذكس والكاثوليك، ولكنهم لم يقدرُوا على إجراء شيء ما فرجعوا بلا نتيجة. وذلك لأن الإفرنج بعد انقضاء عصور الحروب الصليبية حصروا أنظارهم في تحصيل العلوم والصنائع فلم تتوجه أفكار العموم إلى غير هذا. وانتشرت في إنكلترة بعض مقالات في الحرية تضاد البابا

١- تيمور لنك (٧٣٦-٨٠٧هـ) : ملك المغول من سلالة جنكيز خان، اشتهر بفتوحاته الواسعة من سمرقند شرقاً إلى بلاد الشام والأناضول غرباً. وكتب المؤرخون كثيراً من مظالمه وتعدياته وما جُبِلَ عليه من حب سفك الدماء. انتصر على السلطان العثماني بايزيد الأول في معركة انقره سنة ٨٠٤هـ. مات ودفن في سمرقند عن ٧١ عاماً، ومدة سلطنته ٣٦ سنة.

قاموس الأعلام ١٧٢٦/٣.

والرهبان، فسرت هذه المقالات الداعية إلى الحرية في المذهب إلى أماكن أخرى في أوروبا. وبناء على ذلك فلم تبق الأعمال بيد الرؤساء الروحانيين كما كانت من ذي قبل. وأخذت دول أوروبا كل واحدة منها تنظر في منافعها المخصوصة بها. ثم لما قرب العثمانيون من حدود ألمانيا رأت دول أوروبا أنه لا بد من حاكم قوي العدة يقف في وجوههم، ولذلك صار انتخاب أكبر امبراطور سنة ٨٤٢ هجرية وهو من عائلة هابسبورغ، وكان دوقاً لأوستريا ثم انتخب ملكاً على المجر، وبعد وفاته بسنة انتخب للإمبراطورية فريديريك وهو من أقربائه وألبس التاج من طرف البابا.

وبعد ذلك اختصت الإمبراطورية بعائلة هابسبورج. وفي ذلك العهد صارت مدينة فيانا عاصمة للإمبراطورية. وكان فردريك المذكور آخر من لبس التاج في رومية، ثم بعد ذلك طرأ النقص الكلي والانحطاط التام في نفوذ البابا وأصبح الذين جاءوا من بعده من الإمبراطوريين يجرون احتفال التتويج في ألمانيا ويأخذون عنوان الامبراطورية فيها بدون احتياج إلى التوجه إلى رومية. على أن انتخاب الإمبراطورين على هذه الكيفية كان غير منحصر في حكام أوستريا، ثم صار محصوراً في عائلتهم لا يتجاوزها، وذلك لأن دولة أوستريا استولت على مملكة المجر وسائر الممالك والأيلات الواقعة خارج ألمانيا كما بيناه، وزاد ذلك في أسباب تمكنها واقتدارها. وصار الإمبراطور يسعى في انتخاب ولي عهده للإمبراطورية، ويحصل على ذلك، فبناء عليه بقيت إمبراطورية ألمانيا في عائلة هابسبورغ التي كانت دوقية لأوستريا مئين من السنين، وما زال الحال جارياً على هذا المنوال إلى زمان نابوليون بوناپرت.

وقد كان شأن إمبراطورية ألمانيا عالياً جداً ونفوذها قوياً كما تقدم ذكره، وكان أمراء الألمان يمتازون في الهرسك بعنوان دوق أو ماركي، وهذه الألقاب كانت لهم بطري الإرث، وكان كل منهم حاكماً مستقلاً ثم صارت الإمبراطورية بعد

ذلك أمراً اسماً واعتبرت هيئة حكومات ألمانيا كأنها دولة واحدة فينتخبون واحداً منهم ويعطونه لقب إمبراطور الألمان، ويعرف برئيس أمراء الألمان، وإذا ظهر عدو قاصداً إفساد نظامهم المرعية أحكامه عندهم يجهزون مقداراً معيناً من العسكر ويقومون بدع الصائل بحسب الشروط المربوطة بقيود وضوابط معتبرة عندهم، وبهذا صارت رتبة الإمبراطورية ذات شأن واعتبار وشهرة وكان من شأنها المحافظة على نظام الألمان، فلذلك كانت رتبة عظيمة معتبرة عندهم، وبهذا صارت رتبة الإمبراطورية ذات شأن واعتبار وشهرة وكان من شأنها المحافظة على نظام الألمان، فلذلك كانت رتبة عظيمة معتبرة مستثناة، والحاصل أنه لما رأت دولة أوربا أن نفوذ أوامر الدولة العلية سرى في البلاد وأن سطوتها أخذ نطاقها يتسع يوماً فيوماً في بلاد الروم إيلي بوجه كان موجباً لقلق أفكارهم، أخذوا في التدابير الاحتياطية، وكان استخدام العساكر ذوي العلوفة^(١) إلى ذلك الوقت محصوراً في نظامات الدولة العلية، أما سائر دول أوربا فكان الأصلاء يقدمون لها الجيوش عند تأسيس الحاجة، ثم إنه أحدث في سنة ٨٤٩ هجرية في فرنسا عسكر موظف فازدادت قوة الملكية وسقط نفوذ الأصلاء وضعف نفوذ البابا في فرنسا أكثر من سائر الممالك، فأخذت فرنسا إذ ذاك تظهر في هيئة دولة منتظمة وصارت تبحث عن منافعها السياسية، فبناء على ذلك اضطرت سائر دول أوربا إلى استخدام عسكر موظف طوعاً أو كرهاً، ثم استعمل ملوك فرنسا عدة تدابير سياسية واستولوا على قسم عظيم من إقطاعات الأصلاء وأوهنوا نفوذهم، وزالت في ذلك العصر غائلة أصحاب المقاطعات التي كانت من أكبر البلايا على فرنسا وأخذ اعتبار دولتها يجري في مجراه.

وكان عسكر الدولة العثمانية في ذلك الوقت أكثر انتظاماً وضبطاً من عساكر

١ - أي الذين يتقاضون مرتبات ومعاشات منتظمة.

بقية الدول، وفي أيام السلطان محمد خان الثاني زاد الاعتناء في استعمال الأسلحة النارية وسكب المدافع الكبيرة، وفي زيادة تنظيم أمور العسكرية على ما هو جار عند الدول، حتى صارت هيئة عساكره تدهش جميع الجهات، فهجم في سنة ثمانمائة وسبعة وخمسين على إسلامبول وحاصرها وفتحها، واستقرت الدولة العلية في عاصمة امبراطور الشرق، وتأيدت وأمنت حكومتها في قطعة أوروبا فتغيرت أفكار الإفرنج وتجددت السياسة. أما أصحاب المعارف الموجودون في إسلامبول فقد ذهبوا إلى بلاد الإفرنج، واشتغلوا هناك بنشر العلوم والمعارف فأخذت الصنائع والمعارف تزداد رواجاً في بلاد الإفرنج، وظهر فيها اختراعات متنوعة وأخذت أحوال أوروبا من ذلك الوقت تترقى فيما نشاهده الآن فبناء على ذلك صار فتح إسلامبول معدوداً عند الأوروبيين من الوقائع المهمة.

إن تاريخ العصر^(١) الخامس عشر في أوروبا الذي هو من سنة ألف وأربعمائة للميلاد إلى سنة ألف وخمسمائة يعد عند الأوروبيين مهماً جداً، لأن كل التبدلات والتغيرات كإحداث عسكر منظم في فرنسا، وفتح إسلامبول، والتدابير اللازمة التي اتخذت بكل قطر لتحسين إدارة الممالك، هي كلها من وقائع هذا العصر المذكور كما بيناه، واكتشف فيه أيضاً على أمريكا وعلى طريق رأس الرجاء الصالح، وذلك لما شرع البندقيون في تجارة الهند على طريق مصر حسدهم الإسبانيول والبرتوغاليون، فسافر القبطان قولومب من أهالي جنوه إلى جهة الغرب في مراكب إسبانيا كي يجد في البحر طريقاً إلى بلاد الشرق فصادف أمريكا، وكذلك البرتوغاليون عند ذهابهم في شطوط إفريقيا اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح. واكتشاف أمريكا أتى بفوائد عظيمة للأوروبيين من جهة التجارة، بل من جهات متعددة فإنه سهل المسير في طريق رأس الرجاء الصالح من أطراف الهند وإفريقيا وجزيرة العرب إلى عدة ممالك مهمة، وأخذت همة الأوروبيين تزداد قوة، واجتهادهم وسعيهم يتقدمان في الحصول على كل شيء.

١ - أي القرن الخامس عشر الميلادي.

ووجدت صنعة الطبع والتمثيل في ذلك العصر كما ذكرناه في الفصل الرابع، وانتشرت أنواع العلوم والمعارف بسهولة في أوروبا وأخذ التمدن يترقى بكمال السرعة.

والحاصل أن العصر الخامس عشر للميلاد كان عصراً جديداً لأوروبا. وقد سمى المؤرخون الأوروبيون ما مر من العصور من زمن آدم إلى انقراض دولة رومية الواقع في سنة أربعمئة وست وسبعين للميلاد (التاريخ القديم)، وسموا القرون التي مرت من ذلك الزمن إلى سنة ١٤٥٣ التي فتحت بها الأستانة، أو إلى سنة ١٤٩٢ التي اكتشفت بها أمريكا (بتاريخ القرون الوسطى)، وسموا الزمن الذي امتد بعد فتح إسلامبول أو كشف أمريكا إلى يومنا هذا بالتاريخ الجديد.

وعلم أن انقراض دولة رومية كان من المسائل المهمة، وكذلك ظهور الإسلام في الزمن الذي انتشرت فيه الديانة العيسوية في ممالك أوروبا زمناً طويلاً؛ فإنه أوجب تغيير العالم إلى حالة أخرى، وهذه الحالة وإن تخللها تقلبات عديدة فإن الأساس الأصلي لم يزل باقياً إلى الآن وآثاره جارية.

وبناءً على أهمية هذه الأمور رأينا من المناسب أن نجعل التاريخ على قسمين يسمى أحدهما بالتاريخ القديم، وهو من زمن آدم إلى عصر السعادة المحمدي، والثاني بالتاريخ الجديد وهو من عصر السعادة المحمدية إلى الزمن الذي بعده^(١). وأهمية العصر الخامس عشر للميلاد الذي هو قسم من هذا التاريخ الجديد ظاهرة، فإن أوروبا بلغت فيه درجة الكمال في المعارف والصنائع ودخلت في سلك التمدن وأخذت الدولة العلية أيضاً في ذاك العصر بعد فتح إسلامبول في تقوية الأمور البحرية.

١- انفرد المؤلف بهذا الرأي الجديد في تحقيق التاريخ، إذ المتعارف عليه بين المؤرخين المعاصرين في الغرب والشرق اعتماد التصنيف الأوروبي لحقب التاريخ (التاريخ القديم والعصور الوسطى والتاريخ الحديث). وهذا الرأي الجديد جدير بأن يتبناه الباحثون والمؤرخون في العالم الإسلامي. (انظر الدراسة المقدمة في أول هذا الكتاب).

ولما دخلت إسلامبول بيد المسلمين كما ذكرنا سابقاً توجهت خواطر أهل أوروبا للاستيلاء على الممالك الشرقية، ولكنه لم يحصل اتفاق فيما بينهم ولم يقدروا على أن يأتوا بشيء نافع، أما السلطنة السنية فكانت تكتسب يوماً فيوماً جسامه واتساعاً وقوة، جعلت كافة الدول تعترف لها بالغلبة الكاملة، ووصل العثمانيون أبواب فيانا والتجأ فرانسيسكو ملك فرنسا إلى الأعتاب السلطانية.

وفي أوائل المائة العاشرة هجرية افتتح السلطان سليم الياوز فتوحات عظيمة في قطعتي آسيا وإفريقيا، وكان إذ ذاك حائزاً على الخلافة الإسلامية فارتفع شأن الدولة العلية وقويت شوكتها وعلت مرتبة أخرى فوق ذلك، ثم أتم ولده السلطان سليمان القوانين والنظامات الملكية والعسكرية والقوة البحرية، وفتح الفتوحات العظيمة وأظهر شأن السلطنة السنية وعظمتها براً وبحراً وشرقاً وغرباً. وفي ذلك العصر كان فرنسوى ملك فرنسا حاكماً ذا قوة شديدة فاستولى على دوقية ميلان الواقعة في إيطاليا، واشترأت نفسه لتوسيع مملكه، ودولة إسبانيا في ذلك الوقت كانت أيضاً دولة جسيمة جداً، وكانت إيالة نابولي في إيطاليا وجزائر ساردينيا وسيبيليا وأماكن كثيرة في إفريقيا والأراضي التي اكتشفت في أمريكا جميع ذلك تحت حكم ملك إسبانيا. وقد تزوج ابن مكسيميليان ابن فريدريك إمبراطور ألمانيا السالف الذكر الذي هو من عائلة هابسبورغ بابنة ملك إسبانيا، فاولدها شارلكان الذي صار ملكاً لإسبانيا بالوراثة وعند وفاة مكسيميليان سنة ١٥١٩ ميلادية أراد فرنسوي أن يكون إمبراطوراً، وكاتب في ذلك البابا والأساقفة والأمراء الذين من شأنهم الانتخاب فلم يفده ذلك شيئاً، وانتخب المنتخبون شاركلان للامبراطورية فانضمت الدولتان الجسيمان ألمانيا وإسبانيا وصارتا دولة واحدة كبيرة، ونوى شارلكان أن يجعل جميع أوروبا حكومة واحدة كما نواه شارلمان.

وبناء على ذلك لم يمر زمن قليل حتى انفتح باب الحرب بين شارلكان

وفرنسوى، فعُلب فرنسوى وأخذهُ شارلُكان أسيراً ثم أطلقهُ على شرط أن لا يتعرض لإيطاليا. وبعد ذلك اتفق مع دولتي انكلترة والبندقيين على شارلُكان فغُلبوا أيضاً وأُكرهُوا على عقد المصالحة. وفي أثناء ذلك كان شارلُكان في إيطاليا فألبسه البابا تاج إمبراطورية رومية وتاج ملكية لومبارديا ومن بعد ذلك لم يلبس أحد تاج الإمبراطورية في إيطاليا.

ونظراً لهذه الحال أضحت دولة فرنسا بين ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا واقعة في مخالب الأمبراطورية، واجتهد فرنسوى ملك فرنسا في تخليص ملكه من هذه الورطة فإذا به ألقى نفسه بذلك السعي في مضيق الحبس. ولما لم يجد طريقة للنجاة إلتجأ إلى السلطان سليمان القانوني، وكان تخيل في عقله ظفر السلطان سليمان القانوني وقوته على الإمبراطور، وذلك بما رآه من آثار صولته وسطوته الجليلة الحاصلة في المجار ورودس وطرابلس وتونس والجزائر، ولم يبال بتعصب أهل أوربا الشديد وجهالتهم في ذلك العصر ولم يلتفت إلى الاختلاف الديني، بل رجح أحداث مناسبة بينه وبين السلطان المشار إليه للاستمداد منه لأجل سلامة ملكه، ثم إنه استمد منه مراراً وأمدّه في البر والبحر على ما بيناه في الفصل الرابع والسابع.

وفي أثناء ذلك ظهر البروتستانتيون في أوربا وطعنوا وردوا حكومة البابا الروحانية، ورفعوا الأصنام من الكنائس، واعتبروا المسائل الأصلية في الإنجيل، وأنكروا المسائل التي زيدت عليها وقتاً بعد وقت بعد ظهور الديانة العيسوية، واتخذوا لهم مذهباً بسيطاً جداً. وللكاثوليك اعتقادات مخصوصة في البابا منها أنه يغفر خطايا الناس، وأن كل شيء يتكلم به ويعرفه فهو عن إلهام، ولهذا حصلت البغضاء والعداوة بين الطرفين أدت إلى ظهور حروب مذهبية في كل جهة. وأما شارلُكان فإنه لم يقدر على الاهتمام بالأمور المذهبية لأنه كان يخاف

السلطان سليمان كما أنه يخاف غائلة فرنسوى . وفي زمن قليل انتشر مذهب البروتستانت في مواضع كثيرة من ألمانيا، وهذا المذهب وإن يكن سرى إلى فرنسا أيضاً فإن فرنسوى كان يميل كثيراً إلى الحكومة المطلقة، ولذلك لما رأى مذهب البروتستانت من جملة مذاهب الأفكار الحرة، وكونه مغايراً للحكومة المطلقة ولطابعاته السياسية، كعدم إخراج البابا من يده ضدّاً لشارلكان فلم يرد انتشار هذا المذهب وإشاعته في فرنسا، ومع كون هذا المذهب شاع في جميع أطراف أوروبا، فإن في فرنسا كان كل من يصير بروتستانت يعاقب. ولذلك كان البروتستانت الموجودون في ألمانيا يحركون شارلكان عليه .

ولانتهاز الفرصة في الاستفادة من هذه المنازعة المذهبية دخل السلطان سليمان مراراً إلى بلاد المجار وذلك في سنة تسعمائة وتسعة وثلاثين هجرية . ثم إن شارلكان أمد البروتستانت لمقاومة العساكر الإسلامية فرجعوا عنها، وبعد بضع سنين فتح فرنسوى حرباً أخرى على شارلكان وبعد أن اتفق مع السلطان سليمان أجرى متاركة بدون حصول نتيجة، وبعده عند ابتداء الحرب صالحه عليه ووعد شارلكان بأن يكون معيناً له على الدولة العلية ويحاربها معه .

وفي سنة ٩٥٤ هجرية مات فرنسوى وخلفه في الملك ولده هانري الثاني ومع كونه أعدم البروتستانت الذين في فرنسا اتفق مع أمراء بروتستانت ألمانيا على شارلكان وانتصر في الحروب التي وقعت بينهما . وكان يستمد من السلطان سليمان كأبيه فأرسل إليه الأسطول الهمايوني نجدة . وفضلاً عن استيلائه على بعض ممالك لويس الموجودة في تصرف ألمانيا فإنه استرد أيضاً من الإنكليز مدينة قاله التي كانت من مائتي سنة في أيديهم وسدت أبواب فرنسا أمام الإنكليز .

ولما غلب شارلكان في حروبه مع الدولة العلية وعجز عن رد الأراضي التي

دخلت بأيدي الفرنسيين اجتهد في الجمع بين الكاثوليك والبروتستانت ولما لم يحصل على طائل في ذلك نقم على الدهر لسوء تصرفاته به . وفي سنة ٩٦٤ هجرية جعل أمر دولة إسبانيا إلى ولده وترك دولة النمسا والإمبراطورية إلى أخيه الذي هو ملك المجر واعتزل هو في دير في إسبانيا ، وبقيت العداوة بين دولة فرنسا وعائلة هابسبورغ جارية موروثه واشتغل الامبراطورون أولاً في الحروب العثمانية وثانياً في المنازعات المذهبية .

وبعد هذه الحروب التي نشأت عن التعصب الذي دعا إليه ظهور مذهب البروتستانت كما ذكرناه ، تداخلت دول فرنسا وإنكلترا وروسيا في أمر بعض حكام الألمان على وجه الحماية والتودد لهم ، واعتبروا اكتساب النفوذ في ألمانيا من مقتضيات مصالحهم . وبذلك دخل الخلل في الاتحاد الألماني شيئاً فشيئاً .

ولتفقم هذا النزاع المذهبي وقتئذ قامت في إسبانيا على قصد حماية المذهب الكاثوليكي طائفة اسمها الجزويت ومن قواعدها الأصلية أنها تقبل الوسائط في الحصول كل مقصد حسن عندها ، وكلمة الجزويت يضرب بها المثل في أوروبا إلى الآن في مرتكب النسيمة ذي الوجهين ورديء الأخلاق وأخذت بعد ذلك هذه الطائفة تتداخل في الأمور السياسية فاطردتها دول أوروبا .

وفي زمن فرنسوي نجح الناس في العلوم والمعارف ، وكما أن الفرنسيين كانوا في ذلك الوقت يشكون ويتدمرون من مظالم الأوصلاء ، كانوا أيضاً غير راضين من حكومتهم بسبب أعمالها الرديئة وأحرم فرنسوي أهالي فرنسا من كافة أنواع حرية الأفكار المذهبية والسياسية . وحصره للأفكار العمومية وبلوغه في ذلك إلى هذه الدرجة كانت عاقبته غير حسنة لدولة فرنسا في المستقبل .

وتلك العداوة التي كانت بين فرنسوى وشارلكان ونشأ عنها ما أشرنا إليه من الحروب العديدة التي امتدت بينهما عدة سنين، أوقعت أوروبا في ضيق شديد. وظهرت أمور مهمة تستحق الذكر، ومن جملة ذلك أن شارلكان وفرنسوى كانا من أكبر ملوك أوروبا في ذلك العصر، وكان كل منهما محباً لدولته حريصاً على إعلاء شأنها وشهرتها، فتخيل كل منهما أن يجعل أوروبا كلها دولة واحدة له تقليداً لشارلمان، ولكن لم يمكنه ذلك مع وجود السلطان سليمان وقتئذ الذي كان جالساً على تخت إمبراطورية الشرق ومستولياً على أكثر العالم، وأيضاً فإن كلاً من دولتي الانكليز والبنديقيين كان في قوة وشدة فأبتا أن يخرج ما تصوره شارلكان وفرنسوى من القوة إلى الفعل، وأخذتا في المداخلة في أمر الحروب والهدنة بينهما، فكانتا مرة تتحدان مع أحدهما، وطوراً تعقدان اتفاقاً بينهما.

وفي ذلك العصر ظهر للوجود أصول الاتفاق والاتحاد الذي لم يكن معهوداً عند الأوائل. وعلى هذا أخذ بعض المؤلفين القواعد والرسوم والعلاقات التي اعتبرت في علاقات الدول وطبقوها على العقل والحكمة، فما كان مضرّاً تركوه وما كان من الأصول المعتمدة موافقاً للحكمة قبلوه ووافقوا عليه وأضيف إليه بعض قضايا حسنة. فظهر للوجود فن يشتمل على الحقوق الدولية وصار معروفاً باسم (دوروه ده زان) أعني حقوق الملل.

فبوسيلة هذه الحروب عرف قدر حقوق الملل، ثم إن حكماء أوروبا ألفوا بعد ذلك زمناً بعد زمن كتباً عديدة وضعوا فيها بعض الأصول والقواعد المؤيدة لمحاسن ذلك الفن، فأدرك ملوكهم أنها من المواد الخيرية الموجبة للأمن والراحة فصاروا يعتبرونها كأنها عهدة عقدت فيما بينهم. وإلى الآن لا تقدر دولة ما أن تخالف أصول وقرار هذا الفن، ومع ذلك لا يقتضي أن نخرج من الأفكار قاعدة (الحكم لمن غلب) التي هي تقاوم كل فن.

وبمناسبة الأحوال المشروحة نال فرنسوا من السلطان سليمان عهداً في سنة ٩٤٢ وهو أول عهد انعقد بين الدولة العلية ودول أوروبا. وذلك العهد كان حاوياً بعض مساعدات وامتيازات، ثم بعد ذلك أضيفت إليه زيادات عدة مرات. وكان أساساً للمعاهدات التي عقدت بعد ذلك بين الدولة العلية ودول أوروبا. وفي ذلك العصر كان تجار أوروبا في بلاد الدولة العلية قليلين جداً. وكانت أحوالهم كأحوال المسافرين أو المستأمنين فلذلك كانوا لا يقيمون أكثر من سنة، وكانت حرية التجارة في أيام الإنكشارية موقوفة على مساعدة الدولة العلية، وحيث إنه لم يكن أحد من تجار الدولة العلية في بلاد الإفرنج فلم تر الدولة العلية لزوماً لطلب شيء من دول أوروبا في مقابلة الامتيازات والمساعدات التي منحتها إياها مؤقتاً، ولم تر لزوماً أيضاً للاستناد على معاهدة الأحكام وذلك اعتماداً على قوتها الكلية. وبناء عليه فلم تراع الأصول المرعية المتقابلة في المعاهدات التي انعقدت بينها وبين دول أوروبا. ولما كانت المعاهدات الهمايونية عبارة عن شروط هي من قبيل المساعدة والامتياز ولا يوجد شيء في مقابلتها تمسكت بها دول أوروبا واعتبرتها في حكم عهود لا تتغير، ووصلت الأمنية والراحة في الممالك المحروسة إلى درجة الكمال وأخذ الأوروبيون يتواردون إليها بكثرة، وصاروا في حكم المتوطنين وتداخل معهم كثير من أهالي الوطن في الأمور التجارية. ولما كان يتعذر العمل بعرفهم بل يشكل أمره على ذوي الامتيازات من الأهالي في داخل المملكة وكان دوام هذه الحال مغايراً لحقوق الملل، فما أمكن تعديل المعاهدات وتنقيحها وبقي الأمر جارياً إلى الآن على وضعه القديم السقيم.

وقد شاهدت دول أوروبا حرص فرنسوى وشارلكان وطمعهما وأدركت أن دولة من الدول إذا اكتسبت زيادة قوة بالنسبة إلى سائر الدول يحصل خطر عمومي، فرأت وضع موازنة للأصول السياسية لازماً ومنذ ذلك العصر سعت في منع من يرغب منهم في زيادة قوته. ولم تزل أصول هذه الموازنة جارية

ومعتبرة إلى الآن. وفائدتها أيضاً ظاهرة في حق الدولة العلية. ولما كان جلب مثل هذه الأمور المهمة إلى مركز الحصول موقوفاً على التدبر بحكمة نشأ فن (الدبلوماسية)^(١) الذي هو عبارة عن فن المكالمة وإدارة الأمور الخارجية.

والحاصل أن زمن حكومتي فرنسوى وشاركان كان لمدينة أوربا مبدأ لعصر جديد ثم أخذت المدنية والعلوم والمعارف بعد ذلك في التقديم يوماً فيوماً. ولكنها لم تنتشر دفعة واحدة بل احتاجت إلى زمن طويل حتى بلغت درجة الكمال. ويروى أنه عندما كان السلطان سليمان يبني في إستانبول دار الشفاء للمجانين، كان الأوروبيون إلى ذلك الوقت لم يتركوا عاداتهم الوحشية، ويروى أنه إذا حبس عندهم شخص يقولون دخل فيه شيطان ويلقونه في النار فيحترق.

وبناء على ما حصل من الأهمية في جهات الغرب بسبب الوقائع والمحاربات التي جرت بين فرنسوى وشارلكان، توجه السلطان سليمان إلى تلك الجهات. ولم يجز اهتمام كلي في غيرها، وابتدأت إذ ذاك دولة روسيا تتقوى شيئاً فشيئاً في الجهات الشمالية واستولت على ولايتي ازدرهان وقزان^(٢) وحصلت لها قوة بتوسيع دائرتها. ثم أخذت بعد ذلك تنمو يوماً فيوماً.

وفي ذلك العصر كانت دولة إسبانيا على ما ذكرناه سابقاً دولة جسيمة، وكان الإسبانيول متعصبين جداً، حتى أنهم كانوا يهرقون الدماء لمجرد كلام كهنتهم الكاثوليكين. ولذلك لم يتركوا شيئاً من أنواع الغدر والظلم الخارجين عن حد

١ - الدبلوماسية (Diplomacy - Diplomatie) هي القواعد الخاصة بعلاقات الدول بعضها ببعض لانسجام هذه العلاقات وحفظ السلم بينها، وتستعمل كلمة دبلوماسية كمرادفة لكلمة التفاوض أو فن التوفيق في المسائل السياسية. كذلك تستعمل لتدل على الجهاز الإداري للعلاقات الدولية وعلى الصفات الشخصية التي تتميز بالقدرة على الإقناع. معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ص ١٠٩.

٢ - قزان (Kazan) مدينة تبعد عن موسكو بمقدار (٧٢٥ كيلاً) إلى الشرق منها، وأهاليها من التتار المسلمين. وقد استولى قياصرة روسيا على المنطقة في أواخر القرن السادس عشر الميلادي. قاموس الأعلام ٣٦٥٥/٥.

الإنصاف والإنسانية إلا وعاملوا به الإسلام أهل الأندلس. فكم أتلّفوا من الإسلام بأنواع العقاب وهدموا بيوتهم وشتتوا شملهم. وفي النهاية أخرجوا من بلاد الأندلس مليوناً من الإسلام ولم يتركوا مسلماً واحداً في قطعة إسبانيا. وحيث كان هؤلاء الإسلام^(١) من القديم متمدنون وذوو همم وعرض وفيهم كثير من أرباب الصنائع والمعارف، فلما أجرى بهم الأسبانيول هذه الأعمال المغايرة للأصول الدولية وقاعدة الحكمة وخلت منهم بلاد الأندلس، وقعت دولة أسبانيا من ذلك الوقت في الاضمحلال ولم تقدر على التخلص من حالة الضعف، ولا على إيصال مدينتها إلى درجة سائر دول أوروبا.

وكانت الطائفة البروتستانتية ممنوعة شديد المنع في فرنسا كما ذكر سابقاً، إلا أنه بعد زمن يسير أي سنة ٩٦٧ للهجرة سرت فيها أيضاً حرية الأفكار المذهبية، فدخل كثير من الفرنسيين في مذهبها، وحدثت بسبب ذلك محاربات بينها وبين الكاثوليك، وأخذ كل منهما يعامل الآخر معاملات وحشية. وإذ صار بعض أمراء العائلة الملوكية من البروتستانت اشتدت الحروب المذهبية وتزايدت بالتدريج، حتى إنه في إحدى الليالي نهض الكاثوليك في باريس ودخلوا بيوت البروتستانت وأهلكوهم عن آخرهم. وهكذا جرى القتل العام في البروتستانت في بعض الآيالات، وتلفت منهم نفوس لا تحصى، وتوفي كارلوس التاسع ملك فرنسا كدراً من إجراء هذه الواقعة المؤلمة، فأخذ خلفه هنري الثالث يعامل البروتستانت بالرفقة واللطف، فانفعل مع الكاثوليك وحرمه البابا، فتقرر لدى هنري الثالث أن يتفق مع هنري رئيس البروتستانت الذي هو ملك ناوار من عائلة بوربون المقيم في أطراف جبال البيرانه فدخل عليه خوري وقتله بالخنجر، فلم يبق أحد من العائلة الملوكية سوي هنري ملك ناوار، فلم يقبله الكاثوليك وحرمه البابا

١- في النسخة التركية عبارة «أهل الإسلام» بينما يذكرها العرب الإسلام في مواضع مختلفة.

ولم توافق أساتذة دار الفنون على توليته، فاجتمع مجلس فرنسا العمومي في باريس، وبينما كانوا في كمال الحيرة في تنصيب ملك إذ نادى عموم الشعب بقبول هنري دفعاً للفتنة على أمل أن يصير كاثوليكيًا، فجاء ودخل باريس، وبعد بضع سنين أذن للبروتستانت بإجراء واجباتهم في الحرية.

فاستراحت فرنسا التي خربت من هذه المنازعات والحروب المذهبية التي امتدت نحو تسعة وثلاثين سنة، وعندما ابتدأت الأمور تجري في مجاريها هجم أحد المارين في الطريق على هنري الرابع وهو في عربته وضربه بالسكين فقتله. وحيث إن ولده الذي صار ملكاً مكانه كان قاصراً جعلت أمه وصية عليه، وكانت متصفة بالأخلاق السيئة فأنفقت جميع النقود الموجودة في الخزينة سدى، وأصبحت إدارة فرنسا في حالة سيئة، فاجتمع أعضاء المجلس العمومي في سنة ١٠٢٣ هجرية للمذاكرة، ولكنهم صرفوا وقتهم في المباحث والخطب التي لا طائل تحتها وافترقوا بدون نتيجة، ولم يجتمع المجلس العمومي من بعد ذلك إلى أن حصل اختلال فرنسا العظيم.

وفرنسا وإن بلغت هذه الحالة السيئة فبسعي الكاردينال ريشيليو وغيرته انتظمت أحوالها في وقت قليل، واكتسبت نفوذاً وقوة أكثر من الأول. وهذا ريشيليو هو الذي تولى مؤخراً رئاسة الوكلاء في فرنسا وهو من الأساقفة واستعمل في سياسته ثلاثة وسائل أساسية لكسر نفوذ البروتستانت والأصلاء وعائلة هابسبورغ، ونجح مسعاه في الثلاث، فإنه أمر بإعدام الاصلاء المخالفين، وأسقط بعد ذلك بالكلية أصول أصحاب المقاطعات في فرنسا، وضيق بالتهديد على البروتستانت الموجودين في فرنسا، وصار يحرك بروتستانت ألمانيا على دولة أوستريا ويستجلبهم لفرنسا، ومع كون دولة فرنسا دولة كاثوليكية فإنها لم تفر عن المداخلات حساً ومعنى في المحاربات التي جرت بين أمراء ألمانيا المجتهدين في نشر مذهب البروتستانت، وبين دولة أوستريا التي هي رئيس المحامين عن

مذهب الكاثوليك بعنوان إمبراطور. وبمثل هذه التدابير السياسية أحسن إدارة أمورها الخارجية. وجعل دولة فرنسا في مصاف الدول الأولى وافتتح مجلساً للمعارف، واجتهد أيضاً في ترقى الفنون والعلوم. ومات في سنة ١٠٥٢ هجرية، وبعده بسنة مات الملك، وصار ولده لويس الرابع عشر ملكاً لفرنسا، وحيث كان عمره تقريباً خمس سنين صارت والدته وصية عليه ووكيلة للدولة. وهي بنت ملك إسبانيا من عائلة هابسبورغ، ففوضت رئاسة الوكلاء إلى الكردينال مازارين الذي هو من أحباب ريشيليو، وهذا أيضاً سلك على أصول السياسة التي اتخذها ريشيليو لأجل إسقاط عائلة هابسبورغ. واستمر على المداخله في الحروب المذهبية التي كانت في ألمانيا لمجرد ضرر الإمبراطور. واتفق مع دولة إسوج^(١) التي كانت أكبر مساعد للبروتستانت في هذه الحروب على دولتي أوستريا وأسبانيا، ونال عسكر فرنسا الغالبة عدة مرات على عساكرهما. وبناء على ذلك كان من اقتضاء الصلح الذي عقده في سنة ١٠٥٨ بأن ترك محلات قليلة إلى فرنسا، وصار التصديق على حقوق البروتستانت. وبهذه الصورة استقل أمراء ألمانيا استقلالاً تاماً وسقط نفوذ الإمبراطور وصارت دولة ألمانيا شبيهة بجمهورية الأصلاء (النبلاء).

وصار مجلس دولة ألمانيا، وبعبارة أخرى مجلس أمة جرمانيا يجتمع في مدينة راتسبون الكائنة في بافاريا، وكان مؤلفاً من مائتين وأربعين منهم أمراء وكهنة ونواب المدن. ولا يحضره الإمبراطور والأمراء بأنفسهم وإنما يرسلون إليه وكلاء وبقي حال ألمانيا جارياً على هذا المنوال إلى أيام نابوليون بوناپرت.

ودولة أوستريا وإن كانت تخلصت على هذه الصورة من الحروب المذهبية التي امتدت نحواً من ثلاثين سنة، لكنها لم تكن خالية من حروب الدولة العلية، ولما لاحظ الفرنسيون ضعفها اشربوا لأن لكونوا مكانها أول دولة في أوروبا. ولهذا لم يتخلص الاوستراويون أيضاً من حروب فرنسا.

١ - أي السويد.

ودولة فرنسا وإن كانت قد تقدمت في أمورها الخارجية على هذا الوجه، فإنها تأخرت في أمورها الداخلية، نظراً لعدم ملاحظتها للأمور المالية فأجبرها فراغ خزintها من الدراهم إلى أن أصدرت قراراً بوضع الويركو^(١) وتكاليف جديدة، فكان ذلك سبباً لظهور العصيان في باريس سنة ١٠٦٠ هجرية ففر لويس الرابع عشر ووالدته ومازارين من باريس. ومن الغريب أنه ظهر كذلك في السنة ذاتها اختلال في إنكلترة وحكم على الملك بالإعدام فدخلت إنكلترة في هيئة جمهورية يديرها جنرال. وبعد أن حدثت حروب داخلية كثيرة في فرنسا أظهر الأهالي قبول الملك، وبعد مدة أتى مازارين أيضاً إلى باريس واكتسب نفوذاً فاق نفوذه الأول. وحيث إن الفرنسيين اعتادوا على مثل هذه الحالات من المفاسد والاختلال، كان ذلك سبباً للاستعدادات الرديئة في فرنسا، ودامت الحروب بينها وبين إسبانيا وبمساعدة الجنرال مدبر أمور انكلترة لدولة فرنسا انغلبت دولة إسبانيا وتركت أراضي كثيرة إلى فرنسا، وجرى عقد الصلح على ذلك وتزوج لويس الرابع عشر بإبنة ملك إسبانيا. وفي انكلترة أيضاً أعيدت الملكية إلا أن الحرية تأيدت بها وتقررت في حالة حكومة ذات شروط. أما لويس الرابع عشر فإنه لما عاد إلى باريس قوى الحكومة المطلقة بزيادة، وما كاد يبلغ سن الرشد حتى أظهر بحركته مادل على شجاعته. وفي الواقع أنه حكم مدة تزيد على خمسين سنة بالقوة والجسارة وربما سلك مسالك الظلم.

وكان في القديم يعقد في باريس وفي المدن الكبيرة مجالس كبيرة باسم برلمان. وهذه المجالس لا تتداخل في إدارة الدولة ولا في تنظيم القوانين كمجلس بارلمنتو انكلترة. وإنما كانوا بمثابة دواوين الأيالات، ووظائفهم الأصلية عبارة عن رؤية الدعاوي الاستثنائية. وكانوا مجبورين على تقييد الأوامر التي تعطى القوانين التي تنظم من طرف الملك ليجري بمقتضاها في المرافعات.

١ - أي الرسوم. الدراري اللامعات، ص ٥٢٩.

وأخذت هذه المجالس تتقدم بنفسها شيئاً فشيئاً حتى صاروا يعترضون على بعض القوانين ويخالفون ما لا يحسن عندهم من الأوامر التي ترسل من طرف الملك لأجل القيد. وبارلمان باريس أراد معاملة لويس الرابع عشر بمثل ذلك في أول الأمر. فلم يعبأ بهم وجعل الجميع يعترفون له بحكومته المطلقة وأوقف البارلمان على حد وظيفته. وإذ كانت فرنسا في ذلك الوقت في غاية الضيق المالي، إذ مات مازارين رئيس الوكلاء وظهر عنده من المال مائتا مليون من الفرنكات فتوسعت بها الدولة، وصرف لويس الرابع عشر المشار إليه نظره من نصب رئيس للوكلاء والتزم أن ينظر في كل شيء بنفسه. وعين لكل واحد من الوكلاء وظائف تخصه ووضع لهم أصولاً بأن يأتي كل منهم بمفرده ويعرض عليه ما ينظر فيه من المصالح ويستأذنه فيها، وانتخب لكل عمل مأموراً من ذوي الاستعداد وأصلح الملكية، فراجت الصنائع والتجارة. ومع أن ديون الدولة كانت كثيرة والخزينة فارغة أجرى أمور المالية أيضاً في مجرى حسن. وكان عسكره منتظماً ومارشاله المارشال تورن المشهور والمهندس دوبان الذي لم تزل آثاره مقبولة في فن الاستحكامات ومعتبرة إلى الآن. وفي ذلك الوقت كانت فرنسا من جهة عسكريتها تامة الاستعداد.

ومات ملك إسبانيا والد زوجة لويس الرابع عشر فطلب لويس أن يترك له بعض بلاد بلجيكا الكائنة في تصرف إسبانيا ميراثاً لزوجته، فلم تقبل بذلك إسبانيا، فأعلن لويس الحرب واستولى على أماكن كثيرة.

ولأجل المحافظة على العدل في موازنة أوروبا السياسية صار عقد اتفاق بين دولتي انكلترا وإسوج. وجمهورية الفلمنك^(١) وأجبروا لويس على الصلح ورد قليل من الأماكن التي استولى عليها، وحيث إن لويس في ذلك الوقت كان غنياً

١ - الفلمنك: أي هولندا. قاموس الأعلام ٣٤٢٣/٥.

جداً وهو من أهل الكبر فتكدر من جمهورية الفلمنك بالنظر لتحريكها غير دول، منعاً لنيل مراده كما ذكرناه، فأعلن عليها الحرب وهاجمها بسرعة واستولى على مملكتها جميعاً فانسحب الفلمنكيون إلى مدينة أمستردام، وفتحوا حواجز البحر فاندفع الماء ورجع الفرنسيون. وهاجت جمهورية الفلمنك كعادتها سائر الدول على دولة فرنسا فقامت لحربها ورتب لويس جملة معسكرات، وشرع في قتالهم في كل طرف، وانتصر الفرنسيون في كل موضع، وغلب الأسطول الفرنسي في المحاربة البحرية التي وقعت في جهة سيسيليا غلباً تاماً وأغرق كثيراً من مراكب إسبانيا والفلمنك وأضر بالباقي.

وجسارة الفرنسيين في أعمالهم جعلت الدول المحاربة لهم في اضطراب إلى الصلح. وفي هذه المصالحة التي عقدت في سنة ١٠٨٩ هجرية اكتسبت دولة فرنسا أماكن كثيرة، وتقدمت وقتئذ في العلوم والمعارف تقدماً زائداً، وقصدها الرجال المشهورون في إتقان الفنون والصنائع، وصارت للعالم أنموذجاً لكل شيء وبالأخص الآداب الفرنسية، فإنها وصلت وقتئذ إلى غاية الكمال وكان أشهر الشعراء والمنشئين والمؤرخين الفرنسيين من رجال ذلك العصر. وكان لهم القبول والاعتبار في سائر أوروبا. واشتغل الناس بتحصيل اللغة الفرنسية في كل محل لمداخلة لويس الرابع عشر في أمور أوروبا صارت اللغة الفرنسية تستعمل في المخابرات السياسية على وجه العموم، وكانت له رعاية للعلوم والمعارف ورغبة في إنشاء الأبنية الجميلة فسراية^(١) فرساي وجميع ما يشاهد من الأبنية الحسنة هي من آثاره. وفي عصره تقدمت فرنسا أيضاً في أمر أحكامها وتأسست القوانين والنظمات الجميلة.

وأما الدولة العلية فإنها كانت وقتئذ بالنسبة إلى سائر الدول فائقة وغالبة، وكانت أحوال الزمان تقضي عليها بزيادة الاعتناء في أمور الملكية والعسكرية، لكنها تساهلت في أمورهما والمواضع التي ينبغي فيها تقدم المعارف والصنائع

١ - سراي أي القصر.

جعلتها في يد التكاسل والإهمال، وصارت أمورها الملكية والعسكرية في اختلال، ومن بعد الألف مالت إلى الانحطاط. وهي وإن كانت في غضون ذلك استظهرت في بعض الفتوحات بهمة أولاد الكوبريلي فإنها بقيت متأخرة بالنسبة لترقي الأوروبيين. وبعد أن رتبت أوستريا عسكرياً منظماً تحت قيادة المارشال مونت قوقولي صارت عساكر الدولة ذات العلوفة التي كانت لا تعرف الانهزام والتأخر تنهزم وتولي الأدبار في محاربة النمساويين. وصارت الدولة من ذاك الوقت محتاجة لتجديد أحوالها وأصولها.

والأصل أن أوربا صارت في ذلك العصر في غير هيئة وحال، وبالأخص فرنسا فإنها تقدمت تقدماً فوق العادة.

واكتسب لويس الرابع عشر شأناً وشهرة زائدة ونفخته الكبرياء والعظمة، وكان يهدد جميع دول أوربا في الأمور الخارجية، ويظهر التكبر والتعظيم وعلى هذه الأحوال كان جارياً في الداخلية، حتى أنه ألغى القانون الموضوع من قبل مائة سنة في حق إجراء حرية البروتستانت، وكان أكثر من مائة ألف منهم لا يقدر على ترك مذهب عائلاتهم، ومع كون خروجهم إلى الممالك كان ممنوعاً فقد خرج بعضهم خفية وتوطنوا في ممالك شتى، والباقيون منهم أقام أكثرهم في جبال فرنسا، وتلف في هذه المقاومة نفوس كثيرة من الطرفين.

ومع كون العلوم والمعارف تقدمت كما ذكرنا تقدماً فوق العادة في فرنسا، ففوق هذه الفتن كان موجباً للضعف. وفي هذه المرة وإن يكن إعدام كثير من البروتستانت فإن لقوة ترقى المدنية لم يحصل في حق البروتستانت إجراء أصول القتل العام كما جرى قبل مائة سنة. وقد ذكرنا أن دولة إسبانيا أخرجت من بلادها مئات ألوف من المسلمين من ذوي التمدن والعمل فبسبب أفعالها السيئة التي هي غير معقولة تضععت، وإلى الآن لم تتخلص من حالة الضعف. وكذلك دولة فرنسا فإنها عندما شتت البروتستانت وأخرجت من يدها التبعة

الذين هم أهل صنائع ومعارف، تأخرت في بلادها العلوم والصنائع نوعاً ما، وكذلك المعامل التي لا تعد. وطراً عليها بعض ما يقتضي من الضعف.

وبالجملة فعلى الوجه المشروح منع لويس مذهب البروتستانت، وأظهر الغيرة في حق مذهب الكاثوليك، ولما رأى نفوذ البابا مغايراً لسياسته شكل في فرنسا مجلساً عمومياً للكهنة ورتب لهم نظاماً جعله بنوداً.

منها أن البابا لا يحق له المداخلة في حكومات سائر الدول الجسمانية^(١) وإن قرارات وآراء مجلس الكهنة العمومي تكون مرجحة على قرار البابا ورأيه.

ولما كانت دول أوروبا غير أمينة من طمع وحرص لويس اتفقوا على فرنسا بتشويقات جمهورية الفلمنك. فلما علم بذلك لويس سبقهم إلى الحرب إظهاراً للألفة، وعدم تأثر فرنسا لهذه الغائلة البروتستانية، وهجم على حدود ألمانيا. ووافق ذلك أن دولة أوستريا كانت في ذلك الوقت مشغولة بمحاربة الدولة العلية فلذلك كان الظفر في الأكثر لعساكر فرنسا، وكان ملك انكلترا يميل إلى الكاثوليك، وعكس ملك فرنسا، فلما حدثت هذه الحروب أشرأت نفسه لإعادة مذهب الكاثوليك الممنوع في انكلترا، وبسبب ذلك سقط ولم تتأت له الإقامة بل فر إلى فرنسا فاقبله لويس بالاحترام. وبناء على ذلك خلعه بارلمنتو انكلترا في سنة ١١٠٠ هجرية وانتخب في محله صهره استات هولدرلي غليوم ملكاً لانكلترا، وكان إذ ذاك رئيساً لجمهورية الفلمنك. وهو من أشد أعداء لويس، ولذلك تقوت هذه الحروب التي كانت جارية. وعساكر فرنسا وإن كانت لها الغلبة على الأكثر في البر فإن أسطولها عند مقابله لأساطيل انكلترا والفلمنك لم يثبت، بل انهزم هزيمة شنيعة، وهلكت جنود كثيرة من الفرنسيين ولم يبق لهم قواد مشهورون، وظهر القحط والغلاء وظهرت أمارات عدم الطاعة بين

١ - أي المادية غير الروحانية.

العسكر، وضعفت أيضاً الصناعة والتجارة، فأصبح لويس من النادمين، وترك البلاد التي استولى عليها في المحاربات التي امتدت على هذه الحال عشر سنين. وفي سنة ألف ومائة وتسعة هجرية صار مجبوراً على عقد المصالحة مع أوستريا وانكلترة وهما من الدول المتفقة وبذلك ضعف نفوذه كثيراً.

وفي تلك الأثناء كانت الدولة العلية تحارب دول روسيا وله [بولندا] والونديكيين وأوستريا، فتوسّطت بينهما دولتا انكلترة والفلمنك، وبعد مضي سنة عقدت المصالحة مع الدول الأربع المذكورة وتخلصت من مشقات الحروب التي كابدها مدة خمس عشرة سنة. ولكن قلعة أزاق بقيت لروسيا وفتح للروسية باب التجارة من تلك الجهة، وفي هذه الحرب شاهد بطرس الأكبر قيصر الروسية فائدة العسكر المتعلم، فاشتغل بتكثيره سريعاً وتنظيم دولة على طرز دول الإفرنج فاتخذ طريقاً واسعاً جداً للترقي.

وفي ذلك الوقت اشتد ضيق المالية في فرنسا حتى صارت الوظائف ورُتبُ الأوصلاء تباع بالدرهم. والصلح المنعقد بين الدول المتفقة كان في الحقيقة من قبيل المتاركة^(١) فقط.

وكان ملك إسبانيا توفي عن غير ولد يخلفه، وكانت ميلان ونابولي وسيسليا والمملكتان العظيمتان في أمريكا وهما المكسيسك وبرو تابعات إلى إسبانيا في ذلك الوقت. فنظراً لذلك أخذت دولتا فرنسا وأوستريا في البحث في حقوق الوراثة. وبناء على ما هو معين في وصية ملك إسبانيا بأن وريثه يكون الحفيد الثاني للويس. فعندما توفي سنة ألف وسبعمائة مسيحية أجلس في أسبانيا الحفيد المذكور عملاً بالوصية. فلم توافق دولة أوستريا على ملكيته ووافقتها في ذلك دولة انكلترة والفلمنك والبورتهال وإسوج مع دول أخرى من أوربا خوفاً من اتحاد دولتي فرنسا وإسبانيا.

١- أي الهدنة.

ولما كان إمبراطور أوستريا محتاجاً لنجدة أمراء ألمانيا رضي بأن يلقب منهم الماركيز براندوبروغ فريدريك الأول، وهو من هرسك ألمانيا بلقب ملك، استجلاً له، ولما استفحل أمره أضاف مملكة بروسيا الواقعة في طرف بحر البلتيق الملحقة ببراند بورغ إلى مملكته، واختص بلقب ملك بروسيا ودخل في هذه الحرب، وعلى هذه الصورة تقريباً ظهرت للوجود مملكة بروسيا وصارت بعد ذلك ضداً عنيداً لدولة أوستريا.

وفي بعض وقائع هذه الحروب الموماً إليها كان يحصل الظفر لجنود فرنسا، وفي الأكثر منها لعساكر الدول المتفقة، وفي أثناء ذلك استولى الانكليز على قلعة جبل طارق (جيلزه) التي هي أعظم قلعة متينة في الدنيا، وهي إلى الآن في يدهم.

ولم يكن وقتئذ عند الفرنسيين قواد مشهورون، بخلاف الدول المتفقة فإنه كان عند الانكليز القائد (ماريبورغ)، وعند أوستريا القائد (برتس أوزن) وهم قواد مشهورون، وهؤلاء انتصروا في عدة حروب كبيرة. وانحطت فرنسا إلى حالة الخمول، وظهر في كل جهاتها القحط والغلاء فتضايقت جداً حتى إن لويس باع عدة من أواني سفرته. وبناء على هذه الشدة طلب المصالحة فكلفتها الدول شروطاً كثيرة ثقيلة من جملة أن يسوق عسكره لإخراج حفيده من إسبانيا، فجدد المحاربة وانكسر الفرنسيون وعندما أذعن لويس لكل ما اشترطته الدول تغيرت الأفكار بغلبة الفرنسيين الموجودين في إسبانيا لعساكر الدول المتحدة.

وفي أثناء ذلك كانت الحرب قائمة أيضاً بين قيصر الروسية وهو بطرس الأكبر السالف الذكر ودولة إسوج [السويد]، فغلبها القيصر واستولى على كثير من المواضع في ساحل بحر البلطيق. وفتح باب التجارة إلى بلاد الإفرنج ثم وقع في تهلركة عظيمة في حرب بروت^(١) مع محمد باشا البالطه جي إلا أنه تخلص منها

١- بروت: نهر تابع لنهر الطونة على الحدود بين روسيا ورومانيا يبلغ طول مجراه حوالي ٨٠٠ كم. قاموس الأعلام ١٥٠٧/٢.

بطلب العفو والأمان من الباشا المذكور واستمر على أشغاله . وبناء على ذلك تحول النظر في ميدان السياسة لجانب الشمال .

ومال الانكليز في غضون ذلك إلى الصلح، أما سائر الدول المتفقة فقد أوجست خيفة من اتحاد فرنسا وإسبانيا . ولاحظت أنه إذا لحقت إسبانيا بأوستريا وقع الخلل في الموازنة السياسية، وإن الإصرار على طرد ملك إسبانيا وإخراجه من البلاد لنفع أوستريا الخصوصي على حين كان رعاياه راضين عنه، مغاير لحقوق الملل ومناف لها، فجرت لذلك الاستعدادات بموافقة الجميع على صلح يحفظ الموازنة السياسية من الخلل . غير أن لويس الرابع عشر ملك فرنسا شرع في مخابرة انكلترا خفية وهادئها، وفي سنة ١١٢٠ هجرية عقد الصلح مع انكلترا والفلمنك، ثم عقدها مع أوستريا في السنة التي بعدها .

ودولة إسبانيا وإن كانت في الظاهر بقيت على عهد فرنسا، فإن هاتين الدولتين لم يحصل بينهما اتحاد في وقت من الأوقات . وكان من شروط المعاهدة بأن يترك لإنكلترا قلعة جبل طارق وكثيراً من بلاد أمريكا التي في تصرف فرنسا، فعظم ذلك عند دولة الانكليز وعلى الخصوص أنها أخذت قوتها البحرية في الزيادة وترقت تجارتها وصنائعها وصارت إحدى الدول الأولى .

وقد شرط الانكليز في تلك المعاهدة أمراً غريباً، وهي إعطاء امتياز لشركة انكليزية بأن تدخل إلى بلاد إسبانيا الكائنة في أمريكا خمسة آلاف من العبيد في كل سنة لتبيعهم بها . وفي هذه المصالحة ترك أيضاً إلى أوستريا بلاد بلجيقا ونابولي وميلان وساردينيا، ولكن ساردينيا أعطيت مؤخراً إلى دوقية سادوه الواقعة بإزاء جزيرة سيسيليا . وتخلصت فرنسا من خطر عظيم، ومن بعد هذه المحاربة المذكورة سقط نفوذ لويس الرابع عشر وشهرته، وانحطت سطوة فرنسا وثروتها، فضلاً عن أنه تلف منها ما يزيد على مليون نفس، وظهر في كل جهة من جهاتها القحط والغلاء ووصل الويركو وسائر التكاليف إلى حد الإفراط،

وأكثر الأهالي صاروا لا ينتفعون بشيء من حاصلات كرومهم، بل كان البعض يخبونها بأيديهم، وآل الأمر إلى أن صارت دوابهم تؤخذ من أيديهم في مقابلة الويركو فكانوا لذلك يقتلونهم، وطراً خلل عظيم في الزراعة وبقيت الحال في فرنسا جارية على هذا المنوال إلى أن زاد الاختلال وعظم.

وقد تأثر لويس الرابع عشر من هذه الأحوال السيئة التي نشأت عن ميله لعلو الشأن وحرصه على الشهرة. وكان أعظم كدره من وفاة ابنه وحفيده، الذي كان معلمه (فنالون)^(١) مؤلف كتاب تليماك ووفاة سائر الأمراء، فلم يبق له وريث سوى ابن حفيده الذي عمره خمس سنوات، فاحضره قبل وفاته وأوصاه وقال له إنني بادرت إلى الحروب فلا تقتدي بي في هذا الباب، ولا تكن مسرفاً مثلي واجتهد في سعادة حال الأهالي، ثم أطلعه على هفواته التي صدرت منه وندم عليها ثم توفي في سنة ١١٢٨ هجرية. وجلس هذا الحفيد على تخت الملك باسم لويس الخامس عشر. وتعين ابن أخيه دوك أورليان وكيلاً للدولة من طرف البرلمان مع أنه مناف لوصية لويس الرابع عشر. ولويس فيليب المشهور الذي خلع أيام الاختلال الذي ظهر في فرنسا في عصرنا هو ابن حفيد هذا الدوق.

وكان لويس الرابع عشر مائلاً إلى الحكومة المطلقة مؤيداً للأفكار الاستبدادية ولم يُرو عنه أنه مال إلى الحرية قط. وقد سلك الأهالي على وفق مراده ثم إنهم تهافتوا على استعمال الربا. ومن المجربات أن الربا يقضي بسوء الخلق وقلة الدين، فسلكوا في أسوأ طريق بدون احتراز شيء ما. وهذا علاوة على ما صرفه من الأموال الكثيرة في الفواحش، وما تدعو إليه الخلاعة والشهوات، فكان ذلك سبباً في فساد أخلاق الأهالي. كما أنه أتلّف الخزائن في الحروب التي فتح أبوابها، وعند وفاته ترك على فرنسا ديناً قدره ثلاثة مليارات فرنك، ويمكن أن

١- فرنسوا فينلون (١٦٥١-١٧١٥م) كاتب فرنسي مستدين. لعب دوراً في تحويل الفرنسيين البروتستانت إلى المذهب الكاثوليكي، فقرّبه الملك «لويس الرابع عشر» من بلاطه. فدرّس أحفاده فترة طويلة، أكسبه ذلك خبرة في أصول التعليم والتدريس، الفارابي (المدينة الفاضلة). انتخب عضواً للأكاديمية الفرنسية عام ١٦٩٣م، وأصبح أسقفاً عام ١٦٩٥م. انظر: دائرة المعارف التركية: ١٦، ٢٧٠، مادة Fenelon.

يقال إن أسباب الاختلال العظيم الذي حصل في فرنسا كان تهيأ في زمانه . وكذلك الدوق أورليان السالف الذكر ، فإنه كان أيضاً مائلاً إلى الخلاعة والصفاء ومبتلياً بقرناء السوء ، وبعد أن تخلص الأهالي من أيدي تضييق لويس الرابع عشر ، وقعوا جميعاً في السفاهة والخلاعة تقليداً له . وعلى هذه الصورة زاد دين دولة فرنسا بمدة خمس أو ست سنين نصف مليار فرنك زيادة على دينها القديم . وبينما كانوا يبحثون على واسطة لتأدية تلك الديون جاء رجل إلى الدوق اسمه (لاد) وعرض عليه بعض تدابير غريبة عجبية ، ونال الرخصة بإحداث بنك وشركة تجارية . وبالاتفاق مع الدوق تداولت أوراق هذا البنك التي كان لا حساب لها لكثرتها ، وفي مدة سنتين جمع هذا البنك نقود أهالي فرنسا جميعاً . ومع كون هذا البنك وهذه الشركة كانا بلا أساس تضاعفت قيمة أسهمهما وحصصهما عشرين مرة عن قيمتها الأصلية ، وذلك بالتشبيث مدة بأنواع الدسائس والكذب وبعض تخيلات وعلاقات تجارية وأعمال صيرفية . فالذين فهموا سر هذا الأخذ والعطا وأنه من نوع الخدعة اكتسبوا في أقرب مدة أموالاً كثيرة بالمقامرة ، وصاروا أغنياء من غير مشقة . واكتسب (لاد) شهرة زائدة . وكان في أنظار الناس في ذلك الوقت كأنه لا يوجد رجل أعظم منه ، وقد اغتروا به حتى صار أحدهم لكي يصير غنياً في أقرب وقت يبذل ما في يده من الدراهم للبنك ويبيع أملاكه ويأخذ بها أسهماً وحصصاً . وعلى هذا صار اعتبار الحصص والأسهم المباعية يفوق ثمانين مرة اعتبار النقود المتداولة في كل فرنسا ، ثم إن هذه الأوراق سقطت في يوم واحد دفعة واحدة من اعتبارها وزالت تلك التخيلات والاعتبارات وأصبح أكثر الناس فقراء في يوم واحد وفر لاد من فرنسا .

وهذه الخدعة الكبيرة وإن تكون دولة فرنسا قد تخلصت بها من ديون كثيرة فإن الأهالي ساء حالهم وصاروا في حالة الفقر والاضطراب . وقد ظهر في ذلك الوقت مرض الوباء في فرنسا ولم تقبل الدول الأجنبية دخول مراكب الفرنسيين في مراسيها ، فنشأ عن ذلك أيضاً خلل كلي في تجارتها وصنائعها ، وفي أثناء ذلك مات الدوق وبلغ الملك سن الرشد فحصلت فرنسا على راحة قليلة .

ولما لم يكن لكارلوس السادس امبراطور ألمانيا أولاد ذكور ولم يبق أيضاً ذكور في عائلة هابسبورغ وضعوا قانوناً في حق انتقال دولة أوستريا إلى النساء .
وحيث إن لقب الامبراطورية كان من وقت قديم في عائلة هابسبورغ . وأمراء ألمانيا تعودت على هذه العائلة قبلوا بأجمعهم القانون المذكور واجتهدوا أيضاً في إرضاء الدول الأجنبية في قبوله . ثم لما توفي كارلوس في سنة ١١٥٣ هجرية ، وجلست ابنته ماريا ترزيا على تخت ملك أوستريا ووجه والمجار ، ادعى الأمير المنتخب إلى بافاريا حق الوراثة في دولة أوستريا بالنظر لقربة أجداده لها ، فوافق على ذلك كل من دولة فرنسا وإسبانيا . واستعدت ماريا ترزيا للدفاع عن حقوقها واستجلبت المجار ورتبت دولة انكلترا أيضاً معسكرين لأجل إمدادها . وفرنسا وقتئذ غير قادرة على المحاربة . غير أنها دخلت فيها رجاء أن تستولي على قليل من مملكة أوستريا الواقعة في أطراف نهر الرين ، وانتصرت عساكرها في بعض الأحيان في البر ، ولكنها في البحر انكسرت واضمحلت بالكلية ، وبالجملية قد توفي كارلوس وترك لابنته هذا الادعاء وانتخب أكثر أمراء ألمانيا فرنسوى دوق توسقانة زوج ماريا ترزيا للإمبراطورية . وفي سنة ١١٦٢ هجرية تغلبت ماريا ترزيا على أخصامها ، وانعقد الصلح وباشرت أمور الأحكام بالاتحاد مع زوجها . وفي هذه الحروب اكتسب الأسطول الانكليزي شهرة زائدة عما تقدم له . وأما دولة فرنسا فقد تكبدت كثيراً من النفقات وذهبت سدى وساءت أمور مالياتها وتعطلت أساطيلها وطراً الخلل على تجارتها .

ولم يكن لويس الخامس عشر ملك فرنسا حاكماً غيوراً على الملك ، بل كان يصرف أوقاته في طلب الصفاء والخلاعة . وسلم نفسه في يد امرأة فاحشة يجري برأيها إدارة دولته ، وكان أهالي فرنسا تنظر إلى ذلك مع التأسف وزال توجههم العمومي في حق الملك .

ولسوء أطوار الملك انحط شأن واعتبار مسند الملك، وبهذه المناسبة قال مونتسكيو^(١) المؤلف المشهور أحد فلاسفة ذلك العصر (ما هي هيئة الدولة وما هي العدالة والحقانية. ثم أوضح أساسهما وأصولهما). وصار فولتر^(٢) المشهور أيضاً يهزأ بكل شيء فأسقط اعتبار العقائد والأفكار القديمة. والمؤلف روسو كان منشئاً بليغاً، ففي الكتب التي ألفها بحث بوجه أوضح فيه أساس الدين والمذهب والدولة. وحيث إن أهالي فرنسا كانوا من القديم محرومين من جميع أنواع الحرية سواء كان ذلك من جهة الأفكار الدينية والمذهبية أو من جهة الأفكار السياسية، فاتبعوا هؤلاء المؤلفين وانقلبت الأفكار العمومية إلى الدخول في طور جديد، وكانوا إلى ذلك الوقت غير مهذبين، فعندما يلقى مثل هذه الأفكار الفلسفية دفعة واحدة على أذهانهم لا يصل إليها فهمهم فضلاً عن إذعانهم إليها، ومنهم من لا يقدر أن يفهم الأبحاث العويصة، فوقعوا في حيرة وصاروا يفسرون أكثر العبارات بغير معناها، ووقعت الأفكار العمومية في غلط كبير. أما المؤلفون الآخرون فإنهم اقتدوا بطريق حكماء كليون بأن الدنيا عبارة عن العيشة بالسرور وليس فيها فضيلة ولا رذيلة، فاتخذوا كلامهم أساساً وساقوا به الناس إلى عدم الدين بالكلية، وغلبت الأفكار العمومية في فرنسا على هذا يوماً فيوماً وأمالوهم إلى الحرية، ووصلوا بهم فيها إلى درجة الإفراط. وبينما كانت فرنسا متطورة بطور غريب لتغير أذهان الأهالي على هذا الوجه ساءت أحوال الملكة، وحدثت بينها وبين انكلترة منازعة من جهة بعض أملاكها الكائنة في أمريكا.

ودولة بروسيا التي ذكرنا أنها أخذت لقب الملكية من عهد قريب على الوجه

١- شارل دومونتسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥م): كاتب فرنسي له مؤلفات اجتماعية سياسية أهمها «روح الشرائع» الذي كان له تأثير كبير في تطور الدستور الفرنسي إبّان الثورة. المنجد ص ٥٥٨.

٢- فرنسو اماري ولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م) مؤلف فرنسي. تزعم حركة الفلسفة المادية وقاوم رجال السلطة الدينية والمدنية ونقدتهم في كتاباته. المنجد ص ٤٢١.

السابق كانت تعد من ملحقات امبراطورية ألمانيا، لكونها حائزة عنوان الهرسكية، ثم إنها اكتسبت قوة وقدرة وصارت ضداً قوياً للامبراطور المتصرف في دولة أوستريا بالاتفاق مع الحكومات التي دخلت في مذهب البروتستانت.

وكان فره دريقوس الكبير ملك بروسيا المعروف بفريدريك الثاني استولى على قطعة سيليزيا في محاربة ورثة ملك أوستريا السالفة الذكر، فوسع ملكه وبذل جهده في ربط أمور الملكية والعسكرية وتنظيمهما فوق الغاية، فترقت قوته ومكانته ترقياً عظيماً على سائر الدول. وقد دعاهم ذلك للمراقبة ودقة النظر وعلى الأخص عدوته الكبيرة ماريا ترزيا. على أن فريدريك وإن كان فيلسوفاً كبيراً في ذلك العصر، فإنه كان مستهزئاً بغيره جداً، وقد استاء منه بعض الملوك والوكلاء في أوربا لطعنه في حقهم وهجوه لهم. ولما لم يحتمل أحد بأن تكون بروسيا مرجعاً ومركزاً للبروتستانت، أجمعوا على تنزيله عن رتبة لقب الملكية وإعادته إلى حالة أجداده الأولى، أي لقب الأمير براند نبورغ المنتخب.

وكانت دولة روسيا تتداخل في أمور الشرق والغرب، فاتفقت مع أوستريا على بروسيا، ودخل في هذا الاتفاق أيضاً دوق ساقسونيا الذي كان في عهده ملكية له [بولندا]، فلما علم فريدريك بذلك نهض قلبهم سنة ١١٧٠ هجرية ودخل بغتة إلى مدينة ساقسونيا، فلم يقدر أميرها على مقاومته وسلم له نفسه، فانعقد الاتفاق إذ ذاك بين دولة أوستريا وأمراء الألمان وأعلنوا الحرب على فريدريك. وسأقت دولة روسيا أيضاً عساكرها من إحدى الجهات على بروسيا. وأما دولة فرنسا فإنها لما عجزت عن أخذ محل من بلاد أوستريا في المحاربة السابقة خطر ببالها في هذه المحاربة أن تنهب شيئاً من بروسيا، واتفقت مع عائلة هابسبورغ التي كانت اجتهدت في تنزيلها منذ بضعة سنين، وأعلنت الحرب على بروسيا. أما انكلترا فإنها لاحظت أن اتفاق دولة فرنسا مع دولة أوستريا التي كانت عدوتها منذ القديم يجعلها تكسب حزباً وتقوم بعد ذلك عليه؛ فلذلك اتحدت

مع دولة بروسيا واشتعلت الحرب على هذه الصورة، وامتدت سبع سنين، وانسكرت دولة فرنسا في البر والبحر، واستولى الانكليز على عدة أماكن كانت تحت سلطة فرنسا في أمريكا فضلاً عن أنها أخذت بلاد قنada^(١) الكبيرة الواقعة في الجهة الشمالية من أمريكا المتحدة. وهذه البلاد لم تزل إلى الآن بيد الانكليز.

وفريدريك وإن يكن انتصر في أكثر الحروب التي حدثت فقد تلف عدد كثير من عساكره في الحروب المتوالية في جهات عديدة، حتى أوشكت جنوده أن تفتنى. وأما بطرس الثالث الذي كان مشغولاً بمعارف فريدريك وفضله وحيواناً بأداب بروسيا وأصولها، فحينما جلس على سرير امبراطورية روسيا عقد الصلح عن عجل مع فريدريك وأعطاه قيادة العساكر الروسية التي دخلت إلى ممالك بروسيا، ولما صار خلع بطرس وجلست كاترينا الثانية المشهورة محله على سرير الملك وافقت على إمضاء الصلح، وقد تضايقت ألمانيا من إجراء هذه الحروب وخاف أمراء الألمان من فريدريك فانسحبوا واحداً بعد واحد، ولم يبق مجال لدولة أوستريا، فعقدوا الصلح وتخلصوا من غوائل تلك الحروب التي امتدت كما قلنا سبع سنين، ولم تقدر دولة أوستريا في مدة هذه الهدنة أن تسترجع ولاية سيليزيا بل بقيت في حوزة بروسيا، ولحقت دولة بروسيا بمصاف الدولة الأول، وصارت ذلك الوقت تعد من دول أوربا الخمسة العظيمة. أما أوستريا فقد غلب عليها الوسائس ولم تقنع بأنها أبلغت عساكرها المنظمة إلى مئتين أو ثلاثمائة ألف بل راقبت الوقت والحال، فكانت تارة تتحد وتتفق مع فرنسا وتارة مع انكلترا وأحياناً مع روسيا، والتزمت حماية بعض حكام الألمان ليكون لها علاقة في داخليتهم وهي مع كونها تعلم أن دولة فرنسا من أكبر المعارضين والمضادين لها فإنها نظراً لما اكتسبت دولة بروسيا من القوة بهذه الصورة رأت من مقتضيات مصلحتها أنها تتفق وتتحد مع فرنسا، ورأت من الواجب أيضاً مضافة دولة روسيا احترازاً من دولة بروسيا.

١- أي كندا.

وأما فرنسا فإنها لم تُجِدْها الحروبُ السالفة الذكر نفعاً، بل خسرت أكثر مما لكها في أمريكا وزادت مضايقة ماليتها أكثر مما كانت عليه، وكان لويس الخامس عشر معتكفاً على الفواحش حتى أنه لم يجد في الخزينة من الدراهم ما يصرفه، فألزمه الحال أن يسبك أواني سفرته ويجعلها دراهم.

وبينما كانت فرنسا على هذه الحال السيئة إذ تجدد النزاع بين الكاثوليك في المسألة المذهبية، التي كانت باقية منذ القديم فيما يتعلق بقضية الإرادة الجزئية، وفي أثناء ظهور مذهب الجبرية المضادة لليسوعيين، جرح أحد المتعصبين للملك بخنجر وحمل هذا الأمر على إغراء اليسوعيين فضعف مذهبهم وطريقتهم. وبظهور مذهب البروتستانت، اضمحل مذهب الكاثوليك. ومن الغريب أنه بينما أخذت الأفكار العمومية في فرنسا تتغير وأمور الديانة تتلاشى، كان كهنة الكاثوليك مشغولين بالنظر في دقائق هذه المسألة وأصبح الناس على العموم ضد الملك وتوسعت دائرة آمالهم في الحرية وتقدمت تقدماً كلياً، وكان من مقتضيات أصلائهم والرؤساء الروحانيين أن يتداركوا هذا الأمر ومع ذلك فإن مجلس الأمة في باريس استجلاًباً لتوجه العموم وتقوية لنفوذهم صاروا يعترضون على بعض أوامر الملك.

(استطراد)

تلقيح داء الجدري

وفي ذلك العصر ظهرت صنعة تلقيح داء الجدري في أوربا وهاك تفصيل أمرها وكيفية استعمالها على الوجه الآتي :

هذا الداء قد ينجو منه القليل من الناس ولا يصب من يصاب به أكثر من مرة واحدة في العمر، وقد تكلم جماعة من الأطباء الأقدمين على أسبابه فقالوا إنه فضلة رطبة رقيقة تدفعها الطبيعة، وهذه الفضلة تتولد عن اختلاط اللبن ودم الحيض في دماء الصبيان فبعد أن تخرج هذه الفضلات من البدن الإنساني يصفو الدم ويقوى .

وهذه العلة لا توجد في بعض الجهات من بلاد السودان والأرناوط . ولا تصيب سكانها إلا إذا كانوا مسافرين في غير مواطنهم، فعلى هذا فإن الأقاليم لها تأثير في ذلك ، غير أن بعض الأطباء المعاصرين يقولون إن عدم وجود هذه العلة في المواقع المذكورة لعدم الاختلاط الذي هو من الأسباب التي توجب السراية، لأن العلة المذكورة من العلل التي تنتشر في الهواء وتسرى بمشيئة الله تعالى إلى الأطراف المجاورة لها، وحصولها لهم عن اختلاطهم . فنظراً لوجود هذا الداء في الصبيان عموماً يستدل بأنه مستعد للعدوى . وسرايته عبارة عن إظهار هذا الاستعداد للفعل . وعلى كل حال فإن الاطلاع على حقيقة أسباب هذه الأشياء هو منوط بالعلم الإلهي المحيط بكل شيء، وعقل الإنسان لا يحصل إلا على الحيرة .

ولم يكتب أطباء اليونان والعرب شيئاً عن داء الجدري إلى حين تاريخ ٣٠٠ للهجرة النبوية، فتصدى أبو بكر الرازي محمد بن زكريا الذي امتاز بعلم الطب بين أطباء الإسلام سنة ٣٠٠، ورتب ونظم مستشفيات الري وبغداد إلى هذا

الأمر، وألف ما ينوف عن مئة كتاب ورسالة في صنوف الحكمة والفنون، وأكثرها في الطب، منها كتاب وضعه في داء الجدري وكانت وفاة هذا الحكيم في سنة ٣٢٠، وكان أول من بحث قبله عن داء الجدري أبو علي ابن سينا الذي كتب بخصوص ذلك مباحث كثيرة.

ومن المستغرب أن الأطباء الأقدمين بحثوا كثيراً عن علل هي أقل أهمية من هذا جداً ولم يذكروا عن هذه العلة شيئاً، وذكر بعض الأطباء أن هذه العلة لم تكن معروفة في العالم كله قبل سنة تسعمائة أو سنة ألف [ميلادية] وإنما ظهرت وانتشرت في العالم بعد ذلك، وكما أن أمراضاً كثيرة لم تكن موجودة ووجدت فكذلك كان مرض الجدري، ولا يستبعد احتمال حدوثها بعد التواريخ المذكورة، ويؤيد هذا اعتقاد أهالي الصين؛ فإنهم يقولون إن هذه العلة لم تكن موجودة في الصين إلى تاريخ ٨٠٠ وكسور، وإنها سرت لهم من تجار البصرة الذين كانوا يترددون لمدينة قانطون، وروي أنه لم يكن داء الجدري موجوداً في أمريكا قبلاً، لكنه بعد كشف قولنب^(١) واختلاط أهالي أمريكا بالأوروبيين فشا هذا الداء بوجه لم ير مثله وأتلف خلقاً كثيراً، وعلى كل حال فإنه كان يحصل تلف كثير في كل سنة بسبب الداء المذكور فظهرت صنعة التلقيح وخلصت الأطفال من هذه البلية منذ سنين معلومة.

وأول ما ظهر التلقيح في الممالك المحروسة وكانوا يأخذون من ماء حبة الجدري الممتلئة من الأطفال الذين أصيبوا به خفيفاً ويفتحون في ذراع الأطفال الغير المصابين به محلاً، ويضعون ذلك الماء فيه فتظهر حبة الجدري في المحل الذي وضع فيه الماء المذكور، بهذه الوسطة كان الولد ينجو من داء الجدري.

وقد تحققت بالمشاهدة زوجة مونتوكو سفير الإنكليز المقيم عند الدولة العلية

١- كريستوف كولومبس (١٥٤١/١٥٠٦م). المنجد ص ٤٧٧.

منافع تلقيح الجدري في أدرنه وجربته في ولدها، وأرسلت في سنة ١١٣٠ هجرية تحريراً إلى إنكلترا بهذا الخصوص، وقد جربوا التلقيح في إنكلترا فتحققوا منافعه فانتشر في سائر الأطراف، وقد صادقت عليه أطباء أوربا وقبلته، غير أن الكهنة اعترضوا على هذا الأمر، وقالوا إن المداواة للمرض العمومي الذي يجيء من طرف الله هو ينافي مراد الله تعالى، وبناء عليه أصر أكثر أهالي أوربا على عدم قبوله في بادئ الأمر وصاروا يعتبرون الذين يجوزونه أنهم لا دين لهم وربما أنهم يرون أن قتلهم واجب، وكان الملوك في أوربا بخلاف ما كان عليه الكهنة، ولذلك كانوا يعطون بعض العطايا للذين يلقحون أولادهم ويعاملونهم معاملة لطيفة، ومن بعد ذلك شاهد الجميع محسنات التلقيح واعترف جميع الناس بأنه دواء أنعم الله به على عباده وهداهم إلى عمله وأخذوا يصرفون الدراهم لأجل تلقيح أولادهم.

وفي أول الأمر تردد الفرنسيون في استعمال التلقيح ثم استحسنته بعض المؤلفين منهم فولتر وحسنه، وشاهدوا منافعه بالتجربة ووافقهم عليه مكاتب فرنسا سنة ١١٧٢، وحينئذ بادر العموم لاستعماله، وهذه الصنعة يقال لها تلقيح الجدري، وأما تلقيح البقري المستعمل في كل جهة فهو اختراع الطبيب جنر الذي هو من أطباء إنكلترا، والطبيب المذكور تعين مأموراً من دولته في سنة ١١٩٠ كي يلقح أهالي بعض القرى، وأراد أن يفتح البحث عن التلقيح لبعض الفلاحين الذين يتعيشون من حليب مواشيهم فسألوه عن داء الجدري، فأخذ الطبيب المرقوم يذكر لهم أسبابه ويصفه فقال بعضهم لربما هذا الداء الذي يظهر في ثدي الأبقار فيسري إلى أصابع الرعيان، وتظهر منه دامل، فلما سمع الطبيب منهم ما ذكره ورأى أثر حبوب في أصابع بعضهم أمعن نظره في ذلك فعلم أن تلك الآثار هي آثار الجدري، وأن سبب الذين أصيبوا بالجدري أنهم عندما يحلبون

أبقارهم تنفقى الحبوب التي في رضوعها فيصيب ما يخرج منها شقوق أصابعهم أو بعض جروح في أيديهم، فيظهر فيها نوع دمامل، ثم إنهم لا يصابون بعد ذلك بداء الجدري فجرب فيهم الحكيم المذكور تلقيح الجدري فلم يؤثر فيهم، ثم إنه اجتهد في التجربة وكررها مدة تنوف عن عشرين سنة إلى أن توصل إلى الدواء وسماه بالتلقيح البقري وألف فيه رسالة سنة ١٢١٣هـ ثم أتى بعد ذلك إلى لوندرا [لندن] وأجرى العمل فيها وظهر نفع هذا التلقيح البقري فأعنت عليه دولة انكلترة بعطايا وافرة وترجم كتابه بسائر اللغات فانتشرت صناعته التلقيح البقري وأعطى الحكيم النياشين من مجالس المعارف.

وقد أفاد أرباب الفنون والتحقيق أن داء الجدري مازال يتلف مقدار سدس النوع البشري فلذلك كانت صناعة التلقيح مفيدة جداً، ومع ذلك فإن هذا الداء يتلف مع التلقيح في المائة واحداً، فعلى كل حال غير خال من الخطر. وأما التلقيح البقري فليس فيه خطر أصلاً فلذلك كان من أنفع المخترعات الطبية. وعند ظهوره تصدى من كانت معيشتة من الأطباء بتلقيح الجدري لردّه وإنكاره، ولكنه انتشر في مدة قليلة في كل جهة فلم يبق لكلام المنكرين تأثيراً أبداً.

والحاصل أن مادة التلقيح ظهرت أولاً في ممالك الدولة العلية وكانت من قبيل الجراحات العادية، وأما في أوربا فإنهم الحقوها بالطب وصارت صناعة. ولا يعلم بوجه الصحة من اخترعه في ابتداء الأمر ولا كيف كان اختراعه وروى بعضهم أن العرب هم الذين اخترعوا صناعة التلقيح ولكن هذه الرواية لم تثبت.

وروي أن أول ظهور التلقيح كان في بلاد الأناضول من طائفة تدعي اليورك^(١)، وكان رجل منهم أتى دار السعادة وصادف فيها وجود علة الجدري

١- وهم طائفة من القبائل التركية المتنقلة، كانت تشتهر بكثرة مواشيها. انظر:

Hayat: Büyük Türk sözlüğü. sy:1261.

بشدة فقال أن هذه العلة لا يحصل منها في بلادنا ضرر يصل إلى هذا الحد، لأننا في كل سنة نلقح أولادنا بالطعم الذي نأخذه من الدمامل التي تظهر في أصابع الرعيان منتقلة إليهم من ضرور أبقارهم، وعليه لا يحصل لهم الجدري وعلى ذلك قام بعض الخذاق وجربه وسمعت به زوجة مومته كو فكتبت بذلك إلى بلاد الإنكليز على ما قيل لكن التلقيح البقري انتشر على الوجه المذكور بعد تاريخ ألف ومائتين وعشرة ولم يكن يعرف ولا يقال به قبل ذلك.

وزعم البعض أن صناعة التلقيح ظهرت من طوائف الجركس والأبازة والكورج ولكنه لا يعلم أي طائفة منهم على الخصوص أحدثتها، لأن القبائل المذكورة كانوا يتجرون بيعاً وشراء في العبيد والجواري، ولكون داء الجدري يزيل حسن وجه الإنسان وجماله ويكون سبباً لخسارة أرباحهم التزموا أن يفتشوا لعلهم يجدون واسطة لهذا الأمر فوجدوا صناعة التلقيح غير أن هذه الرواية لم تثبت، لأن هذه الصناعة لا توجد عندهم الآن، ومن المستبعد أن هؤلاء القوم يكتشفون هذه الصناعة بعد التفتيش والتحري بناء على هذه المطالعة الأساسية ثم ينسونها أو يتركونها بالكلية، هذا فضلاً عن أن القوم المذكورين سواء كان بالنظر لأحوالهم السالفة أو بالنظر لأحوالهم الحاضرة غير مأمول أن يشغلوا أذهانهم في اكتشاف صنائع كهذه.

والدليل الذي بقي لنا في هذا الباب هو المكتوب الذي كتبه زوجة مومته كو المذكورة من أدرنة إلى لندرا [أي لندن] أول يوم من نيسان سنة ١٧١٧ غربي ميلادية مفاده أن صناعة التلقيح في أدرنة^(١) جارية معمولاً بها فدل هذا أن الصناعة المذكورة ظهرت في أدرنة قبل ذلك بسنين متعددة وقد سمعت من بعض الشيوخ

١- أدرنة: مدينة تركية على نهر ماريتا قرب الحدود اليونانية، كانت عاصمة الدولة العثمانية قبل فتح القسطنطينية، من أهم آثارها الإسلامية جامع السليمية. المنجد ص ٣٠.

أن هذه الصنعة كانت موجودة في أدرنة قبل إلحاقها بفن الطب وورودها إلى ممالك الدولة العلية، ولكننا نجهل من أحدثها ونجهل وقت استعمالها وكيفيته ولأجل إيضاح المسألة وتشبيتها أدرجنا بآخر الكتاب ترجمة مكتوب زوجة مونتة كو تحت نومرو [أي رقم] ٧.

ومن الغريب أنه عندما سرت صنعة التلقيح على الوجه المشروح من أدرنة إلى أوربا، أخذ الكهنة يعترضون عليها باعتراضات شديدة فقبلت أولاً مع الصعوبة، وبعد بلوغ تمام العرف فيها ورجوعها إلى اسلامبول بواسطة الأطباء حصل اعتراضات شديدة من المتعصبين بخصوصها ولكنها أجريت بالإرادة القطعية التي صدرت من طرف حضرة السلطان محمد خان الثاني.

وفي أطراف حلب وكردستان ولورستان على العموم يظهر في كل إنسان حبة تزول في مدة سنة حتى صارت معروفة بحبة سنة، وفي اللسان التركي يقال لها حبة خرما، وفي الإيراني سالك، وقد تشبثوا بها أيضاً في التطعيم وقد تطعم من ظهرت به سواء كان بحسب المدة أو بحسب شدتها أو خفتها، وحيث لم ينظروا لذلك فرقاً تركوه. وهذه الحبة تطلع على الغالب في الوجه ويبقى لها أثر فلو استعملوا التلقيح في غير الوجه من المواضع التي لا ترى فلربما أنها تنتقل إليه، ولكن لا نعلم هل جرب ذلك على الوجه اللائق أم لا ولنرجع إلى ما كنا بصددده.

[اقتسام بولندا واختلال الوضع في فرنسا]

وبناء على الحرب المتقدم ذكرها التي امتدت سبع سنوات، ضعفت دولة فرنسا وحصل لها اضطراب عظيم في داخليتها، ولم يبق لها نفوذ في خارجيتها، فاغتنمت لذلك دولتا روسيا وبروسيا الفرصة، وتدخلتا في أمور دولة له

[بولندا] بحجة إعطاء الحرية وموازنة الحقوق بين النصارى الذين هم من مذهب البروتستانت والأرثوذكس القاطنين في بلاد له، التي على مذهب الكاثوليك، ودولة فرنسا حصل لها بسبب ذلك كدر عظيم ونظراً لضعفها لم تستطع إجراء شيء سوى التثبيت بتحريك وإغراء الدولة العلية وأهالي له على الروسية.

وكانت الدولة العلية في ذلك الوقت محتاجة لتنظيم العساكر، ولم تكن في حالة يمكنها الحرب معها كما ذكرنا في الفصل الرابع والسادس، ومع ذلك فقد حدثت الحرب المشؤومة في سنة ١١٨٢، وقام أيضاً أهالي له للمدافعة. فدخلت دولة أوستريا بالاتفاق المؤسس مع الدولتين وفي سنة ١١٨٦ هجرية إجراء المقاسمة الأولى لبلاد لهستان بين الدول الثلاثة، فاضطرت الدولة العلية إلى قبول معاهدة قينارجه المضرة، وتوفي بذلك الوقت (لويس) الخامس عشر وجلس محله حفيده لويس السادس عشر على سرير ملك فرنسا، وهو في سن العشرين وذلك لكي يجازى بسيئات آبائه وأجداده كما سنذكره. وتزوج بقليلة الحظ (ماري انتوانت) بنت ماريّا ترزيا امبراطورة ألمانيا.

وكان لويس رجلاً حسن النية إلا أنه كان ميالاً للتعصب الذي لا يوافق ذلك العصر، ولم تكن درايته وجسارته كافيتين وكافلتين لحل مشكلات الوقت، وبناء على ذلك انحط نفوذ الذين لا دين لهم مع كثرة عددهم في زمان جده، وسقط اعتبار التآليف القديمة التي ألّفت في مخالفة كل دين ومذهب وفي الحث على محاسن الأخلاق والآداب. وتحولت الأفكار العمومية إلى أسلوب آخر وأقبلوا على اكتساب الفضائل وما تدعو إليه الإنسانية من الرحمة وانتخب لويس وزراءه من ذوي الشهامة، ووضع وأسس نظمات حسنة، واتخذت تدابير مناسبة، وسعى في سعادة الأهالي وإصلاح الأحوال السيئة التي حدثت في فرنسا من سوء تصرفات جده وكثرة حروب لويس الرابع عشر، وكان ممدوحاً في مبدأ

حكومته . ولكن كان قرناؤه والمقربون عنده غير راضين عن الرجال ذوي الشهامة والناموس وكانوا يخالفونهم دائماً في التدابير الحسنة فكان ذلك داعياً لتوقفه في إجراء ما يجب من الإصلاحات، وذلك لما يلقيه عليه أهل الفساد من أقوال الزور المتنوعة . ولما كان (موربا) الذي نصبه رئيساً للوكلاء كبير السن وليس من ذوي الوقار والتمكن، مع ما كان يشاهده من أحوال فرنسا السيئة، فلم يدرك بفكره وسائل جديدة لازمة لإصلاحها، وكان في أمله أنه باستراحة جسم الدولة تندفع بالطبيعة هذه العوراض، وكثيراً ما كان يطلب استعفاء من مأموريته عندما يكلفه لويس إجراء بعض إصلاحات جديدة، وفي الوقت الذي كان يجب عليه أن يجتهد في تقديم الأشغال كان يسعى في ترجيعها إلى حالتها وهيئتها القديمة . فيحصل من ذلك رغبة جديدة للذين من شأنهم طلب الامتيازات . ويكرهون تجديد الأحوال وإصلاح أمور الإدارة وإجرائها على أصولها، ففي تعيين مثل هذا الرجل المومى إليه صاحب أفكار سخيفة بل عنيفة مضرة لرئاسة مجلس الوكلاء خطأ كبير . وكانت الثروة في ذلك الوقت في فرنسا محصورة في الأوصلاء والكهنة إذ كان ثلثا الأملاك في تصرفهم، وكانوا يعطون لخزينة الدولة شيئاً جزئياً بصورة الهدية والإعانة .

وأما الويركو وسائر الضرائب التي يصير استيفائها بوجه خارج عن حدها فكانت تؤخذ من أوساط الناس وضعفائهم لا غير، وزيادة على ذلك فالضعفاء يعطون العشر إلى الكهنة والأساقفة، كما أن الأوصلاء يستخدمونهم كثيراً في أشغالهم الشاقة .

والحاصل أن العامة كانوا يجتهدون لأنفسهم لما يدفع الضرر عنهم، وأما الأوصلاء [النبلاء] فكانوا يصرفون الواردات التي يأخذونها بدون تعب في السفاهة والكيف والصفاء . والكهنة يصرفون أوقاتهم في البطالة ويتعيشون من جيب

الأهالي كما سبق، وكانت وظائف الكهنة الموجودين في الخدمة الدينية بالفعل في صورة عادية وأكثر الواردات المربوطة بالكنائس والأديرة كان مأكلاً للأساقفة، الذين هم أصحاب الرتب والعنوان، وكانت الدولة تلزم أكثر الواردات إلى الشركات فلذلك كان أقل الناس يصيرون بهذه الوسيلة أغنياء بسهولة والباقيون يلحقهم الفقر، وكانت المبالغ الكلية التي تتحصل بغير طريقته المرضية لم تأت الدولة بفائدة، والمتلزمون على الغالب يشتركون مع أصحاب النفوذ فلم يخافوا من أحد، وكانوا يحصلون الأموال بطريقة خارجة عن النظامات، وكانت الدولة تساعد المتلزمين مساعدة كلية حتى لا تتأخر وارداتها. وتعاقب من يهرب من دفع ما عليه من المال، ومع هذا فقد كان كل صنعة وتجارة تحت الحصر، فتجارة الحبوب مثلاً كانت محصورة في أماكن معدودة لبعض الأشخاص، وكان الطحانون والحمالون الذين يحملون الحبوب إلى المطاحن يعدون عدداً لا يقبل الزيادة.

وكان تورغو ناظر المالية الذي ولاه لويس مستعداً غيوراً موقراً سياسياً عالماً بأسباب الثروة والعمران العمومي، فاتخذ وسائل لإصلاح المالية وأزال كثيراً من الأعمال الفاسدة، وكانت نفقات الدولة تتجاوز وارداتها كثيراً، ومع ذلك فإنها كانت لا تحتاج إلى استقراض أو زيادة الويركو وذلك لحسن تدبيره، وكان يقلل الزوائد من المصاريف يوماً فيوماً ويدفع فوائض الديون القديمة شيئاً فشيئاً، ورفع حصر الصنائع والزراعة والتجارة الذي كان مانعاً لترقيتها وزيادتها، وأغلق أبواب كثيرة من الأديرة التي هي بمنزلة مواضع أهل البطالة والكسل، وفتح المكاتب [المدارس] لأجل ترقّي المعارف العمومية، وكان يتعاطى التدابير اللازمة لتنظيم القوانين الجديدة في كل مادة وإصلاح إدارة أمور الدولة وإلغاء الامتيازات (أي الخصوصيات)، وحاز ذلك القبول عند الملك وأمر بإجراء بعض القضايا منها،

ولما كان الاهتمام بهذه الأمور تمس بمنافع الأصلاء والكهنة الخصوصية، فلم تكن مقبولة عندهم وحصل خلاف من البارلمان فصادف تورغو مشكلات عظيمة، ولم يقدر أن يجري أكثر تنظيماته فالتزم أن يتعفى، أما لويس السادس عشر فكان يحب تبعته وكان مالزربك^(١) موافقاً لرأي تورغو وحسن أفكاره للملك، ولكنه أظهر الصعوبة والخوف عند الإجراء، ولم يفهم التدابير الكبيرة وذهب زاعماً إلى أن التدابير الصغيرة قد تكون علاجاً للأمراض الكبيرة، ولما انفصل تورغو عن منصبه ألغيت تنظيماته دفعة واحدة فذهبت تدابير الحسنه بدون نتيجة، ومع ذلك فإن لويس كان يعرف أحوال فرنسا معرفة تامة حتى قيل إنه قال لتورغو عند انفصاله (أنت أسعد مني خطأ لأنك قادر على ترك مأموريته).

وعلى هذه الصورة عادت الأمور المالية إلى حالها القديم وتلاشت في أقرب وقت، وظهر الخطأ في عزل تورغو والغلط في الطريقة التي اتخذت في إدارة الأمور المالية، وقد أعطى القرار بتولية نكر ناظراً للمالية لكونه كان مشهوراً بأنه عارف بالأمور المالية، ولما لم يكن من الأشراف وكان على مذهب البروتستانت، فلم يعطوه لقب ناظر المالية وقتئذ، بل كان مأموراً بعنوان مفتش المالية وكان في الأصل صيرفياً مستعداً غنياً معتبراً عند الصيارف والتجار، فلذلك كان تعيينه مناسباً لتجديد اعتبار مالية فرنسا وكان صيرفياً محضاً لا يعرف دقائق الملكية التي تتوقف عليها الإصلاحات المالية، وكان معجباً برأيه فسلك على طريق الصيرفة المخالفة بل المضادة لأعمال تورغو، وكان يمكنه سد الخلل بحسن الإدارة، ومع ذلك فإنه أول شيء اهتم به الاستقراض، وفي مدة مأموريته التي دامت أربع سنين أدار دولاب الأشغال واستعمل أصول الاستقراض في صورة حسنة، لكن تدابير كانت عبارة عن دفع المشاكل التي تعرض في كل يوم بصورة المبادلة فيلبس

١ - في النسخة التركية مالزربك، وفي النسخة المعربة مالذريك، وقد أثبتنا الأولى.

قباووق^(١) زيد إلى عمرو وبالعكس . والحاصل أن أمور مالية فرنسا أخذت في الاضمحلال يوماً فيوماً . ولناخذ الآن في الكلام على كيفية توسع الروسية وترقيها :

[توسع روسيا]

لم تكن دولة روسيا في القديم ذات قوة وشهرة، وفي هذا الوقت صارت ذات هيئة جسيمة تملك على تسع الكرة الأرضية، ومؤسس هذا الهيكل الجسيم هو بطرس الأكبر السالف الذكر، ولما أخذت دولة روسيا تصعد في مدارج القوة حصل لها الاستعداد للتعرض والإجلاء تدريجاً على الحدود الخاقانية واستولت على إيالتي ازدرهان وقازان، وكانت فرقة رحالة من الجنكيزيين تتجول في ساحل بحر الخزر وبسطت يد حكومتها في القازان، ووضعت الخراج على الروسيين وعندما كانوا يتدخلون بأمورهم الداخلية كانت مملكة القريم إذ ذاك حكومة صغيرة .

وبعد ذلك استولى الضعف الكلي والانحطاط الجلي على حكومة القازان وانقرضت سلسلة نسب عائلة خاناتها وبقيت كأنها تابعة للقريم . وكان عندما يتعين أحد سلاطين القرم لخانية القازان ويرسل لها، كان يثقل ذلك على خانات القازان لأن خانية القرم كانت مطمح آمالهم . وكان في الاختلال الواقع بين التاتار فائدة للروسية فخلا لها الجو، وأخذت في القوة شيئاً فشيئاً إلى أن استولت على إيالتي قزان وازدرهان وذلك في أواخر سلطنة حضرة السلطان سليمان القانوني، ومن بعد ذلك كان أمراء القريم يتابعون الغزو إلى بلاد الروسية وينهبون ويحرقون، وربما وصلوا إلى حدود موسقو، إلا أن قوتهم كانت عبارة عن فرسان التاتار، وهكذا كانوا يغزون بعض الجهات، ومع ذلك فلم يكن عندهم

١ - بمعنى قلنسوة، ما يلبس على الرأس . الدراري اللامعات، ص ٤٠٨ .

اقتدار على ضبط الأماكن التي خربوها. وكان الروس يدفعون في كل سنة إلى خانات القريم مقداراً من الويركو على قصد أن يكون بدلاً عن الخراج تخلصاً من الغزوات التاتارية. وبهذه الحال استولوا على الإقليمين الجسيمين المذكورين وتوسعت بهما مملكتهم. وكان أمراء القريم يأخذون الخراج في كل سنة من الروسيين، ومع ذلك فإنهم كانوا غير قادرين على استرداد تلك الإيالات إلى طاعتهم، وكان يمكنهم ذلك حينئذ بمساعدة الدولة العلية. ولكن الدولة العلية كانت تحس من الجنكيزيين ميلاً إلى الفتن والفساد من القديم فلم تستصوب وجود قوتهم في حدود قازان ودشت قيجان، فلذلك لم يقع التثبيت من طرف الدولة العلية باسترداد تلك الإيالات، نظراً لما اقتضته مصلحتها وهي أن تكون إدارتهم بهذه الصورة، أو بالنظر لأسباب أخرى، وكان الروسيون وقتئذ ليسوا بشيء ولذلك لم تعط أهمية إلى تلك الجهة، وانحصرت الأفكار في الفتوحات الجديدة في جهة النمسا، وكان الأوفق في مسلك السلطان سليم الياوز الذي ذكرناه سابقاً أن يضبط ويحافظ على هاتين الولايتين، فإن الاستيلاء عليهما كان في حق الدولة أنفع من الاشتغال بالفتوحات في بلاد المجار وخروات. لأنه على تقدير أخذ أهالي قافقاس [أي القوقاز] وازدرهان وقازان باليد. فبحسب قرب مجانستهم واتخاذ أكثرهم في الدين والمذهب كانوا بالطبع يدخلون في حوزة حكم الخلافة ويلتحقون بالعثمانيين. وبهذه الوسيلة تدخل القريم شيئاً فشيئاً في طاعة الدولة كدخول سائر إيالات الدولة العلية، وكان بواسطة أزدرهان وقازان يجري نفوذ الدولة العلية أيضاً في جهات بلاد التاتار الكبيرة. وباستثمار الأموال التي يصير اكتسابها على هذا الوجه من تلك النواحي كان يمكن ضبط ممالك عديدة كبلاد المجار. وعلى كل حال فقد استفادت الروسية من وقوع الخطأ في مثل هذه المطالعة السياسية واستولت على هاتين الإياليتين الجسيمتين.

وإيالة ازدرهان هي مملكة (حاجي ترخان) وهي الصحراء الواسعة المنفصلة من مملكة دشست قبجاق، وأصل عمرانها أن الحاج ترخان كان من أكابر السادات فقصده موضعاً وابتنى فيه مسجداً، ثم جاء الناس من الجهات وبنوا منازلهم عنده فصارت قرية يطلق عليها قرية الحاج ترخان، ومع مرور الزمان اجتمع الناس هناك من الأطراف والأكناف وصارت القرية المذكورة مدينة جسيمة واشتهرت عند الناس باسم ازدرهان.

وهذه الإيالة هي منتهي جنوب قزلر وقبار طايلا الواقعتين في الحد الشمالي في طاغستان الشمالية، وعندما استولت الروسية على هذه الإيالة أقبلت على غزو بلاد القافقاس. ولما كانت وقتئذ غير منتظمة الأحوال وكان أوجاق عسكريها المسمى إذ ذاك استرليج لا يفتر عن قدح شرار الفتن والفساد فلم تقدر على إجراء شيء ما في تلك الجهات، ولما ظهر بعد ذلك بطرس المشار إليه أشرأبت نفسه إلى توسيع سطوته وتمكين دائرة دولته، وحيث إن بلاد الروسية غير منبته أدرك يقيناً أنه إذا لم يكن لها قوة بحرية لتدور عليها رحي الشهرة والسطوة بين الدول، وتكون ذريعة لتوسيع نطاق التجارة فلا يدرك شيئاً من آماله، فتصور أنه يتجاوز الممالك المجاورة له لتوسيع بلاده، فأخذ ينظم دولته على أحوال تنظيم أوروبا. وفي أثناء ذلك رتب بلوكاً^(١) من العساكر وعلمه وأنزل نفسه بمنزلة نفر منه، ثم صار يزيد هذا البلوك بالتدريج حتى كبر وجعله طابوراً، واتخذ فرصة الحروب الممتدة منذ سنين عديدة وسيلة لمراذه كما بيناه أعلاه بين الدولة العلية ودول له والنمسا والبندقين، فبالاتفاق مع الدول المذكورة ساق عسكرياً إلى جهة القرم فانهزم ثم ساق عسكرياً ثانياً بنفسه في سنة ١١٠٨ هـ واستولى على قلعة أزاك. وفي أثناء ذهابه وإيابه كان يدبر أمور الحكومة ويقوم بخدمته في الطابور المذكور،

١ - بلوك: بمعنى فوج من العسكر. الدراري اللامعات ص ١١٧.

وعندما وصل إلى عاصمته مدينة موسقو كان أحرز رتبة البيكباشية وفي هذه الحرب شاهد فائدة العساكر المعلمة فاقدّم على تكثيرها وأبلغها إلى اثني عشر ألفاً، وبمقتضى الصلح الذي عقد في سنة ١١١٣هـ تركت الدولة العلية لروسيا قلعة أزاق وجميع الحصون القديمة والحديثة اللاحقة بها وتركت لها أيضاً أراضى مسافتها عشر ساعات من أزاق إلى جهة قوبان.

بما ذكرناه تمكن بطرس من ملك قلعة أزاق وبنى قلعة طيغان لتكون مرسى لتجارة الروسيين في البحر وجعلها مركزاً لها.

وبعد ذلك ذهب متنكراً إلى بلاد الفلمنك يعني مغيراً هيئته لأجل تعليم الصنائع، واشتغل في التجارة هناك بالأجرة مع العمّلة، ثم توجه إلى لندنرا، وبعد أن دقق النظر هناك في أمر الصنائع والأعمال، واجتهد في تكميل الفنون الرياضية عاد إلى مملكته، وأبطل وجاق الاسترليج وألغاه، واشتغل بالحكومة وأخذ ينظم دولته كما يريد وبأثناء ذلك ظهرت الحرب بين دولة إسوج ودولتي دانيمارقه [أي الدنيمارك] ولّه، فاتفق بطرس مع دولتي دانيمارقه وله، وأعلن الحرب على دولة أسوج فانكسر وغلب في أول الأمر وفي نهايته انتصر وذلك في واقعة (بولتاوه) ففر ملك إسوج والتجأ إلى جهة بغداد، واستولى بطرس على أكثر القلاع والبقاع الواقعة في سواحل بحر البaltيق التي كانت في تصرف الأسوجين [السويديين].

وعندما وقع بطرس في ورطته الكبيرة في معركة بروث في حرب الدولة العلية التي صار إشهارها عليه بدس من ملك أسوج، كما بيناه في الفصل الرابع، تخلص بالهدنة التي عقدها في سنة ١١٢٣هـ في حالة الغلب مع محمد باشا البالطه جي على أن يخرج حاميته من قلعتي أزاق وطيغان وتسليمهما إلى الدولة العلية مع قبول سائر الشروط الشاقة، ومع كونه توجه إلى بلاده ومعه منشور الوزير المشار رليه المكتوب بسنان الظفر، يتضمن العفو عنه والأمان له، ووصل

إلى بلاده سالماً (كان كما قيل ربي لا يُري الحية البردانة وجه الشمس) نكل عن الوفاء بالعهد وامتنع عن تسليم القلعتين المذكورتين أزاق وطيغان، وشرع في عمل السفن في بحر الأزاق، وعمران الأراضي التي أخذها من الإسوج وبناء مدينة بطرسبرج التي هي الآن عاصمة الروس وزاد في عنوانه لقب امبراطور وكان لقبهم قبلاً (جار) قيصر.

وكانت تصورات بطرس واسعة جداً بحيث لا تفي بها مدة حياته، فكتب وصية لخلفه ليقدموا من بعده بإجراء ما بقي من تصوراته، ثم مات وفارق دار الدسايس سنة ١١٣٨ هجرية.

وقد ادعى بعض المؤرخين أن بطرس لم يكتب وصية بقلمه لكونه كان يخفي أفكاره عن كل أحد، وأيضاً فإن موته كان يشبه موت الفجأة، فلم يكن له وقت يتمكن به من كتابة مثل هذه الأمور التي ذكروها، ولكن يحتمل أن يكون قد كتبها من قبل وأبقاها، لأننا نرى جميع حركات دولة الروس السياسية والحربية مطابقة لمضمون هذه الوصية، التي اشتهرت بعنوان وصية بطرس منذ زمن مديد إلى الآن وقد أثبتناها بحروفها في الذيل تحت عدد (٨) [في الملاحق].

ومن سياسة الروسية أنها كلما أعلنت الدولة العلية بالحرب مع إمبراطورية ألمانيا تطمع فيما يعود عليها بالفائدة. فلما ظهرت الحرب في زمن السلطان محمود الأول مع النمسا أعلنت هي أيضاً بالحرب على الدولة العلية إعانة للامبراطور، فتركت الدولة العلية لها قلعة أزاق بموجب العهدة المنعقدة سنة ١١٥٢ هجرية وتنازلت عنها. وكما أن دولة الروسية ملكت هذه القلعة وفتح لها طريق التعرض إلى قافقاسيا بالمسير في بحر الأسود وفي طول نهر قوبان. فكذلك الدولة العلية ابتنت لمحافظة الحدود يكي قلعة من جهة البحر، وقلعتي آجو وتمرك (طرق) من جهة البر.

ونهر قوبان ينقسم إلى جدولين يتفرع من كل منهما قسمان: قسم يصب في

مرفأ قزل طاش وآخر في بحر أزاق، وبانقسامه وانصبابه حدث منه جزيرتا طمان ومنتنا، فكان يسكن في هاتين الجزيرتين وعلى ضفتي أصل النهر قوم من القزاق المخالفين للروس وجماعة من التاتار التابعين للقرم. وقلعة طمراق واقعة في منتهى الجانب الشرقي من جزيرة طمان المسماة (اضهء شاهي) أي جزيرة السلطان وهذه القلعة مع قلعة قزل طاش قد بنيتا قديماً لدفع إضرار الأشقياء من قبائل الشركس وأبازا. ولما استولت الروسية على قلعة أزاق كما ذكرنا جلعت قلعة طمراق في مقام سد حائل دونها، ومع ذلك بنت الدولة العلية قلعة آجو مقابلة لروسيا في جزيرة منتنا عند مصب نهر قوبان في بحر أزاق من الجهة المقابلة لطمان.

ويروى أن بطرس لما استولى على قلعة أزاق وبني قلعة طيغان وشاهد بناء قلعة آجو ندم على عدم استيلائه على محل قلعة آجو ليشيد فيه قلعة بدلاً عن انهماكه في بناء قلعة طيغان، لأن الخروج من هناك إلى البحر الأسود كان ممكناً بدون عبور نهر قوبان ومرسى قزل طاش ومنه إلى مضيق يكي قلعة، وكان منتهى مراد بطرس تسيير السفن في البحر الأسود، فلو استولى على محل آجو لكان نال مراده بأيسر وجه وسهل عليه الاستيلاء على طمان بحلوله مرسى قزل طاش.

ثم إن الروسيين استولوا على أطراف قزقر، وأخذوا يتعرضون لقبار طایلر المعدودة من ملحقات خانية القرم، وادعوا أنهم هم السبب في النزاع بين الدولتين وفي هذه المرة أيضاً حملوا السلطنة السنية على أن تقبل ببقاء (قبار طایلر) على الحياد، لا تتعين لأحد منهما بل تكون بصورة مستقلة لا يتداخل أحد في أعمالها. ومع هذه الحال كان أركان الدولة العلية يأملون استرداد قلعة أزاق من الروسيين، حالة كون قلعتي آجو وطمراق اللتين يمكن جعلهما سداً في وجه الروسية لم تكن استحكاماتهما تامة في القوة فكان يتعين في أول الأمر أن يكون استحكاماتها تامة. وقد اطلعت على رسالة جغرافية بين فيها مؤلفها كيفية إكمال

استحاكيمات وصورة استرداد قلعة آزاق، وهي مكتوبة من ذلك الحين. ذكر فيها إنه إذا تقرر وجوب تعمير وتوسيع قلعة طمراق يقتضي أن تؤخذ الأحجار من الخربة المجاورة لها، وإن تنقل من القلعة الجديدة بالسفن. ولكن لم يجر شيء من هذه التصورات، وأما الروسيون فإنهم حلوا رباط أهالي قبار طيلر وأخرجوهم من حماية الدولة العلية، وبعد ذلك بقليل علوا أهالي قبار طيلر الصغير تابعين لهم ثم ابتدؤا بالهجوم على قبار طيلر الكبير ومن جهة أخرى ابتدأوا في زيادة قوتهم البحرية في بحر آزاق ومالوا إلى إعداد أسطول في البحر الأسود.

وفي سنة ١١٧٥ جلست كاترينا على كرسي امبراطورية الروسية، وشرعت في تنفيذ وإجراء ما بقي من وصية بطرس متخيلة أنها تملك جميع الدنيا، وفي أول الأمر تعرضت إلى لهستان فأدركت الدولة العلية أنها تأتيها النوبة بعد ذلك فأعلنت عليها الحرب سنة ١١٨٢ هجرية، بناء على تشويق فرنسا لها، فتكبدت خسائر عظيمة في الحروب التي امتدت ست سنين وأصبحت الدولة تحت ثقل عظيم مثل العهدة الموقع عليها في قرية قينارجه.

والحاصل أن دول أوروبا لم تهتم بالحرب المذكورة واتفقت أوستريا مع الدولة العلية على روسيا وعوضاً عن كونها تصرف قواها على روسيا حولتها على لهستان واكتفت بما قسم لها منها أما فرنسا فإنها صرفت الوقت في المذاكرة.

وعهدة قينارجه تحتوي على ثمانية وعشرين مادة ظاهرة وعلى مادتين خفيتين وصورتها مذيلة تحت رقم (٩) [في الملاحق].

والخسائر المادية والمعنوية التي لحقت بالدولة العلية في هذه المحاربة والمعاهدة خارجة عن حد الإحصاء، وقد استفادت قاترينا فائدة لم تكن في مأمولها.

منها أن آزاق وطوغان بقيتا في يد الروسيين، كما بقيت في أيديهم أيضاً القلعة الجديدة وقلع كرش وقلبرون وأراضي كثيرة بين نهر تين ونهر أوزي. وكفت

الدولة العلية يدها عن القبارطين. ومنها أن إجراء أصول الحرية في القرم أعطت الروسية حق حماية التاتار وبذلك استولت على القرم استيلاءً معنوياً. ومنها أنها تهيأت لها بحسب الشروط وسائل عديدة تتوصل بها لأضرار الدولة العلية في جزائر البحر الأبيض والأفلاق والبغدان. ومنها أن القلعة التي دخلت في يدها من المقاسمة الأولى التي جرت في لهستان بينهما وبين أوستريا وبروسيا أثناء تلك المحاربة قد سهلت لها سوق العساكر إلى سواحل نهر الطونة وفتحت الدولة العلية، وقرب لها أن تمحو دولة له [بولندا] من أصلها.

والحاصل أن قاترينا أجرت كثيراً من وصايا بطرس واكتسبت شأناً ونفوذاً في أوروبا.

وحيث إن توزيع بلاد (له) كانت في ذلك الوقت مجهولة الأهمية والجسامة في أوروبا، كذلك توزيع لهستان لم تجعل له الدول أهمية. ثم اتحدت قاترينا مع ملك بروسيا واستجلبت فلاسفة فرنسا المشهورين، نظير ولتر وبواسطتهم كانت تجري حركاتها وتزعم أنها مقبولة، والحال أن زعمها كان في غير محله، وبمثل ذلك كانت تظهر لأوروبا أن معاملتها للدولة العلية كانت بوجه الحق والإنصاف، وأنها مع كونها مظهراً للغلبة اقتنعت بالقليل وردت لها كثيراً من الممالك التي استولت عليها فكانت دول أوروبا تنظر لذلك بنظر المرؤة. وقد ظهر بعد ذلك لرجال الدول أن روسيا صارت قذى في أعينهم وعلموا أنهم أخطأوا خطأ كبيراً في عدم سعيهم مع الدولة العلية في قمع شوكتها.

ومن جملة ما كان مندرجاً في معاهدة فيناروجة أن تنظيم الأمور الدينية لأقوام التاتار هو من حقوق سلطان الإسلام بمقتضى الشريعة الإسلامية، ففسرت هذه العبارة بأن الخطبة والسكة تكون باسم آل عثمان، وهذا وإن كانت دولة روسيا وافقت عليه فإن خانات القريم لم يقوموا برعايته، ومن بعد ذلك صارت السكة التي تضرب في القرم لا ينظر فيها اسم حضرة السلطان عبد الحميد الأول،

والسكة التي سكها سليمكراي خان ودولتكراي خان كان محرراً على أحد وجهيها اسمهم وعلى الوجه الثاني ضرب في بغجه سراي، وكان بعض سكة شاهينكراي الفضية على هذا الطرز، وأما سكتة الذهبية وأكثر سكتة الفضية فقد نقش عليها اسمه بشكل الطغراي.

استطراد

المسكوكات القديمة

كتب واصف أفندي^(١) في تاريخه عبارة استطراية في حق المسكوكات العتيقة، غير أن أحوال السكة قد صارت الآن فناً مخصوصاً وأربابه يتحرون في بحثهم على المسكوكات العتيقة ويقتنون منها مسكوكات الأمم السالفة نوعاً فنوعاً. وبهذه الصورة توصلوا إلى كشف وحل مشكلات كثيرة مهمة تاريخية. ويوجد إلى الآن في دار السعادة رجال وجهاء صرفوا جل مساعيهم في ذلك. وما ذكره واصف أفندي في هذا المبحث لم يكن موافقاً للفن المذكور. ومبحث المسكوكات وإن كان خارجاً عما نحن بصده، فقد رأينا في المناسب أن نتعرض لذكر أشياء تفيد المطالعين في تاريخنا علماً إجمالاً بذلك، فنقول بناء على التحقيقات التي وقفنا عليها في هذا الباب. وبالنظر لما حققه أصحاب هذا الفن تبين أن اليونانيين هم الذين أحدثوا السكة قبل ألفين وستماية سنة وكسور، وكانوا قبل ذلك يتبادلون الأموال بالسبايك المصنوعة من الذهب الفضة وما شابهها. وكل أمة من الأمم القديمة تتخذ لها آلهاً من الكواكب، ويسندون لكل منهم مزاجاً مخصوصاً، ويصنعون أصناماً وتمائيل بأسماء تلك الآلهة، وكانوا يثبتون آلهة كثيرة مثل إله الحرب وإله الصلح، وقد صارت أساطير الأولين وخرافاتهم الآن فناً مخصوصاً بين أرباب الآثار القديمة. وكان رجال الأمم السالفة ينقشون صور أصنامهم على مسكوكاتهم.

١ - تقدمت ترجمته.

أما اليونانيون فكانوا ينقشون على مسكوكاتهم تارة رسم أصنامهم، وطوراً رسم الأبنية مثل البروج والقلاع وبيوت الأصنام والجبال والنبات والأشجار، وطوراً كان الحكام المستقلون يرسمون صورهم على مسكوكاتهم، والحكومات الجمهورية كانت ترسم دار حكومتها أو اسم البلدة التي ضربت فيها، ومسكوكات الروم كانت على مثل هذا الطرز. وأما اليهود من حيث إن التصوير ممنوع في دينهم فكانوا ينقشون دائماً على مسكوكاتهم الأزهار والأشجار وما شابهها، وأما الكيانيون فكان بعضهم ينقشون على الوجه الواحد صورة سلطانهم على عربة ذات عجلتين وعلى الوجه الثاني رسم قارب بمجاديف. وبعضهم كانوا يرسمون على الوجه صورة يوم وعلى الوجه الثاني رسم سمك ذو أجنحة وذنب شبه ذنب السمك، وصورة سلطان على حصان وبيده قوس ونشاب، والبعض كان على شكل الطولاقي، فالوجه الواحد يكون محفوراً والوجه الثاني منقوشاً وعليه صورة السلطان وبيده قوس ونشاب، ولهم أيضاً سكك ماثلة لهذه. . . ولما كانت دولة الاشكانيين في بلاد إيران مؤسسة من بقايا حكومة اليونان، كانت سكنتهم بالحروف اليونانية على طرز سكة اليونان. وأما سكة الساسانيين فكان منقوشاً على الوجه الواحد منها صور سلاطينهم وألقابهم وأسمائهم، وعلى الوجه الثاني رسم النار وكانوا أيضاً ينقشون على الوجهين رسم إنسان.

وأردشير^(١) بن بابك مؤسس بيوت الساسانية الذي يدعي أنه من سلالة الكيانيين لما استفحل أمره أبطل عبادة الأصنام، التي كان الاشكانيون متدينين بها وسالكن عليها اتباعاً لليونانيين ومُحي أثرها، وأسس عبادة النيران التي كانت دين الفرس في القديم، فلذلك وضع رسم النار على مسكوكاته مع عبارة فارسية بخط بهلوي واتبعه من جاء بعده من ملوكهم على ذلك.

١- أردشير الأول (ت ٢٤١م) مؤسس سلالة الساسانيين في فارس، فرض الزرادشتية ديناً للدولة.
المنجد ص ٣٦.

قال واصف أفندي في تاريخه إن أحوال السكة لم تكن مضبوطة قبل الطوفان، فوجد في الدفان^(١) التي عثر عليها بعده، أقراص من فضة وذهب مدورة ومكعبة وقطع في شكل الريالات وقطع طويلة على شكل نوى البلح، وينقلون أنها منقوشة بما يسمونه قلم الطبيعة بإشارات وصور نبات وتماثيل حيوانات وأشكال مختلفة. وأما بعد الطوفان فمن الشداديين والكيانيين من عمل على سكته صورة سبع، ومنهم من عمل صورة عقاب، ومنهم من عمل صورة بوم، فالذين كانوا يدعون الشجاعة والاستقلال والغلبة على الكل كانوا يصورون صورة أسد، والذين يحبون المسالمة والهدوء كانوا يصورون بوماً وما أشبه ذلك من الحيوانات التي ليس لها مضرة. والذين يدعون العلو اختاروا صورة العقاب، وكان البعض من هؤلاء وأكثر ملوك النصارى والمجوس يجعلون على مسكوكاتهم صورة سلاطينهم أو دار السلطنة أو رسم بلد معظمة، والبعض ينقش سريراً وتاجاً والبعض سيفاً. وحسنوا مسكوكاتهم شيئاً فشيئاً بالتصاوير التي كانوا يختارونها. وفي دولة الأشكانيين كانوا يصورون على المسكوكات صور ملوكهم ويكتبون أسمائهم وتواريخهم بلغتهم. ودولة الساسانيين التي انقرضت بانقراض يزدجرد وأنوشروان وغيرهم من تلك السلسلة. كانوا يكتبون على مسكوكاتهم باللغة الفارسية أبياتاً موزونة، والبعض يكتبون أسمائهم بالنقوش المتنوعة والأشجار والأزهار.

ويعلم من تفصيلاتنا السابقة أن أقوال واصف بهذا الخصوص غير ثابتة ولا مقرونة بما يصححها لوجه: الأول أن الشداديين والأمم المعاصرة لهم، الذين لا يرجعون إلى دين يعرفون به لم تكن لهم سكة. فثبت على هذا الوجه أن ضرب السكة إنما حدث عمله قبل ألفين وستمئة سنة وكسور. الثاني أن التصوير ورسم الأشجار والنباتات والأبنية وسائر الأشياء إنما وجد بكثرة في سكة الروم واليونان، وذلك مبني على الملاحظات الدينية والحال والموقع، وكان اليهود

١ - وهي جمع دفيئة، بمعنى خزينة مخفية، عثر عليها من باطن الأرض.

ينقشون على سكتهم صور الأشجار والأزهار وما شابهها. والمسلم بين أصحاب الفن أن ذلك ناشئ عن مجرد أمر الديانة. الثالث كان يوجد في بعض مسكوكات اليونان والروم رسم بعض الأبنية والجبال أو اسم مدينة، غير أنه لم ينظر في مسكوكاتهم رسم مدينة بتمامها. الرابع أن سكة الأشكانيين كانت بالحروف اليونانية، وسكة الساسانيين كانت على الوجه الذي بيناه أعلاه، والسكة التي كان مكتوباً عليها أبيات موزونة صارت عادة في الدولة الصفوية، وفي دول الإسلام في الهند، وذلك بعد ظهور الإسلام بكثير.

وفي زمن الرسالة المحمدية لم يقع اعتناء بأمر السكة نظراً لكون الملة كانت في ابتداء أمرها ساذجة مع بدواة العرب. فاستمرت النقود المتداولة بين الناس على الحال التي كانت عليه، وفي الأكثر كانت تستعمل المقادير الميزانية. وبالجملية فإن السكة التي كانت جارية في بلاد العرب هي الدراهم والدنانير التي كانت مسكوكة بسكة ملوك الفرس والمجوس والهند والروم. وفي زمن الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم أجمعين وأوائل الدولة الأموية كانت الهمم والأنظار متعلقة بأمر الغزو والجهاد، ولذلك لم يقع اهتمام بضرب السكة. ثم إن بعض الولاة والعمال في جهة الشرق ضربوا سكة فضية على الطرز الكسروي، أعني على طرز السكة الساسانية التي كانت بالحروف البهلوية، فكانوا يكتبون على حرف دائرتها أسمائهم بالحروف العربية وفي وسطها البسملة والهيللة «لا إله إلا الله» وقد نظرت الفقير كثيراً منها. وأقدم سكة رأيتها ضربت في سنة (٢٨) هجرية في قسبة هرتك من بلاد طبرستان، ورأيت مكتوباً في دائرها بالخط الكوفي. بسم الله ربي.

وفي خلافة حضرة علي كرم الله وجهه كان مكتوباً على دائرة السكة التي ضربت في سنة (٣٧) بالخط الكوفي ولي الله. وقد رأينا مكتوباً على دائرة السكة التي ضربت سنة (٣٨ و٣٩) بسم الله ربي على المنوال السابق. وكان مكتوباً على

دوائر السكة المضروبة في سنة (٦٠) في دار ابكرد، وفي سنة (٦١) في يزد بخط كوفي بسم الله فقط، وعلى حرف دائرتها بخط بهلوي عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين. وروي أنه كان مكتوباً على السكة المضروبة باسم الحجاج في نصف سنة (٧٨) بخط كوفي على طرف دائرتها الحجاج بن يوسف وفي وسطها بسم الله لا إله إلا الله وحده محمداً رسول الله. وقد نظرت الفقير سكة في سنة مائة واثنين وعشرين، وأربعة وعشرين، وسبعة وعشرين، وتسعة وعشرين ضربها أحد الرؤساء اسمه عمر من سلالة بعض المحافظين على حدود طبرستان، مكتوب عليها عمر بالخط الكوفي. وفي المسكوكات المذكورة سكة رأيناها في أقرب تاريخ وهي السكة التي ضربها أحد أمراء طبرستان يقال له سليمان في سنة (١٣٧) ومكتوب على طرف دائرتها سليمان. ومن اعتنى كثيراً بفن المسكوكات وجمعها في دار السعادة وجعل لها بيتاً ملاء من المسكوكات الشرقية أحد أحبائنا صبحي بك أفندي^(١) فقد رأيت بينهما المسكوكات القديمة واحدة بعد واحدة، وقرأت العبارات السالفة الذكر مكتوبة بالخط الكوفي. وكان تاريخها واسم البلدة التي ضربت فيها مكتوباً بالخط البهلوي، وحيث كان هذا الخط مجهولاً لنا فاستندنا في ذلك على إفادات وتحقيقات بعض الأعيان الذين يسلّم لهم في المعرفة بقراءة هذا الخط، وكذلك رأينا كتابة على حرف السكة المضروبة باسم عبد الله بن الزبير سطرين بحروف بهلوية فهمنا من كتابتها على حسب الرواية أن معناهما عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين.

والمسكوكات المذكورة لم تكن سكة الملة الإسلامية الرسمية. وإنما سكها بعض الأمراء على الوجه السابق لمجرد تسهيل المعاملات. وقد تبين من تحقيق

١- صبحي عبد اللطيف باشا (ت ١٣٠٢هـ): من وزراء الدولة العثمانية. له اهتمام بالأدب العربية والشرقية والأوروبية والآثار. ومن مؤلفاته المطبوعة (حقائق الكلام في تاريخ الإسلام) (ومبدأ ظهور المسكوكات - تركي) (والمسكوكات الإسلامية - تركي) وغيرها. عثمانلي مؤلف لري ج ٣ ص ٨١.

أصحاب الفن وإفادتهم أن النقود التي ضربت بالحروف العربية، وكانت تتداول في ابتداء ملة الإسلام في صورة رسمية، هي المسكوكات الأموية أحدثها الحجاج. وذلك لما نصبه عبد الملك من الخلفاء الأموية والياً على العراق، وأمره بضرب السكة، فشرع في ضربها في العراق سنة خمس وسبعين هجرية، وقيل إن ذلك كان في سنة ست وسبعين، ومن بعد ذلك انتشر ضرب المسكوكات الأموية في سائر البلاد الإسلامية ولم يبق الآن أثر لهذه النقود الأموية التي ضربت في التاريخين المذكورين.

وأقدم سكة أموية رأيتها الفقير التي ضربت في سنة ٧٨ وهي ذهب بخط كوفي مكتوب في أحد وجهيه (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وفي دائرته (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) وعلى الوجه الثاني (الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد) وفي دائرته (بسم الله ضرب هذا الدينار في عام ثمانية وسبعين). ورؤي عن بعض أصحاب هذا العلم أنه رأى في متحف فلورانس^(١) ذهباً واحداً من مسكوكات الإسلام ضرب في سنة (٧٧)، ومن قبل هذا التاريخ لم تنظر سكة إسلامية ذهبية. ومن أقدم المسكوكات التي رأيتها نقود فضية مضروبة في البصرة سنة (٧٩) مكتوب في أحد وجهيها بخط كوفي (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وفي دائرتها (بسم الله ضرب هذا الدرهم بالبصرة في سنة تسع وسبعين) وعلى الوجه الآخر (الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) وفي دائرتها (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

وجميع مسكوكات الدولة الأموية الذهبية والفضية كانت مسكوكة على الضريين المذكورين إلى تاريخ انقراضهم (١٣٢). وقد رأيت النقود التي ضربت

١- فلورنسا : مدينة في وسط إيطاليا، اشتهرت بمعالمها السياحية قصور ومتاحف ومكتبات وأديره. المنجد ص ٤١٧.

في السنة المذكورة جميعها على الطرز المذكور. غير أنه في تاريخ جلوس مروان الحمار سنة (١٢٧) خرج عن طاعته بعض أمراء الشرق، فأعلنوا بميلهم إلى آل البيت النبوي اختاروا طرز آخر للمسكوكات الفضية التي ضربوها. وقد نظرت الفقير بعض هذه المسكوكات ومن جملتها السكة التي ضربوها في قصبة جي مكتوب على الوجه الواحد (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وعلى أطرافها (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) وفي خارج دائرة أطرافها (بسم الله) ضب بجي سنة سبع وعشرين ومائة) وفي الوجه الآخر (الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) وقد نظرت الفقير أيضاً سكة ضربت على عين هذا النمط في البلدة التي تسمى نميره في سنة ١٢٨.

وذكر واصف أفندي أنه نقل عن التواريخ الموضوعة في أخبار سلاطين الغرب^(١)، أن حضرة عمر رضي الله عنه ضرب سكة في عام ثمانية عشر هجرية على النقش الكسروي، وكتب على بعضها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وعلى بعضها لا إله إلا الله واسم عمر، وإن عبد الله بن الزبير ضرب أيضاً دنائير مستديرة في مكة المكرمة، كتب على أحد وجهيها (محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر (أمر الله بالوفاء والعدل) ونقش على دائرتها لفظ (اعبد الله). إلا أنه ثبت نقلاً أن حضرة عمر لم يضرب باسمه سكة ما، والرواية المذكورة يحتمل أن تكون غلطاً حصل من السكة التي ضربها أحد أمراء طبرستان المسمى عمر على المنوال السابق، فالظاهر أن تاريخها المكتوب بالخط البهلوي لم يتمكنوا من قراءته وأسندت إلى حضرة عمر رضي الله عنه عندما قرئ اسم عمر محرر على دائرتها بالحروف العربية، وكذلك السكة التي نسبوها إلى حضرة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه إلى الآن لم يطلع عليها أهل العلم ولا رواها أحد عنهم، ومن المسلم عند أهل العلم أن الذي أحدث ابتداء ضرب السكة العربية، هو

١ - في النسخة التركية وردت المغرب.

الحجاج وكان ذلك على المنوال السابق في سنة خمس وسبعين أو ست وسبعين . ولكن ظهر خلاف هذا عند وقوع الكشف الجديد في هذا الفن سنة ست وسبعين بعد الألف ومائتين ، وذلك أن رجلاً إيرانياً اسمه جواد أتى إلى دار السعادة بسكة فضية عربية ضربت في البصرة سنة أربعين هجرية ، والفقيه رأيتها بين المسكوكات القديمة الإسلامية عند صبحى بك أفندي . مكتوب على أحد وجهيها بالخط الكوفي (الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) وفي دورتها (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) وعلى الوجه الآخر (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وفي دورتها (ضرب هذا الدرهم بالبصرة في سنة أربعين) ، ونقل بعض المؤرخين أنه ضرب على السكة صورة حضرة معاوية أو صورة حضرة خالد بن الوليد رضي الله عنهما مقلدين سيفيهما ، وتابعهم واصف أفندي في ذلك فأدرج في تاريخه أن حضرة معاوية ابن أبي سفيان كتب صورته على السكة مقلداً سيفه ، ولكن هذه الرواية المذكورة لم يصل نقلها إلى درجة الثبوت والصحة .

وروى أيضاً واصف أفندي في تاريخه أن الحجاج ضرب السكة في العراق سنة خمس وسبعين هجرية ، وكتب على أحد وجهيها النقود بخط كوفي (هو الله أحد الله الصمد) وعلى الوجه الثاني (عبد الملك) .

ولكن الفقير رأيت على وجه الترتيب جميع المسكوكات الأموية المختلفة التي ضربت عندهم في بيوت الضرب من ذهب وفضة في كل سنة على الترتيب السابق ، من سنة ثمان وسبعين إلى تاريخ انقراض دولتهم سنة مائة واثنين وثلاثين هجرية . فلم يكن على أحدها اسم الخليفة ، ومن القضايا المسلمة فناً أنه لم يكتب اسم خليفة على المسكوكات التي ضربت في الإسلام إلى أيام خلافة المهدي العباسي . نعم قد روي اسم عبد الملك مكتوباً على النقود النحاسية التي سكها الروم في إقليم الشام باسمه .

ورأيت الفقير أيضاً كثيراً من المسكوكات العباسية. ففي الابتداء ضربت السكة على الشكل العباسي في سنة (١٣٢) مكتوب على أحد وجهيها (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وفي أطرافها (بسم الله ضرب هذا الدينار بالكوفة في سنة اثنتين وثلاثين ومئة) وعلى الوجه الآخر (محمد رسول الله)، وفي أطراف خارج دورة دائرتها (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون). هكذا ضربت النقود في أوائل خلافة العباسيين على هذا الطراز، وبعده في زمن جعفر المنصور كتب ابنه المهدي والي الخطة (المحمدية) على أحد أوجه النقود الفضية التي سكها (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وعلى أطرافها (بسم الله ضرب هذا الدرهم بالمحمدية سنة اثنين وخمسين ومائة) وعلى الوجه الآخر (مما أمر به المهدي محمد ابن أمير المؤمنين)، وفي الأطراف محمد رسول الله أرسله بالهدى إلى آخره). وفي السكة الفضية التي ضربها في سنة ١٥٥ روي اسم وزيره الحسن بعد اسمه ولكن في ذلك الوقت لم يكن يكتب اسم ولا عنوان في السكة التي تضرب في مقام الخلافة ببغداد، ولا في المواضع التابعة لها رأساً.

وأول من نقش اسمه من الخلفاء الإسلاميين على السكك الفضية هو هذا المهدي الذي جلس على سرير الخلافة في سنة (١٥٨) وكتب على أحد أوجه السكك التي ضربها في بغداد دار السلام في سنة (١٥٩) (لا إله إلا الله وحده لا شريك له)، وفي أطرافها (بسم الله ضرب هذا الدرهم بمدينة السلام في سنة تسع وخمسين ومائة) وعلى الوجه الآخر (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والخليفة المهدي)، وفي أطرافها (محمد رسول الله أرسله بالهدى). وولده هرون الرشيد عندما كان والياً في هرون كتب على أحد أوجه السكة التي ضربها في سنة (١٦٩) (الخليفة المهدي مما أمر به هرون ابن أمير المؤمنين) ولما جلس هرون الرشيد على تخت الخلافة في سنة (١٧٠) كتب على السكة الفضية التي

ضربها (الخليفة الرشيد) وأما السكة الذهبية فإنه كتب على أحد وجهيها (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وفي أطرافها (محمد رسول الله أرسله بالهدى) وعلى الوجه الآخر (محمد رسول الله) وفي دورتها (بسم الله أرسله بالهدى) وعلى الوجه الآخر (محمد رسول الله) وفي دورتها (بسم الله ضرب هذا الدينار سنة سبعين ومائة)، ولم يكتب اسمه لكن فوض نظارة عيار السكة التي سكها على الوجه الذي ذكرناه أعلاه إلى وزيره جعفر، وهو بحسب نظارته نقش اسمه على السكة، وقد رؤي اسم جعفر على النقود الذهبية التي ضربت في سنة (١٧١).

وأول من نقش اسمه على المسكوكات الذهبية من الخلفاء الأمين بن هرون الرشيد وكتب على السكك الذهبية التي سكها في سنة (١٩٥) (الخليفة الأمين)، وبعده ظهر المتغلبون وصاروا ينقشون على السكة أسماءهم مع اسم الخليفة، ثم لما تولى الخلافة أحمد الناصر لدين الله وأعاد قوة الخلافة صار يكتب على السكة اسم الخليفة فقط لأجل إظهار شعار شوكة الخلافة وقوتها.

ذكر واصف في تاريخه أن محمد الأمين بن هرون الرشيد كتب في أعلى السكة (ربي الله) وفي أسفلها (محمد أمين بن هرون الرشيد)، ولما أخذ ولاية العهد لابنه موسى لقبه الناطق بالحق المظفر بالله وضرب دنانير باسمه، وكتب عليها (كل عز ومفخر لموسى المظفر) ولكن لم تر هذه السكة. وأصل حكاية موسى مروية على هذا الوجه، وهو أن المأمون نازع أخاه الأمين وخالفه فرغماً عنه أراد تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين فجعل علي الرضى بن موسى الكاظم من الأولاد العلوية ولياً للعهد، وبعد أن غلب أخاه الأمين واستقل بالخلافة قيل إنه سمم ابن موسى الكاظم وبالنظر لهذه الحال فمن المحتمل أن يكون المأمون ضرب سكة باسم موسى وعلى الوجه السابق لم تنظر هذه السكة.

والأمويون الذين تسلطوا في بلاد الأندلس كتبوا على أحد أوجه سكتهم (بسم الله ضرب هذا الدينار بالأندلس والتاريخ)، وعلى الوجه الآخر اسم الخليفة وعنوانه والفاطميون كتبوا على أحد أوجه سكتهم (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) * محمد رسول الله على ولي الله، وعلى الوجه الثاني اسم الخليفة

وعنوانه. وجاء في تاريخ بن حماد أنه لما ظهرت دولة الموحدين في الغرب ضربت نقود فضية وذهبية بأمر المهدي مربعة الشكل مكتوب على أحد وجهيها البسمة والحمدلة، وعلى الوجه الآخر أسماء الخلفاء من سلالة الموحدين إلى اسم الخليفة الذي هو في ذلك العصر، ولعهد مجيء تيمورلنك كان يوجد كثير من هذه النقود. وفي سنة ثلاثمائة وثمان وخمسين لما دخل أبو الحسن جوهر الكاتب الصقل إلى مصر بعسكر المعز لدين الله، وابتنى القاهرة المعزية، ضرب سكة باسم المعز وكتب على أحد وجهيها ثلاثة أسطر في الأول معز لتوحيد الأحد الصمد وفي الثاني المعز لدين الله أمير المؤمنين، وفي الثالث ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وعلى الوجه الآخر (لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى اه). والملك الظاهر پيرس يعني پارس بك نقش على الدراهم أيضاً صورة پارس.

المسكوكات العثمانية

وفي أوائل ظهور الدولة العثمانية كانت أكثر الدراهم الجارية هي مسكوكات الإفرنج والمغاربة والعراقيين والهند والسلجوقيين ولكن ضربت سكة فضية في زمان السلطان أورخان الغازي.

ذكر واصف أفندي في تاريخه أن السلطان أورخان الغازي^(١) فتح بروسه في تاريخ سبعمئة وست وعشرين، وفي السنة الثامنة عندما حصل على القوة التامة وضع القوانين وعين الكسوة والألبسة المتنوعة، ولم يتعرض للسكة التي بأيدي الناس. ورأيت مجموعة محررة بخط إدريس البتليسي ذكر فيها أنه كان مكتوباً على أحد أوجه سكة السلطان أورخان (المجاهد في سبيل الله السلطان أورخان) وعلى الوجه الثاني ضرب ببروسا وبعده التاريخ الهجري.

وهذا الذي ذكره واصف أفندي ثابت في التواريخ بعينه، وكذلك علاء الدين باشا عندما نظم العساكر في زمن السلطان أورخان ضرب السكة أيضاً.

١- السلطان أورخان بن عثمان (٦٨٠ - ٧٦١هـ) السلطان العثماني الثاني، حكم مدة ٣٥ سنة. إبراهيم بك حلیم، التحفة الخليمية، ص ٣٦-٣٧.

ومسكوكات السلطان أورخان الفضية والنحاسية موجود منها إلى الآن، حتى إنني الفقير رأيت منها في مجمع المسكوكات العثمانية عند الأمير الموماً إليه أربعة عشر عدداً، منها ثلاثة عشر فضة وواحدة من النحاس، مكتوب على أحد وجهيها (لا إلا الله محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر (أورخان خلد الله ملكه)، كذلك مكتوب على مسكوكات السلطان مراد الأول^(١) كلمة الشهادة وعلى الوجه الآخر (مراد بن أورخان خلد الله ملكه).

وسكة يلديرم بايزيد^(٢) خان مكتوب على أحد وجهيها خلد الله ملكه والتاريخ، وعلى الوجه الثاني بايزيد بن مراد ومسكوكات جلبي السلطان محمد خان،^(٣) والسلطان مراد الثاني^(٤) كانت على هذا النمط أيضاً. وفي الدولة العثمانية من أولها إلى زمان السلطان محمد خان الثاني فاتح استانبول لم تضرب سكة من الذهب، وإنما في زمانه ضربت منه وكتب على الوجه الواحد ضارب النضر صاحب المعز والنصر في البر والبحر، وعلى الوجه الثاني سلطان محمد خان ابن السلطان مراد خان ضرب في قسطنطينية والتاريخ. واستمر من جاء بعده من السلاطين مدة مديدة يضربون السكة على هذا السياق وقد رأوا أيضاً مكتوب عنوان سليم شاه على المسكوكات التي ضربت بعد فتح تبريز.

ذكر واصف أفندي في تاريخه عن بعض أقرباء السلطان سليم^(٥) الثاني أنه قال إن جدى حضرة السلطان سليم خان لكونه ملك ديار مصر والبلاد العربية

١- السلطان مراد الأول بن أورخان (٧٢٦-٧٩١هـ)، السلطان العثماني الثالث، حكم مدة ٣١ سنة. المرجع السابق، ص ٣٩-٤٣.

٢- السلطان بايزيد الأول بن مراد (٧٦١-٨٠٥هـ)، السلطان العثماني الرابع، حكم مدة ١٤ سنة، لقّب بـ «يلدرم» أي الصاعقة لسرعة انقضاضه على العدو، أسرة تيمورلنك قائد التاتار، ومات في الأسر. المرجع السابق ص ٤٦-٤٩.

٣- السلطان محمد جلبي الأول (٧٨١-٨١٧هـ)، السلطان العثماني الخامس، المرجع السابق ص ٥٢.

٤- السلطان مراد الثاني بن محمد جلبي (٨٠٦-٨٥٥هـ) السلطان العثماني السادس. حكم مدة ٣١ سنة. المرجع السابق ص ٥٦.

٥- السلطان سليم الثاني بن سليمان القانوني (٩٣٠-٩٨٢هـ) السلطان العثماني الحادي عشر، حكم ٩ سنوات تقريباً. المرجع السابق، ص ٩٧-١٠١.

وعراق العرب والعجم والبحر الأبيض والأسود ومالك الممالك الممتازة الأناضول والروم إيلي من المناسب أن يكتب على سكوته سلطان البرين وخاقان البحرين، وأنه بعد أن فتح قبرس أصدر فرماناً بضرب السكة بهذا العنوان. ولكنني الفقير نظرت مسكوكات الدولة العلية من ابتدائها إلى حد عصرنا على الترتيب واحدة بعد واحدة، سواء التي ضربت في دار السعادة أو التي ضربت في بيوت الضرب المتعددة في الخارج. فإلى زمان السلطان محمد الثالث كانت جميع المسكوكات على غلط سكة السلطان محمد خان الفاتح. وسكة الذهب التي ضربت في زمانه أيضاً في مضارب دار السعادة، وأكثر الإيالات كانت تضرب على ترتيبها. لكن السكة الذهبية التي ضربت في مضارب حلب ومصر، وبعض مدن الغرب كتب عنوانها سلطان البرين وخاقان البحرين. وبقي الأمر على ذلك إلى زمان السلطان محمد الثالث^(١) فكان يكتب في أحد وجهي السكة الفضية قسطنطينية أو اسم البلدة التي ضربت بها، وعلى الوجه الآخر اسم السلطان وعنوانه، وفي وقته رسم السلطان داخل الطغراي على السكة الفضية. وفي القديم كانت ترسم الطغراي في الختم الهمايوني فقط لا على السكة، ثم في زمانه كما قلنا صار نقش الطغراي على أحد أوجه السكة الفضية، غير أنها لم تكن مطبوعة ومنتظمة على صورة الطغراي التي في عصرنا.

وسكة السلطان أحمد الأول^(٢) الفضية كان بعضها بالطغراي وبعضها بدون طغراي. وسكة الذهب كان يكتب على بعضها سلطان البرين وخاقان البحرين، وبعضها كان على الطرز القديم يكتب عليها ضارب النضر صاحب العز والنصر. والسكك الفضية التي وجدت في عصر السلطان مصطفى الأول، والسكك

١- السلطان محمد الثالث ابن مراد الثالث (٩٧٤-١٠١٢هـ) السلطان العثماني الثالث عشر، حكم ٩ سنوات. المرجع السابق، ص ١٠٨-١١١.

٢- السلطان أحمد الأول بن محمد (٩٩٨-١٠٢٦هـ) السلطان العثماني الرابع عشر، حكم ١٤ سنة، وتوفي شاباً. المرجع السابق، ص ١١٣-١١٧.

الفضية والذهبية التي كانت في عصر السلطان عثمان الثاني جميعها مكتوب عليها عنوان سلطان البرين، ولم ير على أحد منها رسم الطغراي. وكان يكتب كذلك على سكة السلطان مراد الرابع^(١) الذهبية وعلى بعض سكتته الفضية عنوان سلطان البرين، وطبع على بعض سكتته الفضية رسم الطغراي. وكانت سكة السلطان إبراهيم الذهبية والفضية أيضاً على هذا المنوال. وكذلك كان مكتوباً على سكة السلطان محمد الرابع الذهبية عنوان سلطان البرين، ولكن رؤي في بعض السكة الذهبية المضروبة في عصره في مضارب الغرب عنوان ضارب النضر على الطرز القديم، أما سكتته الفضية فكان بعضها بالطغراي وبعضها بدونها.

وفي عصر السلطان سليمان الثاني صار ضرب قروش بوزن ستة دراهم، كتب عليها عنوان سلطان البرين، وكانت قروش السلطان أحمد الثاني ومسكوكاته الذهبية أيضاً على هذا المنوال.

وفي عصر السلطان مصطفى الثاني^(٢) صار التنظيم والتحسين في رسم الطغراي وطبع رسم الطغراي على شكل مطبوع ومنظم على بعض سكتته الذهبية. وأما سائر سكتته الذهبية والفضية فكتب عليها عنوان سلطان البرين.

وفي عصر السلطان أحمد الثالث^(٣) ازدادت صورة الطغراي حسناً وانتظاماً، وضربت نقود متنوعة كبيرة وصغيرة مطبوعة على غاية الانتظام، وكتب على أحد أوجه السكة الفضية وعلى بعض النقود الذهبية عنوان سلطان البرين، وطبعت الطغراي أيضاً على الوجه الآخر، وعلى البعض من السكة الذهبية كتب على

١- السلطان مراد الرابع بن أحمد (١٠٢٠-١٠٤٩هـ) السلطان العثماني السابع عشر، حكم ١٧ سنة، وتوفي شاباً. المرجع السابق، ص ١٢٦-١٣٤.

٢- السلطان مصطفى الثاني بن محمد (١٠٧٤-١١١٥هـ) السلطان العثماني الثاني والعشرون، حكم ٩ سنوات. المرجع السابق، ص ١٥٣-١٥٦.

٣- السلطان أحمد الثالث بن محمد (١٠٨٤-١١٤٣هـ) السلطان العثماني الثالث والعشرون، حكم ٢٨ سنة. المرجع السابق، ص ١٥٨-١٦٤.

الوجه الواحد الطغراي، وعلى الوجه الآخر قسطنطينية أو البلدة التي ضربت بها، وكتب على بعضها إسلامبول بدلاً من قسطنطينية، ونقشت الطغراي على أحد أوجه المسكوكات الذهبية المسماة فندقية^(١) وزر محبوب^(٢) التي ضربت في دار السعادة، وعلى الوجه الآخر ضرب في إسلامبول. و، المسكوكات التي ضربت في مضارب أكثر الإيالات كتب عليها ضرب في روان وضرب في تفليس وهكذا. والذهب الفندقية الذي صار سكه في مصر محرر عليه على هذا المنوال أيضاً ضرب في مصر، وأما الزر محبوب المصري فكتب على الوجه الواحد الطغراي وتحتها ضرب في مصر، وعلى الوجه الثاني عنوان سلطان البرين وخابقان البحرين. والذهب الفندقية الكبير الذي ضرب على وزن فندقين^(١) وثلاثة وأربعة وخمسة وسبعة وعشرة فنادق، نقش على وجه الواحد الطغراي وتحتها عز نصره ضرب في قسطنطينية، وعلى الوجه الآخر كذلك عنوان سلطان البرين. وبعد ذلك لحد عصر السلطان سليم الثالث جميع المسكوكات المقطوعة المتنوعة كانت جميعها على طرز مسكوكات السلطان أحمد الثالث والتي ضربت في دار السعادة مكتوب على بعضها قسطنطينية وعلى بعضها إسلامبول. ولكن كان فيها تفاوت في الوزن والعيار. وفي عصر السلطان عبد الحميد خان ضرب نوع من السكة الذهبية على صورة مطبوعة مستحسنة مكتوب على الوجه الواحد الطغراي فقط، وعلى الوجه الآخر ضرب في دار السعادة العلية وتاريخ الجلوس. والذهب الفندقية وزنه درهم وخمس قمحات، والذهب المجيدي الذي هو بمائة غرش وزنه درهمان وست عشر قمحة، لكون الذهب الفندقية من عيار ثلاثة وعشرين والذهب المجيدي من وزن اثنين وعشرين. وكل اثنين ذهباً من الذهب الفندقية يعادلان الذهب المجيدي الذي هو بمائة غرش وزناً بوزن، وحيث إن ذهب زر محبوب في جرمه وسعته يعادل الذهب الفندقية في سمكه ويساويه في الوزن فهما في قيمة واحدة، وبعد ذلك ضرب زر محبوب بقيمة أقل

١ - الفندق هو البندق.

٢ - زر محبوب: زر بفتح الزاي كلمة فارسية بمعنى الذهب، الزر محبوب هو الدينار الذهبي. وقد استعملت في مصر من بداية الحكم العثماني إلى الحملة الفرنسية انظر: أحمد السعيد سليمان/ تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ١٢١ مادة زر محبوب

من الأول. وكان زر محبوب في تاريخ ألف ومائة وست وأربعين رايجاً بثلاثة غروش وثلاثين بارة، ثم في سنة مائة وثمانية وسبعين في ٢٠ المحرم صار بمائة بارة وعشر بارات، وذلك نظراً إلى الخمسين ألف زر محبوب التي قدمها إسماعيل رائف بك أفندي أمين الضربخانة إلى حضرة السلطان مصطفى، وقدم في ذلك بوصلاية بخط يده وقد نظرت الفقير هذه البوصلاية محررة هكذا (زر محبوب جديد عدد ٥٠٠٠٠ غروش ١٣٧٥٠٠ كيس ٢٧٥)، وعلى الوجه الذي ذكرناه أعلاه لما صار النظام في تاريخ سنة ما يتين واثنين على أن يكون ذهب الفندق وذهب المجار رايجاً بخمسة غروش صدرت الإراد أن يكون زر محبوب رايجاً بثلاثة غروش ونصف.

الفصل التاسع

(فيما يتعلق بأحوال جهات القرم وقافقاس)

حيث إننا عزمنا على أن ندرج في أوائل تاريخنا أكثر وقائع القرم، رأينا من المناسب أن نبين إجمالاً الروابط الأصلية التي كانت تربط القرم بالسلطنة السنية فادرجنا في هذا الفصل خلاصة المواد اللازمة في هذا الباب نقلاً عن تاريخ صغير اسمه كلبن خانان حليكرياي وعن سائر التواريخ.

اعلم أنه من القديم كان السلاطين الجنكيزيين، أعني الخانات الذين هم من نسل جنكيز خان من التاتار يجلسون بالإرث على سرير خانات القرم وما إليها، ويحكمون فيها بالاستقلال، ثم إنهم دخلوا في حماية الدولة العلية في زمان حضرة السلطان محمد خان الفاتح، وازدادت روابطهم ومتابعتهم للدولة العلية شيئاً فشيئاً حتى صارت خطة القرم من جملة ممالك الدولة العلية.

ولما كان الاطلاع والوقوف على تفصيل حقيقة هذا الأمر موقوفاً على معرفة ترجمة حال بعض خانات القرم، فقد بادرنا إلى ذكر حال جماعة من أسلافهم المشاهير على الوجه الآتي فنقول:

إن زيادة لفظة كراي على أسماء خانات القرم لم تكن معروفة عند قدمائهم، وإنما صارت عادةً وعرفاً بعد الحاج كراي خان الذي صار خان القرم في تاريخ ثمانمائة واحد وأربعين، وحكم مدة ثلاثين سنة. وقد كان من دأب خانات وسلاطين واعيان التاتار من القديم أنهم يسلمون أطفالهم إلى بعض رجال قبائلهم من حين الرضاع إلى أن يبلغوا سن الشبوية. فغيث الدين سلطان والد الحاج كراي خان المذكور، المتصل نسبه بجنكيز خان بسبع بطون، قد رضع وتربى ونشأ ونما في قبيلة كراي، وبالمصادفة أنه رزق ولداً في اليوم الذي وصل فيه دولت

كلدي من معتبري تلك القبيلة إلى أهله راجعاً من الحجاز . وكان صوفياً فراًى
غياث الدين سلطان أن يسمى ابنه حاجيكراي تبركا به وتذكراً بقبيلته التي تربي
فيها، وبعد مدة صار حاجيكراي خانا في القرم، وفي حياة دولت كلدي الصوفي
المذكور جرت المذاكرة معه في حقوق أبوة الرضاع، فقال دولت كلدي أن مما
يوجب له الافتخار ويكون فيما يأتي من الزمن وسيلة للتذكار زيادة لفظة كراي
التي هي اسم قبيلته علاوة على ألقاب السلاطين الجنكيزية، وأنه يرغب في
حصول ذلك من الآن فصاعداً فحاز مرغوبه القبول، واستمرت بعد ذلك هذه
الزيادة وصارت دستوراً للعمل بينهم .

استطراد

اقاربة الرضاع لدى أهل القرم والقوقاز

كانت قرابة الرضاع في غاية الرعاية بين القبائل، فكان كل ولد ينسب إلى القبيلة التي رضع فيها وتغار عليه كأنه منها. وكان من العادات القديمة أيضاً عند سلاطين وخانات القرم أنهم يعطون أولادهم إلى أحد قبائل الشركس لأجل تربيته. وهذه القضية محررة في تاريخ صغير اسمه عبر تنماي دولت قال مؤلفه: إن قبائل الجراكسة عندما يبلغهم أن خان القرم رزق ولداً يجتمعون في وقت معين في بطحاء يعينونها بينهم، وبحضور وجهائهم ينتخبون ظئراً أي مرضعة لذلك المولود، ويتوجه نحو مائة من الخيالة من قبائل السباه والاوز ومن سائرهم والظئر معهم ويدورون في القرم، ثم ينزلون على الخان ضيوفاً ثلاثة أيام، ولكنهم لا يتناولون شيئاً من مطبخه وإنما يأكلون مما يستصحبونه معهم من الدقيق والعسل والبرغل ومشروب مصنوع من الذرة يسمونه (بوزه) ويضيّفون الخان ودائرتة وبعد ذلك ينتخبون سفيراً من رجالهم يرسلونه إلى الخان، فيبلغه أنه حضروا لياخذوا ولده لأجل تربيته وأنه لا يمكن رجوعهم بدونه. وبناء على التعامل القديم يجيئهم الخان فيأخذ الولد من أمه ويسلمه إلى تلك الظئر (المرضعة) التي صار انتخابها، ويعود الجراكسة إلى أماكنهم شاكرين. ولا يتساهلون في تربيته بل يرجحونها على تربية أولادهم. وعندما يبلغ الولد سبع سنين يعلمونه الركوب والنزول وفن الحرب والضرب والكر والفر، وأبواه من الرضاع لا يقولون له شيئاً مكدرًا، فينشأ وينمى على فطرته الأصلية. وإذا بلغ عمره خمسة عشر سنة يكون قد حل زمن تسليمه إلى والده. ففي أي وقت يطلبه يلبسونه ألبسة جديدة وأسلحة تامة ويركبونه فرساً جيداً مزيناً ويأخذه أبوه من الرضاع، وكما أنه حصل الاحتفال أولاً عند أخذه من والده، كذلك يحتفلون

لرده إليه فيجتمع مئات من الفرسان وجميعهم على المنوال السابق، فيأخذون معهم ما يكفيهم لإدارتهم وإدارة دائرة الخان من المأكول والمشروب في مدة الضيافة ثلاثة أيام ، ويطوفون في القرم، وعند وصولهم إلى بغجة سراي ينصبون طواجنهم ويقيمون في دائرة الخان ثلاثة أيام، وعلى هذه الصورة يسلمون للخان ولده. والخان لأجل أن يجعلهم جميعاً مسرورين من طرفه يجمع هدايا بقدر ما يكفيهم من الحور^(١) والسختيان^(٢) والبواريد والأقواس والقصب والجوخ ويضعها في ميدان المقاسمة، وبعد تقسيمها بينهم يرجعون إلى مواطنهم وكانوا على الغالب يسمون أولاد الجنكيزية بأسماء الحيوانات المفترسة ترهيباً للأعداء عند سماعها كما جرت بذلك عادة القبائل.

وخانات القرم وسلاطينهم يميلون بالطبع إلى التبدى (البداوة) لكونهم يتربون في القبائل على الوجه الذي ذكرناه، ويكونون في غنى عن غايلة التكاليف الزائدة ويقنعون بثوب واحد، ولا يجددون الكسوة والقميس مالم يصير خَلَقًا، وإذا نزع أحدهم ثوبه أخذ ما يلبسه من بعض الرجال الموجودين بمعيته، ولا أحد يلبس الألبسة التي ينزعها هو.

والتاتار هم في حالة البدوية والبساطة الخالصة، فلذلك يكونون خفيفي المونة في أكلهم وشربهم وألبستهم وركوبهم ونزولهم، وهم مطيعون جداً إلى سلاطينهم، وفي أي وقت أراد الخان السفر تصدر إرادته إلى مشايخهم وأمرأه قبائلهم، بأن يقول لهم في يوم كذا لابد أن تكونوا حاضرين في محل كذا، وفي الوقت المعين يكون العدد الذي طلبه من الفرسان موجوداً حاضراً في المحل الذي عينه، ويسارعون في الغار والهجوم على المحل الذي أمرهم به. وقبل سفرهم

١- الحور: بمعنى الجلد والأديم.

٢- السختيان : بمعنى الجلد المدبوغ اللامع، الدراري اللامعات ص ٢٩٢.

بأيام يركبون خيولهم لأجل الإدمان على ركوبها ولا ينزلون عنها إلى وقت سفرهم، وكل نفر يسافر يكون معه من الخيل ثلاثة أو أربعة احتياطاً. ويكتفون في أثناء الطريق بأكلة يسمونها طالغان وهي مصنوعة من شحم الخيل بدقيق الذرة، كما أن خيولهم تكتفي بالعشب وأصولها التي تخرجها بحوافرها من تحت الثلوج والجليد فكانوا لذلك غير محتاجين إلى المهمات وسائر التكاليفات، مثل سائر العساكر، بل يذهبون مسرعين قاصدين المحل المعين لهم، ويشنون الغارة عليه. ويحملون الصبيان على الدعاء لهم بأن يكون الشتاء شديداً وتتجلد المياه ليهون عليهم شن الغارات. ومجموع هيأتهم بمثابة فئة طياحة أو طيارة. ويشنون الغارة ليلاً ونهاراً ويذهبون إلى الأماكن البعيدة بمدة قليلة ويأتون بالأسرى والغنائم التي لا تحصى. وليس عندهم شفقة ولا مرحمة بالأسرى بل يستخدمونهم ويعاملونهم بزيادة الجفاء والأذى. وبناء على ذلك كان الروسيون يخافون ويرتعشون من التاتار، وكانت دولة الروسية بعد استيلائها على قازان أيضاً مجبورة على إعطاء خانات القريم خراجاً سنوياً تخلصاً من غاراتهم وأضرارهم.

وكان هؤلاء الخانات يهتمون كثيراً بالأحكام الشرعية، فينصبون أحد فحول العلماء في منصب قاضي عسكر بمعاش وتعيينات كافية، فينظر في أمور العباد بدون أخذ رسم القسمة وسائر الرسوم وكانوا يعطون مراسلات النيابة للفقهاء، والذين يحكمون بين القبائل بلا جائزة، ثم بعد ذلك تركوا الرسم القديم. وصار الأصناف يلتزمون مراسلات النوابات ويبيعونها لطالبيها بالربى. وعندما اختل عندهم النظام الشرعي مالوا إلى الحضارة والسفاهة وطرا الكسل على حركاتهم فلم يبق لهم قدرة على رد الأعداء. ولأجل بيان تفصيل أحوال حكومة القرم

المختلفة عصرًا بعد عصر ظهر لنا أن نذكر على الوجه الآتي بعض طبقات خاناتهم المتفاوتة :

التجاء منكلى كراي خان للدولة العلية

لما انصب الجنكيزون كالسيل على الأطراف، كانت فرقة منهم جسيمة أثناء مباشرتهم الهجوم على سائر البلاد خاضت بحر الخزر واستولت على قازان، وازدرهان، وأكرهت الروسية على الخراج، واتخذت قازان مقراً لحكومتها. ثم أن شعبه من هؤلاء فتحوا القرم وحكموا فيها على المنوال السابق، ثم طرأ الضعف شيئاً فشيئاً على حكومة قازان، فصاروا كأنهم تابعين ومربوطين بحكومة القرم، ثم بعد ذلك وقع الخانات في غاية ما يكون من الضعف والفتور، وصاروا مجبورين على الالتجاء إلى الدولة العلية والاحتماء بها. وذلك أنه لما توفي صاحبكراي خان السالف الذكر في سنة ثمانماية وإحدى وسبعين، صار ابنه منكل كراي خاناً في محله، وبعد أن حكم مدة ثلاثة أشهر تعصب عليه أولاد عمه، وبعد وقوع عدة حروب فيما بينهم انكسر منكلى كراي خان، وتخلص بالفرار إلى قلعة منكوب التي كانت في ذلك الوقت بأيدي الجنوزيين، ومؤخراً تجمعت أحزابه وأدخلوه مرة أخرى في داخل القريم، وأعادوا الحرب والجدال، ففي هذه المرة غلب منكلى كراي خان وعاد حاكماً للقرم بالاستقلال التام، ونظراً لما يعلمه أن أولاد عمه لا يتركونه وشأنه، استشار أركان دولته في ذلك، فقرروا أنه لا بد من الالتجاء إلى حماية ملاذ السلاطين العظام حضرة السلطان محمد خان الفاتح، وبذلك يكونون مأمونين الغائلة فعرض وأنهى أمره إلى حضرة السلطان محمد خان الفاتح، وقال إنه إذا صار الاهتمام سريعاً من طرف السلطان بفتح

قلاع كفه وطمان ومنكوت الواقعين في سواحل البحر الأسود فهو مستعد أن يبدل نفسه بالسعى والإقدام بهذا الخصوص، ويلتزم بعد ذلك خدمة الدولة العلية فارس له السلطان التوغ والعلم وسائر التشريفات الملوكانية، وأخيراً عندما صار فتح القلاع المذكورة والاستيلاء عليها، أرسل له أيضاً رسالة هامية يظهري له فيها سروره من خدماته المقبولة وحركاته المرضية التي أجراها بخصوص فتح القلاع المذكورة.

وعندما فتح أخيراً حضرة السلطان بايزيد قلعتي (آقكرمان وكلي) كان منكلي كراى خان في خدمة الركاب الهمايونية، وأبرز شجاعة تامة في تلك الحروب، فأنعم عليه من طرف الذات الهمايونية مكافأة لخدمته فرواً سموراً بوجه من قماش قطيفة أبيض وقلباقاً مذهباً (او طربوشاً جركسياً مذهباً) وأهداه كثيراً من أنواع التحف، وأعطاه قرى بلطه وطومبصار وقوشان وسائر القرايا، وما اشتملت عليه من الأراضي التي فتحتها عساكر التاتار في سواحل نهر طورله على وجه التملك .

إحداث رتبة قالكاي

عندما عزم منكلي خان المذكور على غزو بلاد الأعداء قيل له بطريق الاستفسار: من هو الذي تعينه قائمقاماً بعدك في القرم فأراد أن يقول أوغلم محمد كراي قالسون، أي يبقى ولدى محمد كراي، فأفاد مرامه بلسان التاتار فقال أوغلم محمد كراي قالكاي (أي أبدل قالسون بكلم قالكاي). ولحين رجوعه من الغزاة سالماً غانماً كان ولده ذاق حلاوة الحكم فلم يظهر له أن يحرم ابنه من لذة الأحكام بالكلية فلقبه بلقب قالكاي سلطان، وأفرز له إيراداً معيناً من الملاحاة والجمارك وجعل مقره قصبة أقمسجد من أعمال القرم، وألحق له قره صو وتوابعها، وأعطاه البراءة العالية الشأن من طرف السلطان على أن يكون ولي عهده. ومن بعد ذلك صارت القالكاي منصباً، وصارت العادة أن ينصب قالكاي واحد إلى كل من يصير خاناً في القريم. وبناء عليه لما توفي منكلي كراي خان وصار ولده محمد كراي خان المذكور خاناً للقرم، أدخل السرور على أخيه بهادر كراي سلطان بتعيينه في منصب قالكاي.

ترجمة أحوال سعادة كراي خان

ولما توفي محمد كراي خان بعد أن حكم القرم مدة عشر سنين نصب أخوه سعادة كراي خان خاناً للقريم، وهذا أيضاً بعد أن حكم خاناً مدة تسع سنين تنزل عن الخانية وأقام في دار السعادة.

وتفصيل أحواله هو أنه حينما كان نجل حضرة السلطان سليم الياوز والياً على

طرابزون شرف إلى قلعة كفه لبعض أسباب، ففضل بنزوله في سراية منكلى كراي خان، وبعد ذلك عند سفره الى جهات الروم ايلي أخذ بمعيته سعادة كراي خان ابن منكلى كراي خان المذكور، وبهذه الوسيلة أقام في معيته مدة مديدة في السفر والحضر. ثم لما جلس على تخت المهابة العثماني جعله مسروراً مرفهاً بإعطاء معاشات وتعيينات كافية.

وفي المحرم سنة تسعمائة وثلاثين وصل إلى دار السعادة خبر وفاة محمد كراي خان وفي رجب من السنة المذكورة وجهت خانية القريم الى سعادة كراي خان، فسار إلى القريم بالأسطول الهمايوني واستقر في مسند الخانية ونصب غازي سلطان كراي بن محمد كراي خان الذي كان مدعيّاً بخانية القريم في منصب قالقاي.

ولكن بعد مدة قام أبناء أخيه عليه ودامت الحرب متصلة بينهم مدة خمس سنين، وأخيراً تفرغ عن الخانية، وفي شوال سنة تسعمائة وثمانية وثلاثين وصل إلى دار السعادة وبعد أن أقام مدة ست سنين في جوار أبي أيوب خالد الأنصاري رضي الله عنه، ارتحل الى دار الآخرة ودفن في جوار حضرة أبي أيوب رضي الله عنه.

خانية صاحبكراي

في أوائل خانية محمد كراي خان أخو محمدخان ابتلي صاحبكراي ابن منكلى كراي خان بالحبس مدة مديدة لأسباب دعت الى ذلك، وفي ذلك التاريخ مات خان قازان ايچم خان بلا ولد، وبناء على عرض واستدعا اهالي الولاية أن ينصب عليهم سلطاناً عوضه من السلاطين الجنكيزية، صار نصب صاحبكراي خان في ذلك الوقت خاناً على قازان. وبعد أن أضاع وقته بذلك المنصب بلا إيراد

مدة خمس سنين عين قائمقاماً لحكومة قازان صغاكراى سلطان ابن أخيه محمود كراى، بحجة التوجه لحج بيت الله الحرام وانسحب باللطافة الى جهة الروم وعندما جاء إلى دار السعادة عين له حضرة السلطان سليمان خان القانوني التعيينات الكافية فزال احتياجه، وبأثناء اكتسابه رفاهية الحال أرسل اسلامكراى سلطان، الذى جلس في مقام الحكومة رأساً مدة خمسة أشهر بعد تنازل سعادة كراى خان عريضة للدولة العلية، وطلب العفو عن جرائمه السابقة ملاحظاً عواقب الأمور، فصدر الأمر السلطاني بتحرير المنشور باسم صاحب كراى خان المشار إليه في شهر ربيع الأول سنة ٩٣٩ وأعم عليه السلطان بتاج (قلباق) من السمور وريشتين مجوهرتين ومحفظة مجوهره للسهم وسرج مرصع وفرو سمور وسيف مرصع، رفع بذلك قدره وجعله غريق نعمته، وزاد على ذلك أن أعطاه ستين جندياً من الطوبجية وثلاثماية من الجبه جه وألف من السكبان وأربعين من المتفرقة وثلاثين جاويشاً وستين من أصحاب التيمارات والزعامة وجعل نفقاتهم منه أي من كيس الخليفة ثم أرسله إلى القريم.

والمبالغ التي تعطى من طرف الدولة العلية إلى خانات القريم باسم دراهم السكبان الى حين استيلاء الروس عليها، إنما هي لأجل انفاقها على الجنود المذكورة آنفاً وكان ذلك من آثار المرحوم السلطان سليمان وحسناته.

وعلى هذا الوجه كان دخول صاحبكراى إلى القريم ولما جلس على منصة الخانية نصب إسلام كراى سلطان في منصب قالقاي، وبعد ذلك أعدمه ونصب أحمد كراى سلطان ابن سعادة كراى خان، ولما لم يكن أميناً من جهته فلم يمر زمن كثير حتى قتله أيضاً ونصب ابنه أمين كراى سلطان في منصبه.

ومن آثار صاحبكراى خان أنه أدخل إلى القرم التاتار الساكنين في الخيام على سواحل الأنهر الستة وهي نهر جم وچاليق وائل أي دلقه وقوبان وتن واوزى ووزع عليهم الأراضي وملكهم إياها لأجل إسكانهم.

ولما سافر حضرة السلطان سليمان خان بالعسكر الأيوني إلى مملكة البغدان، نال صاحبكراى خان الشرف بوجوده بخدمة الركاب الهمايوني مع عساكر التاتار، وبعد ذلك في حرب النمسا كان ابنه أمين كراى سلطان القلغاي في هذه الخدمة الموجبة للافتخار.

خانية دولتكراى وأخذه الروسين تحت الخراج

إن دولتكراى خان هو ابن مبارك كراى سلطان ابن منكلى كراى خان وأبوه مبارك كراى، توفي في معركة فتح مصر في عصر السلطان سليم خان، فنشأ ونما في حجر أعمامه المكرمين محمد كراى خان وسعادة كراى خان. وكان حائزاً على رتبة القالقاى في وقت خانية سعادة كراى خان، وعند وقعة اسلام كراى حضر مع عمه سعادة كراى إلى دار السادة واكتسب الانتساب إلى سليمان الزمان، وتشرف بخدمته في الحرب والسلم، وصار مظهرًا لالتفات ملك الدنيا، وبهذه المناسبة كان صاحب كراى خان الموجود خاناً في القريم يترقب وسيلة يبعده بها من جوار دار السلطنة، على أن إقبال صاحب كراى خان كان بلغ درجات الكمال، وقرب من الزوال كما يشير إلى ذلك هذا البيت

إذا تم أمر بلدانقصه ترقب زوالا متى قيل تم

وكان تناقص عنه توجه السلطان بسبب أمور نسبوها إليه. وفي أثناء ذلك توفي خان قازان صغاً كراى خان فعرض وانهى صاحب كراى خان الى دار السعادة بنصيب دولت كراى خاناً على قازان، لينال قصده بهذه الحجة من إبعاد دولت كراى خان عن جوار السلطنة على الوجه المحرر، فكان ذلك سبباً لغضب السلطان عليه فعزله ونصب محله دولت كراى خان وبوصله إلى القرم قتل صاحب كراى وأولاده وحصل على الاستقلال في الخانية.

وكان هذا دولت كراى خان فارس الخيل في ميدان الوغى ومشعل نار الحرب، ولم يترك الغزو والجهاد حتى أنه بعد أن حاصر مدينة موسقو التي كانت

عاصمة روسيا في ذلك العصر مدة أربعين يوماً فتحها واستولى عليها قهراً بقوة بطشه، وأخذ أموالاً لا تحصى كانت موجودة في خزينتها، ثم إنه عقد الصلح مع روسيا على شرط أن يقدموا بكل سنة جزية إلى خان القرم الذي يعبر عنها بلسان التاتار (طيش) كما هو مذكور في تواريخ القريم وعدا عن شجاعته كانت له ملكة في الشعر ومن آثار شعره هذا البيت:

(يا قه سن صدجاك أیدن هربر كلك كلشن إيچره ناله سيدر بلبلک)

معنى هذا البيت في البيت الأخير من الأبيات الآتية التي جعلناها توطئة له:

في خلوة الأسرار غنى شادن وبكفه قدح الرحيق السلسل

لما تمكن صوته في مسمعي وبراحه أمسيت رخو المفصل

مزقت أستار الحياء فقال لي إني أرى عنك الوقار بمعزل

فأجبتة يابدر لا تعتب على من كان آخر أمره كالأول

قسما بطلعتك التي هي بهجة للناظرين وفرعك المسترسل

(ما شق زر الورد جيب قميصه في الروض إلا من غناء البلبل)

وبعد أن حكم مدة عشرين سنة مات مطعوناً في تاريخ سنة تسعمائة وخمسة وثمانين وصف في محله ولده سمين محمد كراي خان.

إحداث لقب نور الدين

عندما نصب سمين محمد كراي خان خاناً للقريم مكان أبيه دولت كراي خان، نصب ابنه عادل كراي في منصب قالقاوي. ثم لما وقع عادل كراي أسيراً في يد الأعداء في الحرب التي جرت في جهة الشرق وقتلوه أخيراً، وقع في فكره أن ينصب مكانه ولده سعادة كراي، إلا أن أخاه بكراي سلطان كان أكبر منه سناً

فطلب المنصب، فهذا الطلب منعه عن نصب سعادة كراي، فوجه منصب قالقاي المذكور على بكراي سلطان، ولقب سعادة كراي تسلية له بلقب نور الدين سلطان نسبة للميرزا نور الدين الذي تربى في حجره.، وحدث عند ذلك هذا المنصب الجديد وقسم له مقدار ما يكفيه من أصل المرتب الذي خص به كل من كان خاناً أى أميراً، وصدر الأمر السلطاني باعتباره ولي العهد الثاني وأخذ بيده البراءة العالية الشأن الواردة بذلك وقد عُرِّ بها. ثم كل من نال هذا المنصب من بعده لقب بنور الدين سلطان وامتاز به على أقرانه.

تقديم اسم السلطان وتأخير أسماء

خانات القرم في الخطب

عندما كان دولة كراي خان خاناً على القرم، أرسل ولده إسلام كراي خان للأستانة العلية بصفة رهن جرياً على العادة، وكان يعتبر ذلك منصباً فحصل له مقام عظيم عند الدولة في زمن السلطان سليم، وفي عهد السلطان سليمان، ثم لما تولى الخلافة السلطان مراد الثالث لم يلتفت إليه كأسلافه، وسقط من اعتباره القديم فاختر الإقامة في مدينة قونية.

إن سمين محمد كراي خان السالف الذكر بعد أن مكث في الإمارة مدة سبع سنين عزلته الدولة لأسباب موجهة لذلك، واستحضرت أخاه إسلام كراي خان من قونية ووجهت إمارة القرم عليه وتوجه إليها، وذلك سنة ٩٩٢ فابقي بكراي في منصبه، وهو قالقاي وأدخل السرور على ولده مبارك كراي باللقب الجديد وهو نور الدين سلطان.

وما مضى زمان يسير حتى ظهر سعادتكراى بن محمد كراي واتحد مع أسني بك وغيره من أمراء النوغاي، وجمع من التاتار عسكرياً ودخل القرم وهجم على بغجه سراي، فاضطر إسلام كراى إلى الالتجاء بقلعة كفه وشرع في تجهيز العسكر مع إشعار الأستانة العلية بواقعة الحال، فأمرت الدولة بأن يكون أمير أمراء كفه في معيته هو وعسكره، فحالاً تقابلا مع جماعة سعادتكراي في محل يقال له اندال وظهرت آثار الغلب والانتصار في جهة إسلام كراى وفر سعادتكراي فقال بعض الشعراء في ذلك هذا المصراع ^(١) (قيلدي إسلامي بعون الله قوي سلطان روم) وكان هذا المصراع تاريخاً للوقعة ومعناه أن سلطان الروم القوي أيد الإسلام بعون الله.

ولما استقل إسلام كراي خان بالمسند على هذه الصورة بلغ مسامع الخلافة أن أقوام النوغاني الساكنين حوالي بوجاق اعتدوا على رعايا البغدان بسلب أموالهم ومواشيهم، فصدر أمر همايوني باسترداد الأموال والمواشي المغصوبة، فتوجه إسلام كراي خان إلى البوجاق لأجل إجراء مأموريته وبعد إتمام هذه الخدمة أمر بتقديم اسم سلطان الزمان في ولاية القريم وتوابعها على منابر المساجد وفي المحافل وتأخير أسامي خانات القرم، فكان ذكر اسماء سلاطين الإسلام في الخطب في القريم من آثار إسلامكراى خان الخيرية، وكانت مدته في الخانية ثلاث سنين توفي رحمه الله في جمادي الأولى سنة تسعمائة وست وتسعين، وكان رجلاً عاقلاً ذا فكر ثاقب ومعارف غزيرة، وكان يصرف أكثر أوقاته في دار السعادة وكان ذاتاً متسماً بسمات السعادة ونال الثفات ثلاثة سلاطين من ذوي الشأن.

١- المصراع من الشعر: نصف البيت. قيل إن اشتقاق ذلك من الصرعين وهما نصفا النهار. المنجد ص ٤٢٢.

حدوث ^(١) خدمة آغاوية الخان

بناء على حدوث هذه الخدمة المذكورة في زمان بوره غازي كراي خان، ظهر لنا أن نذكر ترجمة أحوال الخان المشار إليه على الوجه الآتي. فنقول إن بوره غازي كراي خان هو ابن دولتكراي خان الذي تقدم ذكره وكان وقع أسيراً في يد العجم في حرب الشرق، وهو في معية أخيه الكبير سمين محمد كراي خان وبقي أسيراً سبع سنين متوالية في قلعة قهقهه. وكان كبار العجم شاهدوا جلادته وشجاعته فعلقوا طلاقه من الأسر على شروط وقيود كلفوه للارتباط بها فأنشدهم رباعية من شعره أظهر فيها أنه يفضل بقاءه أسيراً في الحبس على قبول تلك الشروط، وما قاله مسطر في تذكرة الشعراء لصادقي أفندي كاتب شاه عباس. وهذه صورة الرباعية المذكورة:

نابود غم وشادئ حرمان بوده زنيكونه كذشته تاكه دوران بوده
ما تجربه كرديم كه در ملك شما راحت همه در قلعه وزندان بوده
وملخص معنى ذلك في الأبيات الآتية:

يقولون إن اليأس للمرء راحة إذا كان ما يرجوه فيه متاعب
ونحن قد ارتحنا بمحبس ملككم ولو أن فيه الضنك للنفس صاحب

والحاصل أنه بعد إقامته سبع سنين في الحبس يقاسي العناء الشديد، تمكن من الفرار متنكراً فوصل إلى أرضروم، وبعد أن أقام مدة في دائرة واليها جاء إلى دار السعادة، ووافق وصوله وفاة أخيه إسلام كراي خان فوجهت لعهدته خانية القريم، وذلك في سنة تسعمائة وست وتسعين. وعند وصوله إلى القريم عين أخاه فتحكراي في منصب قالفای وأعطى بختكراي سلطان بن أخيه عادلكرای

١- أي إحداث رتبة جديدة هي رتبة آغا الخان بمعنى المعتمد أو الوكيل. الدراري اللامعات ص ٤٥٣.

لقب نور الدين، وأعطى أحمد أغا أحد امكداريته^(١) لقب باش أغا بمعنى الوكيل أو الكتبخدا، وبعد زمان تلقب كل شخص تعين في الخدمة المذكورة بعنوان خان أغاسي. وهذه الخطة بمثابة وظيفة المحتسب يناظر أمر الأسعار وبعض ضوابط الأمور البلدية.

ولما توجه حضرة السلطان محمد خان إلى فتح أكراي كان فتحكراي سلطان، الموما إليه في عسكر التاتار في خدمة ركابه الهمايوني.

وكان بوره غازي كراي خان في غاية الشجاعة والإقدام، وكان ماهراً في جميع الفنون، ومقتدراً على الشعر والإنشاء في ثلاثة السن، وكان خديوياً محترماً وصاحب سيف وقلم، وله المكاتبات المنظومة إلى سعد الدين أفندي شيخ السلطان، وله أيضاً إنشاءات بليغة وتحريرات مثورة إلى غني زاده نادري أفندي^(٢) من الصدور، ومن شعره هذا الغزل الذي لم يسبقه إليه أحد كتب بقلم الإعجاز:

غزل

رأيته هيل ايدرز قامت دلجويرينه	توغه دل باغلا ميشز كا كل خشبويرينه
هوس تيروكمان چيقمدي دلدن أصلا	ناوك غمزء دلدوز إيله أبرويرينه
سوررز تيغمزك ذوق وصفاسن هر دم	سيمتنلر له أولان لذت پهلو يرينه
کردن توسن زيبياده قطاس دلبنده	باغلدي كوكلمزي زلف إيله كيسويرينه
سوررز أسب هنر مند صبا رفتاري	بريري شكل صنم بر كوزي آهويرينه
كوكلمز شاهد زيباي جهاده يردك	دلبر ماه رخ ويار پري رو يرينه

١- أمكدار : الخادم القديم (في اللغة التركية). الدراري اللامعات ص ٤٧.

٢- غني زاده نادر أفندي (ت ١٠٣٦هـ) : من كبار العلماء والشعراء في العهد العثماني، له مؤلفات ودواوين، من بينها ديوان يحتوي على ألفي بيت في سرح حاشية تفسير البيضاوي، عثمانلي مؤلفري ٣٤٩/٢.

سفرک جورى جوق أميدوفا إيله ولى اولدق اشفته سى برشوخ جفاجويرينه
أولمشز جان إيله بالله عزابى تشنه قاننى دينك دنك ابچرز صويرينه

وملخص معنى ذلك في الآيات الآتية:

نرى العلم الخفاق في حومة الوغى لنا عوضاً عن قامة الغادة الحسناء
وأرواحنا معقودة بينوده وإن الفروع السود نحسبها عنها
وحب سهام القوس يعرفون قلوبنا وليست سهام اللحظ تلقى بها وهنا
وجاذبة الجسم اللجيني عندنا تنافي عناق السيف بالفعل والمعنى
وقبض عنان للمهر لاشك رابط لغاياتنا لا سالف جاوز الأذن
به نسبق الريح الرخاء وصوته لا سماعنا مثل الهزار إذا غنى
ونعطي لمحبوب الجهاد نفوسنا ولم نستلف منه على فقدتها رهنا
وعن صحبة الطيبي الشرود يصدنا هوى سفر منه ثمار المنى تجنى
وشرب دم الأعداء يغني عطاشنا عن الماء والراح التي تنعش المضنى
فهذا به ذو العقل يرضى وغيره جهالته ترضيه بالمقصد الأدنى
وتوفي بالطاعون في شعبان سنة ست عشرة وألف، بعد أن أبقي له أسماً
مخلداً ببناء القلعة المسماة غازي كرمان الذي بناها بأموال الغنائم التي غنمها،
ودفن في بغيچه سراي.

مجلد أحوال خانات القريم المتأخرين

إن خانات القريم الذين سبق ذكرهم كانوا من قدماء الخانات الجنكيزية.
وكانوا على جانب عظيم من مكارم الأخلاق، وكل منهم صاحب مسند الإمارة،

وكلهم كانوا أعياناً متسمين بالمحاسن، وبعد أن مر دورهم مال أكثر الذين صاروا بعدهم خانات القرم إلى مشارب السفاهة والكسل، وصار من ينصب في خانية القرم من السلاطين الجنكزية غير أهل لهذا المنصب، وبعضهم ينالون بالرجاء والشفاعة، فلذلك تناقص اسم الخانات الجنكزية القديمة. وضاعت شهرتهم واستولت طباع التاتار على طباع خلفهم فكسلوا وتراخوا، وابتدأت صولتهم القديمة في التناقص والتنازل.

وزيادة على ذلك أنه دخل بين بطونهم وعشائهم الشقاق والنفاق، وعجزوا عن مقاومة الأعداء الأجانب وعن إدارة مملكتهم والمحافظة عليها.

فاغتنم الروس الفرصة في هذه الأحوال، ولم يكتفوا بعدم تأدية الجزية التي كانوا متعهدين بدفعها إلى خانات القريم، بل أدخلوا تحت استيلائهم وحمايتهم ولايتي قازان وآ درهان الواقعتين في جهة نهر اتل، ثم شرعوا في التضييق على القريم أيضاً. وهذه الدولة الروسية كانت قديماً تراجع خانات القرم في معاملاتها الضرورية، ولما نصب مراد كراي خان على القريم سنة ألف وثمانية وثمانين وكان يعاقر الخمر في بعض الأوقات وقع منه ما فيه احتقار لسفير الروسية بدون شعور، وبعد ذلك صارت سفراء الروسية لا تأتي إلى القرم بل بادرت لرؤية مصالحها بواسطة ولاية البندر. وبالتدريج اكتسبت الاقتدار بواسطة إرسال سفيرها إلى دار السعادة. وفي خلال سنة ألف ومائة وثمانية وأربعين هجمت عساكر الروسية على القرم ودخلوا من باب أور إلى بغچه سراي التي هي دار إمارة القرم، وأحرقوها مع سائر القصبات والقرى ورجعوا إلى وطنهم.

وفي خلال تلك الأعصار ظهر رزمي بهادر كراي خان وإسلامكراي خان الثاني وحاجي سليم كراي خان ودولتكراي خان الثاني، وتلافوا ما فات على قدر الإمكان، ولكن بعد وفاتهم عادت الأحوال إلى ما كانت عليه من الاختلال. وكان هؤلاء الأمراء الأربعة يعطون القوة والجلادة للحكومة بمنزلة

العناصر الأربعة، بل بهم نال خانات الجنكيزية المتأخرون العز والشأن، وامتازوا بالشهرة الكاملة بين ثمانية وعشرين خاناً من خانات القريم، أي بين أيام بوره خان الذي نصب خانا للقرم سنة ألف ومائة وخمس وثمانين، وبين أيام صاحبكراي غازي كراي خان السالف الذكر، ولتتم الفائدة بادرنا هنا إلى بيان ترجمة حال كل منهم إجمالاً على الوجه الآتي:

ترجمة حال رزمي پهادركراي خان

في زمان سلطنة حضرة السلطان مراد الرابع، وقع بين أقوام التاتار فساد آل بهم إلى اختلال نظامهم وشاع بينهم كثير من الأمور الردية، كقتل النفوس وهتك الأعراض، وبناء على ذلك ففي المحرم سنة ١٠٤٧ نصب السلطان المشار إليه رزمي پهادر خان أميراً على القريم فكان اسمه مطابقاً لمسماه، وحركاته موافقة للرضي السلطاني، وعند وصوله إلى القريم دمر الأشقياء وقهرهم، وبعد أن طهر القريم حرر الأوامر الشديدة المؤكدة وأرسلها في الحال مع مأمور مخصوص إلى الروسيين الذين كانوا وقتئذ أظهروا التردد في أمر أداء الجزية التي كانوا يدفعونها إلى خانات القريم، فالروسيون نظراً لخوفهم من شدة صولة الخان المشار إليه أجبرهم الحال على إرسال الجزية المذكورة (مع بعض هدايا علاوة عليها) ولكن أجله كان قريباً، فبعد أن أقام خاناً مدة أربع سنين ونصف توفي في أثناء سنة ألف وخمسين.

وكان الخان المشار إليه شاعراً مطلعاً على الآثار وهذا الغزل الآتي هو من أثر

قلمه:

غزل

خط سر سبريكك أو ستنده آيدريز زلفك چمن اوستنده بتن سنبله بكزر زلفك
أبر سبیراب صفت برده فكن خورشیده أفتاب رخنه سایه سالار ترزلفك
باش قالدردی یوزه جیقدی سپاه خطك فتنه وهميله دوشوب رعشه یه دتر زلفك
صاقینوراول كل رخاسري اسن یللدن صاعمه تحريك صبادن یوزك أورتر زلفك
نیچه ممکن کیره رزمیء کدانك ألنه کنج حسنك سني أ درکبي بکلر زلفك

وملخص معنى ذلك في الأبيات الآتية:

عمجت لمن أضحي يعذب مهجتي على أنه لي في الأنام حبيب
له منطق عذب وروح خفيفة وجفن مريض للقلوب طيب
وسالفة المخضر فوق عذاره يروّح جمرأ ليس فيه لهيب
تراه كغيم في سماء وظله نقاب لوجه الشمس وهو عجيب
وإن شئت بالشعبان مثله حارساً لكتر جمال عنه ليس يغيب
وريح شذاه يختشي من هبوبها على ورد خد منه يعبق طيب
ولما رأى جيش العذار مقابلاً له وهو في قصد الهجوم قريب
توهم أن يلقي به شر فتنة فأبدى ارتعاشاً كاد منه يشيب

ترجمة حال إسلام كراي خان الثاني

لم تمر مدة طويلة بعد وفاة بهادر كراي خان السالف الذكر حتى أظهرت روسيا امتناعها من أداء الخراج، فلما نصب إسلام كراي الثاني خاناً على القرم في خلال سنة ألف وأربع وخمسين، تصدى أولاً إلى تاديب بعض القبائل التي سلكت طريق العصيان، ثم سير عادلكراي سلطان، الذي كان في منصب نور الدين لتحصيل الخراج وساق معه عساكر التاتار على الروس، فأغار عليهم ونهب الأموال وخرب البلاد واستمر على عمله هذا إلى مدينة موسقو التي كانت وقتئذ عاصمة الروسيين، ولما رأوا ذلك عقدوا معه الصلح على شرط إرسال الجزية التي تعهدوا بدفعها في كل سنة، وقدموا له في مقابلة الصلح أربعين ألفاً من الذهب نقداً، وأفرية وأنواعاً من التحف والتفاريق بقيمة ستين ألف ذهب. وفي بعض تواريخ القرم إن الخان المشار إليه وقعت بينه وبين اللهويين (البولنديين) حروب شديدة، وفي النهاية انكسر اللهويون وانهزموا، وبعد أن أعطوه خمسة مدافع ومائتي ألف ذهب وثمانين ألف غرش عقدوا معه الصلح على أداء الجزية السنوية.

وكان الخان المشار إليه جليل المآثر مدبراً شجاعاً مشهوراً، لا يفتر عن الغزو تارة بنفسه وتارة بإرسال قالكاي سلطان أو نور الدين سلطان، حتى اشتهر إنه ملأ بلاد القريم بالغنائم والأموال التي اكتسبها.

وكان في ابتداء أمره جاء إلى دار السعادة واختار السكنى في داخل البوغاز، ثم نفي إلى جزيرة رودس بناء على إنها سلفه محمد كراي خان الرابع حسداً له. ثم جيء به مؤخراً إلى دار السعادة لشفاعة بعض المقرين عند الحضرة الشاهانية، وبعد مدة قليلة نصب خاناً على القريم وحكم في مسند الخانية مقدار

عشر سنين ووفق لإجراء أعمال مقبولة على الوجه المذكور، ثم توفي في شوال سنة أربع وستين وألف.

ترجمة حال حاجي سليم كراي خان

إن الحاج سليم كراي خان مر في مدة حياته خمسة سلاطين عظام، وهم السلطان محمد خان الرابع والسلطان سليمان خان الثاني والسلطان أحمد خان الثاني والسلطان مصطفى خان الثاني والسلطان أحمد خان الثالث، وكان في ابتداء أمره مستشاراً في أمور الدولة وكاتم أسرار السلطنة، وكان أميراً عاقلاً جليل القدر، وتولى أربع مرات أميراً على القريم، وفي كل منها يوفق لأداء خدمات مبرورة وخصوصاً في المرة الثانية عندما هجم الروس بعساكرهم على القريم فإنه قاتلهم واتصل الحرب بينهم ثلاثة أيام متوالية، وفي آخر الأمر نال الظفر الكامل وأخذ منهم ثلاثين مدفعاً وأسر منهم ما يزيد على ألف أسير، ثم تعقب عساكر الروسية إلى حدودهم. وفي شوال سنة ألف ومائة كان مأموراً لحرب النمسا فزين صحائف التواريخ بانتصاراته المبرورة التي وقعت في جوار أسكوب. وحيث إن هذه الخدمات حازت القبول عند الذات الهمايونية دعاه لكي يستريح ويصرف شتاء تلك السنة في جهة إدرنه إلى وقت الربيع. وفي أثناء وجوده في إدرنه مدحه الشاعر الشهير ثابت أفندي بقصائد عديدة ذكر فيها غزواته السابقة، وفي إمارته الرابعة على القريم انتقل إلى دار البقاء وذلك في شعبان سنة ١١١٦، ومن مماليكه كوچك عثمان باشا الذي كان قائمقاماً وقبوداناً في رجال كثيرين من مواليه الذين تربوا وارتقوا في أيامه واستخدمتهم الدولة في المناصب الجليلة، وله آثار وصدقات كثيرة في القريم وفي جوار إسطنبول وسائر الجهات تزينت بها صحائف أعماله الحسنة.

ترجمة حال دولتكراي خان الثاني وأخر أحوال القريم

كان دولتكراي خان الثاني حاكماً شهماً فائقاً على أقرانه بفرط الشجاعة والجلادة ذا وفاء للأوّداء وجفاء على الأعداء، وقد نال إمارة القريم مرتين.

وفي إمارته الثانية سار في فصل الشتاء إلى بلاد الروسية وشن الغارة عليها، واستولى على بعض الأراضي وأسر ألوفاً منهم. وفي سنة ١١٢٣ لما حصلت الحرب الهائلة في جوار نهر البروت بين القيصر بطرس الأكبر وبين بالظه جي محمد باشا أبرز الخان المشار إليه من الخدم والمساعي الحسنة ما كان زينة لصحائف الأيام. ثم أخذ الخلل يظهر في أحوال القريم وطراً الضعف والهوان على التاتار إلى أن أنقطعت صولتهم. وكانت الأعداء يوماً فيوماً يزدادون قوة وشوكة، وفي النهاية استولى الروسيون على بلاد القريم جميعها وذلك سنة ١١٨٥هـ.

وفي هدنة قينارجة تخلت روسية عن تلك البلاد ولكن على حسب ما اقتضته الشروط المذكورة في صك الهدنة بقيت هي وما حولها تحت تغلب الروسيين وتحكمهم، وقد ذكرنا تفاصيل الأحوال التي طرأت عليها بعد هذا في مواضعها. وقد رأينا من المناسب أن نتعرض هنا لذكر جغرافية جبل قافقاسيا على الوجه الآتي وهو من القطع المهمة في بلاد الجركس المعدودة من ملحقات إمارة القرم:

أقسام ممالك قافقاسيا^(١)

إن قافقاس ويقال له أيضاً جبل قاف يطلق على سلسلة مجموعة من جبال عظيمة، تبديء من قلعة أتاها الواقعة في ساحل البحر الأسود وتمتد رأساً من الغرب الشمالي إلى الجنوب الشرقي، وتنتهي إلى قلعة باكوا الواقعة في ساحل

١ - بلاد القوقاز.

بحر الخزر، ومسافة هذا الجبل المجموع من عدة جبال من ابتدائه إلى انتهائه تقدر بمائتين وتسعين ساعة، وإذا اعتبرنا مسافته على خط مستقيم يكون قدر امتدادها مائتين واثنى عشر ساعة.

والملل المختلفة المتوطنة في جهاته بعضهم من الجركس واللكز والكرج وأمثالهم، وهؤلاء هم أصل سكان هذا الجبل كما هو معلوم عند قدماء مؤرخي جمهوريات اليونان ومن أتى بعدهم. وبعضهم من بقية طوائف أندي وغوت وجون وءالان وخزر چچن وقموق وآوار، الذين جاءوا من بلاد التاتار الكبيرة وهجموا على الجهات الغربية والجنوبية وذلك قبل الهجرة النبوية بمائتين أو ثلاثمائة سنة. وقسم من طوائف الأتراك أسكنهم السلجوقيون في أيامهم هناك لأجل المحافظة على الحدود عندما هاجموا على جهتي الغرب والشمال.

والجبل المذكور ينقسم إلى قسمين: القسم الشرقي يقال له داغستان أي بلاد الداق، والقسم الثاني الغربي يقال له جركستان أي بلاد الجراكسة، ويقال لقممه الواقعة في وسطه التي هي أكثر ارتفاعاً جبل (البرز) وهي فاصلة بين بلاد داغستان والجراكسة. وفي جانب شمال الجبل المذكور طائفة قبارطي الذين هم من طوائف الجركس، وهم أصل ساكني ذلك الجبل من القديم، وفي الجانب الجنوبي يوجد طوائف الكرج. وبناء عليه تنقسم بلاد قافقاسيا إلى أربعة أقسام جسيمة بلاد الجركس والقبارطي وداغستان والكرج.

فأما قسم بلاد الجراكسة فيحده غرباً ساحل البحر الأسود، وطرفها الجنوبي متصل ببلاد الكرج، ويحد طرفها الشمالي نهر كوبان، وطرفها الشرقي جبل (البرز) الذي هو أعلى قمة في الجبل المذكور، أي الذي يمتد إلى حدود بلاد داغستان الغربية. وأهالي هذه المملكة على سبيل الظن والتخمين يتجاوزون مائة ألف بيت يسكنون في السناجق المسماة شابسيغ وباترا وچكيت وأويخ وبسليني وناقوغاي وسبيل، ومع كونهم أقواماً مختلفة فإنهم في الأصل ينقسمون إلى

طائفتين: الأولى طائفة الجركس وأكثرهم في الجانب الشمالي من هذا القسم على طول نهر قوبان، والثانية طائفة الأبازة وأكثرهم يسكنون في الجانب الجنوبي يعني في جهة بلاد الكرج، وأكثر هؤلاء الأقوام إلى عهد قريب لا يعرفون ديناً ولا دولة وإنما انتشر فيهم الدين الإسلامي بعد ما نصب فرح علي باشا والياً على بلاد الجركس في زمن سلطنة حضرة السلطان عبد الحميد خان^(١). وتفصيل ذلك سنذكره في مواضعه.

والقسم الثاني من جبل قافقاس وهو قسم قبارطاي ويلقب أيضاً قبارطي وقبارطه وهذه البلاد بين نبع نهر قوبان الذي يصب في البحر الأسود، ونبع نهر الترك الذي يصب في بحر الخزر، وهي واقعة في شكل مربع منحرف بين بلاد داغستان التي هي في الجانب الشمالي من الجبل المذكور، وبلاد الجركس، وأهلها قبارطاي، وهم قبيلة كبيرة معتبرة في طوائف الجراكسة وقبائل طوغاي وقره بولاق وأوس وتغالور، ويبلغ عددهم جميعاً مقدار ستين ألف بيت. وجميعهم من أهل السنة، ويقال إنها تنقسم إلى قسمين القبارطاي الكبير والقبارطاي الصغير. وهذه القطعة وإن كانت الدول العلية تخلت عنها بموجب معاهدة قينارجة، فإن ارتباطها المعنوي لم ينقطع لاتحاد الدين والمذهب، وفي هذه المملكة طريق واحد في صورة بوغاز ضيق صعب المرور يمر قريباً من طرف جبل قافقاسيا في قرب القلعة الشامخة التي يعبر عنها قزبك، فإذا أراد الروسيون المرور من طرف الشمال إلى بلاد الكورج فليس لهم إلا هذا الطريق. وعند مرورهم يضطرون دائماً إلى استصحاب شزيمة من فرسان القوزاق خوفاً من هجوم أهالي الچچن^(٢) عليهم من جهة والجركس من الطرف الثاني. وكلمة قازبك غلط مشهور أصله غازي بك والجراكسة يقولون غزبك وغزي بك.

١- عبد الحميد الأول بن السلطان أحمد الثالث (١١٣٧هـ-١٢٠٣هـ) السلطان العثماني السابع والعشرون. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٤١-٣٤٤.
٢- أي الشيشان.

والمملكة الثالثة في الجبل المذكور وهي داغستان، واقعة في طرف بحر الخزر، وكانت موطناً لبعض عشائر داق ولذلك سميت داغستان. ويسكن في مواطن هذه المملكة أقوام يخالف بعضهم بعضاً، ولكونهم يتكلمون باللسن مختلفة سميت العرب ذلك المحل بجبل الألسن. والمملكة المذكورة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: داغستان الوسطى، وداغستان الشمالية، وداغستان الجنوبية.

فداغستان الوسطى يسكنها ملل عديدة مختلفة على غاية الاستقلال والحرية، وهم عبارة عن سناجق كبيرة وصغيرة أسماؤها آوال وأندال وقوبصو بوي وانقراتل وانقيرات وباقلال وجمالال وشنيذا وسونده سلاتو وأندي وكند وشوبوت وچچن وغالاش، ويبلغ عدد أهاليهم تقريباً مائة ألف بيت وجميعهم من أهل السنة، ويوجد في أطراف هذه المملكة بعض طوائف قليلة يعبدون الأصنام.، وفيها ظهر منصور الذين سيأتي ذكر ترجمته.

وداغستان الشمالية واقعة في الشمالية جبل قافقاسيا في ساحل بحر الخزر وهي تشتمل على السناجق المسماة قوبة وطبرسران ودربند وغازي قموق وقيصاق وآقوشه وتارخو وكوره واندراي وبخساي، وسكانها من الترك والزلزك، وجميعهم من أهل السنة، يبلغون تقريباً مائة ألف بيت، ومدار تعيشهم على الحراثة والزراعة في السهول الكائنة في ساحل بحر الخزر. وبها القلعة التي يقال لها دربند باب الأبواب وباب الحديد وتيمورقبو. ومملكة بونياك الذي يعبر عن حاكمها شمخال، واقعة في هذه القطعة.

وداغستان الجنوبية واقعة في أسفل طرف جنوب هذا الجبل وهي عدة سناجق تسمى جارويلهكان، وايليصو، وشكما، وارس، وقبله، وشروان، وباكو، وسليان. ويبلغ جميع ساكنيها سبعين ألف بيت منها في مدن سليان وباكو مقدار عشرة آلاف بيت من أهل الشيعة، ومنها في أطراف شروان وشكي مقدار عشرة آلاف بيت من الأرمن، والباقي وهو خمسون ألف بيت من الترك والزلزك

جميعهم من أهل السنة. وحيث إن مدن باكو وسليان واقعة في ساحل بحر الخزر وكانت هي الأساكل البحرية للتجارة بين العجم والداغستان، فإن العجم وإن كانوا تمكنوا منها إلا أنها بحسب النفوذ المعنوي بقيت تحت حكم الداغستان لكونها في الأصل من أهله.

وفي القطعة الرابعة من الجبل المذكور مملكة بلاد الكرج، وهي واقعة في جنوبه ويحدها شرقاً نهر قانق الذي هو رأس حد الغرب الجنوبي من بلاد الداغستان، وجنوباً الذي يقال له بورچالي وعشاير القزاق، وهم من أهل الإسلام وسنجاقي كومري وأخسخه وجبل اچاره، وغرباً سواحل البحر الأسود، وشمالاً القلل الشامخة المتصلة بمملكة الجركس الكائنة في جبل قافقاس، وأهلها عبارة عن طوائف الكورج وأوس وأسوان والأرمن، ثم جاءها مقدار من الروسيين والنمسا واستوطنوها معهم، وكافة الملل المذكورة يبلغون مائة ألف بيت، منها ثمانية آلاف بيت يعبدون الأصنام، وهم طوائف الأوس وأسوان وبلادهم متصلة من جهة ببلاد داغستان، ومن جهة أخرى ببلاد الجراكسة، ولكونها صعبة المسالك لا يتقادون إلى حكومة ما. وأربعة عشر ألف بيت من أهل السنة والباقي ثمانين ألف بيت تقريباً على الديانة المسيحية.

وببلاد الأرمن الواقعة في الجانب الجنوبي لبلاد الكرج والداغستان، تنقسم إلى قطعتين، الواحدة منهما واقعة في أطراف أرضروم ووان وهي من ممالك الدولة العلية. والثانية تشتمل على سناجق وهي كنجه وقره باغ وخوي وروان وهي معدودة من البلاد الإيرانية. وفي أثناء ما وقع في بلاد العجم من الاختلال صار كل من هذه السناجق مستقلاً بيد خان. وفي سنة ١١٩٠ صاروا مجبورين على الميل إلى طرف الدولة العلية.

وببلاد الكرج تنقسم على هذا الوجه إلى قسمين، القسم الواحد الذي يقال له خانية تفليس هو أصل بلاد الكرج، وكان مركز حكومتها في تفليس وبلاد هذا

القسم كانت على الأكثر ملحقة بالبلاد الإيرانية. وذلك قبل أن يكون خان تفليس وهو أركلي خان من تبعة الدول العلية، وقبل أن يدخل في حمايتها في سنة ١١٩٠، ثم استولت الروسية على قبارطاي واستمالتهم إليها، وبعد أن صارت تردد لجهة بلاد الكرج على الطريق السالف الذكر أخذت تلقي المفسد في تلك النواحي، ففي الخدعة والدسيسة انغش أركلي خان فترك حماية الدولة العلية الموجبة لنجاته وسلامته ودخل في حماية الروسية. والقسم الثاني قسم بكوات آجيق باش ومكريل وكورييل ويمتد إلى سواحل البحر الأسود وفي هذا القسم مدن كوتاييس وبغدادجق وأوزركت. وكانت هذه الجهات معدودة من بلاد الدولة العلية.

والحاصل أن المسلمين من أهالي قافقاس كانوا تارة يتأثرون من العجم وأحياناً من الروسين الذين يهاجمونهم من الجنوب والشمال. وعلى كل حال فإنهم اعترفوا بالخلافة العثمانية وصاروا أكثرها مظهرًا لحماية الدولة العلية الجليلة وانحازوا إلى طرفها.

ذكر بعض الوقائع السالفة في ديار القافقاس

عندما فتح قائد الإسلام سراقه بن عمرو أذربيجان خلال فتح الديار الإيرانية سنة (٢٢) في أيام خلافة عمر رضي الله عنه، أمر سراقه بكر بن عبد الله وعبد الرحمن بن ربيعة بفتح ألبانيا، وكان في ذلك الوقت يقال لطرف بلاد داغستان ألبانيا. وكانا في مقدمة الجيش وهو أي سراقه على أثرهم، وكانت حركتهما إلى جهة ألبانيا. فعند قربهما من مدينة شروان جاء شهريار حاكمها في ذلك الوقت، وهو من نسل ملوك الفرس إليهم، واشترط لهم في طاعته لهم أن يمنعوا عنه هجوم الترك وهم طوائف آلان وخزر، وهم ممتدون في الجانب الشمالي من جبل

قافقاس إلى تلك الجهة، فأجاب كل منهما إلى ذلك، ثم عرضا الأمر إلى سراقه فاستحسنه، ورأى أن ما فعلوه معقول وأعلم بذلك عمر فجزه. وعلى هذا الشرط أعطى الأمان إلى شهريار ولما توفي سراقه تعين في محله عبد الرحمن بن ربيعة ففتح مواطن كثيرة في بلاد داغستان ولقن أهلها دين الإسلام وصالح حكام بلاد الكرج على بذل الجزية.

ولما شاع خبر هذه الفتوحات الجديدة في داغستان فضلاً عن كونه روي بعض الأحاديث في حق لدربند وإنه محل مبارك، وحيث كان الاستيلاء على تلك النواحي موجباً لآمان البلاد الجنوبية، وداعياً لراحة أهلها أقبل الصحابة الكرام أفواجاً كالسيل على غزو تلك الأطراف.

وعلى ما هو محرر في كتاب جهاننامه أن مسلمة بن عبد الملك غزا تلك الديار في أيام خلافة بني أمية، وإن أهلها دخلوا وقتئذ في دين الإسلام. وإنه استولى علي الدربند^(١) ومن هناك توجه رأساً إلى الشمال وفتح مواضع كثيرة. وكان محمد بن يزيد الذي هو من نسل بهرام چويين والياً على شروان، وتيمور قبو، وكان مسافة حكمه تمتد قدر شهر. ثم في سنة مئة وثمانين هجرية استولت طائفة الخزر على الدربند وهزمت أهل الإسلام وكانت وقعة دربند لم يسبق مثلها في الإسلام واشتهد في هذه المعركة من المسلمين على ما قيل نحو مائة وأربعين ألف شهيد.

كلمة خزر مخففة عن خوزار، وهي قبيلة كبيرة من قبائل الترك، والبحر الذي يعرف ببحر الخزر منسوب إليهم، وكان يقال له بحر قاسي وبحر البلغار وبحر الديلم نسبة لاسم القبيلة التي تسكن في سواحله، ثم بعد ذلك قيل له بحر الخزر نسبة إلى هذه الطائفة، أما التعبير عنه في هذه الأطراف لبحر خزر بزائن معجمتين فهو غلط.

١- دربند: مرفأ في داغستان شمال القوقاز على بحر قزوين. من مدن الإسلام التاريخية، عرفها المسلمون باسم الباب أو باب الأبواب، مشهورة بأسوارها التي تسد الممر بين البحر والجبل. المنجد ص ٢٤٢.

فهؤلاء الخزر طائفة كبيرة امتدت حروبهم مدة مائتي سنة، وفي نهاية الأمر كان الظفر والغلبة للعرب. وبعد مائتين للهجرة النبوية خرج من الحرمين الشريفين نحو ألفي نفس من قبيلة قريش من أولاد وأقارب الشيخ محمد المعروف بكندي العباسي، وأولاد أبي إسحاق من ذرية حضرة حمزة بن عبد المطلب، وبعد أن جالوا مدة في بلاد مصر والشام وصلوا إلى بلاد الجراكسة التي هي دار الحرب في ذلك الوقت، وبعد حروب كثيرة قتلوا الأمير عضال أمير الجراكسة واستولوا على أملاكه وأسروا أولاده، وبعد ذلك قتلوا الأمير غضنفر وهو أمير مملكة قيطان الواقعة في داغستان، وحملوا أهله على الدخول في دين الإسلام، وهؤلاء الغزاة استولوا أيضاً على ديار قموق، خربوا أكثر قرى وقصبات طائفة الخزر الذين هم في شمال وجنوب بلاد داغستان وغيرهم، فتحوا القرم، والحاصل أنهم فتحوا عنوة وعلى وجه الصلح جميع الممالك من بلاد داغستان إلى القرم، ودعوا سكان تلك البلاد إلى دين الإسلام، ولذلك كان أكثر قبائل الجراكسة أهل إسلام مثل قبائل بستی وقبارطاي.

وكانت حكومة العرب جارية في ممالك قافقاس على هذا الوجه مقدار أربعمائه وعشرين سنة. وكانت كلمة الخلفاء العباسيين في ذلك العصر نافذة في تلك الجهات، وولاتهم يحكمون في بلاد أذربيجان والأرمن. وبعد ذلك في سنة ٤٥٤ هجرية اقتفى ملكشاه من السلالة السلجوقية آثار أبيه وجده في توسيع نفوذ الحكومة وجلالها بالفتوحات الكثيرة. ولأجل أن يكون أميناً من عصيان أهل البلاد التي استولى عليها وهي الأناضولي وممالك ألبانيا وبلاد داغستان التي أولها بلاد الكرج وآخرها بحر الخزر، أسكن كثيراً من طوائف الأتراك في تلك الجهات.

ثم إن الملوك السلجوقيين الذين حكموا على هذه الصورة مدة تزيد على مائتي سنة في جهات إيران والأناطولي والشام، تشتتوا واضمحلوا بظهور

المغوليين أي التاتار، وقبل ظهور التاتار بمائة سنة، أي في المائة السادسة هجرية قام منوجهر شاه من السلجوقيين ونشر علم الاستقلال في مملكة شروان^(١) الواقعة في جنوبي داغستان، واتخذ مدينة شماخ مقراً لحكومته، واكتسب شهرة ولُقب بخاقان تقليداً لحكام التاتار الكبار. وبعده ظهرت سلاطين شروان وهم من السلجوقيين يعرفون بشاهات شروان، وعند ظهورهم حكموا أيضاً بعض أماكن في بلاد الأرمن وضموها إلى داغستان الجنوبية. وفي ذلك الوقت كانت الجهة الشرقية والجنوبية من داغستان الشمالية داخلية تحت اسم شروان. وأما بلاد شمال وغربي داغستان الوسطى فكانت مسكناً لطوائف آوار وچچن. وهم وإن كانوا غير طائعين إلى سلاطين شروان فإنهم كانوا معهم دائماً في الحروب لنسبة الوحدة الإسلامية. وفي ذلك الوقت كان حكام بلاد الكرج أحياناً يكونون تابعين إلى سلاطين شروان وأحياناً إلى سلاطين قونية.

وفي أثناء هجوم المغول والتاتار من الجنوب والشمال على الأتراك حينما أشهر التركمان راية استقلالهم في بلاد أذربيجان وأرمينية، أظهر شاهات شروان حكام بلاد الكرج تبعيتهم للتاتار سواء كان بالحرب أو بطريق المصالحة والمتاركة بتقديم بعض الهدايا مثل سلاطين قونية. حتى إن الشيخ إبراهيم بن محمد سلطان شروان في تاريخ الثمانمية كان مع تيمور في محاربات كثيرة. واستمر حكم شاهات شروان قريباً من أربعماية سنة على هذا الوجه. وفي سنة تسعمائة واثنين وأربعين هجرية عندما جلس شاهرخ بن سلطان فرخ بن شيخ شاه على تخت شاهانية شروان وكان طفلاً دون البلوغ، أشاع آق قيونلى شيخ التركمان مذهب الشيعة في أردبيل من أذربيجان، فلبس هو ومريدوه اثني عشر تاجاً من تاج

١- شروان: منطقة واقعة على الساحل الغربي من بحر الخزر على مقربة من سلسلة جبال القوقاز. قاعدتها مدينة شماخ. وصل إليها النفوذ العثماني في عهد السلطان مراد الثالث سنة ٩٨٦هـ. واستولت عليها روسيا القيصرية في سنة ١٢٣٠هـ. قاموس الأعلام ٤/٢٨٥٣.

ال دراويش معمولين من تركي أحمر، وكانت تلك التيجان مضلعة كل تاج اثني عشر ضلعاً إظهاراً وإشعاراً بأنه هو ومريدوه اثني عشر إماماً للشيعة، فاغتنم طهماسب الأول من أولاد الشيخ حيدر الصفوي المعروف بقزلباش فرصة وجود تخت شروان بيد صبي، وساق العساكر على البلاد المذكورة، وبعد محاربته مع أهالي داغستان مدة طويلة غلبهم وقتل شاهرخ وكبراء شروان واستولى على الخزائن العديدة وبهذا انقرضت سلاطين شروان.

وكان جماعة من نسل شاهات شروان يحكمون بالاستقلال في داغستان الأوسط والشمال، وكانوا يستمدون من خانات قيطان وآلان وآوار وقموق وحاربوا مدة ومع ذلك فإنهم لم يحصلوا على طائل وبقيت داغستان الجنوبية مدة إحدى وأربعين سنة تحت حكم القزلباشيين.

وخان داغستان الشمالية كان في أيام مهاجمات التاتار محتقراً، ثم إنه بعد ذلك أعاد عزه واستقلاله، ولما استولى جنكيز خان على ولايتي دشت قيچان ومسقو ثم على ممالك إيران بتمامها، كان انتظام أمر دشت قيچان ومسقو متوقفاً على استيلاء (تيمور قبو)^(١)، وعندما بادر جنكيز خان للاستيلاء عليها قابله أهلها بالقتال فساق إليهم والده الكبير جغتاي بعساكر التاتار التي هي في كثرتها كالنجوم فغلبهم، وقتلهم جميعاً وأسكن طائفة من التاتار فيها عوضاً عنهم، ونصب جغتاي أميراً عليهم. وعندما ظهر تيمور بعد مائة سنة واستولى على قلعة تيمور قبو سلم ذلك إلى الأمير (طوقتمش) أو طوقطامش الذي كان منتسباً له وعلى أفكاره. وبعد زمن أظهر طوقتمش العصيان على تيمور وكان إذ ذاك في المحاربة في جهات تبريز وشروان، وساق عساكر التاتار مرات على تيمور قبو

١- تيمور قبو: اسم أطلقه العثمانيون الأتراك على دربند في شروان بـداغستان مقابل الاسم الذي أطلقه العرب (باب الأبواب) وصفاً لمدينة دربند. ومعنى تيمور قبو في اللغة التركية الباب الحديدي. قاموس الأعلام ٣/ ١٧٢٦ و ٢١٢٨.

فانهزموا فأعرض تيمور عن تبريز وشروان. وبعد أن حارب حكام بلاد الكرج وظفر بهم أخذ طوقتمش وخلعه ونصب عوضه أميراً اعتمده. وأعطى حكومة تبريز وكيلان وبعض بلاد إيران إلى ولده ميرزاميرا نشاء، وزاده على ذلك أطراف تيمور قبو.

وبعد أن حكم أولاد ميرانشاء مدة في تلك الأطراف، ظهر الأقاينيون واستولوا على طرف داغستان، وبذلك زال حكم أولاد تيمور من هذه الجهات. وأحرز أهالي شمال داغستان استقلالهم وولوا عليهم أميراً من العائلة الجنكيزية وكانوا يسمونه شمخال.

وفي عصر السلطان مراد الثالث صار إعلان الحرب على العجم ولما سار مصطفى باشا الصدر الأعظم بالعسكر الهمايوني على بلاد إيران كان بمعيته عثمان باشا أوزدمير، فعقد له على كتائب من العساكر وأرسله إلى داغستان فسار واستولى على شماخي وباكو، ونصب سلطان برهان شاهاً على شروان، وهو من عائلة شاهات شروان. ولم يكن مستقلاً في نفوذه بل كان في أموره مستنداً ومنقاداً إلى الدولة العلية. وحصل عثمان باشا نفوذاً أيضاً في جهة الشمال لا سيما عندما تزوج بابنة الشمخال وترك له قلعة الدربند وأبقاها بيده. ولم يحتمل اللزكيون نفوذ عثمان باشا في تلك الجهات فوقع بينهم وبينه خلاف وحروب، وفي آخر الأمر صار عقد الصلح على أن تقرأ الخطبة باسم السلاطين آل عثمان. وإنه عند ظهور حرب على العجم يمر من بلادهم قمدار من الجندالي حد ثلاثين ألف عسكري من عساكر التاتار التي تحضر من جهة القرم، ويصير إيصالهم إلى عثمان باشا مع كافة ذخائرهم وأسلحتهم التي تبعث لهم من طرف الدولة العلية، وأن يكونوا مرافقين ومعاونين لهذا العسكر العثماني وأن لا يتداخل أحد في نصب أمرائهم الشمخالية، بل يجري ذلك على عوائدهم القديمة من كونه إذا أراد السلطان نصب أحد منهم يرسل له التوغ والعلم والخلعة والسيف، وأن لا يؤخذ من تجار الممالك المحروسة العثمانية باج^(١) ولا كمر ك ولا شيء من سائر

١- باج: كلمة فارسية مستخدمة في اللغة التركية ومعناها رسوم المبيعات. الدراري اللامعات ص ٩٧.

الرسومات. وفي ذلك الوقت كانت هذه الشروط مرعية الإجراء من الطرفين. وممر عبد الكراي خان في ثلاثين ألف من عساكر التاتار على بلادهم فراقوه وأوصلوه إلى عثمان باشا.

وأخيراً عند موت سلطان برهان صار في محله ابنه أبو بكر، وفي خلال ذلك ظهرت طائفة الجلالية في جهة الأناطولي، فاغتتم الشاه عباس الذي كان إذ ذاك شاه إيران فرصة شغل الدولة العلية بهذه الغائلة، فأغوي وأضل الداغستانيين فاضطرت العساكر العثمانية لهذا السبب أن تنسحب من تلك الجهات إلى جرد الأناطولي. وبعد ذلك صار الشاه عباس في كل سنة يرسل الخلع والهدايا إلى بكوات وأمراء داغستان الشمالي استمالة لهم، وبهذا الوجه كان العجم يعدون الداغستان من ممالكهم، وأما الداغستانيون فإنهم كانوا ينظرون لهداياهم هذه ضريبة رسمية، ولذلك كانوا يغيرون على بلاد إيران إذا تأخروا عن إرسالها لهم في أوقاتها لسبب ما. وعندما اختلت أحوال العجم بظهور الأفغانيين، هجم الداغستانيون من جهة الشمال على ولايتي شروان وروان معتذرين في ذلك بأنهم لم يأخذوا رسماً في تلك السنة، ونهبوا كثيراً من أموال تجار روسيا.

وفي أثناء هذا الاختلال في بلاد العجم تعدى الروسيون على جهات تيمور قبو، وأخيراً ترك لهم على وجه الصلح الذي عقده مع طهماس شاه قلعتي دربند وباكو وإيالات كيلان ومازندران واستراباذ، فاستولوا عليها وتملكوها، ولما كان تخطي الروسيين إلى هذه الأطراف مضرراً بالدولة العلية، اقتضت الحال تدارك العلاج قبل تفاقم الداء، فصارت المسارعة في أيام السلطان أحمد من طرف الدولة العلية للاستيلاء على قطعة تفليس التي هي كرسي بلاد كرجستان، ونصبت من طرفها أيضاً حاكماً في مدينة شماخي عاصمة شروان، واستمالت أهالي تلك الجهات لنحوها وأرسلت مهندسين ومأمورين مخصوصين لكشف سواحل البحر الأسود، فرأوا من المناسب بناء قلاع في بعض الثغور، وعلى هذا

القصد صار بناء قلعة فاش، وبافتتاح الطريق منها إلى تفليس صار تسهيل عظيم في أمر إيصال المهمات التي تبعث إليها من الآستانة العلية في الأسطول برسم تفليس وداغستان. ثم بعد ذلك عندما ظهر نادر شاه استرد المواضع التي استولت عليها الدولة العلية ودولة روسية. غير أنه عجز عن تأييد نفوذ أمره في تلك النواحي، وهزمه الداغستانيون شر هزيمة ومن المعلوم أن الداغستانيين أجسر وأشجع أهل جبل قافقاس.

وبعد نادر شاه تضاعف الاختلال في العجم، والتجأ أهالي تلك الجهات إلى الدولة العلية. وفي عصر السلطان محمود الأول^(١) وقع التفكير في الاستيلاء على داغستان واستمر هذا التصور في الأفكار إلى أيام حميد خان^(٢) فصارت المذاكرة في جلب قبائل القافقاس تداركاً لحصول قوة تقابل الروسيين ولكن لم يساعد الوقت في ذلك.



١- في النسخة التركية للكتاب وردت محمود الأول، وفي النسخة المعربة محمد الأول، وقد أثبتنا الأولى. والسلطان محمد الأول (١١٠٨هـ-١١٦٨هـ) هو السلطان الرابع والعشرون في سلسلة سلاطين العثمانيين، انظر: إبراهيم بك حليم، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٦-١٧٢.

٢- أي السلطان عبد الحميد الثاني.

ذكر بعض أحوال مخصوصة تتعلق ببلاد الجراكسة

قد كنا ذكرنا حدود بلاد الجراكسة على أصول الجغرافيين، والآن رأينا من المناسب أن نبين حدودها أيضاً على حسب التعليمات المحررة في مجموعة هاشم أفندي التي أخذنا عنها وقائع بلاد الجراكسة لعمله بها، وكان توجهه إلى تلك البلاد بمعية فرح علي باشا وأقام بها زمناً طويلاً.

فنقول قد قدرت مسافة ما بين إسكله صخوم الواقعة في ساحل الأناطولي إلى بوغازقرل طاش الذي هو تحت صحراء جمه تي الكائنة في طرف نهر قوبان في الأناطولي الذي يقطع الحدود الإسلامية بمسير مائة ساعة، ومن البوغاز المذكور إلى منبع نهر قوبان في أسفل جبل البرز، الذي هو مقر ومسكن قبيلة سستي إلى أن يصل إلى المحل الذي يقال له قلعة الحُجَاج قبالة القبارطاي بمائة ساعة أيضاً، ومن المحل المذكور إلى قلعة صخوم الواقعة في ذيل الجبال العظيمة التي هي الحاجز بين ممالك اللزكيين والأبازة كذلك بمائة ساعة، فتكون هذه البلاد المذكورة مثلثة الشكل في مسافة ثلاثمائة ساعة.

فهذه الأراضي اللطيفة المألومة الحدود هي بلاد الجراكسة، يسكن في جانبها الشمالي قبائل الجراكسة، وفي جانبها الجنوبي قبائل أبازة وبعض طوائف الجراكسة، وهاتان الفرقتان تشتملان على قبائل وبطون مختلفة. والقبائل المتميزة من الجراكسة الساكنين في هذه القطعة هم قبائل بشتي وكموركوي وبزادوخ وتخاج وشابشيخ وإبازخ، ويوجد لهؤلاء أيضاً بطون كثيرة والقبائل المذكورة ينادي بعضهم بعضاً (اديغنه) بمعنى ابن بلده وابن ملته، وذلك تمييزاً لهم من سائر الخلق. وذكر في جهانما أن للقبائل المذكورة عادات يهودية، وذلك إنه في القديم ارتحل ثلاثة أسباط من اليهود إلى هذه الجهة، ومنهم تولدت الجراكسة ولكن لم نقف على شيء في تحريرات هاشم أفندي في هذا الخصوص، وهو أمر بعيد عن

العقل ، لأن طائفة اليهود انتشرت في كل طرف ولم تضيع ملتها وعوائدها في أي محل حلت فيه ، فكيف بهؤلاء الذين أتوا إلى هذه الجهة ينسون نسبتهم ولا يعرفون من أي قوم كانوا فهذا لا تقبله العقول ، والصحيح أن اللزكيين والكرج والجراكسة هم أقوام قديمون جداً كما بيناه قبل .

وإطلاق اسم الجركس على كافة القبائل الساكنين في هذه القطعة ، وإن يكن جارياً في العرف فهم في الحقيقة صنفان على ما ذكرناه سابقاً فالأبازة غير الجراكسة .

وقال هاشم أفندي إنه روي أنه كان يرى في جبل (البرز) إنسان وحشي ، ويوجد بين نهر إنابه ونهر پوجز قوم الجلالية القزاق ، ولكنهم لم يخلو لهم وقت من غارة الجراكسة عليهم ، ومن نهبهم وسبي عيالهم وأولادهم .

وعندما طالت يد الروسية بالتعدي على أطراف القرم وطمان ، هاجر كثير من التاتار والتجأوا دخیلین على أولئك القبائل وسكنوا في تلك الجهات .

وقلعة صوغوجق كانت موجودة من قبل ولاية فرح على باشا على تلك الجهة . ولكن حاميتها كانت قليلة جداً ، فلذلك كانوا لا يقدرّون على الطلوع إلى خارجها . وفي تلك الأوقات كان يوجد أيضاً في قلعة صخوم محافظ اسمه كلش بك ، وهو في الأصل من أمراء تلك الجهات . أما محل قلعة إنابه فإنها كانت أحد البلاد العامرة على حسب ما فهم من بعض رسائل الجغرافية التي ألّفت بتلك الأوقات . وآثار أبنية القلعة التي هدمت لم تزل باقية .

وأهالي هذه القبائل على ثلاث مراتب يعبر عن الأعلى منهم مقاماً (بشي) يعني بك ، وعن الأوسط (أوزدن) ، وعن الدون (طوقاو) . ففي أبازة وإبازخ لا يكون بك بل الأعلى عندهم صنف (أوزدن) فالأوزدنيون في الجراكسة هم قسم المحافظين في خدمة البكوات الذين هم أمراؤهم منذ القديم . وأما عند أبازة فهم

بمثابة أمرائهم. ومن عاداتهم في التزويج أن كل صنف ينظر إلى كفؤه لا يتنازل إلى ما هو أدنى منه. حتى أن أحد الأوزدنيين من أبازه وأبازخ إذا أراد أن يتزوج من بعض قبائل الجراكسة لا يسوغ له ذلك لكونه غير كفؤ لهم ، بل له أن يأخذ من أمثاله الأوزدنيين. وبناء على ذلك فهذه الأصناف لا يختلط بعضهم ببعض ، وبذلك توصلوا إلى المحافظة على شرف أنسابهم ، والأمراء والطوقاويون متميزون عن بعضهم بعضاً لهجة وصفة.

استطراد

[الجناس البشرية]

تشعب الناس من ثلاثة أصناف ، ولكل صنف أوصاف مخصوصة يتميز بها عن غيره ، فالصنف الأول القافقاسيون ، فهم مدوروا الرؤوس بيض الوجوه في الغالب طوال الأنوف ضيقوا الأفواه ، شعرهم أسود أو أحمر ، وهذا الصنف أجمل الناس ، فالجركس والكرج والأرمن والهنود والعرب وقدماء ديار بكر والعراق والصوريون والحبش واليهود وقدماء المصريين في هذا الصنف الذي انتشر في محلات كثيرة جداً من الكرة الأرضية. أكثرهم أهل أدب ومعارف وصنائع. وأهالي أوروبا هم من هذا الصنف أيضاً ، ولكن لم يكونوا منه خالصاً بل أكثرياً وجدوا مخلوطين من الصنف الثاني الآتي ذكره.

والصنف الثاني ، وهم المغوليون رؤوسهم مربعة ووجوههم مسطحة وخدودهم بارزة وعيونهم سود وصغيرة مائلة إلى الوحشية ، يعني مؤخر عيونهم مائل إلى جهة فوق ، فطس الأنوف صغارها وشعرهم أسود ، ولون جلدهم بين الأصفر والأسمر ، فينظر إلى ألوانهم الطبيعية كأنها مخطوفة ومغيرة ، وفي الصنف الأول وإن يكن يوجد أشخاص صفر الألوان فذلك لقلّة دمهم ، وهم

معدودون من جنس البيض أيضاً، وأما صفرة جلد هذا الصنف فإنها كيفية طبيعية. وهذا الصنف لكثيره استوعب أكثر نصف الكرة الشرقية فأهالي شمال آسيا وبلاد الصين والجزائر والهند والسند من هذا الصنف. ومن مزية هذا الصنف بل من فطرته أن يكون ذا خاصية تامة في الاستعداد للحكومة، وزاد أهل الصين عليهم بتقديمهم في أنواع الصنائع.

والصنف الثالث الزنجي، فالزنجي صغير الرأس واسع الخدين لحيهما بارز الأنف أفطس ذو ذقن طويل ناتئ الفم غليظ الشفتين مكشوف الأسنان أبيضها، جلده أسود خلقه وشعره مثل الصوف الأسود قصير ناعم، وهذا الصنف يكون في نواحي خط الاستواء كبلاد كينية والسودان وكافور وهوتانتو، ويوجد منهم في سواحل ماداغسكار [مداغشقر] وبعض جزائر البحر المحيط، وهؤلاء غير قادرين على إصلاح أحوالهم، نظراً لشدة الحرارة التي تعطي ضعفاً في قواهم العقلية، فلذلك استمروا إلى هذا الوقت في حال التوحش والجهل، والبعض يثبت النقص في فطرتهم الإنسانية.

ومنشأ الصنف الأول في جبل قافقاس وهم طوائف الكرج والجركس ومنهم تفرعت سائر الطوائف، والصنف الثاني وإن يكن قد وجد في بعض الكتب أن أصله خرج من الجبل المسمى (آلت طاغ) الذي هو في طرف حدود ممالك الروسية في آسيا، فإنه لم يثبت عندنا بالبرهان. وإنما التاريخ الطبيعي يخبرنا بأن الناس تكاثروا من هذه الأجناس الثلاث المذكورة، وإنه في كثير من المواضع اختلط الصنف الأول والثاني ودخل بعضهم في بعض.

وعلى الوجه المذكور أعلاه استولى التتر على جهات داغستان فصارت بذلك كأنها مسكن للصنف الثاني، وأمراء الجراكسة وإن كانوا من الصنف الأول فإن الطوقاويين من الصنف الثاني يعني من جنس التاتار.

عقائد قبائل الجراكسة قديماً

إن الممالك الشرقية التي يقال لها قطعة آسيا كانت مشرق أنوار الدين، ومنذ نشأت الخليقة تنورت جهتها بالنور الإلهي، والذي ميز أهل ذلك الطرف من أولاد آدم بأخلاق الإنسانية الصحيحة عن سائر الحيوانات، هو اعتقادهم وجود الإله سبحانه، وكانت بقية جهات الدنيا إذ ذاك في ظلمة الجهالة، لأن الإنسان بحسب فطرته وصفته التي تميز بها عن غيره لا بد له أن ينظر بعقله نظراً يعرف به الخالق سبحانه ليعبده ويخضع لأوامره ونواهيه، فالتناس الذين استمروا في ظلمات الجهل أقاموا مقام الإله كل ما وصلت إليه عقولهم القاصرة في حال هذه الظلمة، فبعضهم عبد الأنهار والأشجار، وبعضهم عبد النمل والحيات وكل منهم عمه نوع من أنواع ظلمة الضلالة.

فانظر إلى قبائل الجركس والأبازة تجدهم من جملة الأقوام المتوحشة، قد اتخذوا لهم شجرة يسمونها قودوش معبوداً لهم، واستمروا على عبادتها لأوهام وأسباب باطلة.

وتفصيل ذلك أن الجبال التي بين صخوم وصوغوجق المعبر عنها بغوية يوجد في بعضها شجرة كبيرة عجيبة المنظر تقرب في كبرها من شجر النسديان، وهي مكونة من أنواع كثيرة من الشجر تنبت في موضع واحد فتكون منها هذه الشجرة، فقليل لها شجرة قودوش، وفي كل سنة يأتي إليها طير يعرف ببوغة مرة واحدة وهو كبير هائل، فيسند رأسه إلى تلك الشجرة ويتهيا ليكون قرباناً ولا ينازع من يأتيه ليذبحه على قولهم، فيقوم أحد الجماعة الحاضرين هناك فيذبحه في الحال ثم يصبون على رأسه وعينه خمرًا وبوزة^(١)، ثم يأخذون طاقياتهم عن رؤوسهم بأيديهم، ويقولون يا إلهنا العظيم إن عنايتك بحق عبيدك ليس لها

١- بوزة: شراب من الذرة. الدراري اللامعات ص ١٢٣.

حساب ولا حد ويسجدون ويتضرعون لهذه الشجرة، وهم مكشوفو الرؤوس، وبعد الفراغ يقتسمون فيما بينهم لحم البوغة^(١) وجلده ويتشكرون لمعبودهم. وعندما يتوجهون لأجل القرصنة بحراً في قايق^(٢) يسمونه خجاباً أو لأجل السرقة يقول الواحد منهم إن غلبت فإنني أنذر لشجرة قودوش أحسن بارودة أو أحسن درع أو أحسن شيء لا تفنيه الأمطار، وعندما يأتي بما نذره يعلقه على أغصانها. فكان يرى على شجرة قودوش أشياء كثيرة جداً من هذا القبيل باقية معلقة محترمة، فلا يستطيع أحد أن يأخذ منها شيئاً، وذلك لأنهم يزعمون أن من يسرق شيئاً من هذه الأشياء لا تمكن نجاته بوجه من الوجوه بل يقولون إنه يهلك ويموت في الحال.

وكان لقودوش هذا في سائر المحلات وكلاء عنه، يعبر عنهم باسم (طغالك) فأحسن شجرة تعجبهم من الأشجار التي تكون بقرب بيوتهم يتخذونها وكيلة لقودوش، ويسترون أطرافها بحاجز (درازين)، ويربطون أعلاها بحبل وحشيش، ويدبرون ذلك في هيئة العمامة ويسمونها (طغالك)، ويحيلون إليها في كل سنة نجاح الحبوب التي يزرعونها ويجعلون حراستها إليها أيضاً ويقولون إن مأكولاتنا ومأكولات مسافرينا كانت في السنة الماضية قليلة، فنرجو كرمًا منك أن تكون في هذه السنة كثيرة، ويرفعون طاقياتهم عن رؤوسهم ويسجدون تحتها لجهة المشرق، ويدبحون رأساً من الغنم أو المعز قرباناً يصبون على رأسه خمراً أو بوزة ويستمررون في الرجاء والدعاء إلى وقت الحصاد، فإذا حصل مرادهم يعرضون تشكرهم إلى الطغالك، وإذا ظهر خلاف مأمولهم ومرامهم يفعلون منها ويقولون لها لماذا لم تسمعي كلامنا، ويقطعون أوراقها وأغصانها ثم يجثثونها من أصلها ويحرقونها وينصبون شجرة غيرها في محلها، وبعد إجراء تمام الحرمة يتوجهون لهذه الطغالك الجديدة، ويقولون يا معبودنا الجديد إن

١- بوغا: العجل، وتأتي بمعنى الطبي. الدراري اللامعات. ص ١٢٤.

٢- قايق: أي قارب.

الطغالك التي عبدناها قبلك كانت أساءت الأدب فلذلك ألقيناها في النار والنور وجعلناك لنا طغالك جديدة عبدناك، فأنت كذا إذا لم تسمعي كلامنا فإننا نحرقك أيضاً وكان هذا التنبيه من عاداتهم القديمة .

وكان من عادة السلاطين الجنكيزيين يعطون أولادهم لأحد أمراء الجراكسة لأجل إرضاعهم وتربيتهم . حتى إذا أتموا مدة الرضاع والتربية ردهم إلى آبائهم، فبهذه المناسبة كانوا يغدون ويروحون إلى بلاد القرم، وبسبب اختلاطهم مع الذين أسلموا من التاتار مالوا إلى دين الإسلام . وصار البعض من قبائل الجراكسة يصومون شهراً في السنة، وبعده في الشهر الرابع يطبخون حبوب عاشورا، وبعده بشهر يدعون لقراءة المولد شيخاً عارفاً بلسانهم من طمان تقليداً للإسلام، وبعضهم كان يجمع إخوانه ويعمل لهم في كل سنة ضيافة على اسم سلطان الأبطال صهر النبي (صلى الله عليه وسلم) حضرة علي المرتضى ويتراون بصفة العلويين، ولكنهم كانوا غير واقفين على الأحكام القرآنية وغير عارفين بالأدب والشعائر الإسلامية . والحال إنه عند القبائل المتوحشة في مبدأ ظهور الدين الإلهي، الاعتقادات الباطلة التي اعتادوا عليها من القديم كانت تختلط في الدين الذي يظهر حديثاً . فالجراكسة أيضاً لكونهم وجدوا في هذه الحال فالعبادة التي أخذوها عن التاتار ما كانوا يقصدون بها عرض العبودية لجناب الحق وتعظيم وتحية الرسول المكرم، بل كانت في أمل حصول الفيض والبركة .

وفي زمان ولاية فرح علي باشا على بلاد الجراكسة كان بعضهم مستمرين على اعتقاداتهم القديمة في عبادة الشجرة، وبعضهم كانوا على الديانة الإسلامية ولكن مع تشويش وتخليط، وبعضهم يقلدون النصارى في اعتبار البيض الأحمر، والأغرب من ذلك كله ولا أعلم بأي عقل يعملون لروح أبي جهل اللعين الخبيثة عيد فصح صغير اسمه (صاوصوروق) .

وقبائل الجراكسة متعددة كثيرة وعندما أتى العرب لتلك الجهات يدعون إلى الدين الإسلامي على الوجه السابق بيانه، أسلم كثير من القبائل في جهة داغستان، وبانقراض العرب انقطع هذا الخير وبقي كثير منهم في الجهالة وأعمال الشرور.

والذي يستغرب أن أمراء الجراكسة الذين صارت منهم دولة في مصر وكان نفوذهم جارياً بها مدة مديدة لم يذكروا وطنهم الأصلي.

وسبب دخول النصرانية في تلك الجهات واستحسانها في أفكار أهلها هو أن الجنويزيين في القرون المتوسطة، عندما جاءوا وتوطنوا في ساحل البحر الأسود تشبثوا بأسباب نشر الدين المسيحي في تلك الجهات، ولكن لما ظهرت الدولة العلية واستقر أمرها امتنعت تلك التشبثات [أي الفعاليات] وقطعت تلك الأسباب.

وعلى الوجه الذي سيأتي مفصلاً دخل كثير من قبائل الجراكسة في دين الإسلام بهداية وإرشاد فرح علي باشا، وكانوا عندما يتحدثون فيما بينهم ويذكرون الطغالك يخجلون ويندمون. وذكر هاشم أفندي أن جهات غوية بقي أهلها على عبادة شجرة قودوش إذ لم تساعد الأحوال على فتحها وقتئذ، ولكن بعد ذلك انتشر الدين الإسلامي في تلك السواحل كلها شيئاً فشيئاً وبطلت تلك العقائد الباطلة.

وفي الغالب يوجد عند الأقوام المتوحشين بعض حكايات تكون مخالفة للعادات المألوفة وذلك من قبيل الخرافات، فحالهم في ذلك حال الأطفال الذين يصدقون بما يخوفون به كالبعع وأبو العيون السود، وعندما يبلغون سن التمييز يسمعون هذه الكلمات بإذن الاستهزاء ويعرفون إنها مقالات لا أصل لها. وهكذا الإنسان في حال جمعيته البشرية في مبادئ أطوار سن طفوليته يعتقد الصديق فيما يسمعه من أمثال ذلك، ثم بعد بلوغه إلى سن التمييز ودخوله في حال المدنية يعلم أن هذه الأشياء لا أساس لها. ولما كان اعتقاد مثل هذه الأباطيل

ميزاناً يعلم به درجة تربية المرء أو القوم الساري فيهم ذلك الاعتقاد، رأينا من المناسب أن نحرر في هذا المحل بعض حكايات غريبة لم تزل تنقل عن الجراكسة.

منها أنهم يروون أنه يوجد رجل محبوس يقال له ضحاك ماري في مغارة في جهة قلعة الحُجَاج الكائنة في جبل البرز^(١) وبالقرب من هذا الجبل قرية، فبينما رجل من أهاليها يجول في الجبل يريد الصيد والقنص إذ نظر هذه المغارة فقال في فكره يا هل ترى تصلح هذه المغارة أن تكون مأوى للغنم، ثم دخل إليها فسمع صوتاً مريعاً فتوقف، ولبينما تعودت عيناه على ظلام المغارة نظر شيئاً هائلاً على شكل إنسان مربوطة رجلاه إلى عنقه ويدها مقيدتان بقيد محكم وفي وسطه سلسلة من حديد، وقد شاهد هذا كله بعينه وعلم أنه محبوس، ففي أول الأمر حصل له خوف عظيم ثم زال عنه بعض ما كان يحس به من ذلك، وبينما كان ينظر إليه ويتعجب من شأنه إذ قال له يا أخي لا تخف إنني مرهون هنا ومنتظر للوقت الموعود، فأنتي بعضى طويلة تشبه القصبة الطويلة التي يعلق بها حبل الغسيل، فإن فعلت وقدرتُ على أن أنزل هذا السيف المعلق أمامي فإنني أتخلص من هذا القيد. وهذه السلسلة التي أنا مربوط بها، وأحسن إليك كثيراً، فعند ذلك جاءه الرجل بعصاة على حسب مطلوبه، ومع كون يديه مربوطتين فإنه مد العصى إلى السيف واجتهد جهده في تنزيله فلم يقدر، وعند ذلك قال للرجل لم يأت وقت نجاتي وكسر العصى فجعلها جذاً كقطع المسواك، وبعد ذلك جاء الصياد إلى قريته ونقل هذه القصة إلى عياله وأولاده، وبعد مضي ثلاثة أو أربعة أيام مات بدون مرض فقال أصحابه إن جد المرحوم وأباه عاشا أكثر من مائة سنة، وهو لو لم ير المحبوس الذي في المغارة لعاش مثلهما، ثم استولى خوف الموت على أهل تلك القرية فاتفقوا كلهم وأجروا مقالة فيما بينهم على أنه لا يذهب أحد إلى ناحية تلك المغارة أبداً، وأتبعهم في ذلك أهالي قرى تلك الجهات واتحدوا جميعاً بالاتفاق، جعلوا لذلك حدوداً وتخوماً.

١- جبل البرز: جبل مرتفع في سلسلة جبال القوقاز. يقع في شمال شرق أبخازيا (آبازة)، قاموس الأعلام ١٠٢١/٢.

ويوجد في تلك البلاد داخل تلك التخوم كثير من الحيوانات الوحشية، كالثعلب والسمور والفهد وكلب الماء، وكثير من الطيور كالرهو والليل والنحام والغرنوق ودجاج الأرض والتدرج، وصيدها ممنوع فيما بينهم، ولم تنزل هذه الحيوانات مع كثرتها تشاهد من المارين آمنة سالمة. ومن عاداتهم عند بكاء أولادهم يخوفونهم بصاحب المغارة ويقولون لهم بلسانهم يأتيكم المحبوس الذي في المغارة. وقيل إنهم في بعض الليالي يسمعون صدا طقطقة سلسلة ذلك المحبوس، وقد رويت هذه الحكاية في مجلس فرح علي باشا وكان كاتبه هاشم أفندي السالف الذكر حاضراً فلم يصدقها وفي الحال أمر الباشا بإحضار سبعة من التجار الذين يترددون إلى القرية المذكورة وعند حضورهم قرروا ما يطابق ما قيل ويثبت الحكاية ورواها هاشم أفندي ومع ذلك فإنه قال والعهد على الراوي.

وقد سألت عن هذه الحياة بعض أمراء الجراكسة الذي سافروا إلى تلك الجهة فوافقوا على أصل القضية. وحيث إنه وجد في هذه الحكاية ما يخالف بعض التفريعات والتعبيرات ظهر لي أن أذكر ما سمعته فيها على الوجه الآتي:

روي أن مغارة في جبل البرز في داخلها محبوس على ما تقرر سابقاً، وهو على شكل البشر وفي مقابلته سيف معلق، وفي كل سنة يتحرك مرة فيهتز الجبل حتى أن الوحوش والطيور التي عليه تجفل من تلك الهزة، وتنفر وقد أخبر الذين دخلوا على ذلك المحبوس أنه يسأل هل (النيابي) ينبت بكثرة وهو نوع من الحشيش ينبت في بلاد الجراكسة كثيراً، وهل الأولاد يداومون على المكاتب، ثم إنه لأجل أن يأخذ السيف الذي في مقابلته يقول أعطوني شنكلاً من الشجرة التي يفتح زهرها قبل جميع الأشجار وتعطي ثمرها بعد الجميع. (يعبروا عنها قزلق أي شجر الشوم) فكان الأهالي يعدونه ولا يوفون له وذلك لخوفهم واحترازهم

من أن يقع بهم ضرر إذا أخذ السيف بيده أو أنهم لا يجدون تلك الشجرة التي طلبها فيأتونه بجنكل من غير الشجرة التي قال عنها فيغضب ويرمي من يأتيه بذلك .

وقد سمع أيضاً من بعض الذين ساحوا في تلك الجهة أنه يوجد عين ماء في قرب هذه المغارة، فإذا وقع فيها ما يصيبه الصيادون تعود له الحياة فيطير ويفر، وقالوا إنهم عندما يقربون من هذه العين تحدث أهوية عاصفة فلا يمكن الوصول إليها وينقلون في ذلك حكايات عجيبة مماثلة لذلك .

أخلاق الجراكسة وعاداتهم

على حسب ما فهم من تحريرات هاشم أفندي المذكور، إن قبائل الجراكسة والأبازة أرضهم نظيفة طاهرة، وهم عقلاء مستعدون لكل شيء، ذوو شجاعة وجسارة، صادقون في أقوالهم ثابتون فيها لا يتكلمون بالكذب أصلاً ولا يحلفون إيماناً كاذبة، فإذا وجد خادم من الجركس أو الأبازة أو الأبارخ فمهما كان عنيداً عاصياً لأجل اكتساب الأمانة من نحوه ووضع تحت الضبط والربط يصير تحليفه اليمين فمن المحال أنه يظهر ما يخالف اليمين . غير أن الأمر يقتضى الدقة عند تحليفه اليمين ويلزم التصريح بكل مادة يتهم فيها، فإذا صار تحليفه مثلاً على جملة مواد فإنه يحفظها وإذا خالف بعد ذلك في مادة وعوتب، فإنه يقول صراحة إن هذه المادة خارجة عن اليمين ولا يرتكب الكذب .

وهم قوم في غاية السخاء يبالغون في إكرام الضيف، حتى إنه لو كان صاحب البيت بيكا^(١) مثلاً والمسافر من أحاد الناس، فإنه لا يقعد في حضوره بل

١- بك : بمعنى كبير، أمير، حاكم، رئيس، آمر (في اللغة التركية). الدراري اللامعات، ص ١١٥ .

يخدمه واقفاً على رجله ولا ينام بل يبقى مسلحاً لحفظه وحراسته . ومن عاداتهم أن صاحب البيت لا يأكل من الأكل الذي طبخ للمسافر، ولا يفرقون رأس الدجاجة عن بدنها بل يذبحونها ويطبخونها ويضعونها مع رأسها أمام المسافر، بمعنى أن رؤوسهم وأجسامهم فداء له . وألبستهم كلهم على لون واحد فلا يكون فرق بين الغني والفقير، وفقراؤهم لا يصيرون أغنياء وأغنياؤهم لا يصيرون فقراء . وبالنظر لادعائهم الإخوة فإذا لزم لأحدهم شيء وطلبه من الآخر فإنه يعطيه إياه ولا يجيبه بقول لا . وإذا أخذ أحدهم شيئاً بقيمة خمس بارات ثم طلب منه بعد ذلك خمسة غروش فإنه يدفعها له حالاً ولا يخطر في فكره إنه أخذ قليلاً وأعطى كثيراً .

ومن عاداتهم مع الأجانب أنهم عند زيادة اضطرابهم يتعدون حدود الروسية ويأخذون ما يجدونه من الحيوانات ويأسرون ولا يخافون من الروسيين أصلاً، والواحد من الجراكسة أو الأبازة يأخذ ويأسر عشرة أسرى من تاتار النوغاي الذين يعدون عند الناس في غاية الشجاعة . ومن العوائد الجارية بينهم أن لا يقتل أحدهم الآخر ولا يشتمه ولا يضربه، ويستخدمون أسراهم بكمال الحرية من غير أن يضربوهم أو يأذوهم ويعتنون غاية الاعتناء في أمر مأكولهم ومشروبهم . وليس معيباً عندهم أمر النهب والسرقه بل يعدون ذلك من الشجاعة، والأشخاص الذين هم غير مقتدرين على ذلك لا ينظرون إليهم بنظر القبول ولا يعدونهم من نوع الإنسان . وهم قبائل شتى وليس لهم جهة تجمع وحدتهم في داخليتهم . وشبانهم يطيعون كبارهم ويخدمونهم مثل العبيد، وكل قبيلة تنقاد في حركاتها الحرية إلى بكواتها وكبرائها .

ويوجد من القديم في كل قبيلة عائلات كبيرة ذات حسب ونسب، يحترم جانبها وترعى ذمامها ويرفع قدرها بين القبائل، ويتزوجون بنات الأصناف الذين هم أحط منهم درجة، ولكنهم لا يعطونهم بناتهم. وكل قبيلة يكون أميرها الكبير من هذه العائلات، ويكون نافذ الكلمة مرعي الخاطر، وليس لهم أندية ولا جمعيات بل بيوتهم متفرقة في رؤوس الجبال، فعند ظهور أمر مهم يصرخون بما يعبر عنه بلسان التاتار (ايش قيريق) وبهذه الوسطة تصل الأخبار لبعضهم بعضاً من جبل إلى جبل آخر، وعند الإيجاب يجتمعون في وقت قليل في أحد المواضع، ويتشاورون في تسوية مصالحهم. وإذا لزم الأمر بتوجههم على العدو يختارون واحداً منهم يجعلونه قائداً للعسكر، ويكونون منقادين ومطيعين له في كل أمر، ولكن بعد رجوعهم يبقى كل واحد مستقلاً برأيه، حيث إنهم لم يكن لهم رؤساء لإدارتهم العمومية الدائمة، فلا يكتسبون نتيجة في مصلحة ما.

والحاصل أنهم أمة عجيبة لايقة لخدمة الدولة العلية. والسن هذه القبائل لا تنطبق على مخارج الحروف المعتادة، وهم متوحشون جليون لا يفرقون ولا يميزون بين الكفر والإيمان ولا بين الخير والشر. ولا يقدر غريب أن يطوف بيهم وإذا أراد أن يمر داخل بلاد قبيلة من قبائلهم يلتزم أن يأخذ دليلاً من تلك القبيلة ليوصله إلى الحدود احتراساً من أن يصيبه ضرر منهم. وهذا الدليل يقال له (شاغري) وهذا الشاغري يقتضي أن يكون معدود الخاطر، ليكون مسموع الكلمة عند كل واحد.

وإن اقتضت المصلحة مخالطة أولئك القبائل والاتلاف معهم والتطواف بينهم، فعلى من يضطر لذلك أن يتبنى لأحد من أصحاب الحسب والنسب. ويجعل لذلك وسيلة وهي إنه يأخذ أولاً ثوبين بفته وسختياناً^(١) وإبرة وخيطاً

ومشطاً وكستباناً^(٢)، ثم يطلب دليلاً فإذا وجدته يعطيه ثوباً من بفته، فيوصله إلى بيت بك القبيلة التي يطلبها فيعطي هداياه إلى أهل صاحب البيت، وإذا كان صاحب البيت غير حاضر فإنه ينزل في بيته حالاً، ويهجم على امرأته فيأخذ ثديها بفمه فيرضعه يقول صرت في بيت الوالدين وصرت لك ابناً في الرضاع، ويفعل هذا ولو كانت امرأة ذلك الرجل بنتاً وكان زفافها إليه تلك الليلة، وإذا كان لا يعرف اللسان فإنه يفهمهم ذلك بواسطة الترجمان، وقاعدتهم في هذا الأمر أن المرأة تمسح بيدها على ظهره إشارة لقبولها بنوته، وتأذن له في الإقامة عندهم، وعندما يأتي زوجها تقول له هذا تبنيته وتأمر الرجل بتقبيل يده، فيجيب إلى ذلك ويقبله ويأخذ في تدارك أمر ضيافته، وفي الحال يحضر الطعام والشراب ويعزم قبيلته ومن جاورها من القبائل فيجعل ذلك الوقت عيداً للمسرات، وفي ختامه يقول إن هذا قد تبنيته ويعرف الجميع به وبعد ذلك يذهب كل إنسان إلى محله ويصير الرجل وصاحب البيت في الاتصال كالأب والابن ويظهر كل منهما للآخر محبته.

وبعد ذلك يصير هذا الابن يذهب ويأتي إلى أي محل يريده بكمال الحرية، وإذا كان من التجار فلا يحتاج أحداً للمحافظة على ماله بل يكون أميناً من جميع المخاوف والمحاذير، وإذا كان ماشياً وحده وكان الطريق خالياً من الناس وصادف أحد الدعار وراءه واشترأت نفسه لأخذ ماله، فقال له أنا متبن لفلان، فإنه يكف يده عنه، وإذا لم يراع قانون القبائل وأخذ ماله أو أسره فعند اتصال الخبر بأبيه يسترجع ما أخذ ويستخلصه، وزيادة على ذلك فإنه يأخذ في مقابله كل نوع من

١- سختيان: الجلد المدبوغ اللامع. وقد تقدم شرحها.

٢- كستبان: قمع الخياطة، وفي النسخة التركية وردت لفظة «يوكسوك» بمعنى قمع الخياطة. الدراوي اللامعات، ص ٥٥٨.

الأشياء المأخوذة تسعة أمثاله ويسمونه (عيلق) أي عقوبة ما ارتكبه من العيب، وهذا من رسمهم القديم، وإذا كان قاطع الطريق ليس له قدرة على دفع ذلك فيأخذه أسيراً ويبيعه، ومن عاداتهم أنهم يعدون من يهرب من المجازات التي تترتب عليه قانوناً أشد شيء مَخلاً بالناموس [أي الشرف]، فلذلك لا يقدر المجرم على الفرار بل يسلم نفسه حالاً، ولكن إذا كان للمجرم بنات ورضي الأب بأخذهن فإنه يجوز بحسب قانونهم أخذ ابنتين منهن بدلاً عن أبيهما فعلى هذه الصورة يأخذ ابنتيه ويبيعهن.

وقتل النفس عندهم ذنب عظيم وجنحته كبيرة لم يأتلفوا عليها بل يخافون ويحترزون منها، وإن اتفق ذلك وضرب واحد منهم شخصاً آخر فقتله فإن الجزاء يكون على حسب مراتب الأهالي، وهم كما سبق على ثلاث مراتب وفي ذلك فرق بين ديات البكوات والطوقاد أي عامة الأهالي، وأما دية الأوزونيين فإنها بالدرجة الوسطى بين الجهتين. وعلى هذه الصورة إذا قتل رجل من الذين هم في الدرجة الوسطى فتكون ديته عشرين عدداً بحسب لغتهم يعني خمسة منها خمسة أسرى تقاس قدودهم على قدر معلوم بالشبر، وخمسة منها عبارة عن خمسة رؤوس من الخيل كل رأس بقيمة أسير وخمسة منها عبارة عن خمسة دروع كل درع قيمة أسير والخمسة الباقية يقال لها (شوشقه) يعطى فيها سيفاً وبارودة وقوساً، وبكل حال يصير استيفاؤها وصار ذلك قانوناً وحيث إنه لا يوجد عندهم نقوداً ولا سكة فيكون تقدير قيمة الأسير بحسب الشبر. ولا يعتبر بينهم ثمن الأسير بحسب جماله أو بشاعته بل ينظر حسابه على اعتبار الشبر. فيعتبر الأسير التام ستة أشبار وإذا كان أقل من ذلك يعد ناقصاً، فإذا التزم

أحدهم أن يعطي للآخر أسيراً تاماً وأعطاه إياه بقياس أربعة أشبار، فيلتزم أن يتمم الباقي بشيء آخر. وكثيرة خروج الأسرى (المماليك) من بلاد الجراكسة نشأت عن هذه الأسباب. ويعبرون عنها بكلمة (شلقه) ويريدون بها ما اصطالحوا عليه من عوائدهم الغربية، وهو أنهم إذا أخذوا أسرى من قزاق الروسية يزوجونهم بالجوار الموجودين عندهم، ويعدون أولادهم من قبيل المحصول، فعند الاقتضاء يبيعونهم.

ومن قبائل التاتار القبيلة المعروفة (بجان بويلق) يبيعون أولادهم الذين هم من جوارى الأوز، وأمراؤهم يأخذون البنات والأولاد اليتامى والنساء الأرامل والذين ليس لهم أحد ويقولون فيهم هؤلاء قسمتنا يعنى مال الميري ويضبطونهم، فيزوجونهم قزاق الروس ويبيعون أولادهم الذين يعبر عنهم بلفظ (طوقمة). وأما الجراكسة فإنهم لا يبيعون أولادهم ولكن إذا زنت المرأة فإنهم يبيعونها مع أولادها. وذلك أنه إذا عرف أن أحداً عدا على امرأة وزنا بها أو بابنتها ففي الحال يذهب زوج المرأة إلى أبيها وأمها ويخبرهم بظهور هذا الأمر، ويقول إن ابنتكم بنت حرام لا أقبلها فخذوها وأعطوني ما أخذتموه مني مقدماً في عقد نكاحها، فيتبرأ منها والداه، وعند ذلك يأخذ منها الرخصة ويحمل المرأة والأولاد على عربية، لأنه يعتبرهم أنهم أولاد حرام فيأتي بهم إلى النخاس ويبيعهم له ويأخذ ثمنهم، ومثل هذه المرأة ليس لها في العادة أن تصرخ وتقول أنا امرأة هذا الرجل وقد افتروا عليّ مثلاً، بل في الحال تقرر وتعتزف بجرمها وتنقاد إلى القانون فتباع بدون صوت واحد، وتسلي نفسها بأن نصيبها المرافق لها كالظل هو هذا. وأما زوجها فإنه حين وصوله إلى بيته يفرق المال الذي أخذه من النخاس على إخوانه وأحبابه، وفي اليوم الثاني يذهب مع بعض الرؤساء إلى المحل الذي فيه الزاني ويقول أنا بعت المرأة ويذكر له المقدار الذي باعها به وعادة القبائل معلومة فيدعى ويقول أطلب حقي ويرسل مأموراً من قبله بذلك، فعلى الزاني أن يدفع مثل

القيمة الذي باع به المرأة أيضاً مع تسعة أمثال ذلك باسم عيبية، وإذا كان الزاني ليس في اقتداره ذلك ولا يوجد من يعينه، فعندها يمسه والداه ويقيدها بقيد ويسلماه إلى الرجل ويقولان له هذا حقك، وحيث إن الشتم والكلام الفاحش عيب بينهم فلا يضربه ولا يشتمه ولا يهينه ولا يوبخه ولا يقول له إنك عملت هذا وأجريت ذاك بل يأخذه إلى السوق بلطافة ويبيعه بأي قيمة أعطيت فيه، وإذا كان الآخذ منفعلاً للغاية فأَي قيمة تيسرت في سوق الدلالة يبيعه بها كأنه يقول للجاني هذه قيمتك والقيمة التي أخذها فيه يفرقها على الموجودين برأى منه ويكف يده، ثم إن قبيلة الجاني توفي بقيمة حقه.

وكذلك اللواط بينهم معيب للغاية فلذلك وقوعه يكون نادراً، فإذا أجرى أحد منهم هذه الخبثاة من الغرباء الداخلين جديداً إلى القبيلة ونظره أحد فيخبر الجميع بذلك ويصير الولد من خوف المذمة وشدة العار لا يجد موضعاً يختفي فيه في تلك الجهات، فيهرب إلى الساحل وإذا رأى أحداً من الرؤساء أو الملاحين فإنه يترامي عليه يقبل يده ويسترحمه ويطلب منه أن يقبله أسيراً له يتصرف فيه كيف شاء أو يبيعه في مصر أو في استامبول. ويمكنه من بيع نفسه، وكذلك اللواط فلا أحد ينظر في وجهه بل يحتقرونه فيضطر إلى أن يترك الديار وإلا قتل بأيدي قبيلة الولد.

فهذه الأسباب كان الزنا واللواط بين تلك القبائل صعباً جداً وخيم العاقبة يخاف الجميع معرفته ويحترزون منه.

وكان النكاح عندهم إلى زمان فرح علي باشا في صورة غير مشروعة، فكان يحصل بين الزوج والزوجة رابطة اتحاد وكانوا يدركون بعقولهم واستعدادهم أنه لا بد أن يتقيد كل منهما مع الآخر بقيد الاختصاص. وجعلوا بينهم قانوناً في هذا الأمر يحتوي على شروط معلومة وكلهم كانوا يراعونه والخارجون عن العمل بهذا القانون. يعدونهم زواني، وعلى مقتضى هذا القانون وفئاته كانوا يعطون البنت إلى كل ملة.

وكيفية عقد نكاحهم هي أن يأتي الشاب إلى بيت البنت ويتحدثون ويتحاورون فإذا أعجب بعضهم بعضاً، يتوجه ذلك الشاب الخاطب عند التصريح بالقبول في يوم معين مع أقربائه وأصدقائه إلى بيت والد البنت، ويتفقون على شيء معلوم المقدار بحسب رتبهم وذلك بواسطة سفير بينهم ويأخذ أصحاب الصهر أحدهما درعاً والثاني سيفاً والآخر حصاناً ويسلمون ذلك إلى عم الصهر (والد البنت) على الحساب، وينفض المجلس على أن الباقي يعطيه عند اقتداره وكل إنسان يذهب إلى محله، وبعد ذلك يتوجه الصهر غالباً إلى بيت عمه ويتلاقى مع البنت التي ستكون زوجة له، وعندما يجد فرصة بغيبة وجود والديها يتكلم مع البنت في أمره، ثم يقول لها في الشهر الجديد مثلاً في الليلة الثالثة أو الخامسة منه عند ابتداء صياح الديك أجدك تحت الشجرة الفلانية ويؤكد في ذلك عليها، وفي الوقت الموعود يحضر إلى تلك الشجرة نحو عشرين أو ثلاثين فارساً من ذوي الشجاعة الحاذقين في فن السرقة أقوياء، فيجدون البنت منتظرة عند الشجرة عن غير علم من والديها فمن سبق من أولئك الفرسان إلى البنت يردفها حالاً وراءه ويهرب بها. ثم يأتي بها إلى بيته ويتبناها ثم يزوجه من خاطبها. وفي قانونهم أن أولاده وأولادها لا يجوز لهم أن يتزوج بعضهم بعضاً إلا بعد سبعة بطون. وإن اطلع والد البنت ورجال قبيلته على الذي أخذها في وقت فراره بها، ركبوا في الحال خيلهم وتعرضوا له ويحصل بين الطرفين الجدل، وربما آل الأمر بينهم إلى قتال كبير. وعلى تقدير أنه حصل قبل اختطاف البنت اتفاق على قيمة البنت مع الدها برضاه وأخذ مقداراً من أصل القيمة فإنهم لابد أن يختطفوها جرياً على عاداتهم، ويستحسنون ذلك ولو كان مغايراً لطبع سائر القبائل، ومن عاداتهم أنهم لا يعطون أم البنت شيئاً وعندما يهيء الصهر محلاً مثل كوخ الرعاة (الرعيان) في أحد الجبال ويهيء قدراً ودلواً وقصعة يأخذ امرأته، ويقيم كالمسافر مع امرأته يأكلان ويشربان عند ذلك الفارس الذي خطف البنت على الوجه المذكور.

وبعد أيام فرح علي باشا انتشر الدين الإسلامي في تلك الجهات، والآن يأتون بالإمام ويجرون عقود أنكحتهم بالصورة المشروعة، إلا أنهم لم يتركوا عاداتهم القديمة كلها، وهكذا الشاب بعد أن يأخذ البنت فلا يغدو ولا يروح إلى بيت عمه ولا يواجه عمه ولا امرأة عمه وفي ابتداء أخذه البنت يضعها في محل مخصوص. ثم إذا أراد أن يأخذها لبيت أبيه فإن البنت لا توافقه على الإقامة في بيت عمها مع امرأة عمها ولا أن تواكلهم وبقي ذلك من عاداتهم المستمرة.

وبلاد الجراكسة لطيفة الهواء والماء، وفصولها الأربعة جميلة، وأراضيها خصيبة، وذات محاصيل كثيرة، وينبت فيها جميع أنواع الخضر، بل كل شيء يزرع فيها فإنه ينبت. ومع ذلك فإن قبائل الجراكسة والتاتار لا يأكلون الخضر بل يقتصرون على أكل اللحم فقط. وفي قرب بيوتهم يزرعون شتل الدخان ويتعاملون به في بعض أشياء وعلى حساب الدراهم تكون اقته بخمسة وعشرين بارة. ويزرعون مقدار ما يكفيهم حاجتهم ولا يهتمون بزيادة على ذلك، وهؤلاء القبائل ذوو كسل وبطالة، وطباعهم تشبه طباع العرب البادية، وحيث إنهم لم يكن من عاداتهم أن يقتل الواحد منهم الآخر أو يضربه أو يشتمه أو يغشه في شيء، فلا يخافون من بعضهم بعضاً، ولا يداهن أحدهم الآخر، ولا توجد بينهم آداب ولا رسوم مدنية، ولا ما يوجب التوقي والحشمة والاحتراز من بعضهم بعضاً، وبناء على ذلك فلو أقاموا مائة سنة على هذه الحال ولم يتمدّنوا وبيتّنوا منازل تجمعهم فلا يمكنهم ترك عاداتهم القديمة. وقد قال هاشم أفندي إنه نظراً لفطنتهم وطيب طبيعتهم لو اجتمع منهم مثلاً عشرة بيوت أو عشرون بيتاً في موضع، وأنشئ لهم محلات وجوامع ومكاتب، لتحولت أطباعهم هذه، وفي وقت قريب يكتسبون حسن التربية.

وفي بلادهم أنواع من النباتات ففي جوار إنبانة ينبت السنامكي والراوند الصيني ونوع من السحلب القوي، ويوجد في سواحل صخوم جميع أنواع

الفواكه والخضر، وفي المواضع المسماة جوبسين وغويه وصوجه يوجد الزيتون والكستنة بكثرة وشاي بري جميل جداً ينبت لحاله، وكذلك شجر البقس^(١) فإنه في تلك النواحي كثير جداً. وأهل السفن الذين يذهبون إلى هناك لقطع شجر البقس متى وجدوه كأنهم وجدوا دفينه مال، وحيث إنه يخشى من قرصان تلك القبائل الذي يعبرون عنه (حچاپا) فالعاملون بذلك يعطون إلى بكوات تلك الجهات رهاين ويأخذون منهم رهاين، ثم يذهبون لقطع شجر البقس في أمان وحرية. وحيث إن الملح لا يوجد في بلاد الجراكسة وهو عندهم عزيز للغاية، فمن عادة المراكب التي تذهب إلى هناك يأخذ أهلها كثيراً من الملح ويتعاملون به معاملة العروض، وذلك بأن يضعوا مقداراً من الملح في عينة الميزان ويجعلون في العينة الثانية مقداراً من العسل مثلاً أو شمع العسل أو جلود الثعالب والسمور.

ويوجد أيضاً في بلاد الجراكسة سائر أنواع الصيد، وعندهم في القنص أمر غريب ومنه صيد الفهد وهو مخصوص بالنساء، وذلك أنهن يعلقن قطعة من اللحم بين شعبي شجرة ذات أشعاب، فيأتي الفهد ويقفز لأجل أخذ اللحم فتعلق رجله في شعبة الشجرة فيمسك. وفي الحال يسلمنه لرجل طويل القامة يسلخ جلده، وهكذا من جملة عاداتهم الغريبة المرعية أن الذي يسلخ الفهد لا بد أن يكون مساوياً للفهد في الطول.

ومن عوائدهم أنهم في الشتاء في عيد قاسم يعفون لحاهم وذلك لشدة البرد في تلك الجهات وفي عيد الخضر حين يزول البرد يحلقونها. قال هاشم أفندي إن هؤلاء مع كونهم يعرفون الفرائض والسنن فإنهم لا يعفون لحاهم على الدوام إلى الآن.

١ - بقس: شجر كالآس ورقاً وحباً. ويطلق عليه في اللغة التركية جمشير (كما وردت في النسخة التركية للكتاب). انظر: الدراري اللامعات، ص ٢١٤.

الأفلاق والبغدان^(١)

إن من جملة الطوائف التي جاءت من أطراف دشت^(٢) طائفة قيجاق ونزلت في جهات بحر الخزر، وجاءت أيضاً إليها طائفة يقال لها داق وبقي أثر الجميع في تلك الجهات وعرفوا باسم مملكة الداغستان.

وفئة من هذه الملة جاءت أيضاً من قيجاق على طريق صحراء القريم وانتشرت في جهات أق صو وطورله والطنونة، وحاربت الرومانيين مدة مديدة والبلاد التي سكنت فيها الفئة المذكورة اشتهرت باسم راكيا وراجيا.

ولم تنقطع مهاجمة هذه الطوائف على إيلات الدولة الرومانية ولذلك قام الإمبراطور طراجان، وهو من أشهر القياصرة بعساكر جرارة وصرف أوقاته وإقداماته إلى تذليل الطوائف المذكورة وتدويخها، ثم استولى عليهم وألحق ولاياتهم بولاية الدولة الرومانية القوية وأقام بينهم بعض الأيلات من العسكر وخصص لكل بلق منا محلاً باسم المسكن فاختلفوا بمرور الأيام مع الأهالي، فظهر قوم وسطاً بين الرومانيين وبين طائفة الداغ واشتهروا باسم رموني، كما يدل عليه الآن لسان سكان إيلات الأفلاق والبغدان وبسارابيا وبوقو وينه وأردل.

وبعد انتقال مقر الإمبراطورية الرومانية بمرور الدهور إلى مدينة القسطنطينية، كانت هدفاً للخسائر والاعتصاب من طوائف الخزر وآوار والبلغار وانكروس أي المجار وسائر الأتراك والتاتار الذين كانوا يغزون بلاد أوروبا من شمالي آسيا مئات من السنين، ولما تبددت غيوم هذه العشائر الوحشية قام

١- أفلاق Talachie : اسم أطلقه العثمانيون على إمارة ألبانيا في حوض الدانوب. ألفت مع مولدايا (البغدان) دولة رومانيا ١٨٥٨م. المنجد، ص ٥٨ وقاموس الأعلام ١٣٢٨/٢.

٢- دشت قيجاق: منطقة تقع في جوب شرق روسيا بين سلسلة جبال الأورال ومجرى نهر الفولغا. والبجاق قوم من الأتراك. قاموس الأعلام ٣٥٩٩/٥.

الرومانيون المذكورون الذين كانوا التجأوا إلى الجهات المنيعة من جبال قراپاق ونزلوا فيها فوجاً بعد فوج وأقاموا نحو مائتي سنة يدافعون عن أنفسهم ويصدرون تعدييات المجريين والبلغاريين .

وفي قرب سنة ٦٠٠ هجرية قام (رادونغرو) وهو من مشاهير رؤساء المملكة وأوقع بعساكر باتون خان أحد السلالة الجنكيزية ما آل به إلى الاضمحلال، وقصبة باتو شاني التي بنيت في موقع تلك المحاربة العظمية نسبة للخان المذكور لم تنزل موجودة إلى الآن . وبعد هذه الواقعة صار رادونغرو (ويوه ده) أي حاكماً على البلاد الواقعة بين نهري الطونة والبروت وبنى مدينة تيرغو ويچ، وجعلها مقراً للحكومة وأذعن ميخال بسارابه لطاعته وهو رئيس طوائف رموني التي بين البروت والبحر الأسود وطورله .

وقام رجل آخر من الرؤساء اسمه ميخال أيضاً وحكم البلاد المدعوة روموناجي وتحكم باسم (بانو) أي سردار وبنى مدينة قره يوه ولم تنزل تلك الجهات معروفة حتى الآن باسم بانات الأفلاق الصغيرة وبعض نواحيها لم تنزل إلى الآن في يد النمسا .

ولما كان رادونغرو هو الذي وضع أصول إدارة تلك الأيالات ونظاماتها وقيد حكمدارية البلاد بشرط الانتخاب انتخب لمحلله بعد ذلك ميخال بسارابه المذكور أعلاه .

وبعد أن مضت مدة على هذا المنوال قام في خلال سنة السبعماية هجرية أحد الرؤساء المدعو بغدان ومعناه في لغتهم (هبة الله) وجمع إليه أهالي مولداوه (١) أي ولاية بغدان، ومولداوه هي الجبال القاطنة فيها أمة داق وبنى مدينة دوروخوي وانفرد بإجراء الأحكام .

١ - أي مولدايا .

وهؤلاء الرؤساء قد بنوا كنائس وأديرة بقصد إخراج أهالي تلك البلاد من ظلمة التوحش، وكان ذلك من الوسائل في مواصفة بطارقيج القسطنطينية. ويروى أن العساكر التي أرسلها الأفلاق لإعانة نقولا ملك الصرب في محاربة قوصوه يعني كوسوه دمرهم سيف السلطان مراد خداوندكار^(١).

وفي أثناء انكسار شوكة سيزمان ملك البلغار في محاربة أحمد باشا الغازي، هاجمه بتروميرجه حاكم الأفلاق، واستولى على جهات سلسطره وزيشطوي ودبريجه.

وكان ازدياد قوة بتروميرجه حاكم الأفلاق وقتئذ على هذا المنوال موجباً لخوف الملك سيزمان، فبايع ملك (له)^(٢) لصيانة ملكه من تسلط بتروميرجه المذكور.

وفي شهر أذار سنة ٧٩٥ هجرية قام بتروميرجه من زشتوي، وهجم على العساكر العثمانية، ولما عاد مغلوباً بادر إليه من خلفه لاوسلاس حاكم أردل التابع إلى ملك المجار وقرب منه العساكر، فأضحى (بتروميرجه) في حالة اليأس فأرسل إلى السلطان يلديرم بيازيد في نيكبولي، وفداً في طلب الأمان فأرسل له في ذلك التاريخ براءة عالية الشأن وهي التي زعم الأفلاقيون إنها عهدة وضعت مملكتهم تحت شرط مع الدولة العلية، مع أن تلك البراءة لم تكن سوى فرمان مشتمل على بعض المساعدات الممنوحة لهم، وبعض المواد المكلفين بها من طرف الدولة العلية متبوعتهم وهاك خلاصة تلك البراءة:

بمقتضى عواطفنا العلية الملوكانية نساعد ولاية الأفلاق التي بقوتنا القاهرة

١ - خُدا وندكار: لقب فارسي مستخدم في اللغة التركية بمعنى آمر وحاكم. والسلطان المقصود هنا هو السلطان مراد الأول بن أورخان بن عثمان (ت ٧٩١ هـ). والمعركة المذكورة هي معركة قوصوه (كوسفو) في البلقان. الدراي اللامعات ص ٢٣٥؛ إبراهيم بك حليم، التحفة الخليمية، ص ٤٣.

٢ - أي بولندا. وقد تقدم ذكرها.

دخلت أخيراً إلى دائرة الانقياد والتبعية، أن تكون إدارتها بحسب نظاماتنا أيضاً، وإن يكن حاكمها مأذوناً بإعلان الحرب عقد الصلح وسياسة التبعة، وأن النصراري الذين دخلوا في الدين المحمدي ثم رحلوا من ممالكنا إلى الأفلاق فعند تنصرهم مرة أخرى لا يصير الإصرار على قبول استردادهم، وأن الحاكم حيث إنهم من الملة العيسوية فلا بد أن يكون انتخابهم بمعرفة الأساقفة والبيواران، وبحسب آثار الطافنا العلية السلطانية قد جرى قيد حاكم المملكة المذكورة رعية في دفتر رعايانا، واشترط عليه أن يؤدي في كل سنة إلى خزينتنا الخاصة ثلاثة آلاف غرش من غروش المملكة أي خمس مئة غرش من سكتنا حرر في شهر ربيع الأول سنة ٧٩٥.

فالخمس مئة غرش المذكورة هي من غروش الأسدية، قيمتها خمسون أقة، والذهب اليالذر في ذلك الوقت قيمته ستون أقة، وعلى ذلك تبلغ الخمس مئة غرش المذكورة في يومنا هذا أربع مائة وستة عشر ذهب يالذر وكسور أقة، وبحساب صاغ المعاملة تبلغ قيمتها اثنين وعشرين ألف غرش وكسور، غير أنه نظراً لقلّة المعادن في ذلك الوقت فتكون قيمة النقود بالنسبة للأشياء وبالنظر لإخراج المعادن العظيمة في تلك الأقاليم بعد اكتشاف أمريقا وورود كثير من الذهب والفضة، ففي التطبيق تبلغ الزيادة أكثر من خمسة أضعاف الرائج وقتئذ، فإذا نظر للمبلغ المذكور بعين الحقيقة نجد أنه يقوم مقام مئة وعشرين ألف غرش في أيامنا الحاضرة.

وعلى الصورة المذكورة تقرر ارتباط إيالة الأفلاق في ممالك الدولة العلية، غير أن الأفلاقيين كانوا يرون هذا الارتباط كمقاولة اتفاقية، ولذلك أقدم بتروميرجه بعد ذلك على توسيع قلعة سلستره من غير إذن من الدولة العلية، وأصر على ذلك، فمست الحاجة لسوق العساكر عليه، وفي وقعه نيكولي المشهورة^(١) وجدت

١- وقعة نيكولي: بين السلطان العثماني بايزيد الأول أمام تحالف أوربي من جيوش فرنسية ومجرية وبنسوية بقيادة سجنسون ملك المجر في سنة ٧٩٨هـ/١٣٩٦م انتهت بانتصار العثمانيين. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية ص ١٤٠-١٤٢.

عساكر الأفلاق في معية المجريين، ثم إن موسى جلبي أغرى الأفلاقيين على الخروج عن طاعة جلبي سلطان محمد، وفي حصار بلغراد وفي معركة واردة العظيمة، وفي حرب قوصوه الثانية كان المذكورون في عداد أعداء السلطان مراد الثاني كما هو مذكور في التواريخ المشهورة.

وفي تلك الأيام سنة ثمانماية وعشرين هجرية في أواخر حكومة ميرجه، (حاكم الأفلاق نزلت طائفة النور المعروفة بأسماء سند رومي ومولتاني ورومس من أطراف دشت قجاق والقریم إلى سواحل الطونة، واتخذ أكثرهم السهول وعلى الخصوص جهات بكرش^(١) مسكناً لهم، فساقهم ميرجه لبعض الصنایع كالحدادة وسوق المركبات وكان يسعى في قطع أيديهم من السرقة، وبمرور الزمان اختلط أكثرهم بأهالی الأفلاق. والقليل منهم أيضاً عبروا الجبال وانتشروا في بلاد أردل وألمانيا، وعلى الخصوص بلاد (چه) أي بوهميا. ومن هناك ذهبوا إلى ممالك أوروبا الغربية، ولهذا يلقبون حتى الآن في بعض الأماكن بالبوهيميين، وطائفة من هؤلاء نزلت في جبال بلخ مازندران وبلاد الأرمن والأكراد إلى جهات بر الشام ومنها إلى مصر. وبعد أن استقروا هناك مدة اجتازوا إلى إسبانيا وإيطاليا مارين إليها من ممالك أفريقيا الشمالية، ولذلك يقال لهم القبط في تلك الجهة، ولغاتهم جميعاً قريية من بعضها شبيهة باللسان الذي يقال له الآن في الهند لسان الرومي، وأما القبط فهم من القديم من أهالي مصر وهم مغايرين ومباينين لهم من وجوه.

وقد نقل أن سبب خروجهم من بلاد الهند وانتشارهم هو أنهم كانوا في الهند يشتغلون الصنایع الخسيسة، وكانوا شعبة من الطوايف المحتقرة المكروهة عند سائر الطوايف وكانوا يتجولون أمام عسكر تيمور وخلفه فكان خروجهم من مواطنهم الأصلية على هذا النمط، وبهذا السبب تفرقوا في جهات مختلفة

١- بكرش: أي بوخارست عاصمة رومانيا حالياً (وقد تقدم شرحها).

والذين نزلوا في جهات الأفلاق والبغدان تعاطوا أولاً الصنائع التي يعرفونها، وبتداول الأيام صار أصحاب الأراضي والخوانيت يستخدمونهم استخدام العبيد والمماليك، وما برحوا إلى الآن في الاسترقاق أباً عن جد وإلى يومنا هذا، يبيعونهم كالقطيع لكن لم يعرض خلل في أفكارهم وعاداتهم التي هم عليها منذ ألوف من السنين، ولم يتعلموا القراءة والكتابة، ولم يتبعوا ديناً من الأديان، بل إنهم في أي بلاد وجدوا إذا لم يروا فيها حرية في أمر الدين يتبعون ظاهراً الدين الذي عليه أهل ذلك المحل، ولكنهم لا يرجعون في الحقيقة عن ما هم عليه ولنرجع إلى ما كنا بصده فنقول:

إن الأفلاقيين لما لم يستقروا على وجه الطاعة كما تقدم البيان ساق عليهم حضرة السلطان محمد خان الفاتح الجيوش في سنة ثمانماية وخمس وستين، ولما علم (ولادد راقول) حاكم الأفلاق حينئذ بأنه عاجز عن المقاومة، طلب تجديد التبعية، وتعهد بأن يدفع سنوياً جزية قدرها عشرة آلاف ذهب يلدز، ثم طلب بغدان حاكم مولداوه في تلك الأيام قبول تبعيته أيضاً، غير أن حكام المملكتين خافوا من أن ولاياتهم تتحول بتمامها إلى هيئة سنجق فتززع الحكومة من أيديهم، ولذلك لم ينفكوا عن الشقاوة والعداوة أثناء مهاجمات العدو الواقعة على الدولة من تلك الجهات، وبناء على ذلك كانت تصدر الفرمانات وقتاً بعد آخر لأجل ترتيب مجازاتهم وترسل القوة العسكرية ثم تتجدد لهم فرمانات العفو والأمان، ومن جملة هذه الفرمانات الأمر العالي الذي صدر في زمن السلطان محمد خان الرابع أيضاً وكان السلوك على موجهه فيما بعد.

وفي أواسط نيسان من سنة ٩٢٣ هجرية مات بغدان المذكور وولي ابنه استفان حاكماً في محله، وفي أواخر شهر أيار من سنة ٩٢٧ هجرية لما شاهد استفان المذكور ظفر العساكر العثمانية التي دخلت إلى الأفلاق، ورأى تأخر بعض حكام أوروبا الذين كانوا عاهدوه واتفقوا معه على المعاونة عرض حينئذ

تجديد تبعيته، فألبسه حضرة السلطان مكافأة له قلباً معمولاً من اللباد الأبيض بريش أبيض نظير قلبك كبير الانكشارية، وكانت بكوات الأفلاق تلبس القلبك الأسود فتكدروا وحزنوا وأضاعوا حق تقدمهم بحيث إنهم أمسوا دون بكوات البغدان، ولذلك ما زالت بكوات البغدان إلى الآن تتقدم في المواقع الرسمية على بكوات الأفلاق.

والحاصل أن حكام الأفلاق كانوا تارة يعلنون التبعية وتارة يتظاهرون بالعصيان ثم أن (شربان ووده) المشهور وهو من عائلة (قائظه كوزن) بسبب المخابرة مع النمسا وله [بولندا] في أثناء حصار ويانا [ينا] الثاني عند وقوع رجعة العسكر الهمايوني خطر في وهمه أن يأخذ للنمسا الجهة الثانية من ضفة الطونة، ويضم لهم ممالك البوسنة والصرب والبلغار، وأن يأخذ لدولة (له) القطعة التي هي من نهر بروث إلى القرم، وأن يكون هو قيصراً في القسطنطينية. ثم إن (بيرانقوانوا بسارابة) خلف (قسطنطي پرادا) وأظهر رسماً تبعيته إلى امبراطور ألمانيا، وجعل ضرب السكة باسمه ورتب لنفسه أيضاً ما هو مختص بالملوك كالمهتر خانة والتوغ وأظهر بهرجة الاستقلال التام. وكذلك ديمتري حاكم البغدان وهو من نسل قانتيمير خان استماله بطرس امبراطور روسية، فعقد معه عهداً وجعل بلاده تحت حمايته، وفي سنة ١١٢٥ هجرية اضطره الأمر إلى الفرار والخروج من الأيالة مع عساكر الروسية.

وحيث لم يبق اعتماد ولا أمنية في البوياريين الوطنيين، ورأت الدولة أنه من اللازم انتظام المملكتين وتأمين رفايتهما، وبعد أن انتهت وقعة السلطان أحمد في دار السعادة وتجدد فتح أبواب الحرب على النمسا خلال سنة ١١٢٨ هـ نصب (نيقولاسي ماورو قورداتو) ترجمان الديوان الهمايوني حاكماً على الأفلاق نصب (ميخال راقوديجه) من أعيان ملة الروم حاكماً على البغدان. وبهذا الأسلوب انتقل الحكم من البوياريين الوطنيين إلى الفناريين، يعني إلى المعتبرين من ملة

الروم الموجودين في دار السعادة وبالأخص القسم الموجود في خدمة ترجمانية الديوان .

وتعيين الحكام من الفناريين وإن يكن أوجب توسيع الحكمدارية ولوحظ أنه من حقوق حكومة الدولة العلية بموجب استيلائها، فإن الروسيين استفادوا فوائد كثيرة من ذلك، وفي أثناء ذلك احتل نظام الدولة لأنه بسبب عدم انقياد الإنكشارية في تلك الأثناء، وكان وكلاؤها ورجالها يعزلون ويبدلون في مدة قليلة، والمنصوبون يبادرون لتبديل حكام المملكتين طلباً للمنفعة، والحكام أيضاً تصدوا إلى المظالم والتعديت على الرعية لأجل أن يحصلوا المبالغ التي صرفوها في دار السعادة ، والدولة العلية عندما كانت تقف على ظلمهم وتعديهم لا تجوز التوقف في تأديبهم، واختلف أحوال الحكام في ذلك فكان بعضهم يولى ويعزل قبل أن يمر عليه سنة، وبعضهم ينكل إن فعل مثل ذلك ويؤدب بأنواع العقوبات، وبناء على ذلك أرادوا في أول الأمر أن يتداركوا أمرهم ويهيئون لهم ملجأ يلتجئون إليه ويكتسبون به القوة على أخصامهم ورقبائهم الموجودين في دار السعادة، فكانوا يعرضون بعض خدمات خفية إلى الروسيين لأجل أن يستفيدوا من نفوذ الروسية التي كان نفوذها يتوسع يوماً فيوماً في تلك الجهات .

والحاصل أن الفنارين رأوا أن من مقتضى المصلحة أن يتحاشوا جانب الروسية، فكان بعضهم يجري ذلك اضطراراً، وبعضهم كان صديقاً لها في الباطن، فكان يجب في هذه الحالة على الأعيان الذين كانوا أركان الدولة أن يجروا كمال الدقة والأهمية في أمر انتخاب ولاية المملكتين، ولكن بلاء الرشوة والارتكاب أحدث في الوجود خطأ وأخطاراً كبيرة جداً .

وكان أهالي المملكتين ينظرون إلى الفناريين بنظر الأغيار الملتزمين، فضلاً عن شكياتهم الدائمة من مظالمهم الواقعة، فقد كانت عساكر الدولة العلية ومأموروها الذين يترددون إلى المملكتين في تلك الأوقات يؤذونهم أيضاً

ويجورون عليهم بزيادة فضعت طاقة الأهالي المرقومين، وأصبحوا آيسين من تغيير هذه الأحوال، فمالوا حينئذ إلى روسيا واتخذوها حامية لهم. والحاصل أن انتقال حكم المملكتين إلى الفناريين كان سبب خرابهما وتنفير أهاليهما وبالنهاية أدى الأمر إلى وقوعهم في حزن العدو.

وفي حرب الروسية في سنة ١١٨٢ لما اهتمت الروسية لجلب الرعايا، وبذلت البيضاء والصفراء في سبيل استمالة أهالي الموره وبلاد الأرناؤط ليكونوا حلفائها، وأرسلت جاسوساً اسمه ديرمانوس في هيئة راهب إلى المملكتين، فالمذكور أضل الأساقفة والمطارنة وسائر الرهبان، وأدخل عليهم الغش بما كان يلقيه عليهم من بيان ظلم البكوات وحماية الروسية لظنهم بهم. وعندما كانت عمارة^(١) أورلوف أميرال روسية تقع منها أضرار عظيمة في سواحل البحر الأبيض، سار أهل القرى في جهة المملكتين أيضاً وأخذوا في حرق البلاد المجاورة لهم والضياع، ويفعلون أفعال اللصوص وقطاع الطريق، واضربوا بالعساكر السلطانية التي مرت إلى جهة الأفلاق. ثم لما استولت الروسية على قلعة خونين رفع أهالي المملكتين معاريضهم إلى قاترينة امبراطورة الروسية يتشكون بها من حالة الفقر والفاقة ويتضجرون من ذلك، وقاترينة وقتئذ كانت تتربق وسيلة للمداخلة في أمور المملكتين لتقوية نفوذ أمرها هناك فأدخلت في معاهدة قينارجة^(٢) بعض الشروط في جانب أهالي المملكتين التي تسميهم إخوان الدين وفي حق المفسدين الذين مشوا على هواها خفية وجهاراً.

وفي الواقع أن حال الفقراء والعجزة هناك كان يرثى لها وذلك لسبب ظلم

١- أي الأسطول الروسي في البحر المتوسط.

٢- معاهدة موقعة بين الدولة العثمانية وروسيا في قينارجة (في بلغاريا) سنة ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤م وهي معاهدة ذات نتائج خطيرة على العثمانيين، ومن بنودها استقلال القرم، ودفع تعويضات الحرب للروس، وغيرها. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ٣٤٢.

بكوات الفناريين وتعديهم ويظهر من دفتر المصاريف المدرج في ذيل هذا الجزء
تحت إشارة (ي) كيف كانت تنفق واردات إيالة الأفلاق البالغة اثنين وعشرين
يوكا^(١) ومصاريف إيالة البغدان البالغة أيضاً أربعة عشر يوكا.

★ ★ ★

١ - يوك بمعنى الحمل والأثقال. قاموس تركي، ص ١٥٦٥ .

الفصل العاشر

تاريخ البلاد العربية و ما حوالها

إن أكثر الوقائع التي سنذكرها أدناه تتعلق بجهات البلاد العربية وهي منبعثة عن أسباب تاريخية مسلسل متصلة من القديم، وقد استنسبنا أن نبين أحوالها السابقة واللاحقة إجمالاً مبتدئين بذكر الوقائع المصرية السالفة لأن أهم هذه الوقائع كان ناشئاً عن أحوال ولدها مصر القاهرة المسماة أم الدنيا وحاملة مواليد الفتن .

وأصل البلاد العربية جزيرة العرب، ثم إن الملة العربية الممدوحة لما اتحدت وكانت على قلب واحد بالوحدة الإسلامية، هجمت إعلاءً لكلمة الله على البلاد الخارجة عن جزيرتها، وضمت إليها بلاداً كثيرة كمصر والشام والعراق وأطلق على الجميع في لساننا عربستان أي البلاد العربية.

أوائل أحوال مصر

إن سكان مصر قديماً هم أمة القبط^(١) وكان يطلق على حكامها اسم فرعون، وفرعون موسى عليه السلام من أولئك الفراعنة، ولم تمكث الدولة القبطية الأصلية إلا مدة قليلة وانقرضت، ودخلت تلك الأمة بعد ذلك تحت حكومات غريبة فانقاد القبطيون قرناً بعد قرن لحكومات قاهرة من غير قومهم .

وبعد أن فتح حضرة عمر رضي الله عنه بلاد مصر استمرت إدارتها مدة طويلة تحت أمر الخلافة، ثم ظهرت فيها دول بالاستقلال . منهم الدولة الرافضية، وبعد أن شاع مذهب الرافض زمناً طويلاً في مصر، ظهرت الدولة الأيوبية فرفضت البدع ومحت التشيع وأسست في مصر شعائر أهل السنة

١ - القبط: هم النصارى المنتمون للكنيسة المصرية، والأقباط اليوم فرعان الأرثوذكس والكاثوليك .
المنجد، ص ٤٣٣ .

والجماعة وأحيتها، ثم إنها قهرت الصليبيين الذين استولوا على السواحل الشامية ودمرتهم .

وكانت مدة هذه الدولة إحدى وثمانين سنة أول ملوكها الملك صلاح الدين، وآخرهم شجرة الدر زوجة الملك الصالح، وأول من اتخذ الممالك في مصر ورتب منهم العساكر المستقلة هو الملك الصالح المذكور، وكان انقراض الدولة الأيوبية على أيدي هؤلاء المماليك وهو أنه عندما توفي الملك الصالح وصار ابنه توران شاه سلطانا في موضعه لم يلتفت لعسكر (الكؤله من) أي المماليك الذين رتبهم أبوه ونفروا منه وقتلوه، وأجلسوا والدته شجرة الدر في محله، وبعد ثلاثة أشهر خلعوها وقامت في مصر الدولة التركية.

وبعد أن حكم السلاطين الذين تولوا من هؤلاء المماليك في مصر مدة، ظهر منهم سنة ستمائة وثمانية وسبعين الذات المسمى قلاوون^(١)، واستولى على بلاد مصر ولقب نفسه بالملك المنصور ورتب الدولة القلاوونية.

واستمر حكم هذه الدولة القلاوونية في مصر أكثر من مائة سنة، وانقرضت كالدول التي قبلها بفتنة المماليك، وذلك أن الملك الأشرف القلاووني لما رأى كثرة فساد المماليك وشقاوتهم وطغيانهم أجلاهم عن مصر^(٢)، فاجتمعوا وتظاهروا بالعصيان وتقدموا لحربه فغلبهم وهزمهم وقتل منهم جماعة ونفى آخرين، والباقيون منهم استأمنوا والتجأوا إلى بعض الأمراء في مصر. فهؤلاء المماليك أخلاط هم من أمم مختلفة إنما أكثرهم من الجراكس، وبهذه الواقعة سقطوا عن النظر والاعتبار، وصاروا في مصر في غاية الاحتقار، ولشدة غضبهم وحقدهم على الدولة القلاوونية كانوا يترقبون الفرصة لأخذ ثأرهم منها. ومع

١- الملك المنصور أبو المعالي سيف الدين قلاوون الصالحي: سلطان مملوكي، انتصر على المغول وعلى الصليبيين، وأنشأ المدارس والمكتبات والمستشفيات في مصر والشام. توفي سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م. قاموس الأعلام ٣٦٨١/٥.

٢- أي القاهرة.

اضمحلال أمرهم وكونهم أوزاعاً عند الأمراء، كانوا في الباطن متحدين وكان بعضهم في صحبة سلطانهم الملك الأشرف، ثم إنهم انتهزوا الفرصة وقتلوه، وبعد أن كانوا ثقلًا على الناس محتقرين بينهم صاروا أخفًا أعزاء موقرين كلمتهم نافذة وأمرهم مطاع أكثر من سائر الأمراء، وحصروا المنافع والنفوذ في مصر لأنفسهم. ولكن بقيت أحوال مصر على ما كانت عليه من الاختلال ووقعت حروب كثيرة واتصلت إلى أن قام برقوق الجركسي^(١) فسكن الثورة وقهر الجميع وغلبهم وبعد أن استقل بأمور الحل والعقد خلع ابن الملك الأشرف وأخذ السلطنة لنفسه.

فكان برقوق المذكور أول ملوك الجراكسة، واستمرت سلطنتهم في مصر نحو مائة وثلاثين سنة، له ولأولاده وأحفاده، آخرهم الغوري الذي قتل في محاربة حضرة السلطان سليم^(٢)، وانقرضت دولة الجراكسة وصارت حكومة مصر يعين حكامها من لدن الخلافة العثمانية كما كان من قبل في وقت الخلفاء الراشدين. ولكن تشغيب الممالك لم ينقطع بالكلية بل تجدد الجدل بين الأمراء المصريين الذين ظهروا من الممالك. وبعد أيام السلطان سليم انقسم أولئك الأمراء والعساكر المصرية إلى فرقتين فقارية وقاسمية، وبظهور هذه العادة الجاهلية والبدعة الشيطانية، لم تخل هاتين الفرقتين من الحرب والجلاد وإيقاد نار القيل والقال مدة مديدة.

وسبب ذلك حسبما هو محرر في بعض تواريخ مصر أن حضرة السلطان سليم بعد أن فتح مصر واستأصل أمراء الجراكسة قال يوماً في ديوانه الهمايوني يا هل ترى بقي أحد من الجراكسة لم نظفر به، وكان في ذلك المحضر الهمايوني

١- الملك الظاهر برقوق: أول الممالك البرجيين، وأول من ملك مصر من الشراكسة، توفي سنة ٨٠١هـ/١٣٩٩م. المنجد، ص ١٢١.

٢- في معركة مرج دابق يقرب حلب سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م وانتهت بانتصار السلطان العثماني سليم الأول ودخوله الشام ومصر والقضاء على الحكم المملوكي. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية، ص ١٩٢.

خيرى بك، فقال نعم أفندم في مصر رجل يسمى سودون بك من أهل الصلاح إلى الغاية، ومن مدة لازم بيته واختار العزلة والانزواء، وله ولدان أحدهما يسمى ذو الفقار والثاني قاسم، وهما على غاية من الشجاعة والقوة والمهارة في أمور الحرب، بحيث إنهما ليس لهما قرين في ذلك، وقد حبسهما معه في بيته ومنعهما من الخروج والاختلاط مع الناس. فقال حضرة السلطان سليم لابد أن يكون هذا الرجل مستيقظاً وملاحظاً عواقب الأمور، فلنذهب حالاً لزيارته ونستفيد من نصائحه وفي الحال توجه في جماعته لبيت سودون بك، فوجدوه يتلو القرآن الكريم وحواليه طائفته من أتباعه وخدمه وحشمه يخدمونه، فعندما فهم سودون بك بأنه السلطان سليم قام في الحال مرتاعاً مهتماً بأداء واجبات العبودية، فالتفت إليه السلطان ولطفه وأعطاه الأمان وأمر له بالعقود في حضرته، وسأله عن سبب اعتزاله وانزوائه، فأجابته بأن دولتنا اختلت أمورها وسلطاننا لم يعمل برأي العقلاء والمدبرين، وقتل أكثر أعيان دولته ووجه مناصب الكبراء إلى المماليك فأخذوا الوجاهة وسلكوا مسالك الفساد والاعتساف، وظلموا الفقراء فأعرضت الرعايا والفقراء عن السلطان لهذه الأسباب وتوجهوا بقلوبهم إلى حضرة الحق تعالى بالتضرع، فعندما رأيت هذه الأحوال علمت وجزمت بأن هذه الدولة ستكون موآخذة من طرف الله تعالى وتقع في عدل الانتقام الإلهي، واعتزلت في الحال، ولخوفي من البلية الملحوظة منعت أولادي أيضاً عن الاختلاط بالناس.

ثم استحضر السلطان سليم ولدي الأمير المذكور فرأى على وجوههم علائم البسالة والجسارة، فلطفهما وأكرمهما وأحسن إليهما وأقطعهما بعض أراضي لها واردات. وفي اليوم الثاني خرج إلى الصحراء ودعا كافة الأمراء والعساكر، وجاء الأمير سودون وولده أيضاً فأمر السلطان سليم قاسماً وأخاه ذا الفقار أن يركبا ويظهرا ما يدل على الفروسية فركبا الخيل وأظهرا من المهارة في الفروسية ما

أدهش الناظرين واستدعى استحسان الموجودين، وخصوصاً العثمانيين فإنهم زاد تعجبهم من ذلك فألبسهما السلطان الخلع وأظهر احترامها. وبعد ذلك بيوم جمع حضرة السلطان سليم العساكر في هيئة حربية وجعلهم فرقتين فرقة رئيسها ذو الفقار بك، وفرقة رئيسها قاسم بك، ثم ميز بعضهم من بعض بالألبسة فألبس الفرقة الفقارية أثواباً بيضاً، والفرقة القاسمية أثواباً حمراً، ثم أمر بهجوم إحدى الفرقتين على الأخرى كالمتحاربين حقيقة فتقابلوا بالهجوم وثار الغبار فتقارعت السيوف وتصادمت الرماح وصارت تلك الصحراء ميداناً لحرب حقيقية وصارت فيها الصفوف كأنها صحيفة مسطرة، واشتدت الحماسة من الفريقين وكاد الأمر ينقلب من الهزل إلى الجد ويؤول إلى قتال عظيم.

ولولا أنهم تربصوا قليلاً لكان ذلك اليوم يوم قتال وجدال، وبينما هم في هذه الحال إذ نادى المنادون بالأمر السلطاني أن يفترقوا وينفصل بعضهم عن بعض وبعد جهد جهيد تيسر انفصال تينك الموجتين بل البليتين عن بعضهما بعضاً وتكونت من هذا الأمر ضغائن بقيت في الطرفين، إلى أن صار الأمراء والعساكر المصرية إلى فرقتين يقال لهما فقارية وقاسمية فالفقارية كانت تميل إلى اللون الأبيض والقاسمية إلى الأحمر، وكل واحدة كانت تحب لونها وتنفر من اللون الآخر، والفقارية كانت ميالة إلى العثمانيين والقاسمية إلى المصريين، ودخلت هذه الغيرة الجاهلية فيما بينهم وصارت في حكم عادة لا تتغير، وكل طائفة كانت تراعي لونها حتى في المآكل فضلاً عن الملابس، وكان ملتزماً عددهم أن تكون بيارق الفقارية بيضاء وبيارق القاسمية حمراء، وبسبب هذه التفرقة تلفت نفوس كثيرة وأشخاص كثيرة راحت هدفاً لسهام البلاء.

واختلفت الآراء وانقسمت المناصب بين هاتين الفرقتين، فأمر الحج مثلاً يكون من الفقارية، والدفتردار من القاسمية، ورأس المتفرقة من الفقارية وكتخدا الجاوشية من القاسمية، وفي بعض الأحيان بداعي تغلب إحدى الفرقتين على الأخرى كان يقع بينهم قتال عظيم.

واستمر أمرهم على هذه الأحوال المشوشة إلى سنة ألف ومائة واثنين وأربعين، وفي ذلك التاريخ الذي هو سنة خلع السلطان أحمد وقع بين هاتين الفرقتين حرب كبيرة، وفي النهاية كانت الغلبة للفقارية فاستأصلوا القاسميين وما بقي منهم من السيوف، منهم من فر إلى الشام وبلاد الروم ومنهم من فر إلى الصعيد واختفى هناك. وبسبب ذلك اختصت الفرقة الفقارية بإمارة مصر بوجه الحصر والاستقلال، ثم تفرقت كلمتهما بعد ذلك لأوهام ومنازعات في الأسماء والألقاب وآل أمرهم إلى الحرب والجدال. واتحاد هذه الفرقة الفقارية واتفاقها كان ناشئاً عن غيرة جاهلية في مقابلة للقاسمية. ولما اضمحلت الفرقة القاسمية زال ذلك الاتحاد والاتفاق بينهم وصاروا فرقاً شتى وكل فرقة تطلب النفوذ والاستقلال لها ودخلوا ميادين القتال والجدال.

وعندما كان راغب باشا المشهور والياً في مصر سعى في إصلاحهم فلم يتيسر له ذلك. وفي سنة مائة وإحدى وستين شغبوا عليه وعزلوه عن الولاية. وكان هؤلاء الأمراء لا يخلو لهم وقت من قتل بعضهم بعضاً غيلة، واستمرت الحال جارية على ذلك إلى سنة ثمانين ومائة. وفي تلك الأثناء تغلب علي بك^(١) المشهور الذي يقال له (بولوت قبان) بمعنى خاطف الغيم على أخصامه، وحصر المناصب المصرية في جماعته، وقتل كثيراً من خصمائه بيد أحد مماليكه وهو محمد بك أبو الذهب الشهير، واكتسب الاستقلال في الأقطار المصرية، وكان يشتري كثيراً من المماليك ويهتم بتربية كل منهم ويدخله في سلك الأمراء وعندما وجه منصب الإمارة على إسماعيل بك الذي كان خزانداراً^(٢) له نصب محمد أبا الذهب المذكور في محله، ولما كان مدبراً شجاعاً فلم يمر وقت قليل حتى أعطاه

١- علي بك الكبير: من كبار المماليك في مصر، استقل بالحكم عن العثمانيين سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م، أرسل قائده محمد أبو الذهب للاستيلاء على الحجاز والشام، ثم انقلب أبو الذهب على سيده وقضى عليه. المنجد، ص ٣٧٧.

٢- خزنة دار: من يتولى المحافظة على خزانة. وكان هذا الاسم يطلق على من يتولون رجال الدولة تدبير المالية. معجم الدولة العثمانية، ص ٧٦.

الإمارة وقدمه على سائر الأمراء وسبب شهرته بأبي الذهب هو أنه عندما لبس في القلعة خلعه الإمارة فرّق البخاشيش على الجميع ذهباً ونثر الذهب على الفقراء في الأزقة، وكان في نفسه سمحاً سخياً، ولم يخل من التصدق والإحسان بالذهب دائماً فصار لذلك معروفاً بأبي الذهب. وبالجملّة فقد كان طالعه سعيداً ولم ير مغلوباً في معركة قط، وبناء على ذلك كان ذا شأن في الأنظار العمومية، وكان عند مولاه علي بك أيضاً في غاية القبول والإقبال.

وكان أحمد باشا الجزائر المشهور في ذلك الوقت من رؤساء الأمراء المصرية أيضاً، وكان علي بك يوليه أموراً كثيرة الأهمية من أموره مع أبي الذهب. وكان يعدم على أيديهما كل من خالفه. وبناء على كون حسن بك أحد الأمراء المصرية جزم أنه ما دام في قيد الحياة لا يترك علي بك يتمم داعية استقلاله قتله أيضاً بواسطة أبو الذهب والجزار. وقد بقى من الأمراء أحدهم وهو صالح بك، وكان علي بك يحترز منه وكان عقد معه أيماناً وعهوداً ومواثيق على أنه لا يحصل من أحدهما غدر وإهانة للثاني، وبذلك حصل منه على الاطمئنان أيضاً. ولكن لما كان صالح بك في الطبع يكون شريكاً له في النفوذ والإدارة اشأبت نفسه لإزالته ليكتسب بذلك تمام الاستقلال والاستبداد. فأمر الجزار وكان من الأمراء الباسلين الجسورين أن يكون مع أبي الذهب يداً واحدة في قتل صالح بك، فامتنع الجزار من ذلك لقدم عبوديته ومحسوبيته على صالح بك. وبذلك انقلبت محبة الجزار لعلي بك إلى العداوة واضطر الجزار إلى الفرار من مصر. ولأجل أن يعلم تفصيل ذلك نوعاً ما ظهر لنا أن نذكر ترجمة أحوال الجزار وأوائل أمره على الوجه الآتي:

أوائل أحوال الجزائر

إن أحمد باشا الجزائر هذا أصله بوسنوى، وعندما كان عمره ثمانية عشر سنة جاء إلى دار السعادة، وبمناسبة كونه حلاقاً كان يتردد إلى دائرة علي باشا حكيم أوغلي، وفي سنة ١١٦٩ هـ عندما صار علي باشا المذكور والياً على مصر كان في معيته، وبعد أن استخدم مدة في دائرته انتسب إلى صالح بك السالف الذكر من الأمراء المصريين، وكان يذهب إلى الحج ويأتي معه، ولم يكن من المماليك بل من طائفة البشناق الذين هم أشجع وأقوى طوائف الروم إليي، وفضلاً عن كونه في ذاته جسوراً وجريئاً، فإنه اكتسب المهارة في فن الجندية فانشرح له صدر صالح بك وبالغ في رعايته، وألبسه زي المماليك المصرية وصار معروفاً ببوشناق أحمد، وبعد مدة انحاز إلى عبد الله بك من الأمراء وعندما توجه لتأديب عرب الهنادي القاطنين بالبحيرة توجه معه، ولما قتل عبد الله بك في المحاربة نصب بوشناق أحمد هذا حاكماً على قرية في البحيرة من طرف ذي الفقار كاشف فكان كلما صادف أحداً من عرب الهنادي يقتله ويعدمه وقتل أربعة من كبرائهم، وقال هذا انتقام لسيدي وكان يرسل رؤوس من يقتلهم إلى مصر فلقبوه لذلك بالجزار بمعنى القصاب وصار مشهوراً بأحمد الجزار ولما بلغ علي بك أحوال أحمد وشهرته هذه استحضره من البحيرة إلى مصر ونصبه والياً.

ويعنون بالوالي في اصطلاحهم مأمور أمور الضابطة، وفي مأموريته كان يطوف داخل البلد ليلاً ونهاراً وكل من صادفه من الدعار والذين يجرون سوء الأدب يحبسه ويؤدبه ويضربه على مقتضى وظيفته ومأموريته.

وهذه الخدمة التي أجراها الجزار في هذا الباب كانت مقبولة عند علي بك ولذلك وجه إليه الإمارة وجعله صاحب سنجق وصار يقال له أحمد بك الجزار، وصار معدوداً من رؤساء الأمراء المصريين.

والحاصل أن الجزار حول صنعتته من الموسيقى إلى أعمال السيف، وصار ممتازاً

بين الأمراء المصريين فجعل إليه علي بك مهام أموره مع أبي الذهب ثم عينهما لقتل وإعدام بعض الأمراء على قصد إزالة الرقباء ورفع الشركاء، وعلى المنوال السابق أمرهما بقتل وإعدام صالح بك، وعندما اعتذر بأنه لا يجرى فيه سوءاً لرعاية حق الخبز والملح وما ناله من إحسانه، غير علي بك الكلام وقال له حياك الله يا جزار أنا مرامي أن أجربك وأمتحنك، وقد صارت صداقتك عندي ثابتة، ولكن الجزار لم تحصل له أمنية بذلك، وبعد أن خرج من عنده توجه إلى دار صالح بك وأفاده خفية ما وقع فاستبعد ذلك صالح بك وقال إن علي بك أخى لا أصدق أبداً بأنه يجري في حقي سوءاً وذلك نظراً للعهود والمواثيق المعقودة والمستحكمة بيننا منذ حال البداية.

وفي اليوم الثاني جاء علي بك إلى دار صالح بك وفي أثناء الموانسة قال له هل أحدثك كيف جربت أبا الذهب والجزار في حقك، وأقنعه بالكلام من جملة أوجه وقال له كما أنني جربتكما في حقك أنت كذلك يلزمك أن تجرب رجالك في حقي، وجعل واقع الحال على وجه آخر، فصدقه صالح بك، ثم بعد ذلك استحضر أبا الذهب وقال له الذي يلزمنا الآن هو راحتنا من صالح بك والجزار معاً، وأحال له أمر إعدامهما وقتلهما فأصبح أبو الذهب مترقباً لوقت الفرصة فوقعت له فرصة في أحد الأيام بقربه من صالح بك فسل سيفه وقتله، وتفرق ممالك صالح بك شذر مذر، وكان الجزار موجوداً معهم في هذه الواقعة وكان الملحوظ منه لفرط جسارته وجراءته أنه يتحرك قبل كل أحد فلم يتحرك بل وقف على الحيادة، حتى أن بعض حلفاء علي بك عاتبه في ذلك. وفي أثناء ذلك استل أبو الذهب سيفه وجعل يمسحه ثم قال للجزار أرني سيفك لأراه هل هو نظير سيفي أم لا، وأخفى ما كان يأمله من غيلته وغدره، وأخذ في حال الكلام أن يقترب من الجزار ليأخذ سيفه منه ويعدمه به، فالجزار أدرك ذلك وأحس به فقال له سيفي لا يخرج إلا في وجه العدو وتغير وجهه وانسل لطرف آخر، فصار

يضحك أبو الذهب وجعل يمازحه وبهذا الأمر صار الجزار عديم الأمانة، وخرج في تلك الليلة من بيته وتوجه إلى الإسكندرية في زي مغربي، وأوصى أهله أنه إذا سئلوا عنه يقولون إنه مريض رجاء أن يكون ذهابه في غفلة من أعدائه فيأخذ مدة قليلة ولو يوماً أو يومين يصل فيهما إلى الإسكندرية، فعمل أهله بما أوصاهم به .

وبعد أيام علم فراره وشاع ثم اتبعه الجند ليمسكوه في الطريق، ولكن كان في تلك المدة وصل إلى الإسكندرية، وفي الحال ركب في مركب حربي وكانت عادة أهل المراكب في ذلك الوقت لا يمنعون أحداً من الركوب ولا يخرجونه بعد ركوبه، فجاء الجزار إلى دار السعادة. وقضيته هذه كانت في سنة ١١٨٣هـ ثم بعد ذلك طاف وجال في داخلية الاناطولي ففي غاية السفالة ثم توجه إلى حلب ومنها إلى الشام وسنين ذلك فيما يأتي ولنرجع الآن إلى ما كنا بصدد ذكر أحوال مصر:

ذكر نهاية حال علي بك

بعد قتل صالح بك وفرار الجزار، أمن علي بك ولم يبق في مصر من يخافه ويحترز منه، واستولى على كافة البلاد المصرية وصارت في قبضة تسخيره يتصرف فيها كيف يشاء، وكان عندما يسمع أخبار الجراكسة يقول هم كانوا مثلنا ممالك فصاروا ملوكاً، وكان يطلق على نفسه أنه الملك برقوق وعلى تقدير أنه بالدسيسة التي اكتسبها كان معادلاً لبرقوق، فلا يصح أن تقاس الدولة القلاوونية بالسلطنة السنية في شرفها وعظم شوكتها وشأنها. ولم يدرك هذا المجازف أن كثيراً من أمثاله غلبت عليهم الشقاوة فعصوا الدولة العلية، ثم وقعوا في شرك العقاب والجزاء الذي يستحقونه. وعندما تخيل علي بك المحال في تجديد دولة

الجراكسة في مصر، كانت الدولة العلية مشغولة في حرب الروسية فوجد الميدان خالياً، وكان الروسيون يغرونه ويضلونه. ولذلك خرج عن طاعة الدولة وعصى أوامرها، وعزل محمد باشا والي مصر وأنزله عن منصبه ثم قتله مسموماً ولم ترسل الدولة بعده والياً إلى مصر مدة أربع سنين. وفي تلك الأثناء كانت شقاوة علي بك تزداد على التوالي، وفي سنة ١١٨٤ أرسل العساكر الكثيرة مع أبي الذهب وجداوي حسن بك إلى الأقطار الحجازية فضبطها واستولى عليها، وأرسل أيضاً العساكر الوفيرة مع إسماعيل بك لأجل الاستيلاء على بلاد الشام.

وبعد رجوع أبي الذهب من الحجاز جهزه بالعساكر الكثيرة والقوة الكاملة سنة ١١٨٥ هـ وأرسله أيضاً إلى الشام، وفي ذلك الوقت كان الظاهر عمر حاز الاستقلال واستبد في بلاد الشام، فكتب إليه بموافقة أبي الذهب فأطاع وأرسل أولاده في العساكر الكثيرة ليكونوا في معيته ولدى ملاقاتهم مع أبي الذهب في صحراء يافا توجهوا جميعاً إلى الشام، وعند ما بلغ خبرهم إلى كورجي عثمان باشا الذي كان والياً على الشام وعلم أنه لا يقدر على مقابلتهم ترك الشام وذهب إلى حماه، واشتغل بجمع العساكر، فجاء أبو الذهب وإسماعيل بك ومن معهم إلى الشام واستولوا عليها أتهم التحارير من طرف علي بك مبيناً بها ومشعراً لهما بأنه لا يحصل منه قصور في كل ما يطلبونه من العساكر والمهمات ويأمرهم بالتقدم.

وكان إسماعيل بك في حد ذاته صادقاً للدولة العلية، وكان يلاحظ عواقب الأمور فجرى في فكره أنه من المحتمل أن أبا الذهب في هذه الدرجة يكتسب الشأن والشهرة، فيفوق ويحكم على الجميع ويصير هو أيضاً في حالة الاسترقاب، فأخذ يحول عزم أبي الذهب ويغير ما في أفكاره، ويلقي عليه أن الدولة العلية لابد أن تتخلص من غائلة الحروب، وفي ذلك الوقت يصير الحال مشكلاً عندما تتوجه لنا بحالة الغضب، وهل يجوز لنا عصيان سلطان المسلمين

بل هذه الحال التي نحن عليها وسوسة شيطانية، وعلي بك كما تعلم قد سلك على غير مسلك الاستقامة؛ فإنه ترك الطريقة الإسلامية المعروفة واتبع قاترينه امبراطورة الروس، مع أن الروسيين أعداء دولتنا العلية ويجب على كل مؤمن موحد أن يحاربهم في كل وقت، ألا تنظر إلى جماعة الظاهر عمر فإنهم قوم جبابة فجرة، أما رأيتم أبنة الشيخ علي الظاهر كيف ترك الأدب وقعد في حضور سعادتكم غير مراعي لمقامكم ولا مبالٍ ولا تقيّد بإجراء الاحترام اللائق في شأنكم، وأيضاً فإن رجاله لا يخلون من الفسق والفجور. بمثل هذه النصائح المحقة حول أفكار أبي الذهب، وقد نقل أنهما عند مواجهتهما لأمين الصرة^(١) الذي دخل الشام تلك الأيام، اعترفا له بأنهما غير عاصيين على الدولة وأنهما كانا مجبورين على مجيئهما إلى الديار الشامية، وأنهما لا يستقيمان بها بل أنهما سيبارحانها وبواسطة أمين الصرة المذكور اتصل قولهما هذا بالدولة العلية. وكانت العساكر المصرية تعبت، وبينما كانوا يتمنون الرجوع إلى أوطانهم إذ جاءت التحريرات من علي بك يأمرهم فيها بالتنقل في بلاد الشام وجهاتها، وإقامتهم مدة مديدة في ديار الغربية وباطلاعهم على ذلك حصل لهم الفتور.

فجمع أبو الذهب الأمراء والضباط وأفهمهم جميعاً منطوق التحريرات الواردة من علي بك، وهذا نص ما قاله لهم: إن أفندينا مراده أن يبقينا جائلين في ديار الغربية إلى أن يحصل على مرامه، ونحن قد أدينا ما هو مفروض على ذمتنا، فكان يجب والحالة هذه أن نكون مأذونين في الرجوع إلى ديارنا فأنتم ماذا تقولون، وعندما أفادهم الحال بهذه العبارات المهيجة تحرك أولئك الأمراء للعودة إلى أوطانهم وتمنوا إلقاء أنفسهم في مصر، لا سيما لما سمعوا لفظ الرجوع من أبي الذهب وجميعهم كانت قلوبهم وأرواحهم في الوطن. فقالوا له الأمر لكم

١- الصرة: هي الأموال والهبات التي تمنحها الدولة العثمانية للحرمين الشريفين وأهالي الحجاز في رحلة الحج السنوية. ويطلق على الشخص المكلف بإيصالها وتوزيعها لقب «أمين الصرة الهمايونية». معاني لهجة، ص ١١٧٥.

وبناء على انقيادهم لأمر أبي الذهب، ففي الحال عاد إلى مصر بجميع العساكر المصرية ولما اتصل خبر رجوعه بعثمان باشا وهو بحماه رجع إلى الشام ودخلها بالسهولة. وكان الأمير منصور الشهابي استمر حاكماً في جبل لبنان أربعة وعشرين سنة ثم إنه لما بلغ سن الشيخوخة، تنازل عن الحكومة باختياره لابن أخيه الأمير يوسف وكان ذلك في أثناء مجيء أبي الذهب إلى الشام فلما سمع الأمير يوسف برجوع عثمان باشا إلى الشام جاء إليه فأجرى له زيادة الالتفات والاحترام وتقررت عليه حكومة الجبل.

أما علي بك فقد كان في أمله توسيع مملكه بتقدم أبي الذهب، وعندما رجع تعجب من عودته على حين غفلة وعند استعلامه منه عن أسباب رجوعه اشتكى إليه من أحوال وأعمال أولاد الظاهر عمر ومن سوء أفعال عساكرهم. فتكدر علي بك وكتب في الحال مكتوباً إلى الظاهر عمر^(١) كدره به، وعند وصول المكتوب إلى الظاهر حرر إليه الجواب، وأخبره أن ما أخبره به أبو الذهب ليس له أصل، وأن أبا الذهب بعد أن ملك الشام وخافت من سطوته المدهشة الخواص والعوام عاد إلى مصر بدون سبب، ثم إن الظاهر أرسل ولده الشيخ عثمان إلى مصر لأجل عرض الواقع شفاهاً. وبسبب ذلك نشأت البرودة الباطنية فيما بين علي بك وأبي الذهب وصمم علي بك على قتله.

وأبو الذهب كان من قبل ذهابه إلى الشام مقبولاً عند الناس، وكان أنصاره وأتباعه كثيرين. ثم إنه لما توجه إلى الشام كثرت جمعيته وتوفرت أحزابه، وكان الناس كلهم في مصر يميلون إليه وينفرون من أعمال علي بك. ولما حصل منه ما حصل نقم عليه علي بك أرسل إليه العساكر وهو في داره فأحاطوا به ليقتلوه، ففر وتخلص من بعض أطراف الدار وتوجه رأساً إلى الصعيد ورافقه جماعة من

١- ظاهر العمر (١٦٩٥ - ١٧٨٢م) : شيخ بني زيدان في بلاد صفد. هزم سليمان باشا والي دمشق العثماني. استولى على صيدا وعكا. قاتله أبو الذهب. واغتيل في آخر الأمر. المنجد، ص ٣٦١.

الأمراء، ثم إنه جمع هناك عساكر كثيرة من الذين كان طردهم علي بك، ومن بقايا القاسمين فاتسعت قوته. فخاف لذلك علي بك وجعل إسماعيل بك قائداً على العساكر وأرسله إلى الصعيد لتأديب أبي الذهب ولما وصل إلى تلك الجهات وقرب من أبي الذهب اتحد معه وزحفوا جميعاً على مصر، فلما اتصل خبرهم بعلي بك وعلم أنه ولو جمع العساكر مرة أخرى فلا يمكنه أن يقابل جموع أبي الذهب لكثرتها، فرَّ حالاً إلى عكا وفي معيته الشيخ عثمان، وجاء أبو الذهب إلى مصر وضبطها وحرر واقعة الحال إلى الدولة العلية ووصل هذا الخبر إلى الأوردوي الهمايوني^(١) في شمني^(٢) في أوائل سنة ١١٨٦ هـ وكان ذلك موجباً لزيادة الممنونية.

وبعد ذلك جمع علي بك عسكراً في بر الشام في داعية الاستيلاء تكراراً على مصر، ولهذا المقصد استدعى إلى عكا الأسطول الروسي الذي كان في البحر الأبيض، وفي سنة ألف ومائة وسبع ثمانين توجه قاصداً مصر بالعساكر الوفيرة وفي معيته أولاد الظاهر عمر، وخرج أبو الذهب أيضاً في مصر في قوة كافية والتقى الفريقان في الصالحية، فانتصر أبو الذهب وأخذ علي بك في المعركة أسيراً مشخوناً بالجراحات، وتلقاه أبو الذهب بالرعاية والاحترام لكونه سيده وولي نعمته وعين له أطباء لمداواته وبعد مدة سقاه السم فمات، وعلم عند موته أنه جوزي بما فعله من قبل محمد باشا والي مصر.

وخلا الجو لأبي الذهب واستقل بحكم أقطار مصر كلها وعرض انقياده وخضوعه للدولة العلية، وأرسل الأموال لدار السعادة وقام بمعينات الحرمين الشريفين، وبعثها لمحلبها فقبل ذلك عند الدولة العلية. وبعد مدة وجهت الدولة العلية خليل باشا والياً على مصر. فجلس على منصة الحكم في مصر على العادة القديمة ولكن لم يكن له من الأمر شيء بل كان النفوذ بالاستقلال لأبي الذهب.

١- أي الجيش السلطاني.

٢- شُمني: مركز سنجقية في البلقان على بعد ٩٠ كم غرب اربنا (في بلغاريا حالياً). قاموس الأعلام ٢٨٧٤/٤.

وعلى هذه الحالة استقر أمر مصر وصار كل إنسان ممنوناً ومستبشراً بحصول
الراحة والرفاهية . وهكذا كان من شيمة أم الدنيا استعدادها في تربية كثير من
مواليد الفتن كما يعلم من الوقائع الآتية ، ولما كانت هذه الوقائع المصرية مختلطة
بوقائع بلاد الشام رأينا من المناسب أن نبين أولاً أحوال تلك الجهات على وجه
الإجمال .



ذكر كيفية إدارة جبل لبنان الماضية والحاضرة وأصول

حكامه ورسومهم القديمة وعدد أهاليه وأقسامه

إن أيلة صيدا التي يقال لها بر الشام تنقسم إلى سناجق متعددة، وجبل لبنان لكونه داخلاً في هذه الولاية ينقسم إلى مقاطعات أي نواحي وقضاوات عديدة، وكل مقاطعة منه تحتوي على كثير من القرى والقصبات، ولكل مقاطعة عائلة تتصرف فيها، وكلهم يكونون تحت حكم أمير الجبل يعني الحاكم العمومي. وهو من أمراء بني معن وبعد انقراضهم ظهر بنو شهاب ووضعوا أيديهم على حكومة الجبل، وذلك بعد وفاة الأمير أحمد آخر بني معن، وهو ابن أخي فخر الدين المعني الشهير. وسبب إمارة بني شهاب على الجبل أن الأمير أحمد المذكور كانت له بنت متزوجة بأحد بني شهاب حكام وادي التيم اسمه موسى فأولدها ولداً سماه حيدر، فورث إمارة الجبل واستقل بها سنة ١١١٨هـ.

والأمير حيدر هذا هو الجد الأول للأمراء، الشهابيين الذين حكموا جبل لبنان مدة مديدة، وعلى يده اضمحلت الفرقة اليمينية، لأن أهالي الجبل في القديم كانوا فرقتين قيسية ويمينية، ونظراً لما كان بينهم من العداوة الشديدة لم تخلو أيامهم من المحاربة والمنازعة. وفي الملحمة المشهورة التي وقعت بينهما في عين دارة (١) في أيام الأمير حيدر بن موسى من بني شهاب انكسرت الطائفة اليمينية واضمحل أمرها، وصار النفوذ في الجبل بأيدي القيسية، واختصت به دون اليمينية، ثم حصل الأمير حيدر في حكومة الجبل على الاستقلال التام.

وبعد ذلك تنازع بنو جنبلاط (٢) يعني أولاد جان بولاد وبين بني العماد،

١- عين داره أو عنداره: قرية في لبنان بقضاء عاليه فيها انتصر الشهابيون بقيادة الأمير حيدر على اليمينيين ٢٠ آذار ١٧١١م. المنجد، ص ٣٨٢.

٢- جنبلاط: أسرة لبنانية درزية، كردية الأصل، تنتسب إلى جاني بولاط بن قاسم. حالفت الأمير فخر الدين المعني الثاني، استوطنت لبنان منذ ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م وأصبح مشايخها من زعماء الشوف. المنجد، ص ٢٠٤.

فمال بعض أهالي الجبل لهؤلاء وبعضهم لأولئك، وانقسم أهل الجبل إلى فرقتين مرة أخرى جنبلاطية يعني أصحاب بني جنبلاط والثانية يزبكية يعني أصحاب بني العماد نسبة إلى جدهم الأعلى يزبك، واستمرت العدواة واستحكمت حلقاتها بين هاتين الفرقتين فصار أهل الجبل لا تخلو أيامهم من الحرب والجدال، وبقي مشايخ الطائفة النكدية في هذا الأمر على الحيادة وبحسب الأغراض كانوا يميلون إلى الفرقة التي يريدونها ومع وقوع هذه الأمور كانوا جميعهم منقادين إلى الأمير الشهابي حاكم الجبل.

ثم توفي الأمير حيدر الموماً إليه سنة ١١٤٠هـ وخلفه في محله ولده الأمير ملحم، وفي أيامه أظهر المتصرفون في المقاطعات عدم الطاعة، فاتصلت الحروب بينه وبينهم مدة حياته إلى حين وفاته، وهو وإن يكن غلبهم جميعاً فإن الأهالي لم تحصل لهم راحة في أيامه، وخلفه في محله بعد وفاته أخوه الأمير منصور وبعد أن حكم في الجبل أربعة وعشرين سنة بالنفوذ التام استعفي من الحكومة نظراً لهرمه وكبر سنه وتولى في محله أخوه الأمير يوسف ابن الأمير ملحم.

وفي الأصل كانت حكومة الجبل عبارة عن سنجق جبل الشوف الحاوي على سبع مقاطعات وهي: الشوف والمناصف والعرقوب والجرد والمتن والشحار والغرب. فمقاطعة الشوف تنقسم إلى قسمين يقال لهما الشوف السوبجاني والشوف الخطبي، وكذلك العرقوب مع الغرب ينقسم إلى قسمين يقال لكل منهما أعلى وأدنى. وصار لفظ لبنان علماً لذروة هذا الجبل ثم أطلق على مجموعته.

وفي كل مقاطعة في هذه المقاطعات عائلة ممتازة فكان في الشوف بنو جنبلاط، وفي المناصف بنو أبي نكد، وفي العرقوب الأعلى بنو العبد، وفي العرقوب الأدنى بنو العماد، وفي الجرب بنو عبد الملك، وفي المتن بنو اللمع،

وفي الغرب الأعلى بنو تلحوق، وفي الغرب الأدنى بنو أرسلان. وكان كل منهم متصرفاً في مقاطعته وكان بنو أبي نكد يحكمون الشحار.

وهؤلاء البيوت كافتهم دروز، وبسبب استيلائهم على هذه البلاد أطلق عليها بلاد الدروز، وربما قيل جبل الدروز. ثم إن بني أبي اللمع تنصروا بعد ذلك. وهؤلاء المتصرفون بعضهم أمراء وبعضهم مشايخ ودرجة الأمراء أعلى من درجة المشايخ، ويوجد فيما بينهم فرق في الرسوم وألقاب الاحترام سواء كان ذلك في المعاملات أو في التحريرات. وبنو شهاب أعلى درجة من الأمراء، ثم يليهم بنو أبي اللمع، ثم بنو رسلان، ثم سائر المشايخ. وبنو مزهر ويقال لهم المقدمون في الدرجة الوسطى بين الأمراء والمشايخ. وفي المراسم يكون وقوفهم وجلسهم أحط من الأمراء وأعلى من المشايخ. وعندما يتواجه أحد الأمراء أو أحد المشايخ مع حاكم الجبل فرسومهم القديمة على هذا الترتيب، أعني إذا كان الأمير من عائلة بني شهاب فعندما يدخل من باب الأوضة يقوم له الحاكم من مكانه وينزل عن البساط. فيتقدم الداخل ويلقي السلام ثم يقبل كتف الحاكم. وإذا كان الداخل من سائر الأمراء والمشايخ فلا يقوم له الحاكم قبل السلام وإنما يقوم له بعده، وإذا كان الداخل من بني أبي اللمع يقبل ذراع الحاكم لا كتفه، وإذا كان من بني أرسلان يقبل ساعده، وإذا كان من المقدمين أو المشايخ يقبل طرف إبهام كفه، وإذا كان من سائر الناس يقوم له عند ركوعه لتقيل يده، وبعضهم لا يقوم لهم أبداً وبعضهم لا يسوغ له الدخول على الحاكم أصلاً.

والحاكم الشهابي يكتب في تحاريره لجميع هؤلاء الأمراء والمشايخ أخ عزيز، إلا أمراء بني اللمع فإنه يحرر لهم (جناب حضرة الأخ العزيز الأمير فلان المكرم حفظه الله تعالى، أبدي أولاً مزيد الأشواق لمشاهدتكم في كل خير وثانياً كذا وكذا) ويكون المكتوب نصف طبق ورق. وإذا كان من بني أرسلان يكتب له هكذا لكن في ربع طبق ورق ولا يذكر قوله (وثانياً) والإمضاء أخ ومحب مخلص ويكتب للمشايخ كما يكتب إلى بني رسلان، ولكن لا يكتب لهم (جناب)، ويكتب إلى النصاري من بني بلبيل الساكنين في المتن، وإلى بني شاعر

الساكين في دير القمر، وكافة المعتبرين في الجبل حضرة عزيزنا ويستعمل في محل حفظه الله سلمه الله، وفي محل لمشاهدتكم لرؤياكم، ويكتب إلى أهالي قراياه الخاصة وإلى المشاهير في القرى عزيزنا فقط وإلى سائر الناس أعز المحبين.

وإذا وقع ذنب من أحد الأمراء أو المشايخ فلا يتعرض لحبسه أو ضربه أو قتله وإنما يأمر بمصادرته أو نفيه وتغريبه. وعندما يحضر عنده متهم منهم فإنه يجري له كافة الرسوم الاحترامية بحسب ما توجبه رتبته. وعادته في مكاتبة المغضوب عليهم أنه لا يجري خللاً في الألقاب والعنوان وإنما يترك الألفاظ الدالة على المحبة، ومن عادته أنه يختم المكتوب من خارجه، إلا إذا كان المكتوب في صورة مكدرة، فإنه جرباً على الأصول القديمة يختم في أعلى وجه الصحيفة.

وأصحاب هذه المقاطعات يتصرفون في مقاطعاتهم بتنفيذ نهيمهم وأمرهم ويجمعون الخراج والويركو^(١)، فيرسلون منه إلى الحاكم المقدار المعين عليهم والباقي يبقى لهم. وإذا كانت لأحد الرعايا دعوى فعلى الأصول أنه يراجع صاحب المقاطعة فإذا لم يفصلها على وجه العدل، يذهب إلى الحاكم ويشتكى له، فيحرر في أول الأمر لمصرف المقاطعة في ذلك. فإذا لم يعمل بإحقاق الحق ووقعت الشكاية مرة أخرى فحينئذ يعين الحاكم مباشراً من طرفه ينظر في القضية، وهكذا عند وقوع نزاع بين أصحاب المقاطعات وبين الأهالي، ففي أول الأمر تجرى الأوامر بالمكاتبة من طرف الحاكم، فإن وقع الاتفاق وارتفع النزاع فذلك، وإلا فإن الحاكم يرسل مباشراً من عنده وتكون مصاريفه وما يلزم لفرسه في المدة التي يقيمها هناك كلها على المدعى عليه، وفضلاً عن ذلك فإنه يأخذ مقداراً معيناً من الدراهم لإجراء وظيفته. وأصحاب المقاطعات مأذونون في الحكم بالحبس والضرب، وأما العقوبة في عظام الأمور فهي للحاكم فقط لا

١- الويركو: الرسوم والضرائب. الدراري اللامعات ص ٥٢٩. وقد تقدم شرحها.

لغيره، وإجراء المواد المهمة كالقتل مثلاً لا بد أن يكون بمعرفة العمال المنصوبين من طرف الحاكم، وللعامل أن يولي في كل مقاطعة مديراً بشرط أن يكون من أهل تلك المقاطعة. وسائر رجال العائلة التي هو منها يكونون تحت حكمه وإدارته كسائر الأهالي. أما دير القمر^(١) والقرى الملحقة بها فإنه يجري فيها حكم الحاكم رأساً يولي فيها من شاء ويعزل من شاء.

فحكومة الجبل القديمة المشتملة على هذه المقاطعات السبعة يراد بها سنجاق الشوف، ثم تفرعت منها زماناً بعد آخر مقاطعات كثيرة، وفي بعض الأحيان كان ينفصل بعضهم من بعض، وذلك لأن الجبل المذكور مجموع من جبال متسلسلة ممتدة فأحياناً يضاف بعضه إلى صيدا وبعضه إلى الشام وأحياناً يصير كله حكومة مستقلة.

وفي أيام الأمراء الشهابية كانت المقاطعات التي بقيت داخل حكومة الجبل في الجانب الغربي منه، إقليم الخروب وإقليم التفاح وإقليم جزين، وفي الجانب القبلي جبل الريحان مع البقاع، وفي الجانب الشرقي كسروان والفتوح وبلاد جبيل وبلاد البترون وجبة المنيطرة وجبة بشري والكورة والزاوية. فالجانب الغربي يتصرف فيه المشايخ الجنبلاطية، أما في الجانب القبلي وفي بلاد جبيل والبترون من الجانب الشرقي فيتصرف فيها الحاكم الشهابي رأساً، فكان ينصب المأمورين ويرسلهم من طرفه إليها، وأما كسروان فيتصرف ويحكم فيه مشايخ بني الخازن، وجبة المنيطرة مشايخ بني حماده، والكورة الفوقانية مشايخ بني العازار، والزاوية مشايخ بني الظاهر. ثم اختل هذا النظام في الجانب الشرقي وبالأخص في مقاطعات مشايخ بني حماده فإنها خرجت من أيديهم بالكلية وصارت إدارتها في يد الحاكم الشهابي.

١- دير القمر: بلدة في لبنان بقضاء الشوف، عاصمته الأمراء المعنيين والشهابيين. المنجد، ص ٢٥٣.

وكافة المشايخ المذكورين كانوا في درجة مشايخ بلاد الشوف، إلا بني حماده فإنهم كانوا في درجة أمراء اللمعين. وكان بنو العازار أخط درجة من سائر المشايخ، وغير هؤلاء المشايخ الذين ذكرناهم كان يوجد في كسروان مشايخ بني حبش، وفي البقاع مشايخ بني حيمور، ولكن هؤلاء لم يكن لهم حكم ولا تصرف في موضع ما. وكان منهم سنية وهم بنو حيمور، ومنهم شيعية وهم بنو حماده والباقون نصارى، وكان في جبل البترون قوم يدعون النسب إلى الأكراد الأيوبية، وكانوا إذ ذاك أصحاب حكومة وثروة ومع تقلب الأيام تغيرت أحوالهم وانحطت درجتهم وانخرطوا في سلك أدنى عامة الناس، واضطر بعضهم إلى تعاطي المهن والأشغال كالزراعة، وبعضهم إلى السؤال من الناس. ولكن بقي عندهم أثر حب شرف الحسب وكانوا إذا خطبوا بنات العوام لا يعطونهم وإذا اضطر أحدهم إلى التساؤل فلا يتنزل للسؤال والاستعطاف من العامة بل يسأل من معتبري الأمراء والمشايخ. وكان لهم حرص زائد على لقب الإمارة فلو كان أحدهم في غاية الاحتياج ولم يدعى بلقب الأمير فلا يمكن أن يجيب، وإذا أحد ألقى عليهم السلام بغير لقب الأمراء فلا يردون عليه السلام وهؤلاء موجودون إلى الآن في قرية رأس نحاش ولطول مدة ما هم عليه من الذل والمسكنة تناست ألقابهم القديمة وصاروا مشهورين بأمراء رأس نحاش.

وفي الجهة الغربية كان من هذا القبيل مقدمو جزين أصحاب رفعة وشأن، ولكن لما سقطوا بعد ذلك عن مرتبتهم ومنزلتهم صارت قرينتهم لقباً لهم وصاروا يعرفون بمقدمي جزين. وأمراء رأس نحاش المذكورون كانوا سنية، وأما هؤلاء مقدموا جزين فإنهم كانوا شيعية ينتسبون إلى علي الصغير جد طائفة من المتأولة. وعائلة هؤلاء بنو الصغير كانوا من مشايخ بني متوال وكانوا هم أصحاب بلاد بشارة التي هي قطعة مستقلة في إيالة صيدا، ثم إن أحمد باشا الجزار دمرهم عن آخرهم وسيأتي بيان ذلك.

وأما الأمراء بنو شهاب فإنهم اتخذوا دير القمر مقر إمارتهم، وكثيراً ما كانوا يقيمون في بيروت أيضاً. وفي أيام استقلالهم في الجبل وسطوتهم البالغة حد الكمال كان لهم من الأعمال الحسنة الكثيرة ما بقيت آثاره تذكر بعدهم، ونظراً لحسن سيرتهم ومعاملتهم للناس بالرفق والملايمة مال الناس إليهم واتصل حكمهم تصرفهم في الجبل جارية أكثر من مائة وخمسين سنة، وكانوا يدفعون إلى حاكم إيالة صيدا مال الميري على سبيل المقطوع وقدره مائة وثلاثون كيساً. وفي بعض الأحيان عند ظهور بعض عوارض في إيالة صيدا كانوا يوفون رسم تبعيتهم إلى والي الشام. وكانوا في إدارتهم الداخلية وأحكامهم مستقلين فلا يقدر أحد من حكام الدولة أن يتداخل في أمورهم الداخلية، حتى إن أهل الجنايات الذين كانوا يلتجئون إليهم لخوفهم من الولاة يأمنون على أنفسهم، وذلك لأنه كان من الأصول المرعية عندهم وجوب صيانة من يهرب إليهم ويحتمي بهم، فكان الولاة لذلك لا يقدرّون على استراداده. وكان لهم امتيازات في سائر الخصوصات على هذا الوجه.

وكان حاكم الجبل إذ ذاك مرجعاً لحكام العشائر الموجودين في نواحيه وكذلك غيرهم من الأمراء والمشايخ القاطنين في أطراف الجبل كانوا خاضعين لهذه الطائفة الشهابية، فلا يقدر أحد من كبرائهم أن يقاومها بل يوافقون أمرائها على ما أرادوه. وعلى الأخص مشايخ بلاد بشاره وحاصبيا وراشيا الذين هم أهل وادي التيم، وكذلك مشايخ بعلبك ومشايخ الضنية فإنهم كانوا في كل حال يراجعون الأمير الشهابي حاكم الجبل في عظام الأمور مع كمال التعظيم له.

وهذه الطائفة الشهابية كانت كلها في الأصل من أهل الإسلام وسلسلة نسبهم تنتهي إلى أحد الصحابة الكرام (رضي الله عنهم)، ثم تنصر البعض منهم. واعلم أن المسلمين في جبل لبنان طائفة قليلة جداً، وكذلك اليهود فإنهم قليلون. فأكثر أهاليه دروز ونصارى، وهم أي النصارى وإن يكونوا بالنسبة إلى

الدروز أكثر فإن الدروز أشجع وأجسر، وأكثرهم يكونون مسلحين وفي أكثر الوقائع الحربية كانت توجد طائفة المتأولة معهم. والطائفة المارونية في الجبل أكثر من جميع الطوائف في عدد النفوس، وفي كل ستة تقريباً يخرج منهم مسلح واحد، وأما المتأولة ففي كل أربعة واحد، وأما الدروز فإن المسلحين منهم يكونون أكثر من ربعهم، وأكثر الأمراء والمشايخ يكونون من الدروز، والمنافرات الكثيرة التي تحصل بين سكان الجبل ليست دينية أو مذهبية، بل اتحادهم واختلافهم مبني على العصبية، ولذلك غلبت طائفة الدروز من القديم سائر الطوائف، وبقي النفوذ والإدارة في الجبل في كبرائهم. ونفوذ الخوارنة^(١) المعنوي كان جارياً في ما بين النصارى. ثم إن الأمراء الشهابيين لأجل أن ينالوا الاستقلال في الجبل تشبثوا بما يكسر نفوذ هؤلاء الرؤساء. ثم لما رأوا النصارى هم الغالبية في كثرة النفوس فلأجل أن يجعلوهم معاونين ويجلبوا خوارنتهم لحزبهم تنصر البعض منهم على هذه الصورة.

وبفعلهم هذا ألقوا بين أهالي الجبل بعض المنافرة الدينية، وكان ذلك سبباً لزوال حكومتهم وانقسام الجبل منذ عهد قريب إلى قائمقاميتين، والحالة هذه صار جبل لبنان قائمقاميتين أحدهما قائمقامية الدروز وهي تطلق على لواء الشوف الذي يقال له جبل الدروز وهي المقاطعات السبعة التي سبق ذكرها، يعني عبارة من مقاطعات الشوف مع مقاطعات الحروب والتفاح وجزين، والثانية قائمقامية النصارى المشتملة على لواء جبيل ويقال له جبل النصارى وبلاد جبيل وكسروان والفتوح وسائر المقاطعات الشرقية ومن هذين السنجقين ارتفعت أيضاً الحكومة الشهابية.

وفي خلال ذلك صار إلحاق البقاع لإيالة الشام وترك دير القمر خارجاً عن القائمقاميتين وصارت إدارته بيد قائمقام يعين من طرف والي إيالة صيدا.

١- الخوارنة: جمع خوري وهي رتبة كنسية لدى النصارى. المنجد ص ١٩٨.

والحاصل كان في جبل لبنان رعاية زائدة للمراتب، ولذلك لم يؤثر الفقر والفاقة في حقوق شرف الحسب والنسب، ولم يقدر أحد على تحصيل مرتبة هؤلاء باكتساب الثروة والغناء، وعندما كان كل شخص محافظاً على رتبته ومنزلته الأصلية كان الأمراء الشهابيون جادين في إخماد البيوت القديمة، عاملين بما تخيلوه من توسيع حكومتهم الموروثة فأضاعوها بالكلية.

وإن يكن يوجد في لواء النصارى كثير من الدروز، إنما الأكثر منهم في لواء الشوف وهاتان القائمتان انقسمتا الآن إلى اثني عشر مقاطعة مساحة أرضها مربعة تريبعاً سطحياً مائة وخمسون ساعة، تشتمل على نحو تسعمائة من بين قرى وقصبات ومزارع، والمزرعة تحتوي على نحو خمسة بيوت أو ستة ويطلق عليها قرى صغيرة.

وكافة أهاليهم يبلغون من النفوس مائتين وسبعة عشر ألفاً، منهم ستة آلاف وخمسمائة من المسلمين أهل السنة، وإحدى عشر ألفاً وخمسمائة من الشيعة ويقال لهم متاول، وثلاثون ألف دروز، ومائة وواحد وعشرون ألفاً موارنة، وسبعة وأربعون ألفاً ملكيون وروم، ونحو ألف يهودي. ويوجد خارجاً عن هاتين القائمتين وفي أطراف الشام نحو مائة وتسعة وثلاثين ألف نفس ماروني، وثمانية وعشرين ألف درزي، وأربعة آلاف وخمسمائة متاول، وحيث إن هؤلاء كلهم أصلهم من أهل جبل لبنان، و عليه فيبلغ عدد أهل الجبل ثلاثمائة ألف وكسور. فعلى هذا الحساب يكون عدد كافة المارونية مائتين وستين ألف يخرج منهم اثنان وأربعون ألف مسلحين، والمتاول يبلغ عددهم ستة عشر ألف يوجد بينهم أربعة آلاف مسلحين، وأما الدروز فهم ثمانية وخمسون ألف يكون منهم سبعة عشر ألفاً مسلحين، فيكون الذين يحملون السلاح منهم أكثر من ربعهم، ولا يخرج في ملة ما مسلحين بهذا المقدار.

وأكثر الدروز مزارعين، وفي النادر يوجد بينهم أصحاب صنائع، وأما الطوائف الباقية أكثرهم يتعاطون التجارة والصناعة. ونساء الدروز من حيث الجمال دون نساء سائر الطوائف.

ولا تنكر جودة ماء وهواء جبل لبنان ولطافتها، ووجود أهاليه بالصحة دائماً وذلك لعدم أكلهم الأغذية المتنوعة، والطائفة المارونية على مذهب الكتولك^(١) يتنسبون إلى الراهب مارون الذي لقن الدين العيسوي في تلك الأطراف قبل الهجرة النبوية بثلاثمائة وتسعين سنة. والملكيون بفتح الميم هم طائفة الروم الكاثوليك. وأما الدروز فإنهم يدعون الإسلام في الظاهر حالة كونهم ينكرون كافة العقائد الإسلامية، بل سائر الأديان، ولنبين عقائدهم وعاداتهم مفصلة في فصل مستقل على الوجه الآتي:

عادات الدروز وعقائدهم

إن الدروز تغلب عليهم الحمية والنخوة، وعندهم صبر وتحمل زايد ويحفظون ألسنتهم عن النطق بالفحشاء، وفي حال الغضب لا يتكلم أحدهم مع الآخر بسوء، ويحافظون على العهود والمواثيق للغاية، وإذا اتخذوا صاحباً يصادقونه صداقة تامة حتى إنهم لا يحترسون لأجله من الوقوع في الخطر والتهلكة في سبيله.

وكثيراً ما كانت العداوة تقع بين الطوائف فتنشأ عنها حروب عظيمة، والفرقة الغالبة المظفرة تجبر الفرقة الثانية على ترك وطنها. وفي هذه الحروب كل فرقة تتصحب لجماعة من أصدقائها وأحزابها، ويلقون أنفسهم لأجلها في المهالك.

١ - أي الكاثوليك.

وتكون الصلابة الحاصلة بين طائفتين موروثية خلفاً عن سلف ولا ينافي ذلك عندهم اختلاف الدين والمذهب، وفي حين وجود اتحاد العصبية فيما بين الدروز والنصارى يجرون في حق بعضهم بعضاً ما يوجب التعصب والتعصب. ومن عادتهم أنهم في حال العداوة والحرب لا يتركون سبيل المرؤة ومنها أنهم يأخذون الثأر في مجرد الغلبة بالشجاعة ويتجنبون الغدر.

روي عن أحد الدروز أنه دخل بيت أحد أعدائه فوجد زوجته تشتغل في شغل لها، وبينما كان يهتم في معاونتها جاء زوجها فسلم عليه كعادته مع أحد أصحابه، وأتى بالطعام فأطعمه وعند عودته شيعه إلى خارج الدار، وعند الوداع قال له نحن على حالنا القديم يعني العداوة باقية.

ووقع بين طائفتي بني الغضبان والحسينية في العرقوب ما أوجب العداوة فغلبت الحسينية ولم يقدر بنو الغضبان على الإقامة في بيوتهم، ففروا إلى الأطراف، وبعد مرور مدة اتفق أن واحداً من الطائفة الحسينية بينما كان يسوق بقره في محل بعيد عن القرية، خرج عليه بغتة رجلان من بني الغضبان وعندما صدماه وهجما عليه ركض فاراً، فأصابته رجله حجر كان موضوعاً على حاجز فوقع عليه فمنعه عن الحركة ويئس من الحياة، وعندما وصلا إليه رفعاه عنه الحجر، وقالوا له قتلنا الآن لا يوجب لنا فخراً، ولكن بعد الآن احترس على نفسك منا وتركاه.

ونقل من هذا القبيل أن شخصاً من الدروز يدعى إبراهيم نكد، كان له نوع شبهة في زوجته، ولأجل استكشاف الحال قال لها في بعض الأيام أنا ذاهب إلى دير القمر حيث لي شغل هناك، وركب فرسه وذهب، وفي أثناء الطريق نزل في أحد البيوت ومكث هناك إلى المساء، ثم عاد ونزل في محل قريب من بيته وربط

فرسه في شجرة وأتى إلى بيته بلطافة، وكان باب البيت مقفولاً فسمع في داخله صوتاً وكلاماً فصرخ لزوجته فلم تفتح له الباب، بل داخلها الرعب بحيث إنها لم تقدر على رد الجواب، ثم تقدم وأخذ الباب ب صدره ودخل، وكان رجلاً شجاعاً مهاباً للغاية، فالزاني لما رآه كادت نفسه تزهرق من الخوف.

ثم إن إبراهيم لما رأى ذلك الجاني على نفسه محتاراً فيما يصنع سكن خوفه ومسكه من يده وقال له اذهب بالسلامة، ولكن اكنم هذا الأمر، وإذا شاع يكون سبباً لقتلك. وفي ذلك الوقت كانت زوجته آيست من الحياة فلم يتعرض لها بشيء كأن ذلك الأمر لم يكن ولم يعاملها معاملة ردية، وبعد مدة أجرى لها سبباً آخر وطلقها بدون أن يشعر أحد بحقيقة الحال.

وهذه الأحوال وأمثالها عند الدروز هي من قبيل الآداب وعندهم قضاة للأحكام الشرعية فيحكمون في المعاملات بالشرعية الإسلامية. وأما فيما يتعلق في بعض مواد كالعبادات والنكاح والطلاق فلهم في ذلك أصول مخصوصة. وأما كيفية تزويجهم فهي على الوجه الآتي: إذا أراد أحد أن يخطب ابنة فإنه يرسل أولاً إلى بيت البنت واسطة لأجل أن يختبرهم، فإن كان مراد أهل البنت إعطائها، فإنهم في الحال يأتون بالحلوى ويأكلونها سواء، ويقال لهذه الحلوى نعمانية. فمتى أكلت النعمانية بت الأمر وتكون تلك البنت قد تعينت للخاطب. ثم إن الواسطة يخبر الزوج وهو يخبر جماعة من قومه، ثم يكتبون سنداً في المهر المتفق عليه وتصير البنت زوجته فيأخذها أي وقت أراد، فإن وافقته فذلك وإلا فإنه يطلقها حالاً ويتزوج غيرها. وهذه الثانية إذا لم توافقه فإنه يتركها على حالها إلى أن يجد واحدة توافقه فيتزوجها على الوجه السابق، ولا يجوز عندهم الجمع بين امرأتين وإذا لم يطلق الواحدة لا يقدر على أخذ غيرها. وعندهم طلاق النساء بأشياء جزئية جداً. مثلاً إذا استأذنت امرأة بالذهاب إلى محل ما، فإذا قال لها

أذهبى فقط ولم يقل لها وارجعي فإنها تكون طالقة. وفي مذهبهم لا يجوز رد المطلقة ولو تزوجت غير زوجها وطلقها لا تقدر على الرجوع إلى زوجها القديم.

ولهم في بعض المعاملات عادات مخالفة للشريعة الإسلامية. ومن أصولهم مثلاً إذا أوصى أحدهم لأحد أولاده بجميع أمواله ويحرم الباقي يسوغ له ذلك، ولكن هذا في الأموال التي اكتسبها بيده. وأما الأموال المنتقلة عن الآباء والأجداد حيث إنها لم تكن كسبه فهي عائدة إلى العائلة تساوى فيها الأصول والفروع، فيجب قسمها بين جميع الورثة، ومن الأصول القديمة في ذوي البيوت من طائفة الدروز أن المرأة لا ترث أباه. ثم سرت هذه العادة إلى الجميع وصارت جارية في سائر الطوائف الموجودين في الجبل.

ومعتقدات الدروز الباطلة على هذا الوجه أنهم يعتقدون ويقولون بالوهمية الحاكم بأمره من الملوك الفاطميين الذين حكموا مصر ويعبدونه.

والحاكم بأمره هو منصور العبيدي بن عبد العزيز بن عبد المعز الفاطمي الذي ظهر في أوائل القرن الخامس. وكانت له رغبة في علم النجوم والرمل والطلسمات، فاتبعه الدروز في ذلك، واشتغلوا بتحصيل هذه العلوم ولم يعتنوا بغيرها.

وكان الحاكم بأمره في الأصل رافضياً كآلافه الملوك الفاطميين، وكان لقبه وقتئذ الحاكم بأمر الله. ثم ادعى الألوهية ولقب نفسه الحاكم بأمره. وأمر الخطباء أن يقولوا بسم الحاكم المحيي المميت عوض بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمور لا يسعها العقل والشرع، وأطوار وحركات لا يطابق بعضها بعضاً، وفي نهاية أمره كان مدعاه هذا سبباً في قتله، وقد اختلف المؤرخون في كيفية قتله. وأما الدروز فإنهم يزعمون بأنه توجه أحد الليالي وحده إلى بركة الزرقاء، ويقال لها قصبة

حلوان ومن هناك عرج إلى السماء. والحال أنه من عادته يركب حماراً أبيض يطوف عليه متجولاً، ففي أحد الأيام خرج من مصر على عادته وعند توجهه إلى ناحية بركة الزرقاء هجم عليه بغتة بعض المسلمين الذين كانوا يترصدون له الفرصة فقتلوه وطرحوه في بئر هناك، وتركوا ثيابه عند حماره ورجعوا إلى البلدة، وأخبروا بذلك أهل الإسلام، وأما أتباعه ومعتقديه الذين يتسمون (الباطنيون) فإنهم لما رأوا أنه تأخر رجوعه عن وقته، توجهوا إلى تلك الجهة لملاقاته ولما لم يجدوا له أثراً غير ثيابه وحماره زعموا أنه عرج إلى السماء.

وأول من صدق ابتداء دعوة الحاكم محمد درز وعندما أعلن ألوهية الحاكم هجم عليه عوام الناس وقتلوه، فتغافل الحاكم عن ذلك في أول الأمر وبعد مدة قتل قاتليه. وانتسبت إليه هذه الطائفة فاسم درزي مأخوذ من هذا، ثم ظهر بعده حمزة بن علي ودعا الناس لعبادة الحاكم، والذين أجابوا الدعوة اتخذوا لهم في مصر معابد سرية وعكفوا على عبادة الحاكم بأمره. وكما أنهم اعتقدوا الحاكم إلهاً اعتقدوا أيضاً أن حمزة بن علي رسولاً له، ولذلك يبالغون في احترامه ويسمون هادي المستجيبين وحجة القائم. ويبغضون محمد درز ويطعنون فيه ويقولون إنه لم يبادر لدعوة الناس رأساً لابتغائه أن يكون في محل حمزة ويغصب منصبه، وهذا يعلم من مطالعة رسالتي الدروز الموسومتين بالغاية والنصيحة.

وعلى هذا المنوال اعتقد أتباع حمزة ألوهية الحاكم وعبدوه، ولأجل عبادته عملوا في مصر معابد سرية، ولكن غلبهم المسلمون وظفروا بهم واطردوهم وأبعدوهم عن مصر، ففروا إلى الأقطار الشامية وبعضهم إلى الجبل الأعلى في نواحي حلب، وبعضهم نزلوا في حوران. وبعد تطاول الأيام تفرقوا فممنهم من جاء إلى وادي السيم، ومنهم من سكن جبل الشوف، ثم على التوالي تكاثروا وبلغوا المقدار الذي ذكرناه آنفاً فالطائفة التي يقال لها الآن دروز هي ذرية هؤلاء

وقرابتهم، وكانو يتظاهرون في زي الإسلام، وفي الباطن ينكرون الأنبياء
ويطعنون ويشنعون في حق المسلمين وفي حق اليهود والنصارى، فديانتهم
الحقيقية هي عبارة عن توحيد الحاكم، ويقولون إن سائر الأديان منسوخة.

وعندهم الفرض صدق اللسان وحفظ الإخوان بدلاً عن الصوم والصلاة،
ورعاية كل من الصداقة والصيانة مخصصة بملتهم، ولا يجوزون إجراء ذلك في
حق الملل السائرة. وهم وإن كانوا يقرءون القرآن الكريم فإنهم يؤلونه على حسب
معتقداتهم الباطلة بتأويلات مناقضة للعقل والشرع، ويأتون في ذلك بمعاني لا
يقبلها خاطر ولا تأتي على فكر. ويعتقدون قدم العالم تبعاً لبعض الفلاسفة
ويقولون بالتناسخ، ويعبرون عنه بالتقمص، ويقولون للجسد قميصاً ويعتقدون
أن روح الميت حين وفاته تنتقل إلى مولود آخر. ويتحدثون فيما بينهم أن فلاناً
كان في الوقت الفلاني فلاناً ثم دخل في القالب الفلاني، ويقولون إن هوية الحق
تعالى في كل عصر تحل في قالب وقد ظهر حلوها في هذا العالم غير مرة، وفي
آخر الأمر تجلت في الحاكم.

ويقولون باتحاد الظهور والبطون وإنه لا ينافي وحدانيته ظهوره في زمان
عزیزاً وفي زمان معزاً وفي زمان حاكماً، فلذلك يقولون إنه تجلى قبل الحاكم
بأمره في أبيه وجده أيضاً ويفسرون قوله تعالى (كل يوم هو في شأن)^(١) إنه يظهر
في كل عصر في صورة. وإن إمامهم ومقتداهم حمزة يكون أيضاً في كل عصر
في قالب فكان في زمان مسيحاً حقاً، وفي زمان سليمان بن داود، وفي زمان
شعيب وفيشاغورق الحكيم. وإن النبي الكريم هو حمزة أيضاً، وإن سلمان

١- الآية بتمامها ﴿يسئله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن﴾ الرحمن، آية ٢٩ .

٢- الآية بتمامها ﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك
من عزم الأمور﴾ لقمان، آية ١٧ .

الفارسي هو حمزة العصر المحمدي . ويزعمون أن القرآن الكريم أوحى في الحقيقة إلى سلمان الفارسي وأنه كلامه ، وأن محمداً عليه السلام أخذه عنه حتى أنهم يقولون إن قوله تعالى في الآية الكريمة ﴿يا بني اقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾^(٢) حكاية عن لقمان فيما خاطب به ابنه ، وإن ذلك خطاب سلمان لمحمد عليه السلام وإن المراد بقوله ﴿يا بني﴾ بنوة التعليم .

ويعتنون بكتمان هذه العقائد الباطلة فيما بينهم أشد اعتناء بناء على أنها من الأسرار ، وكما أنهم لا يبيحون بالأسرار إلى الأجانب عنهم فإنهم يكتمونها عن أبناء ملتهم مالم يعتمدوا عليهم ويأتمنونهم . فلذلك اعتبروا أنفسهم على قسمين قسم منهم عقال والقسم الثاني جهال ، ويجعلون نساءهم كذلك أيضاً على قسمين عاقلات وجاهلات ويقولون للعاقلة جويذة وللجاهلة غير جويذة ، ويقسمون العقال أيضاً إلى قسمين أحدهما خاصة وهم أهل الوثوق والاعتماد الذين عرفوا دينهم حق المعرفة ، والثاني عامة وهم الذين لهم بعض وقوف على ديانتهم فيحسنون الظن فيهم ويعتبرونهم كالمجتهدين . وأما عامة الجهال فإنهم لا يعرفون كلياً ولا جزئياً من أصول دينهم وليس لهم حصة ولا حظ منه سوى أنهم تحت اسم الدروز . وأينما وجد العقال منهم فإنهم يجعلون خلوات لتكون محلاً للعبادة ، وذلك أنهم يبنون دائرة ضمن دائرة ، وفي ليلة الجمعة يجتمع أهل كل طبقة وبعد أن يجتمعوا في الدائرة الخارجة ، وتتلى بعض قراءة تتعلق بالمواعظ والنصائح ، يؤتى بشيء حلو كالزبيب فيؤكل ، ثم تخرج طبقة العامة ويدخل رجال الخاصة إلى الدائرة الداخلية ، ويغلقون الأبواب ويسطون سفرة البحث والمحاورة على مسطبة الشرك والإلحاد ، ويفتح كل منهم فم سراير دينهم الباطل للآخر .

وعندم طبقة أخرى من العقال وهم أتقياؤهم. ويقال لهم المتزهون فإنهم بزعمهم على ورع شديد وعبادة كبيرة وبعضهم لا يتزوج حتى الموت، وبعضهم لا يأكل اللحم مدة حياته وبعضهم يصوم الدهر. وكان الشيخ حسين المعروف والمعتبر فيما بينهم في جبل الشوف، وهو شيخ العقال لا يأكل الفواكه إلا في أول وقت ظهورها فإنه يأكل منها مرة واحدة، ثم لا يضعها في فمه إلى السنة الآتية، ولما اعترض عليه بعض أصحابه في ذلك قال إنني أخشى أن يدخل علي الكبر إذا لم أطعمها أصلاً. وجميع العقال ولو كانوا في أيام جهلهم استعملوا المسكرات ووقعت منهم السفاهات فإنه بعد دخولهم في سلك العقال لا يستعملون المسكرات ولا يتكلمون بالفحش ولا يسرفون في الأكل والشرف، لأن الإسراف عندهم يورث نقصاً عظيماً في أخلاق الموحدين ويعتقدون أن أموال الحكام والأمراء حرام، فلا يأكلون طعاماً في بيت حاكم ولا في بيت خادمه، ولا يأكلون شيئاً نقل على حيوان قد ابتاع بمال الحاكم. ورجال طبقتهم المتزهين يحتاطون أكثر من ذلك فلا يأكلون شيئاً من بيت أحد سوى بيوت العقال وجميعهم يستحلون مال التجار كائناً من كان فلذلك إذا قبضوا مالاً فيه شبهة يأتون به إلى التاجر فيستبدلونه منه.

ومذاهب الدروز وعقائدهم على المنوال المشروح كانت مكتومة بينهم، وكانت تفاصيل ديانتهم غير معلومة، وفي سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف لما هجم عليهم إبراهيم باشا^(١) رئيس عساكر مصر في وادي التيم واكتسحهم ونهبت العساكر المصرية ومن حضر معهم من عسكر الأمير بشير حاكم الجبل ما في منازلهم، أخذت كتبهم الدينية وانتشرت في العالم وكانت كلها عربية

١- إبراهيم باشا (١٧٨٩-١٨٤٨): قائد مصري. ابن محمد علي والي مصر. دمر الدرعية عام ١٨١٨م. احتل فلسطين وسوريا ١٨٣٢م، وهزم العثمانيين في قونية وفي نصيبين. عاونه الأمير بشير الشهابي. انسحب عائداً إلى مصر بضغط من الدول الأوروبية. المنجد، ص ٢.

العبارة، ثم ترجم بعضها باللسان الفرنسي والانكليزي، وألف بعد ذلك جماعة من العلماء عدة رسائل في ديانتهم بالعربية أخذاً من تلك الكتب، ولكن لما كانت هذه الطائفة لها الاعتناء التام في أمر كتم الأسرار، حرر كتابها مقاصدهم في تلك الكتب بطريق الرمز والإشارة، فلذلك لم يهتد أحد إلى حقيقة أمرهم والذي علم منه أن أساس دينهم مبني على إبطال ظاهر الشرع وباطنه، ويذكرون عقائدهم على طريق الحكاية ويوردون فيها مباحث علم الكلام وبعض أقوال غلاة المتصوفة والأرفاض [أي الروافض] والملاحدين لا سيما فرقة الإسماعيلية من غلاة الشيعة فإنهم يعترضون على تأويلهم اعتراضاً كلياً فلهذه الأسباب المذكورة لم يطلع أحد على حقيقة ديانة الدروز كما هي.

ورئيس الفرقة الإسماعيلية المذكورة اختلف فيه، فقيل هو عبد الله ابن ميمون القداح، وقيل هو حمدان قرمط، والقرامطة ينكرون ظاهر القرآن ويزعمون أنهم يقولون بباطنه ولذلك تسموا بالباطنية. ويقال لهم أيضاً السبعية. نسبة لسبعة ناطقين بالشرائع يعني الرسل السبعة. وهم آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام والسابع الإمام محمد المهدي. وإن الشرائع فيما بين كل اثنين منهم تكون متممة ويقولون بثبوت سبعة أئمة في كل عصر عليهم مدار الاقتداء والاهتداء، فالأول إمام العصر يكون غاية في العلم والمعرفة بأدلة الدين. والثاني الحجة الحامل لعلوم الإمام، والثالث ذو المصه الذي أخذ العلوم عن الحجة، والرابع أكبر الداعين المرتب درجات المؤمنين، الخامس الذي يأخذ العهد من الطالبين ويكون مأذوناً في إدخالهم مع جماعة الإمام، السادس المكلف وهو الذي تكون درجته عالية في مذهبهم ولا يحصل على هذه الدرجة إلا بعد ما صار مأذوناً بالدعوة، وهو مثل كلاب الصيد يدل للطالب على صاحب الدعوة. السابع منيب الطالب الذي يكون دخیلاً لجماعة الإمام بالاتباع

والإنابة لصاحب الدعوى .

فهذه الأقوال التي هي خرافات محضة هي أساس اعتقاد الإسماعيلة وعليها بنوا كثيراً من التأويلات الباطلة فأولوا مثلاً الوضوء بحجة الإمام، والتميم بأخذ الإنابة من المأذون في غياب الإمام. وقد بحث الدروز في موضوع هذه المقالات وقلبوها كلها وسلكوا في ذلك أيضاً طريق الشرك والضلالة بصورة لا تشابه ملة ولا نحلة. ولما كان الوقوف (في الجملة) على عقائدهم الباطلة متوقفاً على معرفة فساد أوهام أمثالهم من أهل البدع، وكان لي سابق معرفة ومطالعة في علم الكلام نوعاً ما، أقبلت على مطالعة بعض كتب الدروز وبعض الرسائل التي كتبت عنهم وبناء على ذلك رأيت من المناسب أن نبادر لذكر تفاصيل عقائدهم مرتبة على الوجه الآتي وهو ما وصلت إليه وقدرت على استنباطه من كلا الطرفين:

فنقول قد بنى الدروز عقائدهم الباطلة على أنواع من الأوهام والخرافات، رتبوها مثل ترتيب حساب الجمل^(١) وأشكال الحروف مثلاً عدد (١٦٤) يكون إشارة ورمزاً لأصحاب حمزة ونقبائه وأعوانه وأنصاره، ويكتبون كلمة سdq، بالسين لكونها مطابقة للعدد المذكور بحساب الجمل فيقولون صادقاً وأسدق ويسمون أهل البيت المحمدي أي كافة أولاد النبي وزوجاته بحروف (كذب) بالدال المهملة فيكون (٢٦) بحساب الجمل، ويضيفون عليه عدد الخلفاء الراشدين فيكون العدد الحاصل من ذلك (٣٠) ولكون عدده مطابقاً للصاد بحساب الجمل فإنهم يطرحونه من عدد (٩٠) فيبقى (٦٠) فيكون مطابقاً لحرف السين. ويزعمون أن هذا الحساب يوجب كتابة صدق سdq.

ويقولون بالتناسخ كما سبق ذكره، ويعتقدون أن كبار عقالهم أولياء فإذا مات

١- حساب الجمل: هو حساب الأحرف الهجائية المجموعة في «أبجد...» ويقال له أيضاً حساب الأبجدية، وعليه تبنى التواريخ الشعرية. المنجد، ص ١٠٢.

أحدهم تذهب روحه إلى جهة الصين، وتحل في قالب هناك، ويزعمون أن لهم أولياء كثيرين وراء جبل الصين. ويثبتون وجود عوالم كثيرة قبل هذا العالم الانسى، منها العالم الجنى والعالم البنى، ويقولون إنه مضى قبل الحاكم بأمره سبعون دوراً، وكل دور أربعة ملايين وتسعمائة ألف سنة، ومن مبدأ الخليقة إلى عصر الحاكم مضى ثلاثمائة وثلاثة وأربعون مليون سنة، ويقولون بأن دور الحاكم هو دور القيامة، ومنتظرون في كل وقت ظهور يأجوج ومأجوج وخروجهم من داخل الصين، ويحترمونهم ويقولون إن هؤلاء القوم كرام يأتون إلى مكة بمليونين ونصف من العساكر، وفي ثاني يوم وصولهم صباحاً يتجلى عليهم الحاكم بأمره من الركن اليماني من البيت الشريف ويده سيف من ذهب يتهدد به الناس، ثم يعطى سيفه حمزة فيقتل الكلب والخنزير، ثم يهدم الكعبة ويجعل التصرف في المسكونة وحكومة الأرض إلى الدروز بوجه الحصر، ويصير جميع الخلق رعية لهم.

وتفصيل ذلك أن الناس إذ ذاك يصيرون أربعة فرق الأولى منهم الموحدون، وهم عقال الدروز ويصيرون سلاطين ووزراء وحكام، والفرقة الثانية أهل الظاهر وهم المسلمون واليهود، والفرقة الثالثة أهل الباطن وهم النصارى الشيعة، والفرقة الرابعة وهم المرتدون وهم جهال الدروز. ويقولون إن حمزة يدمغ كافة الطوائف بأيديهم وضع عليهم الجزية، ما عدا عقال الدروز الذين يعدونهم موحدين. وأنه يحتقر الطوائف ويعاملهم بمثل هذه الحقارات، وأما عقال الدروز فإنهم يصيرون أصحاب سلطنة وثروة ويسار على الوجه المشروح وجهال الدروز يكلفون بأنواع المشقات والعذاب الشديد زيادة على سائر الطوائف لكونهم من أهل الإيمان ومع ذلك فإنهم لم يسلكوا طريق التوحيد.

ومرادهم من الكلب والخنزير الناطق والأساس ويفهم من رموزهم أنهما أي الناطق والأساس مظهران، وفي زعمهم أن الشيطان غير إبليس، ويقولون إن الناطق إبليس والأساس الشيطان الحالي. ومن إلحادهم وأقوالهم الفاسدة أن الناطق ظهر أولاً في آدم ثم انتقل إلى نوح ثم إلى إبراهيم ثم إلى موسى ثم إلى عيسى ثم إلى محمد ثم إلى سعيد بن أحمد المهدي، ويعدون هذا المهدي في سلك أولي العزم من الرسل. ويطلقون كلمة الناطق على هؤلاء السبعة ويثبتون في عصر كل منهم أساساً، فالأساس على هذا الوجه ظهر أولاً في شيث بن آدم فهو أساس آدم ومنه انتقل لسام وبعده إلى اسماعيل ثم إلى هارون ثم إلى شمعون ثم لعلي بن أبي طالب ثم في العصر السعيد إلى قداحه.

وفي زعمهم أن الناطق هو صاحب الشريعة الظاهرة، والأساس هو صاحب الشريعة الباطنة، وعندما ظهر الحاكم بأمره نسخ الشريعتين المذكورتين وصار توحيده وعبادته عوضاً عنهما، وبسبب اعتقادهم هذا يسمون أهل السنة الذين هم أهل الظاهر في اصطلاحهم منكبين وكافرين، وأهل الباطن الذين هم شيعة مشركين، وعلى هذا الوجه تكون سائر التكاليف الظاهرة والباطنة منسوخة. مثلاً اعتقاد أصحاب الرفض والإلحاد الباطل أن الصلاة عهد مألوف، وهي عبارة عن الصلة ورابطة المحبة فيما بين حضرة علي رضي الله عنه وتابعيه ومحبيه، ويقولون إن الذي يصل إلى هذه المحبة يقتضي أن يكون بريئاً من محبة حضرة الشيخين رضي الله عنهما، ويقولون إن المراد بالفحشاء والمنكر في قوله تعالى ﴿إِن الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١) أبو بكر وعمر. وإن الزكاة عبارة عن التولي والتبري، والتولي هو محبة علي وأولاده والتبري هو بغض أبي بكر وعمر وعثمان وتابعيهم وسائر أصحابهم. فهذه العقيدة الفاسدة هي أساس اعتقاد المتأولة.

١ - سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

وأما الدروز فكما أنهم ينكرون هذه العقيدة التي هي من عقائد الروافض الكاسدة، كذلك ينكرون الصلاة والزكاة الشرعيتين أيضاً، ويزعمون أن الحاكم بأمره نسخ الشريعة الظاهرة والباطنة، وصارت الصلاة الحقيقية عبارة عن تصديق ألوهيته وعبادته وتعظيمه، ويزعمون أن الزكاة معناها تطهير القلب في الظاهر والباطن والحاصل أنهم يقولون بسقوط كافة العقائد الإسلامية. ينكرون سائر الأديان وجميع ما ظهر من كفریات أصحاب الرفض والإلحاد وبدعهم، وينكرون أيضاً كافة التكاليف الدينية الثابتة بالنصوص القرآنية ويذهبون إلى طريق مسدود لا منفذ لها، وهي طريق الشرك والإلحاد الخارج عن جميع الطرق كما يستفاد ذلك من مطالعة الرسالة المسماة النقض الخفي.

ويعتقدون أن آدم نبي كريم، إلا أنهم بسبب اعتقادهم التناسخ ينكرون خلقه من التراب ويقولون بوجود ثلاثة كل منهم آدم، ولهم أب وأم كسائر الناس، أولهم آدم الصفا، وهو آدم النبي الكريم، والثاني آدم العاصي، والثالث آدم الناسي، وهما خليفتا آدم الصفا، وله مما عداهما أصحاب ونقباء ودعاة وأن الملائكة الكرام عبارة عن هؤلاء. وأن الضد الذي لآدم هو إبليس، وأن الشيطان من أصحاب إبليس، ويفسرون الآيات القرآنية بحسب اعتقاداتهم بالمعاني الباطلة التي لا تخطر على خاطر ولا خيال، ويقولون إن آدم الصفا قام بدعوة التوحيد في الأدوار الأخيرة، وفي ذلك الوقت كان لم يتسم بآدم وأن ظهوره كان في دور عالم الجن الذين كانوا يعبدون العدم. وكان الحاكم بأمره في ذلك الوقت بحسب بشريته أي في حيثية وجوده في القلب البشري اسمه باري، وقول الفرس باري خدا مأخوذ من ذلك. وأن آدم هذا أصل مولده في مدينة آدمينية في بلاد الهند، وكان اسمه شطنيل واسم أبيه دانييل، وكان يتظاهر بطب الأجسام وفي الحقيقة طبيب الأرواح مع علوم التوحيد.

ثم خرج على هذه الحال من بلده وأتى إلى صرته من بلاد اليمن، ومعنى

صرنه في العربي المعجزة. ولما دخل البلدة المذكورة ورأى أهلها مشركين دعاهم إلى توحيد الباري، فانقسموا إلى فرقتين فأجابت منهم فرقة فصاروا موحدين، وفرقة بقيت على الشرك، فشطنيل الحكيم قال للموحدين من ذيك الفرقتين (١) «بينوا» عن المشركين أي أبعدوا عنهم فامثلوا أمره وتباعدوا عنهم وظهرت البينونة بينهما فقبل بن فظهر دور البن.

وفي عالم الجن دعا إبليس الناس أيضاً إلى توحيد الباري، وكان اسمه الحارث واسم أبيه الترماح، وأصله من أصفهان وهو أيضاً كان يسكن بلدة صرنه ولما أظهر الباري شطنيل الحكيم إلى الوجود لتوحيده كما ذكر أمر الملائكة يعني دعاة توحيد الباري بالسجود أي بالطاعة والتذلل إلى شطنيل فامثلوا هذا الأمر وصاروا أصحاب شطنيل وأركان حزبه ونقباء دعوته، إلا الحارث بن ترماح الأصفهاني فإنه ادعى قدمه في خدمة الدعوة، وقال خلقتني من خالص النار يعني من عالم الحقائق ونور الدعوة، وخلقت شطنيل من المشاورة التي هي بمثابة التراب، وإنك أخرجته للمذاكرة مع أصحابه وأتباعه، فاستكبر وأبى أيضاً امتثال الأمر بترك الأكل من الشجرة واستنكف عنه، فأخرج من دائرة الدعوة التي هي بمثابة عين الجنة وأسقط إلى الأرض أي من أركان التوحيد وكافة الحدود.

ثم لما بادر شطنيل إلى دعوة التوحيد بعد ترتيب الحدود على الوجه المشروح قيل له آدم يعني إمام ركن الدعوة، ثم إن المجيبين لهذه الدعوة لما بشروا بآدم سمو بشراً، وبسبب قولهم التوحيد صار لهم أبا في أمر الدين فسمى أبو البشر، وحيث إن زوجته حوا أرضعت المؤمنين لبان العلم الحقيقي وربتهم به صارت أم البشر، ولما أرسل آدم أصحابه ودعاه إلى الجهات وباشر أمر الدعوة قام الحارث الأصفهاني ضدّاً له فقيل له إبليس، فعلى هذا الوجه سار الناس بالضرورة على

١ - كتبها المترجم بيشوا، وهو خطأ مطبعي، إذ ورد في النسخة التركية بينوا.

قسمين. وأمر آدم أتباعه بالتبري من إبليس ومن قومه الذين هم الجن. فكان أتباع آدم إذا لقي بعضهم بعضاً قال له (اهجر وحزبه) يعنى اترك إبليس وقومه وتباعد عنهم، ولذلك سميت بلدة صرنه هجر. وشريعة آدم شريعة لطيفة التوحيد وظهر من بعدها كثير من الشرائع التكليفية.

وفي النهاية [في زعمهم] ظهر حمزة بن أحمد الصفا الذي هو آدم هذا العصر، وشريعته عبارة عن الدعوة إلى التوحيد، ثم قالوا إن أمر الدعوة رجع إلى حالته القديمة ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾^(١) فآدم الصفا هو شطنيل المذكور، وحين أمر بالدعوة على ما ذكر كان أصحابه ونقباءه اثني عشر نفرًا وهؤلاء الأنفار كلهم كانوا حدود شريعته وملائكة دعوته. فأولهم أخنوخ البصري، والثاني شرح المنسوب إلى بلدة (سرمن) وسمى شيئاً، وكلاهما خليفة آدم هذا وأما آدم الثاني الذي ذكر في القرآن أنه عصى ربه^(٢) المراد به أخنوخ المذكور. وأما الثالث الذي ذكر في القرآن بقوله تعالى ﴿فنسى ولم نجد له عزماً﴾^(٣) فهو شرح المسمى شيئاً. فانتخب آدم الصفا هذين الاثنين من بين أصحابه ونقبائه وأقامهما مقامه في أمر الدعوة، فقبل لهما آدم أيضاً وأسكنهما في جنة الدعوة إلا أن أخنوخ بسبب تقدمه في الترتيب صار بمثابة المذكر وشرح بمثابة المؤنث، وأخذت العهود الجديدة من شيء بأن لا يعبد غير الباري، وأن لا يخالف أمر شطنيل وأجريت الوصايا الشفاهية إلى أخنوخ أيضاً. وخاطب الباري أخنوخ فقال له اسكن أنت وأخوك شيء في جنة الدعوة، وتنعموا بنعم الفضائل والراتب ولا تقربوا هذه الشجرة أي لا تدعوا مرتبة شطنيل ورفعته فتكونا من الظالمين، أي تكونا من الذين نقضوا العهد وأغواهم الشيطان وأنزلهم عن رتبهم.

وتفصيل هذه [في زعمهم] أن الشيطان واسمه هبل أمر بالدعوة من جانب إبليس، وكانت الحية رجلاً اسمه أنيل من دعاة أخنوخ، وكان طلوس أيضاً أمر

١- سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

٢- سورة طه، الآية: ١٢١ ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾.

٣- سورة طه، الآية: ١١٥.

بالدعوة من جانب أخنوخ واسمه طابوح. وكان هبل يتردد دائماً على أنيل وطابوح. فقال لهما يوماً عندي نصيحة أريد أن أبديها إلى سيدنا أخنوخ وأخيه شيث تعود عليهما بالخير فأرجو منكم أن تتمكنوني من الدخول عليهما، فأدخلهما على أخنوخ وشيث. فلما رأى أخنوخ هبل قال له أظن أنك عدلت عن الكفر والنفاق وعن معاونة إبليس فقال هبل (لا وحق البار) ولكن أتيت في نصيحة لكم. وذلك بلغني أن مولانا البار كان يقول إن الإمامة لأخنوخ وأن شرح خليفة فعلي هذا يكون شطنيل قد غدركم، وقصدي المجرد تذكيركم بهذه القضية لأنني أحب خيركم، فاغتر أخنوخ بكلام الشيطان وادعى الإمامة ونصب شيئاً خليفة نسي العهد وقبل الخلافة، وحيث إن أخنوخ ادعى الرتبة التي ليست له ووافقه عليها شيث فنودي بين المجبيين أن أخنوخ اغتر بكلام هبل وعصى إمامه، ولما ظهر عيبهما للوجود أظهر الندامة وبكى بكاء كثيراً، ثم عفا البار عن جرمهما بشفاعة شطنيل، وأعاد لهما حالتهم السابقة وقالوا إن الكلمات التي في آية ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾^(١) حروفها خمسة وهي تشير إلى شطنيل لأن حروفه خمسة أيضاً.

والذي نقول له عالم الإنس [في زعمهم الباطل] هو دور آدم هذا، وكان جناب البار يتلطف بمخلوقات هذا الدور ويرحمهم إلى أن تغيرت نياتهم ومالوا إلى الشرك، فعند ذلك نزع منهم نعمه وألطافه، وأرسل إليهم نوحاً بشريعة تخالف شريعتهم ودعاهم إلى عبادة العدم وترك توحيد الصنم، وقال لمن آمن ظافراً ولمن لم يؤمن كافراً، وتشبه بآدم الصفا في نصب الأركان والنقباء، وكان له اثني عشر صاحباً وخليفة وكان ابنه سام أساس أمره، ثم ظهر بعد ذلك إبراهيم ابن آزر واسم آزر أخنوخ فظهر وغير شريعة أبيه وشريعة نوح ونصب إسماعيل أساساً لدعوته. وكان له أيضاً من أركان الدعوة اثني عشر وثلاثين داعياً يدعون الناس إلى عبادة العدم وترك توحيد الصنم وطاعة إبراهيم، ويسمون من آمن

١ - سورة البقرة، الآية: ٣٧.

وقبل ذلك مؤمناً ومن لم يقبل كافرًا. ثم ظهر بعد ذلك موسى فغير شريعة إبراهيم ونصب هارون أساساً لدعوته وكان له أيضاً اثني عشر صاحباً يدعون إلى غائب غير معروف إلى طاعة موسى، ثم بعد ذلك ظهر عيسى فغير شريعة موسى ونصب شمعون أساساً لدعوته وكان له أيضاً اثني عشر صاحباً سمّاهم الحواريين، وكانو يدعون الناس إلى عبادة العدم وترك توحيد الصنم وإلى طاعة عيسى وإلى اعتقاد أنه الولد المعنوي للوالد الكلبي الذي هو الحجة القائمة، لكن لم يفهم أكثر الناس كلامه ورموزه فسمى من آمن به وقبل منه ذلك مؤمناً، ومن لم يقبله كافرًا.

ثم ظهر بعد ذلك محمد بن عبد الله بالسيف [في زعمهم الباطل] فنسخ كافة الشرائع ووضع على أصحابها الجزية، ونصب علياً أساساً وكان له اثني عشر ركنًا هم أركان شريعته وهؤلاء هم الخلفاء الأربعة وبعض الأصحاب المتمازين وأحدهم هو معاوية وكان بعد عثمان بالترتيب، ولما كان علي أساساً عزله إلا أن معاوية قال له إن حضرة محمد نصبني قبل أن ينصبك، فلذلك عارضه وادعى الخلافة بعد عثمان. وقيل لمن قبل شريعة محمد مؤمناً ومسلماً ومن لم يقبلها كافرًا وشقياً ووضع في الأسر والجزية. والحال أن القيام بالسيف وإبطال سائر الأديان مخصوص بحجة القائم وصاحب القيامة الذي مع إقرار أصحاب الشرائع التكليفية أحدهم للآخر يلزمه أن يقي أتباعه من الغدر.

فيعلم من هذه الأحوال المتناقضة أن كافة النطقاء تشبهوا بصاحب القيامة وقلدوه مع أنهم في الحقيقة شيء واحد، وإنما صوره مختلفة. ثم ظهر بعد ذلك ناطق واسمه سعيد المهدي وأساسه قداح وبهما تمت العصور وظهر دور القيامة، وقالوا إن المراد من الشيء النكر المذكور في آية ﴿وَيَوْمَ يَدْعُو الدَّاعِيَ إِلَى شَيْءٍ نَكَرٍ﴾^(١) هو عبادة الحاكم التي دعى إليها في هذا الدور وينكرها جميع النطقاء وأصحابهم. وأتباعهم ثم إنهم يفسرون هذه الآية على حسب تفسيرهم سائر الأديان بزعمهم الباطل بما لا أساس له ولا معنى.

١- سورة القمر، الآية: ٦.

هذه خلاصة عقائد الدروز الباطلة وهي عبارة عن خرافات عجيبة وأساطير غريبة، ولم نر من تصدى لجرحها وإبطالها وذلك لأن كل من له أدنى شعور وإدراك يجزم ببطلانها، وإذا تأملنا في حالتهم الخاسرة بالنظر إلى قوله تعالى ﴿ومن يضلل الله فما له من هادٍ﴾^(١) نقول بخلوص القلب الحمد لله على دين الإسلام الذي منَّ الله به علينا من ألطافه الأزلية وهو الدين المبين المحمدي ونجتهد في أداء فريضة الشكر وفي إهداء أكمل الصلوات والتحيات إلى خاتم الأنبياء وآله وأصحابه وأتباعه.

ومبادرة العلماء في كتب العقائد إلى سرد بعض المذاهب الباطلة والتصدي إلى جرحها وإبطالها إنما هو لأجل أن يعلم بطلانها فيتجنب عنها، وأما مثل هذه العقائد التي لا أصل لها ولا فصل فهي بديهية البطلان، وما ذكرناها إلا لكونها من قبيل الخرافات والغرائب، ولنبين لأهل البصيرة أن أولئك القوم سقطوا في مهواة الضلال والخسران بأمر خسيس جداً، فيحمدون الله على نعمة الإسلام ويشكرونه تكراراً على ألطافه وإرشاده. ثم إن في بر الشام مذهباً آخر أغرب وأعجب يقرب من عقائد الدروز يقال له المذهب النصيري، وقد رأينا من المناسب أن نذكره إجمالاً في هذا المقام:

كيفية ديانة النصيرية

هؤلاء النصيرية يسكنون في الجبال الكائنة في جهات اللاذقية وطرابلس الشام، ويوجد منهم أيضاً في دمشق الصالحية، وهم أيضاً فرقة من الباطنية، يجرون التقية مثل الدروز، أي يخفون مذهبهم وديانتهم ويظهرون حالهم أنهم إسلام ولهم عقال وجهال أيضاً، ويقولون بالتناسخ نظير الدروز، ولكن عند

١ - سورة الزمر، الآية: ٢٣.

النظر في تفاصيل وتفاريع عقائدهم يوجد بينهم فرق كلي . وهو أن الدرّوز عندهم العفة ويجتنبون الدناءة . وأما النصيرية فإنهم يعتقدون أن الزنا مباح وإذا أباحت المرأة فرجها يكمل إيمانها .

ثم قالوا إن ذلك مخصوص بعقالتهم ، وأما الجهال والعزّاب فمن اللازم أن يتجنبوه ، والنصيرية منقسمون إلى فرق متعددة فبعضهم يعتقدون أن النساء في درجة سائر الحيوانات ، وأنهن لا نفس لهن وبناء عليه فلا ثواب لهن ولا عقاب عليهن بالكلية .

والدرّوز يقولون إن الأرواح الإنسانية تنتقل من إنسان إلى إنسان آخر من أهل ملته ، بمعنى أنها تنتقل إلى قالب من قوالب تلك الملة فروح الدرّزي مثلاً تنتقل إلى درّزي وروح المسلم إلى مسلم ، وهكذا من أي دين كان فهي تنتقل إلى جسد من أهل ذلك الدين . وإذا تنصر الدرّزي مثلاً أو صار مسلماً سنياً ومات على ذلك ، فذلك دليل على أن والدته زنت به قطعياً ، لأنهم يقولون إنه بظهور الحاكم سد الباب فالذي آمن والذي بقي بقي ، وانقطع الأمل ولم يبق لأحد وجه أن يخرج من دينه فإذا خرج أحد فهو في أصله ليس من أهل دينه .

وأما النصيرية فإنهم يعتقدون أن الأرواح الإنسانية تحل في البهائم والحشرات وربما في المعادن أيضاً ، وفي زعمهم أن مدار تفاوت الموتى يكون في الشأن والحال الذي كان عليه من التقوى والعصيان ، وأما من يكرم الضيفان ويؤدي حقوق الغرباء فروحه تحل في أجساد بشرية على حسب مرتبته ، فإن كان من الطبقة العليا أي من الأبرار تحل روحه في أولاد الملوك والسلاطين ، وإن كان من الطبقة السفلى تحل فيمن هو أدنى منهم ، وإن كان شريراً فإن روحه تحل في الحيوانات كالكلب والخنزير الذي صادفت ولادته وقت وفاته ، وإن كان يستحق عذاباً شديداً فروحه تحل في معدن كحديد مثلاً يحرق بالنار . وحيث إن دور الروح هذا إنما هو لأجل المجازاة فإنها تتكرر على هذا المنوال إلى أن تكتسب الصفاء فإذا كملت تكون نجماً في السماء .

وأما إلحادهم وزعمهم الباطل فيما يتعلق بالألوهية والنبوة فلا يشبه عقيدة أمة من الأمم مطلقاً، وذلك أنهم يقولون إن الألوهية لهايل ومنه حلت في شيث، وإن آدم كان نبياً كريماً، وإن الألوهية انتقلت بعد ذلك إلى إسماعيل والنبوة إلى إبراهيم ثم انتقلت إلى موسى ثم إلى عيسى ثم إلى سيدنا محمد بن عبد الله، وبالمثل انتقلت الألوهية إلى هارون ثم إلى شمعون المعروف بين النصارى بطرس ثم إلى علي بن أبي طالب واستقرت فيه، إلى أن التف بالحلة وصعد إلى السماء وحل في الشمس، وإنه موجود في الشمس إلى الآن، وإن الكواكب التي في السماء هي أرواح كبار عقال النصيرية، فلذلك يسجدون للشمس حين طلوعها وغروبها ويحترمون الكواكب، وفي أدعيتهم يطلبون حاجاتهم من العلي الأعلى بالتوسل بحرمة الكواكب الزاهرة، ويدعون المقداد بن أبي الأسود أحد الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) برب الناس، ويقولون إن علياً خلق محمداً، وإن محمداً خلق سلمان الفارسي، وإن سلمان خلق المقداد وإن المقداد خلق سائر العباد. وليس لهم معابد كالجوامع والكنائس بل يجتمعون كل وقت في بيوتهم، وتأتي إليهم العقال والمشايخ ويتلون عليهم القصص والخرافات والأباطيل، ويقولون عن ذلك اليوم يوم عيد. ولهم محل مخصوص محفوظ في بيوتهم لجمعية هذه الأعياد لا يدخلها غيرهم ولا يقف على أمرها أحد، وعلى الفرض لو دخلها غيرهم فإنهم يسعون في قتله وإخفائه من دون أن يشعر به أحد ولهم عيد ميلاد وعيد رأس السنة مخصوص بهم، وأما العيد الأكبر عندهم فهو اليوم الرابع من شهر نيسان ويدعونه بالنيروز.

والحاصل أنهم يشبهون الدروز في جهات عديدة، ويشبهون المجوس بعبادتهم الشمس وتعظيمهم وتلقبهم للكواكب. ويشبهون النصارى في بعض أشياء كتعظيمهم لبطرس واستعمالهم الخمر في الجمعيات الدينية وتحليل شربها وموافقتهم لهم في بعض الأعياد، ويشبهون الروافض في غلوهم في تعظيم

حضرة علي رضي الله عنه والأئمة الاثني عشر، وأما في حقيقة الأمر فإن أحوالهم تخالف الجميع وأطوارهم خارجة عن أطوار كافة الملل حفظنا الله من شرور عقائدهم.

كيفية ظهور الظاهر عمر وظهور الجزار وشهرته

في بر الشام وبعض حروبه فيه

إن النفوذ والاستقلال الذي اكتسبه الشيخ ظاهر عمر^(١) في بر الشام منقول على هذا الوجه: وهو أن رجلاً اسمه زيدان جاء من المدينة المنورة إلى صفد، فأولد عمر، وعمر أولد الظاهر هذا. ومن عادة أهل الشام أن يضيفوا اسم الابن للأب ف قيل له ظاهر عمر بالطاء المعجمة، واشتهر في سائر الجهات بظاهر بالطاء المهملة وهو غلط. وبعد انقراض أولاد معن دخلت ديار صفد في يدي بني شهاب، وفي ابتداء أمرهم تولى ظاهر عمر حاكماً على تلك الديار من طرفهم، ثم صار أمره ينتقل يوماً فيوماً إلى أن اكتسب الاقتدار والثروة فصار متصرفاً في كافة بلاد عكا وصيدا ويافا وحيفا والرملة ونابلس وصفد. وجعل عكا مركز إمارته وولى أولاده على النواحي فكانت صيدا وصفد تحت ولاية ابنه علي الظاهر، وكانت مشايخ بني متوال أصحاب بلاد بشارة تحت أمره.

وعندما عصى علي بك في مصر على الدولة العلية على ما ذكرناه سابقاً كان الظاهر عمر ممن اتبعه وعندما خرج علي بك مغلوباً من مصر وجاء إلى عكا دخیلاً عليه واستمد من الروسيين لأجل الاستيلاء ثانية على مصر، وجلب الأسطول الروسي الذي كان في البحر الأبيض إلى عكا، وفي تلك الأثناء وقعت العداوة بين بني شهاب وأولاد ظاهر عمر، وسيقت العساكر من الشام عليه،

١ - سبق حديث المؤلف عنه في الفصل الخاص بتاريخ مصر والشام.

وصار علي بك مضطراً إلى إعانة ظاهر عمر بسوق العساكر المصرية التي في معيته
براً وسوق الأسطول الروسي الذي جلبه بحراً إلى الجهة الثانية.

وتفصيل هذه القضية على هذا المنوال حسب ما سبق من أخبار الجزائر^(١) وهو
أنه فر من مصر وجاء إلى دار السعادة، ثم توجه من دار السعادة إلى حلب ومنها
إلى الشام ولما لم يجد فيها سبباً لتعيشه جاء إلى بيروت ومنها إلى دير القمر،
وذلك في سنة ١١٨٤، فتلقيه الأمير يوسف الشهابي حاكم جبل (لبنان) الدروز،
وأجرى له زيادة الاحترام، وبعد إقامته مدة عنده عاد إلى دمشق وبعد أن أقام مدة
هناك يرتكب السفالة بلا دراهم، توجه إلى مصر في زي أرمني، وبعد أن بات
في بيته ثلاث ليال أخذ المال الذي في بيته وجاء مرة أخرى إلى الشام.

وفي سنة ١١٨٥ هـ في خلال إقامته في الشام وجد فرصة العداوة التي ظهرت
فيما بين أولاد ظاهر عمر والدروز على المنوال السابق، وكان إذ ذاك عثمان باشا
مصرلي [أي المصري] نُصب سر عسكر جانب الشام، فجاءه الأمر باستخلاص
صيда من ظاهر عمر بالاتفاق مع الدروز. فجمع العساكر الكثيرة وعين خليل
باشا متسلم القدس سابقاً قائداً للعسكر وأصحابه بأحمد بك الجزائر، فخرجوا من
الشام وفي قرب صيدا اجتمع بعساكر الدروز وتهيأوا للهجوم على صيدا، وكان
علي بن ظاهر عمر جهز جيشه مع العساكر المصرية التي جاءت مع علي بك
وخرج من عكا للمقابلة، وعند تقابل الفريقين في المحل المسمى سهل الغازية
قرب صيدا وقع القتال بينهما فكان الغلب للأشقياء ورجعت عساكر الدولة العلية
إلى الشام ورجع الدروز إلى الجبل. وفي أثناء ذلك جاء الأسطول الروسي على
حين غفلة إلى ميناء بيروت وألقى مراسيه، وهذا هو الأسطول الروسي الذي جلبه
علي بك إلى عكا لأجل أن يسترجع استيلاءه على مصر مرة أخرى، ولما عرض

١- أحمد باشا الجزائر (١٧٢٠-١٨٠٤م): والي صيدا والشام. استقر في عكا. لقب بالجزار لفتكه
في البدو في مجزرة بلغ ضحاياها الآلاف. حصّن عكا وقاوم حصار بونايرت بمساعدة الأسطول
الإنجليزي ١٧٩٩م. وقتل الأمير يوسف الشهابي. المنجد، ص ٢٠٠.

أمر العداوة بين الدروز والظاهر عمر على الوجه المذكور خرج من عكا إلى جهات صيدا لأجل المحافظة عليها، وعندما انكسرت جموع الدروز مع العساكر جاء الأسطول الروسي المذكور لإسكلة بيروت صباحاً حينما كان كل شخص في قراش نومه، وعند وصوله أخرج قائده مقداراً من العساكر إلى البلد ونهبوا بعض البيوت والخانات ثم عادوا لمراكبهم.

والأمير منصور الذي أقام حاكماً على الجبل مدة أربع وعشرين سنة وترك الحكومة إلى ابن أخيه الأمير يوسف كان مقيماً وقتئذ في بيروت، ولما رأى الأسطول الروسي جاء بغتة كما قلنا وأرسى في إسكلة بيروت استصحب جماعة من بني شهاب وفر منها. ثم إنه لما كان بينه وبين ظاهر عمر من الحقوق القديمة والمودة المستديمة دس إليه بإعطاء خمسة وعشرين ألف ريال^(١) إلى قائد الأسطول إذا هو أفلح عن بيروت، فأجابه إلى ذلك وأعادته إلى عكا. ولما كان مجيء الأسطول على هذا الوجه سبباً لضرر الأمير يوسف استدعى وأنهى إلى عثمان باشا يطلب إعانته بقدر من العساكر مع أحمد بك الجزار، لأجل المحافظة على بيروت فأرسل كاخيته^(٢) والجزار معاً إلى بيروت مع العسكر، وحيث إن بيروت وقتئذ كانت في يد بني شهاب فسلم الأمير يوسف قلعة بيروت إلى الجزار وجعله محافظاً عليها، وأحضر من كان فيها من المحافظين وسائر المأمورين وأمرهم أن يكونوا تحت طاعة أمره. ثم إنه أخذ الجزار والمغاربة الذين أتوا معه وتوجه إلى بلاد جبيل، لأجل تأديب مشايخ بني حمادة الذين عصوه في أثناء ذلك. وبإتمام المصلحة وعودته إلى بيروت لم يعد من حجة لإقامة كاخيا بك والجزار بها، وعندما صار وقت رجوع الكاخية إلى الشام تذاكر الأمير يوسف مع عمه الأمير منصور في إبقاء الجزار محافظاً على بيروت، فلم يوافق على ذلك، وأخبره أن

١- ريال: سكة من فضة بقيمة خمسة وعشرين قرشاً. الدراري اللامعات، ص ٢٧٨.

٢- الكيخيا أو الكتخدا: المعتمد والوكيل. معاني لهجة، ص ١٥٢٤.

أطوار الجزار لا تعجبه، وقال له لا ينبغي لك أن تأمنه على أمرك وإذا استقر في بيروت وثبت فيها لا تقدر بعد ذلك على إخراجه وأوصاه واستنسب إرسال الجزار إلى الشام، فلم يسمع الأمير يوسف نصيحة عمه وأبقى الجزار في محافظة بيروت وعندما عاد كاخيه بك إلى الشام، وبقي الجزار في محافظة بيروت صار مالكا زمام أمور المدينة .

وبهذا الأثناء ظهر تكراراً للوجود اسم الجزار ونظراً لما بينه وبين أبي الذهب من العداوة كما تقدم ذكره لم يرض بوجوده في هذه الجهات . وفي أثناء سنة ١١٨٦ هـ كتب مكتوباً خفية إلى الأمير يوسف ذكر فيه الجنايات التي وقعت من الجزار عندما كان في مصر، ووعد بمائتي ألف ريال إذا قتله وأرسل رأسه إلى مصر . وكان الجزار في هذه المدة صار معروفاً عند الدولة العلية منظوراً إليه، فلم يقدر الأمير يوسف أن يجيب إلى ما طلبه أبو الذهب وكتب إليه مكتوباً يتضمن الاعتذار قائلاً فيه إنني أخاف من تكدير الدولة العلية وعتابها .

ومن بعد ذلك شرع الجزار في ترميم ما انثلم من قلعة بيروت وإحكام أركانها ولما رأى الأمير يوسف انهماك الجزار في هذا الأمر وحرصه عليه حصلت عنده الشبهة، ولاحظ أنه في نهاية استحكامات القلعة يكون إخراجه من هناك متعذراً، فحرر إليه بأن يترك تعمير القلعة ويذهب إلى الشام قائلاً له إنني أتعهد إلى الدولة العلية بمحافظه القلعة، فلم يسمع لذلك ولم يعمل به بل زاد اهتمامه بأمر القلعة وتحصينها أكثر عن الأول، ومنع أهالي الجبل المسلحين أن يدخلوا إلى القلعة، فعندها تحرك الأمير يوسف بالعساكر على بيروت، ولما اتصل ذلك بالجزار وصار معلوماً عنده أرسل خبراً إلى الأمير يوسف يطلب الملاقاة معه في محل لأجل قطع مادة المخاصمة، وأنه يكون هو مع بعض أتباعه والأمير يوسف مع بعض المشايخ أيضاً، فعلى هذا الوجه جاء الأمير يوسف مع جماعة قليلة وتلاقى معه قرب بيروت فتلطف في المراجعة، وأقنع الأمير يوسف بأنواع

الدسائس وأخذ منه مهلة أربعين يوماً، وأنه بعدها يترك بيروت ويتوجه إلى الشام. وبناء على المقابلة^(١) التي جرت بينهما في ذلك عاد الأمير يوسف إلى الجبل فرجع الجزار إلى بيروت واجتهد ليلاً نهاراً. وبعد أن أتم كافة لوازم القلعة ومهماتهما في مدة ٤٠ يوماً، جاءه أمر الأمير يوسف بالرجوع إلى الشام إنجازاً لوعده الذي وقعت عليه المقابلة، فأظهر الخلاف ولم يلتفت لأمر الأمير يوسف المذكور وصار حيناً بعد حين يخرج بالمغاربة الذين في القلعة وينهب البلاد والقرى التي في الخارج.

وبناء على ذلك جاء الأمير يوسف بالعساكر الجرارة وحاصر بيروت براً، واستنجد الظاهر عمر فأنجده واستعدى الأسطول الروسي الذي كان وقتئذ في قبرص، ووعد رئيسه بستمائة كيس^(٢) عند استخلاص بيروت من يد الجزار، فحضر الأسطول وأخذ يرسل قلله على بيروت بحراً. وأمست محصورة براً وبحراً واتصل ذلك مدة أربعة أشهر، واشتد الأمر ولم يبق أثر للذخيرة، فاضطر الجزار حينئذ إلى تسليم القلعة بواسطة الظاهر عمر على شرط أن لا يحصل له ولرجاله ضرر، ولما وقع الاتفاق على ذلك سلم القلعة إلى معتمد من رجال الظاهر عمر، وهو سلمها إلى الأمير يوسف، وذهب الجزار بعد ذلك إلى عكا مع جماعة الظاهر عمر، وأجرى له الظاهر عمر الرعاية الزائدة وأعطاه ما يحتاجه من الدواب والمواشي وأرسله معززاً إلى دمشق الشام. وبعد وصوله إليها احتاط على الدواب المذكورة وامتنع عن ردها وإعادتها إلى الظاهر عمر. ثم إن الأمير يوسف بعد أن دخل بيروت غرّم أهاليها ستمائة كيس ودفعها إلى قومندان [أي قائد] الأسطول وفاء بشرط المقابلة.

١- المقابلة: كلمة مستخدمة في اللغة التركية بمعنى المفاهمة والاتفاق. وهي كلمة أقرّ مجمع اللغة العربية باستخدامها في العربية بمعنى: اتفاق بين طرفين يتعهد أحدهما للآخر بعمل معين بأجر محدد. المعجم الوسيط، ص ٧٦٧.

٢- كيسه: مبلغ من المال يعادل ٥٠٠ قرش. معاني لهجة، ص ٦١٢.

والعداوة التي كانت منذ زمن بين الأمير يوسف والظاهر عمر قد تبدلت في هذه القضية بالمحبة، وفي خلال ذلك افترس الظاهر عمر في طلب العفو عن قصوره، فخابر في ذلك عثمان باشا والي الشام ووعد بدفع ألف كيس من بقايا أموال إيالة صيداً، وبعد ذلك يدفع في كل سنة على وجه المقطوع أربعمائة وخمسين كيساً واشترط في ذلك أن تعفو الدولة العلية عن جرمه. وقد وجد بين الإعلانات التي نشرها والي الشام في الجهات وقتئذ بوفاة حضرة السلطان مصطفى^(١) إعلان أرسله عثمان باشا إلى الأمير يوسف من جملة ما فيه أن الظاهر عمر عرض انقياده للدولة العلية وأنه صار إنهاء الكيفية من طرفنا إلى الدولة العلية في ذلك وإنني تعهدت له بأنها تعفو عنه. وكذلك الظاهر أرسل مكتوباً أيضاً إلى دار السعادة طلب فيه العفو عن قصوره وعرض أن البرودة التي كانت بينه وبين وكيل عثمان باشا سر عسكر [أي قائد الجيش] هذه الجهات زالت والغيت، وهكذا صار إنهاء الكيفية والإشعار من طرف عثمان باشا على المنوال المذكور فأجابته الدولة العلية إلى ذلك، وصدر قبول الإنهاء من طرفها، وحصل حسن الوفاق في الأقطار الشامية، واتحدت كلمة الطاعة في كل طرف وانصرفت الغائلة.

غير أن هذه المحبة والاتحاد لم تطل مدتها كثيراً وظهرت العداوة بين عثمان باشا والأمير يوسف، وبناء على ذلك خرج عثمان باشا من الشام في أكثر من خمسة عشر ألفاً من الجنود ونصب خيامه في البقاع، وعند التهيء للحرب استعان الأمير يوسف بالشيخ ناصيف نصار شيخ مشايخ بني متوال فجاء بعساكره إلى جهات البقاع نجدة له، ولما اتصل الخبر بعثمان باشا فر ليلاً راجعاً إلى الشام، واتبعه الدروز فنهبوا أثقاله وما فيها من مدافع وخيام، وطار الخبر إلى الدولة العلية، فرفعت عن عثمان باشا لقب الوزارة وأحالت خطة الشام إلى محمد باشا العظم^(٢).

١- مصطفى الثالث (١١٢٩-١١٨٧هـ) السلطان العثماني السادس والعشرون، حكم لمدة ستة عشر عاماً. التحفة الحليمية، ص ١٧٧.

٢- آل العظم: أسرة دمشقية أنجبت سياسيين وأدباء منهم: سعد باشا (١٧٠١-١٧٥٧م) والي دمشق، ومحمد باشا (المذكور)، ورفيق العظم (١٨٦٧-١٩٢٥م) مؤرخ وصحافي. المنجد، ص ٣٧٥.

أحوال العراق

مدينة بغداد ابتناها الخلفاء العباسيون^(١) وجعلوها عاصمة حكومتهم ومركزاً لإدارة البلاد العراقية التي كانت من القديم منشأ الشقاق والنفاق. ولما دخلت في حوزة الدولة العلية جعلت بلاد الأكراد تحت نظارة والي بغداد، وإن يكن جعل عزل ونصب امرائهم يكون في البيورلدي^(٢) من طرف والي بغداد كانت الإمارة منحصرة في بعض ذوي البيوت المعدودة على ترتيب اصطلاح الأوجاق،^(٣) ولا سيما أبناء عائلة البابان، فإنهم بالقهر والقوة كانوا متصرفين في لواء البابان وكان نفوذ حكومتهم جارياً في سائر بلاد الأكراد. وكانت بينهم ضغائن فيقاتل بعضهم بعضاً وأحياناً يظهرهم العصيان على ولاية بغداد، وإذا ضاقت بهم الحال عطفوا عنان وجهتهم إلى بلاد إيران، فكانت لذلك تلك الجهات لا تخلو عن الفتن والاختلال، ومن جهة أخرى كانت طوائف العربان في بعض الأوقات يظهرهم العصيان، فكانت كذلك جهات البصرة لا تستريح من الغوائل والارتباك، ولبعد تلك البلاد عن دار السعادة مقر السلطنة السنية كان قديماً يوجد صعوبة في إدارة إيالة بغداد.

وكان أحمد باشا بن حسن باشا المشهور بفاتح همدان لاحظته عناية التوفيق فأحسن إدارة تلك البلاد مدة مديدة، وبعد وفاته سنة ١١٦٠هـ أرسلت إليها الدولة العلية ولاية متتابعين، فلم يساعدهم التوفيق على حسن إدارتها، مع أنهم من الوزراء المتحيزين والمنظور إليهم، ولما كان من اللازم إحالة ذلك إلى أحد الرجال الذين تربوا في تلك البلاد واكتسبو الوقوف على أمور داخلها وخارجها

١- سنة ١١٤٤هـ/٧٦٢م، أسّسها الخليفة العباسي المنصور على جانبي نهر دجلة في العراق.

الموسوعة العربية الميسرة، ص ٣٨٣.

٢- بيورلدي: أمر، مرسوم، توجيه. معاني لهجة، ص ٤٢٧.

٣- أوجاق: بمعنى عائلة أو سلالة. الدراري اللامعات، ص ٥٧.

وأحرزوا معلوماتها. وحيث إن سليمان باشا الذي هو من ممالكك أحمد باشا وظف مدة مديدة في خدمة الكتخدائية للباشا المومى إليه، ثم صار صهرراً له فمن رتبة الميرميرانية وجهت عليه رتبة الوزارة مع ولاية بغداد وذلك سنة ١١٦٣هـ، فاشترى كثيراً من الممالك وعلمهم الجندية واستعمال السلام واستخدمهم في جميع الأمور الخصوصية في دائرته وفي سائر المصالح المهمة، ثم قام بسد باب نفوذ ذوي البيوت الموجودين في تلك الجهات واستبدادهم، واشتدت وطأته حتى أنه لم يتمكن لأحد أن يرفع رأسه سواء كان من طوائف العربان أو من الأمراء الأكراد وكان من عادته أنه يشن الغارة في الليالي ويصبغها بالدماء، فاشتهر لذلك بين العربان بأبو ليلة، ووفق لضبط الأمور واقتدر عليها وربط الأحكام ببغداد مدة اثني عشر سنة، وبسبب زيادة اعتباره لجانب الممالك فتح باباً في بغداد لظهور وجاق الكولة من يعني الممالك.

ثم إنه عندما توفي الباشا المذكور سنة خمسة وسبعين [١١٧٥هـ] ووصل خبر وفاته إلى دار السعادة، وجهت إيالة بغداد إلى سعد الدين باشا والي إيالت الرقة، ثم إن أهل بغداد أرسلوا قبل سفره المحاضر يتبع بعضها بعضاً يطلبون فيها تعيين أحد الكتخدائية السبعة الذين كان سليمان باشا أظهرهم وتعينوا سابقاً ولاحقاً في بغداد، وصاروا منظورين ومعتبرين فانتخب من بينهم الكتخدا علي ووجهت لعهدته إيالة بغداد مع رتبة الوزارة. وهذا أيضاً كان رجلاً فاضلاً ممدوح الصفات ووفق مدة لحسن إدارة الإيالة، ثم بداعي حسد بقية الكتخدوات ومراقبتهم له بادروا لإغراء الأتباع وبعض السفهاء على مضادته والتعصب عليه، ولما أحس بذلك بادر لتأديب أولئك الأشقياء، فأوقد الكتخدوات نار الفتنة واجتمعوا تحت رئاسة أحدهم اسمه عرم كتخدا بك، وفي النهاية قتلوا علي باشا وأعدموه وذلك سنة ١١٧٧هـ. وأنهوا إلى دار السعادة أن علي باشا شيعي الأصل ومراده [أن] يعطي بغداد إلى العجم، وبناء على ملاحظتهم في هذا الأمر

قالوا إنهم إذا عرضوا ذلك في تحرير ربما تتأخر المصلحة فبادروا بقتله حالاً واندفعت غائلته، وأن الكتخدا عمر عاقل ورشيد على إدارة المملكة. فالدولة العلية بحسب إيجاب الوقت والحال اضطرت إلى موافقة طلبهم ووجهت إيالة بغداد مع رتبة الوزارة لعهد عمر كتخدا. فنال الكتخداوات مرامهم بهذا الوجه وساقهم الحال إلى أن جعلوا أنفسهم وجاق (كوله من)^(١) وأخذوا في تقليد أمراء مصر بإجراء كل ما يريدونه، وبعد ذلك ظهرت غائلة الممالك في بغداد أيضاً وصار ولاية بغداد يصاهرون المتحيزين منهم، ويجعلون منهم الكتخدا ويسلمونهم زمام أمور المملكة، فرويداً رويداً صار الحل والعقد في بغداد بأيدي هؤلاء.

ونال عمر باشا المذكور ولاية بغداد على هذا الوجه وهو في حد ذاته كان ذاتاً شجاعاً قادراً على الضبط والربط، وفي ابتداء أمره أربب الناس وأدب بعض العشائر التي سلكت طريق العصيان، فصار الناس يخافون من شدته ويرتعدون من صولته ومضت أكثر أيامه على الراحة، وفي حرب سنة اثنتين وثمانين [١١٨٢] كانت الراحة مفقودة من جميع الجهات إلا في بغداد فإنه لم يحس أحد بعدم الراحة، وبذلك صارت جديدة بأن يقال لها على وجه الصحة دار السلام.

لكن لما ظهر الطاعون سنة ستة وثمانين [١١٨٦هـ] تغير الحال، وفي مدة قليلة لحقت نفوس عديدة بالدار الآخرة، وفر أكثر أهلها لما استولى عليهم من الدهشة والخوف إلى ديار أخرى، وكم من بيوت أغلقت أبوابها وكم امرأة ترملت وانقلبت مدينة بغداد عما كانت عليه من العمارة إلى الخراب.

وبعد ستة أشهر انقطع ذلك البلاء وانطفأت تلك النار، واندفع خوف الناس، وزالت خشيتهم، وعاد كل هارب إلى محله، وهي وإن كانت بعد ذلك ظهرت عليها صورة العمارة فإن إعادتها إلى أحوالها القديمة تحتاج إلى وقت مديد، إذ لم

١ - أي الممالك.

يبقى فيها للنظر في الأمور أناس مجربو الأطوار، والذين تنفع آراؤهم في الأشغال، ويعرفون مداخلة المملكة ومخارجها، فاضطر عمر باشا إلى استخدام بعض الجهال من الأكراد والعرب، وصارت الأحكام بيد غير أهلها فلم تكتسب البلدة الغنى والانتظام، وباتت المصالح المهمة مقلوبة على وجهها معطلة وأخذ العربان والعشائر المترصدون للفرص في القيام وإثارة الفتن من كل جهة.

وكانت بلاد الأكراد في تلك الاثناء مختلة النظام وذلك بسبب ما وقع بين أمراء البابان من الجدل.

أحوال أراضي إيران.

كنا ذكرنا سابقاً طرفاً من أخبار نادر شاه، والآن نقول إنه بعد ما هاش وطاش مدة بداعي الاستيلاء على الكون قتل،^(١) وخلفه بعض الأمراء وجلس مكانه؛ غير أنه لم يتمكن من شيء، ونادر شاه لكونه عسكرياً ودعته نفسه إلى الاستيلاء على الكون بذل وسعه إلى أن صار شاه إيران، ووضع هذا الفكر الخام في أفكار أمراء العجم، فلذلك صار كل منهم يدعي الاستقلال فبعضهم يقصد أن يكون شاهاً وبعضهم يقصد بسعيه أن يجلس أحد أولاد الصفوية أو النادرية الذين هم شهبازات^(٢) على تخت مملكة إيران وأثاروا الفتن بسبب ذلك من كل جهة في الممالك الإيرانية.

لكن لما كان زند كريم خان سالكاً مسلك العدل والكرم، استجلب أهل إيران لجهته فكثرت جموعه وغلب على الباقيين، فاستولى على جهات فارس وعراق

١- سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٧م، وقد تقدمت ترجمته.

٢- شهبازة: بمعنى ابن السلطان، وهي كلمة فارسية مستخدمة في اللغة التركية. الدراري اللامعات، ص ٣٢٣.

العجم من ممالك إيران وأكثر بلاد خراسان، وأما بلاد أذربيجان فإنها وإن كانت في أيدي أمراء مستقلين؛ إلا أنهم أظهروا وجه الانقياد إلى كريم خان وخدموه بإرسال الهدايا وغيرها.

فصار كريم خان^(١) بهذه الصورة حاكماً مستقلاً في ممالك إيران ومع ذلك فإنه لم يدع أنه شاه بل ادعى طريق الإمامية ومذهبهم في جميع رسومه، ولقب نفسه بوكيل شاه.

وعلى ما قيل أن كريم خان هذا هو أحد الأنفار الذين أخذهم نادر شاه كرهاً من عشيرة الزندية من الأكراد سنة أربعين [١١٤٠هـ]، وهم من القوم السالكين مذهب الغرابية من غلاة الشيعة المتوطنين في جهات شيراز على طريق الأعراب الرحالين. وإنه خدم نادر شاه مدة وخدم ابن أخيه عادل شاه وغيرهما بكونه عسكرياً وأحرز رتبة أونباشي^(٢) إلى أن وصل إلى رتبة بيكباشي^(٣)، ثم في خلال سنة خمس وستين [١١٦٥هـ] اختلس فرصة ثورة العجم، ولقب نفسه برتبة خان وتغلب على غيره. ثم في أثناء سنة [١١٧٢هـ] تخميناً صار مرجعاً لكل في تلك الجهات وحاكماً مستقلاً في إيران. وحيث إنه لم يكن من الأصلاء، والإيرانيون لا يرضون بشاه ليس بذئ نسب معروف عندهم فلاحظ أنه إذا ادعى السلطنة لم يوفق كما لم يوفق غيره من الشاهات السالف ذكرهم، وكانت له في سوء عاقبة نادر شاه مع ما اكتسبه من القوة والقدرة العظيمة عبرة كبرى، ولذلك صرف النظر عن عنان شاه وأحرز الاستقلالية باسم وكيل إيران واتخذ شيرازاً عاصمة للحكومة، وأخذ كفلاء معتبرين يعتد بهم من أولاد الأمراء وأقاربهم المتحيزين في بلاد إيران، ثم وجه إليهم المناصب والإيالات فقوي بهذا حكومته وحصنها وبهذه الصورة حكم هو وذريته من بعده أربعين سنة ويقال لهم الزندية.

١- كريم خان (ت ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م): حاكم فارس من الأسرة الزندية، خرج ظافراً من قتال نشب للاستحواذ على السلطة، كان عهده هادئاً، واتخذ شيراز عاصمته. الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٤٦٠.

٢- أون باشي: رئيس عشرة (رتبة عسكرية)، معاني لهجة، ص ٢٧١؛ الدراري اللامعات، ص ٧٧.

٣- بيك باشي: رئيس الألف، رئيس طابور (رتبة عسكرية) معاني لهجة، ص ٤٢٤؛ الدراري اللامعات، ص ١٣٤.

إن طوائف لور وبختياري وكوران ولك وكرد تشعبوا من أصل واحد، وانقسم كل شعب إلى بطون عديدة، وهؤلاء مع أنهم من الوطنيين قديماً في بلاد إيران، فإنهم انحازوا إلى الجبال هروباً من الوقائع الجسيمة القديمة، وامتدوا من ديار هرمز الواقعة في مملكة شيراز، إلى جوار ملاطية ومرعش، ولاستيلاء الجبال البدوية عليهم نسوا أصلهم ونسبهم، لكن اتحادهم واتفاقهم في بعض الأصول والعادات القديمة جعلهم يستشعرون بأنهم من أصل واحد، ولذلك تأخذهم الغيرة الطبيعية على بعضهم بعضاً.

وعشيرة زند التي منها كريم خان هي بطن من بطون قبائل الأكراد، وكان كريم خان المذكور كردياً خشن الطبع. ولما زالت دولة نادر شاه في أثناء ما وقع من الهرج والمرج في بلاد إيران، جلس كريم خان المشار إليه على كرسي سلطنتها، وهو كالمتعجب المتحير مما اتفق له من السلطنة، وحيث إنه كان خبيراً بالأحكام وما يتعلق بها استقل بملك تلك الممالك الإيرانية، ووقعت للطوائف المرقومة غير الاتحاد المقتوية لنفوذه وتباهوا به وافتخروا بظهور ملك مثل هذا منهم، ومالوا إليه وانجذبوا جميعاً لطرفه، ولهذه الأسباب أمسى أمر المحافظة على بلاد الأكراد التي هي من جملة الممالك العثمانية المحروسة محتاجاً لحامية قوية عظيمة، وكانت حكومة بغداد المنوط بها أمر المحافظة على بلاد الأكراد مختلة النظام مشوشة الأفكار إذ ذاك كما سبق بيانه وبهذا صارت تلك الجهات آيسة في حالة الخطر.

ولما اتصل خبر كريم خان المذكور بالدولة العلية صادقت على حكومته في إيران، وفي ابتداء جلوس حضرة السلطان عبد الحميد خان^(١) أرسل له مأموراً مخصوصاً حاملاً رسالة همايونية بشره فيها بجلوسه الهمايوني، وعندما وقع النزاع بين خانات إيران وقام بعضهم على بعض بسبب اختلال أمر المملكة

١- عبد الحميد الأول (١١٣٨-١٢٠٣هـ) السلطان العثماني السابع والعشرون. مدة سلطنته ستة عشر عاماً. التحفة الحليمية، ص ١٨٣.

اضطربت الأهالي، وطلبت أهل أذربيجان الحماية من الدولة العلية، وكان كثير من الناس رغبوها وشوقوها مرات كثيرة إلى الاستيلاء على بعض أطراف إيران، وكان هذا وقتئذ ممكناً بأقل كلفة، ومع ذلك فإنها عرضت وراعت حق العهدة التي كانت عقدت مع الإيرانيين في زمن نادر شاه، فتباعدت عن وقوع حركة مخالفة للعهدة المذكورة، ورأت أن وسعة ممالكها المحروسة كافية، ولذلك لم يقع أدنى تعرض للممالك الإيرانية، بل جرى التنبيه على الوزراء والأمراء الموجودين على الحدود بأن لا يجرؤوا حركة مخالفة للعهدة ومنافية لحقوق الجوار، وبناء على ذلك صار كريم خان أميناً من جهة الدولة العلية ثم بعد ذلك حصلت برودة بين الدولتين بسبب مصالح بلاد الأكراد.

وجاق البابان^(١)

كان في قضاء (بوجدر) رجل من المعتبرين يدعى الفقيه أحمد، أحدث وجاق البابان، ثم قام ابنه ماودو واستولى على شهر بازار وقضاوات أخرى في تلك الجهات، ثم بعد ذلك أعطت الدولة العلية لابنه سليمان بك سنة ١٠٨٠ هـ حكومة تلك الجهات باسم لواء قره جولان^(٢). فسليمان هذا عندما عاد مع العسكر الهمايوني لطرف الآستانة توفي في أدرنة، وبقي القليل من المواضع التي كانت تحت تصرفه بيد ابنه بكر بك، وأما الأكثر منها فقد حازه متصرفوها القدماء وهم عشيرة (زنكنه). ولما وقع الحرب بعد مدة مع إيران أُعطي لواء قره جولان مع انضمام أردلان أي أراضي سنه وصوغوق بولاق إلى ابنه الآخر المدعو خانك باشا، وبعد ذلك تولى الحكومة أخوه خالد باشا وابنه سليمان باشا، وفي مدة

١- أي عائلة البابان الكردية.

٢- قره جولان: مركز لواء في كردستان ضمن ولاية الموصل على بعد ٢٥ كم شمال شرق السليمانية بقرب الحدود الإيرانية. قاموس الأعلام ٣٦٢٤/٥.

هذين الاثنين ألحق لواءي كوي وحرير أيضاً إلى قره جولان. وعند تقدم نادرشاه في تلك الجهات أيام هذين الاثنين سلط الإيرانيون على تلك الجهات رجلاً اسمه سليم بك أحد أولاد أخ خالد باشا لكنه لم يعتبر ولم يعد في سياق متصرفي اللواء المذكور، كما أن الأشخاص الذين تسلطوا على الإدارة بمظاهرة الإيرانيين لم يحصل التصديق على حكومتهم تاريخياً.

وبعد سليمان باشا دارت المتصرفية بين إخوته محمد باشا وأحمد باشا ومحمود باشا، وكل منهم صار متصرفاً لذلك اللواء بالمناوبة.

وكان المترشحون للمتصرفية من عائلة البابان يقيمون في بغداد في الأكثر لأجل أن يتخذوا لهم أحزاباً، وأحياناً يجعلون منهم رقباء على المتصرف، ثم على ما تقتضيه مصلحتهم، فلذلك كان توجد في بغداد دائماً دار كبيرة مخصوصة لهذه العائلة، وأي شخص كان متصرفاً من هذه العائلة يجعل عليه المترشح لمحلته من يراقب أحواله، وصاروا لذلك إذا أخلص أحدهم في عבודيته للدولة العلية يكون المقابل له من الطرف الثاني ميالاً للإيرانيين.

وعلى هذه الصورة كان أحمد باشا ومحمود باشا منقادين إلى والي بغداد بالاتحاد، وكان أخوهما الكبير محمد باشا منحازاً إلى الإيرانيين. وبالجملة فالحرب التي حدثت بين الفريقين كانت سبباً لظهور غوائل كثيرة، وفي النهاية كانت داعية للحرب الإيرانية كما سنبينه في المجلد الآتي.

وبعده مال محمد باشا إلى بغداد، ومال أخوه أحمد باشا إلى إيران، ومن هذا أيضاً ظهرت مفاصد كثيرة. وفي آخر الأمر تقرر متصرفية البابان على محمود باشا، وبقي في المتصرفية إلى سنة ألف ومئة وسبعة وتسعين.

ومن بعده صار ذلك اللواء لإبراهيم باشا وخالد باشا أولاد أحمد باشا، وبعدهما لعثمان باشا وعبد الرحمن باشا أولاد محمود باشا، ومن بعدهم لسليمان باشا ابن إبراهيم باشا ومحمد باشا ابن خالد باشا بالتتابع.

والإيرانيون كانوا ينتفعون دائماً من المراقبة والمشاحنة التي كانت بين أمراء البابان، ولم تخل بغداد من غوائلهم، وفي نهاية الأمر صار إلغاء هذا الوجود وتفترقت أمراؤه. وسليمان باشا ومحمود باشا وعزيز بك المعروف الآن والمعلومة أسماؤهم جميعاً في زماننا، هم أولاد عبد الرحمن باشا المومى إليه. وأحمد باشا وعبد الله باشا وقادر بك ومحمد بك أولاد سليمان باشا ما برحو إلى الآن في قيد الحياة.

وكان مركز هذا اللواء قره چولان، وفي الأخير صار مركزه في قصبة السليمانية، التي أنشأها إبراهيم باشا المومى إليه. وتفصيل ذلك يأتي في المجلد الثالث.

* أما فهرس أحوال الدولة العلية ومناسبتها مع سائر الدول في سنة ١١٨٨ هـ فهي على المنوال الذي صار بيانه، وأما وقائعها التي ظهرت بعد ذلك فسيصير بيانها بمنه تعالى في المجلدات التي بعد هذا.



ذكر الأوراق التي وعدنا بها في أثناء الكتاب

[وثيقة رقم ١]

صور التقارير التي كتبها واصف أفندي ليقدمها إلى جرائد الوقائع التي

جمعها :

يعرض عبدكم :

إن الوقائع التي حررها من قبل نوري بك في ست مجلدات من أواخر سنة ١٢٠٨هـ إلى رمضان سنة ثلاثة عشرة نقلتها بقلمى على موضوع مخصوص في التاريخ، وعند كل مناسبة ذكرت الفوائد الملكية وصرفت ما في الكيس من نقد بضاعة الحكمة العلمية وضممت وألحقت إليها ما برز منها في مرآة الوجود من الوقائع الديوانية والحوادث اليومية منذ ابتداء مأمورية عبدكم إلى الآن، وزينت صحائف السطور بقلمى العاجز جميع الوقائع التي ظهرت منذ الجلوس الهمايوني المقرون باليمن إلى يومنا هذا، وهذا أمر أوجب الفخر العظيم لهذا العبد الحقير. وحيث إن الأجزاء الجديدة المذكورة التي حررتها من قبل لتكون مجلداً ثانياً للمجلد الأول جرى تذهيبها وتجليدها وقد تقدم أولاً مجلدان في الوقائع القديمة والآن أقدم لمعالي آصفيتمك المجلدات المذكورة مع المجلدات الأربعة الباقية لأجل رفعهم إلى حضور الحضرة الشاهانية المحصورة بها المكارم. ولما كان عبدكم القديم في فن الإنشاء والتأليف معنىً ولفظاً قاصراً بل أعيا من باقل فأسترحم أن يكون قصوري الواقع بغير اختياري في سبك الكلام وإفادة المرام مستوراً بذيل عفوكم وأن تنظروا إلى آثار هذا العاجز بعين الرضى، والأمر والفرمان لحضرة من له اللطف والإحسان.

تقرير آخر

إن الحوادث والأحوال التي وقعت في الدولة العلية الأبدية الاستمرار من
خامس عشر المحرم سنة ألف ومائتين إلى غاية صفر الخير سنة ست عشرة تحورت
تفصيلاً وإجمالاً بقلم عبدكم الكئيب البال ورفعت لمعالي مقامكم السامي لأجل
عرضها وتقديمها إلى الحضرة الشاهانية المحصورة فيها المواهب والتي هي كعبة
إقبال ذوي الآمال وإن يكن عنايات أولى النعم التي لا نهاية لها والتي تجلت
ظاهرة في جلوة الكرم في حق هذا العاجز لحد الآن لم تجعل لي وجهاً لاستعطاف
المروءة والإحسان فأصبح العبد الفقير غريقاً في لجة الأدب والحياء وإن يكن ذلك
أجلى من البديهيّات لكن إظهار صورة الاستغناء أيضاً عن الطاف ومكارم أولياء
النعم يكون معنى خارجاً عن رسم العبودية وعلى الخصوص القضاء الفجائي
الذي وقعت فيه بمقتضى تقديره سبحانه وتعالى جعلني على كل حال أنا العبد
الضعيف المستحق للرافة والشفقة الخسروانية استرحم إن وافقت رأي أصفيتكم
الرزين الذي هو للإصابة قرين أن يصير ضم مقدار علاوة على العطية الهمايونية
التي يصير الإحسان بها من طرف الميري عند عرض أجزاء الوقائع في كل سنة
لتكون مداراً لبناء محل يستر الأولاد والعيال من المذلة والأمر والفرمان.

تقرير آخر

إن الحوادث اليومية والرسوم الديوانية التي ظهرت بمرور الأيام في الدولة العلية الأبدية الدوام كانت تتحرر وترقم بقلم العاجز الفقير نقش الحرير وفي كل سنة كانت تعرض مرة لحضور خديويتكم اللامعة بالنور، فالآن أقدم لمعالي آصفيتم ما جمعته ونظمته بكمال الدقة والتحري من الحوادث التي تولدت من مشيخة العالم في مدة سنة واحدة وذلك من صفر سنة ست عشرة إلى صفر سنة سبع عشرة لكي ترفع إلى عتبة المرتبة الشاهانية الرفيعة هذا إذا تعلق إرادتكم المشيرة بعرض الإجراء المذكور كالسابق والأمر والفرمان .

منقبت زيب شه جم مسند كمترين بندهء واصف أحمد

ملخص معناه

عبدكم يا سيدي واصفُ أحمد من عبيد الملك السامي المؤيد
ملك مسنده مرتفع فوق جم ملك الفرس الممجد

صورة ترجمة مكتوب تيمورلنك إلى

شارل السادس ملك فرنسا

(وثيقة رقم ٢)

الأمير الكبير تيمور كوركان زيدَ عمره

فليقبل ملك فرنسا مائة ألف سلام من هذا المحب وإخلاصاً كثيراً بقدر
الدنيا. وبعد تبليغ الأدعية يعرض لرأيكم العالي أنت أيها الأمير الكبير أن
فرنسيسقوس الأخ الراهب الواعظ حضر لطرفنا وأحضر مكتوبكم الملوكي
وأوضح لنا أيها الأمير الكبير عن اسمكم الطيب وشأن عظمتكم فسررنا جداً
وهكذا نبين أيضاً بأننا ذهبنا بعساكر جرارة وبعون الباري تعالى جعلت قوة أعدائنا
وأعدائكم مضمحلة وبعد هذا أرسلت لحضوركم الأخ جواني مرخص مدينة
سلطانية فهو يعرض ويقرر كلما وقع فالآن أرجو منكم أيها الأمير الكبير أن
تواصلونا برسائلكم وتعلمونا خبر سلامتكم وعافيتكم ليحصل لنا راحة خاطر
ومن اللازم أيضاً أن تجاركم بطرفنا كما أننا نمسكهم معززين مكرمين كذلك تجارنا
يذهبون لطرفكم فاعزوهم وطيبوا خواطرهم ولا تتركوهم من أنظاركم فيحصل
لهم زجر أو تعدي من أحد وبعد هذا أقول فلتبقي دولتكم سنياً عديدة بالظفر
والسلام.

ترجمة صورة المکتوب الهمايوني الذي أرسل من طرف

السلطان سليمان إلى فرنسيس ملك فرنسا

[وثيقة رقم ٣]

الله العلي الغني المعطي المعين

بعناية حضرة عزة الله جلّت قدرته وعلت كلمته وبمعجزات سيد زمرة الأنبياء
وقدوة فرقة الأصفياء محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم الكثيرة البركات
وبموازرة قدس أرواح حماية الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله
تعالى عليهم أجمعين وجميع أولياء الله أنا سلطان السلاطين وبرهان الخواقين
متوج الملوك ظل الله في الأرضين سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود
والأناضول والروملي وقرمان والروم وولاية ذي القدرية ودياربكر وكردستان
وأذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار
العرب واليمن وممالك كثيرة أيضاً التي فتحها آبائي الكرام وأجدادي العظام
بقوتهم القاهرة أنار الله براهينهم وبلاد أخرى كثيرة افتتحها يد جلالتي بسيف
الظفر أنا السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان
إلى فرنسيس ملك ولاية فرانسوا وصل إلى أعتاب ملجأ السلاطين المکتوب الذي
أرسلتموه مع تابعكم فرانقپان النشيط مع بعض الأخبار التي أوصيتموه بها شفاهياً
وأعلمنا أن عدوكم استولى على بلادكم وأنكم الآن محبوسون وتستدعون من
هذا الجانب عدد العناية بخصوص خلاصكم وكل ما قلتموه عرض على أعتاب
سرير سدتنا الملوكانية وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل فصار بتمامه
معلوماً فلا عجب من حبس الملوك وضيقهم فكن منشراح الصدر ولا تكن
مشغول الخاطر فإن آبائي الكرام وأجدادي العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا

خاليين من الحرب لأجل فتح البلاد ورد العدو ونحن أيضاً سالكون على طريقته
وفي كل وقت نفتح البلاد الصعبة والقلاع الحصينة وخيولنا ليلاً ونهاراً مسروجة
وسيوفنا مسلولة فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بإرادته ومشئته وأما باقي
الأحوال والأخبار تفهمونها من تابعكم المذكور فليكن معلومكم هذا تحريراً في
أوائل شهر آخر الربيعين سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة .

بمقام دار السلطنة العلية

القسطنطينية المحروسة المحمية .

ترجمة النطق الرسمي الذي أوردته إبراهيم باشا في الديوان العالي إلى سفير فرنسا في عصر السلطان سليمان

[وثيقة رقم ٤]

إن الحكمة في اجتماعنا كل يوم في هذا الديوان العالي مع وكلاء الدولة العلية إنما هي قضية مبنية على كوننا مأمورين بمخصوصين من طوف صاحب الشوكة والقدرة مولانا السلطان ملجأ الأنام بالذاكرة والمشاورة بالكلام في الأمور الملكية وعندما يتشرف كل منا بالقدوم والدخول في الديوان العالي نترك الأغراض والعلل المخصوصة ونبين ونفيد خلاصة الأفكار والتدبير بالحرية مع رعاية حق الكلام فالأمل منكم أن لا تكونوا مكدرين الخاطر من كافة ما نفيده بهذه المرة لجنايبكم بالحرية التي هي للصدق والحق أنيس حقيقي وقرين صحيح . إنه منذ عقد متبوعكم سلطان فرانساً اتفاقاً مع السلطنة السنية فبمقتضى ما للذات العلية الملوكانية من حسن التوجه نحو ملة فرانساً لم يقع قصور من طرف الدولة العلية قطعاً بأمر صرف الهمم واستكمال جميع الأسباب والوسائل اللازمة المنوطة بقوة السلطنة السنية القاهرة لأجل ضرر أعدائكم ودفهم وتقوية بنيان دولتكم واستحكامه وبذل ما تمنيتموه وانتظرتموه من المساعي الجميلة وترويج مسائلكم ومع أن الأمر كذلك فإن مدعى فرنسا وجد بعيداً عن طريق الحق والإنصاف ومنافياً للعرض والناموس وموجباً لفسخ قانون الحب والاتحاد ونحن نقول وكذلك الأجانب الذين لا يحبونكم يقدرّون أن يقولوا أن ما وقع منكم كان مخلاً بمراسم الحياء والأدب نظراً لما ظهر من أطواركم المنافية للأدب ومن الواجب أن الدولتين المتفقتين لا بد أن تكونا بخلوص الطوية وصدق النية متشاركتين بما يعرض للطرفين من المهالك والأضرار المصاريف وإن تكونا ساعيتين ببقاء الاتفاق وإلا فإذا حصل قصور من إحداهما برعاية قاعدة المقابلة بالمثل والمعاونة يصير

الاتفاق طبيعياً ملغى ومفسوخاً؛ أما أنتم يا أحبابنا الفرنسيين كلما وقعت الدولة العلية في تهلكة واضطراب تظهرون دائماً التفاضل والتساهل وإذا انخرطت ملتكم في محاربة ومخاطرة فإنكم تظهرون كل التيقظ والتنبه وتسارعون لطلب الإعانة مع أنكم لم تمدوا الدولة العلية بالمعونة اللازمة في وقت من الأوقات بل طالما هرعتم فوراً لإظهار الحب بالوعود وبالسفارات التي لا فائدة منها. وهذا شارل امبراطور ألمانيا وملك بروسيا جلب وجمع عساكر كافة الممالك الغربية وحشدها في أوستريا والمجر التي هي ضد الدولة العلية وساقها وسلطها على بلاد جزيرة الموره وحاصر تونس فأثر ظهر لمحبتكم وإعانتكم في أمر إشغال عدو الطرفين. ولكن لأمر ملتزم لدينا نصرف النظر مرّة عما وقع منكم حتى الآن من القصور والتساهل ونعاملكم بالعفو وكذلك نصرف النظر أيضاً عن عدم رأفتكم وشفقتكم لحال اضطرابنا ومضايقتنا في تلك الأيام وعدم تأثركم أصلاً من الحقارة والإهانة التي أظهرها العدو في ذلك الحين فهذا كله نتركه الآن على حدة وبعده كيف نقدر أن نتحمل التبريك الذي أجريتموه إلى عدونا في معرض الخلوص. هذا مع أن السرعسكر الذي أمر بتجاوز إيطاليا لأجل إعانتكم وخدمتكم قد قطع مسافة لحد أولونيا وساق العساكر الإسلامية فلم ينظر أحداً من الأطراف والمحيين الذين كنتم وعدتم بهم وأخبرتم عنهم متفاخرين بأنهم يقومون بإعانة عساكرنا في سواحل إيطاليا. ومع أنه من اقتضاء شروط الحب أن يتعين من طرفكم عسكر لأجل إشغال إيطاليا في وقت واحد بالاتفاق فما ظهرت منكم حركة لذلك. وأما نحن وإن كنا استغنيا أولاً وآخرًا عن رأيكم وتدابيركم ومعاونتكم وهمتكم فأنتم لم تظهروا في طور مفيد لا لنا ولا لكم بل دائماً تفوتكم فرصة الفعل الطيب والصدقة.

فجمهورية البندقية قد جربت كما ينبغي بالفعل قوة السلطنة السنية القاهرة وشعائر وفائها وخلوصها. وأما أنتم فبينما كنتم تعتقدون عهد المتاركة مع عدونا

وعدوكم وترجون بدون تروي سوء قصده المكنون في ضميره بحق الممالك المحروسة نهضنا نحن بأنفسنا وانتقمنا من عدونا المذكور من غير توسط ومعاونة أحد ووفقنا لدفع صولة أعدائنا بلا إمداد منكم وبهمة خير الدين باشا فرقنا قوة العدو البحرية شذر مذر ودفعنا قرصان إسبانيا ومحوناهم وبعد أن استخلصنا ممالكنا فتحنا بلاداً كثيرة واستولينا على ممالك عديدة. وليكن معلوماً عندكم أنه حيث لا دخل لكم ولا همة بهذه الفتوحات فلا نبث لكم امتنانا وشكرنا. ومع ذلك فلاجل الاحترام واعتبار المحبة المربوطة بين الدولتين لا نرى من اللائق أن نذكركم بالماضي بل نرغب أن نبث لكم آثار خلوصنا وحبنا. ومن الصواب أن لا تكون القوة منحصرة تماماً بالاعتماد على حسن الطالع والحظ فنحن ننظر إلى اقتضاء الوقت والحال في الممالك المحتمل حدوثها ونلاحظ الموسم والهواء فأنت أيها المحب أتيت الدار العلية في هذه المرة متأخراً كثيراً والأسطول الذي تطلبونه منا إذا أخرجناه لسطح البحر في هذا الموسم وجعلناه يقوم بالعمل يكون ذلك منا جسارة ومخاطرة لأن فصل الصيف مضى وعيد قاسم صار قريباً فالوقت والإمكان لا يساعدان على تجهيز الأسطول وإخراجه لا سيما الأنفار الذين لم يعتادوا على السفر البعيد في البحر المديد فإنهم قد وقعوا في العلل والأمراض وهذا لا يحتاج إلى بيان وما أصاب خير الدين باشا من القضاء والسقوط يكون دليلاً كافياً وبالجملّة فإن السفر في البحار في هذا الفصل إنما هو خطأ مبين.

وحيث إنني أفدت جنابكم عما في ضميري بحرية وخلوص هذا مقدارهما فاؤمل أنكم لا تتكبدون وأما من خصوص مطالبكم وتكليفاتكم التي عرضتموها فهو أمر منوط بالإرادة السنية السلطانية وحسبما يصدر الأمر والفرمان بها فنيحكم عنه.

صورة الأمير الشريف المرسل من صحراء تـرجـان

إلى أمير البحر بـيـالـه بك

[وثيقة رقم ٥]

افتخار الأمراء الكرام مختار الكبراء الفخام ذي القدر والاحترام المختص
بعناية الملك العلام بك لواء كليبولي قبطاني بـيـالـه دام عزه .

فليكن معلوماً بوصول توقيعي الرفيع الهمايوني . إنه قبل هذا صدر أمرنا
الهمايوني بإخراج الأسطول والآن قد عينك سرداراً لمراكب الأسطول الذي أمرنا
بإخراجه هذه المرة بعناية الحق تعالى فعليك أن تهئ اللوازم والمهمات وتحضر
السفن وقد صدر الأمر بذلك أيضاً إلى طورغور دام عزه لتكونا معاً بالاتحاد
وحسن الاتفاق وأن تبذلا الجهد في الأمور المتعلقة بسعادة دولتي الهمايونية فأمرني
الشريف هذا تقرر تأخيرته وحيث عينت أنت باش بوغاً على الستين قطعة من
السفن التي صدر الأمر بإخراجها لسطح البحر وصدر أمرنا الشريف إلى الدستور
المكرم المشير المفخم نظام العالم وزيري إبراهيم باشا أدام الله إقباله والي الدفتردار
بتعجيل إتمام السفن وجمع النوتية الذين يستخدمون للمجازيف والنظر عاجلاً
بأمر اللوازم والمهمات وصدر الأمر إلى آغا الإنكشارية بإعطاء ما تعين من عبيدي
الإنكشارية وصدرت الأوامر الشريفة إلى بكوات قوجة إيللي ومدللو الذي عينوا
معك للخروج للبحر وبناء على ذلك فقد صدر الآن أمري أنه بوصول محمود
أحد جاويشية ركابي العالي إليكم تبادر أنت ليلاً ونهاراً بلا تأخير ولا تراخي
لمناظرة الستين قطعة من السفن التي تخرج معك للبحر وتعجل بإتمامها وتكمل
النوتية الذين يستخدمون للمجازيف وتأخذ الذين عينوا من عبيدي الإنكشارية
وتأخذ أيضاً للسفن بكوات الألوية مع عساكرهم وتخرج للبحر في وقت الموسم

وتجتمع في محل مناسب مع أسطول ملك فرانسا ومع حسن الاتحاد تباشر في المصالح المتعلقة بدولتي الهمايونية وحيث هذا أمر يستلزم الاهتمام فلا تهملوه وعجلوا بإتمام السفن ولا تفوتك دقيقة من استكمال الأسباب اللازمة لإخراج الأسطول عن عجل وعبدي طورغور المشار إليه دام عزه له الوقوف على كافة أحوال البحر وأموره فلا تكُ خالياً من مشاورته وحسن المعاشرة والاتحاد معه بحيث أن تكونا يداً واحدة وقلباً واحداً إذ هكذا تقتضي الغيرة واصرفوا أنواع المساعي الجميلة حتى لا يقع شيء ينافي حسن التدبير ويكون مغايراً لعرض وناموس السلطنة وقد أمرنا أن سفن عساكر اللوند المتطوعة تذهب أيضاً وعبدي المشار إليه زيد قدره له الوقوف على أحوالها وبمعرفته يأخذ رؤساء العساكر المتطوعة ويستميل كلاً منهم بحسب معرفته والذي يلزم له بقسماط يعطيه وبمعرفته ومشاورته تستخدمونهم في مصالح دولتي الهمايونية على منهج الدين وتسعون بإعانة الحق تعالى سعيّاً مشكوراً لتحصلوا على حسن الحال وتوضعوا في كل سفينة عشرين نفراً للاستخدام في الأدوات البحرية حسب العادة وعدا عن هؤلاء فلا بد أن تعينوا في كل سفينة ثلاثين نفراً من العساكر المدربة الذين في غلظه وتلحقوهم بالسفن واللوازم وتستخدمونهم وإن تتركوا عدداً منهم بقدر الكفاية لأجل المحافظة على الترسخانة والعشرة سفن الباقية فيها فهكذا اعلموا وعلى علامتى الشريفة اعتمدوا تحريراً في أواخر شهر ربيع الآخر سنة اثنين وستين وتسعمائة .

ترجمة صورة البيور لدى الذي كتب من طرف

محمد باشا البالطه جي إشر وقعة البروت

[وثيقة رقم ٦]

الباعث لتحرير الكتاب الصحيح النصاب هو إنه بتوفيق الله الملك العلام انتهت حرب عساكرنا المنصورة مع قيصر الموسقوف وعساكره في طرف نهر بروت وبعد التضيق عليه فبلطفه تعالى الكريم وفضله العميم طلب القيصر المرقوم إجراء المصالحة وعند ذلك عقدت وربطت قيود وشروط الصلح على الوجه الآتي بيانه وهو أن قلعة أزاق مع أراضيها وسائر ملحقاتها يجري تسليمها كأول للدولة العلية . والقلعة الجديدة الكائنة في أعالي طيفان وقمانكه وصمار المختصة بالقيصر تهدم بالكلية والمدافع والجبخانة الموجودة ضمن قمانكه يجري تسليمها بتمامها للدولة العلية وفيما يأتي من الزمن لا يبنى في المحل المذكور قلعة ولا تحصل مداخلة بعد الآن من طرف القيصر المرقوم مع اللهويين والتابعين لهم وهم راياش والبورتقال ولا إلى القزاق التابعين لحضرة صاحب السعادة دولتكراي خان، خان القريم، بل يرفع القيصر يده عن جميع تلك المواضع بحيث تعود كما كانت قبل الآن . وبعد اليوم لا يحق للقيصر أن يقيم سفيراً في استامبول من طرفه وأما التجار الروسيون الذين يأتون براً للممالك المحروسة لأجل التجارة فإنهم مأذونون في الإقامة فيها . والأسرى من المسلمين الذين أسروا من قبل ومن بعد يلزم ويجب على القيصر أن يسلمهم للدولة العلية مهما كان عددهم وملك إسوج حيث إنه التجأ ووقع تحت جناح عناية الدولة العلية فبعد الآن يتوجه إلى مملكته بالأمن والسلامة ولا يحصل له التعرض والممانعة من طرفهم قطعاً وإذا وجد بينهم عدم توفيق ورضاء اتحاد فعليهم أن يجري المصالحة . وأنا أرجو من كمال أفضال مولانا وسلطاننا صاحب الشوكة والعناية والعظمة

ومن فيض مكارمه الملوكانية غض النظر من طرف العلية عن الحركات الخارجة عن الأدب التي سبق وقوعها في جانب رعايا الدولة وسائر المنسوين إلى الممالك المحروسة وأن لا يصير عليهم فيما يأتي من الزمان تعدي كما تقرر ذلك في الشروط والعهود، وبحسب الوكالة المطلقة حرر هذا الصك وأعطي لطرف القيصر إلى أن يعقد العهد والميثاق إن شاء الله تعالى في دار السعادة بالوجه المشروح وتعطي صورته له. وبعد أن يأخذ القيصر صك العهد فلا تكن حينئذ ممانعة ومداخلة في أمر ذهاب عساكره إلى بلاده في الطرقات المستقيمة لا من طرف العساكر المنصورة ولا من فرد من أفراد طوائف التاتار وجماعتهم. وأما أمين أسرار القيصر قدوة أعيان الملة المسيحية قبارون قانجلير بترو شافروف والجنرال ميخائيل اولدبورس حفيد شرمث ختمت عواقبهما بالخير حيث إنهما كانا حضرا من طرف القيصر للمعسكر المنصور ليكونا رهناً، فمن بعد تسليم المواد المذكورة وإعطاء صك العهد من طرف القيصر وإتمام خدمتهما يعطي لهما الإذن والرخصة من طرف الدولة العلية بذهابهما إلى بلادهما بلا تأخير ولبيان ذلك حرر هذا في اليوم السادس من جمادي الأخيرة سنة ثلاثة وعشرين ومائة وألف.

بيورلدى صحراء

خوش كچدي .

ترجمة التحرير الذي كتبته مدام (مونت كون)

إلى انكلترة بخصوص تلقيح الجدري

[وثيقة رقم ٧]

ها أنا أكتب لكم شيئاً في بحث العلل والأمراض يجعلكم تتمنون وترغبون أن تكونوا موجودين هنا. إن مرض الجدري الذي وجد عندنا وهو مرض عمومي وخيم العاقبة للغاية بعد أن كان مضرّاً قد أصبح الآن عديم الضرر بالكلية بسبب التلقيح الذي اخترع هنا. وفي هذا الطرف نساء اتخذن ذلك صنعة يتعاطينها في شهر أيلول في فصل الخريف بعد انقضاء شدة حر الصيف بالوجه الآتي. وذلك أن كثيراً من الناس يرسلون أخباراً لأصدقائهم مستفسرين وقائلين هل تريدون أن تستعملوا التلقيح. فيجتمعون ويذهبون للتفرج وحينما يجتمع خمسة عشر أو ستة عشر شخصاً في محل واحد تأتي عجوز حاملة قشرة جوزة داخلها صيد مستخرج من جدري شخص ظهر فيه الجدري. وتساءل كلاً من الحاضرين قائلة له من أي عرق تريد أن تستعمل التلقيح فيه وعلى حسب جوابه تفتح العجوز عرقاً من عروقه يحس منه بألم كآلم خدش حصل له ثم تضع فيه صديداً بقدر ما تحمل الإبرة وتغطي الجرح بنصف قشرة جوزة فتفتح على هذه الصورة أربعة أو خمسة عروق. وأما الروم فلكون أكثرهم متعصبين فإنهم يفتحون جرحاً في المعصم وآخر في الذراع أو في الصدر واعتادوا أن يتلقحوا بشكل صليب وإذا بقي أثر لهذا التلقيح فإن عاقبته ردية جداً. وبهذا الخصوص غير المتعصبين يتلقحون في الركبة أو في الذراع يعني في محل غير منظور والمتلقحون سواء كانوا صغاراً أو كباراً فسائرهم بعد تلقيحهم لا يحصل لهم شيء لحد المسا وبعد ذلك تعثرهم حمى فيضطرون حينئذ إلى أن يبقوا يومين وفي النادر ثلاثة أيام طريحي الفراش وفي النادر أيضاً يخرج في وجوههم قدر عشرين أو ثلاثين حبة من حبوب

الجدري ولا يبقى لهذه الحبوب علامة أصلاً بل في مدة ثمانية أيام يحصل لهم الشفاء التام. وعندما تكتمل الحبوب تخرج مادة مائية من المحل الذي جرى تلقيحه ولا ريب عندي في كون هذه المادة لها تأثير عظيم في تخفيف المرض وألوف كثيرة من الناس يجرون هذه العملية في كل سنة. قال سفير فرنسا كما أن الناس عندنا اتخذوا الذهاب إلى الحمامات وسيلة للتنزه كذلك هنا كل إنسان يتخذ إخراج حبوب الجدري في جسمه وسيلة للفرجة. وما اتفق لأحد قط أنه تلقح وتلف وما أقوله لكم إنني صممت على استعمال التلقيح لولدي المحبوب ومن هذا تعلمون قدر الأمانة التي لى بهذه العملية.

وصية بطرس قيصر روسيا

[وشيقة رقم ٨]

البند الأول: من اللازم أن تقاد العساكر دائماً إلى الحرب وينبغي للأمة الروسية أن تكون متمادية على حالة الكفاح لتكون أليفة الوغا. وترك وقت لراحة العساكر أو لأجل إصلاح المالية وتوفيرها وإن كان ضرورياً يلزم أن يكون تنظيم المعسكرات متعاقباً وتكون مراقبة الوقت الموافق للهجوم متصلة آنأ بآن وعلى هذه الصورة ينبغي لروسيا أن تتخذ زمن الصلح والأمان وسيلة قوية للحرب وهكذا زمن الحرب للصلح وذلك لأجل زيادة قوتها وتوسيع منافعها.

البند الثاني: في وقت الحرب ينبغي اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط الجنود من بين الملل والأقوم الذين هم أكثر معلومات في أوربا وكذلك في زمن الصلح يتعين استجلاب أرباب العلم والمعارف منهم أيضاً ويلزم الاعتناء بما يجعل الأمة الروسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحسناتها بحيث إنها لا تضيع سعياً أصلاً في تحصيل المحسنات المخصوصة بمملكتها.

البند الثالث: عند سنوح الفرصة ينبغي وضع اليد والمداخلة في الأمور المصالح الجارية في أوربا وفي اختلافاتها ومنازعاتها وعلى الخصوص في وقوعات ممالك ألمانيا الممكن الاستفادة منها بلا واسطة بسبب شدة قربها.

البند الرابع: ينبغي استعمال أصول الرشوة لأجل إلقاء الفساد والبغضاء والحسد دائماً في داخلية ممالك (له) وتفريق كلمتهم واستمالة أعيان الأمة ببذل الممالك واكتساب النفوذ في مجلس الحكومة حتى يتمكن من المداخلة في انتخاب الملك وبعد الحصول على انتخاب من هو من حزب روسيا من تلك الأمة ينبغي حينئذ دخول عساكر روسيا إلى داخل البلاد لأجل حمايتهم والتعصب لهم بإقامة

العساكر المذكورة مدة مديدة هناك إلى أن تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكننا من الإقامة وعند ما تظهر مخالفة في ذلك من طرف الدولة المجاورة فلأجل إخماد نار الفتنة مؤقتاً ينبغي أن نقاسم المخالفين في ممالك (له) ثم نترقب الفرص لاسترجاع الحصص التي تكون قد أعطيت لهم.

البند الخامس: ينبغي الاستيلاء على بعض الجهات من ممالك إسوج بقدر الإمكان ثم نسعى في اغتنام وسيلة لاستكمال الباقي منها ولا نتوصل إلى ذلك إلا بوجه تضطر فيه تلك الدولة إلى أن تعلن الحرب على دولة الروسية وتهاجمها. والذي يلزم أولاً هو أن نصرف المساعي والهمة لإلقاء الفساد والنفرة دائماً بين إسوج والدانقرقة بحيث يكون الاختلاف والمراقبة بينهم دائمين باقيين.

البند السادس: يجب على الأسرة الامبراطورية الروسية أن يتزوجوا دائماً من بنات العائلة المملوكية الألمانية وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بينهم واشتراكهم في المنافع إذ بهذه الصورة يمكن إجراء نفوذهم في داخل ألمانيا ويربطون أيضاً الممالك المذكورة لجهة منافعنا ومصالحتنا.

البند السابع: يان دولة انكلترة هي الدولة الأكثر احتياجاً إلينا في أمورها فلذلك من الواجب ترجيح الاتفاق معها في أمر التجارة على سائر الدول وبيع محصولات ممالكنا كالأخشاب وسائر الأشياء إلى انكلترة وجلب الذهب من عندهم إلى ممالكنا واستكمال أسباب الروابط والمناسبات متمادياً بين تجار وملاحى الطرفين فيتوسع بهذه الوسيلة أمر التجارة وسير الفن في ممالكنا.

البند الثامن: على الروسيين أن ينتشروا يوماً فيوماً شمالاً في سواحل بحر البلطيق وجنوباً في سواحل البحر الأسود.

البند التاسع: ينبغي التقرب بقدر الإمكان من استانبول والهند وحيث إنه من القضايا المسلمة أن منيحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا

بأسرها فلذلك من اللازم إحداث المحاربات المتتابعة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الإيرانية وينبغي ضبط البحر الأسود شيئاً فشيئاً وذلك لأجل إنشاء دار صناعات بحرية فيه والاستيلاء على بحر البلطيق أيضاً لأنه ألزم موقع لحصول المقصود وللتعجيل بضعف بل بزوال دولة إيران لتتمكن من الوصول إلى البصرة وربما تتمكن من إعادة تجارة الممالك الشرقية القديمة إلى بلاد الشام والوصول منها إلى بلاد الهند التي هي بمثابة مخزن للدنيا وبهذه الوسيلة نستغني عن ذهب انكلترة.

البند العاشر: ينبغي الاهتمام بالحصول على الاتفاق والاتحاد مع دولة أوستريا والمحافظة على ذلك ومن اللازم التظاهر بترويج أفكار الدولة المشار إليها من جهة ما تبتغي إجراؤه من النفوذ في المستقبل في بلاد ألمانيا وأما باطناً فينبغي لنا أن نسعى في تحريك عروق حسد وعداوة سائر حكام ألمانيا لها وتحريك كل منهم لطلب الاستعانة والاستمداد من دولة روسيا، ومن اللازم إجراء نوع حماية للدول المذكورة بصورة يتسنى لنا فيها الحكم على تلك الدول في المستقبل.

البند الحادي عشر: ينبغي تحريض العائلة المالكة في أوستريا على طرد الأتراك وتبعيدهم من قطعة الروملي وحينما نستولي على إستانبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دول أوستريا حرباً أو نسكن حسدها ومراقبتها لنا بإعطائها حصّة صغيرة من الأماكن التي نكون قد أخذناها من قبل، وبعده نسعى بنزع هذه الحصّة من يدها.

البند الثاني عشر: ينبغي أن نستميل لجهتنا جميع المسيحيين الذين هم من مذهب الروم المنكرين رياسة البابا الروحية والمنتشرين في بلاد المجر والممالك العثمانية وفي جنوبي ممالك (له) ونجعلهم أن يتخذوا دولة روسيا مرجعاً ومعيناً لهم ومن اللازم قبل كل شيء إحداث رياسة مذهبية حتى تتمكن من إجراء نوع نفوذ وحكومة رهبانية عليهم، فنسعى بهذه الوسيلة لاكتساب أصدقاء كثيرين

ذوي غيرة نستعين بهم في ولاية كل من أعدائنا .

البند الثالث عشر: حينما يصبح الأسوجيون متشتتين والإيرانيون مغلوبين واللاهيون محكومين والممالك العثمانية مضبوطة أيضاً حينئذ نجمع معسكراتنا في محل واحد مع المحافظة على البحر الأسود وبحر البلطيق بقوتنا البحرية وعند ذلك نظهر أولاً لدولة فرانساً كيفية مقاسمة حكومات الدنيا بأسرها بيننا ثم لدولة أوستريا ويعرض ذلك على كل من الدولتين المشار إليهما كل منهما على حدة بصورة خفية جداً لقبول ذلك وحيث إنه لا بد من أن إحداهما تقبل بهذه الصورة فعند ذلك ينبغي مداراة واحترام كل منهما ونجعل من كان منهما قابلاً بما عرضناه عليهما واسطة لتتكيل الأخرى وإذ تكون دولة روسيا حينئذ قد ضببطت جميع الممالك الشرقية ويكون مثل ذلك أعظم قطع أوربا حديثة الدخول في يد تصرفها فعنده يسهل عليها أن تقهر وتنكل فيما بعد أية دول بقيت في الميدان من الدولتين المذكورتين .

البند الرابع عشر: على فرض المحال أن كلا من الدولتين المشار إليهما لم تقبل بما عرضته عليهما روسيا فينبغي حينئذ لروسيا أن تصرف الأفكار لمراقبة ما يحدث من النزاع والخلاف بينهما فإذا وقع ذلك فلا بد أن يحصل تعب للطرفين ويشتبك هذا مع الآخر وفي ذلك الوقت يجب على روسيا أن تنتظر الفرصة العظيمة وتسوق حالاً معسكراتها المجتمعمة أولاً بأول على ألمانيا فتهاجم على تلك الجهات ثم تخرج قسمين كليين من السفن أحدهما من بحر أزاك المملو بالعساكر الوافرة المجتمعمة من أقوام الأناضول المتنوعة والثاني من ليمان أرخانكل الكائنة في البحر المتجمد الشمالي فتسير هذه السفن وتقر في البحر الأبيض والبحر المحيط الشمالي مع الأسطول المرتب في البحر الأسود وبحر البلطيق وتهاجم كالسيل على سواحل فرانساً . وأما ألمانيا فإنها تكون إذ ذاك مشغولة بحالها وبما ذكرناه تصبح المملكتان الواسعتان المذكورتان مغلوبتين على هذه الصورة فالقطعة

★ ★ ★

معاهدة قينارجه

[وثيقة رقم ٩]

المادة الأولى: كل ما سبق وقوعه بين الدولة العلية ودولة روسيا من عداوة ومخاصمة قد مُحى وأزيل من الآن إلى الأبد. وكل الأضرار والتعديات التي صار الشروع في استعمالها وإجرائها من الطرفين بالآلات الحربية وبغيرها صارت نسياً منسياً إلى الأبد ولا يجري بعد الآن ولا في وقت ما انتقام بل صار الصلح براً وبحراً عوضاً عن العدوان بوجه لا يعتريه التغير بل يُراعى ويُصان من طرفي الهمايوني ومن طرف خلفائي الأماجد وكذلك يُحفظ ويُصان ما جرى تمهيده مع ملكه روسيا المشار إليها وخلفائها من الاتفاق والمولات الصافية المؤبدة والسالمة من التغير وتستمر هذه المواد جارية ومعتبرة بكمال الدقة والاهتمام وتكون قضية الموالاة مرعية بهذه الصورة بين الدولتين وفي أملاكهما وبين رعايا الطرفين بحيث لا تقع فيما بعد ضدية بين الفريقين لا سراً ولا جهراً ولا نوع من أفعال البغضاء والأضرار. وبحسب المولات والمصافات المتجددتين تكون جرائم جميع الرعايا المتهمين لدى الدولتين وكيفما كانت تهمتهم بلا استثناء نسياً منسياً ويعرض عنها بالكلية من الجهتين والذين أخذوا منهم ووضعوا في السجون يُطلق سبيلهم وتعطى الرخصة برجوع الأشخاص الذين نفوا إلى الجهات وبعد إمضاء المصالحة يرد إليهم ما كانوا أحرزوه من الرتب والأموال أو الذين استحقوا منهم عقاباً من أي نوع كان لا يتعرض لهم بسبب ما أو بوسيلة ما أصلاً ولا بضرر وتأديب وإذا تصدى أحد لضررهم والتعرض لهم يصير تأديبه وكل من المذكورين يكون تحت حماية ومحافضة القوانين ومن الواجب معاشرتهم بحسب عادات الولايات قياساً على الولايات المتاخمة.

المادة الثانية: بعد تنقيح هذه المعاهدة المباركة ومبادلة صكوك التصديق إذا ظهر

من بعض رعايا الدولتين عدم الطاعة أو خيانة أو اتهموا بتهمة أخرى ووجدوا في بلاد إحدى الدولتين لقصد الاختفاء أو الالتجاء فهؤلاء ما عدا الذين دخلوا منهم في الدين الإسلامي في دولتي العلية والذين تنصروا في دولة روسيا لا يقبلون أصلاً ولا تجرى لهم الحماية بل بالحال يردون إلى بلادهم أو يطردون من بلاد الدولة التي التجأوا إليها وذلك حتى لا يحصل بين الدولتين بسبب هكذا أشخاص لا نفع فيهم أمر يفضي إلى البرودة بين الطرفين أو يكون باعثاً لبحث لا طائل تحته. كذلك إذا حصل من أحد رعايا الطرفين سواء كان من الإسلام أو من زمرة المسيحيين ذنب أو تقصير وعلى أي ملاحظة كانت التجأ لإحدى الدولتين فإنه ينبغي رده عند طلبه بلا تأخير.

المادة الثالثة: جميع قبائل القريم وطوائف بوجاق وقوبان ويديسان وجانبوليك ويديجكول التاتارية يصير قبولها والاعتراف بحريتها بلا استثناء من طرف الدولتين بشرط أن لا تكون تلك القبائل تابعة لدولة أجنبية بوجه ما والخانات المنتخبون من نسل آل جنكيز المستقلون في حكوماتهم باتفاق جميع طوائف التاتار يبقون على ما هم عليه يحكمون في الطوائف المرقومة بحسب قانونهم وعاداتهم القديمة بشرط أن لا يؤدوا ضريبة عن مادة ما لدولة من الدول الأخرى. ودولتنا العلية ودولة روسيا لا يتداخلان في أمر انتخاب الخانات المومأ إليهم ونصبهم ولا فيما يحدث من أمورهم المخصوصة ولا في أمور حكومتهم بوجه ما، بل يكون حكمهم نافذاً في حكومتهم وفي الأمور الخارجية كدولة مستقلة مثل سائر الدول المستقلة. وطائفة التاتار المرقومة تكون مقبولة ومعترفاً بكونها غير تابعة لأحد سوى للحق سبحانه وتعالى. وحيث إن الطائفة المذكورة هي من أهل الإسلام وكون ذاتي السلطانية الموسومة بالعدالة هي إمام المسلمين وخليفة الموحدين فإنها توجب على الطائفة المرقومة أن لا تلقى خلافاً في الحرية الممنوحة لدولتهم وبلادهم بل يجب أن تنظم أمورها المذهبية من طرفي الهمايوني بمقتضى

الشريعة الإسلامية. وأراضي كرش وأراضي القلعة المسماة بالقلعة الجديدة التي خصصت لدولة روسيا والقصبة الواقعة بجانب قريم وقوبان ما عدا ثغورها والقلاع والأماكن والأراضي التي وقع الاستيلاء عليها وجميع الأراضي الواقعة بين مياه نهري برادونسكي ودي دادزي ومياه نهري آق صو وطورله حتى دود مملكة (له) فهذه جميعها ترد للطوائف المرقومة وقلعة أوزي مع قطعها القديمة تبقى تحت تصرف دولتي العلية كالسابق. وبعد تكميل عهدة المصالحة تتعهد دولة روسيا بإخراج جميع عساكرها من الممالك التاتارية وتتعهد دولتي العلية أيضاً بكف يدها عنهما هو لها كلياً كان أو جزئياً من جميع أنواع القلاع والقصبات والمساكن وسائر الأشياء الواقعة في جزيرة القريم وجزيرة قوبان وطمان وأن لا ترسل فيما يأتي محافظاً عسكرياً للمحل المرقوم أو عساكر بل ترد الممالك المذكورة لطوائف التاتار المرقومة بالوجه المحرر وكما أن دولة روسيا جعلت الطوائف المرقومة غير تابعة لأحد ومستقلة حقيقة في حكومتها على وجه أن تكون الحرية المطلقة معمولاً بها فيها كذلك دولتنا العلية تتعهد بأن لا ترسل فيما يأتي للقصبات والقلاع والأراضي والمساكن المذكورة محافظاً عسكرياً ولا غيره من زمرة عساكر السكبان أو غيرها كيفما كان اسمهم ونوعهم والحرية الممنوحة للطوائف المرقومة من طرف دولة روسيا تمنحها لها أيضاً دولتنا العلية مع الاستقلال بحيث لا تكون الطوائف المذكورة تابعة لأحد.

المادة الرابعة: لما كان بمقتضى القواعد الأصلية المخصوصة بجميع الدول يجوز لكل دولة أن تجري في ممالكها ما تراه مناسباً من النظام فللدولتين المتعاقدين الرخصة الكاملة المطلقة بدون تقييد أن تبني ما تستنسه من القلاع والمدن والقصبات والأبنية وأن يُصلح كل منهما ويجدد ما يكون قديماً من قلاعهما وسائر أملاكهما.

المادة الخامسة: حيث إنه قد تيسر تجديد ما للجوار من حقوق الموالاة والمصافاة

بانعقاد هذه المصالحة المباركة فلدولة روسيا أن تعين من طرفها في الآستانة (انوبياتو) يعنى سفيراً متوسطاً أو مرخصاً من الدرجة الثانية فيقيم دائماً لدى دولتنا العلية وعلى الدولة العلية أن تجري للسفير الموما إليه بالنظر لرتبته مراسم الاعتبار والرعاية الجارية منها لسفراء الدول الأوفر اعتباراً. وإذا وقع احتفال رسمي عمومي وكان سفير امبراطور الألمان في رتبة رفيعة أو صغيرة فإنه يكون بعد سفير ندرلانك (أي هولاندا أو الفلمنك) الكبير وإذا لم يكن لدولة ندرلانك سفير كبير فإنه يكون بعد سفير ونديك الكبير (أي البندقية).

المادة السادسة: إذا وقعت سرقة أو تهمة عظيمة أو أمر غير لائق يستوجب التعزيز من الذين هم بالفعل في خدمة سفير دولة روسيا فبعد التقرير يجب استرداد تلك الأشياء المسروقة بالتمام على الوجه الذي يبينه السفير. والذين يتصورون قبول الدين المحمدي وهم في حالة السكر فلا يُقبلون في الدين المحمدي بل بعد زوال السكر ورجوعهم إلى حالتهم الأصلية بعود عقولهم لرؤوسهم يطلب منهم بيان إقرارهم واعترافهم في مواجهة من يرسله السفير أيضاً وأمام بعض المسلمين ممن ليس لهم غرض ثم يصير قبولهم على هذا الوجه.

المادة السابعة: تتعهد دولتنا العلية أن تصون حق الديانة المسيحية وكنائس المسيحيين صيانة قوية وتمنح سفراء دولة الروسية الرخصة بإبراز التفهيمات المتنوعة عند كل احتياج سواء كان متعلقاً في الكنيسة المذكورة في المادة الرابعة عشرة الكائنة في المحروسة القسطنطينية أو في صيانة خادميها وإذا عرض السفير الموما إليه شيئاً ما بواسطة معتمد له يتعلق بدولة مصافية ومجاورة لدولتي العلية فتتعهد دولتنا العلية قبول المعروض والمعتمد.

المادة الثامنة: تعطى الرخصة التامة لرهبان دولة روسيا ولسائر رعاياها بزيارة القدس الشريف وسائر الأماكن التي تستحق الزيارة ولا يتكلف المسافرون ولا السائحون لدفع نوع من أنواع الجزية والخراج والويركو أصلاً ولا يطلب ذلك

منهم بأثناء الطريق لا في القدس الشريف ولا في سائر الأماكن وتعطى لهم
الفرمانات بالوجه اللائق مع أوامر الطريق التي تعطى إلى رعايا سائر الدول
والذين يقيمون منهم في أراضي دولتي العلية لا يُمكن أن يحصل لهم تعرض
ومداخلة بوجه من الوجوه بل تصير حمايتهم وصيانتهم تماماً بمقتضى قوة أحكام
الشرعية .

المادة التاسعة: المترجمون الموجودون في خدمة سفراء روسيا المقيمين في
محروسة القسطنطينية من أي ملة كانوا حيث خدموا أمور الدولة وخدمتهم هذه
راجعة للدولتين فإنهم يعاملون بكمال المروءة والاعتبار ولا تجوز مواخذتهم في
الأمور المكلفين بها من طرف من هم بخدمته .

المادة العاشرة: حين إمضاء هذه المصالحة المباركة وإيصال التنبيهات اللازمة من
طرف سردارية عساكر الطرفين للمحلات المقتضية إذا حدثت خلال ذلك
مخاصمة في أي محل كان لا يعد ذلك تعرضاً وما يحصل بسبب ذلك من
الفتوحات والاستيلاء لا يعتبر ويكون كأنه لم يكن ولا أحد من الدولتين يستفيد
من مثل هذا شيئاً .

المادة الحادية عشرة: قد تقرر لأجل منفعة الدولتين سير سفنهما وسفن تجارهما
بلا مانع في جميع بحارهما وتعطى الرخصة من جانب دولتي العلية إلى سفن
روسيا وسفن تجارها بأن تتمتع بالتجارة في كل الأساكن [أي الموانئ] وكل محل
بالوجه الذي أجازته دولتي العلية في السائر الدول وأن يمكثوا في المعابر والثغور
المتصلة بالبحار المذكورة وفي عموم المرافئ والشطوط الساحلية من البحر
الأبيض إلى البحر الأسود ومن البحر الأسود إلى البحر الأبيض . وكما صار
البيان أعلاه بحق هذه المادة قد أعطيت الرخصة من جانب دولتي العلية إلى رعايا
دولة روسيا بأن يتحدوا برأ مع أهالي ممالك دولتنا العلية ويكون لهم ما حصلت
به المساعدة والمسألة والمعافيات في التجارة الحرة إلى أحب أصدقائنا فرنسا

وانكثرة ويسسرون على هذا المنوال في نهر الطونة وعند ظهور أي نوع كان من الاحتياج سواء كان في أمر التجارة أو فيما يتعلق بنفس التجار أو بالجميع تراعى شروط الملتين المذكورتين وتعتبر على الوجه المحرر لفظاً بلفظ في هذه المادة ولتجار الروسية أن ينقلوا ويخرجوا كل نوع من الأمتعة بعد أن يؤدوا الرسوم التي يعطيها غيرهم من الملل المذكورة ويجوز لهم أن يصلوا إلى سواحل ومرافئ البحر الأسود وسائر البحار وإلى محروسة القسطنطينية وقد رخص لرعايا الطرفين بالتجارة وتسيير السفن في عموم مياه المواضع المذكورة بلا استثناء وأعطت لهم الرخصة من جانب الدولتين بالإقامة في بلادهما المدة اللازمة لإدارة مصالحهم وتجارتهن وحصل التعهد بذلك من الطرفين بهذا الباب بأن يكون لتجار روسيا أيضاً ما لرعايا سائر الدول المتحابة من الحرية والمسألة ولكون المحافظة على النظام في كل المواد هي من أزم الأمور أعطيت الرخصة من جانب دولتنا العلية بتعيين قناصل ووكلاء قناصل من طرف دولة روسيا في عموم المواقع التي ترى إنها لازمة لذلك ويعتبرون في سائر الأمور مثل قناصل سائر الدول المتحابة وقد رُخص لهؤلاء القناصل ووكلاء القناصل بأن يستخدموا في معيشتهم تراجمين من المسلمين الحائزين برا آتي الشاهانية المعبر عنهم ببرأتلي ويكون لهؤلاء التراجمين ما لأمثالهم الموجودين في خدمة إنكلترة وفرنسا وسائر الملل من المعافيات وأعطيت الرخصة من جانب دولة روسيا إلى رعايا دولتي العلية بأن يتاجروا براً وبحراً في ممالك روسيا ويكون لهم ما لسائر الملل المتحابة مع روسيا من الامتيازات والمعافيات وذلك بعد أداء الرسوم المعتادة وتجري المساعدة بكل وجه لسفن الدولتين التي تطرأ عليها الطواريء في أثناء سيرها في البحر يعني عند وقوع حوادث تلزم لها الإعانة بما يلزم لجانب سائر الدول الأوفر صداقة ويؤخذ لهذه السفن ما يلزمها من الأشياء بالأسعار الجارية .

المادة الثانية عشرة: إذا رغبت دولة روسيا أن تعقد معاهدة تجارية مع

الأفريقيين أي حكومات طرابلس الغرب وتونس والجزائر فدولتنا العلية تتعهد ببذل اعتبارها وجهدها لحصول دولة روسيا على مرغوبها وتكفل حكومات الإيالات المذكورة بأنها تحافظ على الجهود المرسومة .

المادة الثالثة عشر: يلزم استعمال هذه العبارة في اللسان التركي (تماماً روسية لولرك پادشاهي) يعنى من طرف دولتنا العلية في جميع السندات وعامة المكاتيب وفي كل خصوص اقتضى وضع هذا اللقب المعتر أعني (تماماً روسية لولرك إمبراطور يجه سي).

المادة الرابعة عشرة: يجوز لدولة روسيا أن تبنتني كنيسة على الطريق العام في محلة بك أوغلي في جهة الغلطة غير الكنيسة المخصوصة قياساً على سائر الدول وهذه الكنيسة هي كنيسة العوام وتسمى باسم كنيسة دوسوغرنة وتكون تحت صيانة سفير دولة روسية إلى الأبد وتكون أمينة من كل تعرض ومداخلة وتصير حراستها .

المادة الخامسة عشرة: إنه بمقتضى النظام الذي به تعينت وتحددت حدود الدولتين يبعد عن الملاحظة وجود أمر يستوجب نزاع جسيم يوجب المباحثة لرعايا الطرفين . لكن لأجل دفع أسباب المضار والخسائر المحتمل ظهورها من عوارض غير مأمولة قد وقع القرار بالاتفاق بين الدولتين أنه عند حدوث أمر كهذا يجب على الحاكم الموجود على طرف الحدود أن يفتش على المادة التي حدثت أو أنه يجري فحصها بمعرفة مأمورين يتعينون لذلك وبعد تفتيش المادة كما ينبغي يجرون إحقاق الحق لصاحبه بلا تأخير . وحصل التعهد الصافي بأن مادة حسن النظام والموالة التي تمهدت حديثاً وانعقدت بهذه العقيدة المباركة لا تتغير أصلاً بحدوث قضايا كهذه .

المادة السادسة عشرة: ترد دولة روسيا لدولتي العلية مملكة البوجاق مع قلاع أفكرمان وكلي وإسماعيل وسائر القصبات والقرى بما فيها من جميع الأشياء

وترد لدولتي العلية قلعة بندر أيضاً وكذلك ترد لدولتي العلية إيالتي الأفلاق والبغدان مع كافة قلاعها مدنها أوقصباتها وقراياها وما هو داخلها من جميع الأشياء وقد قبلت دولتي العلية الممالك المرقومة على الشروط الآتي بيانها وتعهدت بحفظ الشروط المذكورة تماماً ووعدت بذلك وعداً معمولاً به .

أولاً: يجرى العفو عن أهالي هاته الحكومات الجديدة جميعاً من أي قسم كانوا من المراتب والكيفيات والحال والاسم والوجاهة بلا استثناء وأن تغضي عما ظن فيهم من الأعمال المغايرة وكل تهمة تتعلق بهم من الحركات التي كانت مخالفة لأمر دولتي العلية وتكون نسياً منسياً إلى الأبد وعلى موجب مضمون المادة الأولى يصير إعادتهم إلى مناصبهم ورتبهم وترد أملاكهم السابقة ويعودون إلى ما كانوا يملكونه من الأملاك قبل الحرب وتتجدد أمورهم .

ثانياً: الديانة المسيحية تكون من كل الوجه حرة كالأول ولا يحصل ممانعة لإجرائها قط ولا يمنع إحداث كنائس جديدة ولا ترميم الكنائس القديمة .

ثالثاً: الأراضي والأملاك الموجودة ضمن دائرة إبرائل وخوتين وفي سائر المواضع المأخوذة بغير حق المتعلقة من القديم بالأديرة وبسائر الأشخاص فهذه جميعها ترد للمرسومين المعبر عنهم الآن بالرعايا .

رابعاً: يكون لجماعة الرهبان الاعتبار بما يناسبهم من الامتياز .

خامساً: يرخص للأعيان الذين يرغبون التوجه إلى محل آخر بترك الوطن أن ينقلوا أشياءهم بالحرية وأن يمهلوا مدة سنة للانتقال من وطنهم وذلك ليكون لهم وقت كافي لتنظيم مصالحهم وتعتبر هذه المهلة من تاريخ التصديق على الصك .

سادساً: لا يصير تحصيل شيء لا نقود ولا خلاف ذلك من المحاسبات القديمة مهما كانت .

سابعاً: لا يصير تكليفهم ولا مطالبتهم بشيء عن مدة الحرب بتمامها بل نظراً لما صادفوه بأثناء امتداد الحرب من المضرات والتخريب قد أعطي بعد ذلك للمذكورين أيضاً مهلة سنتين تعتبر من تاريخ مبادلة صك التصديق الهمايوني .

ثامناً: بعد انقضاء هذه المهلة تتعهد دولتنا العلية بمعاملتهم بالمرؤة الكلية في أمر تعيين الجزية ونحافظ على سخائها الجليل على قدر الإمكان ويصير تأدية جزيتهم بواسطة مبعوثيهم مرة في كل سنتين وبعد أداء هذه الجزية بتمامها فلا يتعرض لهم أحد أصلاً كائناً من كان من باشا أو حاكم ولا يطالبون بشيء ما من اقتراح الضرائب بأي اسم كانت بل يكونون متمتعين بالامتيازات التي تمتعوا بها في الزمن السعيد أيام سلطنة جدي الأمجد السلطان محمد خان الرابع .

تاسعاً: يرخص لأمرأى هذه الحكومات أن يقيم كل منهم من طرفه وكيلاً لدى دولتي العلية باسم مصلحتكدار ويكون هؤلاء الوكلاء نصارى من ملة الروم بدلاً عن القبو كتحدايات الذين كانوا يتعاطون رؤية أمور الملك وتجرى بحقهم من جانب دولتي العلية المعاملة بكمال المرؤة وينالون ما يستحقونه بحسب قواعد الملل أي أنهم يكونون معتبرين ومن كل تعرض آمنين ومصانين .

عاشراً: تعطى الرخصة وتحصل الموافقة من جانب الدولة العلية إلى سفراء امبراطورية روسيا بأن يتذكروا عند الاقتضاء فيما يتعلق بصيانة ومساعدة الحكومتين المذكورتين وتتعهد الدولة العلية برعاية ما يعرضه سفراء الروسية من المواد بحسب اعتبار الصداقة اللائقة بالدولتين .

المادة السابعة عشرة:

أولاً: يلزم دولة روسيا أن ترد إلى دولتي العلية جزائر البحر الأبيض التي هي الآن تحت حكمها وتتعهد دولتي العلية بأن تجري في حق أهل الجزائر المذكورة كمال الرعاية والعدل وتعاملهم بالعفو عن جميع أنواع القباحات [أي الجرائم] المصرح بها في المادة السالفة وعموم الأفعال التي جرت بمظنة المخالفة لأمر دولتي العلية فهذه جميعها تكون نسياً منسياً ومعفى عنها بالكلية.

ثانياً: لا يصير أدنى تعرض وتضييق على ديانة المسيحيين ولا يحصل ممانعة بوجه ما في أمر تعمير وتجديد الكنائس ولا يصير التعرض والمداخلة أصلاً في حق الأشخاص الذين يخدمون الكنائس المذكورة.

ثالثاً: بسبب التكديرات والتخريبات التي أورثتها لهم هذه المحاربة من تاريخ وجودهم تحت حكومة دولة الروسية وبعد مرور سنتين من تاريخ استرداد الجزائر المذكورة لدولتي العلية لا يُستحصل من أهالي الجزائر المذكورين رسم «سنوي» من أي نوع كان أصلاً.

رابعاً: الذين يرغبون في ترك الوطن ويريدون التوجه إلى بلاد أخرى تعطى لهم الرخصة من جانب دولتي العلية بنقل أموالهم وأشياءهم ولكي يكون لهم وقت كافٍ لتنظيم مصالحهم يمهلون مدة سنة كاملة اعتباراً من تاريخ مبادلة التصديق على صك المعاهدة.

خامساً: يلزم رجوع أسطول روسيا من مياه الدولة العلية في مدة ثلاثة أشهر من بعد مبادلة التصديق على هذا الصك وإذا احتاج الأسطول لشيء فعلى دولتي العلية أن تعينه على قدر الإمكان.

المادة الثامنة عشرة: قلعة قلوبرون الواقعة في بوغاز أوزي صوي مع مقدار كافي من الأراضي الكائنة في ساحل الطرف الشمالي من النهر المذكور مع الصحراء الخالية الواقعة بين آق صو وأوزي صو تبقى مستقلة على الدوام تحت تصرف روسيا بلا معارضة.

المادة التاسعة عشرة: يكي قلعة الواقعة في جزيرة القريم وجميع ما هو موجود داخل كرش وثغورها مع أراضيها من البحر الأسود حتى حدود كرش القديمة طولاً لحد المحل المسمى بوخاجه وسن بوخاجة على خط مستقيم من الأعلى إلى بحر أزاق يبقى تحت تصرف روسيا على الدوام بلا معارضة.

المادة العشرون: بحسب مفهوم السندات التي عُقدت بين الحاكم تولستوي وبين حسن باشا محافظ آجو بتاريخ ١٧٠٠ ميلادية و ١٣٠٠ هجرية خُصصت قلعة أزاق بحدودها الأولى إلى دولة روسيا للأبد.

المادة الحادية والعشرون: وحيث إن القبارطين أي القبارطة الكبيرة والقبارطة الصغيرة لهما تعلق مع خانات القريم بسبب وقوعهما في جوار طائفة التاتار قد أحيلت مادة تخصيصهما لدولة روسيا إلى خانات القريم ومشورتهم وإلى رأي رؤساء التاتار.

المادة الثانية والعشرون: قد تقرر بالاتفاق بين الدولتين محو وإزالة جميع الشروط والعهود السابق والعهددة الواقعة في قلعة بلغراد المنعقدة بينهما وما حدث بعدها من كافة الشروط محواً أبدياً وهو أن كلاً من الدولتين المتعاقبتين لا يقوم بداعية ما من حيث العهود المذكورة ويستثنى من تلك الشروط الواقعة في سنة ١٧٠٠ ميلادية بين الحاكم تولستو وبين حسن باشا محافظ قلعة آجو فيما يتعلق بتعيين وتحديد حدود القلعة المذكورة وحدود قوبان فإن الشروط المذكورة تبقى كالأول بلا تغيير.

المادة الثالثة والعشرون: إن قلاع بغداد جق وكوتانسي وشهربان الكائنة في حوالي كورجي ومكريل المستولية عليها عساكر الروسية تقبلها دولة الروسية على أن تكون هذه القلاع لأصحابها الأصليين وذلك أنه بعد التحقيق إذا تبين أن دولتي العلية كانت مالكة لها منذ القديم أو منذ مدة مديدة حيثذ تكون عائدة لدولتي العلية وبعد مبادلة التصديق على هذا الصك المبارك تخلى عساكر الروسية القلاع المذكورة في الوقت المعين ودولتي العلية تتعهد أيضاً بحسب مضمون المادة السابقة بأن تشمل بالعفو جميع الذين صدرت منهم حركات ضد دولتي العلية في أثناء امتداد المحاربة وأن تكف يدها إلى الأبد عن أخذ الويركو عن الصبيان والبنات وعن طلب أي نوع كان من الجزية وأنه ما عدا الذين لهم تعلق بها من القديم لا تدعى على فرد واحد من الطوائف المذكورة بكونه من رعاياها وأنها تترك مرة أخرى جميع الأراضي وسائر الاستحكامات التي ضبطها الكرجيون والمكربون لحكومتهم ولحافظتهم المطلقة وأنها لا تتعرض ولا تجرى تضييقاً على أديرة وكنائس الديانة بوجه ما ولا تمنع ترميم القديم ولا بناء الجديد منها وبأن تمنع باشة چلدر وجميع رؤساء الجيوش والضباط من التعرض بأي داع كان لأموال الأديرة والكنائس المذكورة وإضاعتها ولا تتعرض دولة الروسية للطوائف المذكورة ولا تتداخل في أمورهم لأنهم من رعايا دولتي العلية.

المادة الرابعة والعشرون: بعد إمضاء المواد والتصديق عليها تتهياً بالحال جميع عساكر الروسية الموجودة في الجهة اليمنى من نهر الطونة للعودة والرجوع بحيث في ظرف شهر واحد تقطع الضفة اليسرى من نهر الطونة المذكور وبعد مرور العساكر المذكورة تماماً إلى الضفة اليسرى المرقومة يصير إخلاء قلعة حرسوه وتسلم لعساكر الإسلام وبعده تحصل المبادرة دفعة وفي آن واحد لتخلية مملكتي الأفلاق والبوجاق وقد تعين لهذا الإخلاء مهلة شهرين وبعد انسحاب كافة عسكر روسيا من المملكتين المذكورتين تترك عساكر روسيا من الجهة الواحدة قلعة

يركوك وبعده قلعة إبرائل ومن الجهة الأخرى قصبة إسماعيل وقلاع كلي أفكرمان وتسير متوجهة لتلتحق بسائر عساكرها تاركة القلاع المذكورة للعساكر الإسلامية وقد خصص لتخلية الملكتين المذكورتين مهلة ثلاثة أشهر وبعد ذلك تترك عساكر روسيا مملكة بغداد وتمر في الجهة اليسرى من نهر طورله وعلى هذه الصورة تحصل تخلية المواضع والممالك السابق ذكرها يعني في مدة خمسة أشهر بعد إمضاء المعاهدة والمصالحة المؤبدة بين الدولتين وعند مرور كافة عساكر روسيا للضفة اليسرى من نهر طورله حينئذ يصير تسليم قلاع خوتين وبندر للعساكر الإسلامية وأما أراضي قلوبون التي سبق التصريح عنها وزاوية الصحراء الواقعة بين آق صو وأوزي صو يصير تسليمها على الوجه الموضح في المادة الثامنة عشر بهذه الشروط وفي الوقت المذكور لدولة روسيا وتكون إلى الأبد مصانة من التعرض. وعلى عساكر روسيا الموجودة في جهات جزائر البحر الأبيض أن تجري بالسرعة الممكنة ما يتعلق بأسطول الجزائر المذكورة من المصالح والتنظيمات الداخلية وترد الجزائر المذكورة كالأول لتضبطها دولتي العلية مصانة من التعرض لأنه نظراً لبعد المسافة لا يمكن تعيين وقت لذلك. ونظراً لاستعجال عزيمة أسطول روسيا ولكونها دولة مصافية فدولتي العلية تتعهد بإعانة الأسطول المذكور في إيفاء لوائمه وبإعطائه كل شيء من الوسع والإمكان وما دامت عساكر روسيا موجودة في الممالك المستردة لدولتي العلية على الصورة المذكورة فحكومتها وما يتعلق بها من النظمات تستمر جارية فيها كما كانت في الوقت الذي كانت فيه بيدها. وإلى حين خروج جميع عساكر روسيا من الممالك المذكورة لا تقع مداخلة من جانب دولتي العلية في أمورها ويبقى العمل في كيفية تناول ما يلزم من المأكولات ومداركة سائر لوازم عساكر روسيا في الممالك الموجودة فيها على ما هو الآن إلى حين خروجها منها تماماً ولا تضع دولتي العلية قدماً في القلاع المستردة المذكورة ما لم يرسل سر عسكر روسيا الأول الخبر إلى مأموري دولتي

العلية الذين عُينوا لهذا الأمر بتخلية وفراغ كل محل من الممالك المذكورة وبعدم إجراء حكومتها فيها. والذخائر والمهمات التي للروسيا في هذه القلاع والقصبات يصير إخراجها من طرف عساكر روسيا بالوجه الذي تريده وتترك مدافع دولتي العلية التي وجدت في القلاع المستردة لدولتي العلية. والذين استعملوا في خدمة دولة روسيا من أهالي الولايات المستردة لدولتي العلية من أي جنس وفي أي حال وكيفية كانوا إذا رغبوا في الانسحاب والانتقال بأهلهم وعيالهم وأموالهم مع عساكر روسيا في المدة السنوية المنعقدة لا يمنعون وتتعهد دولتي العلية بعدم ممانعتهم بأي وجه كان بموجب الشروط المذكورة سواء خرجوا من ذلك الزمن أو في مدة سنة كاملة.

المادة الخامسة والعشرون: جميع أسرى الحرب من ذكور وإناث من أي درجة ورتبة كانوا يسرحون ويردون إلى أوطانهم ما عدا المسيحيين الذين دخلوا في الدين المحمدي بإرادتهم في دولتي العلية والمسلمين الذين تنصروا بإرادتهم في أثناء وجودهم في أراضي روسيا وهذا كله بعد مبادلة التصديق على صكوك هذه العهدة المباركة حالاً بلا عذر أصلاً وبلا عوض وبغير فدية وكذلك جميع المسيحيين الذين وقعوا في الاسترقاق من لهيين وبغدانين وأفلاقيين ومن أهالي المورة والجزائر والكرجين كافة بلا استثناء يعتقدون بلا ثمن وبغير عوض وكذلك الذين استرقوا من رعايا روسيا ووجدوا في ممالك المحروسة يصير تسليحهم وردهم إلى موطنهم وذلك بعد انعقاد هذه المصالحة المباركة وكذلك تجري هذه الأمور أيضاً بهذه الصورة عينها في حق رعايا دولتي العلية.

المادة السادسة والعشرون: لأول وصول الخبر عن إمضاء هذه المواد إلى القرم وأوزي يخابر سر عسكر روسيا الموجود في القرم بالواقع محافظ أوزي وفي مدة شهرين يرسلان مأمورين معتمدين لأجل تسليم وتسليم قلعة قلوبرون مع الصحارى المصرحة في المادة الثامنة عشرة التي مر ذكرها المعتمدون المذكورون

يجرون تمام المادة المذكورة في مدة شهرين من تاريخ مقابلتهم واجتماعهم يعنى أن المادة المذكورة تجري بتمامها في مدة أربعة أشهر من تاريخ يوم إمضاء هذه المعاهدة وإن أمكن ففي أقل من ذلك بدون تأخير يخبرون الصدر الأعظم والفلد مارشال عن إكمال مأموريتهم .

المادة السابعة والعشرون: لأجل زيادة تأكيد وتمهيد وتقوية لهذه المصالحة المباركة والموالة والمصافات بين الدولتين يصير بعث وتسيير سفيرين كبيرين فوق العادة حاملين صكوك التصديق لهذه المصالحة الخيرية ويكون ذلك في الوقت الذي يتعين برضاء الطرفين فيتقابل السفيران في رأس الحد بمعاملة متماثلة ويراعى بحق السفيرين الموما إليهما الرسم المعتاد المرعي بحق سفراء دول أوروبا الأوفر اعتباراً لدى دولتي العلية وترسل هد ايا بواسطة السفيرين الموما إليهما لائحة بشأن دولتيهما ليكون ذلك دليلاً على صفاء الجهتين .

المادة الثامنة والعشرون: بعد إمضاء مواد هذه المصالحة المؤبدة من معتمدي دولتي العلية وهما الموقع الرسمي أحمد ورئيس الكتاب إبراهيم منيب دام مجدهما ومن مرخص دولة روسيا البرنس رينين جنرال لفونتا ختمت عواقبه بالخير تصدر التنبيهات من جانب الصدر الأعظم والجنرال فلدمارشال إلى جميع عساكر الدولتين الموجودة براً وبحراً في كل جهة لمنع كل نوع من معاملة خصامية بينهم ويرسل أيضاً في الحال من جانب الصدر الأعظم والجنرال فلدمارشال معاونين إلى أساطيلهم الموجودة في البحر الأبيض والبحر الأسود وتجاه بلاد القرم وإلى جميع المواقع الحربية لمنع العدوان وأسباب القتال في كل محل بعد انعقاد المصالحة . والمعينان المرسلان من طرف الصدر الأعظم والجنرال فلدمارشال لابد أن يكونا بحسب التنبيهات مصانين ومأمونين من كل وجه . وإذا سبق وصول معاون روسيا إلى سر عسكرها فالمؤما إليه يبعث إلى سر عسكر دولتي العلية أمر الصدر الأعظم الحاوي على التنبيه وإن سبق وصول معاون

الصدر الأعظم يبعث سر عسكر الدولة العلية إلى سر عسكر روسيا أمر
الفلدمارشال الخاوي كذلك على التنبيه وبما أن الصدر الأعظم وفلدمارشال دولة
روسيا بترو قونت رومانجوف قد فوض إليهما من طرفي الهمايوني ومن طرف
إمبراطورية روسيا المشار إليها أمر تمهيد عقود وعهود عهدة الصلح المباركة المنعقدة
فجميع مواد الصلح المؤبد المسطورة في العهدة المذكورة يصير إمضاؤها من طرف
الصدر الأعظم والفلدمارشال وختمها باختامهما للتصديق كما لو كانت جرت
بحضورهما. والمواد المنعقدة التي تمهدت وصار الوعد بها تراعى مراعاة قوية
بدون تغيير ولا تبديل وتجري بالدقة بحسب منطوقها ولا يفعل شيء مخالف لها
قطعاً. ويحرر في المواد المذكورة التي تقررت وجرى التصديق عليها من طرف
الصدر الأعظم والفلدمارشال الموماً إليهما سندان ممضيان بإمضائهما ومختومان
بختميهما : أحدهما وهو سند الصدر الأعظم يتحرر بالتركية والإيطالية وسند
الفلدمارشال يكتب بالروسية والإيطالية أيضاً وبمقتضى الرخصة المعطاة إلى
المرخصين من طرف الدولتين ينبغي أن يوصلوا إلى الفلدمارشال السند الواحد
باعتبار كونه صادراً من جانب دولتي العلية وبعد إمضاء المواد بخمسة أيام وإن
أمكن في مدة أقل من ذلك تجري مبادلة السندات وحالما يسلم المرخصون سندات
الصدر الأعظم يأخذون سندات الفلدمارشال القونت رومانجوف.

* إن ما جرى تجديده وتمهيدته بحسب المواد المذكورة من الصلح والصلاح المبطل للحرب والكفاح يكون مقررًا ومعتبرًا من بعد الآن وبحسب ما اعتادت عليه سلطتني من شيم الصداقة الكريمة ومن الوفاء بالعهود فلإننا نجري العهد والميثاق والتصديق تمامًا ونراعي حق الرعاية جميع ما وقع من قيود وشروط في الثماني والعشرين مادة المذكورة ونجري جميع عهود ومواثيق الصلح والصلاح وكذلك شرط المادتين المحررتين في نيشاني الهمايونيين اللذين صار إعطاؤهما ويكون ذلك مدة دوام واستمرار المواد التي صار تأييدها والتصديق عليها من مرخص دولة روسيا ومرخصنا بحيث إنه لا يحصل فيها خلل ولا مخالفة من طرفها ولا من طرفنا السلطاني الهمايوني ولا من طرف أخلافنا ووكلائنا ذوي المقام المتصفين بالإنصاف والميرميرانيين أصحاب الاحتشام والأمراء ذوي الاحترام وعموم عساكرنا المنصورة وكافة المتشرفين بشرف العبودية من صنوف الخدمة .

* ذكرنا مادتين في خاتمة المعاهدة إحداهما تضمين المصاريف الحربية وذلك لأن الدولة العلية كانت تعهدت بتأدية خمسة عشر ألف كيس للروسيا في مدة ثلاث سنين يدفع منها في كل سنة قسط وهو خمسة آلاف كيس والمادة الثانية سرعة تخلية جزائر البحر الأبيض تأييداً لما هو مذكور في المادة السابعة عشرة من العهدة المذكورة . وأسطول روسيا الموجود في البحر الأبيض وإن كان مشروطاً في المادة المذكورة إنه يخرج في مدة ثلاثة أشهر فدولة روسيا قد تعهدت بإخراجه قبل المدة المذكورة إذا أمكن .

[وثيقة رقم ١٠]

[دفتر مصاريف إيالة البغدان في زمن بكوات الفغار]

غروش	
جزية.	٤٠٠,٠٠٠
هدية العيد.	٦٠,٠٠٠
هدايا خفية لدار السعادة.	٢٥٠,٠٠٠
تقدمه لمقام الصدارة .	١٤,٠٠٠
إلى المأمور المقيم من طرف خان القريم.	٩,٢٠٠
تعيينات محافظ قلعة خوتين.	١٦,٠٠٠
إلى خان القريم.	٤٥,٠٠٠
إلى الباشاوات الذين يأتون بالمأمورية إلى جوار الإيالة.	١٢٠,٠٠٠
إلى جماعة البك الذين يأتون لدار السعادة ويذهبون منها .	٦٥,٠٠٠
إلى عيديات عساكر الإسلام الموجودة في ياش.	٤,٥٠٠
إلى مستشفياتهم.	٢,٠٠٠
آمدية للبك.	١٢,٠٠٠
إلى التاتاريين الذين يشتغلون في دار السعادة وفي سائر المحلات.	٧٠,٠٠٠
مصاريف قرطاسية كتاب البك في التركية والروسية.	١,٠٠٠
لتعميرات ومفروشات القصر.	٢٦,٠٠٠
لأجل ملابس خدام القصر.	٤,٠٠٠

مصاريف المطبخ وغيرها.	٤٠,٠٠٠
بخشيش عيد الفصح لجماعة القصر.	٣٠,٠٠٠
للخوارنة ومصارف الكنيسة.	٣٠,٠٠٠
مصاريف عسكر السكبان الموجودين في خدمة البك.	٣٢,٠٠٠
مصاريف التفكجية الأرناؤوط.	٢٠,٠٠٠
مترخانة (محل الموسيقى).	١٥,٠٠٠
تمن يشحق (نقاب) لزوجة البك وسائر مصارفها.	٣٨,٠٠٠

(المجموع) ١,٤١٣,٧٠٠

الغرش في ذلك التاريخ يبلغ الآن بحساب الصاغ أحد عشر غرشاً فلذلك يكون المبلغ المذكور في زماننا هذا عبارة عن ثلاثين ألف كيس وكسور. هو كما لا يخفى ثقیل جداً وبالقياس على هذا يعلم حال الأفلاق.

* * * * *

أولاً: باللغة التركية (العثمانية):

- * أحمد رفعت أفندي، لغات تاريخية وجغرافية، محمود بك مطبعة سي،
إستانبول، ١٢٩٩هـ.
- * بروسه لي محمد طاهر، عثمانلي مؤلفري، مطبعة عامرة، إستانبول،
١٣٣٣هـ.
- * جمس رد هاوس، كتاب معاني لهجة، استانبول، ١٣٠٢هـ.
- * حاجي بك زاده أحمد مختار، عثمانلي مملكتلري، إستانبول، ١٣١٤هـ.
- * شمس الدين سامي:
- قاموس الأعلام - تاريخ وجغرافيا لغاتني وتعبير أصله كافه أسماء خاصة
جامعدر، إستانبول، ١٣٠٦هـ. (٦ مجلدات)
- قاموس تركي، إستانبول، ١٣١٧هـ.
- * محمد ثريا، سجل عثمانلي ياخود تذكره مشاهير عثمانية، مجلد ١،
إستانبول، ١٣٠٨هـ.
- * محمد علي الأنسي، الدراري اللامعات في منتخبات اللغات، إستانبول،
١٣٢٠هـ.

ثانياً: باللغة التركية (الحديثة):

- * Enver Ziya karal, Osmanlı Tarihi, VI. Cilt, Ankara, 1988.
- * Hayat: Büyük Türk Sözlüğü. - Istanbul: Hayat yay (seuket + Rado),
[197-]

- * Ismail Hakki Uzunçarsili, Oasmanli Tarihi, I. Cilt, Ankara, 1988.
- * Ismail Hami Danismend, Izahli Osmanli Tarihi Kronolojisi, I. Cilt, Istanbul, 1971.
- * Midhat Sertoğlu, Osmanli Tarih Lügat, Enderun Kitabevi. Istanbul.
- * Türk Ansiklopedisi.. Istanbul; Ankara: Milli Egitim Bakanligi

1971-1984.

- * Ümid Meric Yazan, Cevdet Pasanin Toplum ve Devlet Görüşü, Istanbul, 1992.
- * Yusuf Halaçoğlu, M. Akif Aydın, Islam Ansiklopedisi, C7, Türkiye Diyanet Vakfi, Istanbul, 1993.
- Yücel özakay, Ahmed Cevdet Pasanin Tarih’inde Arsiv Belgelerini Kullanis ve Degerlendirisi, Ahmed cevdet Pasa Semineri, Istanbul üniversitedsi, 1986.
- Zeki Arikan, cevdet Pasanin Tarihinde Kullandigi Yabancı Kaynaklar ve Terimler, Ahmed cvdet semineri, Istanbul üniversitesi, 1986.

ثالثاً: - باللغة العربية:

- * إبراهيم بك حليم، التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- * إبراهيم مصطفى وآخرون (إخراج) المعجم الوسيط، دار الدعوة إستانبول، ١٩٨٦م.

* أبو الفداء الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، مج ٦، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٨ هـ.

* أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، القاهرة، ١٩٧٩ م.

* أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦ م.

* أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩ م.

* أحمد فهد الشوابكة (دكتور)، حركة الجامعة الإسلامية، مكتبة المناره، الزرقاء (الأردن) ١٩٨٤.

* أورخان محمد علي، السلطان عبد الحميد الثاني، دار الأنبار، الرمادي (العراق)، ١٤٠٧ هـ.

* جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

* ج.هـ. كرامرز، مادة «تنظيمات» دائرة المعارف الإسلامية، ج ٥.

* حسن كافي الأقحصاري، أصول الحكم في نظام العالم، دراسة وتحقيق د. إحسان صدقي العمدة، ذات السلاسل، الكويت، ١٤٠٧ هـ.

* حسين محيب المصري، معجم الدولة العثمانية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٧ م.

* خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦ م.

* روبير مانتران (إشراف)، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة من الفرنسية بشير السباعي، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٣ م.

* سمير كرم (مترجم)، الموسوعة الفلسفية، إعداد لفيف من الباحثين، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٧م.

* سهيل صابان (دكتور):

- الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري، رسالة دكتوراه، قسم الثقافة الإسلامية في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٥هـ.

* عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الإسلامي، دار القلم، دمشق، ١٤٠٧هـ.

* عبد الكريم رافق (دكتور)، العرب والعثمانيون، دمشق ١٩٧٤م.

* عبد اللطيف بن محمد الحميد (دكتور):

- موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس، الرياض، ١٤١٤هـ.

- سقوط الدولة العثمانية - دراسة تاريخية في العوامل والأسباب - مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٦هـ.

* عبد الله مرداد أبو الخير، المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة، اختصار محمد سعيد العامودي، وأحمد علي، ج١، نادي الطائف الأدبي، الطائف، ١٣٩٨هـ.

* علي حلمي الداغستاني، فهرس الكتب التركية الموجودة في الكتبخانة الخديوية، المطبعة العثمانية، القاهرة، ١٣٠٦هـ.

* علي حيدر، درر الحكام شرح مجلة الأحكام، تعريب فهمي الحسيني، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

* علي عبد الواحد وافي (محقق)، مقدمة ابن خلدون، ج١، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).

- * فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، بيروت، ١٩١٣م.
- * ك. سوسيه، مادة «أحمد جودت باشا»، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١.
- * ماجدة صلاح مخلوف، (دكتوراه) معروضات أحمد جودت باشا - دراسة وتحقيق وترجمة إلى العربية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٨٣م.
- * محسن عبد الحميد، جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.
- * محمد حرب (دكتور)، السلطان عبد الحميد الثاني، دار القلم، دمشق، ١٤١٠هـ.
- * محمد شفيق غربال (إشراف)، الموسوعة العربية الميسرة، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٢م.
- * محمد ضياء الدين الرئيس، في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٩م.
- * محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق الدكتور إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٨هـ.
- * محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.
- * محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٤٠٥هـ.
- * المنجد في الأعلام، نخبة من الباحثين، الطبعة التاسعة عشرة، دار الشرق، بيروت، ١٩٩٢م.

* هاملتون جب وهارولدببون، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠م.

* وفاء أحمد قطب، فكرة الإصلاح في تذاكر أحمد جودت باشا، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٤١٥هـ.

* وهبة الزحيلي، جهود تقنين الفقه الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٨هـ.

* يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة د. محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، إستانبول، ١٩٨٨م.

رابعاً: باللغة الإنجليزية:

- Ercüment Kuran, Ottoman Historiography of the Tanzimat period, Historians of the Middle East, Edited by: Bernard Lewis and P.M.Holt, London, 1964.
- Foreign Office, The Rise of Islam and Caliphate The pan - Islamic Movement, London, 1919.
- James W. Redhouse, Aturkish and English Lexicon, Constantinople, 1890.

الفهارس

- ١ - فهرس الأعلام والمواضيع .**
- ٢ - فهرس مصادر ومراجع التحقيق .**
- ٣ - فهرس محتويات الكتاب .**

فہرس

الأعلام والمواضع والبلدان

فهرس

مصادر و مراجع التحقيق

فهرس

محتويات الكتاب

الصفحة	المحتويات
٥	مقدمة التحقيق.
٩	مقدمة الطبعة الأولى (١٣٠٨هـ / ١٨٩٠م) بقلم المترجم.
١٢	ترجمة حال حضرة صاحب الدولة جودت باشا، بقلم المترجم.
١٨	القسم الأول: أحمد جودت باشا حياته وآثاره وفكره ودراسة لكتابه.
١٩	المبحث الأول: (حياته وآثاره التاريخية والعلمية).
١٩	مولده ونشأته.
٢٠	مناصبه الإدارية والسياسية.
٢١	مناصبه العلمية.
٢٣	آثاره التاريخية.
٢٤	تاريخ جودت.
٢٦	معروضات أحمد جودت باشا.
٢٨	تذاكر أحمد جودت باشا.
٢٩	قصص الأنبياء وتواريخ الخلفاء.
٣٦	تاريخ القرم والقوقاز.
٣٠	ترجمة الفصل السادس من مقدمة ابن خلدون.
٣٠	آثاره العلمية الأخرى.
٣١	مجلة الأحكام العدلية.
٣٢	بقية آثاره.
٣٣	من كتبه المطبوعة المؤلفة بالعربية.
٣٣	من كتبه المؤلفة بالتركية.

الصفحة	المحتويات
٣٥	المبحث الثاني (الأوضاع السياسية والفكرية في عصره). _____
٣٥	الدولة العثمانية من الازدهار إلى التوقف. _____
٣٦	الدولة العثمانية في مراحل الضعف والتقهقر _____
٣٧	الدولة العثمانية في مفترق الطرق. _____
٤١	المبحث الثالث (منهجه وفكره الإصلاحية). _____
٤٦	جودت باشا وسياسة الجامعة الإسلامية. _____
	المبحث الرابع (منهجه في كتابة التاريخ ودراسة لكتابه وتحليل مادته
٤٩	وبيان مصادره). _____
٥٣	عرض للكتاب وتحليل مادته _____
٥٤	المجلد الأول. _____
٥٨	رأي جديد. _____
٦٢	المجلد الثاني. _____
٦٢	المجلد الثالث. _____
٦٣	المجلد الرابع. _____
٦٣	المجلد الخامس. _____
٦٤	المجلد السادس. _____
٦٤	المجلد السابع. _____
٦٥	المجلد الثامن. _____
٦٥	المجلد التاسع. _____
٦٥	المجلد العاشر. _____

الصفحة	المحتويات
٦٥	المجلد الحادي عشر .
٦٦	المجلد الثاني عشر .
٦٦	مصادر الكتاب .
٦٦	الوثائق .
٦٨	المصادر التركية العثمانية .
٦٨	المصادر العربية .
٦٩	المصادر الأوروبية .
٧١	القسم الثاني: نصُّ الكتاب .
٧٢	مقدمة المؤلف .
٧٦	ذكر مآخذ هذا التاريخ .
٩٣	تنبيه .
٩٥	الفصل الأول: في بيان لزوم علم التاريخ وفائدته .
٩٩	الفصل الثاني: في أطوار الحكومات وأقسامها .
	الفصل الثالث: في بيان أحوال الدول الإسلامية السابقة ومبدأ ظهور
١٠٤	الدولة العلية
١١٨	استطراد
١٢٢	الفصل الرابع: في بيان أحوال الدولة العلية المختلفة .
١٣٧	استطراد .
١٤٥	استطراد .
١٤٦	[حالة الدولة بعد عهد مراد الرابع].

المحتويات	الصفحة
[وقوعات روسيا].	١٥٧
استطراد في صناعة الطباعة	١٧٢
[الدولة العثمانية في منتصف القرن الثاني عشر الهجري].	١٨٢
فذلكة .	١٩٥
الفصل الخامس: في ذكر الخلل الذي طرأ على قوانين الدولة العلية.	١٩٦
[النظم الإدارية والعسكرية في الدولة العثمانية].	١٩٧
الخلل الذي طرأ على الجوانب العلمية .	٢٢٨
الفصل السادس: في فن الحرب .	٢٤١
الفصل السابع: في الأمور البحرية .	٢٥١
جهاد خير الدين بارباروس .	٢٦١
البحرية العثمانية بعد خير الدين .	٢٧٣
الفصل الثامن: يتعلق بأصول أوربا وأحوالها السابقة واللاحقة .	٣٠٤
[التمدن في قارة آسيا].	٣٠٤
[وقوعات أوربا].	٣٠٩
[أوربا بعد ظهور الإسلام].	٣٢٨
[الحروب الصليبية].	٣٥٠
[أوربا والدولة العثمانية].	٣٦٦
استطراد .	٣٩٦
[تلقيح داء الجدري].	٣٩٦
[اقتسام بولندا واختلال الوضع في فرنسا]	٤٠١

المحتويات	الصفحة
[توسع روسيا].	٤٠٦
استطراد.	٤١٤
[المسكوكات القديمة].	٤١٤
[المسكوكات العثمانية].	٤٢٤
الفصل التاسع: فيما يتعلق بأحوال جهات القرم وقافقاس.	٤٣٠
استطراد.	٤٣٢
[قراية الرضاع لدى أهل القرم والقوقاز].	٤٣٢
التجاء منكلى كراي خان للدولة العلية.	٤٣٥
إحداث رتبة قالقاي.	٤٣٧
ترجمة أحوال سعادة كراي خان.	٤٣٧
خانية صاحبكراي.	٤٣٨
خانية دولتكراي وأخذه الروسيين تحت الخراج.	٤٤٠
إحداث لقب نور الدين.	٤٤١
تقديم اسم السلطان وتأخير أسماء خانات القرم في الخطب.	٤٤٢
حدوث خدمة آغاوية الخان.	٤٤٤
مجمّل أحوال خانات القريم المتأخرين.	٤٤٦
ترجمة حال رزمي بهادر كراي خان.	٤٤٨
ترجمة حال إسلامكراي خان الثاني.	٤٥٠
ترجمة حال حاجي سليم كراي خان.	٤٥١
ترجمة حال دولتكراي خان الثاني وآخر أحوال القريم.	٤٥٢

الصفحة	المحتويات
٤٥٢	أقسام ممالك قافقاسيا .
٤٥٧	ذكر بعض الوقائع السالفة في ديار القافقاس .
٤٦٥	ذكر بعض أحوال مخصوصة تتعلق ببلاد الجراكسة .
٤٦٧	استطراد .
٤٦٧	[الأجناس البشرية] .
٤٦٩	عقائد قبائل الجراكسة قديماً .
٤٧٥	أخلاق الجراكسة وعاداتهم .
٤٨٥	الآفلاق والبغدان .
٤٩٥	الفصل العاشر: تاريخ البلاد العربية وما حواليتها .
٤٩٥	[أوائل أحوال مصر] .
٥٠٢	أوائل أحوال الجزائر .
	ذكر نهاية حال علي بك .
٥٠٤	ذكر كيفية إدارة جبل لبنان الماضية والحاضرة وأصول حكمه
٥١٠	ورسومهم القديمة وعدد أهاليه وأقسامه .
٥١٩	عادات الدروز وعقائدهم .
	كيفية ديانة النصيرية .
٥٣٦	كيفية ظهور الظاهر عمر وظهور الجزائر وشهرته في بر الشام وبعض
٥٣٩	حروبه فيه .
٥٤٥	أحوال العراق .
٥٤٨	أحوال أراضي إيران .

الصفحة	المحتويات
٥٥١	وجاق البابان .
٥٥٤	ذكر الأوراق التي وعدنا بها في أثناء الكتاب .
٥٥٤	[وثيقة رقم ١] .
٥٥٥	تقرير آخر .
٥٥٦	تقرير آخر .
٥٥٧	[وثيقة رقم ٢] .
٥٥٨	[وثيقة رقم ٣] .
٥٦٠	[وثيقة رقم ٤] .
٥٦٣	[وثيقة رقم ٥] .
٥٦٥	[وثيقة رقم ٦] .
٥٦٧	[وثيقة رقم ٧] .
٥٦٩	[وثيقة رقم ٨] : وصية بطرس قيصر روسيا .
٥٧٤	[وثيقة رقم ٩] : معاهدة قينارجة .
٥٩١	[وثيقة رقم ١٠] .
٥٩٣	الفهارس .
٥٩٤	فهرس الأعلام والمواضع والبلدان .
٥٩٥	فهرس مصادر ومراجع التحقيق .
٦٠٢	فهرس محتويات الكتاب .